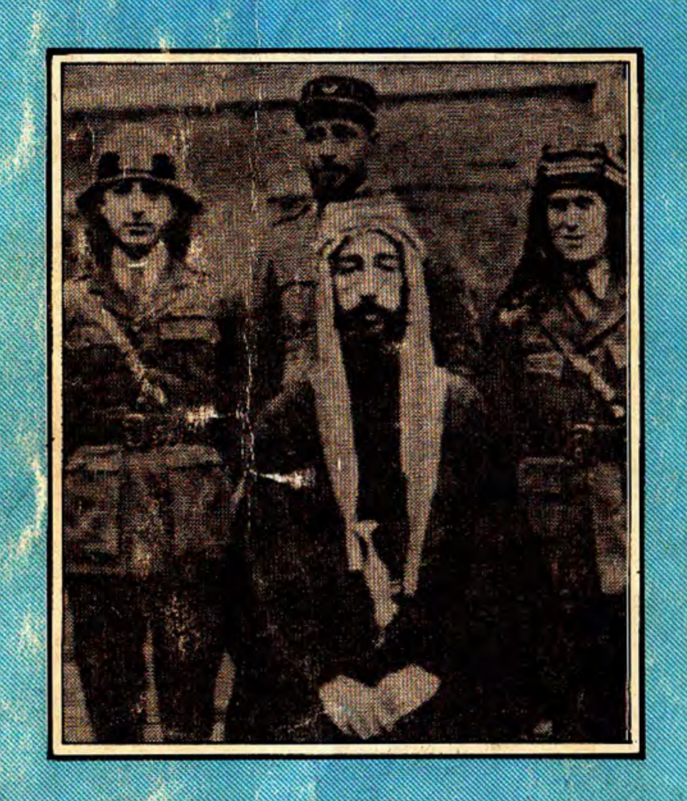
العراق الحديث

من سنة ١٩٠٠ الى سنة ١٩٥٠

الجزء الاول



تأليف
ستيفن همسلي لونگريگ

ترجمة وتعليق
سليم طه التكريتي



العراق الحديث

من سنة ١٩٠٠ الى سنة ١٩٥٠

تاريخ سياسي، اجتماعي، واقتصادي

الايداع في المكتبة الوطنية ٤٢٥ لسنة ١٩٨٨

طبع بمطبعة حسام

العراق الحديث

من سنة ١٩٠٠ الى سنة ١٩٥٠

تاريخ سياسي، اجتماعي، واقتصادي

تأليف
ستيفن همسلي لونكريك

ترجمة وتعليق
سليم طه التكريتي

الجزء الأول

الطبعة الأولى - بغداد ١٩٨٨

منشورات الفجر
شارع السعدون ٨٨٨٥٤٨٨ - ٧١٩٨٤٢٢

الطبعة الاولى ١٩٨٨

«اجل انا ! اجل انا ! مهما كانت صفة القلب»
«الاخر ، الذي كنت اضمه بين ضلوعي في الايام الخوالي البعيدة»
«ان كنت انا هو الذي كان ينظر الى الشيء الصافي»
«الذي اخذ يتكون من حوله !

من قصيدة «تثموس» للشاعر الانكليزي «الفريد تنسون»

عنوان الكتاب باللغة الانكليزية

IRAQ

1900 - 1950

APOLITICAL, SOCIAL, AND ECONOMIC HISTORY

BY
STEPHEN HEMESLEY LONGRIGG
ISSUED UNDER THE AUSPICE OF
ROYAL INSTITUTE OF INTERNATIONAL AFFAIRS
1968

الإهداء

إلى زوجتي المرحومة أم رياض
التي شاركتني حمل الشدائد وشظف العيش
وبطش الطغاة من الحاكمين
والتي ما تزال روحها ترفرف في سماء حياتي
تهبني العزم على قطع الطريق السوي الذي
اختططته لحياتي ، الدفاع عن الحق ، والكشف
الامين الخالص لكل جوانب تاريخ العراق العظيم
بماضيه ، وحاضره ومستقبله
تحية واجلالاً لذكراها العزيزة العطرة .. .

بغداد ١ حزيران ١٩٨٣ سليم طه التكريتي

تقديم

مايزال الاحياء الواعون الذي عاشوا تأريخ العراق القريب ، في العهد الملكي يتذكرون جيداً المزيد من الحوادث المهمة التي حفل بها ذلك العهد ومارافقها من العواصف الشديدة متعددة البواعث ومختلفة النزعات والغايات ، التي كانت تعصف بالحكم انذاك منذ مولده حتى انهياره

ومع ان المام امثال هؤلاء الاحياء ، وقد اصبح عددهم الان قليلا جداً بالاوضاع الراهنة في تلك الايام كان كبيرا الا ان كثيرا من حقائق الامور ماتزال بعيدة عن ادراكهم فكيف بجيلنا الجديد الذي لايعرف اي شيء من تلك الحقبة بل ربما يجهل تأريخ العراق بأكمله قديمه وحديثه ؟

ان هذا الكتاب الذي نقدم الترجمة الامينة الكاملة له ، يشتمل على سرد كامل رغم ايجازه ، للخمسين سنة التي مر بها تأريخ العراق منذ سنة ١٩٠٠ الى سنة ١٩٥٠ وهي فترة تعد بكل حق وحقيقة ، نقطة تحول اساسية كبرى في حياة الشعب العراقي كله ، ذلك لان العراق قد اصبح في اعقاب الحرب العالمية الاولى ، بلدا ينعم لاول مرة بعد مئات من السنين المتوالية بنوع من الحكم والتنظيم لم يكن موجوداً قبلا ، ولم يألفه سكانه قط لان هذا الحكم كان يقوم على اسس وافكار جديدة مغايرة ، انها اسس الدمقراطية البرلمانية الغربية التي سارعت امم الشرق ومن ضمنها امتنا العربية الكبيرة الى تقليدها ومحاكاتها في ظل انظمة حكم هزيلة لم تتوفر لديها اسباب القوة لتطبيق تلك الديمقراطية ، ويطغي عليها الفساد ، والمطامع الذاتية الضيقة ، وهيمنة التأثير الاجنبي ، وتسلطه ، وتحكم العقلية العشائرية الجامدة الضيقة المشبعة بالتعصب العرقي والطائفي ولئن احاق الفشل الذريع بالاساليب التي اريد بها تطبيق الدمقراطية الغربية فان مرد هذا الفشل يعود قبل كل شيء الى تنكب الطريق الدمقراطي الصحيح في اسلوب الحكم ، والانهماك في المنافع الخاصة والتأثر بالحزازات ومختلف انواع التعصب البغيض ولقد كانت حصيلة ذلك كله ان الديمقراطية لم تعد مشوهة حسب ، بل غدت ممقوتة

ايضا ليس من قبل الذين لم يتقبلوا بها اصلا ، بل حتى من اشد المدافعين عنها ، مما كانت له نتائجه الخطيرة على الوضع العام في البلاد

ان مؤلف هذا الكتاب ، وان كان من ضباط الحملة البريطانية التي احتلت العراق خلال الحرب العالمية الاولى ، الا انه كان صاحب فكر نفاذ ، استطاع خلال فترة قصيرة لم تزد عن ست عشرة سنة ، الى جانب عمله في ادارة الاحتلال وخدمة العهد الملكي ، ان يستغل ماتوفر لديه من وقت في الغوص في دراسة تأريخ العراق الحديث ، فيخرج بذلك كتابين يعتبران من اهم ما كتب عن العراق الحديث ، اولهما كتابه «اربعة قرون من تأريخ العراق الحديث» الذي ترجمه المرحوم جعفر خياط ، وصدرت له خمس طبعات ، وثانيهما هذا الكتاب الذي نقدم ترجمته الآن ، والذي يعد مكملا للكتاب الاول لأنه يبدأ من حيث وقف ذلك الكتاب

ومع ان المؤلف يمثل ذات النظرة الغربية المألوفة تجاه الشؤون الدولية ، وقضايا الشعوب المغلوبة على أمرها ، تلك النظرة التي قد لاترضي بعض الوطنيين ، الا ان تحليلاته للاوضاع التي مر بها العراق خلال تلك الفترة كانت في معظم الاحيان صائبة ، ودقيقة ، وموفقة مما يكسب كتبه قيمة كبيرة ، واهمية ليست بالقليلة ، وهذا هو الذي حفزنا الى ترجمة هذا الكتاب ونشره ، ونسأل الله سداد الطريق ، كما نسأل القارىء أن لا يضن علينا بأي رأي او ملاحظة عن كل مايراه في ثنايا الكتاب من مآخذ او هفوات

بغداد ١ حزيران ١٩٨٣

سليم طه التكريتي

مقدمة المؤلف

مضى اكثر من ربع قرن (١) منذ ان اقدمت – وانا موظف شاب لدى الحكومة العراقية – على نشر كتاب يثمن اربعة قرون من تأريخ تلك البلاد ، والذي ينتهي بالسنة ١٩٠٠

ولم يكن ذلك العمل التجريبي الناقص – حسبما اعلم – قد تم التخلي عنه، واذ يظهر الآن وجود متطلب للاستمرار في تأريخ عصور متأخرة ، فقد حاولت في هذا الكتاب الآن ، ان اقدم على انجاز هذه المهمة

لقد اشتمل ارتباطي بهذه البلاد ، ذلك الارتباط الذي ظل متواصلا منذ سنة ١٩١٥ على اقامة فيها استمرت ست عشرة سنة ، وكانت تعقبها زيارات سنوية ، واكثر من سنوية ، نالت تقبل صداقة العشرات من العراقيين على مختلف المستويات ، بل ربما شملت ثلثي الافراد الذين اشير اليهم في هذه الصفحات

لقد تعاظم الاهتمام الذي قدمه العراق فيما سبق للعالم ، اي بالنسبة الى التأريخ ، والستراتيجية ، والاقتصاد ، والتكوين الاجتماعي ، ليس بصفة اقل ، بل بصفة اعظم خلال الجيل الماضي فعلى حدة من الاهتمام الشخصي المحبب الذي يشعر به الكثيرون من اصدقاء العراقيين ، فان الاحوال التي احاطت بتأسيس دولتهم ، والوصاية عليها ، وانعتاقها ، والفضائل والمزايا التي تتمتع بها ، باعتبارها دولة مستقلة ، وتطورها الاجتماعي والثقافي والذي يصور التأثير المعتاد والصعب معا ، الذي يفرضه الغرب على الشرق ، وابرازها لصفتها القومية ، ومشاركتها في السياسة العربية والتكتلات الدولية ، وتطورها المادي ، ومستقبلها المتوقع فكل هذه الامور يجب ان تساهم في حبك قصة جديرة بان تقص اذا ماتم قصها بصفة صائبة

---

(١) يقصد المؤلف بذلك الفترة التي سبقت صدور الطبعة الاولى من هذا الكتاب في سنة ١٩٥٣ ونود ان يدرك القارىء باننا سوف نرمز الى هوامش المؤلف بالرمز «٠» في حين نضع لتعليقاتنا وهوامشنا ارقاما متسلسلة لكل فصل من فصول الترجمة

المترجم

وفي الوقت ذاته ينبغي علي ، وربما على بعض القراء ايضا ، ان نأسف لخلو هذه الصفحات من اسماء كثير ، بل من معظم الشخوص القبلية ورؤساء القرى ، والمشاهير من سكان المدن ، وارباب الحرف ، الوضيعين منهم والبارزين ، في ميدان الوظيفة ، او الحياة العامة ، اولئك الذين كانوا موجودين ومعروفين معرفة جيدة في العراق ، في هذا الجزء او ذاك من هذا القطر المتغير الواسع ، ذي الاهمية العميقة

والامر الذي يدعو الى الاسف حقا ، هو انه لن يظهر في هذا التاريخ ، سوى القليل من عنصر الحياة الاجتماعية هذا ، والغني بالكثير من الشخصيات المعبرة المتجاوبة ، والشهيرة غالبا في هذا القطر والحقيقة ان افضل مايقدمه العراق من مجاملة ، ومتعة ، وعطف يجب إن لايتم تدوينه هنا

لم تتم بعد تلبية الحاجة الماسة الى تقييم عام لنصف القرن الاخير الذي قطعه العراق هناك اوراق دبلوماسية ، وتواريخ عسكرية ، ومراسلات ، وقصص الرحالين ، والكتابات العراقية السياسية ، والصحافة الواسعة ، وتراجم المشهورين ، وقلة من مدونات الباحثين والاخصائيين . ولكن يظهر انه لايوجد كتاب واحد يهدف الى ان يصبح شاملا وموثوقا به معا ، بالصفة التي يسمح بها تغير الاحداث ، وتلازمها الوثيق

لقد كنت امل ان اكون معينا للقارىء المعاصر ، وللمؤرخ المستقبل معا ، في تكوين احكام صائبة ، وفي تجنب الاخطاء التي تقع ، وذلك بان اعطيهما المدخل لصورة موضوعية ، عما فعله العراق ، وقاسى منه ، وتلقاه ، وساهم فيه ، خلال هذه الخمسين سنة

لقد كان التصميم الذي قمت به في سنة ١٩٢٥ لأن اختم حديثي عن «القرون الاربعة» (٢) بالسنة ١٩٠٠ تصميما حكيما ، لانه تجنب الاشارة الى الشخوص التي برزت على المسرح العراقي ، وما تزال اكثريتها على قيد الحياة ، وكان افرادها من اصدقائي في كثير من الحالات انني لا استطيع في هذا الوقت ان اتجنب مخاطر مثل هذه الاشارات ، وانني لاتوقع الدهشة المؤلمة من لدن هؤلاء الذين قد يشعرون بانني قد اسأت تشبيههم ، او انني قد اسأت الحكم عليهم

اما الاخرون فانهم يشتملون على بعض من ابناء وطني ، ولذلك فانهم سوف يأسفون لان اسماءهم لن تجد مكانا لها في هذه الصفحات ، على الرغم من الخدمات المعجبة التي قدموها ، والتي لا استطيع ان اتجاهلها فمهما كانت جهود الانسان صائبة ، فلا يمكن ان تكون مغايرة في

---

(٢) اصدر المؤلف كتابه «اربعة قرون من تأريخ العراق الحديث» في سنة ١٩٢٥ وبعد قيام ثورة تموز ١٩٥٨ اصدر المؤلف مع صديق له يدعى «ستوكس» كتابا جديداً الخص فيه كتابه «العراق ١٩٠٠ ١٩٥٠ ، واضاف اليه بعض الفصول عن الحوادث التي شهدها العراق بعد سنة ١٩٥٠ وهذا الكتاب مدرج في قائمة الكتب المهمة التي نعكف على ترجمتها ونشرها في مستقبل قريب بعون الله وللمؤلف كتاب مهم عن الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان .

الواقع ، مادام المؤرخ الذي يتعرض للخطر ، مضطرا - كما هي حاله - الى الاضافة والحذف فالامر المؤكد هنا هو ان الخدمة المفيدة كثيرا للعراق لم تدون هنا وان كاتباً اخر قد يحسن الحكم ، بصفة مختلفة ، على تصرفات كثير من الافراد ، ودوافعهم ، وحركاتهم ، او العوامل التي لعبت ادوارها في هذه الصفحات ذلك لانني متأكد من ان نواقص هذا الجهد لن تكون واضحة لاي قارىء بالشكل الذي اراه انا ذلك لان الضرورة التي تستلزم الضغط ، وتتجاوز التبسيط ، وتكون في الغالب مصحوبة بمعرفة غير كاملة ، قد ادت الى نتائج ينبغي علي ان استنكرها في صفحة بعد اخرى ، لانها ليست تامة بالنسة الى إهمية مادة الموضوع

ان عراق سنة ١٩٥١ يمثل بلداً يطغى عليه احساس ، وان كان متزايدا غير انه ليس تاما ، بالوحدة وبالمواطنة وليست لديه اية مطاليب معقولة ، او انه يحس بالحيف ازاء اي بلد اخر . كما انه نفسه ليس عرضة لمطالب اخرى ، ذلك لانه حدوده مثبتة ، ومناخه ضحي ، وشعبه في ازدياد وتقدم ، وهو يمتلك الوفير من الاراضي الخصبة ، والمياه التي يمكن التحكم بها ، والتأكد بان هذين المصدرين ، الاراضي الخصبة والمياه ، قادرين - مثلما حدث ذلك اثناء العصور القديمة - على انتاج ثروة مادية هائلة كذلك ضمن القطر استغلال موارده المعدنية ذات الثروات الاستثنائية ، لتهيئة الاموال وفي ذات الوقت لغرض النهوض بتطوير الخدمات الاجتماعية

هنالك القليل من البلدان التي باركتها الطبيعة ، فوهبتها المواد اللازمة لتحقيق الحياة الصالحة لمواطنيها وهؤلاء المواطنيين اذكياء بصفة غير اعتيادية ومستعدين ، في ذات الوقت ، لانجاز التقدم وعلى هذا فان التوسع المتنوع في هذا التقدم وادخاره ، سوف يكون متوفرا

ان الآمال الرفيعة للعراق لايمكن ان تكون قد صيغت بشكل غير معقول ، سواء من لدن شعبه او من قبل اصدقائه الاجانب ، وهم كثيرون ومخلصون ، ولسوف يستطيع هؤلاء الاصدقاء وانا نفسي من ضمنهم ، ان يراقبوا بكل سرور تقدم هذه الامة وسعادتها ولتحقيق هذه الاهداف يكون الاستقرار والديمومة من الشروط التي لامعدى عنها وينبغي للجميع كما يبدو ، بان يعتمدوا على قابلية هذه الامة ومن ورائهم الجمهور ايضا ، وان يديروا ظهورهم للزمرة الانانية ، وللتكلف المتعب ، وان يحافظوا على حسن نوايا الاصدقاء والاقوياء بين الدول ، وان يكون الهدف الرئيس او الوحيد ، الذي يختارونه ، هو توفير «اعظم سعادة للعدد الاكبر» من ابناء شعبهم ، وان ينفقوا اموالهم باحساس جيد وباعتدال

لايستطيع اي مؤرخ للحوادث الجارية او المتأخرة ان يشعر بالثقة بانه قد اطلع على كل مصادر المعلومات التي نشرت عن تلك الحوادث وليست لدي انا مثل هذه الثقة وكل ما استطيع ان امله هو ان الفهرس الذي وضعته للمصادر ، وهو يهدف الى الايجاز وليس الى تضخيم اطروحة المؤلف ، ان هذا الفهرس لم يحذف منه في الواقع ، اي كتاب له قيمته

لقد استعملت النطاق المتغير والمختار من الصحافة المعاصرة . والمطبوعات الدورية في العراق ، وفي بريطانيا وفرنسا وامريكا وايطاليا وكذلك كتب التأريخ والاطروحات التي نشرت في هذه البلدان كما انني قد استفدت من الاتصالات الشخصية الوثيقة بالاوضاع في العراق ، خلال معظم المدة التي يشملها هذا الكتاب وانني لمدين ، بصفة استثنائية ، الى المساعدة السخية التي نلتها من الاصدقاء العراقيين والبريطانيين ، من ذوي الخبرة والمعرفة الحديثة ومن بين هؤلاء الاصدقاء اود ان اشكر ، بصفة خاصة ، السيد توفيق النقيب مدير الموانيء في البصرة ، والسيد سلمان جويدة مدير جمعية التمور ، والسيد «كلت» مدير الميناء ، والسيد خليل كنة وزير التربية ، والسيد «دتشبورن» رئيس التفتيش الاداري ، والسيد «ستوكس» مدير شركة النفط العراقية ، والسيد «اوستن» الموظف السابق في الحكومة العراقية(٣) ورئيس المستشارية السياسية اثناء الحرب العالمية الثانية ، والسيد «غمبل» من القسم التجاري في السفارة البريطانية ، والسيد «بيج» و «جابمان» من شركة النفط العراقية ، والسيدين «هاردي» و «اتكنسون» من مديرية الري ، والسر هاري سندرسن ناظر الخدمات الصحية العراقية ذي القابليات الكثيرة (٤) والدكتور كراتشلي في ذات الدائرة والسيد «بتري» من شركة مسبرس ، والاستاذ «ملوان» مدير دائرة الاثار البريطانية في العراق

ولقد اطلع السادة التالية اسماؤهم على النسخة المطبوعة من هذا الكتاب على الالة الطابعة ، واجروا عليها التعليقات والتصويبات القيمة ،وهم كل من السر ريدر بولارد ، والسيد ادمونز ، والسيد ستورج ، وهم ممن امضوا سنوات في مراكز المسؤولية في العراق. كذلك قرأ ولداي هذه النسخة ولكن لم يجريا اية تعليقات نقدية عليها

ولقد تلقيت المساعدة الحفية من البعثات التبشيرية او الهيئات الدينية العاملة في العراق ، واخص بالذكر منهم ، الاب «مريك» والاب تنمر من الدومينيكان في الموصل ، ومن السكرتير العام لجمعية الاليانس اليهودية في باريس ، ومن المتحدثين او المراسلين الممثلين للبعثات التبشيرية في العراق

وقدم الي كثير من الاصدقاء معلومات شفهية واخرى تحريرية منهم السيد «الارد» المدير السابق للري ، والسيد سوان المستشار السابق لوزارة المالية ، والسيد غمبلي ، المفتش العام السابق للبرق والبريد والسيد «كابرن» المستشار الفني السابق لوزارة المواصلات والاشغال ،

---

(٣) تولى (اوستن ، منصب مدير تسوية الاراضي في العراق سنوات عديدة

(٤) طبيب العائلة المالكة في العراق وقد ترجمنا مذكراته واخرجناها في ثلاث طبعات فاخرة خلال سنة ١٩٨١ – ١٩٨٥ وربما اصدرنا لها طبعة جديدة منقحة في وقت قريب

والدكتور احمد سوسة (٥) مهندس الري والمؤلف ، والسر جون بريجارد رئيس محكمة التمييز في العراق سنة ١٩٥١ ، والسيد درويش الحيدري مدير الزراعة العام ، والسيد طارق العسكري ، وهو الآن من طلائع العاملين في ميدان الزراعة العلمية في العراق ، والسيد توفيق وهبي الوزير السابق والمتخصص في الشؤون الكردية (٦) والحاكم عبد الحافظ طه الذي كان يعمل في شركة نفط البصرة ، والسيد «هيغ» رئيس هيأة الري خلال الفترة ١٩٤٦ – ١٩٤٩ ، وولدي ج س لونغرغ من موظفي السفارة البريطانية ببغداد ، والسيد «ماليت» من السفارة البريطانية ، والسيد «بيلي» مدير دائرة البرق والبريد

واذ جوبهت بالمشاكل المعتادة للترجمة من العربية الى الانكليزية فانني اعترف بانني ربما قد وقعت في حالات من عدم التثبت ، لكنني امل ان تكون معظم الكلمات قد ترجمت ترجمة صافية

ايار ١٩٥٢ (٧)

ستيفن همسلي لونكريك

---

(٥) توفي المرحوم د احمد سوسة بحادث سيارة في اليوم الاول من شباط ١٩٨٢ ، وترك وراءه ثروة واسعة من المؤلفات القيمة بالعربية والانكليزية وبعناية ابنته الدكتورة «عالية» اصدرت وزارة الثقافة والاعلام في سنة ١٩٨٣ اخر مؤلفاته المهمة «تاريخ حضارة وادي الرافدين» الذي يقع في جزئين .

(٦) كان السيد توفيق وهبي يعيش في لندن منذ سنوات وقد توفي في اذار ١٩٨٤ ونقل جثمانه الى العراق

(٧) صدرت الطبعة الاولى من كتاب العراق ١٩٠٠ – ١٩٥٠ في سنة ١٩٥٣ والثانية في سنة ١٩٥٦ والثالثة وهي التي نقدم هنا ترجمتها.

الفصل الأول
عراق سنة ١٩٠٠

١ ـ الولايات الثلاث
٢ ـ القطر والسكان
٣ ـ الفرس والعرب المتجاوبون
٤ ـ المجتمع العراقي ـ المدن
٥ ـ المجتمع العراقي ـ العشائر
٦ ـ الموارد والمواصلات
٧ ـ الحكومة

١ ـ الولايات الثلاث

«ليست بغداد بعيدة عن المشتاق». و «ان بياناكاذبا قد يعود حتى من بغداد» بهذه الامثال واشباهها كان اتراك اسطنبول قبل نصف قرن من الزمن، يعترفون بالبعد الذي تقع عليه اراضي نهري دجلة والفرات فالولايات الثلاث سوف تصبح في يوم ما «المملكة العراقية التي تقع في الواقع على الحدود القصية جدا للمتلكات التركية». في الوقت الذي لم يكن فيه الاتراك يسكنونها كانت هذه المملكة بالاحرى، تعود الى الامتداد الشمالي لشبه الجزيرة العربية، واصبحت تؤلف النصف الشرقي من هلالها الخصيب. وكان قطر العراق في الايام القديمة يؤلف الولاية العباسية من العراق وجزءا من الجزيرة. وفي القرون الثلاثة الاولى من الحكم التركي، اتحدت في ولاية واحدة هي ايالة بغداد، وهي واحدة من اعظم ولايات الامبراطورية التركية التي يحكمها باشا يحمل الراية ذات الاذناب الثلاثة[1]

وبفضل شهرتها القديمة وموقعها الستراتيجي، ونطاقها الحالي، كانت بغداد على الدوام تحتفظ بالسيادة الهينة على المدينتين الاخريين المتجددتين في العراق، اي الموصل والبصرة. وحتى في سنة ١٩٠٠ وبعد ان ظهرت الموصل في صفة ولاية سنة ١٨٧٩، والبصرة في سنة ١٨٨٤، كان والي بغداد يعتبر على مستوى واسع هو كبير الولاة الثلاثة.

وهذا الاقليم الثلاثي يحده من الشمال، وسط ذو جبال موحشة سواء منها جبال «حكاري» التابعة الى ولاية «وان»، ومن الشمال الغربي جزء قصير من قضاء «جزيرة ابن عمر» في «ولاية ديار بكر». اما من الناحية الغربية فيحده لواء «دير الزور» المستقل الذي انشئ حديثا. وتمتد الحدود في اقصى الجنوب حتى منتصف الخدود الصحراوية لولاية دمشق، ومن ثم تعبر باتجاه الجنوب صحاري شمالي الجزيرة العربية حيث تمتد فيما وراء ذلك اقاليم الواحات العربية. وكذلك تحده من الجنوب ايضا مياه الخليج العربي وعلى امتداد شواطئه الغربية عند المناطق العربية البحرية التي ادعت تركيا السيادة عليها وضمتها بصفة رسمية الى ولاية البصرة.

---

(١) تحدد الرايات التي كانت تسلم الى الولاة في العهد العثماني بعدد الذيول فيها. وهي تكون على ثلاثة اقسام عادة الاولى هي ذات الذنب الواحد، والثانية ذات الذنبين. اما الراية ذات الاذناب الثلاثة. فانها تعتبر اكبر درجة يبلغها الوالي عند تعيينه واليا، ولاعلاقة لاذناب هذه الراية، بالولايات الثلاث التي كان العراق ينقسم اليها في ذلك العهد، وانما هي من صنوف الدرجات ليس الا

اما في ناحية الشرق فان الولايات الثلاث كلها تجاور بلاد فارس[٢]، وهذه الحدود هي حدود العراق الحديث، ماخلا بالنسبة لثلاث خاصيات. ذلك ان الحدود مع فارس ماتزال غير مخططة، وان الخط الذي تمت مراقبته، واستخف به، ينبغي تعديله في اماكن كثيرة حسب اتفاقية سنة ١٩١٤[٣]

اما الحدود مع ولايتي «وان» و «ديار بكر» فقد ثبتت في سنة ١٩٢٦، ومع سوريا في سنتي ١٩٢٢ و ١٩٣٣، ومع حكام الجزيرة العربية في سنة ١٩٢٢ اما اقاليم الاحساء، وقطر، والكويت فلم تعد تعتبر اقاليم تركية قبل الحرب العالمية او خلالها، ولذلك فانها لاتخص المؤرخ الذي يكتب عن العراق. ولقد تقررت مكانة العراق في الامبراطورية التركية، بعوامل مختلفة. ذلك لان بعدها، ولان سكانها من غير الاتراك، وقسوة جوها، كل هذه كانت من الاعتبارات التي جعلت كل الخدمة في العراق تمثل الفزع لمعظم الموظفين، ولذلك فان قلة من هؤلاء الموظفين في الواقع قد ساهموا في تصحيح هذه الشهرة السيئة عن العراق وذلك عن طريق التحدث عن الاعتبار والامجاد التي كانت تتغنى بها بغداد، وتاريخ نضالها الطويل ضد الجيوش الفارسية، ومحاولاتها الناجحة للانفصال.

ان التقدم الذي اوجدته الثقافة التركية في بعض الاوساط العراقية، لم ينتقص سوى القليل من الصفة العربية التي كانت تشاركها فيها بصفة متساوية، الولايات المتأخرة في الحجاز وفي اليمن، وفي افريقيا الشمالية، وتشترك مع هذه الولايات، ولاية لبنان المعقدة كثيرا.

تتجاوز مساحة الارض العربية كلها بقية اراضي تركيا، وهي تحتفظ بوحدة ثقافية، وتختلف عن الممتلكات التركية، في قضايا العرق والتاريخ واللغة والجو الاجتماعي والعادات. ومثل بقية الولايات العربية، بصفة عامة، فقد جعل العراق بشكل خاص سلطات الحكومة التركية في تماس مع القضايا الاجنبية ذات الذوق الخاص. فالخليفة لم يشغل نفسه بمدى اخلاص العنصر الذي كان يهيمن على المدن المقدسة في الحجاز، وعلى الاضرحة الشيعية في الفرات وضريح الشيخ عبد القادر الكيلاني في بغداد، ذلك لان على الذين يتحدثون بلغة الاسلام الواحدة ويسكنون في اراضيهم، ان يهيمنوا على المزيد من مشاعر لغة الاسلام الموحدة الحية في الاقطار الاسلامية فالى هذه الحقيقة والى مجرد الفخفخة، تعزى الجهود المتوالية التي كان الاتراك يبذلونها لاكمال مالم يستطيعوا في النهاية ان يحققوه الا وهو افتتاح الجزيرة العربية. فالفتوحات التي حققها

---

(٢) فضلنا استعمال كلمة بلاد فارس، لان كلمة ايران لم تطلق الا بعد ان ثبت رضا بهلوي سلطنته بعد سنة ١٩٢٦، واحتل [illegible] من امثال اقليم الاحواز العراق العربي، واذربيجان، والاقسام الشمالية الشرقية من اراضي كردستان، وقد [illegible] من العراق، وعلى الاخص الاقاليم المتاخمة لمنطقة السليمانية، والتي كانت مدينة «سنة» او «سنندج» عاصمة لها

الاتراك على سواحل البحر الاحمر، والاحساء وعمان، قد افلتت في النهاية من ايديهم، بعد المحاولات العدوانية المحيفة المضعفة، والتي كان العراقيون من المشاهدين لها. وهذه المشاهد لم تقلل شيئا من التنافر الملزم المتبادل، الذي كان يسم بصفة عامة، مواقف الاتراك والعرب.

ومع كل ذلك فلم تحظ ولايات العراق الا بالضئيل من الاهتمام الذي كان حيويا لمركز الخليفة. فما خلا شهرته في التاريخ والدين الاسلاميين، كان للعراق مطلب او ادعاء اخر. ذلك لانه من هذه الولايات المهملة، والبعيدة جدا، كانت تصل حكايات تتحدث عن ثروات محتملة هائلة، وتوقع تطور مقبل عظيم الاهمية. في السنوات الاخيرة من القرن الماضي لم يكن الرحالون والدبلوماسيون الاجانب وحدهم حسب، بل وحتى الاتراك انفسهم والباب العالي والولاة المتطلعون الى التقدم، كل هؤلاء كانوا يتحدثون عن انشاء السكك، ومشاريع الري، واستغلال المعادن، وتوسيع الملاحة في الانهار، وبناء الجسور، وتخطيط المدن، في سنة ١٩٠٠ لم تكن مثل هذه التصاميم لتتقدم فيما وراء مرحلة الانتظار الكسول او المشاريع الوهمية. ذلك لان امراض الفقر المدقع، وجهل الحكومة، وانعدام الامن، كل ذلك قد حال دون تنفيذ اي جزء من هذه المشروعات. ولكن هذه المشروعات ظلت حية في الاحاديث التي تدور في الدواوين والمقاهي، وحققت للعراق مدى من الاهتمام والاحترام.

اصبحت هذه البلاد، العراق، بالنظر الى الاوربي خلال قرن مضى معروفة الى حد ما، وذلك عن طريق ذات الاحلام ومشاريع التنمية، تلك المشاريع التي قيمت نسبها تقييما جيدا ربما في لندن او بطرسبرغ[٤] بدلا من اسطنبول، والتي لم تخل من رائحة المنافسة الدولية.

لقد كانت للعراق طيلة سنين طويلة مكانته في التجارة الدولية، اضافة الى الاهتمام بخطوط النقل النهري والبحري، ولدى الباحثين عن الاسواق الذين تشجعوا بفتح قناة السويس. وظل العراق منذ زمن طويل يحظى باعجاب الطلبة الذين يدرسون التأريخ القديم، وتاريخ التوراة والدين الاسلامي.

ولقد ادهش العالم بالكشف عن مواقعه الاشورية والبابلية والسومرية التي تم التنقيب فيها عن الاثار. كما انه كان يهيئ مدخلا طيلة ثلاثة قرون، امام مشاريع التبشير الكاثوليكية والبروتستانتية. ولقد قدر الستراتيجيون فيما بعد قيمته الستراتيجية، باعتباره الان هو البلد الوحيد الذي يتصل بالخليج العربي، وباعتباره بصفة عامة اكثر، هو الجسر التقليدي الذي يربط بين الشرق والغرب.

اما بالنسبة الى بريطانيا، فان العراق او نصفه الجنوبي كان يؤلف جزءا من «مجال الاهتمام» بالخليج العربي الذي انشأت فيه الدبلوماسية البريطانية طيلة قرنين من الزمن، لها موضعا فريدا

---

(٣) بطرسبرغ من اشهر موانئ روسيا وتعرف الان باسم لنينغراد لان الثورة الشيوعية قد بدأت فيها قبل غيرها من اجزاء روسيا في سنة ١٩١٧.

هناك. فلقد كان القضاء على الاسلحة، ونقل الارقاء، والقرصنة، ووضع الخرائط، والعلامات لارشاد السفن، والاضوية في القنوات، من الانجازات التي لها قيمتها الغالية. ولذلك كان رجال الدولة البريطانيون يشعرون ان احسن مكافأة لهم هي التحرر من المنافسة في مياه الخليج وشواطئه، والعوائق القائمة في شط العرب. وتشترك في ذلك ايضا، المصالح التجارية، والملاحة في المحيطات، والطريق الستراتيجي الى الهند. ولذلك كانت نسبة عالية من وسائط النقل في البصرة بايدي البريطانيين، بالاضافة الى تسعة اعشار حمولة البواخر التي كانت تستعمل في ذلك الميناء.

اما في العراق فان البواخر التي بقيت للسير في نهر دجلة، كانت بواخر بريطانية، وكانت الشركات البريطانية الهندية تمارس اعمالها في كل من بغداد والبصرة.

كان الحجاج الهنود يصلون بالمئات لزيارة الاضرحة العراقية. وكانت الاموال التي تتبرع بها مؤسسة «الاودة» يقوم بها المقيم البريطاني منذ عهد طويل مرتين كل سنة، لكي توزع بصفة صدقة بايدي المجتهدين الشيعة في النجف وكربلاء، وتلك مهمة حصل منها هؤلاء المجتهدون على قدسيتهم، وادى رفضهم الاشراف عليها وجشعهم، كما زعم، الى عملية مربكة ومحزنة.

ولقد كان البريطانيون هم طلائع الاثاريين الذين عملوا في العراق من امثال لايارد، ورولنصون، ولوفتس، وتايلر، الذين جربوا ذلك العمل في اقدم فترة، ثم اعقبهم كل من بدج، وكنغ، في فترة متأخرة.

قامت بعثة من جمعية التبشير الكنسية بانشاء كنيسة ومستشفى لها في بغداد سنة ١٨٨٢ ثم مالبثت ان مدت اعمالها الى الموصل فيما بعد.

واذ كان المقيم البريطاني والقنصل البريطاني العام في بغداد، يراقبان كل هذه المشاريع فانهما كانا يرأسان هذه المؤسسات المهمة اكثر من اي من الممثلين الاجانب. فهما بطبيبهما الجراح ومستوصفهما في دار المقيمية، وبباخرتهما النهرية «كوميت»[٥] التابعة للخطوط البحرية الهندية الملكية، وحرسهما المولف من الهنود، ودوائر البريد الهندية التي تصل الى الاقاليم البعيدة ومقيميهم المتعاقبين، قد اجبرتهم غيرة الولاة منهم على ان يخوضوا نضالا شاقا في سبيل الاحتفاظ بامتيازاتهم.

كان المقيم البريطاني ينتمي عادة الى الخدمة السياسية الهندية. وقد نقل قنصل البصرة بعد سنة ١٨٩٨ الى الخدمة القنصلية في بلاد المشرق[٦] وكان هناك نائب قنصل من جنسية هندية يقوم [illegible] ١٨٩٣ بمراقبة مصالح الزوار الهنود، وتوزيع مبالغ هبات مؤسسة «الاودة» هناك. [illegible] منصب مماثل لذلك في الموصل كان يتولاه احد المسيحيين المحليين.

[illegible] على هذه الباخرة اسم «كمت»

[illegible] وفلسطين.

كان الموقف ازاء الخدمة في الدولة في العراق خلال سني التسعينات من القرن الماضي، بالنسبة لاي مشروع بريطاني او اجنبي حتى وان كان مقبولا من الناحية الاجتماعية بالنظر الى كل الافراد – ينطوي على الشك. فلقد تنوسيت منذ زمن طويل ايام الايلجي الكبير[٧] وفي الوقت الذي لم يكن يوجد فيه اي منافس للبريطانيين في اسطنبول.

ذلك لان احتلال الانكليز لكل من قبرص ومصر، والموقف البريطاني ازاء مذابح الارمن، والكلمات الشديدة التي اطلقها «غلادستون» كل هذه قد كلفت صداقة بريطانيا للباب العالي، الشيء الكثير، وادت الى اتخاذ موقف ينطوي على الغيرة، واثارة مشاعر المسلمين ضد الاجانب المتطفلين.

وكانت الطلبات الصريحة المتواصلة لرجال العشائر العراقية في الحصول على المساندة البريطانية، وان كان يجري رفضها بصفة صائبة من لدن المقيم او القنصل، كانت تثير الباشاوات بصفة خاصة، وتجعلهم مع قسم من الرأي العام، يصدقون مطامع البريطانيين في الاراضي العراقية ذاتها، مما دفعهم الى بناء حصن طين تافه في «الفاو» لصد الغزاة!

ولقد جاء اهتمام روسيا بولايات العراق، بعد اهتمام بريطانيا بوقت طويل. فالقنصلية الروسية التي اعيد انشاؤها في بغداد سنة ١٨٨٩ كانت تدرك على الاقل، عن طريق جواسيس لها من الارمن، اصرار الروسيا على التغلغل في الاقسام الشمالية الغربية من فارس، وفي اطراف ولاية «وان» وحتى في الجبال الواقعة في اقضية ولاية الموصل ذاتها. ذلك لان القنصل الروسي في البصرة ومساعده، ومجموع موظفيهما البالغ عددهم ثلاثين شخصا وهم من الفرس، كانوا جميعا يعتبرون من الرعايا الروس بصفة اسمية ولم تكن لديهم سوى واجبات اخرى قليلة. ولم تطرح على بساط البحث مسألة حماية الروس للمسيحيين الارثوذكس الا نادرا. وذلك لان عدد هؤلاء الارثوذكس في العراق كان ضئيلا.

اما بالنظر الى المشروعات والامال المتعلقة بمد نفوذ القيصر الروسي نحو اهداف اخرى، فان الروس كانوا في العراق اقل نشاطا مما كانوا عليه في بلاد فارس. ولقد كان الطلب الذي تقدم به «الكونت كابنست» للحصول على امتياز بمد خط حديدي من البحر الابيض المتوسط الى الخليج العربي، وكما سيظهر فيما بعد، هو الذي عجل في عقد الاتفاقية البريطانية مع الكويت سنة ١٨٩٩

وشارك الفرنسيون جميع الاخرين في التعيينات القنصلية في العراق، وعلى الاخص تعيين قنصل لهم في البصرة خلال القرن السابع عشر، وفي بغداد في القرن الثامن عشر، اما في سنة ١٩٠٠ فلم يبق لديهم سوى نائب قنصل في بغداد وكانت مصالحهم التجارية طفيفة في الواقع، واغراضهم السياسية لاوجود لها الا نادرا. وكان لهم المجال في نوعين من النشاط. الاول هو

(٧) الايلجي كلمة تركية يقصد بها السفير.

التنقيب عن الاثار ذلك الميدان الذي ولجه المنقبون الفرنسيون في وقت مبكر من امثال «بلاس» و «فرسنل و اوبير» بينما لعب «دي سارزك» الدور الشهير فيه. اما النوع الثاني فهو في ميدان الكثلكة، اذ لعب الفرنسيون بصفة مطلقة، دور الحماة لجميع الكاثوليك، والموحدين[9] المحليين. ولقد اصبح لهم عن طريق بعثاتهم التبشيرية وقسسهم، والمندوب البابوي الذي كان يقيم في الموصل، تأثير قوي على اكبر عدد من الهيئات المسيحية واكثرها غنى، وهو تأثير وجد فيه المراقبون عنصر القومية الغالية (بتشديد الياء)[10] التي صاحبها الحقد على غير الكاثوليك وعلى الدول التي قد تساندهم. كانت بعثات التبشير قديمة وجمة النشاط وكان الكرمليون الذين اقاموا طويلا في العراق، يحتفظون لهم بمدرستين للبنين، وبمطبعة وميتم ومستوصف في بغداد

اما في الموصل فان الاباء الدومنيكان، وهم من الايطاليين قبلا، ثم اصبحوا من الفرنسيين منذ سنة ١٨٥٩ كانوا هم الاخرون ايضا، يحتفظون بمدارسهم في المدن وفي القرى، وبمستوصفاتهم، وبكلية لتدريب القسس وكنيسة خاصة بهم وبمطبعة حجرية تجارية. هذا في الوقت الذي كانت فيه جمعية اخوات عيد تجلي العذراء وهي من نفس الطائفة، تقوم بادارة المدارس الابتدائية، ومعامل الحياكة بالابرة للفتيات في الموصل منذ القرنين السابع عشر والثامن عشر. وقد مدت هذه الجميعة نشاطها الى بغداد في سنة ١٨٨١، وقطعت هذه الجهود شوطا بعيدا في نشر اللغة الفرنسية، واغنت ثقافة طائفة الموحدين، وشاركت في ايجاد عنصر من التعليم الحقيقي للعالم المحلي. والواقع ان العراق، وولاية الموصل بصفة خاصة، كانا يؤلفان جزءا من نطاق الهيمنة الثقافية الفرنسية. اما النشاط التبشيري لليهود والفرنسيين، فلسوف يرد ذكره فيما بعد.

استبدل منصب قنصل الولايات المتحدة الامريكية في سنة ١٨٩٤ بمنصب نائب قنصل، كان يقيم بصفة متقطعة في بغداد. ذلك لان الاهتمام الامريكي بالعراق كان طفيفا. ولكن حدثت مطامع امريكية في ميدان التنقيب عن الاثار في العراق خلال سني الثمانينات من القرن الماضي، ومن ثم اعقبها موسم من التنقيبات، وانشاء فرع لبعثة تبشيرية عربية تابعة للكنيسة الهولاندية المجددة في امريكا، بدأت في سني التسعينات بانشاء مدرسة[11] ومستوصف ومستشفى في البصرة، والاقدام فيما بعد على القيام بعمل اخر مماثل في كل من العمارة والناصرية.

واستطاعت هذه الجهود الامريكية، التي جوبهت بمقاومة تركية عنيفة، ان تحافظ على بقائها ذلك ان عددا من الكاثوليك المحليين قد تحولوا الى المذهب البروتستنتي.

ولم تبد ام اوربا الاخرى في هذه الفترة اي اهتمام، وربما اهتماما ضئيلا جدا في العراق. فقد

---

(٨) « UNIATE

(١٠) الغالية نسبة الى بلاد (الغال) التي كانت تضم في وقت سابق من الزمن اقساما كبيرة من الاراضي الفرنسية الحالية.

(١١) [illegible] هذه هي مدرسة الرجاء التي ظلت قائمة حتى اواخر سني الستينات من القرن الحالي.

ظل الرعايا اليونانيون يلجأون الى المقيم البريطاني حتى سنة ١٨٩٧ في حين بقي النمساويون يلجأون الى القنصل الفرنسي حتى سنة ١٩٠٠ وكانت الامبراطورية الالمانية قد وطدت مصالحها الطفيفة في العراق بالنسبة الى بريطانيا حتى سنة ١٨٩٤ عندما عين المقيم الالماني في بغداد بصفة قنصل. وظهرت في اواخر القرن الماضي نشاطات الالمان في ميدان التنقيب عن الاثار فظهر سخاو في سنة ١٨٧٩، ثم ظهر كولدوي في سنة ١٨٨٩ وعاد ثانية مرة اخرى سنة ١٨٨٩ ومابعدها(١٢)

غير ان الالمان لم يبدوا اي اهتمام اخر بالقطر الا بعد ان طرح شعار السياسة الالمانية القائل بالزحف نحو الشرق في نهاية القرن الماضي(١٣) وكانت المسألة الملتهبة فيه هي قضية سكة حديد بغداد.

وفي الوقت ذاته بدأ تغلغل الالمان داخل تركيا عن طريق ارسال بعثة من الضباط الالمان العسكريين، وقيامهم بمشروع مد سكة حديد الاناضول، وزيارات القيصر الرسمية. وتخلي حكومته وحدها عن الدول التي استنكرت المذابح التي اوقعها الاتراك في الارمن. الامر الذي وطد مكانة المانيا في المكان الخالي الذي كانت تشغله بريطانيا قبلا باعتبارها الدولة الغربية الرئيسة في الامبراطورية العثمانية.



(١٢) انظر عن نشاط هؤلاء المنقبين الالمان كتابينا «سومر» و «بلاد اشور» اللذين ترجمناهما عن المنقب الفرنسي الشهير اندريه بارو وصدرا ضمن مطبوعات وزارة الثقافة والاعلام في سنتي ١٩٧٩ و ١٩٨٠

(١٣) كان هذا الشعار هو DRAG NACH OSTEN وتطبيقاً لهذا الشعار بدأ الالمان يعملون بجد على انجاز مشروع سكة حديد بغداد – برلين ونجحوا في الحصول على امتياز بمد هذا الخط قبيل الحرب العالمية الاولى باعوام قليلة ثم توقف العمل عند بدء تلك الحرب.

٢ ـ القطر والسكان

يمكن الاشارة بايجاز الى مناطق سطح الارض التي ينقسم اليها العراق، وان كانت هذه المناطق تعود بصفة اساسية الى الموضوعات الجغرافية، وبصفة اقل الى القضايا التأريخية، ذلك لان هذه المناطق تؤثر تأثيرا عميقاً في حياة السكان، وتعكس اصول سلالاتهم

يأتي في الدرجة الاولى حزام الجبال في الشمال وفي الشمال الشرقي من العراق. ذلك ان جزءا من بلاد ارمينيا الرئيسة، ومن جبال زاغروس، اصبح في سنة ١٩٠٠ يؤلف محافظة السليمانية، والقسم الاكبر من محافظتي الموصل وشهرزور. فهذه البقعة من البلاد ليست عربية وكل سكانها من الاكراد قطعا، وهي عبارة عن جبال جرداء من الدرجة الاولى، لكنها تشتمل في ذات الوقت على مناطق تملؤها الغابات، وتتقسمها الأودية العميقة التي تتسع في بعض الاحيان فتتحول الى سهول، حيث ينتج السكان في مئات من القرى التي تنتشر في هذه السهول، الحنطة، والرز، والخضار والفواكه، والتبغ، وكلها تنمو على مياه الينابيع والجداول والامطار الغزيرة نسبياً ويكون المناخ فيها مقبولا خلال الصيف، وقارس البرد اثناء الشتاء، في حين يفيض الجمال الظاهر فيغمرمنظر الارض بصفة عامة. وفي المناطق السهلية المنبسطة في كل من لوائي الموصل وشهرزور، تمتد اراضي مرتفعة خالية من الشجر، بالاضافة الى مجاري واطئة لنهري الزاب الكبير والصغير معا

ولقد كان الزراع الذين سكنوا القرى في عصور اشور القديمة يزرعون الحنطة التي كانت تنمو خلال فصل الربيع على مياه الامطار، وفي بعض الاماكن على المياه التي ترفع من الانهار. ويقع القطر، متوسطا في محيطه وفي عنصره. بين منطقة الجبال والاراضي المنبسطة الحارة في الوسط وهذا القسم الاخير عبارة عن منطقة اكثر سعة، واعظم ميزة من بقية انحاء القطر تشمل محافظتي بغداد وكربلاء ومعظم اراضي محافظة الحلة. ففي اي مكان من هذه الاراضي المنبسطة الميتة، لايتوفر فيه الحجر ولاتسقط فيه الامطار الكافية لزراعة الحاصلات الا في مواسم نادرة، وتحتاج الى ان تزرع عن طريق رفع المياه من الانهار، والقنوات المسيطر عليها او السيطرة على قنوات الفيضان

وتتألف الحاصلات التي تنمو في الشتاء والصيف من الحنطة والخضراوات وبعض الرز الحلي، وبساتين النخيل الشاسعة. ويعيش السكان، وكلهم من العرب. في قرى مبنية بالطين او خيام مصنوعة من الشعر او الاكواخ المصنوعة من القصب.

ويشمل الريف الرسوبي المنبسط هو الاخر، والمؤلف من دلتا نهري دجلة والفرات وبجوار خط الساحل الذي عرف في فجر التأريخ وماقبله، القسم الجنوبي من محافظة الحلة، ومعظم اراضي المحافظات الثلاث الاخرى وهي العمارة والمنتفق والبصرة(١٤)

وقد تميز هذا الريف بوجود نسبة اعلى من اكواخ القصب، ونسبة ادنى من القرى الطينية، وبقلة من منتوج الحنطة والشعير، ولكن بوفرة كبيرة من منتوج الرز في المناطق التي يغمرها الفيضان. كما يتميز ايضا بوجود اميال من بساتين النخيل، وبالطريقة الخاصة للحياة التي طورها مربو الجاموس، وحائكو الحصر. وصيادو الاسماك في الاهوار الواسعة.

واذ نتجاوز التوابع العربية للبصرة، يبقى علينا ان نشير الى منطقتين اخريين، احداهما منطقة شط العرب في محافظة البصرة التي تشتهر ببساتينها المنظمة التي تمتد الى عدة اميال في شقة منخفضة بين النهر والصحراء، وثانيهما الريف السهوبي المقفر الذي لاتسقط فيه الامطار غالبا، ولاينمو فيه سوى الحد الادنى من العشب، وهو يعادل في مساحته بقية ارض العراق في الصحراء الشامية جنوبي غربي نهر الفرات وغربيه، والجزيرة العليا التي تقع شرقي نهر دجلة الى الاسفل من بغداد ومن فوقها، على جانبي جبل حمرين. فهذه الاراضي المقفرة تعود الى البدو الاعراب الحقيقيين الذين يعنون بتربية الابل. وقد كانت اغنام الذين ينتشرون في حوافيها المبسطة على مقربة من الانهار، موطنا للنصف من اقسام العشائر التي تشتغل بالزراعة

ونختلف سكان هذه الاقسام اختلافا واسعا في مدى تماسهم بالحضارة المدنية، واتصالهم بالحكومة. والى مقربة منهم يأتي مواطنو المدن، ومن ثم القرى المأهولة بالسكان، والمزارعون القبليون الذين يسكنون الاكواخ، وسكنة الاهوار، والرعاة شبه المتوطنين عند حافة الصحراء، والبدو الخلص. وهذه الاقسام الاخيرة تؤلف عنصرا صغيرا، ولذلك فان اعتبار العراق قطرا بدويا على نطاق واسع، يعد خطا شائعا، ذلك لان معظم مناطق القطر كانت على الدوام توفر الفرص الملائمة للحياة المستقرة فيها، ولايوجد البدو الاّ في المناطق التي لايتوفر فيها اي شكل اخر من اشكال الحياة

ليس مستطاعا اعطاء تقدير يوثق به سواء الان او فيما بعد، لسكان الولايات الثلاث. ذلك لان احصاء النفوس في العهد التركي كان يتم بشكل واه حيث تنعدم الكفاية الواسعة للقيام به، وكان يقتصر على المدن وعلى اغراض الكتابة ليس الا والارقام التي يعطيها رجال العشائر ورؤساء المجتمعات المدنية، تختلف تبعاً لمخاوفهم او اما لهم في الضمان او المنفعة. ذلك ان محافظة البصرة في سنة ١٩٠٠، باستبعاد المناطق العربية التابعة لها، ربما كانت تضم مليونا وربع المليون نسمة. وقد يعتبر معدل مجموع السكان مابين مليونين ومليون ونصف المليون من التقديرات الصائبة

---

(١٤) الى ميسان وذي قار والبصرة حسب التسمية الحديثة

ولقد كانت العناصر التي يتألف منها سكان العراق، والمساهمة التي يقدمها كل فريق منهم، متباينة هي الاخرى. فالعرب يؤلفون الا كثرية الساحقة ولكن من هم هؤلاء العرب؟ لقد كان حتى سكان الجزيرة العربية القديمة مزيجا من اصناف جسمانية، وان من الخطأ ان نتطلع الى «نقاوة العنصر» في الفروع المتأخرة، كما هو الامر بالنسبة الى العناصر الاخرى من العالم المتحضر.

لقد كان العرب في عراق سنة ١٩٠٠، كما هو الامر بالنسبة الى الوقت الحاضر[١٥] من العراقيين الذين يتكلمون اللغة العربية وهم عبارة عن خليط موحد يضم عناصر جسمانية من جميع السكان الذين دخلوا هذه البلاد منذ فجر التأريخ، بصفة غزاة او مهاجرين، حيث تمثلوا فيما بينهم ليؤلفوا بذلك المجتمع العراقي الذي طغي عليه عرب الجزيرة العربية في القرن السابع للميلاد فحولوه بفضل اسلحتهم وعقيدتهم الدينية الى عرب مثلهم تماما.

ولقد كان الشعب العراقي في نهاية القرن السابع عشر لاهيا عن اية مؤسسات ثقافية او اخلاقية.

اما في داخل المجتمع العراقي فان الشيئ السائد فيه هو التقليد المشترك والمفاخرة بالعرق الى ابعد مدى، وفي معظم العلاقات، هي الفروق التي اوجدها تنوع المحيط والمصلحة الذهنية والمادية. ومع ذلك كله فقد تكون مثل هذه الفروق ثابتة بين المدينة والقبيلة، كما انها موجودة ايضاً بين المجتمعين الرئيسين وهما المجتمع الديني والمجتمع الاجتماعي. ومن هنا فان تنافرهم الشامل قد يتحول الى العنف كما إن التمازج الاجتماعي فيما بينهم كان ضئيلا

تضم ولاية الموصل الجبلية اكبر قدر من الاقليات العراقية الى جانب الاكراد. وهذه الاقليات تؤلف جزءاً جوهرياً، ربما يبلغ الثلث من مجموع العنصر الكردي، الذي يعيش في حزام واسع من الحدود الشرقية من الاناضول، ويمتد حتى عبر الحدود الروسية والايرانية، وهو اقليم يدعى المتطرفون من الارمن بانه كان تابعا لهم، ويشمل خمس ولايات من تركيا، كانت ولاية الموصل تؤلف الولاية الجنوبية الشرقية منها

ويؤلف الاكراد بشكل واضح كتلة عرقية ولغوية تتباهى مباهاة شديدة بالانجازات القديمة، وبذكرى الامارات المستقلة. واذ يقتنع هؤلاء بتفوقهم على العرب والاتراك معا، فانهم يختلفون اختلافا ملموسا عن العرب في السلوك والمحيط والعادات الشخصية، لكنهم يشبهونهم شبهاً وثيقاً في التنظيم الاجتماعي الذي يمثل تجاوباً مشهودا لذات الحاجات الاجتماعية. ولقد كانت الحياة البدوية فيما بين الاكراد، والمصحوبة عادة بامتلاك الاغنام بدلاً من الابل، تكاد تكون محصورة في عشائر قليلة، لكن الولاء العشائري هو الذي يسود في كل مكان، الا في الحالة التي تؤدي فيها مصالح القرية او المنطقة، او مجرد انعدام الزعماء، الى التفتت والانهيار

كانت اكثرية النصف من محافظة الموصل اقليما كرديا مقسما الى اقضية دهوك والعمادية

---

(١٥) يقصد المؤلف بالوقت الحاضر، التأريخ الذي صدر به هذا الكتاب وهو سنة ١٩٥٢.

، عقره. وريبار بالاضافه الى محافظة السليمانية ذاتها وثلثي محافظة شهرزور.
وما خلا فئات قليلة جدا من الشيعة، وجدت فئة من الاكراد في محافظة الموصل، وهم من اتباع المذهب الشافعي او الطريقة القادرية. ولكن تماسكهم من ناحية اللغة والثقافة ليس كاملا فهم يتألفون من ثلاث مجموعات تقليدية او ضبابية هي الاكراد البهدنانيون الذين يسكنون فيما بين نهر الزاب الاكبر وحدود ولاية «وان»(١٦) والصورانيون فيما بين الزابين الاكبر والاصغر. والبابانيون بين الزاب الاصغر حتى نهر «سروان»، «ديالى». وتختلف المجموعة الاولى في لغتها الكرمانجية عن المجموعتين الاخريين اللتين تتكلمان، بالاشتراك مع اكراد بلاد فارس، اللغة الكردية التي لم تحقق لها اية صفة ادبية(١٧)

اصبح ميل الاكراد المتجولين الى الاستقرار والتوطن واضحا منذ وقت طويل. لكنه مع ذلك مايزال يحتاج الى وقت اطول. في ذلك الوقت الذي سوف يستمر فيه تجمع سكان التلال في السهول بيتا الى بيت خلال مدى نصف قرن مقبل من الزمان.

في سنة ١٩٠٠ كانت الحرية التي تتمتع بها السلالات والاسر الحاكمة في الوادي الكردي، تعود الى العهد الماضي على نطاق واسع وقد كان بعض القائمقامين والمديرين الاتراك، وبعضهم من عنصر كردي، يقيمون احيانا في كل قضاء وناحية. ومقابل ذلك كان الاكراد يوفرون الكثير من الموظفين والجنود للامبراطورية العثمانية. وكانت الطبقة المتعلمة، وعلى خلاف الولايات العربية، ذات نسبة ضئيلة تماما، اذ لم تكن هناك اية طبقة كردية مثقفة، ماخلا بعض الافراد النادرين الذين كانوا يعيشون في المنفى. ذلك لان الكردي المتعلم في وطنه او في الخدمة الحكومية، كان في تلك الفترة، يحمل مشاعر الرجل التركي وثقافته

ومن ناحية اخرى كان التنظيم القبلي للاكراد، والذي يتألف من مجمعات متراصة متآلفة يتراوح عدد افرادها فيما بين الف، والف وخمسمائة نسمة، غير قادر على مجابهة الادارة الحكومية الا اذا كانت هذه الادارة رحيمة، وقوية سهلة الانقياد. والحقيقة ان افراد العشائر في مناطق واسعة كانوا مايزالون يظهرون اصدق الولاء لزعمائهم بدلا من الحكومة التركية، وهكذا ظلت الاكثرية الساحقة من الاكراد غير متجاوبة او متعاونة. ويبدو ان عدم استقرار الامن فيما بينهم، والناجم عن طريقة الحياة المفضلة لديهم، لايمكن تقليصه باي نظام كان من انظمة الحكم غير

---

(١٦) البهدنانيون نسبة الى بهدينان وهي امارة منطقة «العمادية» وهم يدعون من بقايا العباسيين الذين التجأوا الى منطقة العمادية بعد الغزو المغولي للعراق وان زعيمهم يدعى «بهاء الدين» فسموا باسمه

(١٧) حدث تطور كبير بالنسبة الى اكراد العراق في السنوات الاخيرة. فالتطور الاقتصادي قد صاحبه تطور ثقافي واسع برز واضحا في ظهور حركة ثقافية واسعة وبروز عدد من الكتاب والشعراء الاكراد الذين اخذوا يسعون الى نشر تراثهم الثقافي، بحيث اصبحت العلاقات المميزة للثقافة الكردية متميزة تمييزا جليا في ميدان الثقافة والادب الذي شمل العراق كله بعربه واكراده في السنوات الاخيرة وعلى الاخص منذ قيام ثورة الرابع عشر من تموز حتى الان.

المباشر الذي حاول الاتراك تطبيقه. او كان الاكراد يتقبلونه

ولما كان اليزيديون يشاركون الاكراد في الاصول العرقية فانهم يشبهونهم تماما في العادة وفي طراز الحياة ذلك لأن اليزيديين كانوا قد تركزوا اساسا في جبل سنجار على بعد خمسين ميلا غربي مدينة الموصل. في حين ان المكان المقدس لديهم وهو ضريح «شيخ عدي» يقع في سهل الموصل ذاته

ولقد كان التركمان المزارعون من سكان القرى والذين لايضمهم اي تنظيم عشائري، يوجدون باعداد في مدن كركوك والتون كوبري واربيل وكفري. وفي قرى قره تبه، وطوز خرماتو وداقوق وذلك على امتداد الطريق المتشعب بين بغداد والموصل، ويوجد عدد منهم في تلعفر في منتصف الطريق بين الموصل وسنجار. وربما كان هؤلاء الناس الذين يتكلمون التركية، منحدرين في الاصل من حرس الحدود الذين وضعهم الخلفاء العباسيون هناك، والذين لم تكن لهم اية مواهب، او بسالة، لكنهم كانوا يساهمون منذ امد طويل بصفة مضيفين للافندية من افراد الطبقة البيروقراطية. ولقد اغنوا القرى ومناطق الريف بصناعاتهم الكاملة. وباحساسهم الصادق. واشتهر البعض منهم بانهم اصبحوا بغداديين، وان قلة من العائلات الاقليمية تنحدر في الاصل من الدم التركماني. اما مستقبل تأريخهم فالمتوقع عنه بانه سوف يكون الذوبان التدريجي لهم في المجتمع العربي. ويصدق هذا الشئ ايضا على طائفة «الشبك» الصغيرة التي تعيش وتتحدث بلهجة كردية محلية على ضفاف نهر دجلة جنوبي الموصل والمعتقد انهم يمثلون الطراز الهرطقي من الشيعة

وتكاد تكون هذه الاقليات الكردية واليزيدية والتركمانية محصورة في ولاية الموصل وحدها في الغالب، كما يوجد الفرس في بغداد ايضا وقد تغلغلوا في كل طبقة من طبقات المجتمع العراقي، وبذلك كانوا يؤلفون مجتمعا اجنبيا لاتمكن السيطرة عليه وذلك لان مايدينون به. والواقع الذي دفع بهم للقدوم الى العراق كان في ذات الوقت من اهم اسباب الارتباك الذي كان يحدث في الامبراطورية العثمانية. وليست للفرس ولا «لللر» الذين يسكنون المدن المقدسة او بغداد، اية جنسية بصفة عامة. ذلك ان الذين يسكنون منهم المناطق الجنوبية من جبال زاغروس ويخضعون لسلطة واليهم المقيم هناك، يفدون على بغداد والبصرة ويشتهرون فيهما بممارسة الاحمال الثقيلة، وهي المهنة التي يحتكرونها. كما انهم في ذات الوقت يعيشون في صفة تجار وصناع في مناطق

---

(٢١) الشبك طائفة من الاكراد الشيعة الغلاة في التشيع والتمسك ببعض الاساطير غير المعقولة ولهم صلتهم القوية باليزيدية وبطائفة اخرى من الاكراد يعرفون باسم طائفة «حقة» وغيرها ويسكن الشبك في القرى المجاورة لمدينة سنجار، ويتجاوز عددهم عشرة الاف نسمة، ولهم طقوسهم الغريبة جدا وخير من تحدث عنهم هو الاستاذ احمد حامد الصراف في كتابه «الشبك» الذي صدرت **طبعته الاولى في سنة ١٩٥٤** وهم ينسبون العديد من المعجزات الى «علي بن ابي طالب» كرم الله وجهه، **مثل بقية الطوائف الشيعية الاخرى.**

اواسط دجلة والغراف، ويعرفون هنالك باسم اكراد الفيلية[19] ويسيطرون على مدن مندلي وبدرة والقرى القريبة منها ولم يحدث نصف القرن الذي مضى اي تغيير في هذا الوضع، ويصدق ذات القول على طائفة الصابئة الصغيرة المؤدبة المعروفة باسم «المندائيين» والذين يسميهم الرحالون خطأ بانهم المسيحيون الذين يتبعون «يوحنا المعمدان» فهؤلاء الناس بلغتهم التي تشبه طراز اللغة السريانية وبكتابهم المقدس المكتوب باللغة وبالحروف المندائية، يعملون في صفة صاغة وصانعي زوارق في المدن والقرى التي تقع على شواطئ الانهار، حيث يكون الماء الجاري متوفرا لاداء شعائرهم الدينية. ولكن اصولهم ومعتقداتهم ليست اسلامية ولامسيحية، ولم تتم حتى سنة ١٩٠٠ اية دراسة لاحوالهم وعوائدهم المميزة لهم الا بصفة ضئيلة[20]

وكان يهود العراق في سنة ١٩٠٠ يؤلفون الاقلية الرئيسة في البلاد فكانوا مثل الطوائف المسيحية الاخرى، يؤلفون «ملة» معترفا بها في الامبراطورية العثمانية، ولهم استقلالهم الداخلي في شؤونهم الخاصة، والاجتماعية. وكانوا يتجمعون باعداد كبيرة او صغيرة في كل مستوطن مدني او قرية كبرى ابتداءا من حدود ولاية «وان» حتى اقصى انحاء الجنوب. ذلك انهم كانوا يعيشون في كل مكان تتوفر الصناعات فيه، ولايلاقون فيه الاذى، ويضمون فيما بينهم، ولاسيما في الموصل وفي الشمال، اكثر عناصرهم فقرا وتأخرا. ولما كانوا يعفون من الخدمة العسكرية[21] ولايساهمون في الحياة العامة الا بدور ضئيل، فقد كانوا يشغلون الوظائف، ويبرزون مميزات عنصرهم، ويديرون مدارسهم وبيعهم بانفسهم. وكثيراًمايشاهد البعض منهم حتى في اشد المناطق الكردية وحشية، يعمل وكيلاً، وذا قيمة، لاحد الاغوات الذي قد يتباهى بوجود العامل اليهودي الشاطر لديه

اما في بغداد وهي المدينة التي كانت تضم خمسين الف نسمة، فان عدد اليهود فيها كان كبيرا. ونظراً لوجود وكلاء لليهود في بومباي، وفي مانجستر وباريس، فقد اصبحت لهم السيادة في ميدان التجارة، والشؤون التجارية، التي غالبا ماكان المسلمون يضطرون الى المشاركة معهم فيها، في حين كان التجار المسيحيون يبتعدون في نطاق واسع عن طرق هذا الميدان. كان التعليم الغربي منتشرا في مدى واسع بين اليهود وكانت تبشر به المدرسة اليهودية الفرنسية التقدمية الفاخرة

---

(١٩) يحاول بعض الكتاب والساسة الاكراد ولاسباب سياسية خالصة، ان يعتبروا افراد الفيلية من الاكراد في حين ان هؤلاء من الاصول الاساسية للعنصر الفارسي، وان لغتهم فارسية وان اختلفت في لهجتها، كما ان ولاءهم على طول الازمان كان ومايزال لحكام بلاد فارس وليس للبلد الذي يعيشون فيه وهو العراق.

(٢٠) من خيرة الدراسات التي وضعت عن الصابئة في العراق، هي الدراسات التي الفتها «المسزدرا زوجة السيد دراور، مستشار وزارة العدل. ولقد قام الاديبان نعيم بدوي وغضبان رومي بترجمة احدى هذه الدراسات القيمة ونشرها في كتاب ضخم صدر في سنة ١٩٦٩ بعنوان «الصابئة المندائيون في العراق» كما ان للمسز دراورد ايضاً دراسة موسعة ومهمة عن اليزيدية اصدرتها في سنة ١٩٢٨ بعنوان «الملاك طاووس»

(٢١) لم يكن اليهود معفوين من الخدمة العسكرية لكنهم كانوا يتفادونها عادة بدفع البدل النقدي عنها حتى في العهد الملكي

والمعروفة باسم «رابطة الاليانس» التي اسست في سنة ١٨٦٤ فهذا المجتمع الذي كان يضم الاغنياء من الاقطاعيين والبارزين، والذي كان ينمي بصبر، يتجاوز حدود المساواة الاجتماعية، كل القابليات والثراء الناجح الذي يثير الحسد، والجشع المتزايد ولكن من دون اثارة اية شكوك سياسية. ان التدمير الذي احدثته السياسة الصهيونية لوضع اليهود ولسعادتهم سوف يظل قائما مابعد نصف قرن مقبل من الزمن

ولم تكن الطوائف المسيحية في الولايات الثلاث لتختلف الا قليلا عما هي عليه في ايامنا هذه. ذلك لأن الطوائف كثيرة العدد تنتمي الى الملل الرسمية التي يرأسها محليا اسقف او مطران او بطريق. وعلى مثل هذه الشاكلة يكون وضع ءالارمن الارثوذكس الذين كان عددهم كثيرا في المدن، لكنهم اصبحوا الان اكثر تركيزا [٢٢] وهناك الاثوريون او النساطرة وكانوا قلة ظاهرة في عراق سنة ١٩٠٠ وكانوا محصورين غالبا في قصبة العمادية في الشمال. اما اليعاقبة فلا توجد سوى بيوت قليلة منهم في الموصل اضافة الى السريان الكاثوليك، وهم من اليعاقبة الذين اعتنقوا الكثلكة، ومجمعات صغيرة من الاغريق الارثوذكس، وفئات اصغر ممن تحولوا الى البروتستنتية، بفعل نشاط بعثات التبشير، واخيرا طائفة الكلدان المهمة كثيرة العدد، وكانوا في الاصل من النساطرة الذين نزحوا من الجبال التي كانوا يعيشون فيها الى الموصل وقراها ثم اعتنقوا الكاثوليكية لكي يؤلفوا الكنيسة الوحدانية

ويتمتع المسيحيون الذين لايهتم الاتراك ولا العرب، بالفروق الحاصلة في مسلكهم وادارتهم لكنائسهم، بمنزلة تفوق منزلة اليهود ومماثلة لمنزلة المسلمين. ومع انهم اكثر فقراً من اليهود الا انهم اقل تذمرا.

ويمتلك المسيحيون الاراضي الخاصة ويزرعونها في قراهم الشمالية، لكنهم لم يتعودوا مثل ذلك في القسم الادنى من العراق وهم يتخصصون في تجارة المفرق وادارة الفنادق والصناعة واحتراف المحاماة والقانون، ويعمل عدد كبير منهم في الوظائف الحكومية. وكان الكلدان من «تلكيف» منذ زمن طويل يحتكرون العمل في البواخر النهرية. ولكل هذه الطوائف كنائسها وقساوستها ومدارسها الاعتيادية التي كانت تدار طيلة سنوات عديدة خلت من قبل بعثات الكنائس الاوربية. وكان مستوى التعليم فيما بينهم متقدما بالنظر الى المستويات العراقية في ذلك الوقت، وقد شرعوا منذ البداية في انشاء مدارس البعثات التبشيرية. وكان المسيحيون، مثل اليهود، معفوين من الخدمة العسكرية، او يدفعون ضريبة البدل عنها. وكانت الطائفتان المسيحية واليهودية معا، تشاركان باعضاء منها في المجالس الرسمية المقامة في مناطقها

---

(٢٢) سمحت الحكومة العراقية في سنة ١٩٥٩ لعدد كبير من الارمن بالعودة الى جمهورية ارمينيا، غير ان طائفة كبيرة من الارمن اثرت البقاء في العراق بعد ان تعودت الحياة فيه وتوفرت لديها وسائل العيش الطيبة، وميادين العمل الواسعة في الدوائر الحكومية وخارجها.

ويؤلف الاتراك انفسهم اخر الاقليات التي تمكن الاشارة اليها وهم ممثلون في العراق بعشرات قلائل من كبار الموظفين، وبعوائل اجبرتها ثرواتها او اوضاعها السياسية على العيش هناك. كما انهم يمثلون ايضا بالنساء التركيات لعوائل الطبقة العليا في المدن، وربما بنسبة الخمس من افراد القوات العسكرية الموجودة، او العشرين في المائة من افراد الجندرمة.

ولكن هذه الاقلية كانت قوية بصفة ظاهرة، وذلك بسبب سلطة الحكومة، وباتصالات رؤسائها بادارة الحكم في اسطنبول، وكذلك بانتشار الثقافة التركية فيما بينها.

ولقد نجم عن ذلك ان عددا من العراقيين، لم يكن عددهم كبيرا، قد اجتذبتهم الامتيازات التركية فاصبحوا كلهم من المبرزين واعتبروا انفسهم بانهم من الاتراك، وذلك قبل ان يطلع فجر القومية العربية وحتى مابعده. وكانت اللغة التركية في كل مكان هي لغة الحكومة والمحاكم والمدارس الحكومية





٣ ـ الفرس والعرب المتجاورون

عانت كل من تركيا والعراق، لامد طويل، من عدم الاتفاق مع جيرانهما الفرس. ومع ان ايام الحروب العدوانية الواسعة التي شهدها العراق، قد انتهت في القرن التاسع عشر[1] فقد بقيت تلك الايام من الاسباب التي توذي الرغبة في الاتفاق بين الشعبين المتنافرين اللذين يختلفان في اللغة والثقافة والسلوك. ولم يتناقص ذلك التنافر حتى بوجود ممثلين قنصليين من الفرس، كان البعض منهم تحيط به الريب والشكوك، في حوالي اثنتى عشرة مدينة في العراق. كذلك كانت الامبراطوريتان التركية والفارسية المختلفتان مذهبيا، تمران عبر مراحل متباينة من تطورهما. ذلك ان تركيا كانت تناضل في سبيل توفير الحياة العصرية والالهامات الغربية، في حين ظلت بلاد فارس تعيش بذهنية العصور الوسطى، ويستبد بها القلق بسبب وجود توابع نصف مستقلة في اراضيها. ولقد تجلى رد الفعل باقسى صيغه عندما بزغ نجم «مظفر الدين شاه» في طهران، منذ اعتلائه العرش في سنة ١٨٩٦

لقد برهنت قضية الحدود بانها كانت من القضايا الكبرى التي تثير الاضطراب. ذلك لان خط الحدود لم يجر تحديده، ولم تتم تسويته بصفة اكثر استقرارا من التسوية التي قامت على اسس اعتبارها من التعويضات عن كثير من الحروب التي وقعت، وعن الولاء المتقلب للقبائل. ذلك لان خط الحدود كان يمر في اراض منبسطة لا مظهر لها في المناطق الشرقية من اداني نهر دجلة، ومن ثم يجتاز الخط جبال كردستان المتعرجة. فضلا عن ان خط الحدود هذا يفصل بين شعوب متحدة في الجنس كانت تتوق الى الهجرة في الغالب، او غير قادرة على ان تمنح الولاء لعرش بعيد عنها.

اعقبت معاهدة ارضروم سنة ١٨٤٧ ثلاثون سنة اخرى، كانت ملأى بالاتفاقات، والبعثات، ووضع الخرائط. وفي الربع الاخير من القرن الماضي شهدت تلك الاتفاقات الكثير من الانتهاكات البسيطة، ومجابهة التدخلات، والاحتجاجات الحانقة.

---

(١) يشير المؤلف بهذا الى الاعتداءات المتعاقبة التي شنها الفرس على العراق، منذ ايام الصفويين ومن جاء بعدهم من الحكام الحاقدين من امثال كريم الزند و نادر شاه وغيرهما، مما اكد للعالم كله مدى اطماع الفرس في العراق ومحاولاتهم المتكررة لبسط سلطانهم عليه. فلقد كانت لهذه الاطماع والاعتداءات جذورها قبل التاريخ الميلادي، المتمثلة في اعتداءات «كورش» وغزوات الفرثيين والساسانيين قبل الاسلام وعدد من غزوات البويهيين والصفويين وغيرهم بعد الاسلام واخيرا الحرب العدوانية الغادرة التي شنها «الخميني» الذي انكشفت عمالته للامبريالية والصهيونية ابتداء نن ايلول ١٩٨٠.

الاتراك مايزالون يطالبون باسعاده ـن واوديه كان الفرس «و بانه» وسردست ورهاب. الوقت الذي كان فيه الفرس يطالبون بسهل حول وجبل هورمان اضي تقع على مقربة خانقين. فهذه الاشكال من العراك التي كانت تعكر كل أمن الحدود. كان صداها يتردد حتى في اقصى الجنوب. وذلك بالادعاءات التي يطلقها كلا الطرفين بامتلاك المياه الضحضاحة من نهر سط العرب والجزر القائمة فيه[4]

كانت تركيا في هذا الوقت قد حلت عن مطالبها بالمحمرة ولكن الخصومات والمصادمات بشان سط العرب قد هيأت خصبا لممارسة اعمال القرصنة. وادت بدورها الى التدخل البريطاني. وتهديد القنصل البريطاني في الفاو. وتمركز احدى السفن المزودة بالمدافع في نهر شط العرب سنة ١٨٩٨[5]

العدد الكبير الفرس لمدن النجف وكربلاء والكاظمية وسامراء سببا من الاسباب التي كانت تشارك في رة المشاعر. لكنها كانت في ذات الوقت غنية بالمناسبات التي كانت تثير صرامة الحكومة التركية. وتؤدي الى ممارسة عملية الابتزاز الخاص. وذلك نتيجة الالحاف في الطلب للحصول على سمات الدخول. ودفع ضريبة الحجر الصحي فلقد كانت الحكومة التركية تتقاضى ضريبة مقدارها جنيها واحدا عن كل جثة من الجثث التي يأتي بـ الفرس لدفنها في النجف. وقد نجم عن ذلك اقدام الفرس على خرق الحدود. وتحويرها في عشرات من الصيغ ففي كل مكان سواء في الطرق المدن كان الزوار تحت رحمة اصحاب الخانات. والحمالين والمقيمين على الاضرحة

وكانت تجارة المرور بين العراق وفارس تتألف من السلع الفارسية التي يتم نقلها عبر العراق الى البصرة. واهم ذلك كله نقل السلع الاجنبية الى بلاد فارس عبر البصرة وبغداد وخانقين. وكان انقطاع هذا المورد الكبير في تجارة العراق كثير الحدوث في الاوقات التي يضطرب فيها حبل الامن سواء في دجلة (وفي طريق كرمنشاه) وكان هذا الامر يؤلف موضوعا للانتقام. مثلما تفعل ذلك ايضا. اعمال التأخير والرشوة التي يطبقها ضباط الكمارك من الاتراك

---

(٢) GUL - AMBAR تعرف باسم غول عنبر بليدة تبعد بحدود ثمانية عشر كيلومترا عن حلبجة وقد بنيت في مكانها بليدة خورمال وهي مركز ناحية خورمان التابعة الى قضاء حلبجة.

(٣) هورمان منطقة جبلية من العراق محاذية لقضاء حلبجة الى محافظة سليمانية وتمتد منطقة في حلبجة من حور احمداو وطويلة الموقعين يعتبر طائف مهمة السليمانية الكبير يوجد سيطرة على مياه سعد سعد بشاطئيه. صبيعين احع سنة ١٩٨١م

(٥) هده ندد ى الاسطول الانكليزي رسيا الخليج العربي

كانت لكل ولاية من الولايات الفارسية التي تسير مع خط الحدود. صفها الخاصة بها. وليس في الامكان ادارتها بشكل فعال فعلى جناح البصرة، وعبر نهر شط العرب، يقع اقليم الاحواز. ولقد ترك الفرس النصف الجنوبي من هذا الاقليم وكل سكانه من العرب، طيلة ستين سنة تحت امرة ميشيخة آل محيسن العربية القبلية. وتحت الادارة التي تغلبت على الفساد الطاغي الذي كانت طهران تمارسه بنفسها، استطاعت مدينة المحمرة التي تقع عند مصب نهر الكارون، ان تتطور الى ميناء وسوق لها اهميتها وقد تعاظمت هذه الاهمية كثيرا منذ ان اصبحت ملاحة البواخر في نهر كارون منذ سنة ١٨٨٨ تدار من قبل احدى الشركات البريطانية(٥) وبالاضافة الى ذلك، فقد طبقت في المحمرة مشاريع الري بل وحتى سكك الحديد. كما بوشر باعمال التنقيب عن الاثار تحت احتكار الفرنسيين، وظهور عدد من القناصل والوكالات الاجنبية فيها.

ولقد اظهر حاكم المحمرة الشيخ خزعل نباهة خارقة في مركزه، باعتباره حاكما عربيا مستقلا فوق ارض تدعيها فارس. ولذلك كان يتقبل وجود مبعوث فارسي في عاصمته، ويبعث بالهبات الى طهران، ويتقبل الالقاب الفارسية، ويحتفظ بسلام وطيد مع والي البصرة. وكان الشيخ خزعل ومستشاره الحاج محمد علي المعروف لدى الكثيرين من الاصدقاء الاوربيين باسم الحاج الرئيس ذوي افكار عصرية بالنسبة الى قضايا التعليم والتنمية. لكنهما كانا تقليديين بالنسبة الى الادارة العشائرية. وكانت المحمرة هي الملجأ لشيوخ العشائر الذين يسكنون اسافل نهر دجلة، وذلك في الاوقات التي يتخاصمون فيها مع حكامهم المحليين والي الشمال من الاحواز، «عربستان» وعلى استقلال مساو عن سلالة القاجار الحاكمة، تقع لورستان او اقليم اللر، الذي يتميز سكانه بالعرق واللهجة عن الفرس، ويمتد هذا الاقليم في منطقتين احداهما كبرى والاخرى صغرى، ويؤلف «بشتوكوه» القسم الغربي من المنطقة الصغرى موطن الفيلية من اللر، وتتاخم حدودها ولايتي البصرة وبغداد. وقد بقيت هذه المنطقة طيلة ثلاثة قرون تخضع لحكم وال من سلالة واحدة. وكانت التزامات الحاكمية فيها محصورة في هبة صغيرة تدفع الى الحكومة المركزية في طهران، وسلطاتها غير محدودة داخل اقليم «يشت كوه» وكان نفوذها ملموسا في شرقي العراق. وكان غلام رضا خان، وهو الحاكم الرابع عشر من تلك السلالة، محترما نتيجة الحقبة

.ب بعد تلك السنة تبعث بسفنها الى مياه اضافة الى احتكارها الملاحة في

محمد علي البهبهاني رئيس التجار وكان اكبر تاجر في المحمرة ومن اكابر الاغنياء في الاحواز
الاحواز واليه ينتسب عدد كبير من التجار المشهورين من اسرة البهبهاني في العراق
ه الاخرى وقد حدث عنه ارنولد ولسون الحاكم البريطاني العام في العراق اثناء الاحتلال
الانكليزي في كتابه المعنون «جنوبي غربي بلاد فارس» A. WILSON: SOUTHWEST PERSIA وقد تولى ابو الحسن بن محمد علي البهبهاني مسؤولية الشؤون الفارسية لدى الشيخ خزعل بعد وفاة ابيه وعلى هذه الشاكلة كانت بطانة الشيخ خزعل وامثاله الذين مكنوا الفرس من توطيد اقدامهم في الخليج العربي.

وملاحظاته الدينية، لكنه كان مكروها بسبب جشعه الطاغي.

والى الجنوب من مملكة «غلام رضاخان» وعلى امتداد الحدود. تقع معظم الاراضي الخالية من السكان، والتي لا يحكمها احد، لكنها تعود الى القبائل الكردية. ذلك لان النصف الغربي من «كرمنشاه» يسكنه الاكراد كلية، وهو غير محكوم لاحد بالفعل. والى الشمال من ذلك تقع ولاية «اردلان» التي عرفت بصفة رسمية باسم ولاية كردستان وعاصمتها مدينة «سنة» كما تقع الى الشمال من ذلك ايضا حدود «اذربيجان» وهي ولاية غنية وشهيرة، كانت تعتبر اقطاعا اعتياديا لاحد الورثة من الفرس، وتشتمل على مناطق تمتد الى الجنوب والى الغرب من «اورميا» على الحدود التركية.

كان من العسير بصفة ثانية، عبر هذا الحزام العميق من كردستان الفارسية، ايجاد اي تمييز بين رجال العشائر، او البقاع التي تنسب الى اي من الدولتين دون الاخرى. ذلك لان المناطق الكردية من ولاية الموصل، مثلها في هذا مثل ولاية «وان» التي تأتي فيما وراءها، كانت تشبه ولايتي اردلان، وكرمنشاه في السيطرة التامة للعنصر الكردي عليها، وفي اللغة، ونمط الحياة، بالاضافة الى وجود الاتصالات الثابتة معها، وفي وسائل النقل، والتزاوج، والمنازعات والتحالفات التي لم تكن الجنسية الاسمية فيها، تؤخذ بنظر الاعتبار.

تمتد طرق القوافل في كل مكان خلال حدود المنطقة، وتكون كثير من العشائر مقسمة تقسيما قوميا بين اقلمين قوميين، مثلما هو الامر بالنسبة لكل افراد عشائر «هورمان»، و«بلباس» و«باجلان» او نتيجة لعادة الهجرة الموسمية خلال الحدود، لغرض رعي الاغنام، مثلما تفعل ذلك عشائر «سنجابي» و «الجاف» و «الهركي» او انها تعتبر نفسها حرة، اثناء موسم الصيد من امثال عشيرة الهماوند، للحصول على ملجأ لها في اي من الاقطار.

وفي الاقسام الكردية من ولاية كرمنشاه التي تمتد خلالها الطرق المتعرجة الخطرة، تسكن مجموعة من العشائر القوية امثال «كلهر» و «سنجابي» و «غوران». اما عشيرة «باجلان» فانها مقسمة بسبب الحدود. ويسكن باشاهذه العشيرة في خانقين، في الوقت الذي يعيش فيه معظم افراد العشيرة حول مدينة «زهاو» المتنازع عليها بين العراق وفارس.

وفي القسم الشمالي عبر الجزء الاعلى من نهر ديالى، والذي يدعى هنا باسم «سيروان» استقرت اقسام من عشيرة الجاف المتجولة. وتعد هذه من اعظم القبائل الكردية المهاجرة التي بقيت مخلصة لعادتها في حركة التنقل داخل الحدود. وعلى جانبي جبل هورمان تسكن قبيلة تحمل ذات الاسم وهي موزعة في ولائها لفارس والعراق. والى ما وراء هذه المناطق تقوم منطقة «مريوان» الفارسية، وقطعة من ريف اردلان المأهول وهي تعتمد على مدن «بانه» وسردشت وساقيز[8]

والى اقصى الشمال وفي جوار اذربيجان تقع مجموعة عشائر «مكري» القديمة الشهيرة. واخيرا

(٨) بانه: قضاء مستقل في منطقة صاو جبلاق تتبعه ثماني نواحي وتسكنه عشائر مكري الكردية في كردستان بلاد فارس.

ومن ادنى الاراضي الواطئة قبالة «اورميا» وفيما وراء قرى الحدود التي تسكنها قبائل «شبروان» و «برادوست» تمتد القرى التي يسكنها الا كراد والتركمان. ولا تختلف الاراضي الجبلية الكردية في شمالي الموصل، في اي شيْ عن المنطقة الكردية الفارسية الا في القفر المتزايد الذي يغمر جبال «حكاري» العائدة الى ولاية «وان». وتتجه هذه الجبال من ناحية الشرق الى مواطن عشائر «سلماس وشكاك في اذربيجان الفارسية ومن ثم تتجه نحو الغرب من «شمدينان» حيث تقع قرية «نيري»(٩) موطن «السيد صادق بن الشيخ عبيد «المحارب الشهير ضد المسيحيين(١١٠) حتى تصل الى نهر دجلة في «جزيرة بن عمر»

فهذه المنطقة التي تحكم من «جلمرك» عاصمة اقليم حكاري، كان يتم اجتياحها، والتوطن فيها اثناء الهجرات التي تقوم بها قبائل ذات شهرة فائقة، من امثال «الغويان» و «شرناخي»، و «ارتوشي» والتي رحب رؤساؤها قبل عشرين سنة خلت بالمنزلة والمنفعة اللتين ظفروا بها، بعد ان قدموا الى «الخليفة» السلطان سرايا الخيالة، التي عرفت باسم «سرايا الحميدية»(١١) وبدلا من السلالات الكردية المتنفذة وغير المقيدة في مدن «بتليس» وجزيرة ابن عمر وجلمرك، قبل نصف قرن مضى. ينتشر الان على جانبي حدود ولاية الموصل، نظام لحياة قبلية موزعة، وسلطة اقطاعية متغلغلة، تديرها وكالات الحكومة التركية. نصف الفعالة احيانا، والاسمية في احيان اخرى كما تناثرت في كلتي الولايتين ايضا، طوائف من الارمن والكلدان، واليهود والنساطرة. وهؤلاء الاخيرون يمتهون الزراعة، ورعي المواشي، ولايعرف اصلهم، ولاعرقهم، ولادمهم ويصعب تمييزهم في حياتهم ومعيشتهم وملبسهم عن الاكراد الذين يسكنون بيهم.

والى ناحية الغرب من العراق، تمتد سهوب صحراوية تجوبها مجموعة قبيلة «عنزة» البدوية والى الجنوب من هذه السهوب، وفيما وراء المناطق التي تقطنها قبيلتا «الضفير» و «مطير»، تقع اقاليم تعتبر من اصل الجزيرة العربية الخالصة. فهناك دولة الكويت الصغيرة التي تأسست قبل قرن مضى تحت زعامة بيت الصباح، وهناك اراضي الاحساء الساحلية بواحاتها وحياة عشائرها البدوية الظاهرة واخيرا هناك اواسط الجزيرة العربية التي كانت الى ما قبل سنوات قلائل خلت، تتنازع السيادة عليها سلالتان حاكمتان. فمن بين هذه الاقاليم كانت الكويت وامارة ابن سعود

---

(٩) المصدر هو قرية نهري اما شمدينان فان اسمها الصحيح هو شمرينان

(١٠) قام الشيخ عبيد الله النهري عام ١٨٨١ بثورة عامة وكان قد عقد قبل الثورة اي في سنة ١٨٨٠ مؤتمرا للعشائر الكردية في قرية نهري وسبق ذلك اجراء اتصالات له مع الاكراد واقامة علاقات حسنة مع الارمن والاثوريين، واتصل بممثلي بريطانيا وروسيا [illegible] اهداف الثورة. وبعد [illegible] احرزت الثور[illegible] انتصارات هامة خدع قائدها بعد تدخل روسيا وبريطانيا ضد الثورة واذ [illegible] تركيا و بلاد فارس جهودهما لضرب الثورة واستدعي عبيد الله ال اسطنبول بحجة التفاوض معه ولكنه ما ان وصل الى هناك حتى اودع السجن بدل التفاوض.

[illegible] هذه القوات في [illegible] السلطان عبد الحميد الثاني بطلب من لدنه، لكي يعهد اليها بمقاومة العشائر المتمردة. وقد استقرت فوا[illegible] [illegible] وكان يقودها ابراهيم باشا الملي. الذي عرف بين الاكراد باسم «برهة باشا» وكانت سلطاته في ذلك الوقت تمتد الى «[illegible]» «الصالحية» دير [illegible] حتى حدود العراق.

الوهابية. تؤلفان سلطتين عربيتين اما الاحساء التي بقيت جزءا من الامبراطورية السعودية سنة ١٨٧١ فقد كانت قطعة من ... سيادة خارجية ليس الا في حين كانت الرشيد تؤلف تنظيما عشائريا خالصا لقبيلة «شمر» الجنوبية وكانت تشبهها في ذلك شبها تاما، في مستوياتها الحكومية والاجتماعية. ماخلا الاحساء بصفة جزئية. حيث بقيت شبه الجزيرة العربية الاصلية من دون اضطراب او تغيير في شكل حكومتها وجهالتها واقتصادياتها ذلك ان الثورة التي شهدها نصف القرن المقبل والتي بدأت تماما في العراق. لم تلق ظلالها بعد على شرقي الجزيرة العربية.

ظفر مبارك شيخ الكويت بالعرش في سنة ١٨٩٦ واعلن تبعيته للسلطة التركية مثل الشيخين اللذين سبقاه. كانت سنواته من الحكم تمثل صراعا في سبيل البقاء الذي حققه بتطبيق العدل الفظ في الداخل وادراك قيمة الرشاوى في اسطبول والبصرة ولذلك استطاع في ذلك القرن ان يظفر باعتراف السلطان به.

ولكن هذه الشهرة والمصلحة الخاصة الاخيرة، كانت لها اسباب اخرى. ففي سنة ١٨٩٧ ومن ثم في سنة ١٨٩٨ طلب الشيخ مبارك حماية الحكومة البريطانية له. وقد رفضت الطلبات التي تقدم بها في هذا الشأن. ولكن اخيرا في سنة ١٨٩٨ تغير الوضع بصفة مفاجئة فقد دارت اشاعات عن وجود احتلال عسكري تركي. والشروع بمد خط حديدي روسي من شواطئ البحر الابيض المتوسط. وكذلك المشروع الالماني لمد سكة حديد بغداد والذي كان يهدد بالوصول الى شواطي الخليج العربي.

تم ارسال المقيم البريطاني من بوشهر الى الكويت. وفي شهر كانون الثاني ١٨٩٩ وقع المقيم البريطاني على اتفاق مع الشيخ مبارك يلزمه بان لا يتنازل عن اية اراضي من اراضيه من دون موافقة بريطانيا[١٢] على ذلك. ولكن الضغط التركي المتجدد. ما لبث ان اوقف مطامحه في الاستقلال، غير ان مبارك بقي صامدا الى جانب اتفاقه مع بريطانيا وان ظل يحمل لقب قائمقام الكويت من لدن الاتراك.

ومنذ سنة ١٨٩٧ غدا بلاط الشيخ مبارك منفى شهيراً لرئيس الاسرة الوهابية الحاكمة عبد الرحمن السعود وولده الصغير عبد العزيز، اللذين هربا من موطنهما حين تغلبت عليه في سنة ١٨٩١ قوات السلالة الحاكمة في جبل شمر، بزعامة رئيسها الشهير الامير «محمد» الذي زاره الرحالة البريطاني «دوتي» حيث عينت تلك الاسرة نوابا للامير في مناطق الواحات هناك.

ومن ثم شهدت السنوات العشر الاخيرة من القرن الماضي تفوق سلطة ابن سعود على سلطة

---

(١٢) كان المقيم البريطاني في الخليج العربي الذي اتصل بالشيخ مبارك الصباح وعقد معه معاهدة ١٨٩٩ التي وقع الطرفان عليها في ٢٣ ... الثاني ١٨٩٩

الامير المنتصر الرشيد الذي ظل يقدم الولاء النافع للاتراك

اما في الاحساء محافظة حد من المملكة التركية فان الاحتلال التركي هناك والذي استمر ثلاثين سنة. لم يحاول انشاء حكومة اعتيادية فيها. ولا استطاع ان يؤثر في حياة الشعب تأثيرا كبيرا ولكن على خلاف الكويت كان الاحتلال التركي للاحساء فعالا بصيغة جزئية(١٣) ذلك ان الموظفين الاتراك كانوا يأتون ويذهبون. والقوات التركية تعسكر في المدن. والضرائب تجبى كما تم فتح المدارس الحكومية هناك وان ظل عدد الملتحقين بها قليلا

وكانت الادارة السنية تمتلك اموالا لها قيمتها في محافظة الاحساء التي كان المحافظون العراقيون ورئيس عشائر المنتفق وعدد من الاشخاص البارزين من البصرة. يحكمونها من وقت الى اخر



(١٣) بعد ان استولى الاتراك على اليمن، ضموا اليها «الاحساء» بصفة اسمية. وبعد ان قضوا على حكم اسرة «اجود بن زامل العامري الجبري» في سنة ١٥٩٢، اصبحت الاحساء تدار من قبل ولاة من الاتراك، كان اولهم «فاتح باشا». وفي سنة ١٨٧٠ جهز مدحت باشا والي العراق جيشا فتح القطيف والاحساء. وحين ثارت الاحساء على الحكم العثماني، استنجدت الدولة العثمانية بشيخ المنتفق «ناصر باشا السعدون» فسار بجيش قوامه اكثر من عشرة الاف مقاتل، فاخمد الثورة واعاد الاحساء الى الحكم العثماني.

(١٤) استغل ناصر باشا السعدون نجاحه في ضربة ثورة الاحساء، فحصل على امر من الباب العالي بتعيين ولده «مزيد» واليا على الاحساء، بدلا من «بزيع بن عريعر» (ابن حاكم الاحساء السابق). وبعد ان سحبت اكثرية القوات التركية من الاحساء» هاجمها في سنة ١٩١٣ عبد العزيز بن السعود فاستولى عليها وغدت جزءاً من المملكة السعودية منذ ذلك الوقت.

٤ ـ المجتمع العراقي ـ المدن

ابتداءاً من سنة ١٨٣٠ حتى سنة ١٩٠٠ حصلت تغييرات عميقة في المجتمع المدني في العراق وقد اخذت هذه التغييرات – وهي اكثر بروزا لدى الطبقة العليا ، وان كان محسوسا بها لدى الطبقة الدنيا ايضاً – تشع خارج هاتين الطبقتين في كل انحاء ذلك البلد المتخلف من الناحية الاجتماعية ، ففي اوائل القرن التاسع عشر ظل مجتمع المدينة في العراق معزولا كلية في الغالب ، عن المؤثرات الغربية فلم يكن هنالك اي اتصال مع العالم الخارجي ، وبقي طابع الحياة هو ذات طابع العصور القديمة ، حيث تشغل الطرق التقليدية الميدان القائم ، وتقوم الحياة في كل علاقة لها على اساس قواعد السلام ولم يظهر اي شيء من روح التقدم القلق ، وبقيت شرور الازمان ، مقبولة من لدن الجميع بكل ماتحمله من الدمار الشامل

كان وقع المفاهيم والفعاليات الغربية على هذا المجتمع في بلدان المشرق يجري بصفة تدريجية وكان هذا الواقع في العراق يعتبر من الامور المفاجئة نسبيا ، ذلك لان مثل هذه الافكار والظواهر قد جاءت الى العراق لاول مرة عن طريق الجيش الجديد الذي استطاع في يوم واحد ان يقضي على عصابات «الانكشارية» و «الهايتا»[1]

فقد كان ذلك الجيش يضم ضباطاً متدربين على ايدي الاوربيين ، وسرعان ماجاء في اعقابهم ، الاطباء والمهندسون ، وكل الافندية المقلدين للغربيين .

كان كبار الموظفين ، وهم ممن يتحدثون بالتركية ومن انصاف الاوربيين في تربيتهم ، تصحبهم زوجاتهم ، وكذلك الاولاد والاحداث الذين تعلموا في مدارس تقوم على طراز

---

(١) الانكشارية هو اللفظ الذي تعارف عليه العامة في العراق وفي تركيا بالنسبة الى الجيش الذي تألف في تركيا وعرف باسم الجيش الجديد – يني جيرى. اما «الهايتا» فانهم خليط غير متجانس من الجنود غير النظاميين كان الحاكم يستخدمهم لقاء اجور ومنها اشتق اسم «هتلي» بمعنى العاطل عن العمل ومعظمهم من العنصر الالباني وقد تم القضاء على الانكشارية والهايتا في عهد السلطان محمود الثاني الذي تولى العرش في ٢٨ تموز سنة ١٨٠٨ وفي سنة ١٨٢٦ نفذ السلطان محمود نفسه خطته في القضاء على الانكشارية اذ اوعز بفرض التدريب على بعض الفرق الانكشارية ولم يهن على الانكشاريين ذلك طبعا فاجتمعوا كلهم في احد الميادين واعلنوا الثورة على السلطان ثم تقدموا بجمعهم نحو السراي . وكان السلطان قد استعد لهم اذ نصب في مكانٍ ما عددا من المدافع تحت قيادة رجل يعتمد عليه اسمه ابراهيم ويلقب «قره جهنم» وقد استقبل ابراهيم هذا حشود الانكشاريين بقصف مركز من مدافعه وحين تراجعوا الى ثكناتهم لاحقهم واخذ يصب قنابله على ثكناتهم فاشعل النار فيها ولم يسلم احد من الانكشاريين (علي الوردي لمحات من تأريخ العراق الحديث ج ١ ص ٢٦٣ – ٢٦٤).

عصري . وهكذا بدأت دوائر البريد ، والبرق ، والتجارة الاجنبية والمشاريع تمارس اعمالها واستمرت الاقليات المسيحية واليهودية ، بعلومها الاوربية ، تؤلف مستوى عالياً من التعليم ، وتساندها في ذلك بعثات التبشير التي كانت تخدمها

كان الأثر الفعال لهذه المؤثرات ، قد انتج في سنة ١٩٠٠ مجتمعاً مدنياً عراقياً يختلف اختلافا كبيرا عن الحياة في العصور السابقة واذ تم تطعيم هذا المجتمع ، بالهاتف ، وبالصحافة البدائية ، وبالمقيمين الاجانب ، والاحاديث التي كانت تجري بين الموظفين في «السراي» ، وبين التجار والوكلاء في المقاهي ، وبين الرجال البارزين في الدواوين ، فقد استطاع المجتمع العراقي ، لاول مرة ان يحتضن مصالح اكثر سعة

ذلك ان معرفة القراءة والكتابة ، غدت مألوفة ، ومن ثم ظهرت التغييرات الداخلية والاجتماعية فقد اخذت اقلية تزداد عددا كل يوم ، في ارتداء الملابس الاوربية ، واصبح ناموس الحياة اكثر سرعة ولقد ازداد عدد افراد الطبقة الثرية ، وتعاظمت ثرواتهم ، فوجدوا ازاء ذلك طرقاً جديدة للانفاق

كانت الزعامة الاجتماعية ماتزال تستند الى اسس الابوية او الى الثراء ، وكان من النادر وجود طبقة من المثقفين . ولكن سرعان ما بدأت الافكار القديمة المسلم بها ، تخضع في اوساط اكثر سعة ، لنوع من عدم الرضا والتساؤل ، واصبح يحس بثقة قوية في العلم والمعرفة العصريتين اللتين كان ينظر اليهما قبلا بانهما صيغة ذات كفاية عجيبة

وما خلا مايتعلق بموضوع الايمان السلفي بالاسلام ، وهباته التي كانت تحظى بالاهتمام ، بدأت تظهر دلائل على تقليل الاحترام لذلك الدين وعلمائه ولكن ثقل هذا كان مايزال بعيداً جداً عن نقطة الانحراف نحو الالحاد ، كما انه لم يتم التخلي عن المقاييس القديمة للسلوك ، حتى من قبل المتطورين

لم يكن هذا التطور الاجتماعي الذي ابرزته مثل هذه العمليات ، يمثل اي تطور داخلي وطيد ، ذلك لان اي جزء من السكان كان يتطلع اليه ، كما انه لم يكن يتجاوب مع روحية الاختراع فلقد تم فرضه من لاشيء نتيجة الضغط الذي احدثته المكتشفات كالسفن التجارية والبرق من ناحية ، ومن ناحية ثانية نتيجة التأثير الغربي الواسع غير المقصود ، في كثير من النقاط وثالثا بفعل الحكومات ولذلك تم تقبله من دون تمييز .

ذلك ان الافكار ذات القيمة التي يشك فيها ، وروابط الكلمات المتحذلقة التي انطوت عليها السياسة الاوربية ، والمشاهد الاجتماعية الغربية عن الشرق ، كل هذه الامور اخذت تلق الترحيب لانها كانت جديدة ، ولانه لايوجد سوى فهم ضئيل لمدى اهميتها ولذلك فلم توجه العناية الى القواعد الصحيحة للفكر الاوربي ، ولا الى جوهره وفي الوقت ذاته غدا واضحا جدا بان المجتمع العراقي ، مهما كانت مميزات افراده ، ومواهبهم الانسانية او الاجتماعية ، فانه

كان مبتلى بشرور خطيرة ذلك لان مستوى التثقيف كان واطئا بالنظر الى المستويات الاخرى وكانت الخرافات المكثفة فيه ظاهرة بصفة بارزة ، اذ كانت النساء يعاملن معاملة مخلوقات غريبة ولم يكن الامن موطدا حتى في المدن ، وذلك بسبب انتشار الجريمة التي لم يكن ليعاقب عليها ، وبالنظر لوجود التطرف الطاغي القائم بين الاقليات وذلك في الاوقات التي تسوء فيها الاوضاع

كان سوء التغذية يشمل اربعة اخماس السكان وكان معدل وفيات الاطفال من اعلى المعدلات في العالم وكانت كثير من الامراض متوطنة ، لانه لم يكن يجري علاجها ، ولانها كانت تساهم في انتاج عنصر عادي ، او غريب من الناحية البدنية ، من امثال امراض الملاريا ، والحمى الصفراء ، والدزنتري ، والتيفوئيد ، والجدري ، والكوليرا الوافدة ، والانكلستوما والامراض التناسلية

وكان الامر الذي يتفوق على كل ذلك هو الضرر الساحق الذي يحدثه الفقر ، الذي لا يمكن ازالته الا عن طريق احداث تغييرات اساسية في اقتصاديات البلاد كلها ، فقد كانت الحاجة تدعو الى ايجاد روح جديدة ، واستغلال جديد للموارد ، وفي الغالب الحاجة الى عنصر جديد من الناس ، قبل ان تتم معالجة هذا الداء ، وذلك عن طريق التاكد من الطاقات الواسعة المتوفرة للقطر ، وباتخاذ موقف اجتماعي جديد

لقد كان عراق سنة ١٩٠٠ يمثل مجتمعا تتفشى فيه المستويات المنحطة ، وكل آفات الجوع والتذمر . ذلك لان المدن العراقية في سنة ١٩٠٠ لم تكن قد تغيرت لافي مظهرها ولافي اطارها ، عما كانت عليه لعدة قرون ، الا قليلاً ففي القرن التاسع عشر كانت تتوفر ذات المواد المحلية المستعملة في البناء ، وذات تصاميم المنازل والمساجد والاسواق ، ونفس الزخارف التقليدية التي كانت توحد الاحياء المزدحمة الخالية من التخطيط التي كانت سائدة خلال القرن السادس عشر .

لقد اصبحت الشوارع الآن ، تسمح بمرور عربات النقل اما الازقة الضيقة الملتوية فانها تؤلف الممر الوحيد لمرور الحمير ، او الحمالين الذين يحملون الاحمال على ظهورهم ولم تبن سوى قلة من المباني الحديثة ، ولكن حتى هذه كانت من طراز قديم ، غير ان هذه المباني اخذت تغير حدود المدن القديمة ، فاصبحت تؤلف العشار ، الناحية الجديدة للبصرة ، او جهة النهر في العمارة وهكذا بقيت بغداد ضمن خط من اكوام الانقاض التي كانت تؤلف اسوار بغداد قبلا كذلك اخذت الموصل تمتد الى بدايات حي جديد خارج حلقتها الضيقة جدا ، في حين ظلت اسوار البصرة مهدمة ، وكذلك اسوار كركوك او اربيل التي يندر ان يتذكرها الناس

كانت الاسواق والمخازن التي تؤلف القلب التجاري للمدن ، تجري حراستها من قبل حراس متعهدين كان التشنيع من بين الاعيبهم وكانت الجسور المصنوعة من قوارب مشدودة الى

بعضها البعض تستعمل في حوالي اثني عشرة مدينة من المدن التي تقع على ضفاف الانهار .
وكانت الانارة في الشوارع تتألف في احسن الاحوال ، من استعمال فوانيس قليلة توقد بالزيت وكان يجري تزويد الاهالي بالماء في قرب تحملها الحمير من شاطىء النهر او من ابار ملوثة في باحات خاصة

ولم يكن في بغداد سوى حي واحد من المدينة مزودا بانابيب تنقل الماء غير النقي (٢) وكان كناسو الشوارع يحتفظون ببعض مظاهر التأدب ، في الازقة الرئيسة وفي الاسواق ، في حين كانت تتراكم الاوساخ والقاذورات في بقية انحاء المدينة

وكان لكل مدينة او قرية كبيرة مقبرتها الخاصة بها والتي تقع في وسطها او في احد حوافيها وكانت خانات القوافل موجودة في كل مكان ولم تكن الفنادق ، التي لاتبلغ ادنى حد من اوطأ الفنادق الاوربية ، موجودة الا في بغداد وحدها

كانت ادارة البلدية ، ماعدا القرى المنتظمة ، يعهد بها الى رئيس البلدية ومجلسه وهذه الوظائف التي كان يجري اختيارها وفق اجراءات ترتفع الى حد ترشيح الحكومة لها ، تتمتع بامتيازات محلية ، لكن سلطاتها كانت محددة بصفة جامدة الى درجة ان المحافظ المحلي كان في الواقع هو الذي يسيطر على كل المشاريع وكل النفقات فلقد كانت بغداد في سني القرن التاسع عشر ، مقسمة الى ثلاث بلديات ، اثنتان منها للضفة اليسرى من النهر ، وواحدة للضفة اليمنى وكان امين العاصمة عضوا او مرشحا من لدن احدى العوائل الاساسية في المدينة ، او موظفا حكومياً ، وهذا لم يكن يحدث الا بصفة نادرة ولم يكن قانون البلدية كاملا ، وذلك لان قانون الضريبة والتنفيذ كان شديد التدقيق ، وكان نطاقه الاسمى ملموسا

ولكن هذا الادارات كانت في التطبيق العملي فاسدة ، وفعالة بصفة غير اساسية في تهيئة مرتب لاحد اشراف المدينة ، مع ثلاثة خدم مجانيين للمحافظ المحلي ومع كل ذلك فان مباهاة المدينة لم تكن ناقصة ، وكانت مشاريع تحسين المدينة من الموضوعات المشهورة بين عشرات القضايا التي ينعدم فيها النشاط والاعمال

ولابد ان كانت صورة المجتمع المدني في تلك الفترة ، تشتمل على مشاهد متغيرة فقد كانت البصرة ببساتين النخيل التي تمتد الى عدة اميال ، وشبكة الجداول والقنوات التي تجري فيها

---

(٢) اقدم والي بغداد «سري باشا ١٨٨٩ - ١٨٩٠ عند ابتداء ولايته في سنة ١٨٨٩ على انشاء حوض كبير في ساحة اقامها في محلة «خان لاوند» الحالية فاخذت نساء المحلة المذكورة والمحلات المجاورة ينقلن الماء من ذلك الحوض وقد انشئت اول مضخة للماء في بغداد في سنة ١٩٠٧ في ايام الوالي «حازم بك» (١٩٠٧ - ١٩٠٨) نصبت في «شريعة الميدان واجري الماء بواسطة الانابيب وكانت اجور الماء الشهرية لكل دار شيء زهيد وهي عشرة قروش صحيحة» (بغداد القديمة ص ٧٥ للمرحوم عبد الكريم العلاف الطبعة الاولى ١٩٦٠)

مياه المدن والنشاط الذي يغمر ضاحيتها التي تقع على النهر[٣] وباعتبارها الميناء البحري الوحيد للعراق ، وباتصالاتها اليومية مع نجد والمحمرة ، وغناها بالبساتين التي يمتلكها الاشراف ، وبتجارها ، ووكلائها العالميين ، كل ذلك كان من الامور التي لها ميزة فريدة في العراق انذاك .

ومن المدن الاخرى في محافظة البصرة ، مدينة «القرنة» التي يسيطر عليها ابناء العشائر ، وقرية ابو الخصيب غير العشائرية والمتنامية ، ومدينة الزبير التي كانت تقع عند حافة الصحراء ويحكمها شيوخ وارثون وكان من بين العوائل البارزة في البصرة عائلة النقيب ، وبيوتات آل باشا اعيان ، والمنديل ، والصانع

وكانت بغداد بضواحيها المهمة الاعظمية ، والكاظمية ، وكرارة[٤] تؤلف اعظم مركز تجاري في ولايات العراق كلها فقد كانت مهمة من الناحية الصناعية ، ولها السيطرة الادارية والعسكرية

كانت المدينة ضعيفة واهنة ليست لها اية تحسينات عصرية ، ومن دون وقاية من اخطار فيضانات النهر . ولم تكن تشتهر الا باثنتين او ثلاث من البنايات التذكارية والمساجد ذات الاهمية التأريخية ، اضافة الى مرقد الشيخ العظيم عبد القادر الكيلاني وكذلك تشتهر بغداد بمجتمعها الواسع المؤلف من كبار الموظفين ، وباوساطها المؤلفة من الاسر الاسلامية ، وبطائفتها اليهودية الثرية نصف الاوربية ، وبيوتات تلك الطائفة من اشكال بيوتات دانيال وساسون واطبائها ومحاميها ، ورجال الاعمال ووكلاء التجار النشيطين فيها وبهذا كانت تستطيع على اقل تقدير ان تدعي المساواة مع البصرة في طليعة التقدم الذي اصاب العراق . ففي كلتا المدينتين بغداد ، والبصرة ، كان المجتمع الاوربي الصغير ، الذي يتزعمه القناصل ، ويسيطر عليه البريطانيون ، يحتفظ بمنازله المريحة ، وبنواديه والعابه ، ويجد الحياة بهيجة هناك .

ومع ان الموصل كانت متخلفة تخلفاً بعيدا ، فقد كانت اقل مستوى في اوضاعها ، وابعد عن المؤثرات الغربية ، ماعدا الفرنسيين الكاثوليك الذين يعيشون فيها ومع ذلك كانت الموصل تتصرف بمثابة نقطة اتصال بين الجزيرة والمرتفعات الكردية ، وتحتفظ بجو دائب النشاط لكنه غير تقدمي بين سكانها المختلطين . فعلى الرغم من الشرف الذي تتمتع به العوائل الرئيسة فيها ، من باشوات الاقليم في الايام الخوالي ، وبيوتات آل الجليلي وآل العمري ، وبعض العوائل المسيحية المشهورة ، فقد كانت شهرة الموصل سيئة في ممارسة اعمال الجريمة وفي تطرفها ، وقذارتها ذلك

---

(٣) المقصود بذلك منطقة العشار وهي من المناطق الحديثة في البصرة وقد نشأت بعد ان اخذت السفن تتقدم الى البصرة وتقف عند مصب نهر العشار في نهر شط العرب .

(٤) كرارة هي المنطقة التي تقع فيا وراء نهر ديالى جنوبي بغداد وكانت في مرتبة قضاء في العهد العثماني وفي مكانها تقوم الان ناحية جسر ديالى في الطريق القديم الى سلمان باك (المدائن)

لان عواصفها الترابية ، وخلوها من الشجر ، لايتفوق عليها سوى الدخان المنبعث من افران الكلس والذي قد يجتذب بعض الزوار

وفي المدن الاخرى التي كانت اقل حجما سواء كانت عربية ام كردية ، اخذت اجواء المجتمع واحواله تتغير تغير واسعا تبعاً للمحيط فكثير من المدن لم تكن لتحظى باية اهمية سوى انها كانت تؤلف نقطة مرحلية للقوافل ، او ان توفر سوقاً لاحدى المناطق الزراعية ، او محطة لتزويد البواخر النهرية بالوقود ، او معسكرات للقوات المسلحة اما المدن الاخرى فقد كانت لها صفتها الفردية جدا من امثال مدينة «هيت» والتي اشتهرت بصناعة القار فيها ، وكركوك واربيل باعتبارهما نقاط اتصال مع كردستان وكانت خانقين نقطة اتصال مع بلاد فارس ، في الوقت الذي كانت تبرز فيه كل من مندلي وبدرة شرقي جبال بشت كوه ، احاسيسها واهتماماتها ، وكانت السليمانية عاصمة للاكراد الجنوبيين ، وكانت تسيطر عليها العائلة المقدسة المضطهدة عائلة السادة البرزنجية وكانت حلبجة مركزاً مدنياً بقبيلة الجاف الكبيرة ، مثلما كانت العمارة هكذا بالنسبة الى سكنة اهوار دجلة ، الناصرية بالنسبة الى ال المنتفق

وتشتهرالكاظمية وسامراء بوجود المراقد الشيعية فيهما وباعتبارهما اماكن للزوار من الفرس ، في حين كانت بعقوبة وشهربان ودلتاوة مراكز لاقطاب ملاك الاراضي

وكانت مدن اواسط الفرات تعاني ، في ذلك الوقت ، من الاضطراب المؤذي الذي يحل باوضاع الري في نهر الفرات اما في الفرات الاعلى ، فان مستوطنات الدليم سرعان ما تحولت الى قرى لها صفة المدن وفي مدن اقضية محافظة الموصل ، الى عقرة ، ودهوك ، والعمادية ، وزاخو ، ورانية ، وراوندوز ، وكويسنجق ، كانت الحياة المدنية فيها اخذة بالتطور . ولقد استطاعت طبقة من اشراف المدن وهي دينية ، في بعض الاحيان ، ان تحافظ على كيانها ضد الاغوات القبليين . ومع كل ذلك فقد كانت مهمة المدن المقدسة في الفرات ، اي كربلاء والنجف مهمة خاصة فقد كانت هاتان المدينتان المركزين الشيعيين المضادين للنفوذ التركي في الاقليم ومع انه لم تكن هناك اية منطقة ، او طبقة اجتماعية في البلاد تجهل دينها او غير معروفة بملاحظاتها العصرية والاجتماعية التقليدية ، وبذكائها البديهي الحي ، فقد كانت مظاهر الحياة العقلية والثقافية تعد نادرة

ذلك ان المستوى العام بالنظر الى الالمام بالعالم ، بماضيه او حاضره ، او لتقييم الجمال ، كان واطئا حتى بين الطبقات التي كانت تعرف القراءة والكتابة في المدن. فقد كانت الامية والجهل عميقين بين افراد العشائر ، ولم تكن الفنون لتمثل الا في مستوى ضيق جدا من الموسيقى التقليدية ، وقطعة من الاغاني العربية التي يتذكرها القوم ، والقصائد العصرية لاثنين او ثلاثة من الشعراء المحترمين ، وسوى الزخرفة الهندسية في اعمال الاجر ، والحقير جدا بل التافه من الصناعات اليدوية .

وكان مستطاعاً ان يتم العثور على التعليم الذي لايتميز بالاهمية ، في عدد نادر من الدارسين بين افراد الاقليات (مثل الاب انستاس الكرملي) ولدى بعض الافراد من بعض اسر الطبقات الرفيعة من امثال آل باش اعيان، والالوسي، والكيلاني والعمري، ممن كانوا يحتفظون بمكتبات اهلية خاصة بهم، ويضعون تواريخ لمدنهم، ولاسرهم.

اما مايتصل بالنشر ، وانتاج الكتب او النتاج الادبي المقروء بصفة عامة فلم يكن من ذلك كله شيء ما سوى وجود صحيفة رسمية كليلة. وكانت الاكتشافات الاثرية ، وهي من اعظم دعاوي العراق في الاهتمام بالعلوم في حينه ، كانت هذه الاكتشافات الاثرية تؤلف بالنسبة الى العراقيين سرا مجهولا او سرا مشكوكا فيه ، في حين كانت الطبقات الحرفية من امثال المحامين والاطباء والضباط العسكريين ، يحصلون من المصادر التركية على نزر المعرفة المتخصصة لكنها لاتبلغ المستوى المقبول في اوربا اما الفروع الاخرى من المعارف ، من امثال الزراعة ، والهندسة ، والاقتصاد فلم يكن يوجد اي شيء من ذلك او لايمكن اظهار شيء ما

ويكون التاريخ الفقهي والديني وقفاً على طبقة واحدة على حدة فهذا العلم يتمثل لدى الاسر الدينية في كيان من التعليم الاصلي الحقيقي ولكن في مجال محدود نتيجة لتقاليده الضيقة وانعدام الاصالة اما لدى ابناء الطائفة الشيعية ، وقبل كل شيء في المدن المقدسة ، فتكون امثال هذه الدراسات مترادفة مع التعليم ذاته ، لانه لايوجد غيرها من الدراسات ، وتحظى بالاهتمام غالباً واذ كان هذا النوع من التعليم يقتني زمن الحياة ، في سبيل الذكرى والتظاهر المجرد بالعلم ، ويجتذب المئات من التلاميذ الباهتين الذين ربطوا مصيرهم بحياة دين موهوب يظفر بالحماية ، لذلك كان مثل هذا التقليد ، يؤلف البضاعة الرابحة والاحتكار لدى العالم او المجتهد اللذين كانا يدعيان ، طبقاً لهذه القاعدة ، بانهما هما اللذان يجب ان يتزعما العشيرة والمدينة في كل الشؤون الحياتية



٥ ـ المجتمع العراقي ـ العشائر

اذا كانت عناصر التقدم الاجتماعي النسبي قد وجدت في المدن، فما ابعدها عن الاكثرية الساحقة من السكان في الخارج، والتي كانت ما تزال تعيش في عالم بعيد عن التغيير؟ ذلك العالم الذي ما يزال يهيمن عليه مستوى خاص من الافكار الموروثة، من الولاء والكراهية، حيث لم تكن عوائد الحياة المدنية وحدودها معروفة، وحيث تكون للمشاهد الاجتماعية، من امثال الزواج، والقرابة، وتسوية المنازعات، قواعدها التقليدية وهي غير معروفة للقانون السكني، وحيث يكون لفضائل الصحراء من الكرم والشهامة تفسيرها. في مثل هذا العالم الخاص الممزق، والمحاط به، تكون المدن والقرى الكبرى في العراق في كل ناحية، هي التي تسيطر على كل المواصلات، وتحتفظ بتسعة اعشار الاراضي المزروعة.

اما العشائر، وهي متشابهة في اعرافها، ونظرتها – وكل واحدة منها تركز همها على الولاء الشديد – فانها مع كل ذلك كانت تختلف فيما بينها بالنسبة الى القضايا المهمة. ومن هنا كان لمحيطُ العشيرة تاثيره، ليس في الاقتصاديات حسب، وانما في نمط الحياة ايضاً.

لقد كان الاكراد الجوابون يتحركون بين الجماعات المستوطنة، في حين كان عرب الصحراء يقيمون في عالمهم الفارغ المنعزل. ومن هذا العالم برز ابتعادهم العقلي، وعدم تقبلهم لقوى الحكومة. اضافة الى تعرضهم للاذعان والخضوع نتيجة اعتمادهم على الاسواق التي تقع في اطراف الصحراء وعلى مثل هذه الشاكلة كانت اوضاع قبائل «الضفير» في القسم الجنوبي الغربي من العراق، و «عنزة» في سهوب الشامية، و «شمر» في الجزيرة العليا، وجماعات اخرى اصغر حجما داخل العراق.

كان محيط العشائر المتوطنة التي تشتغل بالزراعة، يختلف طبقاً لطريقة الري التي كانوا يزرعون بها، ووفقاً لطبيعة حاصلاتهم ايضا، فالفواكه والتبوغ كان ينهض بها المزارعون في كردستان، في حين كان زراع الحنطة والخضراوات من سامراء، يختلفون اختلافا واسعا عن اصحاب بساتين النخيل في بعقوبة والشامية او عن العاملين في حقول الرز من «البو محمد» او «الفتلة». ذلك ان امثال هؤلاء الناس كانوا يعتبرون من الاخساء في عيون طبقة النبلاء الارستقراطية الفاشلة الجائعة التي كانت تسكن الصحراء.

وكانت اصول العشائر من كل نوع، متغايرة هي الاخرى، مثل تغير محيطاتها. ولكنها مع كل ذلك كانت اقل يسرا في طريق تطورها.

كان العنصر الذي يحفز على الوحدة والولاء هو الاسم لدى كل هذه العشائر، وهو نفسه يؤلف عقدة التقليد المشترك التي يهض بها. غيران التساؤل عن الهوية العشائرية، وزمانها، كانا من الامور التي تندر الاجابة عنها. وذلك لان ذاكرة القبلي تكون قاصرة، ويكون حبه للاسطورة طاغيا. واحساسه بالمكان وبالزمان مبهماً.

كانت بعض العشائر تتألف بشكل واضح من مجرد جماعات مستقرة من الجيران الذين يقطنون ذات الوادي او نفس شاطيء النهر، مثال ذلك، «الزيباريون» و «السوامرة» في حين كانت عشائر اخرى تنبع عن مجتمع نشأفي احدى الواحات، او عند الابار او الاضرحة، بكل ما عرف عنها من تكاثرها، وسرعان ما تماثلت هذه المجمعات فيا بيها، وذلك هو النطاق الذي تدعو اليه طبيعة الحياة.

اما بالنسبة للعشائر الاخرى، فتكون رابطة النسب الاصلية هي التي تحتفظ بها الاسرة المتحكمة فيها بصفة مؤثرة، ومن ثم تبدأ بانتشار اوسع فاوسع عن طريق التزاوج داخل المجموعة، وابراز الاحساس لها من جانب مئات الاقارب المخلصين الممتازين، الذين تم الاعتراف بهم من الخارج على مدى قرون. والحقيقة ان صلة القربى التاريخية او المدعاة او المتصورة، ما تزال تؤلف جوهر النواة العشارية.

وقد يختلف حجم العشيرة من خيام قليلة الى اتحادات مترابطة، ذات تماسك اوسع او اقل، كأن تصبح مثلاً اثنتي عشرة عشيرة خاضعة لسلطة مفردة. ولكن ليس هناك مظهر من مظاهر الحياة العشائرية يكون اكبر مشقة على وجه الدقة، من التنظيم الداخلي للعشيرة او تضامنها او انعدام ذلك التضامن. ذلك لان السلطة التي تخضع لسلطة اخرى، لا تتكون الا بفضل صفات يتم الاعجاب بها، من امثال الولادة، والعمر والقبول، ولكن مثل هذا الخضوع قد لا يكون ثابتا على الدوام.

ويبقى العقل الغربي دوما في حيرة، من شدة احتمال تحطم السلطة العشائرية، ومن المهارة والصرامة المتينة اللتين يبدوبان كل شيء في العشيرة انما يعتمد عليها. وفي وسط عناصر التنوع الكثيرة، قد تصبح العشائر موحدة في اسس نظرتها، وفي مستوى مراحل تطورها، وفي احساسيها المشتركة التي تتميز، عن سكان المدن المحكومين، ولذلك تكون سلطة العشيرة ان في سبيل الخير او الشر، موكولا بها الى فئة مشهورة من شخصيات يسمح نطاق المجتمع المطلق ببروزها. فمها كان ساكن المدينة في بغداد او الموصل يتحسس بالصرامة او القسوة اللتين يتحسس بهما رفيقه العشائري ساكن الريف والذي قد لا يعترف به الا مترددا، فلابد له من ان يعترف بقوة بعض الشيوخ وفرديتهم وتلك صفات نجدها متساوية لدى شخص عظيم من شيوخ

الصحراء من امثال شيوخ عشائر عنزة او شمر، او لدى زعيم لقلة من سكنة اكواخ القصب في بحيرة الحمار، او لدى امير من امراء ربيعة او زبيد او لدى احد اغوات الريف الكردي.

وعلى الرغم من كل الضوضاء الناجمة عن السياسات المستقرة للعشائر، وعداواتها، فقد كان يبدو جيدا للمراقب، بان الاحوال المادية والاجتماعية للعشائر في سنة ١٩٠٠، لم تتغير تغيراً اساسيا عما كانت عليه طيلة قرون، ومع كل ذلك كانت التغييرات في الواقع تتحرك عبر نشاط طويل، كما كانت نفس هذه التغييرات في جوهرها تتحرك ايضا بين سكان المدن، وهي ناجمة عن ذات التغيرات التي اوجدها الزمن. لقد تغير المفهوم التركي للحكومة، واستبدلت سيطرة المناطق العشائرية بفرض الضرائب على الزراعة باعتبارها انها هي الغرض من السيطرة، واصبحت القوات العصرية متوفرة. وحتى افراد العشائر انفسهم لم يستطيعوا ان يتجاهلوا تأسيس المحاكم التي كانت على الاقل تدعي بالحكم الجماعي، وتطالب بتسليم المجرمين من لدن الاشخاص الذين يلجأون اليهم من العشائريين. ذلك ان مدير الناحية مع حفنة من ضباطه، يستطيعون ان يبرزوا من مقرات غير بعيدة. وغدت خطوط البرق منظورة، واصبح سعاة البريد يتنقلون راكبين من مدينة الى اخرى.

وفي السنوات الاخيرة من القرن، شهدت مجموعة جديدة من المدن، من امثال الناصرية في المنتفق والعمارة في ادنى دجلة والكوت والبغيلة [1] تنمو باعتبارها نقاط تموين للبواخر بالوقود، اضافة الى بناء خانات جديدة، ومراكز للجندرمة على طول الطرق الرئيسة. ولقد اصبحت السيطرة التي يمارسها رؤساء القنوات الكبيرة، من الوظائف الحكومية. وغدا المحافظ اكثر فاكثر هو الذي يفصل في المنازعات العشائرية. كما احدث تسجيل الاراضي العشائرية الجماعية في دوائر التسجيل العقاري، باعتبارها ملكا خالصا للشيوخ وحدهم، علاقة جديدة كانت تترجرج بين مالك الارض والفلاح، وقد اضرت هذه العلاقة بالرئيس وبتابعه المخلص له على حد سواء.

وهناك عناصر اخرى اقل وضوحا، كانت تعمل عملها في تقويم العزلة الريفية القديمة. فالادراك المتزايد للعالم الخارجي قد حدث نتيجة الزيارات التي كان يقوم بها وكلاء التجار الذين يشترون الحبوب، بعد ان جعلت البواخر، التصدير المكثف للحبوب امرا ممكنا. فالتأثيرات التي احدثها تسيير البواخر ذاتها كانت تنطلق من الداخل، من البصرة ومن الزوارق التي تمخر نهر دجلة، ولذلك اخذت السلع المصنعة تتغلغل الى كل عشيرة. وغدا الشراة، والافندية والضباط، وجمهور المدينة الذي يندر ان يزوره احد من افراد العشائر، غدا هؤلاء أنفسهم ادوات عاكسة تعكس، في نوعيتها ودرجتها، ذلك النور الباهت عن المخترعات الغربية في عالم الحديث والاراء والمقارنات.

---

(١) البغيلة هو الاسم القديم الذي كان يطلق على النعمانية الحالية والتي تقع على مقربة من المكان الذي بنى النعمان ابن المنذر فيه قصوره الشهيرة.

لقد اخفقت قلة من الرحالين الاجانب خلال سني القرن التاسع عشر، في ان تعلق على التقدم الاجتماعي الذي حدث في الربع الاخير من ذلك القرن. وعلى التغلغل الواسع للحكومة التي كانت تمارس حكمها من مناطق خارجية بعيدة.

لقد كانت قبيلة الضفير التي تغطي الصحراء الجنوبية الغربية على جانبي الطريق الممتد الى نجد، تعيش علاقات سيئة مع ابن الرشيد ولذلك كانت تغير على قبائل مطير وعنزة.

وكانت قبيلة عنزة وهي من اوسع المجموعات البدوية في شمال الجزيرة العربية، تمسك بصحراء الشامية من النجف الى هيت. كان زعيمها المتعلم «ابن هذال» قائمقام الرزازة[٢] عرضة للمحاكمة الان على يد الاتراك، حيث حكم عليه بالسجن، قد اخذ يتعقب خصومه القدامى من قبيلة «شمر» ويزدري بالحكومة. فلقد كانت عشائر الدليم في سنة ١٩٠٠ قد استقرت على نطاق اوسع في جزء من الارض تحيط به سلسلة من مراكز الشرطة على امتداد الطريق الى مدينة حلب.

ومنذ عهد بعيد، امضت قبيلة شمر، ايام عظمتها في الوحدة الثابتة. وما ان دخلت غمار الحرب مع شخصية شهيرة في ذلك الوقت، هو ابراهيم باشا زعيم جماعة «المللي» الكردية، ورجل الدين، والقائد العام للقوات الحميدية، عميلة السلطان عبد الحميد[٣] حتى وجدت قبيلة شمر نفسها مجزأة بشكل مرير الى افخاذ بين اولاد فرحان باشا، [٤] ولكنها كانت تستطيع ان تظهر امام سلطة محافظة الموصل ضد دير الزور، وان تنهب وسائط النقل النهرية، وان تحكم بنفسها. وترفض المصالح الحكومية.

اما في الفرات الادنى فان السلطة التي كان يتمتع بها امراء السعدون على خليط من العشائر، غدت معرضة لخطر الانقسام والتدهور.

---

(٢) من المناطق التابعة لمحافظة كربلاء وقد اعتبرت احدى اقضية كربلاء نظرا لكثرة العشائر التي كانت تقطن فيها. اما ابن هذال فهو محروت الهذال شيخ عنزة في العراق ولقد قربه الانكليز اليهم كثيرا خلال الحرب العالمية الاولى وما بعدها

(٣) ابراهيم باشا الملي قائد القوات الحميدية، احد زعماء الاكراد المشهورين بالشجاعة وبالورع: وكانت كل عشيرة توافق على الانضمام الى هذه القوات، تقدم احد فرسانها فيبقى في الخدمة ثلاثا وعشرين سنة، ولهذه القوات اصناف هي: الاحضارية، والنظامية والاحتياطية (كردستان في سنوات الحرب العالمية الاولى تأليف د. كمال مظهر احمد ترجمة محمد ملا كريم ص ٨٥).

(٤) تولى فرحان باشا زعامة «شمر الجربا» في العراق بعد مصرع ابيه «صفوق» بامر من الوالي محمد نجيب (١٨٤٢ – ١٨٤٨) وذلك لان «صفوق» تحالف مع «بدرخان» زعيم قبيلة «بوتان» الكردية في الثورة ضد الحكومة. ولما كان «فرحان» قد عاش زمنا منفيا مع ابيه في اسطنبول، فقد تأثر بمظاهر الحضارة والتقدم في العاصمة العثمانية.

ولذلك عندما تولى المشيخة، كان اكثر اقتناعا بسياسة التفاهم مع الحكومة، والاستقرار في الارياف. واستجابت الحكومة لميوله تلك، فرتبت له مرتبا شهريا كي يمتنع عن الغزو، وتغاضت عن استيفائه الاتاوة «الخوة» من القبائل التي كانت تمر عبر اراضيه. (د. عبد العزيز ابو نوار: تأريخ العراق الحديث ص ١٦٩ ومابعدها).

في خلال جيل واحد، برزت مدرستان منفصلتان للزعامة اولاهما محاولة كل من ناصر باشا في اول الامر ومن ثم ولده فالح[*] فيما بعد، لتحويل افراد العشائر الى فلاحين اليفين في مزارع آل السعدون التي خططتها سياسة تسجيل الاراضي العثمانية، ووضعتها تحت اقدام المزارعين منذ عصور طويلة. اما المدرسة الثانية فهي محاولة منصور باشا في اول الأمر، ومن ثم ولده سعدون فيما بعد، الحفاظ على الاستقلال القديم الذي كان يتمتع به آل السعدون.

وهكذا ارتبطت المطامع والكراهية الشخصية، بمسألة السياسة الواضحة مع حكومة كانت تلعب لعبة الانتهازية المترنحة.

لقد استمرت الحروب العشائرية سنة بعد اخرى وساهمت فيها القوات التركية احيانا. ولم تكن الحكومة المدنية فعالة في الغالب، ومع كل ذلك فان توطين العشائر وتفكيكها، كان يجري بشكل نصف منظور، طيلة الوقت.

ما يزال اليوم الذي يمكن فيه دفع «العشر» بشكل هاديء من قبل فلاحي المنتفق، بعيدا، وذلك بسبب الخوف الذي عرف في الماضي من وجود جيش منتفقي موحد. كانت عشائر الفرات الاوسط تمثل في هذه الفترة، صورة مشوشة لتأريخ محلي متشابك. وكان النموذج البارز لتلك العشائر، يتمثل في عشائر «بني حجيم» و «شبل» و «الفتلة» و «الخزاعل» و «بني حسن» اضافة الى عشائر منطقة عفك والدغارة. ولقد تحولت هذه العشائر مؤخرا الى العقيدة الشيعية وبذلك وقعت تحت نفوذ «الملالي». وتظهر السجلات التي تخص هذه العشائر في اواخر القرن التاسع عشر، ازدياد توطن الاقسام التي ترعى المواشي منها، والانصياع التدريجي لجباة الضرائب من الاتراك الجشعين، والضعفاء في ذات الوقت. فلقد احدث اولئك الجباة تنافرا بين العشائر صحبته اعمال النهب والسلب، واطلاق نيران البنادق بصفة غير متعمدة. في المعارك العشائرية، كما اظهر افراد هذه العشائر تعطشا مريرا الى املاء الشواغر التي تحدث في رئاسات العشائر، والتي كان مدير الناحية، او القائمقام يستطيع ان يتدخل فيها حين يقدر على ذلك التدخل. وعلى الرغم من قدرة زعيم موحد، كان هنالك ميل نحو التسوية، و «الانقسام، وانعدام الوحدة. وكان يتم

---

(٥) ناصر باشا تولى مشيخة المنتفق بالالتزام بدلا من فهد بك وذلك في عهد ولاية نامق باشا ١٨٩٩ - ١٩٠٢ وفي عهد ناصر تم بناء مدينة الناصرية تخليدا لاسمه والتي خططها احد المهندسين الفرنسيين. كما تخلت الاسرة السعدونية في عهده عن حياة البداوة وتذوقت حياة الحضر واكثرت من تسجيل الاقطاعات باسماء افرادها

اما فالح بن ناصر فقد حاول التمرد على الحكومة العثمانية فجردت عليه حملة كبيرة اوقعت به الهزيمة ولذلك هرب ال سعدون الى الحوزة في اقليم الاحواز ومكثوا فيها زمنا ثم اذنت لهم الحكومة بالعودة الى المنتفق فعادوا بصفة ملاكين واقطاعيين الى ان برز منهم سعدون بن منصور الذي اعاد للاسرة مجدها القديم

(٦) منصور باشا هو ابن الشيخ راشد وشقيق ناصر باشا الذي مر ذكره قبلا، وقد انشق على اخيه ناصر بعد ان ساهما معا في [illegible] الشيخ فارس، اختارت الحكومة العثمانية «منصورا» هذا لزعامة الاسرة ومنحته لقب باشا، ولكن ايامه لم تطل كثيرا بعد [illegible] ناصر باشا. «ذكرى عبد المحسن السعدون للشيخ علي الشرقي طبعة ١٩٢٩ بغداد ص ٤٢ [illegible]

دعم مثل هذا الانقسام عن طريق نشر النظام الجديد الذي يخص تسجيل الاراضي، واقدام الادارة السنية على شراء كل المقاطعات الزراعية التي تستطيع استثمار اراضيها من دون اية وكالة عشائرية.

ولقد ادى تحويل مياه الفرات من القناة الشرقية الى القناة الغربية، والذي سيرد ذكره فيما بعد، الى حدوث تغييرات وتأثيرات عميقة بالنسبة الى تنقل العشائر، كما ادى في ذات الوقت الى وقوع مصادمات، وانشقاقات، وغزوات، وجعل السلطة المباشرة للحكومة تبدو وكأنها هي الاداة الوحيدة المسيطرة على مياه نهر الفرات.

كذلك شهد القسم الادنى من نهر دجلة في نهاية ذلك القرن، احداثاً كانت تنذر بعواصف الحرب الاهلية. فبالنظر الى وجود عدد قليل من العشائر التي كانت تسكن الاهوار، والى ظهور المدن الجديدة غير العشائرية، اصبحت الجماعات المسيطرة هي جماعات «بني لام» الذين كانوا يمتلكون الابل، و «البو محمد» الذين كانوا يزرعون الرز. كان رخاء تينك العشيرتين يعتمد على تخصيص الحكومة للمقاطعات الزراعية والتي كان توزيعها بصفة دورية يؤدي في العادة الى حدوث مخاصمات شديدة. وعلى هذه الشاكلة اضيف الى الاسباب الاعتيادية للحروب العشائرية، سبب جديد مثير، كان من تطبيقاته المعتادة، الاعتداء على وسائل النقل النهري في دجلة ونهبها. ولذلك كانت الهجمات المسلحة على مثل هذه الوسائل تمثل المظهر المشترك للحياة في «العمارة». وكانت هذه الاعمال تشتمل على مصاحبة الضبطية [٧] للزوارق التي تحركها الرفاسات، واحتجاجات الوالي، وارسال البرقيات من لدن مدراء شركة بيت لنج الى لندن بالاضافة الى النفقات التأديبية والتي لم تكن ناجحة في اغلب الاحيان.

ولقد بقي الشيخ غضبان آل بنية يتمتع بالثراء وبالمركز المرموق بين عشائر بني لام طيلة عشرين سنة حتى وفاته في سنة ١٩٠٣. في حين كانت السلطة بين عشائر البو محمد تتركز في بيت «خليفة» الذي كان يحكمها، والتي كانت تتعرض لمنافسات لا انقطاع لها.

اما مجاميع الاقوام التي استوطنت القسم الاوسط من نهر دجلة، ومنها قبيلتا «ربيعة» و «زبيد» فقد عاشت ايامها في تمرد موحد. كانت هذه المجاميع قد اخذت تتوطن هناك تماما، منذ اواسط القرن. وعانت قبيلة زبيد انشقاق عناصر كبيرة منها ورحيلها الى منطقة الحلة. كما ادى نمو المدن التي كانت تمد السفن بالوقود من امثال العزيزية، والصويرة والكوت الى احلال نطاق ما من سيطرة الحكومية عليها، وتوفير الفرص الاقتصادية لها.

---

(٥) المقاطعة عبارة عن منطقة محددة من اراضي قابلة للارواء تكون في بعض الاحيان ذات مساحة واسعة، وقيمة انتاجية كبيرة، ويتم تاجيرها الى احد شيوخ العشائر وفقاً لايجار سنوي يدفع مبلغه نقدا ولذلك كان امتلاك مقاطعة جيدة، عرضة لحصول منافسة حادة

(٧) الضبطية هي القوة التي الفها الاتراك وكانت مهمتها في الدرجة الاولى جباية الايرادات الزراعية من المزارعين والعشائر

(٨) ذكره المؤلف باسم «الشيخ بنية» والمقصود به الشيخ غضبان بنية» رئيس عشيرة بني لام

وعبر المنطقة الملحقة من جبال حمرين بولاية الموصل، كانت الحكومة قوية نسبيا في جميع الاوقات. كانت العشائر التي تعيش هناك، وهي البيات والداوودية، و«دزئي»، بعيدة عن الاعتداء بصفة عامة، وان لم تكن تخضع لسلطة القوانين الابشكل طفيف.

كانت حياة هذه العشائر الخارجة على القانون، وذات الصفة الذاتية المركزة، ماتزال على مثل ماكانت عليه حياة الالوف من الاقطاعيين الذين كانوا يسكنون ذلك الوادي غير المحكوم.

لم تكن المطاليب التركية، في القسم الاعظم منها، مطبقة وظاهرة ومع كل ذلك فان تغلغل الوسائل الحديثة غدا مشهودا خلال خمسين سنة من الزمن، واستطاعت هذه الوسائل الحديثة، رغم تعرضها لمزيد من الطعنات المحلية والازدراء، ان تواصل مسيرتها، وان تكسب موطأ قدم لها هناك.

كانت السيطرة التركية التي تجري ممارستها على افضل وجه، في الاراضي المنبسطة التي يسهل الوصول اليها، تغدو اشد ضعفا، وتصل حتى الى نقطة التلاشي تماما في المناطق الجبلية. فلقد كانت قبيلة «الهماوند» في بازيان» وهي من اشهر القبائل السلابة، تغير على القرى فتصل حتى الحدود الروسية، ومن ثم تروح ترهب سكان الارياف المحيطة بكركوك، ولا يفتأ افرادهم المغيرون ان يعودوا سالمين من اصقاع قصية جدا، ليعيشوا في ظروف متباينة تماما مع السادة البرزنجيين المحترمين. في حين كانت عشيرة «الجاف» التي استوطن قسم منها داخل الاراضي الفارسية، وسهل «غول عمبر» مايزال افرادها يتنقلون بين العراق وبلاد فارس تحت زعامة موحدة كان يفرضها «محمد باشا»[٩] على كل رجل من قومه، في حين استطاع اخوه «عثمان باشا» مع زوجته الفارسية المعتقة «عادلة خانم» تكوين منطقة «حلبجة» والسيطرة عليها سيطرة مطلقة، وبذلك استطاعت «الجاف» ان تنازع الحكومة، وترفض دفع الضرائب، وتعمد الى قطع خطوط البرق، وتذكر الناس بالطرق التي كان يمارسها بيكات «البيرة» القدامى[١٠]



---

(٩) رئيس [illegible] الجاف، التي استوطنت قضاء حلبجة

(١٠) [illegible] (دره بيكي) اي حكام بعض المناطق

٦ ـ الموارد والمواصلات

يعود كثير من المآسي او معظمها التي كان العراق يعاني منها في سنة ١٩٠٠، - كما هو منظور - الى سبب واحد، هو الفقر الطاغي في البلاد وفي الحكومة معا. ولابد من التساؤل اذن كيف صار العراقيون المحدثون وحكومتهم، يحيون تلك الحياة الفقيرة في بلد اشتهر بثرائه منذ القدم؟

كانت الموارد المعدنية لولاية العراق في ادنى درجة. ذلك ان الحجر الذي كان يستعمل للبناء في الشمال، والطين الذي يستعمل لغسل الملابس [١] وبعض الكبريت والملح، وشيء من الفحم من درجة واطئة، والجبس، كانت هذه الموارد هي المعدة للاستعمال الداخلي، ولم تكن تتوفر اية صناعات لغرض التصدير.

وكان اكثر اهمية من هذه المواد، هو نزيز الزيت المعدني في اماكن كثيرة من شمالي العراق. ففي «هيت» على الفرات كان «القار» هناك يستخرج منذ عصور ساحقة في القدم، ومازال يؤلف مادة لصناعة القوارب والقفف محليا. وفي «القيارة» وطوز خرماتو، كانت الادارة السنية تمتلك منتوج سائل النفط، وتستغله بادوات قديمة تدعو الى السخرية [٢] وفي كركوك، كان نزيز النفط في «بابا غرغر» مملكا طبقا لفرمان قديم الى عائلة «النفطجي [٣]».

اما بالنسبة الى نزيز النفط في مندلي (والذي يستغل الان في منطقة «نفطخانة») فقد تم اعداد مشروع لتصفيته في بعقوبة سنة ١٨٧١ ولكن المشروع مالبث ان تضاءل وفشل. ولقد تقدم الاوربيون بطلب امتياز لاستثمار نفط مندلي ونفط القيارة فرفض طلبهم ذاك، ولكن خبراء المان سبق ان زاروا تلك المنطقتين خلال سنة ١٨٧١ وارسلت نماذج من ذلك النفط الى لندن

---

(١) هناك نوع من الطين الاحمر كان الاهليون حتى الى نهاية سني الثلاثينات من القرن الحالي يستعملونه بدل الصابون في غسل الملابس وشعر الراس، ويعرف بأسم «طين خاوة».

(٢) ذكر الرحالة الانكليزي جمس بكنغهام في رحلته سنة ١٨١٦ قدرا كبيرا عن ظهور النفط في طوز خرماتو واستغلاله ﴿انظر كتابنا رحلة بكنغهام ج (١) المطبوع سنة ١٩٦٨﴾.

(٣) عائلة النفطجي في كركوك: هي العائلة التي منح لها امتياز استخراج النفط من منطقة «باباغرغر» المشهورة في كركوك وقد برز من هذه العائلة رجال اشتهروا في العهدين التركي والانكليزي معا، كان من بينهم صالح باشا النفطجي الذي اختير نائبا عن كركوك في البرلمان العثماني الاول، وولده ناظم النفطجي الذي فاز بالنيابة في الانتخابات الثالثة لما عرف باسم مجلس المبعوثان والتي جرت سنة ١٩١٤.

لفحصها. واخيرا حولت حقوق النفط في ولاية العراق سنة١٨٨٩ من وزارة المالية الى خزينة السلطان الخاصة (٤)

ولم تكن الصناعة المحلية مهمة، وكانت غير ميكانيكية في الغالب. وكانت تنسج بعض الملابس القطنية والصوفية والحصر والسجاجيد الفجة. وكانت صناعة المجوهرات ضعيفة في نوعيتها ماعدا صناعة المينا والفضة في العمارة، والتي كان الصابئة يمارسونها. وكان العمل الانيق الذي يقوم به الصناع الفرس في الحفر على الخشب والعاج، وكذلك اواني بغداد التي يصنعها الصفارون، تسد الحاجات المحلية. وفي الاماكن المقدسة،كان الفرس هم الذين يصنعون القاشي ذا الالوان البراقة

وكانت البنادق المزودة بمواسير من صنع روسي، يتم صنعها في مصنع قديم انشئ في السليمانية، ومن هناك يجري توزيعها الى كل انحاء كردستان وكانت دباغة الجلود تمارس في ضاحية من بغداد (٥) غير ان صناعة منتجات الجلود من الاحذية والاحزمة والسروج كانت من نوعية واطئة.

وكانت وسائل النقل النهرية المحلية، وهي ذات تصميم بدائي، تصنع بشكل غير مهندم من الاخشاب المستوردة، والقار الذي يجلب من هيت على نهر الفرات، كما كانت تستعمل الاكلاك المصنوعة من اعمدة خشبية وجلود للنقل داخل النهر بين الموصل وديار بكر (٦) في حين كانت الاسرة والسلال تصنع من سعف النخيل، وتصنع الحصر من القصب الذي ينمو في الاهوار. وكل هذه الصناعات، الى جانب الصابون، والعرق، الذي كان اليهود يقومون بتقطيره، وصنع الاثار المزيفة، تكمل القائمة الهزيلة من الصناعات.

كان الحديث يجري في كل مكان عن تجارة المرور بين العراق وفارس، والتي تؤلف عاملا اقتصاديا رئيسا. والى هذه التجارة التي تعتبر من الصادرات غير المنظورة، يجب ان يضاف عدد كبير من الزوار الذين كانوا يؤلفون «دم الحياة» بالنسبة الى مراقد الائمة في النجف وكربلاء والكاظمية وسامراء. ومرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني في بغداد. وبالاضافة الى ما كان ينفقه

---

(٤) في هذه السنة اصدر السلطان عبد الحميد فرمانا حصر بموجبه منح الامتياز بالبحث عن النفط بخزانته الخاصة، اي اصبح الامتياز له وحده. وقد جاء في ذلك الفرمان قوله «بما ان بعض ينابيع النفط قد اكتشفت في املاكي الشاهانية الخاصة الموجودة في ولاية الموصل، وسواء كانت تلك الينابيع في املاكي المذكورة ام في اراضي غيرها في تلك الولاية، فان اجازات التفتيش وامتيازات استثمار معادن النفط يحصر حق منحها حصرا باتا باسم الخزانة الشاهانية الخاصة..»(انظر كتابنا معركة النفط في العراق ج ١ ص ١٣ طبعة ١٩٥٢).

(٥) كانت الاكلاك تستعمل لنقل مختلف الحمولات، وعلى الاخص المواد الغذائية، من امثال الحنطة والشعير والفواكه المجففة وما عداها من الموصل الى بغداد حيث ترسو هذه الاكلاك عند الضفة اليمنى من نهر دجلة في شريعة النواب بجانب الكرخ او على الضفة اليسرى [illegible] النهر ذاته في شريعة الاعظمية وقد ظلت هذه الاكلاك الى اواخر سني الثلاثينات تعتبر الواسطة الاساسية لنقل هذه المواد [illegible] والموصل الى بغداد، ومن ثم بطل استعمالها بعد ان تم ايصال سكة حديد بغداد الى الموصل في سنة ١٩٣٩ و [illegible] عمال السيارات لنقل البضائع والاشخاص في نفس الوقت.

هؤلاء الزوار من نقود في هذه المدن، كان الرحالون، والمنقبون عن الاثار، والبعثات والقناصل، ينفقون بدورهم ايضا، قدرا من النقود في العراق.

وعلى حدة من عمليات التصدير، وتجارة المرور، كانت تجارة البلد، تتألف من استيراد السلع التي يحتاج اليها، ولايستطيع البلد ان يوفرها. لقد كانت جميع المواد المستوردة، عدا قسم منها كان يجلب برا من سوريا، ونجد اوالاناضول، تمر بالبصرة، ويتم توزيعها في بغداد العاصمة التجارية للعراق دون شك.

كانت الملابس القطنية التي تصنعها الشركات اليهودية والبريطانية، تؤلف ثلاثة ارباع المواد المستوردة. وكان معظم هذه المواد يأتي من مدينة مانجستر، وقليل منها من الهند. في حين كانت تستورد بعض السلع الصوفية والحريرية من كل من فرنسا والنمسا.

اخذ الفحم يصل الى العراق من مقاطعة «ويلز»، والقهوة من البرازيل، واليمن، واكياس الجوت والنيلة من الهند، والنفط الابيض من الولايات المتحدة الامريكية، والسكر من مصر وفرنسا، والنمسا، والاخشاب والشاي والخيوط والتوابل من الهند، والصناديق التي تعبى فيها التمور من النمسا، والتبوغ من فارس.

وهكذا كانت كميات نسبية اقل من الورق والادوات الصلبة، وصفائح الزنك، والاصباغ والقناديل والطرابيش هي المواد المستوردة التي كان يصل توزيعها الى حدود سكان الارياف، والى الاسواق المعقودة او المسقفة بالحصر، وحوانيت القرى وحتى الباعة المتجولين.

كانت العملة النقدية المتداولة في الولايات الثلاث هي القرش النحاسي، و«المجيدي» الفضي، والليرة الذهبية في ذلك الوقت، وكانت هذه تؤلف عملة ثابتة ووافية بكل الحاجات. وكان تداول الروبية الهندية الساري في البصرة، والنقود الفارسية في مدن اواسط نهر دجلة في كردستان، اقل تناسبا، وذلك في عهد تميز بمعدلات ثابتة للتحويل من دون قيود، ومن دون وجود عملة ورقية.

كانت وحدة الاوزان والمقاسات المحلية تختلف اختلافا بارزا بين منطقة واخرى. اما معاملات الصيرفة فكانت ممثلة في اعمال المصرف العثماني الامبراطوري، وفي العمليات الحاذقة التي يمارسها كثير من الصيرفيين المحليين.

ومن بين الصادرات الطبيعية التي كان العراق يصدرها، تؤلف التمور، اعظم اهمية قائمة وهي تسد، كما هو عليه الوضع الان، اعلى نسبة من حاجة العالم الى التمور. ومع ان تجار التمور كانوا متاخرين بالنظر الى كيفية تهيئة التمور وحزمها، وفنون تسويقها، الا ان هذه الحرفة بحد ذاتها، والتي كانت تلقى الدعم بكل فائدة طبيعية، قدتطورت تطورا ممتازا، واخذت التمور العراقية الشهيرة يجري تصديرها بوفرة كبيرة الى امريكا، واوربا، والهند وشرق افريقيا، ومناطق الخليج العربي وكان الرز يعتبر من الصادرات الشهيرة لكنه كان عرضة للتغيير، في حين كان الفشل يحيق

بتوفير كميات قابلة للتصدير من الحنطة والشعير ولاسيا هذا الاخير، الا في السنوات التي يحل فيها الجفاف، ويكثر ظهور الجراد. ولكن الكميات التي تصدر من هاتين المادتين كانت تتغير تغيرا واسعا، وكانت النوعية تعد من اوطأ الانواع المعروفة في العالم. وكانت ترد اطنان قليلة من بذور الحاصلات وبعض الصموغ والعفص من كردستان، وعرق السوس من شواطىء نهر دجلة، وتعتبر هذه المواد، رغم قلتها من بين الصادرات المتميزة.

وكان يجري نقل الخيول العربية بالسفن الى الهند، منذ القدم لكنه كان عرضة للتقلب. كما كانت الجلود الخام او المدبوغة يتم ارسالها الى اسطنبول، واوربا، والمصارين التي تستعمل لصنع «السجق» الى امريكا، والبطم المستعمل للدباغة الى النمسا. وهناك درجات متباينة من الصوف المحلي كان يتم كبسها استعداداً لتصديرها الى امريكا او لندن. وكانت الابل العراقية تنقل برا الى سوريا، كما يتم نقل الاغنام الى حلب عن طريق الموصل، والمواشي الى مصر، والجاموس الى الاناضول.

وفي الحزام الجبلي لشمالي العراق، كانت الغابات توفر موارد محتملة لها بعض الاهمية. ذلك لانه بين العشر والخمس من الجبال العالية، مغطى بالغابات المزروعة ذات القيمة الانتاجية، بالاضافة الى موارد اخرى تافهة ليست قابلة للتحسين.

ففي بلد تعوزه الاخشاب من كل الانواع، ويضطر الى استيرادها بنفقات عالية، كان الوضع يستدعي تنمية هذه الاشجار لسد حاجيات العراق الى الاخشاب التي تستعمل في البناء، وصنع صناديق التمور، والاثاث واستعمالها في الوقود. والواقع انه كانت توجد كميات غير محددة من الفحم والوقود، والاعمدة الخشبية التي تستعمل للسقوف، الى جانب المواد التي تستعمل علفا للماشية. فكل هذه المواد كان القرويون الاكراد يسطون عليها سنويا من دون ادنى تفكير في نتائج ذلك السطو، او رقابة، لان تموينهم المحلي يعتبر امرا ممكنا. ولم تكن حماية الغابات من الرعي ، والتلف او الحريق، تحظى باي نوع من الحماية تماما. كما كان يتم تجاهل اعادة تشجير الغابات. ولهذا السبب كانت تتعرض حوافي الجبال الجرداء لقسوة امطار الشتاء، في حين كان يؤدي التأكل الحادث فيها، وانحدار سيل الامطار والانهار، الى تدفق الطمى الاتي من المناطق الكردية وتكدسه في الانهار والقنوات التي تمتد في الاقسام الدنيا من العراق، وبذلك تخلق مشكلة التطهير المستديمة من الطمى.

تتألف الاشجار التي تنمو في مناطق كردستان من البلوط، وهو اكثر من نوع واحد، ومن بينه العفص. واقل من ذلك عدد اشجار العرعر، والفستق والكمثري البرية، والجوز، والقنب. كما تنمو على ضفاف الانهار بمستويات واطئة ،اشجار التوت، وخشب الحور والصفصاف والدلب، والطرفاء.

وكانت الزراعة منذ القدم تؤلف اوسع حرفة في العراق، ويعمل فيها اربعة اخماس السكان.

ومع كل ذلك، وبكل الفوائد المتوفرة من الاراضي الخصبة الواسعة، ووفرة المياة، فلم تظهر الزراعة الا بمظهر بائس بالنسبة الى الصادرات، وبمستوى واطئ من الحياة التي يحياها السكان.

كانت تحكي مبالغات عن امكانيات الزراعة في العراق* ذلك لان المناطق التي كانت تروي سيحاً او بواسطة لم تكن غير محدودة** وحتى مع المحافظة بصيغة افضل على مياة العراق، فان هذه المياه لايمكن ان تكفي في وقت واحد (وعلى وجه التقريب) لكل الاراضي القابلة للارواء. كما ان الامطار*** التي يعتمد عليها شمالي العراق اعتمادا كليا، تكون متقلبة، ونادرا ما تكون كافية.

ولم يكن من اليسير انجاز سدود للري مثلما عليه الحال في مصر، ويجب ان توضع نفقات مثل هذه السدود دوما موضع عدم توفر الفائدة المرجوة منها اذا ماقورنت بما هو موجود منها في كندا او روسيا، والتي تعتمد تلك البلاد عليها مثلما هو الامر بالنسبة الى اواسط العراق.

وكان الجراد «المراكشي» المحلي، والجراد «النجدي» الغازي، يؤلفان خطرا سنويا على الحاصلات الزراعية وكان الفلاح العراقي، حتى وان تم تزويده بمقدار واسع من الاليات، لايستطيع ان يجاري الفلاح الاوربي، او فلاح امريكا الشمالية، في نطاق الانتاج. وعلى كل حال فقد وجدت في العراق في سنة ١٩٠٠ اسباب لوجود الفقر الزراعي، ولوجود الفقر الجماعي نتيجة لذلك. فلقد كانت الاوضاع يمكن احتمالها في المناطق التي تعتمد على المطر في مناطق الموصل، وشهرزور، اذ كان تنظيم القرى متوفرا هناك، والضرائب معقولة، واخطار الفيضان غير معروفة.

وكانت ممتلكات الاراضي في الغالب صغيرة وشخصية وممكنة ايضا من النواحي الأخرى، في الحزام الذي يضم بساتين النخيل في شط العرب، اذ كانت حالة الامن جيدة هناك، وقد وطد المجتمع جذوره بصفة جيدة، وتطورت مهارة المزارعين تطورا رفيعا. فلوان حياة الديون، وما يقرب من الجوع كان نصيب معظم الافراد في هاتين المنطقتين، على مثل ماكان عليه في اي مكان اخر من اداني العراق، لما استطاع التركيب الاجتماعي، ولا اجراءات الحكومة بشان تسوية الاراضي، ان تخلق الاحوال التي يصبح التقدم فيها امرا ممكنا.

(*) يمكن القول بان الرخاء الزراعي كان حتى في الماضي الاسطوري للعراق اقل مما هو حادث فعلا. ذلك لان الامطار لم تكن اكثر غزارة وكانت الفيضانات اوسع تخريبا والمستنقعات اوسع مساحة، وكان البدو اشد فظاظة، كما ان القنوات» اذا ماحكمنا عليها بالاعمال الاساسية منها الباقية الان بصفة مخربة، كانت هي القنوات الوحيدة التي تغمرها مياه الفيضان، ويتم تطهيرها من الطمى المتراكم فيها كل سنة.

(**) هناك حوالي عشرين مليون فدان من الاراضي الصالحة للري (في اواسط العراق وجنوبه) وعشرة ملايين فدان من الاراضي التي تعتمد على المطر في اروائها في المناطق الشمالية.

(***) يعتبر المعدل السنوي لسقوط المطر في منطقة الموصل حوالي اربعمائة وخمسين ملمترا، وينخفض هذا المعدل في التلال الواقعة في اواسط العراق الى مابين مائة ملمتر وخمسين ملمترا.

لقد كان الامن مهددا في العادة في مناطق واسعة نتيجة الغزوات التي يقوم بها المجاورون، اضافة الى غارات البدو وابلهم الجائعة. وحتى في الاوقات التي تكون فيها ملكية الاراضي مضمونة بشكل معقول، فان نظام المشاركة في المنتوج، السائد هناك، لم يكن يوفر سوى ادنى حد من العيش للفلاح، ذلك لان الشيوخ ووكلائهم وشيوخ الاقطاع المتغيبون عن المزارع، وتغاضي الحكومة وتعاميها، كل هذه الامور كانت تشترك في اغتصاب ثمرة الكدح الماضي والمستقبل المثير. ذلك لان الشيوخ ورؤساء الاقطاع لم يكونوا يفكروا في واجب تحسين وضعية الانتاج. ففي كل مكان كانت الزراعة المحلية، تتطلب بذل الجهود المشتركة والمنظمة، لتطهير القنوات من الطمى، وحماية الضفاف من الفيضان ومكافحة الجراد، وتنظيم المبازل، في ذات الوقت الذي لايتوفر فيه لديهم المال اللازم لذلك، ولا التوجيهات السامية، وحتى القليل من التنسيق، ولا الاحساس بالالتزام الاجتماعي. اما الحكومة فمن النادر ان تتوفر لديها المعرفة او السيطرة العملية، او الموارد، كما تبادر باستخدام الطرق الحديثة، اوتحسين الطرق القديمة.

ولقد كان المزارعون انفسهم، وهم اعتياديون من الناحية العملية، ولاتشجعهم الظروف الملمة بهم، يرغمون على تقبل اوطأ مستوى من العيش على اساس انه افضل ما تستطيع الحياة ان توفره لهم، ولذلك بقيت وسائل زراعتهم بدائية. والواقع انه كانت لديهم مقدرتهم في السيطرة على الحياة ذات المستوى الضيق وان كانت الوسائل التي يستخدمونها لرفع المياه من الانهار، مضيعة لذلك الماء.

ولما كانت تحفزهم الى نيل المنفعة، تلك الامطار التي كانت تسقط بصفة عرضية، اضافة الى الطمى المبتل المتخلف عن الانهار المتقلصة، فانهم كانوا منذ ايام طفولتهم يتحكمون في ابسط مالديهم من الادوات. ولكن لم يكن يوجد تحسين في الانواع القليلة من الحاصلات التي كانت تزرع، ولا اية تجربة في الصيغ الجديدة، ولا الطموح الى انتاج اصناف اكثر نقاء من البذور التي من شأنها ان تضاعف من الاسعار التي يفرضها التجار، كما انه لم يكن هنالك اي تردد في عرض المنتجات المغشوشة او غير النظيفة للبيع.

والواقع كان هناك اموات ، بل مجاعة قاتلة تدعمها قرون من العادات والهلاك المقيت. فما عدا المقاطعات السنية، لم تكن توجد اية اثار لمستويات اخرى يمكن انجازها من دون معجزة، او توفير امن افضل، ينهض به بصفة احسن، افراد الضابطية، او توفير الابنية الحديثة، وتطهير القنوات والانهار بصفة منتظمة من الطمى، او حتى ايجاد حد ادنى من التنظيم والتمويل المشجعين. لقد كانت الاراضي السنية تظهر مشاهد اقل حزنا من الحالة العامة السائدة في ميدان الزراعة في العراق، ومع كل ذلك فلم تستطع الاراضي السنية هذه ان تحل ايا من المشاكل الكبرى للزراعة.

كان البعض من هذه المشاكل واضحا بما فيه الكفاية، انها مشاكل حماية العمل والحياة

معا، والوسائل التي تستخدم لمارسة الوظائف الجماعية لكل انحاء الريف، والتمويل، والتعليم الريفي، والضرائب، والايجار. اما بالنسبة الى مشكلة الري، وهي حيوية للمجتمع العراقي واقتصادياته في كل عصر، فينبغي التحدث باسهاب عنها، ذلك لان العراق، من وجهة النظر هذه، لم يكن يعرض الامال الرفيعة حسب، بل وكذلك المشاق التي لم تبدر في سنة ١٩٠٠ اية محاولة للسيطرة عليها.

كانت النقطة الاساسية في هذا الامر، هي ان النهرين كانا يتغيران في تصريفهما للمياه اكثر من عشر مرات، في كل فصل من فصول السنة ، وبذلك تصبح الاحواض اللازمة لتصريف مياهها عند حلول اشهر الجفاف، غير كافيه لتقبل مياه الفيضانات، وهكذا تكون النتيجة حدوث فيضان شامل، والحقيقة ان هناك اولا مناطق واسعة في اواسط العراق هي اوطأ من مستوى الفيضان العالي للانهار. وثانيا ان موسم الفيضان يحدث في شهر نيسان. فعندما تتحكم مستويات النهر وحدها بالاراضي القائمة على ضفافه، فانها تبدأ في وقت متأخر في انضاج حاصل القمح الربيعي، ومن ثم تنتهي قبل ان تنضج الحبوب، والخضراوات الصيفية

ولذلك كانت المتطلبات الاساسية تتألف بكل وضوح من خمسة مطالب هي (١) الوقاية من الفيضانات المدمرة في فصل الربيع. (٢) خزن مياه الفيضانات. (٣) واعادة استعمالها عندما يتدنى الماء في نهاية الفصل. (٤) انشاء السدود لصيانة مستويات النهر التي يمكن السيطرة عليها، عن طريق استعمال النواظم. (٥) واخيرا توفير المبازل الرئيسة والمحلية سواء بسواء وذلك للحيلولة دون تراكم الطمى المحتم تراكمه، واتساع نطاقه بصفة عملية.

ومع ان هذه الشروط لم تكن في سنة ١٩٠٠ من الامور التي لا يمكن تحقيقها سواء من قبل حكومة بغداد، او اسطنبول، الا انها لم تكن تعتبر من المشكلات المعقدة التي تتطلب الحل. ذلك لان نشاط الحكومة في هذا المجال، لم يكن -حسب مزاج الباشوات- يتألف اكثر من القيام باجراء لتنظيم الاعمال المحلية الطفيفة، لان الادارة لم تكن في الواقع، تملك لا المعرفة ولا السيطرة، ولا المال الضروري لاقامة او تنظيم نظام شامل للري.

فبالاضافة الى عدم الاكتراث بهذه المتطلبات الراهنة، والى الامكانيات الغنية، لم يكن حكام العراق يعملون او يخططون لعمل شيء ما، في الوقت الذي كان فيه الري في مصر وفي الهند يحرز تقدما واسعا ومثمرا[٧] وكذلك لم تكن مشاركة الجمهور في هذا العمل اكثر تشجيعا

---

(٧) يحاول المؤلف هنا من وراء هذه المقارنة بين العراق ومصر والهند ان يشير الى ما فعله الانكليز الذين كانوا يسيطرون على مصر والهند بشأن تنظيم امور الري فيهما، وايهام الناس بان الانكليز هم ادوات اصلاح في البلاد التي يحتلونها ويخضعونها لحكمهم ذلك لان الاصلاحات الزراعية في مصر وفي الهند في اوائل القرن العشرين لم تكن قد خطت خطوات واسعة وحقيقية في توفير الانتاج لاعاشة سكان تلك البلاد، ورفع مستواهم المعاشي. فلقد بقيت مصر متأخرة في ميدان الزراعة حتى منتصف القرن الحالي اكثر مما كان عليه الامر في العراق. اما بالنسبة الى الهند فيكفي ان نقول ان هذا البلد مايزال يشكو الفقر والمجاعات المهلكة حتى بعد ان تباهى الانكليز بالجلاء عنه وظفرة بالاستقلال في سنة ١٩٤٩

ذلك لان المزارعين المتنقلين القليلين، لم يكونوا يحققون سوى مستوى واطيء من الكفاية في الانتاج، وسوى الحد الادنى من تطهير الانهار، واصلاح سدود الفيضانات التي كانوا يجبرون بالقوة على النهوض بها، واقامة الرؤوس الموقتة للقنوات سواء من حزم القصب او الاحطاب ومضاعفة وسائلهم البدائية في رفع الماء من الانهار، والتبديد الدائم للقنوات التي يستعملونها وتحويل مواقعها، وتخريب المنطقة تلو المنطقة، وذلك ببرك الطمى يتراكم فيها.

ولقد كانت حالة تخريب امور الري كثيرة الحدوث في تلك السنين في اواسط الفرات. فحتى سنة ١٨٨٠ كان شط الحلة يعتبر هو المجرى الرئيس لماء الفرات، وكان فرع الهندية عبارة عن قناة تتفرع من ذلك الشط. ولكن اغلاق الرأس الاعلى لجدول الصقلاوية، وعمل الطبيعة في تركيم الطمى وانحراف الماء، ادى الى توسيع عرض فرع الهندية وتصريف مياهه، وبذلك اصبحت المحافظة على جريان الماء في شط الحلة صعبة بشكل حاد اولا، ثم غدت مستحيلة ثانيا، واستطاع المهندسون الفرنسيون في سنة١٨٩١ ان ينجزوا بناء سد مايزال قائما بشكل حذر حتى سنة ١٩٠٠ لكن ذلك السد فشل في مقاومة الخراب المتزايد الذي حصل في ري شط الحلة.

* * *

بقيت الطرق البرية القديمة للعراق ثابتة على ماكانت عليه قبل قرون. فقد كانت القوافل المؤلفة من الابل تستعمل الطرق الصحراوية التي تمر بدمشق وحلب، في حين كانت قوافل البغال تجتاز طرق التلال التي حفرها الزمن الى داخل لورستان، وكرمنشاه والقسم الكردي من ايران، وولاية «وان». اما في داخل العراق فقد كانت الطرق مثبتة بالعرف الذي يعتمد على اساس الملاءمة. غير انه كانت توجد هنا، وهناك، اشارات لتقدم حديث في توفير الخانات التي تقوم على الطرق والجسور الجديدة التي تدفع عنها الرسوم، والمشيدة من الحجر او الاجر والتي تستقر فوق عوامات قابلة للانكسار

كانت الطرق التي تختلف باختلاف المناطق في امتدادها وسلامتها، مهملة وغير مكسوة، وتغرق عمقا في اتربة الصيف، وتفيض فتتحول الى بحار من الوحل، بسبب الامطار او فيضان القنوات. وغدت سكك الحديد تلقى الترحيب عن بعد طيلة سنوات عديدة من لدن العراقيين من سائر الطبقات باعتبارها من الوسائل التي تجلب التيسير والتقدم. ولقد طرحت مشاريع عديدة من السكك من بينها مشروع «جسني»[8] في سني الثلاثينات من القرن التاسع، ومشروع

---

(٨) جسني Chesney كان برتبة نقيب في الجيش البريطاني وقد بدأ مغامراته في العراق في سنة ١٨٣٠ عندما انحدر مع اثنين من المساحين العاملين في الاسطول الهندي في نهر الفرات من القائم الى الفلوجة وركز جل اهتمامه على انشاء خط نهري للنقل بواسطة السفن اما مشروعه لمد سكة حديد الى العراق فقد اشترك فيه مع كل من بيت لنج ومكنيل وغيرهم، وبحماسة من السيد اندرو في سنة ١٨٥٤ حيث الف الجميع شركة لمد سكة حديد من شاطيء البحر الابيض المتوسط حتى الخليج العربي وكان المقرر ان تمر السكة بانطاكية وحلب وهيت و بغداد ومن هناك الى القرنة والبصرة. وقد فاز هذا المشروع بالتأييد الرسمي من لدن الحكومة البريطانية والحكومة العثمانية ايضا

«اندرو»[٩] في سني الخمسينيات واخيرا مشاريع كل من فون برسل النمساوي، وتونيتي الايطالي وكابنست الروسي وكوتار الفرنسي، واخيرا في سني الثمانينات من ذلك القرن، تألفت شركة محلية لمد خط حديدي بين خانقين وبغداد، وقد حال عدم توفر راس المال اللازم دون تحقيقه، ولم يكن المشروع الذي خلفه في سنة ١٨٩٠ احسن حظا.

وحين اوشك القرن التاسع عشر على الانتهاء، اصبح الحديث عن مشروع سكة حديد بغداد، اكثر تكرارا مما كان عليه قبلا. فابتداء من سنة ١٨٨٠ بدأ الالمان يهتمون بمطامحهم الشرقية. فبعد ان اكملت «الشركة العثمانية لانشاء سكةحديد الاناضول» خطها الذي يصل الى انقرة سنة١٨٩٣ بتمديده الى «قونية» حصلت في تلك السنة ذاتها، على اذن بايصال الخط المذكور الى ديار بكر، وان يصل في النهاية من هناك الى العراق. غير ان معارضة روسية مباشرة اثيرت ضد ذلك المشروع، ولهذا تم التخلي عن فكرة ايصال الخط الى ديا بكر، واعقب ذلك حصول توقف في اعمال الشركة استمر طيلة سنتين.

وبعد ان قام قيصر المانيا[١٠] بزيارته الثانية للممالك العثمانية، واقسم يمين الاخلاص للخليفة العثماني وللاسلام، ظفر في سنة١٨٩٩ في اعداد مسودة لامتياز بمد خط الحديد من قونية الى الموصل، فبغداد والخليج العربي، وقام وفد الماني بزيارة العراق لكي يضع تقريرا عن حالة الطرق فيه، كما ظهرت احدى الطرادات الالمانية في الخليج العربي وكذلك قامت بعثة المانية في سنة١٩٠٠ بجولة في المناطق التي يتوقع مرور الخط الحديدي فيها عبر العراق الى الكويت، واذذاك ثارت الشكوك البريطانية بشكل متفاقم ازاء هذا المشروع.

وفي الوقت الذي اجتمع فيه الدبلوماسيون الاتراك والالمان لتهيئة اتفاق محدد، كانت وزارة الخارجية البريطانية وحكومة دلهي، تراقبانهم باهتمام بالغ. اما جماهير بغداد التي كانت بعيدة عن هذه المناورات، فانها لم تراي مشروع لسكة حديد اكثر الحاحا من خط الترام الذي تجر الخيول

---

(٩) دخل مشروع اندرو ضمن المشروع الذي شارك فيه جسني وبيت لنج ومع ان المشروع استمر مدة خمس عشرة سنة فلم يتوفق اصحابه في جمع المال اللازم لنجاحه ولذلك تخلوا عنه والحقيقة ان امثال هذه المشاريع قد فترت واهملت بعد ان تم افتتاح قناة السويس واصبح في مقدور السفن الاوربية ان تصل الى الشرق عبر السويس والبحر الاحمر والبحر العربي والمحيط الهندي والخليج العربي. وكانت كل هذه المشاريع من الامور التي مهدت فيا بعد للتفكير في تحقيق سكة حديد بغداد برلين والذي كان من الاسباب الاساسية التي حفزت كلا من بريطانيا وفرنسا على اثارة الحرب العالمية الاولى. اما تويني الايطالي فكان يمثل مجموعة من اصحاب رؤوس الاموال الايطاليين، في حين كان المسيو كوتار وهو مهندس يرأس احد مشاريع سكة الحديد في تركيا، ومثله كان كابنست الروسي ايضا.

(١٠) قيصر المانيا: هوغليوم قام في سنة١٨٩٨ مع زوجته القيصرة اوغستا بزيارة السلطان عبد الحميد في اسطنبول وطبع قبلة على خده وتلك اول قبلة فعلها ملك مسيحي على خد سلطان عثماني ومن ثم ذهب القيصر وزوجته الى فلسطين لزيارة الاماكن المقدسة فيها ثم زار قبر صلاح الدين الايوبي ووضع عليه اكليلا من الزهور وامر بصنع قنديل من الفضة للقبر هدية شخصية منه «علي الوردي: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ج ٣ ص ٢٨

عرباته والممتد من الكاظمية الى بغداد، والذي خلفه مدحت باشا[11]

كانت طرق العراق الخارجية الطبيعية منذ فجر التاريخ، وانهاره العظيمة التي تمخر فيها عشرات الانواع من الزوارق والمراكب الشراعية الصغيرة، والاطواف والقفف، ماتزال مستعملة. ولكن منذ سني الاربعينات من القرن التاسع عشر، اخذت الملاحة التجارية تلعب دورها في انهار العراق. ففي سنة ١٨٦١ تألفت «شركة الملاحة البخارية في الفرات ودجلة» على يد اسرة لنج[11] التي كانت تدير في بغداد والبصرة شركات تحمل اسمها، وظلت محافظة على الخدمة في نهر دجلة طيلة جيلين كاملين، ولم تتوقف الابفعل العقبات التي وضعتها السلطة في طريقها، والتي زاد ذلك المشروع الاجنبي في حنقها[12] وبسبب الصعوبات التي يمثلها انخفاض مستوى المياه امام الملاحة، والاعتداءات التي يقوم بها رجال القبائل الذين يمارسون اطلاق نيرانهم على بواخرها. ويبدو ان الفرمان الذي اصدرته السلطة والمؤرخ في سنة ١٨٣٠ كان يقضي بان لاتستعمل الشركة اكثر من باخرتين* ولكن جهود بيت لنج لم تنقطع عن الاتصال بالسلطة لغرض زيادة هذا العدد، ولاستخدام مراكب للنقل. وقد تركز اهتمام الشركة في سنة ١٨٧٩ او ما بعدها بالمشاركة الوثيقة مع «شركة الهند البريطانية للملاحة التجارية»

وفي جيل سابق انضمت اعداد مختلفة من المشاريع التركية او العراقية الفردية، الى بعضها البعض، لتشكل ماعرف بأسم «ادارة عمان العثمانية» تحت اشراف وزارة البحرية التركية. وكان اسطول هذه الادارة والمؤلف من سفن صغيرة ليس في مستطاعها العمل الافي الانهار، لايستطيع ان ينقل الاحوالي النصف من مجموع الحمولة. وقد اضيف مشروع واحد، اومشروعان من هذه المشاريع الفردية الى ما كان موجودا منها. فقد كانت احدى السفن المملوكة للافراد في البصرة تصل الى بغداد في حين كانت سفينة اخرى غيرها تنتقل مرة واحدة في الاسبوع مابين بغداد وسامراء.

وتألفت مشاريع عدة في سبيل تطور اوسع لكنها كانت فاشلة. ففي سنة ١٨٩٠ تقدمت

---

(١١) بقي هذا الترام مستعملا حتى سنة ١٩٣٦ وقبل الغائه بمدة استعيض عن الخيول بشاحنة بخارية كانت تسحب كل عربتين سوية وكان ناظم باشا والى بغداد قبل الحرب العالمية الاولى قد فكر في تسيير شاحنات كهربية لسحب عربات هذا الترم ولكن الفكرة لم تنفذ.

(١٢) بيت لنج MESSRS LYNCH وهو من ضباط البحرية البريطانية في الاصل وقد حصل على امر وزاري من الصدر الاعظم في سنة ١٨٦١ باستخدام باخرة في المياه العراقية كانت تعرف باسم «مدينة لندن» ثم اعقبتها الباخرة «دجلة» في سنة ١٨٦٤، وبلوس لنج وغيرها.

(١٣) المقصود بهذا المشروع سكة حديد بغداد.

(*) كانت الباخرة المسماة «مدينة لندن» التي نزلت الى البحر سنة ١٨٦٢ قد ضاعت في سنة ١٨٨١ في حين ضاعت الباخرة «دجلة» التي انزلت سنة ١٨٦٥ الى النهر في سنة ١٨٧٠ وفي سنة ١٩٠٠ كان لايزال في الخدمة كل من الباخرة «بلوس لنج» التي انزلت في سنة ١٨٧٨، والباخرة «خليفة» التي انزلت في سنة ١٨٨٠ والباخرة «مجيدية» التي انزلت في سنة ١٨٨٢.

الادارة السنيه[١٣] خطط لانشاء مصلحة موسعة تشتمل على القيام برحلات الى الموصل، بل حتى الى جزيرة ابن عمر، وصدرت الاوامر باجراء مسوحات جديدة في نهر الفرات تمهيدا للقيام بملاحة حرة فيه من «مسكنة» او «جرابلس»[١٤] الى البصرة. غير ان شيئا ما لم ينتج عن امثال هذه المشاريع ولكن الظل المتقدم لمشروع سكة حديد بغداد، والذي كان المصممون له يودون الارتباط به، اعطى نوعا من التشجيع ولذلك تم انشاء رصيف للسفن في بغداد في سنة ١٨٩٠

كان ميناء البصرة، وهو المنفذ البحري الوحيد للعراق، ينقل اعظم قسم من تجارة العراق وحمولاته، تلك التجارة التي لم يكن الجزء المنظور منها في سنة ١٩٠٠ سوى التجارة البريطانية، او التجارة البريطانية الهندية. اما التجارة الروسية والالمانية فانهما لم تكونا قد توطدتا بعد، في حين لم يساهم العراقيون الاقليلا في حركة الميناء.

وكانت مياه شط العرب وبفضل التحريات والعوامات التي اقامتها الايدي البريطانية تؤلف طريق الوصول والامن لرسو السفن قبالة العشار ونهيرات «الخندق»[١٥] التي تربط العشار بمدينة البصرة

كانت ادارة الميناء بدائية ووسائل الحجر الصحي، وقضايا المكوس غير ملائمة بل ومغيظة وتخضع للرشاوي. ولم تكن في الميناء ارصفة، ولارافعات، ولامظلات اواية اجهزة اخرى متوفرة. وكان تحميل الحمولات الى المراكب الخفيفة التي تقف وسط نهر شط العرب وتفريغها منها، يجري ببطء ويتطلب عمليات باهظة النفقات.

ومنذ سني الستينات في القرن التاسع عشر، اصبحت للعراق مكانته في نظام البرق الدولي فقد كان يرتبط من الفاو بالهند، وخلال الموصل وجزيرة ابن عمر الى بقية انحاء تركيا. كما كان يرتبط عبر خانقين اوعن طريق الفاو وميناء بوشهر ببلاد فارس. وكانت ممارسة اعمال النقل بطيئة ولا يمكن الاعتماد عليها ولكن اتساع نظام البرَق الى معظم اجزاء العراق، وان كان عرضة للاضطراب وللهجمات عليه، وبوجود مناطق كردية لم يمكن التغلغل فيها، مع كل ذلك عمل نظام البرق، المزيد لمساعدة الادارة على تحديث المجتمع. وكانت الخدمات البريدية تعود في تاريخها الى القرن الثامن عشر. وفي الستينات من القرن التاسع عشر بدأت البواخر البريطانية الهندية، بنقل البريد الهندي والاوربي الى البصرة، اذكانت مصلحة البريد مرتبطة بالسفن التي

---

(١٤) الادارة السنية هي الادارة التي كانت تدير الممتلكات التي سجلت باسم السلطان سواء منها المباني والمنشأت الاخرى او الاراضي الزراعية والمزارع وغيرها وقد الغيت هذه الادار السنية بعد خلع السلطان عبد الحميد

(١٥) مسكنة قامت مقام مدينة جرابلس القديمة في شمالي سوريا وكانت قبلا عاصمة دولة «كركميش» التي قامت بعد انقراض الدولة الحثية في آسيا الصغرى في الالف الاول قبل الميلاد.

(١٦) من الانهار الداخلية الشهيرة بالبصرة وكانت القوارب تسير فيه الى نهر العشار، كما كان يوجد رصيف على نهر الخندق لوقوف القوارب والسفن الشراعية عنده.

تسير في الانهار

في سنة١٨٦٨ تم افتتاح دائرة البريد الهندية، وكان البريد البريطاني الذي ينقل على ظهور الجمال قد توقف عن العمل سنة١٨٨٦ ، وتم استبداله، بعد قرن من الزمن، ببريد تركي عبر ذات الطرق السابقة، ويقوم افراد من عشيرة «عنزة» الذين يمتطون الخيول، وكان السعاة الذين يركبون الخيول واشتهروا في حينه بنقل البريد، يغادرون بغداد في يوم الاثنين من كل اسبوع الى اسطنبول بطريق الموصل وديار بكر.



٧ ـ الحكومة

كانت المصاعب الهائلة التي تواجه كيفية حكم الولايات الثلاث، تبرز واضحة من عوامل متشابكة ومعقدة. ذلك لان سبل المواصلات المتوفرة في البلاد، كانت ضعيفة، ومعظمها يتألف من جبال لايمكن المرور فيها، او من مستنقعات. وفي الوقت ذاته كانت السلطة الحاكمة فيها اجنبية ممقوتة، وفقيرة بشكل مميت. فلم يكن هناك سوى جزء ضئيل من السكان، مستعدا للترحيب بقيام حكومة كفوءة، وذلك لان القسم الاعظم من السكان كانوا يعتبرون مثل هذه الحكومة غريبة عن وسائلهم وعن مصالحهم

كان العراقيون وما يزالون حتى الان يتميزون بالنزعة الاستقلالية، والفردية التي لم تتعود الاذعان للسيطرة. ولذلك كان الشغب في المدن، والحروب العشائرية المتواصلة، يمثلان القاعدة لقرون عديدة. وكان الانقسام العميق بين المدينة والعشيرة، يعتبر من اعظم العقبات امام تشكيل الادارة الحكومية، يضاف الى هذا، تلك الهوة السحيقة الناجمة عن الخلافات الطائفية. على هذه الشاكلة كانت حال العراق، الذي بقي الفكر الغربي ينظر اليه نظرة جماعية خلال خضوعه طيلة اربعة قرون من الحكم العثماني، بانه كان من اسوأ بلاد العالم التي بذلت المحاولات لادارته.

كانت حكومة سنة ١٩٠٠ التي نتحدث عنها هنا، وتماسها بهذه المشاكل، تختلف، في الواقع، اختلافا جوهريا عن تلك الحكومات التي شهدتها الاجيال الثلاثة السابقة. فبالنسبة الى الشكل الاصلي للحكم العثماني، والذي تميز بالاستبداد الشرقي الخالص، كانت السلطة كلها في يد السلطان. ذلك لان السلطان كان يقف على راس سلطة وراثية متقنة، تتألف من وظائف متشابكة، وكان يمثله فيها حكام محليون مستبدون مثله تماما. فقد كان الحكم كله لمنفعته وابهته. وليس هناك من قانون ماعدا «الشرع» الذي كان يطبق ولايوجد حداواستئناف يقيد السلطات المحلية الممنوحة للوالي اوالمتسلم وكانت جميع الوظائف، بما في ذلك المناصب الرفيعة، عرضة للبيع.

بدأ التغيير في هذا النظام، ينصب على الاسرة العثمانية الحاكمة في اوائل القرن التاسع عشر، وذلك نتيجة الهزائم العسكرية التي لحقت بها، وارغمتها على الاستعانة بالمعلمين العسكريين الاوربيين. وفي الوقت ذاته دفعت هذه الضرورة بالسلاطين المتعاقبين، الى دعم مفهوم الحكومة

وادائها، بكيان جديد من القانون والاجراءات، وبطبقة جديدة من الموظفين، والمؤسسات العصرية التي بادرت بالعمل، من امثال المؤسسات التجارية، والملاحة، والوظائف التعليمية، والرحالين والبعثات، والمواصلات العصرية، والصحافة.

والى هذا التأثير الذي احدثه الثقل الغربي، يجب ان يضاف ايضا، الموقف الذي وقفه الدائنون الاوربيون لتركيا، ورد الفعل الناشيء في اوربا، ومآسي الولايات المسيحية التي اخذت تنفصل بالتعاقب عن الامبراطورية العثمانية

تحت مثل هذا الضغط، اخذت الحكومة التركية نصف المتحضرة والواعية والمثقلة بالاعباء، والتي كان يحتاج الى وجودها، تتطور في القرن التاسع عشر. فخلال سبعين سنة مضت قبل سنة ١٩٠٠ استطاع العراق ان يستمتع ببركات حكومة اصلاحية، اذرأى ادارتها معتدلة على الورق في اول الامر، وفي ميدان العمل فيما بعد، في كل قانون جديد شديد التدقيق يتناول نظام الولاية المعدل الذي وضعه مدحت باشا. ذلك لانه باصدار الانظمة التي يجب تطبيقها، واحداث الوظائف المتخصصة، برزت الى الوجود طبقة كثيرة العدد تتمتع بالنفوذ، وذلك لانه لارؤساء الاقطاع، ولاالتجار، ولا رجال الدين، لم يكونوا من طبقة مدنية متوسطة، ولاطبقة دنيوية مؤدبة.

كان العراقيون، ما خلا بالنسبة الى الوظائف العليا، يتألفون من عنصر الافندية الذين يؤلفون القسم الأعظم من العنصر الاجتماعي الذي تقبل الثقافة التركية، وراح يعمل بمثابة جسر اساسي بين الاتراك والعرب. ولقد كان بين اصناف العراقين، مسلمون من الطراز القديم، او الذين يسخرون من التفكير الحر، والذين يمقتون الاجانب، ومن العالميين بصفة علنية. ولذلك كان هولاء من الامين ويصرون على التحدث باللغة التركية، ومع انهم كانوا متخلفين الاانهم كانوا يتظاهرون بالعادات الاجتماعية، ويقلدون الاوربيين في ملبسهم، وكانوا فاسدين بشكل دائم، وبعيدين عن روحية الخدمة العامة، ولذلك استطاعوا ان يسموا الكيان السياسي بطبقتهم الخاصة، فيزدروا بالقبيلة وبالمزارعين. ولما كانت اجورهم ضعيفة، ومطامعهم واسعة، فانهم لم يستطيعوا الاعتماد على عنصر الاحقية وحدها بشكل معقول. فقد كانت المحاباة متفشية بينهم، ولم تهمل اية مكيدة او مؤامرة الاوتم استعمالها

كانت الخدمة المدنية في العراق سنة ١٩٠٠ قد بلغت اخطر درجة اذا ما قيست حتى بالمستويات القائمة في الاقطار الاسيوية المعاصرة. ومع ذلك فقد كانت هذه الادارة تضم، في جميع الاوقات وعلى كل المستويات، عددا غير قليل من الرجال المخلصين ذوي العقول السامية.

كان تقسيم الاراضي الاقليمية التركية الى ولايات، ومحافظات واقضية، ونواحي من الامور الادارية. وكانت الوحدات الادارية تتجاوب ليس طبقا للتقسيمات الجغرافية، وغالبا ما كان يساء فهمها. وكانت التغييرات التي تحصل في الاوضاع القائمة، وفي الحدود، وانشاء وحدات

ادارية جديدة، من الامور الشائعة. وفي سنة ١٩٠٠ كان العراق بمجموعه يقل بمقدار اربع محافظات عن المحافظات التي وجدت في سنة ١٩٥٠، وبعشرة اقضية، وباقل من عشرين ناحية. وكانت الاقضية تقسم الى درجة اولى، وثانية، وثالثة، وهي لاتختلف بالنظر الى المساحة او السكان، او الصعوبات الادارية. وكان البعض من هذه الاقضية يعتبر من الضواحي، والبعض الاخر يكون عشائريا برمته، في حين كانت اقضية اخرى، من امثال قضاء «الرزازة»، او الكويت اقضية اسمية ليس الا.

وكان الولاة والمحافظون يعينون وفق مرسوم امبراطوري، في حين يعين الموظفون الذين يقلون عنهم درجة من قبل الوالي محليا. وكانت اعادة التعيينات وفصل الموظفين بصفة دائمة، تعكس القلق المستتر الذي تثيره الدسائس، واختلاق الشائعات التي كانت نذير شؤم للاستمرار في الادارة.

وكان الوالي، باعتباره ممثلا للسلطان، يتعامل مع رؤساء الكيانات المحلية، والقناصل الاجانب، وكبار رؤساء القبائل، وكانت الادارة العامة والادارة غير الوظيفية في يده. فهو الذي يوجه البلديات، و ويفض الخلافات العشائرية التي تتحدى التسوية، ويستمع الى المظالم المتفشية. وعن طريق الدفتر دار، يكون له تأثيره اوسيطرته على ميدان جمع الواردات المهمة التي تستحصل من الاراضي. ففي كل ولاية، اواية مراكز تابعة لها، يتألف مجلس اداري يكون قسم من اعضائه من الموظفين، والقسم الاخر من اعضاء منتخبين، فيما بينهم ممثلون عن المسيحيين واليهود.

وكانت صيانة القانون والنظام تعتمد على قوة «الجندرمة» اولئك «الضابطية» المألوفون لدى الرحالين الاوربيين. وكانت هذه القوة التي تتم قيادتها وتنظيمها على الاسس العسكرية، تدار من قبل وزارة الحربية، لكنها توضع تحت تصرف الحكومة المحلية.

ولما كانت اجور اولئك «الضابطية» تافهة، وكانوا بدورهم شديدي الجشع، ونصف مزودين بالسلاح، وغير مهندمين في الملبس، ويتم استخدامهم لكل غرض من اغراض الحماية، ونقل البريد، بل وحتى الخدمات الاهلية، فانهم مع كل ذلك لم يكن ينقصهم الاخلاص ولا الجرأة. وقد عمل الكثير منهم اعظم مايمكن عمله للحفاظ على الادارة القائمة.

ولم يكن للمحافظ، على كثير من الدوائر التي تعمل في منطقته، سوى السلطة العامة للتنسيق والتوجيه. وكانت هذه الدوائر الموجهة من اسطنبول، تشتمل على ادارة العدل، وهو الميدان الذي استطاع فيه القانون في سنة ١٩٠٠ ان يتطور الى ابعد مما كان قائما من اصول الشرع فقد تم اختيار «المجلة»[1] المدنية، سيئة التأليف والتشريع، وهي عبارة عن مجموعة «تشريعية»

---

(١) يقصد بذلك مجلة الاحكام العدلية والتي كان يحكم بموجبها في المحاكم المدنية في الامبراطورية العثمانية ومنها العراق. وظلت هذه المجلة تدرس في كلية الحقوق العراقية حتى اوائل الخمسينات حين تم وضع القانون المدني العراقي من قبل لجنة كان من =

لخص هذا الموضوع. مضافة اليها مجموعة القانون التجاري الفرنسي.

ولم تدون القوانين التي نتجت عن ذلك بصفة ناقصة وملئ بالشذوذ حسب. وانما كانت غير متلائمة مع حاجات العراقيين بشكل تام في اغلب الاحوال. وكانت المحاكم التي تطبق تلك القوانين، تمثل نظاما شاملا اسيء الاهتمام به، وتم افساده بالتأخير. وسوء الاستعمال اثناء التطبيق، وباستخدامه اللغة الاجنبية بصفة مطلقة، وبعدم دفع مرتبات للقضاة.

ولقد تم التأكيد على حماية الاوضاع الممتازة للاجانب، الذين كانت تحميهم الامتيازات التي تعود الى عصور موغلة في القدم، والتي كانت تثير الاستفزاز، وذلك بالترتيبات التي اجريت بالنسبة الى الامور المدنية والجنائية على حد سواء.

التي الوفير من الاعمال على عاتق المحاكم من قبل دائرة تسجيل الاراضي. او دائرة التسجيل العقاري «الطابو»، حيث شرع لاول مرة بتطبيق هذا النظام في العراق على يد الوالي «مدحت باشا» باعتباره اداة لتسوية قضية الاراضي، ولتحقيق الاستقرار. ولكن في الاراضي التي لم يتم مسحها بعد، والتي كان معظمها مملوكاً بصفة دائمة للعشائر، وابعد من ان تتطابق مع وجهة النظر الرسمية التي تعتبر اراضي الدولة غير المحولة، بانها موضوعة تحت التصرف الحر للحكومة، لم تستطع دائرة التسجيل العقاري ان تفعل سوى الشيء القليل مما كانت تعمله، عدا عن اثارة منازعات جديدة، وتحويل حقوق لفرقاء لاحول لهم في ممارسة تلك الحقوق، وتدمير افضل العناصر القائمة في العلاقة بين الشيخ وافراد العشيرة. ومن هنا كانت الصعاب العملية الهائلة التي جابهتها عملية تسوية الاراضي، من الامور غير المتصورة، اذ كان الاساس الشامل لعملية مسح الاراضي، والسيطرة الاجتماعية، ناقصا.

وفي ميدان الطب والحجر الصحي، كان مستوى الاطباء الاتراك (ونادرا ان يكون هولاء الاطباء من عنصر تركي)، واطئا، وكان مساعدوهم ومفتشوهم غير متدربين، واجهزتهم ناقصة. وكانت الخدمات الطبية التي اعتادت الاعتماد على وجود المستشفيات والمستوصفات التي تديرها البعثات التبشيرية، ضئيلة جدا في المدن، وغير موجودة خارجها.

ولم تبرز الخدمات التربوية سوى مظهر ضئيل من التحسن، وان كانت المستويات في كل ناحية اوطأ من مستويات المدارس الاجنبية او المدارس التي تشرف عليها البعثات التبشيرية الاجنبية

اعضائها الفقيه والدستوري الكبير المرحوم عبد الرزاق السهوري المصري. وكان المرحومان الاستاذان منير القاضي وحسين علي الاعظمي من اشهر الذين درسوا «المجلة» في كلية الحقوق العراقية خلال سني الاربعينات وما بعدها.

ذلك لان المدارس الابتدائية المجانية، والمنظمة تنظيما جيدا على الورق ليس الا، كانت موجودة في معظم المدن، في حين وجدت بعض المدارس الثانوية ايضا في المدن التي تعد اوسع من غيرها. كذلك انشئت مدارس صناعية في كل من بغداد والبصرة، واصبح التعليم الديني العالي متوفرا، في حين كان نظام التعليم العسكري مميزا. فقد كان ابناء الاشراف من المدنيين وكبار الموظفين، يذهبون الى اسطنبول لاكمال تعليمهم التركي، في حين كانت تذهب قلة من ابناء الشيوخ الى الكلية العشائرية[٢] وكانت حرفة التعليم سيئة السمعة وممقوتة، وطرائقها بدائية.

ولم تكن كل هذه القضايا لتشتمل على قائمة الوظائف الامبراطورية. ذلك لان ادارة الديون العامة، التي تدير شؤون الايرادات المختارة، نيابة عن العراقيين للباب العالي، والدوائر المحلية لشاريع الاحتكار، والتي كانت تنهض باعمال احتكار مصانع منتجات التبوغ وبيعها، ودائرة المكوس، كل هذه الدوائر وامثالها، لم تكن تحظى بالاهتمام المباشر من لدن الوالي. ومثل هذا الامر كان يطبق ايضا على اعمال عامة نادرة، يعهد بها الى مهندس الولاية او الى ادارة الاوقاف.

فلم يكن الوالي يغامر في الاقدام على اي تدخل رسمي في ادارة عمان العثمانية[٣] ولا في الادارة السنية المفضلة على غيرها من الادارات الاخرى. وذلك لان هذه الادارة الاخيرة التي اشتهرت مؤخرا، قد خولت مديرها في سنة ١٩٠٠ ارجحيه شراء اكثر من ثلث الاراضي الصالحة للزراعة في ولاية بغداد، بالاضافة الى مقاطعات اوسع في ولايتي الموصل والبصرة.

كان الجيش السادس الذي تشتمل منطقته الاقليمية ذات الحدود المشتركة، ومن بينها العراق بأكمله، يعتبر اقل فخامة من التشكيلات العسكرية التركية الرئيسة الاخرى. اذ كان هذا الجيش يتألف من فرقتي مشاة، وفرقة خيالة، وتشكيلة من المدفعية. وكانت وحدات كل جيش متناثرة تناثرا واسعا، ويتغير موقعها باستمرار طبقا لمتطلبات الحروب العشائرية.

وكانت المواصلات المرهونة بالمناسبات، وبالترتيبات التموينية، بدائية تماما، في حين كانت التجهيزات تافهة وناقصة. كان الموظفون وتنظيم الجيش يجري بصفة عامة على النمط الذي تنظم به القوات العصرية ولكن كان يساء استعمال افراد تلك القوات وكان تدريبها مفككا، ولا تدفع مرتباتها بانتظام.

كانت الخدمة في الجيش ناشئة من التجنيد الاجباري الذي كان يعفى منه غير المسلمين بالاضافة الى طبقات كثيرة من المسلمين ايضا، لقاء البدل الذي تدفعه مقابل ذلك. وكان افراد

---

(٢) تأسست هذه الكلية في اسطنبول وكان ابناء العشائر هم المفضلين في الالتحاق بها، وكان عبد المحسن السعدون من بين الذين التحقوا بهذه الكلية.

(٣) كانت عمان في ذلك الوقت تخضع بصفة اسمية للامبراطورية العثمانية ولذلك انشئت لها ادارة خاصة عرفت باسم «ادارة عمان العثمانية» وكانت تعتبر من الادارات المتعلقة بالسلطان مباشرة، ولا يحق لاي والي او متسلم ان يتدخل فيها الا باذن من الباب العالي.

العشائر كلهم معفوين من التجنيد. وكانت الخدمة الاجبارية تمدد عادة لاكثر من المدة القانونية المحددة بثلاث سنوات وهذا الاجراء وما كان يضاف اليه من احتمال ارسال المجندين الى مناطق مخيفة في اليمن او في اوربا، قد جعل التجنيد يثير الحنق والامتعاض اكثر مما تثيره المؤسسات التركية الاخرى. ومع كل ذلك فلم يكن اي من الاقاليم العربية يزود الجيش التركي بالمزيد من الضباط ذوي المستوى الرفيع، مثلما كان العراق يفعل ذلك.

كان الاسطول في البصرة، وهو عبارة عن مصلحة تافهة منحطة جدا، يخضع لامرة رئيس عمارة بحرية. وكان الواجب الظاهر لهذا الاسطول هو نفس ما تقوم به الشرطة النهرية، ذلك الواجب الذي فشل فيه فشلا ذريعا ملموسا. ومع وجود مؤسسة للسواحل، تضم حوالي مائتي رجل، كان السلاح الوحيد الذي يمتلكه اسطول البصرة في سنة ١٩٠٠، عبارة عن سفينة بحرية قديمة غير قادرة على ان تغادر مراسيها تسمى «قليد البحر»[٤] وسفينة صغيرة مسلحة تتحرك بالرفاس عرفت بأسم «الوس»

هذه الحكومة التركية في العراق، والتي اطلعنا الان على واجبها، وتطورها وتنظيمها، كانت لها اهداف اعتيادية لايمكن الوصول اليها، من امثال النظام، والتقدم، والمنفعة العامة. فقد كانت انظمتها شاملة، ويجري تعديلها باستمرار. واشتمل مدراؤها على رجال متعلمين لديهم التجربة والمعرفة بالاوضاع المحلية، ومع كل ذلك كانت هذه الحكومة تتلقى اشد الانتقادات من لدن العاملين فيها، بما لايقل عما ينتقدها به المراقبون الخارجيون. ولما كانت هذه الحكومة شديدة المركزية بشكل مستديم، فقد كانت مقيدة بألف من القواعد سيئة التطبيق، التي كانت تعرقل المبادرة المحلية. لقد كانت الحكومة سيئة الاستعمال، رديئة المساكن، سيئة التجهيز، وغير قادرة على الاحتفاظ بقوات تكفي للاقل من حاجاتها. كانت تعوزها صفة الاخلاص، مثلما يعوزها الرجال المتحمسون القادرون على ممارسة الوسائل الضرورية لحكم بلد عشائري متخلف، والذين يحظون بثقة رؤسائهم فيهم.

وحتى لو تحركت مثل هذه الحكومة في بعض الاوقات، الى امام بفضل قلة من الموظفين العصريين فيها، وعلى مثال الاقليات المحلية، فانها سرعان ماكانت تتوقف عن تقدمها، بفعل ايدي عناصر لاتهتم الا بمصالحها الشخصية، دون المجتمع العراقي، وحتى المجتمع التركي ايضا.

وفوق كل ذلك «كانت السمكة جائفة من الرأس الى الذنب»، (بالاك باشدان كوكر). فلم يكن العراق سوى جزء من الامبراطورية العثمانية، التي كانت حكومتها المركزية في سنة ١٩٠٠ تمثل الاستبداد الشاذ المتعاظم، وقد اذهلتها المخاوف والشكوك التي كانت الدول تثيرها، وغدت فريسة للمغامرين الذين كانوا يستخدمون الجواسيس، ونقلة الاشاعات، بالاضافة الى الفساد والمحاباة التي عملت على تمزيقها.

---

(٤) قليد البحر KELID AL BAHR المقصود العبارة «اقليد البحر» وهي تسمية عربية خالصة.

كانت لدى الباب العالي وقصر يلدز رغبة واسعة في كسب الوقت، وفي اضعاف المعارضة، وذلك عن طريق اللعب بالقوى المتنافسة، وارشاء الافراد الخطرين، والتشدد في قطع الوعود الكاذبة، بدلا من المبادرة باقامة حكومة نظيفة وفعالة كانت تنقصها حتى الوسائل المثالية ناهيك عن الوسائل المادية.

فالى هذه الحكومة المركزية كانت تتبع الولايات العراقية. ومن بين صفوفها كان يأتي كبار الموظفين، الى كل محافظة ودائرة، واليها ينقل الدساسون والساخطون في العراق حكاياتهم.

ومن الناحية الاقتصادية، كانت هناك كما شاهدنا ذلك قبلا - امال كبيرة لتحقيق تطور العراق. اما من الناحية السياسية فقد كانت طريقة السلطان التي اتبعها، هي ان يتودد الى الاسر المهمة في المدن، ولاسيما تلك الاسر التي كانت تتظاهر بالدين، وذلك بالتشديد على المفاضلة والمجاملة، اذ كان يشجع مراقد الائمة والهبات التي تخصص لها، ويؤكد مظهر الخلافة في الحكم الذي كان يمارسه، وان يكون معروفا عنه بانه هو الذي كان يخطط لإيصال سكة الحديد الى مكة والمدينة[5] وتوسيع نطاق الجامعة الاسلامية التي كانت تدعو الى اتحاد العرب والاتراك، واختيار حرسه الخاص من العرب

وعلى هذا كانت اية حكومة لابد وان تجابه، ان عاجلا ام اجلا، بسياستها ازاء المشكلة العشائرية. فاذا ما استحال العثور على عناصر عشائرية قادرة على اظهار التبعية المخلصة، واذا ماتم التأكد من ان الشيوخ سوف يسيئون على الدوام، استعمال كل السلطات التي تمنح لهم، حينذاك تغدو السياسة الوحيدة البديلة لذلك، هي عرض الحكم المباشر في مراحل ممكنة التطبيق.

ولكن مثل هذا المشروع كان يلقى المعارضة والمقاومة من لدن تسعة اعشار رؤساء العشائر، لانه يحطم مراكزهم المفضلة، ولذلك كان تطبيق مثل هذا المشروع يشتمل على كفاح دائب تقوم به الحكومة لتأكيد سيطرتها، ولكي تدفع الشيوخ الى القبول به.

لقد ادت الصفة المتغيرة للحكومة، وفقر مواردها، الى حدوث المزيد من التقلبات. فلم تعد تستطيع على الدوام ان تصنع التظاهرات العسكرية، اوان تحرك الارتال التأديبية الناجحة. فقد كان يظهر في كثير من الاوقات، المزيد من سياسة التغاضي عن الاعتداءات الفاضحة، ومساندة بعض الشيوخ البارزين بل وحتى تعيينه في الحكومة، مثلما كان يحدث بالنسبة الى تعيين محافظ المحافظة نفسه.

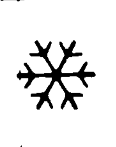
وكان الشيخ في بعض الاحيان، اذا ما اخفقت كل السياسات، يستطيع ان يشتري نقدا

---

(٥) يقصد بذلك خط حديد الحجاز الذي اوصل قبل الحرب العالمية الاولى من شرقي الاردن الى المدينة المنورة وقد هجر استعمال هذا الخط بعد تلك الحرب ولم يشجع الانكليز استعماله ولا ايصاله الى مكة، كما جرت في اوائل الستينات محاولات من قبل الحكومة السعودية لاصلاح الخط واستعماله ولكن تم التخلي عنه في اعقاب هزيمة حزيران ١٩٦٧.

كل متطلباته من السلطة، او التخلص من العقاب. فقد كانت القاعدة المطبقة للحكم لدى المديرين الاتراك في العراق هي قاعدة«السيف والسكر»

ومايختص بالوضع السياسي، نقول بأن الحياة السياسية لم تكن في ظل الحكم الحميدي، من الامور المتوقعة. ذلك لانه كانت تعوقها الطبيعة القاسية الغريبة التي تتسم بها الحكومة، ونظام التجسس الشامل المطبق لديها. ولذلك فلم يكن موقف العراق ازاء الحكم التركي بمجموعه، سوى القبول المذل والممزوج بالكره العاطفي والمذهبي من قبل بعض الاوساط الطائفية، واحترام بعض الاوساط السنية لشخص الخليفة السلطان. ومع ذلك كانت الحركات الادبية والسياسية في مصر ولبنان، تبشر بان حركة عربية على وشك ان تولد.



الفصل الثاني
اخر مراحل العراق التركي

١ ـ السياسة التركية والقومية العربية

٢ ـ اخر مرحلة ادارية

٣ ـ المدينة والقبيلة

٤ ـ مشاريع الارض والماء

٥ ـ الجيران والاجانب

١ـ السياسة التركية والقومية العربية

لايوجد سوى القليل من الحظوظ التي اصابتها تركيا خلال الفترة من سنة١٩٠٠ الى سنة١٩١٤، مامن شأنه ان يشجع العالم بل حتى رعاياها العراقيين على الامل في قيام ادارة افضل، اوالتمتع بحياة احسن. لقد شهد القرن الثامن عشر بعض البوادر (منها الاضطرابات التي وقعت في جزيرة «كريت» وما اعقبها من قيام الحرب اليونانية التركية) والتي دللت على ان التوقف الطويل الذ ي حدث منذ سنة١٨٧٨ ازاء تفكك الامبراطورية العثمانية، ان ذلك التوقف لن يستمر الى الابد.

فني القرن الجديد دفعت الاوضاع التي حدثت في مقدونيا، بالدول الغربية، الى التدخل، والى فرض قيود على السلطة التركية. كما ان التقدم الذي اصابه النظام الجديد في الحكومة التركية، قد اخذ يشير هو الاخر الى المزيد من الخسائر. فني سنة١٩٠٨ اعلنت بلغاريا استقلالها، وانضمت النمسا الى «بوسنيا» و«هرزيغوفينا». وفي سنة١٩١١ غزت ايطاليا ولايتين من ليبيا، في حين اعلنت عصبة دول البلقان في سنة١٩١١٢، الحرب على تركيا، ودحرت الجيوش التركية دحرا شنيعا، ولكن المنازعات على الارض ما لبثت ان ادت الى تجدد المعارك، اي قيام الحرب البلقانية الثانية وعلى هذه الصورة كانت تلك الفترة، ماخلا نجاحات تذكارية، تعتبر من اشد الهزائم اذلالا، وتمزيقا، وابتعادا عن الاصلاحات. كانت الصورة من الناحية الداخلية تحتوي على مظاهر اكثر جدة. فالواقع ان الحكم الحميدي قد اضاف امتعاضا جديدا لكل اوربا (ماعدا المانيا) وذلك بسبب المذابح الارمنية التي وقعت في سني التسعينات من القرن الماضي، ذلك الامتعاض الذي ادى الى تخلي السلطان عن حكمه الشخصي بدرجة اكثر مما كان يفعله وزارؤه انفسهم، والى تشديد نظام التجسس. غير ان القوى الاصلاحية التي كان عبد الحميد، قبل جيل مضى، يتملقها في اول الامر، وقضى عليها بمنتهى الوحشية فيما بعد، لم يتم القضاء عليها قضاء تاما

وما ان تعززت تلك القوى سنة بعد اخرى، بالتعليم الاجنبي للضباط العسكريين، حتى اخذت تجند لها الانصار المتحضرين من سكان سوريا ولبنان، واليهود في سلانيك وبين الوطنيين الاصليين من الاتراك. ومن هنا كانت الموجة الثانية من النشاط السياسي من الامور الحتمية، ولو

انها كانت قد تأخرت نتيجة الاهتمام الذي اخذ النظام القديم يبديه ازاء المصالح القوية، وبالفطنة التي كان الحاكم يتميزبها

فابتداء من لجنة المنفيين التي تألفت في مدينة جنيف خلال سني التسعينات من القرن الماضي، عادت الحركة الاصلاحية فانتشرت في تركيا، وتركزت في مقدونيا خلال الفترة ١٩٠٦ - ١٩٠٨ [١] وكان ظهور الشبان الاتراك ولجنتهم التي عرفت باسم «الاتحاد والترقي» في شهر اب ١٩٠٨ قد وطد السبيل لارغام السلطان على ان يعيد اصدار الدستور، وان يأمر بأجراء انتخابات مباشرة، وان يصدر - ولاول مرة خلال ثلاثين سنة - مرسوما بالغاء شعبة الجاسوسية، وطرد المزيد من موظفيه المتعسفين. ولقد انتهت الحركة الرجعية المناهضة للثورة في شهر نيسان ١٩٠٩ [٢] بتنازله عن الحكم لاخيه العاجز[٣] وبسيطرة الشبان على الحكومة من سنة١٩٠٩ حتى سنة١٩١٤، وذلك نتيجة تأثيرهم في الانتخابات، والتعليمات التي اصدروها الى كبار الموظفين عن طريق وكلاء الحزب، والنوادي السياسية، والمحاكم العرفية التي انشأوها، والتي ادت، بصفة عملية، الى وقف مجرى العدل والادارة خلال تلك السنوات

لقد تحولت الامال السامية التي حيت بها الامم الغربية، ولا سيما بريطانيا، النظام الجديد في سنة١٩٠٨، الى خيبة تلك الامال. صحيح ان الازمات المتكررة قد عملت بما فيه الكثير لتجريد لجنة الاتحاد والترقي من الفرصة الطيبة التي سنحت لها، الاان الحاجات اليائسة بالنسبة الى تركيا قد اظهرت بانها تتطلب التأكيد على كفاءة النظام من الناحية العسكرية. ذلك ان البواعث التي اوضحت، في نطاق واسع، مدى فشل الشبان الاتراك في تحقيق الامال المنشودة، انما اثارتها الاحتجاجات المبكرة من جانب كل عنصر كان يخضع للحكم.

غير ان هناك سببا اكثر عمقا، هو ان مفهومي التطور واللامركزية، كانا يعتبران مفهومين غريبين حتى عند اكثرية الفكر التركي المتنور في ذلك الوقت. فالحرية التي تم تقديمها هي الحرية التي تعتبر الشعوب الخاضعة للحكم شعوبا عثمانية، وان المساواة تقوم على اساس ان الجميع

---

(١) كشفت الوثائق التي نشرت مؤخرا عن الجمعيات الاصلاحية التي تأسست في تركيا وخارجها لمقاومة السلطان عبد الحميد الثاني بانها كانت ملغمة بالعناصر الصهيونية والماسونية معا، وان الصهاينة والماسونيين قد نشطوا للقضاء على حكم السلطان عبد الحميد بعد ان رفض العروض السخية التي عرضها مؤسس الحركة الصهيونية «هرتزل» للحصول على اذن بهجرة بعض اليهود الى فلسطين وتأسيس احدى المستوطنات الصهيونية ولعل من خيرة ما صدر في هذا المجال هو كتاب «دور اليهود والقوى الدولية في خلع السلطان عبد الحميد العثماني عن العرش» الذي طبع مؤخرا في بيروت. ومؤلفه علي حسان حلاق.

(٢) قامت بهذه الحركة الرجعية «الجمعية المحمدية» وقد ناصرها الجيش في اسطنبول، واذ ذاك قام محمود شوكت وزير الحربية بضرب تلك الحركة وقبرها في مهدها، وتسلطت الجمعية الاتحادية على الحكم وتمكنت من القضاء على كل مخالف (عباس العزاوي: العراق بين احتلالين ج ٨ ص ١٧٤).

(٣) استغل الاتحاديون هذه الحركة الرجعية فارغموا السلطان عبد الحميد على التنازل عن الحكم بفتوى شيخ الاسلام محمد ضياء وتولى اخوه محمد رشاد الحكم مكانه وكان يرمى بالبلاهة وضعف الرأي ولذلك تشاءم الناس من سلطنة محمد الخامس وجرى على لسانهم (اذاحكم رشاد ظهر الفساد).

عثمانيون، وان المركزية الاشد والاوسع، والتعود الثابت على الطاعة، هو الذي يمثل الصيغة التي اختارها الشبان الاتراك لبعث بلادهم.

لقد كان العرب، والارمن، واليونانيون، يأملون عكس ذلك تماما. ذلك ان سياسة العصابة الحاكمة بالشكل الذي تطورت اليه، تمثل الانتصار للعنصر المستبد جدا في لجنة الاتحاد والترقي، والذي لم يكن يتطلع الا الى التركيز، وكفاية الوسائل التي يمكن بها انقاذ الامبراطورية، والتي سرعان ما اعادت المانيا الى تبوأ مركز ممتاز بل احتكاري في بعض الاحيان لدى القناصل الاتراك.

وفي ولايات العراق، لم تثر انباء الحروب الاجنبية والاندحارات التي عانتها الامبراطورية العثمانية سوى الضئيل من الاهتمام في المدن، وبين الافندية نصف المستتركين، في حين ادت الحرب الايطالية الى افتتاح التبرعات في بغداد للاغراض الخيرية الحربية او شبه الحربية ولكن كانت نتائج ذلك مما يبعث على السخرية حقا. وبرزت محاولات للتظاهر بالوطنية، من امثال تقديم عروض غير حقيقية، من الخدمات الشخصية، واقامة الصلوات في سبيل النصر. ولكن عدم مبالاة الشعب العراقي بالبلاغات الحربية الكاذبة التي كانت تصدرها وكالة الانباء العثمانية، ورضاه – بدلا من تخوفه – بالارتباكات التي نزلت باسياده، كل هذه الامور قد جعلت الولاء العملي غير منظور.

لقد ارسلت بعض الجيوش الى اوربا، وتم التشدد في التجنيد، وزادت الضرائب بمقادير عالية، واعلنت التعبئة العامة، وانقصت مرتبات الموظفين نتيجة فرض ضريبة الحرب، وطلب الى الناس تقديم التبرعات لتوفير البواخر الحربية والطائرات والعناية بالجيش والجرحى، وتم الاعلان عن اصدار قرض داخلي، ولكن ذلك كله لم يثر سوى ادنى حد من التجاوب.

ومع كل ذلك فقد كانت للثورة السياسية في العاصمة العثمانية، نتائجها العملية في العراق. فقد تم نقل بعض الموظفين الكبار في الحال، واصبح في مستطاع بعض المنفيين السياسيين ان يعودوا الان الى اسطنبول، واحدثت البرقية التي اعلنت في شهر اب ١٩٠٨ اجراء انتخابات مباشرة، هياجا شديدا لدى معظم النواب المحتملين، بذلك ارتجت دواوين حواضر الولايات الثلاث، وقوبلت الزيارة التي قام بها افراد يمثلون لجنة الاتحاد والترقي من اسطنبول، الى مدن العراق، بحماسة بالغة لكن سرعان ماخنقت تلك الحماسة نتهجة الوسائل غير الملائمة التي اقدم عليها الزائرون، وبالاكاذيب التي جند العنصر الرجعي قواته لها مسبقا[٤] وسرعان ماغادر النواب

---

(٤) ركز وفد الاتحاد والترقي الذي قام بزيارة العراق بعد الانقلاب كل همه على فتح فروع لجمعية الاتحاد والترقي. فقد تألف فرع بغداد من السادة عبد القادر باشا الخضيري، ويعقوب باشا عيساني، ويعقوب افندي، واسكندر افندي عزيز، وميشيل افندي ياغجي، والحاج جودي جابي.

ولكن ظهر للعراقيين فيما بعد ان مندوبي الاتحاديين بدأوا يسلكون مع اعوان الاستبداد سلوك من يغتنم الفرصة ويبتزون منهم المبالغ الكبيرة تغريما لهم وبعدها يضموهم الى صفوفهم وقد لعبت الرشوة والمحسوبية دورا هاما (فيصل محمد رحيم: تطور بغداد تحت حكم الاتحاديين ص ٢٤٢ ط ١٩٧٥).

الذين تم انتخابهم الى اسطنبول في الحال(*) وحددت العطلة العامة موعد انعقاد البرلمان في شهر كانون اول ١٩٠٨، ثم اعقب الشهور الاربعة شهر اخر لجلوس السلطان محمد الخامس

وبمغادرة البارزين من العراقيين الى اسطنبول لكي يجربوا ايديهم في السياسة، وليؤثروا في شؤون العراق، ان استطاعوا الى ذلك سبيلا، عن طريق الحصول على تعيينات اعلى[٥] دخل الحياة العراقية عنصر جديد

ففي اسطنبول الف النواب العراقيون من اول يوم مع النواب السوريين، جماعة متضامنة في البرلمان، وكذلك في مشاركتهم في احد النوادي الادبية هو «المنتدى الادبي»[٦] الذي كان ناديا سياسيا اكثرمنه ثقافيا. وما ان عادوا الى العراق اثناء العطلة، حتى بداوا ينشرون في البلاد افكاراً غريبة عنها منذ عهد طويل.

ولقد قامت بعض العوائل المبرزة في الواقع وهي حانقة بمقاومة تلك البدع الشاذة الخطرة، وراحت تعلن اسفها على السلطان الذي كانت تعتبره اباً لها[٧] وخابت امال شيوخ العشائر الذين كانوا يعتقدون بان الحرية تعني انعدام الحكومة، واخذوا يطالبون بالحصول على مقاعد منفصلة لهم في البرلمان

كانت الاقليات تأمل بادئ ذي بدء في نشر العدل والتقدم، لكنها مالبثت ان ادركت فيما بعد، ان كل ما ظفرت به هو تجنيدها وتحويلها الى العثمنة التامة. لقد غدت الاوضاع كلها على حد سواء، تهدد كبار الموظفين بالانتقام السياسي، والتدخل في شؤون الانتخابات، وتشكيل النوادي السياسية، والانضمام الى «الحزب الحر» الذي اصبح بعد سنة١٩١١ يتحدى «الاتحاد

(*) كان اول الاعضاء من بغداد في المجلس النيابي التركي هم محمدبك (من اسطنبول) وتوفيق بك الخالدي، ومراد بك، وفؤاد بك الدفتري، وجميل الزهاوي الشاعر (وكلا العضوان من عوائل بغداد البارزة) واليهودي ساسون حسقيل.

ولكن عباس العزاوي اضاف الى هذه الاسماء اسماعيل حقي بابان، والحاج علي علاء الدين الالوسي، شوكت باشا بن رفعت باشا (والد ناجي شوكت) ومصطفى نور الدين الواعظ، عبد المهدي الحافظ، طالب النقيب، احمد الزهير، رأفت السنوي والد نشأت السنوي، خضر لطفي، محمد علي حافظ (والد الدكتور عبد الاله حافظ) داود يوسفاني، ملا سعيد كركوكلي علي بن مصطفى قيردار، صالح باشا ال النفطجي، عبد المحسن السعدون، مجيد الشاوي.

(٥) يذكر المؤرخ الكبير المرحوم عباس العزاوي ان النواب صاروا يميلون الى التوظيف واحراز مناصب اعلى في الدولة «وبذلك اهملوا النيابة، وتركوا النضال والجهاد في سبيل الاصلاح...والنواب كانوا في الاغلب بوضع عدم مبالاة، ونال الكثير منهم الغرور (العراق بين احتلالين ج٨ ص ١٦٧).

(٦) تاسس المنتدى الادبي في شهر اذار ١٩٠٩ بعد ا انحلت جمعية «الاخاء العربي العثماني» وهي اول جمعية قومية عربية في الاستانة كانت قد تألفت في اب ١٩٠٨ وكان من اشهر مؤلفي المنتدى الادبي عبد الكريم قاسم الخليل، وسيف الدين الخطيب، طالب النقيب، واحمد الزهير ويوسف سليمان حيدر ورزوق سلوم، ومعروف الرصافي ورشيد رضا وجميل الحسيني وعبد الحميد الزهراوي وعزيز علي المصري. وعندما انكشفت اهداف المنتدى الادبي للحكومة الاتحادية اقدمت على اغلاقه في اذار ١٩١٥ كماان قيام الحرب العالمية افقده العديد من الاعضاء الضباط فيها الذين ارسلوا الى جبهات القتال الى ان انهار تلقائيا بعد ان بدأت محاكمة اعضاء الجمعيات العربية في عاليه سنة ١٩١٦

(٧) اشارة الى الحركة التي قامت بها «الجمعية المحمدية بدعم من الجيش ضد حكومة الاتحاد والترقي والتي سبقت الاشارة اليها.

والترقي»[8] غير ان هذا الحزب الاخير، بل بصفة عامة، خلال الفترة التي شهدها العراق من سنة١٩٠٨ الى سنة١٩١٤، يهيمن على الاوساط السياسية، وعاش فترات الانطلاق والنكوص، وظل لوحده يحتفظ بتنظيم واسع له في القطر. وحين كان هذا الحزب يبدي معارضة قوية في البصرة، كانت تلك المعارضة التي تبدر من اعضائه اضعف من الاغراءات القوية التي كانت تثيرها الافكار الاخرى والتي اصبح التحدث بها شائعا انذاك في العراق، ونعني بها احاديث القومية العربية

كان ظهور مثل هذه الحركة امرا حتميا مثل حركة الاصلاح ذاتها التي ظهرت في تركيا. ذلك لان الاحساس بالاخطاء المتواصلة، وبالخيبة كان عاما بالنسبة الى المسؤولين عن تلك الاخطاء وتلك الخيبة معا، ولم تستطع الشخصية العربية التي تتميز بالفخر والفردية، ان تعترف بالخطة المستديمة. ذلك لان انعتاق العناصر الخاضعة في اوربا غدا من الامور المعروفة بشكل متزايد لدى العرب. ولقد قضى موقف الشبان الاتراك من الدين والخليفة، على ذلك الرباط الوحيد الذي كان يربط العرب بالحكومة العثمانية. ذلك ان وصول العراقيين في القسم الجنوبي من العراق الى المناصب الرفيعة، والاشاعات التي كانت تنشر عن الحياة السياسية في مصر، وتلميحات الادعاء بالقومية العربية التي اخذ المهاجرون العرب في باريس يبسطونها هناك، كل هذه الامور اضافة الى تطور المواصلات، والادراك الواسع للفكر العالمي، قد مهد التربة الصالحة للقوميين في العراق، حتى قبل ان يحدث الزخم النهائي للثورة التركية

في الوقت الذي اوجدت فيه ثورة سنة١٩٠٨ حياة سياسية تركية نشطة في العراق، فانها سرعان مااخذت تشير الى الهوة الساحقة بين الاماني التركية والعربية. ذلك ان مجموعة «الاخوة العربية» التي تألفت في اول مجلس نيابي تركي، سرعان ما قضى عليها الشبان الاتراك بقسوة، علما بأن نسبة المندوبين العرب من النواب والاعيان في البرلمان كانت واطئة بشكل غير عادل بالنسبة الى النواب والاعيان من الاتراك

كان الولاة الذين عينوا بعد الثورة على الولايات العراقية، لايظهرون سوى عطف ضئيل جدا على حركة اللامركزية، والاقتراح القاضي باستعمال اللغة العربية ولذلك اخذ كثير من العراقيين يتضورون ألما من مطاليب التجنيد المقيتة في الجيوش التركية، وربما لانهم قد يحاربون اخوانهم العرب في الحروب التي ظلت متواصلة في اليمن.

---

(٨) الحزب الحر: هناك حزب بهذا الاسم تألف من بعض النواب العرب في سنة ١٩٠٩ تزعمهم رشدي الشمعة نائب دمشق في البرلمان العثماني وشارك فيه كل من عبد الحميد الزهراوي وشكري العسلي وصالح باشا التونسي. وفي سنة ١٩١١ تألف حزب باسم الحزب الحر المعتدل في بغداد بزعامة عبد الرحمن النقيب وابنه محمود وقد انضمت اليه بعض الاسر الدينية والمحافظة التي بقيت على ولائها للسلطان عبد الحميد وكان الحزب معارضا للاتحاد والترقي وقد تأسس في البصرة وبغداد في شهري اب وايلول ١٩١١ على التوالي (د. غسان العطية العراق: دراسة سياسية ١٩٠٨ - ١٩٢١ باللغة الانكليزية ١٩٧٣).

واعقب ذلك كله، ان سياسي العراق سرعان ما شرعوا يمزجون مقتاهم بروابط الحركة العربية الانفصالية، بالمجادلات المؤيدة لتلك الحركة، او المناهضة للاتحاد والترقي، ويعالجون بصفة جدية، الاراء الصريحة للحصول على امتيازات محلية اوسع، وبالاستقلال المحلي في النهاية.

لقد كان لمثل الادعاء، اساس في السمة وفي الثقافة العربيتين، وفي الانفصال الجغرافي للعراق، وكذلك في الاماني الشخصية لمطامح العراقيين الذين كانوا يتصورون امكانية ايجاد مسلك اوسع في قيام دولة عربية او عراقية، يكون ايسر من وجود دولة تركية.

وفي الوقت ذاته كانت هناك بدايات للاتصال بالحلقات التي تألفت في الخارج للدعوة الى تحقيق المطامح العربية ووضع الاطراللازمة لتلك المطالب. كان من بين هذه الحلقات «الجمعية القحطانية» السرية[9] قصيرة العمر، التي تألفت في اسطنبول، والتي كان اعضاؤها يفضلون «انشاء مملكة عربية داخل الامبراطورية التركية» و«جمعية العربية الفتاة»[10] التي انتقلت من باريس الى بيروت في سنة١٩١٣، ولعبت دورا بطوليا في سنة١٩١٥ واكثر من هذا اهمية انه كانت في العراق حلقات لها اتصالها بالحزب اللامركزي العثماني الموجود في القاهرة، وهو عبارة عن جمعية تأسست سنة١٩١٢[11] ولها مفهومها في التمتع بالاستقلال المحلي ضمن الامبراطورية العثمانية وفي هذا المنطوق كان هذا الحزب اقرب الى التعبير عن مطامح العراقيين في تلك الايام. وكانت له جذوره في كل من بغداد والبصرة.

ولقد غدت علاقات الضباط العرب في الكتائب التركية متوترة مع اخوانهم الضباط الاخرين، ولذلك وجد القائمقامون العراقيون ان من الشناعة ان يطبقوا الاجراءات التعسفية التركية المطلوب اليهم تطبيقها.

وابتداء من سنة ١٩١٠ حتى سنة ١٩١٤ حدث تطور مدهش في الصحافة العراقية، دلل على قيام عهد سياسي جديد. فبدلا عن وجود ست صحف من الصحف التي لا لون لها والتي

---

(٩) الجمعية القحطانية تأسست هذه الجمعية بصفة سرية في الاستانة ويعزو المؤرخ المعروف احمد عزت الاعظمي تأسيسها الى الشهيد المرحوم سليم الجزائري رئيس اركان حرب الفرقة المرابطة في ازمير وقد اعدم مع الشهداء الذين اعدمهم جمال السفاح بقرار من الديوان العرفي في عاليه وكان من اعضاء الجمعية كل من عادل ارسلان وعارف الشهابي وعبد الكريم قاسم الخليل وامين لطفي الحافظ وحسن حمادة والدكتور عزت الجندي وعلي النشاشيبي. وعلى خلاف ماذكره المؤلف هنا فان عمر الجمعية القحطانية لم يكن [illegible] اد بقيت حتى قيام الحرب العالمية الاولى.

(١٠) العربية الفتاة [illegible] هذه الجمعية في باريس من [illegible] الذين يدرسون هناك سنة ١٩٠٩ وكان من اعضائها عوني عبد الهادي ومحمد المحمصاني وعبد الغني العريسي وجميل مردم وقد انضم اليها عدد من كبار العرب وضباطهم وشبابهم في سوريا ومصر والاستانة وانتقل مركز الجمعية الى دمشق فانضم اليها عدد من الرجال من بينهم الملك فيصل الاول، وياسين الهاشمي ورضا الركابي وكامل القصاب وقد اعدم بعض اعضائها في عاليه واسست الجمعية حكومة في شرقي سوريا بعد سقوط الحكم [illegible] ولكن الجمعية مالبثت ان تهاوت بعد واقعة ميسلون واحتلال الفرنسيين للاراضي السورية.

(١١) حزب اللامركزية تأسس في مصر كان رئيسه رفيق العظم ومن اعضائه حقي العظم وعبد الحميد الزهراوي ومحمد رشيد رضا [illegible] الحزب يطالب بما يعرف الان باسم «الحكم الذاتي» للعرب ضمن الامبراطورية العثمانية.

كانت تصدر في حواضر الولاية وفي النجف في العهود الحميدية[١٢] اخذت صحف من مختلف الالوان تصدر بالعربية والتركية شهرا بعد شهر حتى بلغ مجموعها في النهاية زهاء خمسين صحيفة[١٣].

لقد راحت هذه الصحف تدافع عن مناهج مختلفة، البعض منها لامع، والبعض الاخر مخبول وخالي من المسؤولية، من امثال الجامعة الاسلامية، والجامعة القومية المحلية او العربية، والوطنية التركية، وضد الشكوك الاجنبية.

كان عدد من الضباط العراقيين والمشاهير من الشبان الذين تولوا فيما بعد مراكز رفيعة في الحكومة العراقية، من بين الذين نشطوا كثيرا في هذه الامور السياسية قبل سنة ١٩١٤ وكانت الموصل من بين الحواضر الثلاث لولاية العراق، اول من اظهر تحمسا للحركة العربية التي كانت تهيمن عليها، كما هو الواقع، عوائل النظام القديم، والعلماء السلفيون، والمناطق العميقة من الاكراد. اما في بغداد فان المجتمع السياسي فيها قد انقسم الى عدة فرق، منها الفرق المؤيدة للاشتراك في حزب الاتحاد والترقي. وللاحرار، وللحزب الحميدي. ومنها الفرق المناصرة للامركزية ذات الاتصال الوثيق مع سوريا ومصر، اضافة الى الفرق التي كانت موجودة في البصرة. ومن بعض المنضمين الى هذه الفرق، تألف «الحزب العربي الوطني»[١٤] في سنة ١٩١٢ ووضع له منهاجا مبهما عن الحكم الذاتي.

كانت البصرة، وهي ابعد المناطق عن المصالح التركية، واقربها الى الجزيرة العربية المستقلة، قد تسلمت قيادة الحركة العربية من دون منازع. وقد تأثرت هذه الحركة او ارهبت على يد السيد طالب النقيب، الابن الاصغر لعائلة النقيب الشهيرة محليا. كان السيد طالب رجلا قديرا، ظريفا، وجسورا ورجل دولة طموح، وزعيم عصابة ووطنيا. وقد اصبح متصرفاً لولاية الاحساء[١٥] وكانت له ارتباطات وثيقة مع نجد والكويت والمحمرة، وقد فرض هيمنته على

---

(١٢) كانت هذه الصحف حكومية في اغلبها وهي الزوراء والموصل والبصرة وبغداد والعراق.

(١٣) من بين هذه الخمسين صحيفة كانت صحف قليلة تدافع عن القضايا الوطنية العربية في مقدمتها جريدة الرقيب التي اصدرها المرحوم عبد اللطيف ثنيان التي صدرت في اول كانون الثاني ١٩٠٩، والايقاظ التي اصدرها المرحوم سليمان فيضي في البصرة في ٢ ايار ١٩٠٩، والرصافة لصاحبها المرحوم محمد صادق الاعرجي التي صدر عددها الاول في ٧ حزيران ١٩١٠، وسبل الرشاد التي اصدرها محمد بهجت في ٢٨ ايلول ١٩١٠، والصاعقة للمرحوم عبد الكريم الشيخلي التي صدر عددها الاول في ٨ حزيران ١٩١١ وقد فصلت ذلك في الجزء الاول من كتابنا «مفصل تأريخ الصحافة العراقية» المعد للطبع.

(١٤) المقصود بالحزب الوطني العربي هنا، هو «الجمعية الوطنية» التي تألفت في بغداد بصفة سرية في سنة ١٩١٢، وكان معظم اعضائها من الضباط العراقيين العرب، الذين كانوا يسعون الى طرد الاتراك من العراق، وتأسيس حكومة ذاتية عراقية. وكانت هذه الجمعية تقوم بنشر وتوزيع المنشورات والملصقات الجدارية التي تهاجم الحكومة الاتحادية وكانت هذه المنشورات تصل اليها من البصرة ومن الاستانة ايضا (عبد الجبار حسن الجبوري «الجمعيات والاحزاب السياسية في القطر العراقي ١٩٠٨ - ١٩٥٨ ص ٢٨ ط ١٩٧٧»).

(١٥) سير مدحت باشا جيشا اعاد احتلال الاحساء وعندما ثارت المنطقة على الاتراك في سنة ١٨٧٦ استعانت الحكومة التركية بشيخ المنتفق ناصر باشا السعدون فقضى على الثورة. وفي سنة ١٩٠٢ اضطربت الاحوال مجددا في الاحساء واذ ذاك عين طالب

البصرة. وكان عند مطلع القرن معروفا معرفة جيدة في اسطنبول بأنه رجل صاحب وعد او خطر اكبر وعلى استعداد لاختيار اية مزاعم تسند ارتقاءه لكي يتولى امارة مستقلة في جنوبي العراق. فبعد سنة من انضمامه الى جمعية الاتحاد والترقي، انفصل عنها واصبح من الد اعدائها، وراح يتطلع لكي يغدو احد الوكلاء البارزين لدى اسطنبول في ولايته، والاول بين الوطنيين العرب.

وفي سنة ١٩١٢ قام باتصالات ومفاتحات مع البريطانيين في مصر وفي «سملا»[١٦] ونشط في سنة ١٩١٣ في جمع الاموال للجيوش التركية واعلن مساندته للامبراطورية[١٧] وبعد شهر على ذلك الف «لجنة الدفاع الوطني» واوصل مذكرة الى الوالي، والى السردار الاعظم (رئيس الوزراء) يلح فيها على استدعاء المجلس العام للولاية لعقد جلسة لغرض المباشرة بتنفيذ المشاريع الاصلاحية وفي شهر اذار الف المتحدثون باسم اهالي بغداد طلبا موحدا لتحقيق اللامركزية على اساس النموذج الذي نشرته لجنة بيروت القومية وحظي بالترحيب والتصفيق، وكانوا يراقبون الاعلانات المناهضة للاتراك والتي الصقت ليلا في شوارع بغداد. وفي الوقت ذاته كان سيد طالب يعقد في «المحمرة» اجتماعا مع كل من الشيخ خزعل شيخ المحمرة، ومبارك شيخ الكويت، وموظفين كبار من ولاية البصرة، وذلك لوضع صيغة لمقترحات بأنشاء حكومة ذاتية. ولقد ظهرت بعض النتائج لذلك في شهر ايار، وربما كان ظهور تلك النتائج بسبب الضغط الذي مارسته بيروت اكثر من البصرة ذاتها. فلقد سن قانون جديد للولاية يحبذ زيادة استعمال اللغة العربية في الولايات العربية، وتشكيل مجلس عام غير فعال في كل واحدة منها، واذ ذاك بعث السيد طالب ببرقية الى اسطنبول يحتج فيها عبثا ضد مثل ذلك الامتياز الاجوف، كما انه اعلم السيد «كرو» القنصل البريطاني، بان تجربة القوة اصبحت الان امرا حتميا. ولقد ظن القنصل ان من الحصافة ان يستقدم الباخرة الحربية البريطانية «البرت» والتي القت مراسيها لبعض الوقت خارج «العشار».

النقيب محافظا لها بدلا عن موسى كاظم الحسيني وبعد ان امضى السيد طالب في هذا المنصب زهاء سنتين استقال منه وتوجه الى الاستانة.

(١٦) احدى المدن الشهيرة في الهند وكانت من المراكز العسكرية المهمة لدى الانكليز هناك.

(١٧) بعد ان اغتال طالب النقيب فريد بك الذي عين قائداً للبصرة ومعه بديع نوري محافظ المنتفق واخذ يبث الدعاية ضد الاتحاديين ويؤيد مطالب الحزب اللامركزي، وجد الاتحاديون ان من الافضل لهم ان يجاملوا السيد طالب فارسلوا امير اللواء «صبحي» واليا على البصرة واستطاع هذا «باساليب لم يكشف الزمن النقاب عنها بعد من استمالة السيد طالب النقيب اليه، حتى انه حمله على ان يجمع للاسطول العثماني اموالا طائلة وان يتبرع هو نفسه بخمسمائة ليرة عثمانية، وان يكف عن المطالبة بالاصلاح، وان يذيع هذا المنشور.

«اعلن مع كمال الفخر الى عموم اهالي الولايات والملحقات باننا قد اتفقنا في امر تشريك المساعي كاننا روح واحدة وجسد واحد لاجل رفع شأن وشوكة حكومتنا السنية والتي قدرت صداقتنا رسميا ولم يبق خلاف بيننا وبين الحكومة السنية باي صورة [illegible] وقد زال ما كان من سوء التفاهم زوالا قطعيا وصرنا كلنا كتلة واحدة نعمل على سعادة دولتنا الابدية، ونسعى في محافظة وحدتنا العثمانية بكل قوانا».

ولكن السيد طالب النقيب صمم، بعد كل ذلك، على انتهاج سياسة الضغط المعتدل، الى ان وقعت حادثة مقتل القائد المحلي «فريد بك»[١٨]، وهي جريمة نسبت الى السيد طالب، التي حولت الاهتمام عن قضايا سياسية اقل اثارة.

وفي ذات الشهر، اي حزيران سنة ١٩١٣ عمد والي بغداد الى اعتقال اربعة من المتحدثين البارزين بأسم القومية[١٩] كان من بينهم «يوسف السويدي»، وذلك بسبب الحرية الواسعة التي تحدثوا بها بعبارات معادية للاتراك، ولكن هؤلاء، ماعدا واحد منهم، قد اطلق سراحهم فعلا.

وفي شهر تموز واب بدأت في اسطنبول مفاوضات عربية تركية، بدت مشجعة، وذلك بعد ان كان العرب قد نظموا في شهر حزيران اجتماعا في باريس حضره اثنان من العراقيين[٢٠] وتم التاكيد فيه على تحقيق المركزية. وفي شهر اب صدر مرسوم اعلن في جميع الولايات، وبدا منه بانه سوف يحقق جزءا جوهريا من المطاليب العربية، حيث تقرر ان لاتمارس الخدمات العسكرية الاداخل المفتشيات، وان يجري التدريس بالعربية في المدارس ويتم التدريس العالي بالتركية، وان يكون الموظفون في الاقاليم العربية من الذين يتكلمون اللغة العربية، وان تتم كل التعيينات ماعدا الرفيعة منها محليا، وان يستخدم خبراء متقدمون من الاجانب، ويصبح من المتوقع تقديم منحة مالية، وان تنفذ القرارات التي تصدرها المجالس العامة للولايات، وان تعطى للعرب ثلاثة مناصب وزارية في الحكومة المركزية، وان يكون خمسة ولاة وعشرة محافظين من العرب. غير ان هذه القرارات، التي فشلت بسبب وجيه، قد اثارت شكوك العراقيين اكثر من ثقتهم.

اصبحت الهوة التي تفصل بين الاراء العربية والتركية، عميقة وصريحة في هذا الوقت. ذلك لان معظم الاجانب الذين لم يقفوا موقف عدم العطف على المطاليب العربية، مايزالون يشعرون بان القومية العربية، كانت تمثل مرشحا مبتسرا لايمكن الاعتماد عليه. فقد كان اولئك الاجانب لايثقون بالسلطات الادارية العربية حتى اذا ما قورنت مع الادارة التركية، كما لاحظوا وجود الجماعات المعادية بصفة مشتركة، تلك الجماعات التي انقسم اليها العالم العربي قبلا، والتي لم يكن

---

(١٨) كانت حكومة الاتحاديين قد فكرت في ضرورة التخلص من السيد طالب النقيب بكل وسيلة ولذلك بعثت باللواء فريد بك قائد ا البصرة لكي يبطش به وحين احس السيد طالب النقيب بالشر استعد للامر وقرر ان يتغدى بفريد بك قبل ان يتعشى هذا به. وعندما وصل فريدبك يرافقه بديع نوري الذي تعين محافظا للمنتفق على ظهر احدى السفن في العشار، اعد السيد طالب بعض المسلحين الذين اختفوا وراء اكوام من الحطب على ضفة نهر العشار وعندما مر فريد وبديع نوري بعد نزولها من السفينة على جسر العشار، اطلق المسلحون النار عليهما فخرا صريعين وكان مقتلهما في شهر حزيران ١٩١٣

(١٩) كان من بين المعتقلين ابراهيم حلمي العمر الصحفي المعروف وقد نفي قبا بعد الى مدينة بتليس ويقول صاحب كتاب «تطور العراق تحت حكم الاتحاديين» ص ٢٤٢ ان فروع الاتحاد والترقي اخذت تستعمل البطش ضد خصومها، وقد دبر فرع بغداد مكيدة لاغتيال يوسف السويدي، كما نظم فرع السليمانية حركة اغتيال الشيخ سعيد البرزنجي في الموصل.

(٢٠) انظر مقالتنا عن مؤتمر باريس العربي في مجلة الاقلام العراقية العدد ١١ السنة الثالثة وقد حضره كل من توفيق السويدي وسليمان عنبر من العراق وكان الاثنان يدرسان الحقوق في باريس وقد اشيع فيا بعد بأن سليمان عنبر كان جاسوسا لدى الاتحاديين في مؤتمر باريس.

لاحد ان يتحدث فيها عن العراق، نظرا لان مثل هذه الوحدة لم يكن قد تم تصورها بعد.

ومع كل ذلك ومهما كان المستوى، فقد استمر التحريض في صيغة من الصيغ، وازداد الاتصال مع الحركات القائمة في سوريا ولبنان.

كانت احدى الجمعيات السرية وهي جمعية «العهد»[٢١] تحتضن منذ اوائل سنة ١٩١٤ عشرات الضباط العراقيين في الجيش التركي. اما في البصرة فان «لجنة الاصلاح»[٢٢] التي كان يرأسها السيد طالب النقيب، قد نشرت كراسا ملتهباً، وكانت البرقيات ماتزال تنهال على اسطنبول من العراق تطالب بالحكم الذاتي للعرب.

ولقد تجنب كتاب الصحف المشاركة في النوادي القومية المتشددة التي تألفت بصورة علنية، وتم التخطيط لعقد مؤتمر في الكويت في شهر كانون الثاني سنة ١٩١٤، وان يحضره مندوبون عن شريف مكة، وابن السعود، وابن رشيد، وسيد طالب، وعجمي باشا المنتفق، ولكن حدوث المعارضة التركية، والتردد الذي اصاب اولئك المندوبين، قد حال دون عقد ذلك الاجتماع[٢٣] وفي شهر اذار اعلن السيد طالب، بشكل مثير للعجب، بأن خلافاته مع الحكومة التركية قد سويت الان. ذلك لانه كان قد تلقى وساما تركيا رفيعا، واعطي له حق اختيار منصب «سفير» او«عين» او «والي».

ولكن السياسة القومية مالبثت ان اصابها الكسوف في سنة ١٩١٤ وذلك نتيجة الهياج الذي رافق انتخابات مجلس النواب التركي، واعقب ذلك اجراء الانتخابات للمجالس العامة للولايات، ولكن اجتماع مثل هذه الهيئات لم يحدث سوى القليل من الاهتمام، ولو ان امر النزاع

---

(٢١) جمعية العهد جمعية سرية اسسها عزيز علي في الاستانة في ٢٨ تشرين الاول سنة ١٩١٣ وكان معظم الذين انضموا الى الجمعية من الضباط العرب، من اشهرهم سليم الجزائري ومن العراقيين ياسين الهاشمي، ومولود مخلص، ونوري السعيد وجميل المدفعي، وعلي جودت الايوبي، وتحسين علي، ومحمد حلمي باشا الحاج ذياب، وعلي رضا الغزالي، وعبد الغفور البدري، وموفق كامل بالاضافة الى عدد من الضباط السوريين وقد انشئ فرع لجمعية العهد في العراق، كان نشيطا قبيل الحرب العالمية الاولى ومابعدها.

(٢٢) المقصود بها «الجمعية الاصلاحية في البصرة» اسسها طالب النقيب على اثر تأسيس الحزب اللامركزي في مصر والجمعية الاصلاحية في بيروت ولكن هذه الجمعية لم تقم بأي عمل مثمر للقضية العربية وقد انحلت بصفة ذاتية بعد تفاهم السيد طالب مع الاتحاديين ونشر منشوره الذي اشرنا اليه قبلا.

(٢٣) خطط السر برسي كوكس، المقيم البريطاني في الخليج العربي، لعقد هذا المؤتمر وذلك بقصد مؤازرة حسين بن علي شريف مكة في ثورته التي اعلنها ضد الاتراك وكان المقرر ان يعقد المؤتمر حسب الموعد الذي ضربه لهم للاجتماع بهم في الكويت بتاريخ ٢٣ تشرين الثاني ١٩١٦ (حسين خلف الخزعلي: التاريخ السياسي للكويت ج ٣ ص ٣٣).

(٢٤) كان المقرر ان يعقد هذا المؤتمر في الكويت في شهر تشرين الاول سنة ١٩١٥، وليس في كانون الثاني ١٩١٤ كما ذكر ذلك المؤلف خطأ، ولكن المؤتمر لم ينعقد لان بريطانيا ارادت من وراء عقده جر الزعماء العرب في الخليج العربي الى جانبها فقد ذكر الوزير البريطاني جمبرلن في رسالة الى نائب الملك في الهند «ان العرب مترددون، وقد يمشون مع الاتراك اذا نحن لم نبذل الوساطة الفعالة في الاغراء» (تأريخ الكويت السياسي ج ٣ ص ٣١).

المكشوف بين السلطات [illegible] لها، وحقيقة السيطرة التركية المركزية، لم يعد من الامور المستبعدة، وكانت البرقية التي اذاعت نبأ اغتيال الارشيدوق في سراجيفو، قد دخلت الى العراق الذي لم تكن مشاكله السياسية قد حلت بعد في ذلك الوقت.

كان البارزون من العراقيين في الشؤون السياسية في تلك الفترة يشتملون على عدد من الافراد الذي امن لهم، او لعوائلهم، مستقبل متميز. وعلى هذه الشاكلة كانت اوضاع آل العمري والجليلي، وخياط في الموصل، والنقيب، وباش اعيان، والمنديل في البصرة، وفي بغداد كانت عوائل الجادرجي (رفعت بك وولده رؤوف) والسويدي (يوسف افندي واولاده الثلاثة) وبابان الكردية (اسماعيل حقي بك وحمدي بك) والباجه جي، والدفتري، والراوي، والحيدري، وجميل زادة، والخضيري، وشوكت باشا، وعدد اخر يزيد على العشرة.

ولم يشارك نقيب بغداد «(عبد الرحمن الكيلاني) والذي كان عرضة للهجوم عليه في الامور السياسية، وانما اتخذ موقف المحافظة والاحترام العميق للخليفة السلطان، في حين اشتهرا اولاده بانهم كانوا من القوميين المعتدلين.



٢ ـ اخر مرحلة ادارية

لم تبرز الادارة التركية في السنوات الاخيرة شيئا ما يتجاوز التطلع الهادف بشكل جيد الى الاصلاح بعد سنة ١٩٠٩، سوى القليل من العناصر الجديدة. والواقع ان تلك العناصر الجديدة كانت تتعارض بصفة واضحة مع الصراعات القائمة، والفساد والفوضى الناشبة اظفارها في بلاد فارس جارة العراق الشرقية. كما انها لم يكن ينقصها مبتدعو الاعذار من الاوربيين. فلقد سمع عن المستر «كرو» القنصل البريطاني في البصرة قوله، وهو يصف الاتراك، بانهم «من الخصوم الحاذقين والمقبولين للحكم الاستبدادي وشيء حلو لا يدل على شيء ما»، كما يقرر «ديفيد فريزر» في سنة ١٩٠٨ بانه ليس لدى الشعوب المسلمة في تركيا الاسيوية اية رغبة عميقة الجذور في الاصلاح. وان تركيا من وجهة نظر الشعوب الشرقية لم تكن تمارس حكما سيئا».

غير ان مثل هذه الاراء لم تكن بمعزل عن غيرها. ذلك لان الكثيرين من الاجانب المتوطنين لم يعودوا يحتملون اصحاب الطرابيش الحمراء السخفاء، واعمال الرشوة الهينة، والتأخير والتعجيز التي يمارسها الافندية. ولم يرتفع مستوى الادارة ارتفاعا كبيرا بالجهود التي بذلتها الحكومة المركزية بعد الثورة. فقد انشئت لجنة لتحسين الادارة في سنة ١٩١٠ بقصد تقديم الادارة المدنية وطرد العشرات من الموظفين، ولكن سرعان ما استبدلت هذه اللجنة بهيئة اخرى اعادت النظر في معظم قراراتها وتضاعف اقحام الاعتبارات السياسية والمسائل الوظيفية بعد الثورة ولم تتوقف هيمنة كبار الموظفين من هذا الفريق، من الاشخاص البارزين المحليين او ذاك. ولم تستطع بعثات التحقيق المرسلة من العاصمة، والتي اخذت تظهر في العراق من دون اعلان سابق عنها، وباعتمادات غامضة غير مكتوبة، ان تعالج المشاكل الاساسية.

ومع كل ذلك فقد تم اتخاذ بعض الخطوات البناءة. ذلك انه عمد الى انشاء الشرطة، وهي القوة المدنية المخصصة المميزة عن قوة «الضبطية» في وقت مبكر من القرن. وعززت قوات «الجندرمة» ووثق تنظيمها، ولكن لم تعدل اخطاؤها القديمة. وفي سنة ١٩١٢ تم فتح مدرسة لتدريب المدراء، وخلفت روحية الاتحاد والترقي، التي ظهرت في الملابس العسكرية والاستعراضات، ضغطا على اولئك الموظفين المدنيين. ذلك لان هؤلاء المدراء اصبحوا يفضلون مالم يكونوا يحصلون عليه الا نادرا. الا وهو ان يتم دفع مرتباتهم بصفة منتظمة.

ولقد اصدرت انظمة جديدة تحكم ايرادات الاراضي، ولو ان فضائح رسوم الاعشار التي كانت تعلن في المزاد العلني، وفساد التقديرات، والتخمينات، بقيت متواصلة. واعيد اصلاح دائرة الاوقاف، وتم فرض ضريبة الدخل ولكن في شكل بسيط لم يحدث سوى القليل من الضرر لدى الطبقات العليا. وظهرت ضريبة الاملاك المدنية وسط عواصف من الاحتجاج، وعدل نظام احصاء النفوس لتسهيل مهمة تنفيذ الانظمة الجديدة المتعلقة بالخدمة العسكرية والتي اصبحت منذ سنة ١٩٠٩ مطبقة على المسيحيين واليهود وبعض الطبقات التي كانت معفاة منها قبلا.

وتم نقل مركز محافظة الحلة من هذه المدينة الى مدينة الديوانية، وفصل قضاء (عنه) عن ولاية بغداد وضم الى محافظة دير الزور، ووحدت البلديات الثلاث في بغداد في بلديه واحدة. ولكن سوء الادارة المؤلم لدوائر المكوس لم يتم اصلاحه، ولو ان معدلات الرسوم كانت قد ارتفعت من ثماني في المائة الى احدى عشرة في المائة سنة ١٩٠٦، ثم قفزت الى اربع عشرة في المائة في سنة ١٩١٤

وانشئت المحاكم الاستئنافية في مقر الولاية. واذ اوشكت الحرب ان تقع تم انتخاب عشرة من القضاة تمهيدا لطردهم، ثم انشئت مدرسة الحقوق في بغداد سنة ١٩٠٩[1] وحولت الاملاك السنية الواسعة الى خزانة اللو بعد سقوط السلطان عبد الحميد، ولكن ادارتها المنفصلة والتي تعد من الادارات الرفيـ ظلت قائمة.

غير ان الجيش، سيء التجهيز والممزق والمثقل بالاعباء، حتى في سنة ١٩٠٩، لم يستطع ان يتخلى من غزو السياسة لكل اصنافه ورتبه بعد الثورة. ذلك ان الادارة التي صدرت في شهر تموز ١٩١٢ والتي كانت تحظر على الجيش الاشتغال بالسياسة، لم يكن لها سوى تأثير طفيف ولكن شخصيات القادة المحترمين كانت تتلهف للحفاظ على مظهر التعود على الطاعة والانقياد. وبقيت واجبات الجيش في معاقبة العشائر خارج نطاق قدراته ذلك لانه لم يستطع ان يكون نشطا وفعالا على الدوام في كل المناطق

كذلك لم تثمر في الواقع، تلك الجهود التي بذلها الوالي ناظم باشا وخلفه، في بناء بعض الثكنات الجديدة والمستشفيات العسكرية، وتحسين وسائل النقل، وتوفير الملابس المهندمة، والمزيد من الاسلحة الحديثة.

---

(١) كانت مدرسة الحقوق هذه تقع في ذات الموقع الذي قامت فيه محافظة بغداد سابقا (دائرة كاتب عدل شمالي بغداد حاليا) وقد انتقلت من هناك الى البناية التي كانت تحتلها مطبعة الحكومة قبلا (المتحف البغدادي في الوقت الحاضر) وعندما استولى الانكليز على بغداد عين المستر «بيل» عميداً لكلية الحقوق ومن ثم خلفه في منصبه المرحوم توفيق السويدي ومن هناك نقلت كلية الحقوق الى باب المعظم ثم الى الصرافية واخيرا الى محلها الحالي وراء بناية المجمع العلمي الحالية

ولقد ترك المعمل العسكري لانتاج الملابس ... اثره في الانتقادات الا...
الجيش، وذلك لما امتاز به من حسن الادارة. كما ادت الاستعراضات الاعتيادية. والاحوا
الموسيقية العسكرية الى رفع الناحية المعنوية ولقد حافظ الولاة الذين خلفوا ناظم باشا على
السياسة التي اتبعها في تركيز قواته. بعض الوقت.

كانت حالة العداء بين الوالي وقائد الجيش في كل ولاية من الامور المعتادة اكثر من حصول التعاون فيما بينهما، ولم يستطاع معالجة تلك الحالة الا حين يكون المنصبان مشتركين. ففي الجيش، مثلما هو عليه الامر في الادارة المدنية ايضا، كان الداء الاساسي يتمثل في الفقر الدائم الذي كان يحتاج في الميدان الاقتصادي، الى القبول بوجود القوى العسكرية المسيطرة. والمستودعات التي لا يحسن الحفاظ عليها، وتاخير دفع اجور الاجازات. وارغام القوات العسكرية على العيش في الارياف والصحارى.

لم يعد للقوات «الحميدية» التي جندت في العراق. ووضعت في اقصى الاجزاء الشمالية[٣] منه، اي وجود بعد سنة ١٩٠٩ غير ان سرايا الحدود التي اريد بها استخدام ابناء العشائر الكردية في محافظتي السليمانية وشهرزور بصفة عسكرية، كان قد تم انشاؤها سنة ١٩١٢ بكثير من التعقيدات العسكرية والقليل من السيطرة العائلية.

كانت اعادة التنظيم على نطاق اوسع بالنسبة الى القوات العسكرية التي تمت في سنة ١٩١١ تنفيذا لنصيحة «فون درغولتز»[٤] باشا، قد ادت الى انشاء المفتشية الرابعة التي كانت تغطي العراق، والقسم الجنوبي من الجزيرة العربية بفيلقين هما الفيلق الثاني عشر والفيلق الثالث عشر واللذان كانا يتركزان في كل من الموصل وبغداد على التوالي وكذلك الفيلق الرابع الموجود في اليمن. ولم يتغير نظام خدمة الاحتياط الا بعد التدمير التام الذي اصابه. ولكن تم تعديله في وقت متأخر جدا اي في سنة ١٩١٤

بقيت البحرية التركية في البصرة متهرئة وتافهة. ذلك ان الزورق المسلح بالمدافع . والذي سمي باسم «زهاب» وتم الحصول عليه في سنة ١٩٠٢، قد استولى عليه الايطاليون في سنة ١٩١١ في البحر الاحمر. اما السفينة «قليد البحر» فقد بقيت شاهقة، في حين وصل الطراد «مرمريس» الى البصرة في سنة ١٩٠٨

---

(٢) هو المعمل الذي عرف لدى اهل بغداد باسم «العبا خانة» في محلة سيد سلطان علي ولقد بقيت مدخنة هذا المعمل قائمة حتى اوائل الخمسينات

(٣) هي القوات التي وضعت تحت امرة ابراهيم باشا المللي في ... المجاورة للحدود التركية والسور

(٤) من كبار قادة الجيش الالماني وكان يشرف على تنظيم الجيش العثماني واعداده وعلى الاخص في الفترة القصيرة التي سبقت نشوب الحرب العالمية الاولى وخلالها وقام بزيارة العراق ومقرات جيوشه ومواقعه العسكرية عدة مرات وكان در غولتز يحمل رتبة مشير في الجيش كان مرافقا للسلطان عبد الحميد تم تولي قيادة الجيش السادس الذي ارسل الى العراق لمحاربة الانكليز وقد توفى بمرض التيفوس في نيسان ١٩١٦ ودفن في الباب الشرقي في المكان الذي يبدأ به مدخل جسر الباب الشرقي الحالي

من بين التحسينات التي اصابت طرق الموصلات في هذه الفترة، هو الاستعمال الموسع للعربات ذات العجلات وعلى الاخص في طرق اعالي الفرات، وفي الطرق التي تتفرع من بغداد، والتي كانت تتطلب بمقياس معتدل لشق الطرق. وتم بناء جسر الزاب من دون فضيحة مخزية[٥] ووسعت مصلحة البرق الى معظم المدن الصغيرة، بما في ذلك الاقضية الكردية وفي سنة ١٩١٤ كان يدور حديث عن انشاء مصلحة لاسلكي بين بغداد والبصرة.

كانت مصلحة نقل البريد التي يقوم افراد من عشيرة عنزة بنقلها عبر الصحراء، والتي امتدت من دمشق الى نقطة النهاية في مدينة حلب في سنة ١٩٠٦، قد تعرضت للسلب مرتين من قبل عشائر الدليم في سنة ١٩٠٩، ولذلك توقفت هذه المصلحة عن العمل في سنة ١٩١٢ وبقيت مصلحة نقلة البريد (الططر) بطريق الموصل الى اسطنبول قائمة حتى اندلاع نيران الحرب. وجرى تقديم عروض مرتين لنقل البريد بالسيارات الى سوريا. كان العرض الاول، وهو يبعث على التفاؤل قد تقدم به «حمدي بابان» في سنة ١٩١١، والثاني تقدمت به مجموعة فرنسية سنة ١٩١٤ ولقد كان اختيار اي من العرضين، ينطوي على اجراء تحسينات كبيرة في الطرق، ويتطلب مستوى من الاعتماد على الاليات مما لايمكن تحقيقه

كانت تدور في العراق انذاك عشرات من الحكايات الشخصية النادرة عن تعاقب الموظفين الاتراك الكبار ممن تجدر الاشارة اليهم. لقد كان الجميع يقاسون من تغلغل السياسة الحزبية في الادارة التركية بعد سنة ١٩٠٨، بالاضافة الى ماكانوا يعانونه من التصرفات الرذيلة، والمحسوبيات قبل ذلك التاريخ. وكان الجميع يستطيعون ان يجدوا موقفا مشهورا مرغوبا فيه فيما كان يظهر من عداء شديد للاجانب. غير ان ايا منهم لم يكن يعتمد على سلامة وظيفته وضمانها، وذلك لان بقاء الموظفين لمدة سنتين او ثلاث سنوات، كان يعتبر من الامور الاستثنائية، وقد كانت الخيانة الشخصية المكشوفة من الامور النادرة بين ارفع الموظفين، اكثر مما كانت عليه قبل جيل مضى ومع ذلك فقد بقيت مألوفة وينظر اليها نظرة تسامح في حين ازداد استخدام القادة العسكريين في صفة حكام مدنيين بعد سنة ١٩٠٨

كان النموذج بين افاضل الطبقة العليا من الموظفين يتمثل في طاهر باشا والي الموصل المخلص والعادل الذي عين سنة ١٩١٠، وفي «عون الله بك» محافظ كركوك ١٩١٠ الى سنة ١٩١٣ ومن الشخصيات التي ما تزال تختار بمثابة نماذج مثالية للحكام المتسمين بالشهامة «على رضا بك» الذي كان يشغل وظيفة نائب والى بغداد في سنة ١٩١٢، وكان قائداً ممتازاوصديقا ودودا للسيد «لورمر»[٦]، وكذلك «جلال باشا» الذي رقي من وظيفة محافظ كربلاء الى وظيفة والي

---

(٥) المقصود به الجسر الذي اقيم على فرعي الزاب الصغير في مدينة« التون كوبري» على الطريق الرئيسي الذي يربطها بكركوك والموصل والذي اصبح الطريق يتجاوزه في الوقت الحاضر.

(٦) لورمر LORIMER من كبار الانكليز الذين عملوا في الخليج العربي خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر واوائل

البصرة، لكن هذا ما لبث ان عاد مظهر مشاكسا ومغرورا عندما اصبح واليا على بغداد في سنة ١٩١٣ وكان «حمدي باشا» في سنة ١٩٠٠ اميرالا في البصرة وقد اتصف بالشجاعة والصبر. اما خلفه «فخري باشا» فقد اشتهر عنه بانه كان يضع المجرمين في اكياس يخيطها عليهم ثم يلقي بهم في شط العرب! ولكن «عارف بك المارديني» الذي كان في سنة ١٩٠٩ يعيش في البصرة في منزله الحديث، ولديه مربية انكليزية لاولاده، قد فاق كل هؤلاء نزاهته. وحين وصل سليمان نظيف بك والي البصرة في سنة ١٩٠٩، كان مليئا مثل بقية القادمين الجدد، بمشاريع تحسين الاوضاع.[٧]

اما ذلك الوطني المسعور جمال بك والي بغداد خلال الفترة ١٩١١ - ١٩١٢ فقد غادرها لكي يصبح الحاكم العسكري لاسطنبول، وليصبح فيما بعد من اشد المستبدين في سوريا.

وكان حازم بك في بغداد سنة ١٩٠٧، هو اول من انشأ نظام اسالة الماء في بغداد، في حين ذكر عن جواد باشا اخر والي لبغداد قبل الحرب، بانه كان اول من استعمل سيارة خاصة تعود ملكيتها اليه. واشتهر «عمر لطفي باشا» مساعد الوالي الذي كان يعمل تحت امرة الوالي ناظم باشا، بانه كان يمثل الرئيس المخيف لعشرات من اللجان وهيئات التحقيق وعلى هذه الشاكلة كانت اقلية ضئيلة من الباشوات الذين يشاد باحقيتهم او صفاتهم

وكان من بين الممثلين الصالحين للمدرسة القديمة محمد زكي باشا «قائد الجيش» والوالي في بغداد خلال الفترة ١٩١٢ - ١٩١٣ والرجل الشهير «محمد فاضل باشا الداغستاني» ذلك الانسان الكبير المعروف من زمان في العراق التركي، والفارس الاصم الذي عين واليا بالوكالة في الفترات التي كان يرأس فيها الجيش ولقد قاد عشرات الحملات التأريخية ضد المتمردين[٨]

القرن العشرين وقد وضع مؤلفا كبيرا عن الخليج العربي يقع في عدة مجلدات بعنوان «دليل» الخليج العربي وقامت حكومة قطر في اوائل سني السبعينات بترجمة هذا الكتاب ونشره على حسابها في ستة مجلدات ولكن المطبوع منه لم ينتشر على نطاق واسع في الاقطار العربية

(٧) اخطأ المؤلف في ذكر اسمه الصحيح اذ قال ان اسمه هو «سليمان ناصيف بك».

(٠) كان ولاة بغداد في القرن العشرين يتألفون من كل من نامق باشا ١٨٩٨- ١٩٠٢ واحمد فيضي باشا ١٩٠٢ - ١٩٠٤ وعبد الوهاب باشا ١٩٠٤، وعبد المجيد بك ١٩٠٥، وحازم بك ١٩٠٧ وناظم باشا (وكالة) ١٩٠٧ و نجم الدين ملا ١٩٠٨، والفريق محمد شوكت باشا ١٩٠٩، والفريق حسين ناظم باشا ١٩١٠ - ١٩١١ و يوسف باشا (وكالة) ١٩١١ وجمال باشا ١٩١١ - ١٩١٢، ومحمد زكي باشا ١٩١٢، والفريق حسين جلال بك ١٩١٣ والفريق جاويد (جواد) باشا ١٩١٤ والدكتور رشيد بك ١٩١٥، وسليمان نظيف بك ١٩١٥، ثم جاء من بعد هؤلاء القائد العام للجيش السادس.

(٨) وهناك اخر اشتهر من بينهم هو محمد فاضل باشا الداغستاني الذي عين وكيلا للوالي لفترات قصيرة.

(٩) فاضل باشا الداغستاني من نسل امراء مقاطعة داغستان «التي احتلها الروس في اواخر القرن التاسع عشر وقد هرب بعد الاحتلال الروسي ولجأ الى الاستانة وعمل تابعا في قصر السلطان عبد الحميد ونظرا لما اتصف به من اخلاص ومواهب فقد بعث به عبد الحميد الى العراق قائد الجيش لتأديب العصاة من افراد عشائر الفرات ومن ثم اقطعه السلطان عبد الحميد بعض الاراضي الزراعية في العراق فعاش هناك مشتغلا بزراعة اراضيه واستغلالها. وعندما بدأت الحرب العالمية الاولى التجأ اليه الأنحاديون فعهدوا اليه بقيادة جيش العشائر فحارب الانكليز بكل حمية وقد استشهد في المعركة التي وقعت قرب الكوت عندما

وعلى خلاف ذلك حداً، كان المسن فيضي باشا الوالي وقائد الجيش العام في السنوات ١٩٠٢ - ١٩٠٤[١٠] الذي اشهر بفساده، وعبد الوهاب باشا الالباني والي بغداد سنة ١٩٠٥ والذي كان يرهب الاجانب وقناصلهم، ومصطفى باشا شقيق عزت باشا «سكرتير السلطان المكروه، والذي طرد من الموصل سنة ١٩٠٩ عند مجيء حزب الاتحاد والترقي الى الحكم. على ان الشخصية الشهيرة في تلك السنين كانت شخصية حسين ناظم باشا، والقائد العسكري ذو الاعتبار الكبير، وذو التأريخ الطويل من سوء المعاملة التي عامله بها السلطان عبد الحميد. فقد عين في سنة ١٩١١ قائداً عاما للجيش وواليا على بغداد، ومنح سلطات للاشراف على الولايات الاخرى. لقد اعاد ناظم باشا اصلاح هيئة الموظفين الواسعة لديه، واخضع الجيوش التي كانت تحت امرته للتدريب الشاق، وجبي الضرائب من بعض العشائر المتمردة، وفرض الشروط الثقيلة على عشائر اخرى. كان ناظم باشا يقم الاستعراضات، ويرعى التعليم، ويحكم بالعدل ازاء الاقليات، ويقوم على الوقاية من الفيضان بنفسه. وقد امر بتوفير الادوات النهرية من امثال العبارات للمدن، واقدم على انشاء مصلحة عقيمة لنهر الفرات، وكان يلح على هدم الابنية لغرض فتح شوارع جديدة في بغداد، كان صاحب همة وقرار[١١] لكنه ان ضعيفا بصفة ظاهرة، في رغبته الملحة للقيام بحركة اصلاح عصرية بينة، بالاضافة الى نقص الاعداد لمشروعاته الموسعة، وقلة الاهتمام الاصيل بالشؤون المالية، او الحقوق الخاصة (ولا سيما بالنسبة الى الاجانب) وسهولة انقياده الى النصحاء المسنين، غير ان استدعاءه الى اسطنبول، في شهر شباط سنة ١٩١١، نتيجة الدسائس التي دبرها رجال الاتحاد والترقي، وما الفه بعض البغداديين من حملة الاكاذيب ضده، لم يسمح له بالبقاء في كم العراق الاباقل من سنة واحدة.

ولقد صاحب مغادرته بغداد قيام تظاهرات جماهيرية، كما ان اغتياله على يد «انور باشا» في العاصمة اسطنبول في سنة ١٩١٣، قد اثار العطف عليه وعلى محافظته القديمة، اي العراق

حاول الانكليز فك الحصار عن قواتهم المحاصرة في الكوت وذلك في شهر تشرين الثاني ١٩١٥ (انظر ما كتب عنه جرالددي غوري في كتابه ثلاثة ملوك في بغداد) الذي صدرت طبعته الاولى ١٩٨٣ وقد صدرت الطبعة الثانية منه ١٩٨٧

(٨) هو نور الدين بك ابن المشير ابراهيم باشا عين في الوقت ذاته قائدا عاما للجبهة العراقية في الحرب ضد الانكليز وقد خلفه في منصب الولاية وقيادة الجيش العميد خليل بك في ١٢ كانون الثاني ١٩١٦ بطل حصار الكوت المعروف.

(١٠) هو احمد فيضي تولى ولاية بغداد وكالة بعد ان كانت الوكالة لمدة شهرين بعهدة القاضي ابي بكر حلمي وكان احمد فيضى باشا سيء الاحوال انفصل عن الوكالة في ٢١ تشرين اول سنة ١٩٠٤

(١١) كان ناظم باشا الثاني بعد مدحت باشا، من الولاة المصلحين في العراق حصل على فتاوى من علماء الدين في العراق بمحاربة اعمال الغزو التي كانت تقوم بها القبائل على احداها الاخرى فاستطاع ان يحقق الامن والهدوء لفترة ما وكان من بين اعماله دفن الخندق المحيط ببغداد واقامة السدة الشرقية التي تقي بغداد من الغرق والتي عرفت باسمه وكان من بين المشروعات التي فكر في انجازها تشغيل ترامواي بغداد الكاظمية بالكهرباء، وانشا جسر حديدي في بغداد، وجعل السقاية في بغداد بالماء المصفى، واصلاح طرق العاصمة وشوارعها وتسيير السفن في انهار العراق وبناء المستشفيات واقامة الحدائق والجسور على نهر الفرات. وقد اغتيل ناظم باشا بعد عزله من ولاية بغداد بتدبير من الاتحاديين لانه كان يقاوم استبدادهم.

٢ ـ المدينة والقبيلة

ومع ان كثيرا من مظاهر التأخر. بقيت بعد سنة ١٩٠٠ ، قائمة في حياة المدن في العراق ، الا ان الخمس عشرة سنة الاولى ، من القرن شهدت تقدما مؤكدا. ذلك التقدم الذي سار بخطى حثيثة نتيجة التأثر المتعاظم الذي احدثته التجارة الاجنبية ، ووفود المزيد من الزوار من الخارج ، وزيادة عدد الاجانب المقيمين ، والاتساع الذي اصاب الصحافة والحياة السياسية معا[1] كانت الهوة التي تفصل بين الطوائف الاسلامية الرئيسة ، السنة والشيعة ، قد ازدادت اتساعا ، بدلا من ان تضيق في الاوقات المتغيرة ، ذلك لان رد الفعل من جانب هذه الطوائف ، على الدعوة الملحة للمركزية التركية ، كان متباينا حتماً في الوقت الذي اخذ فيه اليزيديون يقاومون التجنيد مقاومة عنيفة ، بينما اخذ التركمان يبدون اسفهم لا نزال السلطان عبد الحميد عن العرش. اما الاقلية الفارسية التي كان يتحكم بها الملالي في مدن المراقد المقدسة ، فانها كانت جد مبتعدة عن الجماهير الاساسية في البلاد. ذلك ان مجتهدي الشيعة واصلوا عدم تقبلهم للحكومة القائمة ، سواء تلك التي كان السلطان يرأسها ، ام حزب الاتحاد والترقي ، ولذلك فقد اربك هؤلاء المجتهدون ، المقيم البريطاني في العراق ، بموقفهم الذي انطوى على عدم التعاون ، وشدة الطمع بالنسبة الى الاموال التي كانت توزع من اوقاف «الاودة». ولم يكن وجود هؤلاء المجتهدين والامتيازات التي كانوا يسيئون استعمالها ، باقل مضايقة للحكام الاتراك مما كانت عليه في هذه الفترة ، كما لم يكونوا انفسهم اكثر نشاطا في عقد الاجتماعات ، وحبك المؤامرات ، ونشر الشائعات

---

(١) فتح انقلاب ١٩٠٨ مجالا رحبا امام نشاط الصحافة والاحزاب في العراق فبعد ان كان عدد الصحف والمجلات قليلا ، صدرت اكثر من سبعين صحيفة ومجلة ما بين ادبية وسياسية اجملناها في الجزء الاول من كتابنا «مفصل تاريخ الصحافة العراقية» المعد للطبع اما بالنسبة الى الاحزاب ففي الوقت الذي كان فيه العراق محروما من اية منظمة حزبية سياسية عدا المنظمات السرية ، ظهرت عدة منظمات حزبية في مقدمتها حزب الاتحاد والترقي الذي فتحت له فروع في بغداد والبصرة والموصل والحلة والنجف. والحزب المعتدل في بغداد ، وحزب الحرية والائتلاف في بغداد والبصرة والموصل والجمعية الاصلاحية في البصرة وجمعية المشورة في بغداد والجمعية العربية الوطنية في بغداد ، وجمعية العصابة الحمراء في بغداد ، الى جانب عدد من الاندية والمؤسسات الادبية في بغداد والبصرة والموصل (راجع كتاب عبد الجبار حسن الجبوري: الاحزاب والجمعيات السياسية في القطر العراقي ط ١٩٧٧ وكتاب تاريخ الصحافة العراقية الجزء الاول للاستاذ عبد الرزاق الحسني والذي لم يصدر الجزء الثاني له حتى الان.

واذ رفض اولئك المجتهدون المواقف المعتدلة التي نصحهم بها المقيم البريطاني. فقد اخذوا يمطرون حكومة طهران بوابل من البرقيات والمذكرات يحتجون فيها على عدم تدين الشاه، ومقاومة الدستور الفارسي الجديد، والتغلغل الروسي وبقيت الاقليات غير الاسلامية، تمثل العنصر البارز في الميدان الاقتصادي، ومحافظة على زعامتها للوظائف المختارة وان كانت منعزلة من الناحية الاجتماعية وغير مهمة من الوجهة الحكومة. ونظراً للرجة التي احدثتها الخدمة العسكرية الاجبارية، فقد اخذت هذه الامكانات تنشط للعمل بصفة مميزة. فلقد قرر اليهود بانه اذا لم ينجحوا في شراء الاعفاء من الخدمة العسكرية بالمال، ان يحققوا النجاح في صفة مجندين، وان يقبلوا على الدراسات العسكرية والتدريب العسكري، في الوقت الذي اختار فيه المسيحيون كل الوسائل المتوفرة لتجنب الخدمة العسكرية عن طريق الفرار من الوحدات، واستعمال الرشاوى، وتزوير السجلات.

في هذه الفترة تعاظمت اتصالات الاقليات وارتباطاتها بالاوربيين. فقد اصبحت اللغة الانكليزية تدرس في مدارس الاقليات بصفة متزايدة واقدمت جمعية الاتحاد الاسرائيلي «الاليانس» على فتح مدارس لها في بغداد والموصل والحلة والبصرة وخانقين، والعمارة. وعن طريق الدكتور ويغرام[3] استطاع مطران البعثة الاثورية التبشيرية ان يؤسس مدرسة في قرية «بيبايدي» قرب العمادية. ونشطت بعثات التبشير الكرملية والدومينيكانية. بما انشأته من مدارس ومستوصفات ومطابع حتى بين طائفة الموحدين من المسيحين، بينا نشط الامريكيون نشاطا واسعا بين كل الطبقات في جنوبي العراق، في الوقت الذي نشطت فيه مدارس التبشير الكرملية حتى بين البروتستنت الموجودين في بغداد والموصل، في حين افتتح الالمان مدرسة لهم في بغداد سنة ١٩٠٩

لم تلبث الاحاسيس السيئة بين الطائفتين الكلدانية والاثورية حيث كانت الاولى تحظى بالمساعدات الفرنسية الواسعة، في حين راحت الثانية، والاثورية، تلح بصفة مثمرة على طلب المساندة من البريطانيين، تقول لم تلبث هذه الاحاسيس ان انفجرت في صفة خصومة حانقة بالنسبة الى مسألة الانفصال والتسجيل بين الطائفتين. لقد ذكر في حينه ان كثيرا من الكلدان سيرحبون بالانضمام الى طائفتهم القديمة هذه، التي كان يتزعمها مار شمعون اذا ما اصبحت

---

(٢) كانت مدارس الاليانس اليهودية هي النواة المبكرة لنشر الافكار الصهيونية في العراق وكانت نشاطاتها في هذا المجال واسعة. ولقد بقيت مدرسة الاليانس في بغداد قائمة حتى بعد ان تخلى اكثرية اليهود عن جنسيتهم العراقية وغادرو الى اسرائيل خلال سنتي ١٩٥٠ و ١٩٥١ وان كانت هذه المدرسة بعد تلك الفترة قد فقدت معظم طلابها ومدرسيها من اليهود.

(٣) الدكتور ريغرام A. WIGRAM احد اعضاء البعثة التبشيرية التي ارسلها رئيس اساقفة كنتر بري الى الاثوريين في العراق وكانت البعثة تضم خمسة قساوسة، وذلك تلبية لطلب قدمه بطريرك الاثوريين الى كنيسة لندن ولقد شارك هذا القس زميلا له يدعى تي اي ويغرام في وضع كتاب عن مغامرة البعثة المذكورة في العراق بعنوان مهد البشرية صدرت طبعته الاول سنة ١٩٢٢ وترجمه الى العربية جرجيس فتح الله وطبعته جريدة التاخي سنة ١٩٦٩.

الحماية الاجنبية لهم، مساوية للحماية التي يظهرها مندوب البابا.

اما الحركة الصهيونية، التي كانت حركة وليدة وغير منذرة بالخطر انذاك، فان اول اشارة اليها لم تخلق اية مخاوف، وان كانت البعثات الصهيونية، قد وفدت على العراق مرتين بقصد وضع تقرير عن احتمالات الهجرة اليهودية، وتوزيع كراس يهودي في سنة ۱۹۱۳ كان يلح على انتاج سياسة قوية للمطالبة بفلسطين ذاتها[٤]

* *

تمت صيانة الامن بصفة معتدلة خلال الاوقات الاعتيادية. واخذت تزداد تحسينا بصفة مباشرة ومستديمة عند حلول اي وال قوي. وكان سماع اصوات الاطلاقات النارية اثناء الليل من الامور الاعتيادية، لكن هذه الاطلاقات كانت عديمة المعنى عادة. وكان الكشف عن الجرائم لا يعتمد لاعلى المهارة ولا على التصميم. في حين كانت التحريضات او الجرائم الموجهة ضد المسيحين او اليهود، وهي على نطاق ضيق، مؤهلة دوما للظهور، وان ظهرت فلن تلقى سوى القليل من الاستنكار. ومع كل ذلك فان معظم الاسباب التي كانت تعكر السلام، انما كانت تنجم اما عن الفاقة القاتلة التي كانت في بعض الاحيان تقترب من المجاعة الشاملة (كما حدث في الموصل سنة ۱۹۱۳) والتي كانت تحصل بسبب احتكار الطعام من قبل التجار، الامر الذي كان يدفع الناس الى ارتكاب اعمال السطو والقتل، او ظهور عصابات منتظمة من المجرمين في كثير من المدن.

ففي البصرة كان وجود حرس خاص اعتدائي من بين مصادر القوة التي كان يتمتع بها السيد طالب النقيب. وفي الموصل والسليمانية كان المواطنون البارزون، من امثال محمد باشا الصابونجي في الدرجة الاولى، والشيوخ البرزنجيون في الدرجة الثانية، هم الذين يستخدمون عصابات الشقاة عند الحاجة. اما في المدن التي يسيطر عليها رجال العشائر الاقوياء، فلم تكن الجرائم التي يقترفها اتباع الشيوخ من الامور التي يعاقب عليها قط

وقعت ثلاث قضايا مميزة لهذه الفترة، لابد من الاشارة اليها هنا. واول هذه القضايا هي

---

(٤) بدا النشاط الصهيوني في بغداد عام واستمر بالتعاون مع سكرتير الجمعية الصهيونية في بغداد بنيامين ساسون. كان بنيامين ورفاقه يطالعون الصحف اليهودية ي تتحدث عن الصهيونية مثل صحيفة «هشفيراه» اي الفجر وازداد النشاط الصهيوني في العراق ابان الحرب العالمية الاولى حيث طلب كل من اهرون ساسون وبنيامين ساسون من المنظمة الصهيونية العالمية تخويلهما حق تشكيل فرع لمنظمة «كيرن كيمث» الصندوق القومي اليهودي وهي منظمة صهيونية خالصة يقع مركزها في مقاطعة كولون بالمانيا وقد ادى نشوب الحرب والحكم بنفي بعض اليهود بتهمة الفرار من الخدمة العسكرية، والتجسس لحساب الانكليز الى ضعف الحركة الصهيونية في العراق وكانت اول مجموعة صهيونية قد اسسها اسحاق بن اسحاق اهرون، وتتألف من عشرة اشخاص في بغداد في شهر اب ۱۹۱۳ (صادق حسن السوداني: النشاط الصهيوني في العراق ص ٣٢ – ٣٣ ط ١٩٨٠)

مقتل الشيخ سعيد البرزنجي شيخ السليمانية في مدينة الموصل في اليوم الاول من سنة ١٩٠٩ [٥]
كان حادث القتل عملا عدوانيا شنيعاً ضد شخصية تتمتع باعظم شهرة. فلقد ارتجت محافظة السليمانية لذلك الحادث بعد وقوعه. اما القضية الثانية فهي مقتل فريد بك القائد، ومعه المحافظ السابق للمنتفق في سوق البصرة في حزيران ١٩١٣ [٦] في حين اشتملت القضية الثالثة على مصرع «احمد بك» امر الجندرمة في بغداد في شهر اب سنة ١٩١٣

* * *

حدث تقدم مناسب في ميدان الخدمات المدنية. فقد ظهرت بعض المباني الجديدة، التي يمكن الادعاء بوجودها والمباهاة بها، عند البوابة الجنوبية لبغداد، اضافة الى ضواحي مدن كربلاء، والموصل، وضاحية العشار في البصرة. كذلك تطورت المدن التي تقع على شواطيء نهر دجلة تطورا سريعا، وتضاعفت مساحات كل من كركوك واربيل خلال الفترة بين سنتي ١٨٩٠ و ١٩١٤، وتم تأسيس مدينة حلبجة التي كانت تخضع لاسرة الجاف التي كانت تحكمها.

اخذ عدد من المستشفيات العسكرية وقلة من المستوصفات في الظهور وافتتح مستشفى «مير الياس» اليهودي في سنة ١٩١٠ [٨] وكملت البناية الجديدة لمدرسة البعثة الكرملية التبشيرية في سنة ١٩١٣، في حين كانت مستشفيات البعثة في الموصل يجري اغلاقها واعادة فتحها حسب الفصول. غير ان الترتيبات الطبية بصفة عامة، بقيت بدائية، وظلت المحاجر على نطاق اوسع مصدرا لاستخلاص الرشاوى، ولم تبذل اية جهود جدية لمكافحة الامراض وسوء التغذية.

---

(٥) كان الشيخ سعيد البرزنجي من اصحاب النفوذ لدى السلطان عبد الحميد، ولذلك كان الاتحاديون يمقتونه ويحرضون ضده وحدث ان كان الشيخ سعيد يزور الموصل في طريقه الى اسطنبول مع بعض اعوانه واهله بعد ان استدعاه السلطان عبد الحميد وفي احد ايام عيد الاضحى سنة ١٣٢٦هـ كانون اول ١٩٠٨، اعتدى احدى السكارى من الجنود الخيالة الاكراد على امرأة فاستنجدت بالمارة فحصلت معركة بين الجنود والاهالي استمرت يومين وفي حينه سرت اشاعة مفادها ان اعوان الشيخ سعيد هم المسببون لذلك الحادث، واذ ذاك تجمهر القوم ضده وضد اعوانه، وحين توجه الى الثكنة العسكرية للاحتماء بها بعد ان استدعاه الوالي الى هناك سدت ابواب الثكنة بوجهه، وعندئذ تجرأ احد المتظاهرين فضرب الشيخ سعيد بحجر كبير على رأسه وتلاه اخرون، ففتكوا به وببعض اهله وانصاره، ونهبوا داره، ولم ينج من القتل سوى ولده الصغير «محمود» اي الشيخ محمود الحفيد الشهير في السليمانية (فيصل محمد الرحيم: تطور العراق تحت حكم الاتحاديين ص ٩٤).

(٦) يظهر في عبارة المؤلف هنا شيء من الارتباك لان من يقرأ عبارته يفهم منها ان فريد بك كان محافظا سابقا للمنتفق ولكن الحقيقة هي ان محافظ المنتفق هو بديع نوري الذي قتل مع فريد بك وقد اشرنا في تعليق سابق الى ذلك.

(٨) هذا المستشفى أنشأه اليهودي «مئير الياهو الياس» خارج باب المعظم قبالة ثكنة الخيالية التي عرفت فيما بعد بأسم «الكرنتينة» التجنيد العامة في الوقت الحاضر وقد جرى الاحتفال بافتتاحه في التاسع من شعبان سنة ١٣٢٨ه وقام الوالي ناظم باشا بفتح باب المستشفى بيده وظلت هذه المستشفى قائمة طيلة العهد الملكي ثم امم في العهد الجمهوري وعرفت باسم مستشفى الشعب ولكن تم التخلي عنها بعد سنة ١٩٧٤ على اثر انشاء الشعب الجديد قبالة مستشفى دار السلام.

ولقد ... الاضاءة في الشوارع. وظهرت الفنادق في المدن الكبرى تحت ادارة الارمن او الكلدان، وتم فتح اول دار للسينما في بغداد سنة ١٩١١ وكان توفير المعابر البخارية التي تعبر الانهار، وانشاء الحدائق العامة. وفتح الشوارع العريضة، وانشاء حديقة للحيوان، وتحسين الجسور الحديدية والترامواي. والاضاءة بالكهرباء، من الامور التي كانت لها مواقعها في خطط الولاة والمحافظين القادمين الى العراق. والواقع ان النجاح الذي حدث في تحسين البلدية، من امثال فتح الشوارع وانشاء الحدائق. والدوائر واسباب اللهو، ان هذه كلها قد ظهرت في هذه الفترة. ولو ان مشاريع ناظم باشا ذاتها، بقيت فاشلة لمدة احد عشر شهرا. فلقد كمل ترامواي الكوفة - النجف في عهد ولايته، واسس التاجر البغدادي الشهير محمود الشابندر في سنة ١٩١٢ في لندن شركة للتنوير الكهربائي، ولاستعمال الكهرباء في تشغيل الترامواي ايضا.

* *

وحصل بعض التقدم في ميدان التجارة والصناعة معا. ذلك ان الصادرات النباتية للبلاد بقيت تختلف سنويا تبعا للحصاد. ولمستوى الامن الداخلي واصبحت حمولات المواد المستوردة واقيامها اكثر من ضعف ما كانت عليه في سنة ١٩٠٠ وقد عكست هذه الزيادة، مدى الحاجة الى انشاء سكك الحديد. نتيجة لازدياد استعمال وسائط الري الالية، والوسائل الاخرى، واستعمال النفط من ناحية، ومن ناحية اخرى لارتفاع مستوى الحياة المدنية بما كانت تتطلبه من طلبات واسعة على الملابس القطنية، والسكر، والشاي، والشخاط.

لابد من الاشارة هنا الى التغلغل المعتدل لكل من روسيا والمانيا في الاسواق العراقية في تلك الفترة. فقد كان الجزء الاعظم من تجارة الواردات والصادرات، مايزال موزعا بين الشركات البريطانية والشركات اليهودية المحلية. فمن الشركات البريطانية التي كانت لها دوائر في البصرة، كل من شركة لنج، وغري مكنزي، وستريك، وشركة البصرة التجارية، وشركة مالك اندروفوربس الامريكية التي كانت تستثمر عرق السوس، في حين كانت الشركات البريطانية العاملة في بغداد تتألف من كل من شركة لنج، وبلوكي كري، وساسون وهذه كان مركزها في بومباي.

وحاول رجال من الانكليز مرتين تأسيس شركات للخياطة، في حين اصبحت للمصرف العثماني الامبراطوري. فروع في بغداد والبصرة تحت الاشراف الفرنسي، او الفرنسي الانكليزي المشترك وظهر المصرف الفارسي الامبراطوري لكنه مالبث ان اختفى، وذلك لان منافسيه لم يرحبوا بظهوره في بلاد تركية، بينما افتتح «المصرف الشرقي» ابوابه في بغداد سنة ١٩١٢ وبقيت العملة المحلية ثابتة، ولم تكن العملة الورقية معروفة انذاك، في حين كانت اعمال التحويل من الامور المتوقعة

واصاب التجارة عطب كبير نتيجة التعليمات غير الحكيمة التي كان الولاة يصدرونها بالنظر الى السيطرة على الاسعار، وللحظر الذي كان يفرض على تصدير المواد الغذائية وذلك لصالح المستهلكين العراقيين، كما كانوا يزعمون ذلك. ومع كل هذا فلم يكن هنالك من امر يوقف الاحتكار المجرد من الحياء والذي كان الاغنياء يعمدون اليه في السنوات التي تقل فيها المواد الغذائية.

*

وفي خارج المدن والمناطق الهادئة المصاقبة لها كانت صورة الفوضى العشائرية المقاربة لما صوره الرحالون والمقيمون الاجانب، تبرز في العراق خلال الفترة ١٩٠٠ – ١٩١٤ بصفة مؤلمة حقا، ومع ان مستويات الامن كانت متدنية تماما، وكانت الحوادث اللاقانونية تتكرر بصفة تدعو الى اليأس، وعدم كمال قوات الحكومة، فان الاوضاع غدت اشد سوءا عما كانت عليه قبلا وعلى الرغم من المدن الكثيرة التي انشئت حديثا، ومراكز الشرطة، وازدياد وسائل النقل، واتساع نطاق الزراعة، فان تغلغل الحكومة بصفة اوسع (سواء كان للاحسن ام للاسوء) قد ابرز تقدما جوهريا بالنسبة الى الاحوال التي كانت سائدة في القرن الماضي.

من بين الامور المخادعة من ناحية ما، ان اصبح البحث يطرح بشأن تحقيق المواصلات السريعة عبر البلاد، وهي امور كان لها قبلا محض اهتمام شخصي ليس الا كما ان المستويات التي تخص تحديث الحكومة، وازدياد المصالح الاجنبية قد غدت اكثر اتقانا. فقد اصبحت اعمال المغيرين او العصابات تعتبر من الاعمال الشائنة، في حين كانت قبل سنوات مضت، تمضي باعتبارها من القضايا الاعتيادية التي لا يلاحظها احد من الناس.

اصبحت القبائل الان اكثر انقساما وضعفا، وغدت مقاومة الحكومة من قبل قبيلة موحدة، من الامور النادرة. ولقد ازداد انهماك شيوخ القبائل والعشائر في حياة المدن وفي القضايا السياسية، في الوقت الذي تناقصت فيه رغبة الحكومة في اغماض عيونها عن التمرد العشائري، ولذلك كانت الادارة المباشرة هي القانون اليومي المطبق، ففي كل وقت وفي اي مكان، يتم الاخبار فيه عن حدوث عنف عشائري، كانت توجد فترات طويلة، ومساحات اوسع، ، يشملها الهدوء

كانت قبيلة شمر[9] التي مزقتها منافساتها الخاصة بها، وعداؤها المستديم لقبيلتي «الملي» و«عنزة» تمثل حتى سنة ١٩٠٩ الصورة الكاملة لعدم استقرار الصحراء. اما بعد ذلك الوقت فان

---

(٩) المقصود بها الجربا وكانت منازلها انذاك تمتد من منطقة الشرقاط حتى سنجار وعلى مقربة من الحدود التركية السور.. طلعه قبلة «الملي» الكردية التي كانت يرأسها ابراهيم باشا الملي.

سقوط ابراهيم باشا رئيس قبيلة الملي، ووفاته، قد قلبا ميزان القوة لصالح «شمر». فلقد اختفت قبيلة «الملي» كوحدة متماسكة، واخذت قبيلة «عنزة» الشمالية بمفردها تقاوم سطوة قبيلة شمر.

ولكن اعمال السلب المتعاقبة التي كانت «عنزة» تقترفها، لم تعزز مكانتها الاقليلا ذلك لان الاتراك كانوا يقدمون على تغيير شيوخها الرسميين سنويا، ولان اندلاع القتال مع قبائل الدليم في سنة ١٩٠٩، قد ادى الى تقدم ارتال من قوات كان يقودها «محمد فاضل باشا» ضد هذه القبيلة. وبعد سنتين من ذلك التأريخ تم التوصل الى تسوية مع «عنزة» على يد «حسن رضا بك» رئيس اركان الجيش الذي يراسه ناظم باشا. وصحبت هذه التسوية كالعادة، اعادة المنهوبات، واداء القبيلة القسم بالطاعة والولاء. ولكن هذا النظام الجديد لم يعش طويلا، اذ استؤنفت الغارات على الطرق، وتعاظم النزاع والمنافسة على المباهاة، والمشيخة المربحة.

ولم تثر قبائل الدليم القوية التي كانت تبسط نفوذها من «عانه» الى «الفلوجة» سوى القليل من المتاعب للحكومة او للمسافرين، بعد ان تولى مشيختها «علي السليمان» في سنة ١٩٠٣، فقد تم بناء خانات جديدة على امتداد الطريق منها خان «القائم» في سنة ١٩٠٧، وخان البغدادي في سنة ١٩٠٨ ولقد وقعت حوادث معكرة للامن في سنة ١٩٠٩، وذلك في اعقاب احدى التسويات التي تفاوض فيها «ناظم باشا» نفسه، ولكن المنطقة كانت واحدة من المناطق التي حققت الحكومة فيها تقدما جليا في اواخر الجيل الماضي.

لم يحدث اي تغيير بالنسبة الى قبيلة «عنزة» المطرحة بعيدا. فلقد بقيت مجموعتا «العمارات» اللتان يتزعمها «ابن مجلاد» المنافس المثير لـ «ابن هذال» في خصام دائم. وكانت الغارات ضد «ابن الرشيد» في نجد، وضد القرى الكردية في الشمال الاقصى من الجزيرة[١٠] وقبائل الفرات، كل هذه الغارات قد اظهرت مدى النشاط الذي كانت تقوم به قبيلة عنزة. كان «فهد بن هذال» شيخ «الجبل» من العمارات مايزال يعتبر حتى سنة ١٩١٤ هو القائمقام الاسمي لقضاء الرزازة.

اما الاحوال التي كانت سائدة في «الدلتا» الواطئة من الرافدين فكانت سيئة بمقدار مايستطيع العراق التركي ان يبينه في تلك الايام. فلقد اضطربت العشائر التي كانت تعيش على ضفاف شطي الحلة والهندية، اضطرابا عميقا نتيجة التغييرات التي وصفت بانها قد اخذت تحدث في مستويات النهر في كل مكان. وقد كشفت الاوضاع عن عدم طاعة ذلك المجتمع، الذي لم تتغلغل فيما بينه وسائل المواصلات العصرية، والذي بقي غير ثابت في ولائه بين الحكومة، والعشيرة وسيطرة الملالي الرجعيين. ذلك ان العداوات التي كانت تثير المنازعات بين

---

١٠) المقصود [illegible] البادية الممتدة الى الشمال الغربي حتى الحدود السورية والتركية من نهر دجلة وحتى نهر الخابور والتي كانت [illegible] الحو[illegible] وشمر وعنزة. وهنالك منطقة اخرى في العراق تعرف باسم الجزيرة او الحويجة هي الممتدة [illegible] الشرقاط والتي تسكنها قبيلة «العبيد» المتاخمة اراضيها للمنطقتين التركمانية والكردية معا.

قبيلة واخرى، كانت توفر في بعض الاحيان ذريعة للتدخل التركي العسكري، ولهذا فلم يكن من النادر وجود الاسباب التي تدعو الى استمرار القتال لعدة شهور. وعلى هذا كان اجتياز هذه المناطق، امرا محفوفا بالمخاطر بالنسبة الى المسافرين، فقد وجد العلماء الالمان الذين كانوا يمارسون اعمال التنقيب عن الاثار في خرائب بابل، ذات مرة انفسهم وقد غدوا محاطين بالفوضى من كل صوب.

وفي اداني نهر دجلة، الفت تلك الفترة، الصراعات العنيفة على المشيخة بين «بني لام» و «البو محمد»، ومطالبة المتنافسين بالحصول على المساندة التركية وحتى الحماية البريطانية في بعض المناسبات. ولم تستطع التدخلات النادرة والدامية معا، التي كانت تقوم بها القوات التركية، وضع نهاية للحروب القائمة بين تينك العشيرتين، وما كان يصحبها من اقدام دفعات منها على اجتياز النهر، واطلاق النيران، ومن تطلع شيوخ البو محمد الى الاحتماء بشيخ المحمرة.

وبلغ تعطيل سير السفن البخارية في نهر دجلة نتيجة لهذه الاوضاع، ذروته في سنة ١٩٠٨ وحاول ناظم باشا في سنة ١٩١١ تهدئة الاحوال، ولكن اسباب الاضطراب بقيت جد عميقة، ولم يكن من الهين ازالتها، وحين انفجرت الحرب العالمية الاولى في سنة ١٩١٤، كانت العشيرتان ماتزالان في خضم خصام مرير، في حين بقيت الشخصيات البارزة في كل منهما، والمتنافسة على السيادة، تتزعم الاقسام المتنازعة في المستنقعات النائية التي يزرع الرز فيها، وعلى ضفاف نهر دجلة.

بقي ريف المنتفق في الفرات الادنى مدينا بالشيء القليل، الى الادارة التركية خلال هذه السنين. فلقد كان سجل الزمن من النزاع والتآمر، مرتبطا، الى درجة ملموسة، بشخصيات عاصمة الولاية. فمنذ سنة ١٩٠٠ الى سنة ١٩٠٨ كان ولاء القبيلة موزعا بين سعدون باشا وفالح باشا. فالاول كان وريثا لوالده في سياسة المقاومة للادعاءات التركية، في حين عرف الثاني بميله الى خدمة المصالح العثمانية. ولقد ادى التدخل العسكري التركي الى وقوع المذابح التي يتذكرها الناس والتي اوقعت بقواتها في الشطرة سنة ١٩٠٤ ولكن المسبب لذلك، وهو سعدون باشا، قد اوجد العذر والسبيل لصالح الحكومة، وذلك بالدعم المتباهى به من قبل حزب الاتحاد والترقي. فما ان حظى سعدون باشا بمساندة ناظم باشا في سنة ١٩١١، حتى اقحم نفسه بارهاب مارسه في شكل ثورة عامة قام بها رجال القبيلة، اعقبتها زيارة من بعثة تركية للتحقيق الامر الذي ادى الى انتهاج سياسة معاكسة له، وهكذا انفجرت العمليات العسكرية للمرة المائة، واذ ذاك حجز سعدون باشا نفسه في قارب مسلح في البصرة، ومن ثم ارسل الى المنفى في حلب ليموت هناك في ظروف مريبة[١١]

---

(١١) اتهم السيد طالب النقيب بتدبير مكيدة ضد سعدون باشا في سنة ١٩١١ حيث سلمه الى الاتراك الذين نقلوه الى حلب ومن ثم نقلوه الى السجن في استنبول فمات فيه وكان سعدون باشا قد نزل ضيفاً على طالب النقيب في داره بالبصرة، فما ان علم

اعطى هذا الحادث انذارا بالتجمع العام لتمجيد سعدون باشا ولكن ولده «عجمي» طير المستقل والضحل[١٢] كان قد خلفه في زعامة مضطربة لقبيلة ضاعت منها وحدتها وولاؤها الى الابد، وهكذا بقي تجمع هذه القوات العشائرية وولاتها في ادنى الفرات حتى سنة ١٩١٤، وان لم يكن يخلو من المصادمات الفجائية والدموية معا.

ادى الكسوف المؤقت الذي اصاب حكم الاتحاد والترقي في سنة ١٩١٢ الى عزل «عجمي» عن الرئاسة، وتنصيب اولاد فالح لفترة قصيرة ولكن التيار مالبث ان تحول، اذتم الاعتراف مرة اخرى بان «عجمي» هو الرئيس، وان في استطاعته ان يقود للمرة الثانية قوات المنتفق ضد قبيلة «الضفير» التي يدعمها امير حائل، وان يثير الفزع في البصرة، ولكن اندلاع نيران الحرب العالمية، قد جعلته يعسكر في الزبير، وان ينذر بالخطر لكنه لم يصمم على التحرك.

لم تكن المناطق التي تتعاظم فيها ابلغ القلاقل، لتقتصر على الاراضي التي تستطيع الحكومة الوصول اليها، وتغلغل القوات العصرية فيها حسب، وانما تضاف اليها ايضا، تلك المناطق التي كان تأخرها الاقتصادي الصريح، ناجما عن النظام الفاسد، والمطبق لاستملاك الاراضي. وذلك ان اعادة توزيع المقاطعات في كل سنة في محافظة العمارة، بما تتضمنه من امثلة عديدة، على طمع الاتراك وسماجتهم، وبالعلاقات غير الحقيقية والقبلية المتوترة بين ملاك الاراضي والفلاحين في المنتفق، ومعضلة الحقوق او الادعاءات المتعلقة بالاراضي في منطقة الشامية والهندية بين عوائل السادة رؤساء العشائر المتحاربة، وتغيب اصحابها المالكين لها في بغداد، في كل هذه المناطق كانت تكمن جذور الاضطراب الاجتماعي العميق، والتي كانت تزود الاتراك ومن جاءوا بعدهم الى الحكم، باوسع المشاكل المعقدة والمبددة للاموال، والتي كانوا يجابهونها.

لم يكن لاواسط العراق، خارج نطاق محافظة الديوانية، سوى الضئيل من التأريخ القبلي، اثناء الفترة التي امتدت من سنة ١٩٠٠ الى سنة ١٩١٤ ذلك لان قبيلة «ربيعة» كانت متوطنة، ويمكن الوصول اليها، كما ان عدد قبيلة زبيد قد تناقص بالتتابع ولم تعد كثيرة الشعب، في حين

والي البصرة بذلك حتى اخبر لجنة التحقيق التركية بالامر فما لبثت هذه ان طلبت الى الوالي القاء القبض على سعدون باشا وسوقه مخفورا إلى بغداد ومن ثم تم تسفيره الى حلب عن طريق الموصل في ٢٠ اب ١٩١١ (انظر تفاصيل ذلك في تقرير المس بل ترجمة جعفر الخياط «فصول من تأريخ العراق ص ٦ - ٤٧.

(١٢) يحاول المؤلف هنا ان يحط من منزلة عجمي باشا السعدون وان يتهمه بالضحالة، والسبب في ذلك واضح: هو ان عجمي ابى ان يسالم الانكليز او يتعاون معهم، مثلما فعل ذلك كل شيوخ العشائر في الجنوب، وحتى شيوخ عنزة والدليم. فلقد حافظ عجمي على ولائه بدافع الحمية الدينية في الدرجة الاولى، للاتراك فشارك معهم في كل الحروب التي خاضوها ضد الانكليز في منطقة اعالي الفرات وعلى الاخص جبهة الدليم رغم تسخير الانكليز لعملائهم من رؤساء عنزة والدليم وعلى الاخص، محروت الهذال، لمطاردة عجمي وقواته ومحاولة اغتياله بكل وسيلة. وقد انسحب عجمي مع الاتراك الذين انسحبوا من العراق وامضى بقية حياته في تركيا الى ان توفي فيها سنة ١٩٦١

كانت العشائر الموزعة في انحاء دیالی وفي اعالي نهر دجلة، تستجيب في الغالب، للعمل الذي تقوم به الشرطة بصفة مصادفة. كانت هذه المناطق هي التي بلغ فيها مستوى المعيشة، اوربما تجاوز المستوى المناسب لها، والتي اصبحت الضريبة تجبى منها بصفة منتظمة، ويستطيع ملاك الاراضي الذين يسكنون بغداد، ان يبرزوا بعض الشواهد على ادارتهم لمقاطعاتهم الزراعية.

اما المناطق المحاددة لبلاد فارس من امثال بدرة، ومندلي، وخانقين، فقد كانت مبتلاة، كما كانت عليه في الازمان السالفة، بالاضطرابات التي كانت تقع عبر الحدود، وبالمنافرات. غير ان تلك الاضطرابات السائدة لم تكن تؤلف بصفة عامة، خطراً على الامن.

ولقد امضت المناطق الكردية الواسعة في ولاية الموصل، نصف جيل من السلام النسبي، والانحلال البطيء للقبيلة. ذلك ان العداوات بين الاغوات المتنافسين، والغارات الجماعية الموضعية التي يقوم بها اصحاب الدماء الفوارة، لم تكن تحتاج الى اكثر من استطلاع يقوم به افراد الضبطية، او نصف سرية من الحامية المحلية.

ولقد اشتركت كل عناصر اللصوصية، ووعورة الاراضي، ويسر العبور الى الاراضي الفارسية، وسخط الاكراد من ازدياد المطالب التركية، في الابقاء على هذه المناطق «ذات الاستقلال العدواني».

كان العنصر الرئيس في هذه المناطق يتمثل في عشائر «الهماوند» و«الجاف» و«البرزانيين». ذلك ان الهماوند قد اخذوا في هذه السنين يوطدون مركزهم اكثر من ذي قبل، فاصبح عاملا مزعجا للمجتمع كله، ماعدا هم انفسهم. وما خلا فترات من الهدوء، واصل شبان هذه العشيرة تفضيلهم لشن الغارات على الخيرات التافهة التي كانت الزراعة توفرها، لكنهم مالبثوا في النهاية وخلال شهور عديدة، يخرقون اوامر الحكومة، ويؤذون الموظفين الاتراك، ويرفضون دفع الضرائب، ويرهبون الطرق.

وفي سنة ١٩٠٨ غدت ثورة هذه العشيرة خطيرة، ذلك انها امضت السنوات التي اعقبت ذلك التأريخ في مقاومة، اومراوغة الحملات العسكرية التي تجلب اكاليل الفخر للقادة الاتراك. وفي سنة ١٩١٠ تم العفو عن عدد من اغوات الهماوند الصغار، ولكن تأثير ذلك كان موجزا، لان قواتهم مالبثت ان حاصرت مدينة «جمجمال» ولم يعد مستطاعا الحيلولة دون تفاقم اضطرابات اوسع، الاعن طريق التسوية السلمية التي قام بها ناظم باشا، وقد استمرت تلك التسوية لمدة سنتين.

ومن سنة ١٩١٢ الى منتصف سنة ١٩١٤، تفاقمت الاوضاع في مناطق «بازيان» و«قرة داغ» فاصبحت اكثر سوءا مما كانت عليه في اي وقت مضى، وادى عبور معظم القوات

العشائرية فيها الى الاراضي الفارسية، الى مزيد من الارتباك في المنطقة التي كان يحتلها «سلار الدولة»[١٣]

على ان عشيرة الجاف، كانت اقل همجية، ولكن كان يندر ان تكون اكثر انقيادا من عشيرة الهماوند، ذلك لان وفاة عثمان باشا في سنة ١٩١٠، لم تقلل من سيادة الجاف على حلبجة، والتي استمرت عادلة خانم تديرها، على الرغم من الوجود غير الضار، لاحد القائمقامين هناك.

لم تكن للاقسام الجوابة من الاكراد، التي كان يتزعمها محمود باشا، الذي يعتبر في بغداد من اعظم رؤساء الاكراد، ولو انه في شخصه لم يكن يؤلف تلك الشخصية المهمة المنظورة، اية اتصالات خارجية مخيفة وغير مرغوب فيها ماعدا مع الناس الذين كانوا قد استقروا في القرى التي تجتازها تلك الاقسام. فبعد ان امضى محمود باشا شهورا في الموصل، لتنظيم مقادير الايرادات التي يجبيها من افراد قبيلته، قام بزيارة بغداد في سنة ١٩١٠، حيث اولم له ناظم باشا وليمة. وكانت قوات الجاف من بين القوات التي قاتلت في مناطق غربي كرمنشاه سنة ١٩١٢، وقد انتهت تلك الفترة باقتراح ينص على الموافقة على العيش بسلام بين الادعاءات التركية بالحكم، وبين تمسك الجاف بحياتهم التقليدية.

اما الشيخ الديني الذي يتزعم «برزان» وهو «بك الديرة» الحقيقي حتى اخر يوم، فكان مايزال يحتفظ ببلاطه غير القانوني الذي لا يمكن الوصول اليه عبر نهر الزاب الكبير من ريف الزيباريين، فقد اخفق بصفة منتظمة في ان يقدم حتى الحد الادنى من الاحترام المطلوب للحكومة، وكان في كل سنة يورط نفسه في قتال مع عشائر «الهركي» المتوحشة اثناء الهجرات التي كانت تقوم بها تلك العشائر. كان ارسال القوات التركية الى هناك، يقابل بمجرد الالتجاء الى اعالي الجبال، في حين كان استخدام السلطات التركية لعشائر الهركي بمثابة وكلاء لانزال العقاب، يعتبر من الامور الخطرة.

ولقد ساءت الاوضاع بحدوث الاضطهاد نصف المخبول والتحرش بالمسيحيين، على يد الشيخ الشاب عبد السلام الذي خلف اباه في سنة ١٩٠٨[١٤] ولم تكن الحملة التي وجهها محمد فاضل باشا من الامور التي تحمل على الاقناع، واذ ذاك عهد الى ناظم باشا مرة اخرى بأن يتقبل الاعذار التي تذرع بها الشيخ وان يعيده الى الوفاق ولو لفترة قصيرة الامد. غير ان الشيخ

---

(١٣) سلار الدولة. من اخوان محمد علي شاه الذي تولى الحكم في بلاد فارس سنة ١٩٠٧ بعد وفاة ابيه مظفر الدين. وقد استعان سلار الدولة باللر واحتل كردستان الفارسية لكنه اندحر على يد «فرمان فرما» حاكم كردستان الفارسية ذاتها، فغدا شريدا مطاردا الى ان تم القاء القبض عليه من قبل الانكليز خلال الحرب العالمية الاولى في منطقة قزوين.

(١٤) هو ابن الشيخ احمد المتربع على اقليم برزان في تلك الفترة. والامر الذي نود ان يعلمه القارىء ان «برزان» ليس اسم عشيرة او قبيلة وانما هو اسم اقليم من الاقاليم ليس الا وكان ريف منطقة برزان مأهولا من الاصل بعشائر الزيباريين الذين ظلوا في جميع الاحوال والفترات يقاومون تسلط شيوخ برزان عليهم ولم يأتلفوا معهم ابدا، ولم يوافقوهم في كل اعمال التمرد التي كانوا يقومون بها سواء في العهد التركي ام العهد الملكي او الجمهوري ايضا.

مالبث ان عاد الى شق عصا الطاعة من جديد في سنتي ١٩١١ و ١٩١٢، ومن ثم عبر الى منطقة «اورميا» لكي ينضم الى الروس، حيث شرع من هناك يقوم بعمليات عسكرية ضد افراد عشيرته خلال سنتي ١٩١٣ و ١٩١٤

كان الشخص المنافس لشيخ برزان، والذي يعيش عبر حدود منطقة «وان» ويعادله في القدسية وفي الارهاب، هو زعيم شمدينان الشيخ صادق النيري[١٥] كان اخوه الشيخ عبد القادر يحتل مكانة عالية في سياسة اسطنبول. اما الشيخ صادق، والذي كان ممقوتا لجشعه وقسوته، فكان يعيش على اعمال السلب وعلى سمعة القداسة، وقد حول سكان القرى المسيحية التي كان يسيطر عليها الى ارقاء، وقتل مطرانهم، ومن ثم هرب من المنطقة الى ان اصطادته الجيوش التركية مصادفة.

ادت وفاة الشيخ صادق في سنة ١٩١١ الى ان ينهض اخوه عبد القادر للمطالبة بالسيادة مكانه، ولكن من دون طائل. اما «سيد طه» ابن الشيخ صادق، والذي اشتهر بطاعته، فقد خلف اباه في الرئاسة بشكل حسن، ووطد مركز اسرته على جانبي الحدود التركية الفارسية معا.

وفي قلب ريف منطقة حكاري، كانت العشائر الاثورية ماتزال تتمسك بمواطنها، ومازالت تجتذب المبشرين البروتستنت من الاوربيين. كان بنيامين، وهو المار شمعون الضعيف[١٦] غير المدبر، قد نجح في سنة ١٩٠٣ في زعامة «الملة الاثورية» وتولى بطريكيتها. وما ان سانده اتباعه بولائهم له، وتعاضدهم، وعلى الاخص اخته المثقفة ذات الرأي الحصيف «سرما»، حتى اصبح الان عرضة للتآمر عليه من لدن ابناء عمومته الذين يغارون منه، اضافة الى شكوك الاتراك فيه، نتيجة نفوره منهم.

ظفر اليزيديون الساخطون، في هذه الفترة، بشيء من الاسس تجاه المساواة في المعاملة. فالوحشية التي اشتهروا بها، قد تم ترويضها من ناحية خلال سني التسعينات من القرن الماضي، كما اعيد اليهم مرقد «عدي» في سنة ١٩٠٧، وظل اميرهم يحتفظ بسلطته، في الوقت الذي استمرت فيه طائفتهم المعادية تتمسك بشعائرها ومن ممارساتها نصف السرية. ولقد اثار التجنيد الاجباري بينهم مقاومة مسلحة في سنة ١٩١٣، ولكن الزيارة التصحيحية التي قامت بها القوات التركية لمنطقتهم لم تواجه اية معارضة جدية.

(١٦) الصواب الشيخ صادق النهري وتعرف شمدينان باسم شمزينان وكان الشيخ عبيد الله والد الشيخ صادق قد اشعل في سنة ١٨٨٠ ثورة كردية هدف من ورائها الى تشكيل دولة كردية مستقلة على ان تكون تحت وصاية تركيا الاسمية «الدكتور شاكر خصباك: (الكرد والمسألة الكردية»

(١٦) «المار شمعون» لقب ديني بالنسبة الى قساوسة الطائفة الاثورية وليس اسما من الاسماء الخاصة كما قد يتخيل البعض ذلك.

٤ - مشاريع الارض والماء

بعيداً عن الوضع الكالح المضطرب في العراق ، استمرت المفاوضات حول سكة حديد بغداد ، التي تأثرت تأثراً حيويا حين ابتدأ القرن الحالي ولقد تم احتواء النتائج التي تم التوصل اليها بين المصرف الالماني «دويتش بانك» وشركة سكة حديد الاناضول ، والحكومة التركية ، في ارادة سلطانية صدرت في شهر كانون الثاني سنة ١٩٠٢ واذ اعيد عرض تلك المفاوضات في شهر اذار سنة ١٩٠٣ فانها قد كشفت عن حصول الالمان على شروط فاخرة ذلك لان سكة الحديد سوف تبني من مدينة «قونية» (١) الى الخليج العربي ، وسيتم انشاء فروع لها داخل العراق وكانت الشروط المالية سخية ، ولسوف تتألف شركة تركية جديدة ، باسم الشركة العثمانية الامبراطورية لسكة حديد بغداد

اثار نشر ذلك الامتياز اهتماما واسعا في كل ارجاء العالم فالفرنسيون الذين سبق لهم في سنة ١٨٩٩ ان وافقوا بصفة مبدئية ، على المشاركة في المشروع لم يظهروا الان سوى حماسة ضئيلة له ، في حين كان المنشئون الالمان يتطلعون بشوق الى تعاون البريطانيين معهم غير ان الرأي في لندن ، والذي كان فيما سبق معارضا للمشروع او محبذا له ، قد اصيب الان بهزة عنيفة لانه اعتبره تهديدا للهند وللمصالح البريطانية في العراق ، وفي الخليج العربي

لكن تيار الرأي البريطاني مالبث ان تحول بصفة حاسمة ضد المشروع ، واذ ذاك اضطر المستر «بلفور» — وهو غير راغب — الى ان يعلن امتناع بريطانيا عن المساهمة في المشروع ، بينما خابت امال الالمان خيبة شديدة اما في تركيا ذاتها فقد وجهت الى المشروع انتقادات كثيرة في حين حبذه الأخرون باعتباره تطورا يبعث على الامل ، ويتعدى نطاق القدرة التركية التي لادعم لها

ولقد تنامى المشروع في العراق ، بصفة بطيئة ، واعلنت ذات الفئتان من الرأي العام اراءهما فيه ، فرحبت احداهما بالتقدم الذي قد يحصل باية صفة كانت ، في حين خشيت الفئة الاخرى من التغلغل الاجنبي والمسيحي المخيف في البلاد

كان القسم الذي يمتد بين قونيه — ارغلي من سكة الحديد ، قد كمل انشاؤه في شهر تشرين الاول سنة ١٩٠٤ ، ومن ثم ايصال الخط الى «بلغورلو» حيث توقف هناك حتى سنة ١٩٠٩ وفي سنة ١٩١٤ شرع بحفر نفق تحت جبل «امانوس» وانشيء جسر على نهر الفرات ، واخذت

---

(١) مدينة قونية هي ايقونيوم القديمة عاصمة سلطنة الروم السلجوقية في سنة ١٠٨١هـ وتقع في وسط تركيا.

الاعمال الترابية للسكة لسير للدما حتى «رأس العين»

وفي الوقت ذاته شرع بالتفكير في انشاء مشاريع اخرى لسكك الحديد فقد كان هناك مشروع بريطاني لمد سكة حديد يبدأ من «بور سعيد» الى العقبة ومنها الى «الجوف» حتى البصرة[٢] وهناك مشروع فرنسي لسكة تمر بمدن حمص وتدمر ودير الزور واستمرت محاولات الالمان للحصول على تأييدهم لمشروعهم في مد «سكة حديد بغداد BAGHDAD BAHN» ولكن هذه المحاولات جوبهت بجواب سلم للالمان في اسطنبول سنة ١٩٠٧ مفاده بان مقاومة المشروع ستتوقف ، عندما يعهد الى البريطانيين وحدهم بمد سكة حديد من بغداد الى البصرة

كان للثورة التركية تاثير على المشروع فلقد اصبح الالمان غير مرغوب فيهم ، ولقيت سكتهم معارضة شديدة جدا وعلى الاقل من قبل اسماعيل حقي النائب الكردي من بغداد[٣] ولقد عاد الانكليز يتمتعون بشعبية مختصرة ولكن في سنة ١٩١١ استأنفت مراكز القوى القديمة نشاطها فاصبحت المانيا هي الدولة المقبولة والقادرة على انجاز سكة الحديد

كانت بريطانيا ماتزال ترفض المشاركة في المشروع واخذت تميل بعد ذلك الى درجة الموافقة على رفع معدلات رسوم الكمارك التي طالبت تركيا بها ولم تحصل اية نتيجة من وراء الاقتراحات التي عرضت في سنة ١٩١٠ بشأن سيطرة البريطانيين على القسم الجنوبي من سكة حديد بغداد ، ولكن في اوائل سنة ١٩١١ رفضت للمرة الثالثة الخطة التركية القاضية بتأليف شركة بريطانية فرنسية مشتركة لانشاء القسم الذي يمتد بين بغداد والبصرة من مشروع سكة حديد بغداد ، ولكن سرعان ماتم التوصل الى اتفاق وضعت مسودته فيما بعد حالا ، اي في شهر اذار ١٩١١ ، ينص على ان تتنازل الشركة الالمانية عن حقوقها المطلقة في جنوبي العراق ، لقاء تاكيد بالمساهمة في اية شركة غير تركية ، قد تعمد الى القيام بمثل هذه الاعمال .

وفي الوقت ذاته ، وطبقا لاتفاق بوتسدام المعقود سنة ١٩١٠[٤] قبلت المانيا بالمركز الذي تحتله روسيا في شمال بلاد فارس ، ووافقت على ان لاتعارض في مد خط حديدي روسي من طهران الى خانقين اما فرنسا التي اضطربت لهذا الاتفاق فقد تمت تهدئتها وضمن تأييدها

---

(٢) مدينة الجوف: المدينة الرئيسة شمالي صحراء النفوذ في الجزيرة العربية على الطريق المباشر مابين سوريا ووسط جزيرة العرب في واحة تمتد حوالي ثلاثة اميال وكلها حدائق وبساتين.

(٣) المقصود به اسماعيل حقي بابان وكان من اعضاء مجلس المبعوثان الاول في العهد التركي

(٤) اتفاق بوتسدام عقد هذا الاتفاق في التاسع عشر من شهر اذار سنة ١٩١٠ وذلك على اثر اجتماع جرى في مدينة بوتسدام الالمانية بين الامبراطورين الالماني والروسي وحصول التفاهم بينهما وبتوقيع ذلك الاتفاق تخلصت المانيا من منافسة روسيا لها في الامبراطورية العثمانية ، واعقب ذلك حصول تفاهم بين بريطانيا وفرنسا في كانون الاول ١٩١٢ بشأن سوريا حيث اعترفت بريطانيا بالنفوذ الفرنسي في سوريا ، وكان ذلك الاتفاق تمهيدا لمعاهدة سايكس بيكو التي عقدت بين الدولتين اثناء الحرب الاولى لاقتسام البلاد العربية فيما بينهما

لمشروع سكة حديد بغداد ، وذلك عن طريق تدبير فرنسي الماني ، اعترف بوجود مركز ممتاز لفرنسا في سوريا وازالة اسباب الاحتكاك او الشكوك الاخرى فيما بينهما

وقبل عقد هذا الاتفاق جرت محادثات تركية بريطانية اخرى خلال سنتي ١٩١١ و ١٩١٢ تناولت موضوع مد سكة حديد عبر العراق ، وفي شهر ايار ١٩١٣ تمت الموافقة مؤخرا على الشروط ولو انه لم يوقع عليها في الواقع لقد كانت تلك الشروط تعترف – بالاضافة الى سكة الحديد – بوضع شبه مستقل للكويت داخل الامبراطورية العثمانية ، ومنح بريطانيا مركزا خاصا في الخليج العربي

تم الاتفاق على ان تكون نهاية سكة حديد بغداد في مدينة البصرة ذاتها ، الا اذا وافقت بريطانيا على ايصالها الى سواحل الخليج العربي وان يضاف الى مجلس ادارة الشركة التي تقوم ببناء السكة اثنان من المدراء البريطانيين ، وان يضمن مركز بريطانيا في ميدان الملاحة النهرية ، وان يسمح – مقابل ذلك – برفع معدل الرسوم الكمركية التركية الى حد خمس عشرة في المائة

ولغرض توطيد كل هذه النتائج ، بودر في اليوم الخامس عشر من شهر حزيران ١٩١٤ بتوقيع اتفاق الماني بريطاني من قبل كل من السر ادورد غراي ، والمسيو لخفاوسكي ولقد كان من المقرر ، لو لم تقع الحرب العالمية الاولى ، ان يتم التوقيع على هذا الاتفاق في شهر اب من تلك السنة كان ذلك الاتفاق يضمن توقف المعارضة البريطانية لمشروع سكة حديد بغداد ، بما في ذلك انتهاؤها بمدينة البصرة ، وتطبيق سياسة الباب المفتوح في العراق ، مع الاعتراف بالمصالح البريطانية في نطاق الري ، ومن ثم تأكيد الاتفاق التركي البريطاني الموقع عليه في ايار ١٩١١

وبالنسبة الى القسم الجنوبي من بلاد فارس [٥] فقد قبلت المانيا بان يكون هذا القسم منطقة نفوذ بريطانية لاستثمار النفط فيها ولكسب التأييد لذلك لن تقوم اية معارضة لمد خط حديدي من الكوت الى مندلي ومع ذلك فان هذه الشروط التي ارتفعت ضدها اصوات كثيرة بين الوطنيين الاتراك ، قد عرضت المطامح لاكمال سكة حديد بغداد ، التي ظلت موضوع امال ومخاوف كثيرة طيلة عشرين سنة

في شهر اب سنة ١٩١١ ظهر في بغداد مايسنر باشا [٦] ذلك العالم الالماني المختص بالشرقيات

---

(٥) يقصد به اقليم الاحواز العراقي العربي الاصيل والذي ظهر النفط فيه سنة ١٩٠١م على اثر التنقيب الذي قامت به شركة دارسي صاحبة الامتياز من شاه فارس في ذلك الوقت (راجع كتابنا معركة النفط في ايران سنة ١٩٥١).

(٦) مايسنر MEISSNER من علماء الاثار الالمان الذين عملوا في وقت مبكر في العراق لكنه مالبث ان تحول الى اعمال التنقيب عن المعادن [illegible] النفط حيث اجرى بعض التنقيبات عنه في القيارة وفي مندلي وقد وضع الالمان حجر الاساس لسكة [illegible] الكرخ في احتفال جرى يوم السبت السابع والعشرين من تموز ١٩١٢ وسار اول قطار بين بغداد [illegible] حزيران ١٩١٤ ثم وقف الخط عند سامراء لما اندلعت الحرب .

والرجل اللامع المتوثب النشاط والمجامل ، لكي يفتح في بيت «كاظم باشا» ذلك البيت الذي اصبح بعد عشر سنوات من ذلك التأريخ مقر البعثة البريطانية العليا ومن ثم دار السفارة البريطانية

ثم اختيار محطة السكة المقبلة على الضفة اليمنى من نهر دجلة ، وشرع بالمرحلة الأولى من القسم الاول المقترح من الخط والممتد من بغداد الى سامراء بحضور الوالي نفسه في شهر تموز ١٩١٢ (٧)

تم التغلب على المعوقات والمصاعب المتعلقة بالعمل ، والنقل بالنهر ، وتوفير القوارب والبارجات نوعا ما وكما ذكر «لورمر» في كتابه «استحال سواد رأس مايسنر الى بياض» خلال ثلاث سنوات من الكفاح غير انه تم انشاء واحدا واربعين ميلا من الخط الى سميكة في ايار ١٩١٤ في حين كملت الثمانون ميلا الى سامراء بعد اعلان الحرب بوقت قصير.

* * *

يرتبط تأريخ استعمال الملاحة التجارية في الانهار ، خلال هذه الفترة ، ارتباطا وثيقا بتاريخ انشاء سكك الحديد لقد اثارت احدى الفقرات التي وردت في اتفاق سكة حديد بغداد ، مخاوف كل من شركة لنج للملاحة في نهري الفرات ودجلة ، والادارة العثمانية في عمان ، وذلك بالتهديد الذي ينطوي على المنافسة المفضلة غير ان تلك المنافسة لم تبرز الى حيز التنفيذ

وفي سنة ١٩٠٤ تسلمت الادارة السنية ، مقابل تعويض يبعث على السخرية ، من ادارة عمان العثمانية ، كل الاسطول والتجهيزات التي كانت لديها ، والتي اشتملت على اربع بواخر للركاب هي «بغدادي» ، و «فرات» و «رصافة» و «الموصل» بالاضافة الى عدد آخر من سفن اصغر حجما وفي هذا الوقت اقدمت ادارة الملاحة الحميدية ، والتي كانت تعرف بهذا الاسم ، على تشغيل باخرتين جديدتين وفخمتين نسبيا ، تتحركان بالرفاسات تم بناؤهما في اسكوتلاند ، هي «حميدية» و «برهانية» اللتان كانت ادارة عمان العثمانية قد امرت ببنائهما قبل سنوات ، اضافة الى اربع بارجات جديدة لقد عملت هاتان الباخرتان خلال حياتهما التي استمرت خمس سنوات ، بكفاءة اوسع من الكفاءة التي سبقتها وقد وصفها احد الزوار الانكليز فعلا في سنة ١٩٠٨ فقال عنهما بانها «تمخران المياه بشكل حسن يثير الدهشة» واكد بانهما سوف تحلان محل سفن بيت لنج ، الا اذا حلت سكة حديد بغداد محل السفن التابعة لكلتا الشركتين

---

(٧) جرى الاحتفال بوضع الحجر الاساسي لبناء سكة حديد بغداد بحضور والي بغداد جمال السفاح صباح يوم السبت ٢٧ تموز ١٩١٢ وحضر الاحتفال كافة رجال الحكومة العثمانية من عسكريين وملكيين وقناصل الدول ، وكان الاحتفال عظيما ماشاهدت بغداد مثله (عبد الكريم العلاف : بغداد القديمة ص ١٨٨ طبعة ١٩٦٠).

وفي الوقت ذاته اخذت شركة لنج تتلهف بصفة متواصلة للحصول على حريه اوسع من التطور الذي منعت من تحقيقه بصفة متماسكة ولو ان باخرة ثالثة من بواخرها قد سمح لها بالابحار بصفة منتظمة بعد سنة ١٩٠٧

كانت صعوبات الملاحة في مياه دجلة المنخفضة ، والاخلال بالامن الذي كانت تقوم به العشائر الساكنة في اعالي «العمارة» واسافلها ، قد ادت الى تعطيل كل وسائل الملاحة ، واشغلت مديري شركة لنج والهتها وهما السيدان «باري» ، و «تود» فلقد استملكت شركة لنج في سنة ١٩٠٨ السفينة «جلنار» وضمتها الى اسطولها ، في الوقت الذي استمرت فيه سفن شركة لنج الاخرى التي نالت التكريم قبلا ، وهي «بلس لنج» و «خليفة» و «مجيدية» تمارس خدماتها ، تحت امرة ضباط محاربين اشداء ، وملاحين متطوعين[٨] كذلك استمرت المراكب الحرة التي تعمل في النهر ويمتلكها اثنان من التجار ورئيس اسرة الخضيري ، تساهم في حركة النقل النهري ، في الوقت الذي لم تستطع فيه المشاريع الاخرى المنافسة ان تواصل عملها ومنها الشركة اليونانية الانكليزية المشتركة التي تألفت في سنة ١٩٠٥

ادى قيام الثورة التركية الى تحويل بواخر الادارة الحميدية من الخزينة الخاصة الى منظمة تتبع الحكومة المركزية عرفت باسم «الادارة النهرية العثمانية» ولكن الخدمة اصابها التدهور ، على الرغم من وجود وحدات جديدة ومهمة تم الحصول عليها في سنة ١٩١٢ وتمثلت في الباخرتين «بغداد و البصرة»

بدأت بعد سنة ١٩٠٩ مفاوضات ملحة للمشاركة بين شركة لنج والادارة النهرية العثمانية ، لكن هذه المفاوضات تأخرت طويلا وذلك بسبب الاحتجاجات المحلية المعادية بصفة قوية وفي اسطنبول ايضا ، ضد مثل هذا النموذج من السيطرة الاجنبية ، وظلت هذه المفاوضات غير كاملة عند اندلاع الحرب ، ولقد كان هذا الموضوع في الواقع من المواضيع التي شملها الاتفاق الانكليزي التركي في سنة ١٩١٣ والذي لم تتم المصادقة عليه فقد اشترط هذا الاتفاق ، بالنسبة لمصلحة البواخر ، بان لايتم تحويل الانهار الصالحة للملاحة عن مجاريها الحالية ، وان تعطى حقوق الملاحة لمدة ستين سنة الى شركة الملاحة النهرية العثمانية التي سيتم تشكيلها على اساس المشاركة المتساوية بين المصالح التركية والانكليزية

ولقد سمح لباخرة رابعة (ولكن تحت العلم التركي) بالانضمام الى شركة الفرات التي يمتلكها بيت لنج ولكن في الوقت الذي كان فيه هذا الترتيب مقبولا من لدن شركة سكة حديد بغداد ، التي ضمنت لشركة الملاحة الجديدة اعلى نسبة من الحمولة ، كان الضرر الذي يمس مصالح شركة بيت لنج واضحا كل الوضوح ولقد تمت مجابهة هذا الترتيب بدوره ، باتفاق اخر تم

---

(٨) ذكرها المؤلف باسم TALL KAYFI وهم الرجال الذين يتطوعون للقيام ببعض الاعمال لقاء اجور او من غير اجور.

التوصل اليه في اذار ١٩١٤ ، وهو يتضمن ادخال مصالح بيت لنج ذاتها في مصالح شركة الملاحة العثمانية ، وقد تقرر ان تنقل حقوق شركة سكة حديد بغداد بشأن بناء ميناء في البصرة ، الى شركة الميناء العثمانية ، وتشارك فيها مصالح بيت لنج ، واللورد انتشكيب ، وكذلك المصالح الهندية والبريطانية ، وشركة سكة حديد بغداد ذاتها على ان الحوادث العالمية ، على اية حالة ، قد حالت دون اخراج اي من هذه الترتيبات الى حيز التنفيذ فقبل انتهاء سنة ١٩١٤ كان الاهتمام التركي الالماني بالملاحة التجارية في نهر دجلة قد خمد الى الابد

وفي الوقت ذاته ادت المهمة المباشرة لنقل مواد سكة حديد بغداد من البصرة الى بغداد ، الى تشكيل شركة لهذا الغرض في سنة ١٩١٢ هي «شركة النقليات النهرية في الشرق» والتي شاركت فيها كل من شركة لنج ، والمصرف الالماني على حد المساواة ولقد حصلت هذه الشركة على باخرة صغيرة ملائمة لتحقيق اغراضها ، كانت تسيطر عليها محليا ادارة دجلة والفرات

* * *

وفي ميدان الري الذي يحظى بكل الاهمية ، شهد القرن الجديد ، تطورات واسعة ومشجعة فلقد شهدت سنة ١٩٠٠ والسنوات التي اعقبتها ، فعلا ذات الشرور والمفاسد التي كانت تتفاقم وتتعاظم من دون اي تصد لها من امثال الفيضانات الشتوية المدمرة ، وعدم كفاية مياه الري في الفصل الذي تشتد فيه الحاجة اليها ، ونقص الرقابة ، ونقص عمليات الكري والبزل وكان وجود نفس الزراع غير المدربين وغير الملمين بامور الزراعة ، والذين كانت تعوزهم المساعدة ، كما كانت ذات الطرق القديمة البالية ، والمشاريع المبهمة الفاشلة التي كانت تخطط لها الاوساط العليا ، كل هذه الامور قد واصلت مسيرتها في عرقلة توفير العلاج العملي لذلك

ولقد اخذت الاوضاع في اواسط الفرات تميل من سيء الى اسوأ فقد تم التخلي عن الاراضي الزراعية ، وجفت القنوات ، وشرعت العشائر تكافح في سبيل وجودها ، وما لبثت سدة الهندية ان تداعت جزئيا مرة اخرى في سنة ١٩٠٣ ثم اخذت تتدهور تدهورا سريعا واتخذ النهر الان مجراه في فرع الهندية حتى بلغ تسعة اعشاره ، فخلف وراءه الدمار والخراب ، في مناطق الحلة ، والديوانية والدغارة

اقدمت الحكومة على تنظيم اعمال الاصلاح ، ولكن كانت تنقص هذه الاعمال ، الاموال او القدرة التامة وهكذا برهنت الجهود الواسعة التي بذلت في اوائل سنة ١٩٠٩ تحت اشراف «السيد كوغنين» على عدم جدواها

على ان النجدة لذلك كانت في متناول اليد ذلك ان مهندس الري الحاذق في مصر ، السر وليم ولكوكس كان يقوم بدراسة مشاكل السيطرة على مياه العراق ابتداء من سنة ١٩٠٢ وما

بعدها واستطاع من طريق السفير البريطاني ان يقدم الى حكومة اسطنبول مقترحات في هذا الشأن واخيراً عين ولكوكس في سنة ١٩٠٧ مستشاراً لشؤون الري في العراق ، حيث وصل الى بغداد في كانون الاول من تلك السنة وشرع يتجول ويدرس بطاقة لاحدود لها وبجهد وتصميم في ذات الوقت الذي راحت فيه مؤسسة مسح الري في بلاد الرافدين توالي اعمالها وفي سنة ١٩١٠ استطاع ولكوكس ان يحل مشاكل الري.

من المشروعات التي وردت في تقاريره ، والتي بقي معظمها يحتل الميدان طيلة اربعين سنة فيما بعد ذلك التأريخ ، برزت الضرورة الملحة الى المبادرة باعمال مباشرة على نطاق اوسع فلكي يحول دون حدوث الفيضان ، طلب ولكوكس تهيئة مسارب منتظمة لتصريف مياه الفيضانات ، في نقاط رئيسة ، واقامة سدود قوية ، وسد الثغرات الموجودة. ذلك ان تصريف مياه الفرات مثلا سوف يكون عند مدينة الرمادي او قريباً منها كما ينصب في بحيرة «الحبانية» وفي منخفض «ابو دبس» في حين يبدأ تصريف فيضان دجلة من منطقة سامراء عبر اميال من ارض مرتفعة الى منخفض «الثرثار» ، الا اذا اثبتت كلفة مثل هذا المشروع الواسع بانها غير ممكنة التحقيق

ولغرض رفع مستويات المياه في الفصل الذي تهبط فيه ، وتوفير تجهيزات مائية يمكن بها ارواء القنوات التي تجف ، لابد من اقامة سد على مقربة من بلدة «بلد» فوق بغداد ، وانشاء سد اخر في «الكوت» وذلك لغرض اعادة ارواء اراضي شط الغراف (شط الحي) وكان لابد من استعادة قناة النهروان القديمة باحدى الطرق التي لامعدى عنها وان تصب مياه نهر ديالى ، وحتى بعض مياه نهر دجلة ، في هذه القناة ، وان تستصلح اهوار الفرات الادنى ومستنقعاته ، وذلك عن طريق اعادة القنوات الرئيسة هناك وتهيئة تصريف مياه الفيضان ذلك لان انشاء سد في «كرمة علي» من شأنه ان يسيطر على الري في منطقة البصرة

ولابد من توفير مبازل على نطاق واسع في انحاء الريف ، وذلك باستغلال المنخفضات الموجودة فيه ، ويمكن حماية الملاحة في نهر دجلة بالسيطرة على ثغرات الفيضان في منطقة العمارة ، من امثال قنوات «البتيرة» و «الكحلاء» «المجر الكبير» «والمشرح»

لم يكن النقد الموجه الى فشل هذا المشروع الخطير الذي يكلف نفقات كثيرة يحتاج على اي مستوى، الى اسس للادعاء بنقص الاموال وانعدام الامن العشائري ، ونقص القوى البشرية العاملة وسوء الادارة التركية الذي استشرى داؤه ومع كل ذلك فقد وافقت الحكومة التركية على المشروع بكل حزم وفضلت بأن يشرع ببناء سدة الهندية كخطوة اولى لذلك

شهد السر ولم ولكوكس من سنة ١٩٠٩ الى سنة ١٩١١ الفشل الذي احاق بكل المحاولات الي [illegible] لترميم السدة التي كانت قائمة على شط [illegible] وسرعان ماأخذ يجرب تذوقه الاول الا معظم في ايجاد حل لكل المشاكل التي كانت تواجهه ، وبعي بذلك الحصول على

الاموال اللازمة من الحكومة التركية ومع ذلك فقد بوشر ببناء السدة الجديدة وتم استدعاء المناقصين للقيام بالاعمال الكاملة ومن ثم منح العقد الى شركة بريطانية هي »شركة جون جاكسون وشركاه»

كان انشاء سدة الهندية التي كانت انذاك وحتى في الوقت الحاضر تعتبر من اعظم الاعمال في العراق ، يجري بسرعة خارقة ، على يد مجموعة من الاتراك والهنود ، والارمن وحوالي ثلاثة الاف وخمسمائة عراقي كانت مشاق العمل قليلة ، وكانت عملية النقل ولاسيما على طرفي نهر الفرات من البصرة ، تمثل اشد الصعاب ، والمعوقات الاخرى التي تفوق الملاحة ولذلك فان الكفاح المتواصل الذي كان يحتاج اليه للحصول على اموال من الخزينة الخاوية في اسطنبول والبخل الذي تميز به الدفتردار في بغداد ، لم يثمر الا بعد ان اصبح التوقف العام للعمل في المشروع ، امراً محتماً

وصلت البوابات الحديدية للسدة في اواخر صيف ١٩١٣ واقيم احتفال حاشد وظافر بافتتاح العمل كله في شهر تشرين الثاني من تلك السنة[٩] والى جانب السدة التي كلف بناؤها اقل من نصف مليون جنيه .كان لابد من تنظيم القنوات التي صممت لدعم انخفاض مستوى النهر ومع ذلك فان السدة قد حققت منافع هائلة مباشرة في انحاء الريف التي كانت تفيد منها

ولقد كان مستطاعا ان تكون مثل هذه المنافع مائة ضعف لو انها اشتملت على صيانة الامن ، وايجاد نظام ملائم للاراضي ، وبعض الامل في استخدام الطرق الحديثة في الزراعة

ومثل اي مكان اخر في العراق فان اكثرية الاعمال الترابية التي شرع بها لتصريف مياه الحبانية كانت قد كملت في المرحلة الاولى من هذا المشروع ، وشرع بحفر قناة الصقلاوية ولكن مالبثت ان تم التخلي عنها كما ان اعمال المسح الاخرى قد وفرت معلومات ذات قيمة واسعة مقبلة ، ولو انه لم تكن هنالك اية مشاريع اخرى كبيرة ، تخص هذه الفترة من الزمن

لقد بوشر بدراسة مشروع لايصال المياه الى «الحويجة» شمال غربي منطقة كركوك ، من نهر الزاب الصغير ، ولكن الدراسة انتهت الى الفشل والفضيحة واكثر اهمية من ذلك ، واعظم تنبوأ بتطور اوسع في المستقبل ، هو تعاظم استعمال المضخات التي تشتغل بالنفط ، ونصبها على ضفاف الانهار لاغراض الري

ولقد ازداد عدد هذه المضخات من مجرد اثنتي عشرة مضخة في سنة ١٩٠٠ الى بضع عشرات منها في سنة ١٩١٤

---

(٩) كان العمل في اقامة سدة الهندية القديمة شرع به في سنة ١٨٨٩ على يد المهندس «شوندرفر» في عهد الوالي مصطفى باشا. وقد جرى الاحتفال بافتتاح السدة الجديدة يوم الجمعة (١٢ محرم ١٣٣٢ هـ تشرين الثاني ١٩١٣) وحضر الاحتفال وكيل الوالي وهو الفريق محمد فاضل باشا والاعيان والامراء وتم فتح الابواب ومن ثم جرى الماء في شط الحلة والقى وكيل الوالي خطابا بالتركية اشاد فيه بالسدة وبالثناء على المهندسين الذين اشادوها ومما ذكره ان هذه السدة لاتكفي لارواء محافظة الحلة الواسعة ووعد بانه سيسعى الى اكمال هذا العمل (عباس العزاوي: العراق بين احتلال ج ٨ ص ٢٤٨).

وفي الوقت ذاته اصبحت وقاية ضفاف الانهار من الفيضانات ، يجري تجديدها كل سنة ، بعد ان كانت هذه الوقاية غير مؤكدة ، ولكثرة النفقات الباهظة التي كانت تنفق عليها ، رغم انها لم تكن فعالة الا بصفة نادرة ، وكانت على الدوام تؤلف عبئاً ثقلا وكانت السدة التي بناها ناظم باشا لحماية بغداد من الغرق قد اخفقت في سنتها الاولى ، ومع ذلك فقد كانت من الاعمال التي لها اهميتها

تميزت السنوات الاخيرة من الحكم التركي للعراق .بظهور تطور صناعي ضئيل فقد حصلت بعض الزيادة في اعمال بناء السفن ، واستعمال مضخات الري ، ومكائن الثلج الصناعي ولاول مرة تطلبت معامل النسيج الصوفي والمشروبات ، توفير التسهيلات اللازمة لتصليح الالات وظهرت اول سيارة في بغداد سنة ١٩٠٨ وكانت قادمة من حلب وفي سنة ١٩١٤ كانت تستعمل في بغداد اقل من عشر سيارات ، وكان من بينها نوع من سيارات النقل التي استخدمت في طريق بعقوبة بالاضافة الى سيارات خاصة كانت تملكها قلة من الافراد المشهورين ولكن الجهود التي بذلت لاستخدام قاطرة لسحب تراموای الكوفة - النجف قد باءت بالفشل

سوف تأتي الاشارة الى صناعة النفط في بلاد فارس المجاورة ، في مكان اخر من هذا الفصل اما في العراق فعلى الرغم من التوسع الذي حدث في استخراج النفط بصفة بدائية ، واقامة مشاريع لتكرير النفط في القيارة ، وفي امكنة اخرى غيرها ، فانه لم يظهر اي مشروع حديث لحقول النفط ومع ذلك فان وجود احتياطي مهم من النفط في ولايتي بغداد والموصل ، كان موثوقا به بصفة جماعية ولقد اكده الزوار الالمان في سنة ١٩٠٧

ولقد بدأت اول حركة في موضوع النفط بتخصيص ارض مساحتها عشرون مترا مربعا على جانبي امتداد سكة الحديد ، وذلك في الاتفاقين اللذين تم التوصل اليهما في سنتي ١٩٠٢ و ١٩٠٣ لمد سكة حديد الاناضول ولقد عاد السلطان واكد مجددا في كانون الاول ١٩٠٣ الارادات التي اصدرها والتي تعلن بأن الخزينة الخاصة هي المالك الوحيد للنفط الموجود في اراضي العراق

وفي شهر تموز سنة ١٩٠٤ اعطي الخيار من قبل تلك الادارة الى شركة سكة حديد بغداد للبحث عن النفط ، فقامت هذه الشركة بتحويل ذلك الخيار الى المصرف الالماني ، ولكن الموضوع لم يتم تعقبه وبعد تجديد الخيار مرتين ، اعتبره الاتراك لاغيا (وان لم يقع ذلك من قبل المصرف الالماني)

وفي الوقت ذاته ، وبعد ان حصل «دارسي» على امتيازه من شاه فارس ، بعث بممثل عنه الى اسطنبول في ذات السنة وهي ١٩٠١ وبعد ثلاث سنوات من المفاوضات والمواعيد الوزارية بمنح امتياز ، قدم دارسي طلبا ثانياً تقدمت به مؤسسته المؤلفة حديثاً باسم «شركة النفط

التركية واذ ذاك تحقق له النجاح في هذا المجال في سنة ١٩٠٨ ، ولكن الثورة التركية تدخلت في الامر

ذلك ان الارادات السلطانية قد حولت حقوق النفط التركية الى الخزينة ، وعندئذ اخطر جميع الذين شاركوا في المفاوضات السابقة ، ان يبدأو بها مجددا مرة اخرى وكان المتفاوضون المتأخرون ، قد ضموا اليهم الان ، مجموعة بريطانية اخرى متشاركة مع «غلبنكيان» ذلك الرجل الارمني التقدمي القدير ، وممثلين عن الاميرال تشستر ، الضابط السابق صاحب المواقف الطويلة في الاتصالات مع تركيا ، والذي اصبح الان مرشحاً للفوز بامتيازات لمد سكك الحديد واستثمار المعادن[10]

لم يلبث الطامعون في استثمار نفط العراق ، وقد اصبح موضوع النفط قضية اساسية وان لم تكن حاسمة ، ان عاودوا الهجوم بعد ان تجمعوا مرة اخرى في سنة ١٩١٠ ، وفي كانون الثاني ١٩١١ الفت جماعة غلبنكيان «شركة الامتيازات الافريقية الشرقية المحدودة» والتي ساهم فيها برؤوس اموال كبيرة كل من «مصرف تركيا الوطني» (وهو بريطاني تم تاسيسه حديثا ، ومصالح شركة شل) والمصرف الالماني ، والمستر غلبنكيان نفسه وفي اواخر سنة ١٩١٢ غيرت هذه الشركة اسمها الى «شركة النفط التركية T.O.C» وبرأسمال مضاعف، حيث وافق المصرف الالماني على ان يحول الى هذه الشركة الافضليات التي اخذ يطالب بها للبحث عن النفط في قطع الاراضي التي تمر سكة حديد بغداد خلالها

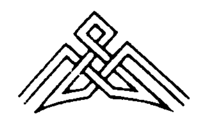
اما مصالح «دارسي» التي اختلطت بشركة النفط الانكليزية الفارسية منذ سنة ١٩٠٩ فقد واصلت ضغطها بغية ترشيحها للمشاركة في شركة النفط التركية ، ولكن لاحقها الفشل مرة اخرى في سنة ١٩١٣ وفي الوقت ذاته وفي اواخر سنة ١٩٠٩ صوتت لجنة البرلمان التركي على منح الحقوق باستغلال المواد المعدنية في الارض المحاذية لسكة الحديد ، والتي تمتد الى مسافة تسعمائة ميل الى الاميرال تشستر ، ومن هنا غدت الحاجة ملحة الى قيام معارضة المانية شديدة ، لاحباط جهود الاميرال تشستر في تحقيق المصادقة على ذلك الامتياز الذي منح له

في سنة ١٩١٣ اصبحت الرغبة في ايجاد مصالحة بين اصحاب الطلبات المتنافسين ، وللمساعدة على الشروع بالعمل ، من الامور الواضحة للجميع وعلى هذا الاساس اضيف اتفاق الماني انكليزي على مستوى دبلوماسي ، الى الاتفاقات الموقعة بين الشركات وعلى هذا الاساس اعيد تشكيل شركة النفط التركية مرة اخرى فقد خصص ربع رأسمالها الى المصرف الالماني ، وربع اخر الى شركة شل ، والنصف الباقي من رأس المال الى شركة النفط الانكليزية الفارسية ، في حين حددت مصالح غلبنكيا فيها بنسبة خمس في المائة ٥٪ من رأس المال

---

(١٠) انظر كتابنا «معركة النفط في العراق ص ١٩٥٢» للاطلاع على مناورات المتنافسين على نفط العراق في ذلك الوقت.

غدا الان مستطاعا تقديم طلب سري الى رئيس الوزراء التركي ، وبدعم من السفيرين الانكليزي والالماني وكانت نتيجة ذلك ان وجه رئيس الوزراء سعيد حليم باشا رسالة الى هذين السفيرين مؤرخة في اليوم الثامن والعشرين من شهر حزيران سنة ١٩١٤ وقد قيل في حينه ان وزير المالية التركي كان قد وافق على ان يؤجر لشركة النفط التركية كل احتياطي النفط الذي تم اكتشافه ، او الذي سيتم اكتشافه في ولايتي الموصل وبغداد ، وان وزير المالية «يحتفظ بالحق فيما بعد في ان يحدد حصة الشركة وكذلك الشروط العامة للاتفاق وعلى اساس هذه الرسالة على وجه الدقة بني اساس الطلب الذي تقدمت به شركة النفط التركية في سنة ١٩٢٣ الى الحكومة العراقية للحصول على امتياز للتنقيب يشمل الاقسام الشمالية والوسطى من العراق(١١)



[illegible] التي ساهمت في تكوين شركة النفط التركية ان تتشبث به بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى هو [illegible] المالية التركي بان يؤجر لشركة النفط التركية كل احتياطي النفط في ولايتي بغداد والموصل. ولما [illegible] محل الحكم التركي في العراق. ونظراً لضعف هذه الحكومة انذاك وشدة الضغوط الانكليزية [illegible] الانكليز الى جانب العراق في قضية الوصل فلم يكن امام الحكومة العراقية من مناص سوى [illegible] النفط التركية بانها حصلت على الامتياز من السلطات التركية ولذلك ابرمت اتفاقية النفط مع [illegible] النفط العراقية قبل ان يصدر قرار عصبة الامم باعتبار ولاية الموصل جزءاً لايتجزأ من ارض [illegible]

٥ . الجيران والاجانب

ازداد الاهتمام من قبل الاجانب، والمصالح الاجنبية في العراق، خلال هذه الفترة، زيادة سريعة تتجاوز ماكان قد سبقها. ويمكن تفسير ذلك بان ذلك الاهتمام كان نتيجة للنشاط المتعاظم الذي ساهم به العراق في الحركة القومية، وفي القضايا السياسية حتى في اسطنبول، وفي المؤسسات التعليمية من امثال الكلية العشائرية، والجامعة الامريكية في بيروت، وماتبع ذلك من دعم تمثل في سكة الحديد، ومشاريع الري التي خططت واصبحت قيد التنفيذ، فضلا عن الاعتبارات الستراتيجية والانمائية التي كانت تشير اليها تلك المشاريع

لقد ادخل الالمان منذ سنة ١٩٠٠، قطر العراق في منطقة توسعهم في بلدان الشرق. ذلك انهم قد اخذوا زمام القيادة بايديهم في اعمال التنقيب عن الاثار التي استمرت زهاء عشرين سنة، والتي قام بها «كولدوي» في بابل، وكذلك المباشرة بالتنقيب في اي مكان اخر من العراق، مما جعل قناصلهم يدعون بان ذلك النشاط كان ناجما عن اهتمام القيصر بصفة شخصية به. وعلى اساس ذلك الادعاء، انشأ الالمان مدرسة لهم في بغداد، ودعوا الاباء الفرنسيين الكرمليين الى تدريس اللغة الالمانية في تلك المدرسة

كما ان الالمان عينوا لهم قنصلا اعتياديا في بغداد سنة ١٩٠٥، وتعيين نائب له في البصرة، ووضعوا الخطط لاقامة حي يسيطر عليه الالمان في المدينة، تقوم فيه القنصلية، ومحطة سكة الحديد، ودائرة الكمارك والارصفة. ومنذ وقت متقدم اخذت السفن الالمانية تصل الى ميناء البصرة ابتداء من سنة ١٨٩٩، وقد تعاظمت اعمال النقل التي كانت تقوم بها هذه السفن الالمانية وتضاعفت بشكل ثابت. ذلك ان خط مواصلات هامبرغ – امريكا، كان قد بدأ اعمال الابحار المنتظمة منذ سنة ١٩٠٦، واعقب ذلك انطلاق وفرة من المسافرين التجاريين، والوكلاء والمقيمين من الالمان، وعلى الاخص شركة «فانكهاوس WANCK HAUS» في البصرة، وظهور البضائع الالمانية في اسواق بغداد. وهكذا ظهر العراق وكأنه في الواقع قد كرس بان يعرض مرحلة من مراحل التغلغل الالماني الكامل فيه

* * *

كانت المشاريع الروسية في العراق مازال تقتصر على مجالات محددة، وغير تجارية. وما ان اخفق الروس في الكويت حتى اتخذوا طريقهم الى احد الموانئ الفارسية املا في الفوز بحقوق لهم هناك. واعداد العدة لمد سكة حديد عبر بلاذ فارس. غير ان الاتفاق الروسي الانكليزي الذي تم التوصل اليه في شهر اب سنة ١٩٠٧ استطاع ان يزيل من تلك المشاريع الروسية، عنصر الخطر على المصالح البريطانية في الخليج العربي

ولم تحاول الزيارات العرضية التي كانت تؤديها البواخر الروسية المنطلقة من ميناء «اودسا» الى البصرة، فتح طرق داخلية جديدة لها الى الاسواق العراقية، ماخلا جلب النفط والاخشاب. ولقد ادهش الضباط البحريون الروس في زياراتهم النادرة لشط العرب، الطائفة الاجنبية هناك. بما كانوا يبدونه من تطبيق ممتاز لانظمة الميناء وخلافاً لذلك وجه القنصل الروسي العام ونائبه في الموصل. اهتمامها بالقسم الشمالي من العراق. حتى وان كان معظم التغلغل الروسي داخل كردستان يتم تنظيمه من منطقة «وان» ومن مدينة «اورميا» التي كان الروس يسيطرون عليها.

وابتداء من سنة ١٩١١ اخذ اغوات الاكراد على الحدود يتطلعون الى مساندة روسيا لهم. ذلك ان السادة الذين كانوا يحكمون في «نهري» والشيخ عبد السلام زعيم بارزان، وزعماء «الجاف» وقساوسة الطائفة الاثورية ورؤساء كل هؤلاء، لم يكونوا الوحيدين الذين كانوا يعملون على توطيد اتصالاتهم مع الروس. ومع كل ذلك فقد ظهر هذا التوسع الروسي الزاحف بانه لايستهدف في الواقع اهدافا محددة ولامباشرة

كان اهتمام الفرنسيين بالعراق منذ القدم، اهتماما ثقافياً، ذلك ان قنصلهم في بغداد راح يثير. بمنتهى الحماسة، الخصومة والعداء اللذين يبديهما الكاثوليك ضد النساطرة في الشمال، ويدعم طوائف الاليانس، والدومنيكان، والكرمليين الذين شرعوا يوسعون بصفة بارزة مؤسساتهم ومنظماتهم الخيرية في الفترة مابين ١٩٠٠ و ١٩١٤، والذين كانوا يستقبلون في الحديقة الفرنسية. او النادي الفرنسي في بغداد، مشاهير المنقبين عن الاثار الذين بدأوا اعمال التنقيب من سنة ١٩٠٣ ومابعدها

وكانت فرنسا بصفتها التجارية ممثلة في العراق بالمصرف العثماني الذي سيطر عليه الفرنسيون ولكن لفترة قصيرة. ولم ينتج اي شيئ من العرض الذي تقدم به الفرنسيون للتعاقد مع الحكومة التركية حول نقل البريد من بغداد الى سوريا، او توصيل «سكة حديد المشرق» الى نهر الفرات

اما اهتمام الولايات المتحدة الامريكية في سنة ١٩١٤، فانه لم يتجاوز المشاريع الخاصة

بارسال بعثات التبشير البروتسنتية، وتطوير المدارس، وتصدير التمور، وعرق السوس الى امريكا، في الوقت الذي اخذت فيه بريطانيا تزيد من اهتمامها وتوطيد اقدامها

ولقد سبق لنا ان وصفنا اهتمام بريطانيا في ميادين الري، والنفط، والتجارة، وتسيير السفن في الانهار. وقد انصب التأكيد بصفة تدعو الى الغيرة، على الاهمية الستراتيجية لجنوبي العراق، والخليج العربي، عندما افسح التهديد الروسي، الطريق امام الالمان، حيث تم بحث مثل هذه التعقيدات على مستويات رفيعة في كل من لندن ودهلي. ذلك ان الزيارات التي قام بها اللورد كرزن لموانئ الخليج العربي في سنة ١٩٠٣ والتصريحات البريطانية التي افضى بها اللورد لانسدن، في ذات السنة، وتصميمه المحافظة على كل الامتيازات التي يتمتع بها المقيم البريطاني في بغداد. كل هذه الامور قد اظهرت مدى القيمة المركزة على ارتباط بريطانيا بالعراق

كانت السفن البريطانية ماتزال تمخر مياه الخليج العربي، وتبعث الحياة والنشاط في المجتمع البريطاني في البصرة، والذي زاد عدد افراده الى الثلاثة اضعاف مما كان عليه قبل تلك الفترة، وذلك بالزيارات التي كانت تقوم بها تلك السفن البريطانية للعشار. فالقنصلية البريطانية التي كمل بناؤها في سنة ١٩٠٣، وكذلك المقيمية البريطانية الجديدة في بغداد سنة ١٩٠٥، كانتا تعتبران من الاعمال التي لها تأثيرها بالنسبة الى المستويات المحلية. وفي سنة ١٩٠٦ اضيف معاون تجاري الى موظفي المقيم البريطاني، كما تم تعيين نائب قنصل في الموصل سنة ١٩٠٨ بعد فترة استمرت مدة عشرين سنة

وكان من بين الزوار البريطانيين للعراق، عشرات من ضباط الجيش الهندي ذوي الاهتمام بالشؤون العربية، من امثال لجمن، وهوبرت يونغ، وترنجارد فول، وهورروثفن، واخرون غيرهم، بالاضافة الى عدد من الكتاب المميزين كان من بينهم عدد من الرحالين الباحثين الموهوبين من امثال المس غرترودبل

وكان من بين البريطانيين المقيمين الخاصين شخصيات بارزة ومهمة من امثال الدكتور ويغرام رئيس البعثة الاسقفية التبشيرية، وارثر تود، من شركة بيت لنج، والنقيب «كولي» من شركة البواخر النهرية. ولكن حتى وان بقيت العلاقات الشخصية مع الباشوات ودية، فان سياسة الملاحظات المزعجة التي تعكس معاداة الاجانب المنطوية على الغيرة والريبة، كان يجري توجيهها في بعض الاحيان ضد المصالح البريطانية. ذلك ان المصادرة من دون تعويض، والرفض المتعمد لحق استعمال القوانين التجارية، والطلبات التي لااساس لها والقاضية بتسجيل الاجور، والاذن للاطباء البريطانيين بممارسة اعمالهم، والمعاملة المهينة للمستخدمين البريطانيين الذين كانوا يجندون للوظائف بين الفينة والفينة، كل هذه الامور كانت من الشواهد على وجود حرب متواصلة من الحقد الدفين

اما رفض المقيمين القناصل البريطانيين، الاصغاء الى شيوخ العشائر او الاشخاص البارزين

الذين كانوا يطلبون الحماية البريطانية منهم، واظهارهم العطف على الحكام العابثين، فان ذلك لم يوفر سوى الشيء القليل للتغلب على الشك الحاصل، وهو ان للبريطانيين تصاميم مخلصة في ولايات العراق. ومع كل ذلك فقد كانت الحياة في العراق بهيجة بما فيه الكفاية بالنسبة الى المقيمين الانكليز، حيث قامت صداقات حميمة وكثيرة بينهم وبين العراقيين.

ولقد قدم المقيمون البريطانيون وقناصلهم، خلال تلك الفترة، مستوى رفيعا من الاخلاص والخدمة التي لاتباري. ففي البصرة بقي «راتسالاف» يعمل قنصلا فيها خلال الفترة من ١٨٩٨ الى ١٩٠٣ وعمل «كرو» في نفس المنصب من سنة ١٩٠٣ الى سنة ١٩١٤ وكان الاثنان من الاصدقاء الحميمين للولاة المتعاقبين. وفي بغداد اشغل العقيد «نيومارتش» منصب المقيم والقنصل العام من سنة ١٩٠٢ الى سنة ١٩٠٦، وكل من العقيد «رمزي» و «لوريمر» من سنة ١٩٠٦ الى ١٩٠٩، ومن ١٩٠٩ الى ١٩١٣ بالتعاقب

ولم يكن هؤلاء الممثلون البريطانيون وحدهم حسب، من موظفي الخدمة العامة المشهورين، ومن الاصدقاء الجيدين للشعب العراقي. ولذلك فقد كانت وفاة السيد «لوريمر» مؤلف كتاب «دليل الخليج العربي» في سنة ١٩١٤ تمثل خسارة فادحة

ولم تتقلص المصالح البريطانية الهندية. فقد استمرت دوائر البريد الموجودة عبر المالك، تثير الاشمئزاز لدى الموظفين الاتراك وحنقهم، وظل وكلاء الزوار الهنود في سامراء وفي الكاظمية، يخدمون رفاقهم الزائرين من ابناء بلدهم، على الرغم من التدخل الرسمي، وشرعت المؤسسات التجارية تعمل على تطوير فعالياتها. وكانت الزيارات التي يقوم بها الاغنياء والعظماء من المسلمين للمدن المقدسة، من الحوادث المشتهرة لدى المجتمعات الهندية التي كانت موجودة في معظم المدن الكبرى في اواسط العراق وجنوبه. غير ان هذه الجماعات، لم يكن لها – ماخلا الاختلاط الجزئي بالسكان – سوى تنظيم اجتماعي ضئيل، وقلة من الافراد البارزين فيها

*

نعود الان الى جيران العراق من العرب والفرس لنقول بان الشيخ مبارك كان في الكويت، يحتفظ بمركز ثلاثي دقيق فهو قائمقام تركي من الناحية الاسمية، وعميل بريطاني مقيد بمعاهدة معها، وحاكم مستقل بصفة فعالة. ولقد عاش مبارك فترة الزيارة المعقدة التي قامت بها لجنة سكك الحديد الالمانية الى الكويت، ورفض ان يقدم لها كل التسهيلات. كذلك زارت السفن الحربية الفرنسية والروسية بلده، بينما كانت البواخر الحربية البريطانية يتم استدعاؤها للقدوم الى هناك بصفة متواصلة

لم تلق المحاولات التي بذلها الشيخ مبارك، لخدمة ضيفه النجدي نافد الصبر، عبد الرحمن بن سعود، واعادته الى وطنه، التشجيع من لدن الحكومة البريطانية كما منعت تلك المحاولات من قبل والي البصرة[1] الذي جرد سعدون باشا شيخ المنتفق من قواته. غير ان ابن سعود ثابر محاولاته الى ان باء بخسران كبير في اذار سنة ١٩٠١ [2] ومن ثم عاش فترة السخط التركي ضده، بفضل الاتفاق الذي تم التوصل اليه بين اسطنبول ولندن، على ان تتمتع الكويت بالامر الواقع [3]

وفي تشرين الاول اخذت قوات ابن الرشيد تهدد الكويت بالهجوم عليها ولكن الهجوم لم يكن متشددا[4] وفي كانون الاول من تلك السنة ضغط الاتراك مجددا، ولكن من دون طائل، لاجبار مبارك على التخلي عن مطالبه في الحصول على مركز خاص له، حيث قامت القوات التركية باحتلال نقاط عند حدود الكويت، وتمت الاغارة على قطعان ماشية الشيخ مبارك، ونهبت داره في البصرة، وصودرت بساتينه في شط العرب

واخيرا في شهر ايلول سنة ١٩٠٢ وقع هجوم على مدينة الكويت نظمه اعداء الشيخ مبارك بمساندة من الاتراك، ولم يتوقف ذلك الهجوم الا بتدخل من البارجة الحربية البريطانية «لوبونغ» ولم تجر بعد ذلك اية محاولة اخرى لطرد الشيخ مبارك او افساد ارتباطاته مع البريطانيين[5]

وفي سنة ١٩٠٤ حرر الاتراك ممتلكات مبارك في البصرة وفي الفاو وفقاً لوثيقة تملك صريحة، وعين وكيل بريطاني في الكويت في تلك السنة ذاتها. اما بالنسبة الى اسطنبول ووالي البصرة فقد بقيا يعربان عن مواقف اكثر صحة حتى سنة ١٩١٤ حيث تم الاعتراف باستقلال شيخ الكويت تبعا لاتفاق تركي بريطاني عقد في سنة ١٩١٣

*

(١) كان والي البصرة انذاك هو «القمندان مصطفى نوري باشا»

(٢) ذاق عبد الرحمن بن سعود هزيمة منكرة على يد ابن الرشيد في معركة «الصريف» والتي شاركت فيها قوات الشيخ مبارك الى جانب قوات ال سعود وقد توجهت القوات الكويتية والسعودية المشتركة لمقاتلة ابن الرشيد ودارت بين الطرفين معركة حامية استمرت خمس ساعات كتب النصر فيها لقوات ابن الرشيد فاضطر الشيخ مبارك ان يعود الى الكويت، في حين الح عبد العزيز السعود على والده عبد الرحمن بان يواصلا الهجوم على الرياض واستوليا عليها ولكنهما خرجا منها بعد ان وصلت اليهم انباء اندحار الشيخ مبارك

(٣) تم التوصل الى هذا الاتفاق في اليوم السادس من ايلول سنة ١٩٠١

(٤) عندما علم ابن الرشيد بالتدبير الذي اعده الشيخ مبارك لاعادة آل سعود الى حكم الرياض وسواها، سارع بالهجوم على اطراف الكويت والحق بعض الاضرار في منطقة «دار عريب» كما قدم ابن الرشيد شكاية الى الدولة العثمانية ضد تصرفات عبد لعزيز السعود المتسمة باثارة الفتن والقلاقل. ولكن الحكومة العثمانية لم تتخذ اي اجراء ضد ابن السعود سوى منعها اياه من الاكتيال الحسا والقطيف وقطع الراتب الذي خصصته لوالده عبد الرحمن

(٥) وذلك بعد ربط الانكليز شيخ الكويت بالعديد من الاتفاقات والمعاهدات.

لم يحل اندحار قوات ابن السعود في اذار ١٩٠١، دون استمرار ذلك الامير المنفي لتلك الاسرة، في وضع الخطط لاستعادة حكمه. فقد كانت الهجمة الشهيرة التي قام بها ولده عبد العزيز بن سعود من الكويت على الرياض في كانون الثاني في سنة ١٩٠٢، ودخوله المدينة ليلا، وطرده جميع حاميات بن الرشيد من كل مناطق «الخرج» و «الحريق»، من الحوادث التي لاتخص تأريخ العراق، غير ان تلك الحوادث قد ادت بشكل ثابت الى اعادة توطيد حكم بيت ال سعود في نجد، ذلك الحكم الذي توسع بعمليات اخرى وجهت ضد امارة حائل من سنة ١٩٠٢ الى سنة ١٩٠٤، وفي تلك العمليات كان الشاب عبد العزيز يمثل والده بصفة متزايدة، باعتباره الرئيس الفعال للدولة. ومع ذلك فان الالتماسات التي قدمها ابن الرشيد الى الاتراك للحصول على مساندة منهم لمجابهة ذلك العدوان، لم تكن من الامور التي يمكن تجاهلها دوما

في اوائل سنة ١٩٠٤ طلب الى قيادة الجيش التركي السادس، بان تقوم من العراق بغزو الجزيرة العربية، وعلى هذا كانت القوة التي تحركت او بدأت زحفها نحو الجنوب الغربي من مدينة «السماوة» في شهر ايار من تلك السنة، انما كانت تهدف انقاذ «حائل» من الهجوم الوهابي. كانت قوات ابن السعود قد اندحرت على يد قوات خصمه، لكن ابن الرشيد مع ذلك رفض ان يسمح للاتراك بالدخول الى مدينة «حائل» اما ابن السعود المندحر، الذي قدم الاعذار المقبولة الى اسطنبول، والتقى مع والي البصرة[٦] فانه قد عين قائمقاما لنجد التي كانت تابعة لابن الرشيد

وفي اواخر سنة ١٩٠٤، وجهت حملة ثانية من العراق، الى نجد، سلم زمام قيادتها الى احمد فيضي باشا الرجل المسن المستهتر. ومع ان تلك الحملة كانت سيئة التنظيم، وغدت ضعيفة لكثرة من فر من رجالها، الا انها وصلت الى مدينة «البريدة» من دون ان تلقى اية مقاومة. واذ ذاك نظم عرض عسكري، ونطق المصلون رسميا باسم الخليفة السلطان، وقد بلغت المهزلة النهائية للادارة التركية ذروتها، عندما شرع بتقسيم واحات اواسط الجزيرة العربية الى اقضية ونواحي تابعة للامبراطورية العثمانية

مكثت القوات التركية التي تحركت من العراق، والتي لم تكن فعالة ابدا، وقد فقدت اعدادا كثيرة من افرادها نتيجة الهرب اثناء مسيرتها الى الكويت والبصرة، نقول مكثت في اواسط الجزيرة العربية حتى الاسابيع الاخيرة من سنة ١٩٠٦ عندما تم انسحابها من هناك. ولقد ظهر فيما بعد، التوصل الى اتفاق مقبول على العيش بسلام في اواسط الجزيرة العربية وفي شرقيها. غير ان ضربة جديدة لاتمام تقويض الامال طويلة الامد التي كان الاتراك يتطلعون اليها لافتتاح الجزيرة كلها، كانت تنتظرهم هناك. في شهر ايار سنة ١٩١٣، كانت القوات التي يقودها عبد العزيز بن سعود، قد احتلت محافظة الاحساء، وقوبلت بالترحاب من افراد القبائل وسكان

---

(٦) كان والي البصره اناذاك هو الفريق مخلص باشا

الواحة على حد سواء الامر الذي ارغم الموظفين المدنيين الاتراك على الانسحاب الى البصرة[٧] واذ ذاك اعلن ابن السعود انه يحتفظ بالاقليم من السلطان ولحسابه كمواطن مخلص، ولكن الاحتلال التركي لم يعد يمكن ان يكون مقبولا مرة اخرى

لقد فقدت البصرة تلك المحافظة، لكن الضربة التي وجهت الى اعتبار تركيا، كانت اشد وقعا، ذلك لان الاحساء لم تتأثر بالاتراك قط، كما ان مشيخة «قطر» التي تم التغاضي عنها، او اعتبرت غير ذات اهمية، ظلت تحتفظ بحامية تركية تعسة، الى ان ازاحتها الحرب. وفي سنة ١٩١٤ تقبل ابن السعود من الاتراك لقب «محافظ نجد والحسا»

* * *

وعن العلاقات العراقية الفارسية نقول بانه كانت توجد على الدوام، دلائل على وجود تجارة المرور بينهما عن طريق كرمنشاه، وقدوم الزوار الفرس الى المراقد المقدسة في النجف وكربلاء والكاظمية وسامراء، اضافة الى النفوذ الذي كان يثير السخط والتذمر الذي كان يتمتع به المجتهدون الفرس. ولقد كان الممثلون الدبلوماسيون الفرس منتشرين في كل مكان من العراق، ويرأسهم قنصل عام في بغداد. وماخلا ذلك، وعمليات النقل الاعتيادية عبر الحدود كان يوجد اتصال جم النشاط، يندر ان يكون وديا، في نقاط اربع على الحدود الممتدة الى مسافات طويلة، ونعني بهذه النقاط، شط العرب، وطريق بشتوكوه، وكرمنشاه، واقليم كردستان

ففي هذه النقاط الاربع كان ينعكس التعمق المأساوي للفساد وللانحلال الفارسيين، وبدايات الجهود التي شرع ببذلها لاصلاحها بعد سنة ١٩٠٥ ففي سنة ١٩٠٧ تم انتزاع وعد من الشاه مظفر الدين، باقامة مجلس نيابي. ولكن خلفه المستبد، محمد علي، بقي حتى تنازله عن العرش في سنة ١٩٠٩، يتجاهل الشعور الشعبي، وحتى مشاريعه الخاصة التي اقسم على تنفيذها. ثم اعقبت ذلك عشرون شهرا من الاضطرابات والتدخل الروسي، وتلت ذلك جهود مضنية بذلها محمد علي للعودة الى الحكم مرة اخرى، وانتزاعه من ولده الطفل، احمد شاه، الذي خلفه على العرش

والى كل المساوىء التي انطوى عليها سوء الحكم في الداخل، والارهاب الذي كان يعم

---

(٧) نشر ابن السعود بيانا برر به استيلاءه على الاحساء فقال ان الدولة العليا، غصبت من اباتي هذا اللواء بدون امر مشروع بحجة دعوة عبد الله السعود شقيق والدي، وبعد ان اخذته لم تحسن اليهم صنعا، وكان والدي يومئذ ولي العهد بعد والده على امارة نجد التي يدخل فيها هذا اللواء ومايتبعه، وعمان وسواحله... (عباس العزاوي العراق بين احتلالين ج ٨ص ٢٣٦ ومابعدهما) وقد ارسلت الحكومة التركية وفداً الى ابن السعود كان من اعضائه السيد طالب النقيب وانتهى الوفد الى المصالحة واقر بان يدفع ابن سعود عشرة في المائة من واردات الاحساء والقطيف الى الدولة العلية واعلن ولاءه وطاعته وقبلت الدولة هذ الحل على مضض (تطور حكم العراق تحت حكم الانغاديين ص ٢٢٥ تأليف فيصل محمد الارحيم ط ١٩٧٥).

الاقاليم، يجب ان يضاف ايضا سوء التصرف الذي كان يمارسه البيت المالك المتهرئ، والمنهمك في جمع المال، وكذلك الجار الشمالي الذين كانوا يتوثب للاعتداء

ولم يكن حكام العراق ولاجماهيره يدهشون الا قليلا، حين يفكرون في جيرانهم الشرقيين، اي الفرس، الذين كانوا يغرقون في بحر من المآسي والبؤس، كان العراق يبدو بالنسبة اليه، فردوساً حقاً. ففي شط العرب راحت الحكومة التركية تصر بصفة متزايدة على ان تسيطر سيطرة تامة على هذا النهر الذي ادعت بان معاهدة «ارضروم» قد ضمته اليها. ولقد تضاعفت الشواهد على تفاقم اعمال التهريب، والتملص من تنفيذ اوامر الحجر الصحي، وتعاظم الاضطراب المجاور.

وفي الوقت ذاته واصل الشيخ خزعل، حاكم المحمرة اظهار تفوقه على ممثل الحكومة الفارسية، او المقيم الفارسي في بلاطه، والسيطرة على جنوبي عربستان برمته. ولقد ازدادت عاصمته، بعد سنة ١٩٠٠، حجما ورخاءاً بفضل الدعم الذي وفره استثمار النفط، والتجارة النشطة واستتاب الامن المحلي بصفة جيدة، الامر الذي اجتذب الشركات البريطانية، والفارسية، والالمانية. كذلك ضاعف الشيخ خزعل من صداقاته مع شيوخ مزارع الشلب في العمارة الذين كانوا يعيشون في المنفى عنده، وتحالف مع السيد طالب النقيب في البصرة، ومبارك شيخ الكويت

وعاش الشيخ خزعل الخصومات والمنازعات الحادة مع ولاة البصرة المتعاقبين الذين اصابهم السخط والانزعاج لما كان يتمتع به من استقلال ورخاء. واحبط التدخل البريطاني، تجاوز الاتراك على اراضي الشيخ خزعل في منطقة «الحويزة» حين قصفت المدافع التركية قصره. وكانت علاقات الشيخ خزعل مع طهران، يشوبها الشك الذي يثير الغيرة، في حين كانت صداقته مع طلائع المنقبين عن النفط غير مستحبة. وكان اولاد الشيخ خزعل وكذلك اولاد سكرتيره «الحاج الرئيس» يدرسون في احدى المدارس التبشيرية الغربية في البصرة

* * *

قبرت الخطة التي اعدت لمد سكة حديد عبر بلاد فارس الى الخليج العربي. وحين لم تعد هذه الخطة تخضع لتصرف الروس كليا، فقد تم اختيارها مجدداً على يد «شركة البحوث الانكليزية الفرنسية الروسية» التي وضعت مشروعا لقسم السكة الذي يسيطر عليه الروس من القفقاس الى طهران، بالاضافة الى اقسام اخرى يسيطر عليها البريطانيون من طهران حتى سواحل الخليج العربي. ولقد تمت مناقشة هذه المشاريع في مجلس العموم البريطاني في سنة ١٩١٢

وفي الوقت ذاته وضعت مشاريع اخرى كلها بريطانية بما فيها مصالح شركة بيت لنج لمد سكة حديد الى جنوبي بلاد فارس تنتهي اما بالمحمرة او في «خور موسى» ولقد تم انجاز اعمال

المسح التفصيلية لهذه المشاريع، على يد ضابط شاب كان يعمل في الجيش الهندي، هو الملازم «ارنولد. ت. ولسون»[٨] وذلك عبر منطقة تقطنها العشائر الهمجية

كانت امثال هذه التهديدات الموجهة ضد سيادة البصرة، الميناء الرئيس على الخليج العربي، تتبارى مع التطورات التي كانت تجري في عربستان. في شهر ايار سنة ١٩٠١ حصل «وليم نوكس دارسي» وهو انكليزي اصاب له ثروة في استراليا، على امتياز من شاه فارس للتنقيب عن النفط في المناطق الوسطى والجنوبية من بلاد فارس كلها. وبعد مرور ثمانية عشر شهرا من اعمال المسح الجيولوجي، بوشر بالتنقيب عن النفط، في «كيا سرخ» وهو موقع اصبح يقع داخل الاراضي الفارسية، طبقا للحدود التي تم الاعتراف بها فيما بعد، بالقرب من قصر شيرين، على طريق خانقين — كرمنشاه

وعلى الزغم من مصاعب النقل والتموين وتدخل افراد العشائر والموظفين، فقد تم استخراج كميات غير تجارية من النفط في ذلك الموقع في اوائل سنة ١٩٠٤ ولما كانت هذه الكميات لاتبرر مد خط لانابيب النفط الى المحمرة، فقد تم التخلي عن ذلك الموقع، اي «كياسرخ» وحيث ان ذلك التخلي لم يعق «دارسي» عن مواصلة نشاطه، فقد نقل نشاطه وعمليات التنقيب الى اقصى الجنوب في اقليم «بختياري» والذي تمر الطريق الموصلة اليه عبر المحمرة ذاتها

لم تكن البئر التي حفرت في احدى الجبال ناجحة. واخيرا، وحين كان «دارسي» يوشك ان يتخلى عن المشروع كله، تفجر النفط في منطقة «مسجدي سليمان» وذلك في اليوم السادس والعشرين من شهر ايار سنة ١٩٠٨ اعقب هذا النجاح تأليف شركة النفط الانكليزية الفارسية[٩] في سنة ١٩٠٩، وتم اختيار الموضع الذي ستقام فيه المصافي في جزيرة «الخضر» او «عبادان» المقفرة الجرداء، التي تقع على شط العرب، والى بضعة كيلومترات جنوبي المحمرة

كانت الفترة التي مرت بها «عربستان» من سنة ١٩٠٩ حتى ١٩١٤، ذات نشاط مكثف كان له تأثيره الذي اصبحت البصرة تحس به بشكل ملحوظ. ذلك لان اول المنشآت النفطية قد كملت في سنة ١٩١٢ وحين انفجرت الحرب العالمية الاولى، كان تصدير النفط يتم بمعدل

---

(٨) هو الحاكم السياسي الانكليزي العام في العراق اثناء الاحتلال الانكليزي وصاحب النشاط السياسي الواسع في الخليج العربي والمؤلفات القيمة الخطيرة عن الخليج العربي وبلاد فارس والعراق. ورغم تقاعده وكبر سنه فقد التحق ولسون بالجيش البريطاني خلال الحرب العالمية الثانية وقتل في احدى الغارات الجوية التي قام بها الطيارون الانكليز على المانيا المعتدية وهكذا يكون الاخلاص للوطن وللامة

(٩) انظر تفاصيل المؤامرة التي حاكتها الاستخبارات البريطانية «انتلجنس سرفس» لخداع «دارسي» واستحصال امتياز نفط الاحواز منه. حيث اصبح هذا النفط كله احتكاراً للحكومة البريطانية والشركات الانكليزية المساهمة معها من سنة ١٩٠٩ حتى حركة مصدق سنة ١٩٥٠. وذلك في كتابنا «معركة النفط في ايران المصادر في سنة ١٩٥١، ولقد اصبحت امريكا بعد اسقاط مصدق عن الحكم في سنة ١٩٥٣ هي المسيطرة على القسم الاعظم من نفط الاحواز، اذ كانت لها سبع حصص من مجموع الكونسرتيوم المؤلف من تسع شركات.

ربع مليون طن في العام الواحد. ولقد ادى هذا التطور الى زيادة الاهمية الستراتيجية للخليج العربي، وممرات شط العرب، وجنوبي العراق زيادة جوهرية. في ربيع سنة ١٩١٤، وبمبادرة من السر ونستون تشرتشل اصبح للحكومة البريطانية النصيب المسيطر على شركة النفط الانكليزية الفارسية، وبذلك غدت العلاقات بين شيخ المحمرة، والشركة، ودية بشكل ثابت

اما منطقة «بشتوكوه» الحدودية فقد بقيت العلاقات اعتيادية في ميدان الخصومات بشأن القضايا العشائرية، وقضايا الرعي هناك، بالاضافة الى قضايا الماء المشتركة في «مندلي»، ودائرة الكمارك في بدرة.

لم يشأ والي بشتوكوه، غلام رضاخان، الذي كان يتظاهر بالورع ذلك البخيل الجشع، الذي ازداد ثراء، وحصل على بيت له في بغداد، الا ان يدعم الادعاءات الملحة بالعرش التي كان يطالب بها «سلار الدولة» نصف العتوه، وشقيق محمد علي شاه، الذي ابعد عن عرشه في سنة ١٩٠٩ كانت التصرفات الدموية المتعبة لهذا الامير تؤلف في الواقع، القسم الرئيس من منطقة الحدود التي تحادد طريق كرمنشاه والمحمرة، وذلك في السنوات الخمس الاخيرة من وقتنا الحاضر ذلك ان ظهوره كل سنة على مسرح الحوادث، واغراءه بعض عشائر الحدود، وتهديداته لكل من كرمنشاه والمحمرة وعكوفه على اعمال السلب، والغدر، والعيش المضني في تلك المنطقة المعتصرة من الريف، قد اصبحت من الامور الاعتيادية في ذلك الاقليم الخصب البهيج. ومع ان سلار الدولة لم يستطع ان يندفع ضد القوات الرسمية التي يتزعمها الامير «فرمان فرما» التي تمثل الحكومة المركزية والعائلة الملكية، فان الامير فرمان لم يقدر هو الاخر ان يوطد الامن في الريف او ان يطرد سلار الدولة منه. وكان المنقبون عن النفط من جماعة دارسي، من بين الذين عانوا كثيرا من الاضطراب العام في المنطقة. وذلك لانه كان يتم اغلاق الطريق بصفة مستمرة، وتتكدس البضائع في بغداد، ولاتستطيع قوافل الزوار ان تتحرك

ولقد اضافت ادعاءات «سلار الدولة» اشارة اضافية الى الانقسامات المعتادة والحروب بين العشائر الكردية الفارسية، ووقوع الغارات واعمال الالتجاء التي كانت تقوم بها القبائل العراقية الكردية من امثال الهماوند، وزنكنة، والجاف والطلباني. ولم يلبث رؤساء هذه العشائر، ان انضموا الى الحكومة بقوات تم تجميعها وتوجيهها ضد ذلك المطالب التعس بالعرش، والذي لم يتم اقناعه بمغادرة كردستان، الا بمشقة ظاهرة في سنة ١٩١٤، ومع ذلك فقد ظهر مرة اخرى عند الحدود العراقية

* * *

وفي اقصى شمالي العراق تكررت الغارة الكبيرة التي قام بها الشيخ عبيد الله (١٠) في سنة ١٨٨٠ ذلك لان اخر ازمة بشأن الحدود والتي ثارت حول «وزنة» في سنة ١٨٨٩، لم تتم تسويتها بعد. وفي سنة ١٩٠٦ واصلت القوات الفارسية الاستيلاء على اراضي كان الاتراك قد طالبوا بها وفقا للشروط الغامضة التي تضمنتها معاهدة سنة ١٨٤٧ (١١)

وادي التمزق الداخلي الذي اصاب بلاد فارس، وساعدت عليه الرشاوى، الى فتح الباب امام غزو تركي تم الاعداد له طويلا للاستيلاء على المنطقة المتنازع عليها. فقد شاركت الافواج الحميدية، والقوات النظامية، والعصابات العشائرية في ذلك الغزو، حيث تم احتلال كل من «سردشت» «بانه» وتهديد «اورميا»، وتدمير السهل الذي يحيط بها

غير ان الهجمات الفارسية المضادة التي قام بها الامير فرمان فرما قد حالت دون تقدم الاتراك. ولكن في سنة ١٩٠٧ اطبقت قوات تركية قوية، كانت قد رفضت الانصات الى احتجاجات الحكام الفرس، على مدينة «صاوج بولاق»، ولم يتم انقاذ هذه المدينة من السقوط الا بالضغط الذي مارسه الممثلون الانكليز والروس معا، واذ ذاك انسحب الاتراك الى مسافة ما عن المدينة، وعن مدينة «اورميا» ايضا

ولكن في سنة ١٩٠٩، اثار وضع محمد علي شاه، والحالة الميؤوس منها في بلاد فارس، مطامع الاتراك مرة اخرى، فعادت قواتهم مجددا الى احتلال المنطقة المتنازع عليها، وتم زرع الحاميات التركية في مناطق «قوتور» و «خوي» وسلماس، ومرغوار، وترغوار وبرادوست. اما مدينة «صاوج بولاق» فقد تم احتلالها باعتبارها جزءا من شريط واسع وعميق من اراضي حدودية، لم تكن مهما كانت الادعاءات القديمة اراضي تركية منذ بضعة اجيال

ولكن الاتراك اخفقوا في اخضاع الاكراد التابعين الى فارس. في مناطق. مريوان و «هورمان» وان كانت هذه مناطق سنية، وتغلغلوا قليلا بين القبائل الشيعية التي تقطن في اقليم كرمنشاه. ولقد اعطي الرحالون الاوربيون في ذلك الوقت صورة زاهية لتجمع القوات التركية من الاناضول في نقاط الحدود، وللمشاكل والصعاب التي كان ضباط الحدود يعانونها في الوصول الى ذلك الموقع، مدفوعين بحميتهم الوطنية، رغم انهم كانوا يجهلون جهلا تاما تاريخ تلك المناطق واوضاعها الجغرافية

كان مستطاعا تجنب مثل هذه الحوادث على اكثر احتمال، باستعمال الطرق الدبلوماسية بدلا من الحروب الواسعة. ولهذا وجدنا ان قضية الحدود هذه اصبحت الان تؤلف الاهتمام المباشر

---

(١٠) المقصود به الشيخ عبيد الله الشمزيناني الذي سبقت الاشارة اليه

(١٠) هي معاهدة ارضروم التي تم التوقيع عليها في ٣١ ايار ١٨٤٧ والتي تقاسمت بموجبها كل من حكومتي طهران واسطنبول مناطق النفوذ في الاحواز وبعض الاقسام الشرقية من العراق (انظر شاكر صابر الضابط): العلاقات الدولية «ومعاهدات الحدود بين العراق وايران. ص ٦٣ ط ١٩٦٤

للبريطانيين، وذلك نتيجة وجود النفط في «كياسرخ» وعلى ضفاف شط العرب، ومن هنا اصبح التصرف البريطاني الروسي المشترك منذ سنة ١٩٠٧، ايسر من ذي قبل. فلقد نجحت هاتان الدولتان في سنة ١٩١٢ في بعث لجنة الحدود الفارسية التركية التي مضت على تأليفها في اسطنبول خمس وستون سنة. فلقد تقرر في سنة ١٩١٣ تجديد تلك اللجنة بانضمام كل من بريطانيا وروسيا الى عضويتها، حيث تم التوصل الى اخراج نسخة «الهوية الذاتية» القديمة بمشقة بالغة، وسمت كل دولة اسماء ممثليها، واستطاع البريطانيون - ببعد نظرهم - ان يحققوا احد المشاريع الذي يقول بانه اذا ماتم تحويل احدى الاراضي الفارسية الى تركيا فينبغي ان تحترم حقوق «وليم دارسي» النفطية في تلك الاراضي المحولة. ولم يلبث ممثلو الدول الاربع ان اجتمعوا في مدينة المحمرة في شهر كانون اول سنة ١٩١٣، وقد مثل بريطانيا في ذلك الاجتماع كل من «راتسلاف» و «ارنولد ولسون»

سارت اعمال اللجنة لتخطيط الحدود في امان ملحوظ، واشتمل خط الحدود الذي تم تثبيته على انسحاب تركيا من معظم اجزاء المنطقة التي احتلتها مؤخرا، ولكن خصصت لها مقابل ذلك قطعتين من الاراضي في منطقة خانقين - مندلي وفي شمال «سروان»[11] وهي المنطقة التي عرفت فيما بعد باسم «الاراضي المحولة».

وصلت البعثة بعد ذلك الى جبل ارارات في اواخر شهر ايلول ١٩١٤ وقد برهن عملها على مساهمة مهمة في موضوع العلاقات الفارسية التركية، وفي تثبيت الحدود العراقية الفارسية عن طريق وضع الاعمدة الاسمنتية ورسم الخرائط المطلوبة لها. ولم يستطع انكار الفرس، بعد عشرين سنة من توقيع ذلك الاتفاق، ان يؤثر في الثقة بتلك الحدود والتي بقيت مقبولة حتى سنة ١٩٥٠.

---

(١١) «سروان» هو الاسم الذي يطلق على القسم الشمالي من نهر ديالى الحالي ومايزال الاكراد يطلقون هذا الاسم على نهر ديالى كله حتى الان.

الفصل الثالث

الحرب والاحتلال البريطاني للعراق

١ ـ منتصف صيف سنة ١٩١٤

٢ ـ الحرب في الاقسام الواطئة من العراق

٣ ـ عراق البريطانيين والاتراك خلال ١٩١٥ ـ ١٩١٦

٤ ـ الكوت ـ بغداد ـ الموصل

٥ ـ الادارة البريطانية اثناء الحرب سنة ١٩١٧ ـ ١٩١٨

١ ـ منتصف صيف سنة ١٩١٤

كانت الحوادث التي وقعت خلال الفترة من ١٩١٤ الى ١٩١٨ ، قد احدثت في عدد قليل من بلدان العالم تغييرات اعظم مما احدثته في العراق ذلك لان العراق الذي انفصل عن الامبراطورية العثمانية بعد اربعة قرون ، قد شهد الان تغييرا تمثل في صفة الحاكم المتسلط عليه ، من مسلم شرقي ، الى مسيحي غربي ، كما تمثل في بروز روحية وتأثير في ادارته ، يختلفان اختلافاً عميقا ، وفي تقبله لتأثيرات حضارية معززة تعزيزا واسعا في المجتمع والسياسة ، وفي فرص اقتصادية جديدة انه عالم متغير ذو وضع متحول ، ومشاكل حديثة في الشؤون الدولية ، وفي الدخول في غمرة فيض من الشهرة الاوربية ، والمطابقة التفصيلية مع شعوبه ، ومواقعه واوضاعه

ومع ذلك فان الاقسام المتأخرة من سكانه ، وهي تؤلف الاغلبية ، كانت تريد ان تترسم خطى حياة لم تتغير الا نسبيا ، في حين استمرت المشاكل الاقتصادية والسياسية في العراق ، تضع العوائق امام الحلول التي لم يتم ابتداعها الا بعد مرور اكثر من جيل

ومن اللحظة التي وقعت فيها هذه البدع ، التي لم تكن منظورة ولا متوقعة ، حتى هذا التأريخ ، برزت تأملات محددة اشتملت على مقارنة الواقع المحسوس مع مايمكن تحقيقه

بلغ الوضع بالشعب العراقي وبحكومته في منتصف صيف سنة ١٩١٤ درجتهم، اصبحت فيها الشرور التي اوجدها انعدام الامن ، والانحطاط ، والفقر ، مما يمكن مشاهدته بيسر ، ووصفه بما فيه الكفاية ولكن كانت هنالك ايضا ، وبصفة اقل وضوحا ، اسس طيبة للتفاؤل. فاذا ماتم تطوير العشائر قليلا فان المجتمع المدني ، لابد ان يتقدم بكل وضوح تحت تأثير التعليم ، او التمدن النسبي الذي كان يظهر نافعا عند الموازنة

في ميدان السياسة التي كانت محصورة في اقلية صغيرة كانت القومية العربية ، قد اصابت لها مركزا ثابتا ولسوف تسود حقا ، في حين بدأت ارتباطات الحركة القومية بامثالها في كل من سوريا ومصر ، بداية طيبة. على ان هذه القومية ، لايمكن لها عند قسم رفيع من العوائل السنية والبيروقراطية العثمانية ، ان تحول دون ظهور عواطف مؤيدة للاتراك ، ومخلصة للطرق القديمة

وماعدا الحركة القومية ، كانت عناصر اخرى قوية في العراق تعادي الحكومة على هذه

الشاكلة. وكانت هذه العناصر على وجه التأكيد تقاوم كفاءة الحكومة في اي مجال يمكن استغلاله فقد كانت العشائر، تتطلع الى امكانية الحصول على حكم قد يهيي لها توفير مياه الري، وضمان اسواقها، ووقف المصادمات الدموية فيما بينها، ومعالجة امراضها ولكن الدولة وبصفة اكثر من العامة، بقيت هي البعبع البعيد المقيت، المتدخل، في حين كان العدو بالنسبة الى شيوخ العشائر، يتمثل في اي تقدم قد يحصل على حساب سلطاتهم وحياتهم

ومع كل ذلك، وفي الفترة التي سبقت سنة ١٩١٤، كان الميل واضحا نحو تشديد سلطة الحكومة، وهي عملية كانت ممكنة بل ومؤكدة لان تستمر في ظل الشكل الجديد للادارة الذي بدأ في سنة ١٩٠٩ ذلك لان مثل هذه الادارة، وان كانت غير حصيفة، واكثر مركزية، الا انها كانت حيوية، واكثر تحضرا من اية حكومة عثمانية سبقتها ذلك لانسجامها الاداري، حتى في الفترة المعقدة المرتبكة التي مرت من سنة ١٩٠٨ حتى سنة ١٩١٤، كان يحتوي مظاهر موثوقا بها. فقد وجه اهتمام افضل نحو التعليم، والخدمات الصحية، وتخطيط المدن وقد ادخل التحسين على قوات الدرك (الجندرمه) وغدت شرطة المدن كاملة، واعيد تنظيم الجيش، وعدل النظام القضائي في جزء منه. كما ظهر بان الاتفاقات الدولية التي عقدت خلال سنتي ١٩١٣ و ١٩١٤ بين تركيا وبريطانيا والمانيا قد ازالت الكثير من العقبات التي كانت تقف في طريق التطور

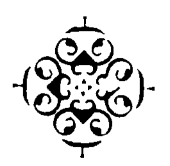
وبالنسبة للتطور كان هنالك في الواقع، مجال لآمال طيبة فعلى الرغم من وجود كثير من المشاكل التي لم تحل بعد، من امثال تحسين الزراعة، واستخدام المياه، وتسوية الاراضي، الا ان بداية طيبة كانت قد بدأت بالنسبة لاعمال الري كما ان مشروع سكة حديد بغداد قد كمل اعداده مؤخرا ولقد تحسنت الملاحة النهرية هي الاخرى وفقاً للترتيبات التي طبقت في سنة ١٩١٣ وكان افتتاح المناطق الانتاجية، والاسواق من شأنه ان يشجع التجارة والزراعة، ولربما يساعد على ايجاد الصناعة ايضا، حيث تم اعطاء وعد بمنح امتياز لاستثمار النفط في ولايتي بغداد والموصل، الى فرقاء قادرين قدرة جيدة على استغلاله ان تم العثور عليه

وهكذا فان المراقب الحصيف الذي كان ينظر الى العراق في منتصف صيف سنة ١٩١٤ لابد له ان يتنبأ بمستقبل لزيادة استغلال الموارد والمواصلات ذلك لان وجود مثل هذه المشاريع الموجهة من قبل حكومة غيورة تحررت في النهاية من الضغط الدولي، يمكن ان تنتج درجة من الثروة اللازمة لصيانة قوى اكثر قوة تستطيع ان تفرض الامن وان تهتم بتحسين الخدمات المدنية، وان تعالج في الواقع الشرور البارزة في الادارة

ذلك لان المجتمع لابد وان يتقدم حتما نحو مستويات ارقى وحركة القومية المحلية كانت مستعدة للظفر باسس اخرى لتوجيه الوضع الممتاز بل حتى الحكم الذاتي، داخل الامبراطورية غير ان الانفصال التام للاقاليم العربية عن الامبراطورية، لم يكن مرغوباً فيه لانه

لايلق الدعم لامن القوات المسلحة ، ولايحظى باي عطف خاص من اوربا ، على النحو الذي كانت تتمتع به اقاليم البلقان المسيحية ولايمثل وحدة الهدف بين العرب

ولكن التصرف الذي اقدمت عليه المانيا في اثارة الحرب العالمية في شهر اب سنة ١٩١٤ ودخول تركيا في تلك الحرب ، قد ادى الى اكتساح كل تلك الاعتبارات والامال بصفة نهائية والى الابد



٢ ـ الحرب في الاقسام الواطئة من العراق

كان تدخل القوات البريطانية المسلحة في العراق سنة ١٩١٤ يمثل ضربة غير متوقعة اطلاقاً فلقد تم اضعاف الجيش الهندي ، نتيجة التكتيل الذي شرع به منذ الاتفاق الانكليزي الروسي الذي عقد في سنة ١٩٠٧ والواقع كان ارسال لواء من الجيش الى مصب شط العرب قد اعتبر، الى حد ادنى في المؤتمر الذي عقده رؤساء الاركان في «سملا» عملية معقولة ، ولكن لم يتم التخطيط لها بصفة جدية

ذلك لان جميع القوات الهندية التي يمكن توفيرها من الهند ذاتها ، كانت قد ارسلت الى فرنسا عند اندلاع نيران الحرب كما كان يخشى على الدوام من الاصطدام بتركيا بالنظر لما يثيره مثل هذا الاصطدام من خوف لدى الهنود المسلمين . وكذلك فان الاستيلاء بصفة عملية على اراضي تقع على نهر الفرات او دجلة لم يؤخذ بنظر الاعتبار في اي وقت من لدن الاوساط البريطانية المسؤولة

لم تكن القيمة العسكرية المباشرة لارسال حملة «الفاو» او «البصرة» مقررة ، بل كانت توجد في الواقع اسباب كثيرة لمقاومة مثل هذه الحملة ولكن هناك مناقشات مناقضة لمثل هذا النقاش فحتى قبل ان تعلن الحرب كان موقف الاتراك في العراق معاديا بصفة جلية اذ تمت مصادرة الممتلكات البريطانية من دون ادنى مبالاة وغادر الجواسيس الاتراك والالمان الى بلاد فارس لاثارة العواطف المعادية للاجانب وراح اولئك العملاء يتطلعون حتى الى فصل شيخ المحمرة عن فارس

كذلك تمت تعبئة الجيش وتجهيزه ، واعلنت الاحكام العرفية ومع ان تحركات القوات التركية كانت متجهة بصفة رئيسة الى الشمال نحو الاناضول ، الا ان الانباء قد ذكرت بان تلك القوات قد تحركت جنوباً ايضا ، اي الى البصرة. كان هنالك سبب للخوف من ان وجود القوات التركية المتمركزة في رأس الخليج العربي سوف تؤدي اذا ما تحققت شراستها وتركت من دون تصد، الى اضعاف مركز بريطانيا هناك وتقضي على الشيوخ الخاضعين للنفوذ الانكليزي في كل من المحمرة والكويت ، وحتى السعوديين الى درجة ما، وان تشجع العناصر المحرضة في فارس والتي يمكن استخدامها من لدن الالمان في الواقع ، بمثابة تهديد مقلق ، للهند ذاتها

حصلت خلال شهور اب وايلول وتشرين اول مشاورات مكثفة بين لندن ودلهي ، تبودلت فيها وجهات النظر العسكرية والسياسية البريطانية والبريطانية الهندية ولقد تم التركيز فيها على التفكير المتزن الحكيم الذي يتمتع به السر برسي كوكس الذي اصبح الان يشغل منصب وزير الخارجية في حكومة الهند ، بعد خدمة استمرت مدة اثنتي عشرة سنة في الخليج العربي

اخذ الاحساس لتأييد فكرة ارسال حملة عسكرية الى العراق ، تتنامى قوته ببطء ، وباتفاق الآراء او بالحماسة ، كما تعاظم التأكد من احتمال دخول تركيا الحرب وفي اليوم الثاني من شهر تشرين الاول ، تم التوصل الى قرار حاسم في الموضوع كانت مهمة قوات الحملة ، هي حماية المنشآت النفطية في عبادان وتشتمل في الوقت ذاته ، على احتمال انزال تعزيزات عسكرية ودعم الحكام العرب

ابحر لواء من الفرقة السادسة (فرقة بونا) وفق اوامر مختومة تحت امرة اللواء و. س. ديلامين وذلك في اليوم السادس عشر من شهر تشرين الاول ، وقد وصل هذا اللواء بعد اسبوع من تحركه الى البحرين. وبعد اسبوعين تحركت نقليات هذا اللواء الى الشمال. غدت الحرب مؤكدة في اليوم التاسع والعشرين من تشرين الاول حيث تم اعلانها في اليوم الخامس من تشرين الثاني. وقد اعلن السر برسي كوكس ، باعتباره الضابط السياسي الرئيس لتلك القوة بان الحكومة البريطانية ليست في نزاع مع العرب القاطنين على ضفاف شط العرب ، طالما اظهر هؤلاء انفسهم بانهم اصدقاء.ولكن بريطانيا اضطرت نتيجة العدوان التركي الى اتخاذ مثل هذه الخطوة لحماية اصدقائها ومصالحها

وفي فجر اليوم السادس من تشرين الثاني تم اسكات المدافع التركية في حصن «الفاو» من قبل المدافع البحرية البريطانية،واذ ذاك نزلت القوات البريطانية في عبادان وسرعان ماتم تعزيزها لكي تصل بصفة متقدمة الى مدى فرقة واحدة تحت قيادة الفريق السر باريت. ادت المقاومة التركية الى اتخاذ عملين شديدين في كل من «سيحان» و «الساحل»[1] في اليومين الخامس عشر والسابع عشر من شهر تشرين الثاني ولقد اخفقت المحاولات التركية لاغلاق «شط العرب» عن طريق اغراق بعض السفن فيه ، من بينها السفينة اقليد البحر[2]

---

(١) وقعت معركتان بين القوات البريطانية والتركية:الاولى في سيحان التي كانت تقع على بعد اربعة اميال الى الغرب من معسكر السنية الذي عسكرت القوات البريطانية فيه ، في حين كان الاتراك يتمركزون في بلدة الساحل وفي منطقة «كوت الزين» بينما كانت القوة التركية الرئيسة في البلجانية الى الجنوب من الساحل،وقد اندحرت القوات التركية في هذين الموضعين الامر الذي مهد لتقدم الانكليز نحو البصرة واحتلالها

(٢) اغرقت اربع سفن هي اقليد البحر ، العثمانية واكبتانا الالمانية و «جعفري» العائدة الى «اغاجعفر» احد اثرياء البصرة وجون اوف سكوت البريطانية ، وذلك في شط العرب شمال جزيرة دبة «ام الخصاصيف»وجنوبي جزيرة الشمشومية على بعد ثلاثة اميال ونصف من مصب نهر كارون (حميد احمد حمدان التميمي البصرة في عهد الاحتلال البريطاني من ١٧٩ هـ ١٩٧٩) .

بقيت البصرة مكشوفة وتم الدخول اليها في اليوم الثاني والعشرين من شهر تشرين الثاني [٣] وقضي على اعمال النهب والحرق المتعمد فورا فاستتب الامن ورفع العلم البريطاني ولوح البارزون والاهالي باشارات الترحيب، ولم يلبث السر برسي كوكس ان اذاع مرة اخرى في بيان له بان اي اذى لن يصيب السكان المدنيين، ولسوف يحترم العدل والحرية، وان القوات البريطانية ستتصرف باهتمام وصداقة ثابتتين،وعلى هذه الشاكلة بدأ الاحتلال البريطاني للعراق

تم انجاز اهداف قوة الحملة الهندية (د) بصفة تامة فتمت حماية عبادان، ودحرت القوات التركية، وتم ترويض الشيوخ الاصدقاء•فهل كانت هذه هي النهاية؟ ليس هناك اي قرار يعتبر امرا طبيعيا اكثر من البقاء بحزم في البصرة وفي ضواحيها وان لايجري اي تقدم عسكري اخر، ولكن نتيجة لضعف المقاومة التركية، واملا في رفع قيمة الاعتبار البريطاني، ابرق آمر المكتب السياسي [٤] في اليوم الثاني والعشرين من تشرين الثاني الى نائب الملك في الهند يقول له بانه وجد"ان من العسير علينا ان نرى كيف نتجنب الاستيلاء على بغداد"(والواقع ان اغراء بغداد بقي متواصلا الى ان تم الاستيلاء عليها في شهر اذار سنة ١٩١٧) ليقود الجيش الى اندفاعات ومغامرات لم يشر اليها الدور الجوهري الذي كان يقوم به، ولو ان ذلك الامر لم تحدد صيغته بجلاء نتيجة الانقسام الحاصل بين مجالس وزارة الحرب، والخارجية ووزارة الهند، ونائب الملك والقادة المحليين

كانت معلومات القيادة العسكرية بالاوضاع الراهنة في العراق ضعيفة، ذلك لان ضباط استخباراتها والضباط السياسيين لديها لم يكونوا على المام تام باوضاع البلد، مثلما كان عليه السر برسي كوكس كما حدث استخفاف بقوة الجيش التركي، ولم تنكشف النواقص الموجودة في ماكنة الحرب الهندية الا بصفة تدريجية ولكن مثل هذه الاعتبارات لايمكن ان تفسر النقص القوي في تحديد اهداف قوة الحملة الهندية (د) بصفة دقيقة فلغرض دحر الجيوش التركية الالمانية، كانت مساهمة هذه الحملة منذ بدايتها وحتى نهايتها غير متعادلة لامع ثمنها ولامع الخسائر الفادحة التي وقعت

وفي الوقت ذاته فان اول اقتراح بالتقدم نحو بغداد، كانت قد رفضته كل من لندن ودلهي وفي الاخير تم الاستيلاء على القرنة، والقي القبض على والي البصرة «صبحي بك» وموظفيه واغرق الزورق القديم المزود بالمدافع (مرمريس» ثم اعقب ذلك الاستيلاء على بعد اميال قليلة

---

(٣) تحركت السفينتان البريطانيتان اسبيكل واودن الى البصرة في حدود وقت الظهر وكانت دائرة الكمرك تحترق بعد ان سارع الناس الى نهب مافيها من اموال ثم انزلت مجموعة من جنود البر في دائرة الكمرك وبعد ان اطلقت السفينة اسبيكل مدفع الامان، اذ ذاك سارع رئيس البلدية بتكليف رجل، ربما بايعاز من البريطانيين، راح ينادي باسمه في الشوارع بان البصرة قد احتلتها القوات البريطانية وان هذه القوات قد التزمت بالمحافظة على الامن فيها (المصدر السابق ص ١٨٦).

(٤) هو السر برسي كوكس

من الاراضي الواقعة غربي البصرة وشمالها ، بما في ذلك منطقة «الشعيبة» ولو ان الاقتراح الطموح بالتقدم نحو الناصرية والسيطرة بذلك على منطقة المنتفق، قد تم رفضه

وجدت بداية السنة ١٩١٥ ، القوات البريطانية وقد وطدت اقدامها بصفة ثابتة على ضفتي شط العرب اما بالنسبة الى حكومة مدينة البصرة ، وضواحيها ، فقد تم تعيين حاكم عسكري ، يعاونه احد الضباط من دائرة الخدمة القنصلية في المشرق ، هو ريدر .و. بولارد ، وكيل القنصل في البصرة ، بصفة مستشار مدني

ادخلت «الروبية» الى المدينة ، وتم جلب قوات هندية وصومالية ، والاتصال بالشخصيات البارزة من اهالي البصرة والارياف ، الذي بادروا بارسال برقيات الترحيب الى الملك جورج. م الخامس[٥] كذلك قام نائب الملك في الهند ، اللورد هاردنغ بزيارة البصرة في شباط ١٩١٥ واتصل السيد طالب النقيب[٦] بالضباط السياسي البريطاني الرئيس عن طريق الشيخ خزعل في شهر تشرين الاول ليعرض خدماته عليه مقابل الاعتراف به اميراً على البلاد ، ولكن اقتراحه هذا تم رفضه ولم يعد يرى مرة اخرى في العراق ، الا في سنة ١٩٢٠

رافق كثير من المواطنين وكل الموظفين تقريباً الاتراك المنسحبين من البصرة ، ومع ذلك فقد انشئت صداقات مع (شيخ الزبير»[٧] ورجال العشائر الذين يعيشون على ضفاف الانهار اما «عجمي السعدون» الذي كان يتنقل في اطراف الصحراء فقد عرض خدماته ، لكنه رفض ان يظهر نفسه ، وراح يساوم، واخيرا آثر الانسحاب. فيما بعد ليصبح حليفاً لانفع به لدى الاتراك

ظهرت في اوائل سنة ١٩١٥ دلائل تؤكد بان الاتراك لايمكن ان يتقبلوا الغزو البريطاني بيسر. وانهم يستطيعون – باجراءات مضادة – ان يوجهوا ضرباتهم باتجاه الجنوب في نهر دجلة حتى مدينة القرنة ، وفي نهر الفرات نحو مداخل «الشعيبة» بل وحتى الى عربستان عن طريق مهاجمة حقول النفط وخطوط انابيبه. وكانت الخطة الاخيرة هي التي وقع الاختيار عليها، ولذلك

---

(٥) «لقد تباينت مواقف وجهاء البصرة من الاحتلال فهناك من ساندوا التغيير او الدور الجديد الى درجة ان بعضهم ارسل برقية تهنئة للملك جورج الخامس ودفع معونة مالية للصليب الاحمر البريطاني بينما وقف البعض الاخر موقف المتردد منه (المرجع السابق ص ١٩٠).

(٦) اقترح اللورد كرومر في مذكرة مؤرخة في ١٦ نشرين اول ان يتم الاتصال بالسيد طالب النقيب واستعماله عميلا كما ذكرت المس بل في احدى رسائلها بان من اليسير شراء السيد طالب النقيب لانه يميل نحونا جيداً» حيث قدم المقيم البريطاني في الخليج مقترحات بهذا «الشأن (انظر IRAQ1908 -- 1921 BYGHASSANATIYYAH: 1973).

(٧) هو ابراهيم عبد الله ابراهيم الذي اقر الانكليز وجوده في منصبه ذاك ، والحقيقة ان شيخ الزبير هو محمد المشري الذي عينه العثمانيون بعد اغتيال «خالد العون» في سنة ١٩٠٧ وقد كان اثناء الاحتلال في الشامية ولما عاد محمد المشري الى البصرة بعد تراجع العثمانيين ، ابعده البريطانيون قبل معركة الشعيبة مباشرة (حميد احمد حمدان البصرة في عهد الاحتلال البريطاني في حاشية ص١٨٩).

ولقد بقي ابراهيم العبد الله يحكم الزبير الى ان تم اعلان هذه البلدة «ناحية» تابعة للبصرة وعين لها مدير ناحية حيث تم القضاء على سلطة ابراهيم بعد استدعائه بالقدوم الى بغداد في عهد [illegible] الهاشمي الاول .

تم افساد ولاء قسم من قبائل عربستان من مواطني المحمرة ، فقطعت خطوط انابيب النفط ، واذ ذاك تحركت قوة بريطانية صغيرة وتمركزت في مدينة الاحواز ولكن كان لابد من مرور اسابيع من القلق الحاد ، وارسال المزيد من القوات ، قبل ان يتم الاستيلاء على الاراضي النفطية

اما في جبهة الشعيبة ، حيث اوجدت فيضانات الربيع اقسى المصاعب بالنسبة الى التموين فقد تواردت الانباء في شهر اذار عن هجوم محتمل تقوم به القوات التركية ومساعديها من العرب واصبح هذا الهجوم وشيكا في اوائل نيسان ، وفي اللحظة التي تم فيها انزال الفرقة الهندية المؤلفة حديثا في البصرة ، وهي الفرقة الثانية عشرة، كانت معركة الشعيبة التي استمرت اربعة ايام من اليوم الثاني عشر ، الى اليوم الخامس عشر من شهر نيسان ، من المعارك الحرجة الميؤوس منها.وقد انتهت هذه المعركة بانسحاب الاتراك ، الذين طحنهم حلفاؤهم العرب طحنا واسعا ، مما ادى الى انتحار القائد التركي «سليمان بك العسكري»

وابتداء من اليوم الثامن من شهر نيسان اعيد تنظيم قوة الحملة الهندية (د) في صفة فيلق (فيلق الجيش الهندي الثاني) تحت قيادة الفريق السر جون نكسون كانت الاوامر التي نقلت الى الفريق نكسون تقضي بان «يسيطر على ولاية البصرة وتلك الاجزاء من الاراضي المجاورة التي قد تؤثر في امنها ، وان تضمن سلامة حقول النفط وخطوط انابيبه ومصافيه وان يضع الخطط لاحتلال فعال ولتقدم اخر نحو بغداد»

بدت هذه الاوامر ، في نظر قائد يعتمد عليه اعتماداً فائقاً ، غير قابلة لتجاوز الهجمات المحدودة التي سوف تدفع بقواته الى اماكن اكثر عمقاً داخل العراق ، وتحقيق الاغراض السياسية التي يتوخاها السر برسي كوكس بما في ذلك السيطرة على العشائر الكبرى ، وعلى العراق

وفي شهر نيسان بعث الفريق نكسون برتل يقوده العميد «غورنج» الذي استطاع بعد ثلاثة اشهر ، ان يعيد الوضع الى ما كان عليه في عربستان، وان يعاقب الثائرين من رجال القبائل وتلا ذلك بان وجه الفريق نكسون ، في شهر ايار ، اللواء «طاونزند» والفرقة الهندية السادسة المزودة بوسائل نقل محسنة في الانهار كان على القوارب التي اعدها «طاونزند» ان تتقدم بمساندة بحرية نحو الشمال من القرنة التي تحيط بها الاهوار، وكان هدفه من وراء هذه الحركة هو الوصول الى مدينة العمارة.ولقد نجحت هذه العملية نجاحا باهرا ، نتيجة الانسحاب المخبول الذي قام به الاتراك، وبذلك تم الاستيلاء على مدينة العمارة في اليوم الثاني من شهر حزيران ١٩١٥ وحينذاك وباذن متردد فيه من «سملا» اصدر الفريق نكسون اوامره الى قوة يقودها العميد غورنج باحتلال مدينة الناصرية.ولقد كملت هذه المهمة في اليوم الخامس والعشرين من شهر تموز ، وبعد كفاح بطولي ضد الحر واوضاع الاهوار حيث ادى ذلك الى احتلال المثلث الذي يتألف من الفاو

والعمارة والناصرية ، في حين تم ترك الفيلق الثاني موزعا ، وعلى حدة من مواقع خطوط مواصلاته،في خمس مجموعات رئيسة في البصرة والقرنة ، والاحواز ، والعمارة،والناصرية

في هذه المرحلة وبهذه الدرجة من الانتشار ، استطاع هذا الفيلق ، بل كاد ان يحقق سيطرته وتموينه ولكن كان هناك الشيء الكثير مما ينبغي الاقدام عليه ذلك ان مسائل الاعتبار ، واغراءات احتلال بغداد ، قد حملت الجيش على مواصلة التقدم على الرغم من كل الاعتبارات العسكرية الاساسية.ولقد كان من بين هذه الاعتبارات هو الرد المباشر على الفشل الاخير الذي احاق بالانكليز في معركة «غاليبولي»[٨] كما كان يعود قسم اخر من تلك الاعتبارات الى التوقع بانه ليس من المستحيل حدوث احتلال روسي

كان وزير شؤون الهند الذي مايزال هو المسؤول عن حرب العراق ، قد حمل على ان يوافق على زيادة في خطوط المواصلات تبلغ مائة وخمسين ميلا ، كانت تعتبر ضرورية للوصول الى الكوت ، و «علي الغربي»والى مفرق الغراف – دجلة. بدأ طاوزند في اليوم الاول من شهر ايلول بتركيز فرقته ولواء الخيالة السادس في «علي الغربي» فوق العمارة،فوصل الى موقع «الصناعيات» واستولى عليه،وبذلك حقق انتصارا حاسما في اليومين ٢٧ – ٢٨ من ايلول على قوات «نور الدين بك»[٩] وعزز ذلك الانتصار بتعقب القوات التركية بكل حماسة ، عبر منطقة الكوت وماجاورها ،حيث وصلت قواته الى «العزيزية» في اليوم الخامس من شهر تشرين الاول

في غضون ايام قلائل وبعد تبادل البرقيات مع الهند ولندن، تم التوصل الى القرار الحاسم في محاولة الاستيلاء على بغداد دون مزيد من الضجيج والجعجعة،بعد ان تم توفير وسائل النقل الوافية. ومن دون اية تحفظات كمل التركيز باتجاه العزيزية في اليوم الرابع عشر من شهر تشرين الثاني في ذات الوقت الذي تم فيه،وبدون علم طاونزند،نقل فرقتين تركيتين جديدتين تحت قيادة «خليل باشا»[١٠] من غاليبوي الى العراق ، في اعقاب انسحاب القوات البريطانية هناك ، حيث وصلت هاتان الفرقتان الى العراق لتعزيز الجيش السادس التركي الموجود فيه

اضطرت الفرقة السادسة الهندية بعد تقدمها ونجاحاتها الاولى،واخيرا انتصارها اللامع في «المدائن»،الى التراجع مرغمة بطريق «اللج» و «العزيزية» الى مدينة الكوت ، وفقاً لما ذكره التاريخ العسكري البريطاني الذي كتبه اعتباطا كتاب آخرون. وصلت القوات البريطانية

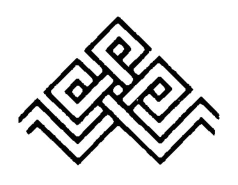
---

(٨) معركة غاليبولي غاليبولي في الاصل شبه جزيرة تمتد داخل البحر زهاء خمسين ميلا على مضيق الدردنيل وقد وقعت معركة غاليبولي وهي من اشهر معارك الحرب العالية الاولى بين الانكليز والاتراك،في سنة ١٩١٥ وتكبد فيها الانكليز خسائر بالغة .

(٩) نور الدين بك تولى القيادة العامة للقوات التركية في العراق قبل قدوم خليل باشا وعمل معه ، نقل الى قيادة جبهة القفقاس وذلك بعد ان اعترض على تسليم قيادة العراق الى القائد الالماني فوز دور غولتز باشا

(١٠) خليل باشا من مشاهير قادة الترك في الحرب العالمية الاولى اشترك في محاربة الروس في القفقاس ومن ثم عين قائدا عاما للقوات التركية في العراق.نجح في محاصرة الانكليز في الكوت وارغمهم على الاستسلام بعد ان رفض الرشوة التي عرضوها عليه لقاء ذلك،ومقدارها مليونا باون ذهب

المتراجعة الى الكوت في اليوم الثالث من شهر تشرين الثاني و بدلا من التراجع بصفة اكثر، فقد طلب الى طاونزند او الى قواته الضعيفة المتعبة،بوقف التراجع والاحتفاظ بمدينة الكوت. بدأ الآن حصار الكوت[11] واستمر هذا الحصار مائة واربعين يوما حتي اليوم التاسع والعشرين من شهر نيسان سنة ١٩١٦،وانتهى باستسلام الحامية البريطانية من دون قيد او شرط.



---

١١ دملنا ترجمه احدث واربع كتاب صدر مؤخرا عن حصار الكوت لمؤلفه السيد رسل برادون الذي وضعه بعنون «الحصار» صدر هذا الكتاب في جزء واحد كبير محلي بالصور النادرة وقامت بطبعه ونشره (دار احياء» التراث العربي ببغداد سنة ١٩٨٥.

٣ ـ عراق البريطانيين والاتراك خلال ١٩١٥ ـ ١٩١٦

كان وقع المسرح العراقي وشعب العراق على الغزاة ، غير ملائم بصفة عامة فلقد تأثرت القوات من جميع الاصناف ، بعزلة الصحراء التي تثير الاشمئزاز ، وبالفقر والقذارة الطاغيتين في القرى ذلك ان المستويات الواطئة من الحياة ، والصنوف المتدنية من البشر التي واجهتها تلك القوات، فجعلتها تحكم عليها بأنها كانت اناسا من الكسالى والشحاذين واللصوص المتذللين والديوثين الذين كانوا يشاهدون في اطراف المعسكرات الانكليزية

ولم تتأثر هذه الانطباعات بالعمال المغايرين بدنيا والتابعين لفيلق العمال العرب الذي تم تأليفه على وجه السرعة ، ولا بحراس حوانيت الاسواق الطامعين ، والابتزاز المجرد من الخجل والقاتل في الغالب ، وتمزيق جثث القتلى في ميادين المعارك بأيدي افراد العشائر الساكنين على ضفاف الانهار

لم يتيسر لاحد ، عدا الضباط السياسيين ، الالتقاء بالعناصر الطيبة والمواطنين المحترمين ، ورؤساء العشائر او القرى الذين ظلوا يتمتعون بصفاتهم من الاحترام الشخصي والمرح والذكاء، وان بقوا، مع الاسف الشديد ، غير معروفين الى الاغلبية الساحقة من افراد القوات فاذا لم يكن الجندي الهندي ورفيقه المسلم ، معروفا بصفة خاصة لدى سكان الجنوب من العراق ، فالضابط والجندي البريطانيان يكونان غريبين كلية بالنسبة لاختلاف طرائقهما وامزجتهما ووقعهما ، ومستوياتهما عن الجنود الاتراك

وعندما تتجمع الواجبات او المصالح المشتركة في الاداة النهرية مع الفرقاء المتعبين ، او في اجتماعات المقاهي بأشكال جيدة من العنصرين سوية ، سرعان مايسهل قيام علاقات ودية ، ولكن مثل هذه الحالات كانت جد نادرة فقد ثبت عدم الادراك والردع الذاتي المشتركين بين الجيش والسكان ، دوامهما بصفة مؤسفة ، حتى لو تصرف افراد القوات المسلحة تصرفا حسنا ، ودفعت مبالغ وفيرة لكل السلع والخدمات ولم تكن الرقابة صارمة، ومن ذلك اسكان الجنود في المدن ، واتخاذ اجراءات الحصار لحماية التموينات من غارات العدو ، وفرض الاجراءات الصحية ، والحجر الصحي الشديد ، والسيطرة على الحركة والسفر ، وانشاء الطرق عبر القنوات ، والتلف الذي تلحقه الاجراءات العسكرية بالحاصلات وبالبساتين ، كل ذلك كان من الامور المحزنة المتواصلة .

وفضلا عن ذلك فان الاتصالات الاولى بالادارة المدنية الوليدة[1] التي كان يديرها السر برسي كوكس ، ومساعده المخلص الذي لايكل ، السيد ارنولد ولسون ، قد طغى عليها انعدام اي تأكيد بأن الاحتلال سيكون دائما فما ان تأثر البريطانيون بالحذر وبالشكوك الصادرة عن الفرنسيين ، حتى كان صمتهم عن هذا الامر ، يعتبر مقدمة فعالة لتعاون نابع عن قلوب العراقيين فقد يعود الاتراك الان ولكن كثيرين بل ان معظم البارزين من سكان المدن والعشائر ، بدا عليهم بأنهم كانوا راغبين في اظهار افضل تعاون يمكن توجيهه ويكون مفيدا الى درجة قصوى[2]

لم تكن الحماسة الخالصة والمجربة لدى الضباط السياسيين القادمين والتي تعتبر من اغرب المفارقات ازاء اسلافهم الاتراك ، قد احدثت ادنى ضرر بالمجتمعات التي لم تتعود الطمأنينة التي حصلت مؤخرا او التطلع الى اعمال السلب ثانية او الاعمال التي كانت تثيرها الدعاية التركية فلقد كانت هناك ارتال تقوم باعمال تأديبية كثيرة وغير ناجحة في بعض الاحيان ، وذلك لاقتناص المعتدين والمذنبين وفي الوقت ذاته كانت الدوائر السياسية المقيدة ، سيئة التجهيز ، تغص بالكتبة من الهنود ، وتطفح بأصحاب الالتماسات ، وتشهد منذ الصباح حتى الليل قضايا التصرف بالاراضي ، والايرادات والامور العشائرية، والمحاكمات الاجرامية ، والقضايا البلدية ، ومهام الشرطة والمحاولات الجبرية لمواجهة الطلبات العسكرية المتزايدة للحصول على المعلومات ، وبطاقات التجول ، والعمل والتجهيزات

ادى احتلال مدينة العمارة الى ادخال البو محمد ، وبني لام داخل نطاق الادارة الجديدة

---

(١) من بين الموظفين البريطانيين الذين عملوا مع كوكس وولسون في خدمة الادارة المدنية في العراق خلال السنتين ١٩١٥ – ١٩١٦ ، كل من نوكس في القسم القضائي ، والاطباء بوري وسكوت ، القسم الطبي ، وكذلك واتكنس في الكمارك وغريسون في الشرطة ، وضم قسم الضباط السياسيين كلا من بارتيت ، ودكسون ، وادمونز ، وفاول ، وهولاند ، وليجمن ، ومكنزي ، ومكفرسون ، ومارس ، ونويل ، وفلبي وفي سنة ١٩١٦ انضم الى هذه الادارة كل من فوربس للقضاء ، والاطباء بشوب ، وفنج وود (القسم الطبي)، وجرارد وبرايت للشرطة وويكفورد لمطبعة الحكومة ، وولسن للقضاء التجاري ومن بين الذين عملوا في الواردات كل من دوبس ، وغاريت ومارس بعض الضباط السياسيين مهمات متنوعة منهم كل من بلومفيلد ، وبولارد ، وغولدسمث ، وغرين هاوس ، وهايلز ، وهول ، وماكي ، ونواري ، وسون وغوردون ، ووكر ، وولسون ، والمس غرترود بل وكان هؤلاء الضباط السياسيون تابعين اما لادارة الهند او السودان او المشرق ، او الخدمات المعنوية السياسية ، او البيوتات التجارية التي كانت موجودة في العراق قبل الحرب (من امثال بيت لنج وغري مكنزي) وغيرهما

(٢) استطاع جواسيس الانكليز الذين طافوا بالعراق قبل الحرب العالمية الاولى بسنوات ان يوثقوا علاقاتهم الودية ويغدقوا الاموال الوفيرة على رؤساء عشائر الفرات الادنى والاوسط بشكل خاص وان يضمنوا تعاونهم مع الجيش البريطاني الغازي وكان في مقدمة هؤلاء الجواسيس العقيد ليجمن الذي زار العراق عدة مرات خلال الفترة ١٩١١ – ١٩١٣ ، والمس بل التي طافت بالعراق بحجة البحث عن الاثار فيه سنة ١٩١٠ وحين دخل الانكليز العراق كان جواسيسهم يسبقون تقدم القوات الغازية ويمهدون لها الطريق ، وذلك بالاتصال باصدقائهم القدامى من رؤساء العشائر ورجال الدين ، الامر الذي سهل على القوات الانكليزية احتلال الاقسام الجنوبية من العراق بصفة واضحة

التي كانت مطبقة في الناصرية اخذت العلاقات تتوطد بالتدريج كان كثير من زعماء العشائر يخجلون من الاتصال بحكومة مسيحية مستحدثة وقد استنكر البعض منهم مثل ذلك الاتصال ، ورفض الاذعان لتلك الحكومة في المتفق كانت زيادة السيطرة بطيئة وشاقة ولذلك تم ترتيب نوع من العيش بسلام بين رؤساء آل السعدون وفلاحيهم الاعتياديين ، فبرزت عن ذلك اداة بسيطة للادارة ، وشرع بجمع الايرادات ، واصبح مستطاعا اقامة حكومات ادارية في الارياف يديرها مدراء من افراد العشائر انفسهم ، وحوصرت العداوات المريقة للدماء ، وجندت قوة من شرطة الهجانة كانت مقدمة لقوات المرتزقة في العراق[٣]

ولم يقع في البصرة او القرنة مايعكر الطمأنينة فيها اما في الصحراء فقد اصبحت قبيلة «الضفير» مسؤولة عن مسيرات الحدود ، وقد تم استدعاء «ابن الرشيد» من قبل السر برسي كوكس لكي يطبق الصلح ،لكنه فضل ان يظل يدور في الفلك التركي

وشرع في منطقة العمارة بتطبيق نظام المقاطعات الزراعية ، وذلك لعدم وجود اية تغييرات يمكن اتخاذها هناك ، وتم فرض الضرائب بنوع من الفطنة

وبعد احتلال مدينة الكوت شرع باجتذاب الشيوخ الذين كانوا موالين للاتراك ، الواحد منهم تلو الاخر ، وذلك بعد ان حصلت تغييرات حاسمة في المواقف، وبقي «والي بشتكوه» يحتفظ بالحياد الخاضع للمراقبة ، في حين كانت قبيلتا «زبيد» و «ربيعة» في حالة انتظار للاحداث

بقيت العلاقات مع الشيخ خزعل قوية وودية ، وقد اعيدت له سلطته القبلية التي تعرضت لهزات عنيفة في اوائل سنة ١٩١٥ اما «مبارك» شيخ الكويت الذي ظل مخلصا للانكليز حتى النهاية فقد توفي في شهر تشرين الثاني ١٩١٥ وقد تنازل ولده «جابر» الذي خلفه لمدة سنة واحدة ، عن الرئاسة الى اخيه «سالم» الذي تطلب موقفه الموالي للاتراك ، وجود قوات بريطانية في الكويت

وبالنسبة الى عبد العزيز بن سعود فقد تم ارسال بعثة حسن النوايا كان يمثلها النقيب شكسبير من الادارة السياسية الهندية ، وذلك عند اندلاع نيران الحرب ولكن هذا المبعوث قتل في حادث مأساوي خلال معركة وقعت بين آل سعود والرشيد في شهر كانون الثاني ١٩١٥ ولذلك انشغل ابن سعود بالتمرد الذي حدث بين افراد القبائل الخاضعة له وفي شهر كانون الاول سنة ١٩١٥ تم التوقيع على معاهدة اعتراف وصداقة متبادلين بين ابن سعود والحكومة

---

(٣) قوات المرتزقة هي القوات التي شكلها الجيش البريطاني لدى دخوله العراق واكمال احتلاله والتي عرفت باسم قوات «الليفي» وكانت اولى هذه القوات قد تألفت في الناصرية من افراد من ابناء العشائر ، ومن قوات «الشبانة» القديمة،ثم فتح الباب على مصراعيه امام الاثوريين للانضمام الى هذه القوات التي لعبت دورا فعالا في توطيد السلطة البريطانية ، وعندما اقدم غلوب باشا على تشكيل الجيش او الفيلق العربي في الاردن ، التحق بهذا الجيش عدد كبير من افراد القوات المرتزقة وعلى الاخص من ابناء الناصرية وغيرهم ، وتجنس البعض منهم بالجنسية الاردنية -.

البريطانية وكان السر برسي كوكس هو الذي نظم تلك المعاهدة وفي شهر تشرين الثاني ١٩١٦ وبعد استعراض حكومي في «البصرة» قرر البريطانيون منح ابن السعود كمية من الاسلحة ، وهبة مالية تبلغ ستين الف باون كل سنة

واذ قرر ابن السعود تأجيل التسوية مع ابن الرشيد فقد كان ينظر بعين الشك الى الثورة والادعاءات التي اظهرها امير مكة الطموح ذو الفكر الثاقب ، الحسين بن علي غير ان ابن السعود نفسه ، ولاسباب نابعة من السياسات العربية ، لم يشارك في الحرب

ادى تراجع الاتراك الى انتقال كبار الموظفين من جنوبي العراق ، الامر الذي جعل الذين يمارسون اعمال النهب ، والممتنعين عن دفع الضرائب ، يقدمون على اتلاف السجلات الحكومية ولذلك كان على الادارة الجديدة ان تبدأ من لاشيئ وكان استبدال اللغة التركية باللغة العربية يتطلب الاحتفاظ بالكثير من اشكال الاجراءات التركية التي كانت سائدة ، بما في ذلك قضايا تخمين الايرادات لانه كان يتعذر وجود ماهو افضل منها

كان يجري استيفاء الرسوم الكمركية بنسبة عشرة في المائة عن جميع مدخولات السلع المدنية وقد بقي الفصل في قضايا الاجرام في يد الحاكم العسكري والضباط السياسيين ومساعديهم

من بين الشروط التي الغاها قرار تركي نشر في كل انحاء الامبراطورية التركية اثر اندلاع نيران الحرب قرار يقضي في ذلك الوقت بعدم الحاجة او السؤال اما بالنسبة الى القضايا التي تقع بين رجال العشائر، فقد تم تطوير قانون خاص هو نظام المنازعات العشائرية» الذي ظل ساري المفعول لسنوات عديدة وكانت القضايا المدنية تجري معالجتها على يد محاكم انشئت حديثا في مراكز متتابعة ، ويتم تنفيذها باللغة العربية كذلك تم انشاء تشكيلات للشرطة ، وللشرطة المحلية تحت اشراف الضباط البريطانيين في كل من العمارة والناصرية اما قوات «الجندرمة» التي عرفت باسم «الشبانة» فقد ظلت تطبق الاوامر تحت اشراف الضباط السياسيين ، وتمارس مختلف الخدمات في المدن الصغرى والارياف الواقعة على ضفاف الانهار

كانت قوات الشبانة في منطقة العمارة ذاتها قد تألفت من الشيوخ البارزين انفسهم اما في القرنة والاهوار فلم يكن افراد الشبانة هؤلاء من ابناء العشائر وفي الناصرية وسوق الشيوخ اضيفت الى قوات الشرطة فيهما تشكيلات من الخيالة العشائريين تحت امرة القيادة العسكرية بصفة مباشرة

ومثل هذا الاهتمام تم بذله حسب المستطاع ، وفي وقت مبكر ايضا ، نحو المتطلبات الصحية حيث تمثل في صفة مستوصفات ومستشفيات تقوم بخدمة السكان المحليين ، وكذلك الاصرار على التمسك بالامور الصحيه والسيطرة على التزود بمياه الشرب في المدن ، واتخاذ الاجراءات المضادة لمرض الملاريا والامراض الوافدة الاخرى

وتم في البصرة انشاء مصلحا [illegible] للانباء حيث تم اصدار صحيفة باللغتين العربية والانكليزية [٤]

واقدم المصرفان الشرقي والعثماني الامبراطوري على فتح فروع لهما في مدينة البصرة ، وسرعان ما اعقبهما في ذلك المصرف الفارسي الامبراطوري [٥] وبدأت في سنتي ١٩١٥ و ١٩١٦ مدارس ابتدائية قليلة تمارس اعمالها وقدمت الهبات الى مدرسة التبشير الامريكية في البصرة [٦] وكذلك الى المدارس التي تديرها الاقليات المسيحية واليهودية هناك

غير ان الاحتلال البريطاني لم يكن في هذه المرحلة ليشمل سوى اجزاء صغيرة من العراق اما بقية الاجزاء فقد بقيت تحت اشراف الحكومة التركية التي تعاظمت عسكريا وفظاظة ووهما فقد غادر بعض المقيمين الاجانب في بغداد قبل اعلان الحرب الى كل من البصرة والمحمرة وبقيت الطائفة البريطانية مصونة غالبا عندما انفجرت الحرب ، ولم يلبث الرجال من افرادها ان غادروا الى سوريا حيث استطاع جمال باشا والي بغداد السابق والمعروف بصفة شخصية لدى معظم البريطانيين ، بتدخله ان يضمن اطلاق سراحهم من دون ادنى قيد او شرط في حين عاد البعض منهم الى العراق ، وكان من بين هؤلاء المقدم سون وارثر تود اللذان عادا الى البصرة عن طريق مصر ، [٧] اما النساء البريطانيات فقد مكثن في بغداد حتى شهر اذار ١٩١٧ حين تم ارسالهن الى اسطنبول ليبقين فيها بقية ايام الحرب

ولقد تعرضت المصالح الاجنبية وكذلك مصالح معظم العراقيين الممتازين لخسائر فادحة ، نتيجة القيود المفروضة واعمال المصادرة الشديدة والاغتصاب الذي يندر ان يدفع اي تعويض عنه وازداد سوء معاملة الاتراك للسكان ، تبعا لتعاظم الحركة القومية العربية فأشتد الاتراك في سخطهم نتيجة عدم مبالاة العرب ، او سوء موقفهم ازاء المجهود الحربي الذي

---

(٤) هي صحيفة «الاوقات البصرية» Basrah Times التي صدرت باسم سليمان الزهير وبقيت تصدر لمدة خمس سنوات الى ان حلت محلها جريدة الاوقات العراقية Iraq Times التي اصدرتها شركة انكليزية في شهر ايار ١٩٢١

(٥) المصرف الشرقي والمصرف العثماني وكذلك المصرف الفارسي كلها مصارف انكليزية بحتة ، وان كانت تحمل اسماء تحيل الى من يقرأها او يسمعها انها تعود الى الدولة العثمانية او الحكومة الفارسية

(٦) هي مدرسة الرجاء التي التحق بها عدد كبير من البصريين كان من بينهم يوسف سلمان يوسف (فهد) مؤسس الحزب الشيوعي العراقي في سنة ١٩٤٠ وبهجت العطية مدير الامن العام في اواخر العهد الملكي وكان الاثنان يدرسان في صف واحد في تلك المدرسة

(٧) كان المقدم سون قد عين اثناء الحرب ضابطاً سياسيا للسليمانية والمعروف عنه انه امضى اربع سنوات متنكرا في تلك المنطقة من كردستان وكانت له علاقة وثيقة بزعماء عشيرة «الجاف» الكردية وقد وضع كتابا مهما عن مشاهداته واختباراته هناك بعنوان «رحلة تنكرية الى كردستان» ترجمه فؤاد جميل في جزئين وشحنه كعادته بالفاظ نابية واستشهادات سخيفة .

كان حكامهم يبذلونه فقد تم حل «اللجنة الحرة»[٨] في سنة ١٩١٦ واوقفت اعمال البعثات التبشيرية الاجنبية ، الكرملية منها واليهودية والبروتستنتية في بغداد والدومنيكية في الموصل،وفرض الحظر على نشاطها وتم فرض التجنيد بشدة على الطبقات التي كانت معفاة منه قبلا ، واوجدت التعبئة العامة ، المزيد من المصاعب الكثيرة

وتم تعزيز الاعلان المبكر للحرب المقدسة ضد الكفار ، من لدن جميع الوعاظ في اي مسجد يعود الى طائفة السنة ام طائفة الشيعة ، يستطيع الاتراك التأثير فيه وتم خلق احساس شعبي او ديني الا انه كان ضعيفا ولفترة قصيرة في مدينة البصرة خلال سنة ١٩١٥ ولكن هذا الامر برهن على انه ممكن في ظل مثل هذا التنكر ، وذلك بتعبئة بضعة الاف من افراد العشائر المتعطشين الى اعمال السلب ، من اواسط العراق ، ويضع مئات من جنوبي كردستان وانضمامها الى القوات التركية التي كانت تقاوم في الشعيبة وفي عربستان[٩]

ولقد كانت القوة الحربية لهؤلاء غير ذات بال ، وكان نتاجها عبارة عن حدة اضافية بين الاتراك والعرب ، وفشل مشروع الجهاد بصفة نهائية ذلك ان رجال العشائر عادوا الى اهليهم مطمئنين بعد ان تأكدوا ان هربهم لم يعرضهم للاذى على ايدي البريطانيين المحتلين بصفة مؤقتة ذلك ان كثيرا من شيوخ العشائر قد بدلوا ولاءهم عدة مرات – اذا كان حسدهم ، وتصرفاتهم العقيمة في التشبث تستحق ان تذكر – وهكذا استمر الاتراك يغدقون المنافع على عجمي السعدون وابن الرشيد ، ويحرضون الرجال في اواسط الفرات على مقاومة الغزاة الكفار ولقد جوبهت هذه الجهود بالخلافات العميقة القائمة من ناحية ، وبالدعاية البريطانية من ناحية اخرى وكذلك بالاتصالات العشائرية السابقة التي لم تنتج عنها اية نتائج حربية

---

(٨) يقصد المؤلف «باللجنة الحرة» «حزب الحرية والائتلاف» المناهض للاتحاد والترقي والذي تأسس في اسطنبول في شهر تشرين الثاني ١٩١١ وحصل الحزب في كانون الثاني ١٩١٢ على اذن له بفتح فرع له في بغداد كان اول رئيس له هو شكري الفضلي وهو من الشبان والادباء العراقيين الذين عملوا قبلا في حزب الاتحاد والترقي ومن بين الاعضاء البارزين في حزب الحرية والائتلاف محمود نديم الطبقجلي صاحب جريدة بين النهرين ، وحمدي الباجه جي وكلاهما من اعضاء الحزب الحر المعتدل المعارض للاتحاد والترقي وقد استطاع حزب الحرية والائتلاف ان يعيد المعارضة القوية ضد الاتحاديين كما افتتح فرعا له في البصرة ترأسه لاول مرة السيد طالب النقيب ثم خلفه في الرئاسة الحاج محمود عبد الواحد .–

(٩) يشير المؤلف بذلك الى قوات المجاهدين وهي قوات من المتطوعين المسلمين لمحاربة الانكليز الكفار وقد نادى الغيارى من المسلمين بتأليفها بعد ان افلح الانكليز في احتلال الفاو والتقدم لاحتلال البصرة حيث اعلنت حالة الجهاد في الليلة السادسة عشرة من شهر محرم ١٣٣٣ هـ ٢٦ تشرين الثاني ١٩١٤ ، وتحركت جموع المجاهدين في اليوم التالي الى الكوفة ومنها توجهت الى السماوة ومنها ركبت السفن الى الناصرية ومن ثم تقدمت قوات المجاهدين الى الشعيبة لتتركز في منطقة النخيلة في حين تركزت قوات الاتراك في منطقة البرجسية على بعد اميال من الجنوب الغربي للشعيبة وقد خضعت قوات المجاهدين لامرة سليمان العسكري كان الأنكليز قد احتلوا الشعيبة ولذلك بدأ هجوم المجاهدين والقوات التركية عليها صباح يوم الاثنين الثاني عشر من نيسان ١٩١٥ واستمرت المعركة ثلاثة ايام تفوق فيها الانكليز فانسحبت القوات التركية الى البرجسية واذ ذاك سادت الفوضى صفوف المجاهدين فراح كل واحد يحاول ان ينجو بجلده ولقد تألم سليمان العسكري للهزيمة التي لحقت به فجمع ضباطه وانتحر امامهم بأن اطلق النار من مسدسه على رأسه فخر صريعا وهكذا تشتتت قوات المجاهدين ولم تقم لها اية قائمة فيما بعد.

وفي الوقت ذاته تطورت في المدن المقدسة حالة خطيرة جدا بالنسبة الى الاتراك ذلك لان حقد الاتراك على رجال الدين في النجف وكربلاء لم تخف حدته بعد فقد وجد الهاربون من صفوف القوات التركية ملجأ لهم في مدينة النجف ، وجرت محاولة لانقاذهم مما اضاف المزيد من اعمال الاغتصاب والشغب الحادة ، والانتقام التي احدثت العطب بالابنية المقدسة

ولم تلبث الحشود الحانقة ان تغلبت على القوات التركية ، ونهبت دوائر الحكومة ، واقامت حكومة مؤلفة من بعض المواطنين البارزين واخذت حركة الثورة ضد الاتراك تنتشر الى كربلاء وغيرها ، نتيجة الدعم الواسع الذي حظيت به من لدن افراد العشائر . وطردت الحامية التركية والموظفون الاتراك ، واحراقت منازلهم ودمرت ممتلكاتهم ولكن هذه الحركة لم تتطور الى عمل موحد وسرعان ماخمدت ، واستطاع الاتراك ، بعد فترة من المصالحة والتهدئة ، ان يستعيدوا سلطتهم الاسمية

وتطورت المراسلات في شهر ايلول سنة ١٩١٥ بين الناطقين باسم المدن المقدسة والسر برسي كوكس ، حيث عرض اولئك الناطقون بعبارات تصويرية رفيعة ، نقض ولائهم للاتراك في حين قدم لهم السر برسي كوكس هبات من الاموال لقاء ذلك

بعد ستة اشهر اخرى انفجرت الاضطرابات مجددا في كربلاء ، فقد ادت محاولة اعتقال بعض الاشخاص الى اعمال عنف ثم طرد الاتراك من المدينة خلالها مجددا واعقب ذلك حدوث نفس الاعمال في كل من النجف والحلة ولقد كانت الحلة مسرحا لمأساة ظل الناس يتذكرونها مدة طويلة ذلك ان القوات التركية التي ظهرت خارج المدينة في شهر تشرين الثاني ١٩١٥ ، قد اقدمت على اعتقال عدد من الرجال المعروفين في المدينة فشنقت بعضا منهم ، ثم ضرب قسما من المدينة ونهبته

اما في شمالي العراق فان الحياة الاقتصادية وتجارة المرور الى فارس ، قد تعرضت الى كارثة نتيجة تعطيل خط البصرة التمويني ، الامر الذي ادى الى تراكم الحبوب والتمور المعدة للتصدير ، في الوقت الذي تعاظم فيه نقص المنسوجات ، والادوات ، والحاجيات الضرورية المستوردة وبذلك شلت الحركة التجارية ، وصاحب حركة اصدار العملة الورقية التي فقدت قيمتها ، احتكار وحشي للذهب ، وللمواد التي لها قيمتها ، وبذلك غدت الحياة المدنية اكثر اضطرابا واقل تحملا ولقد تعقدت تلك الحياة بزيادة الضغط على الاقليات ، وبظهور اللاجئين الارمن بالمئات نتيجة المذابح التي وقعت بينهم وبين الاتراك في الاناضول خلال سنتي ١٩١٥ و ١٩١٦

ولقد وجد بعض هؤلاء اللاجئين مستقرا لهم في المدن ، في حين تفرق البعض الاخر بين افراد العشائر . واضطر الحكام الضعفاء المعتصرون الى تجاهل الاوامر الصادرة اليهم بالقضاء على تمرد العشائر ، ومع ذلك كانت توجد بعض الضربات الموجهة من قبل الحكومة التركية .

٤ ـ الكوت ـ بغداد ـ الموصل

استغل تراجع طاونزند الى الكوت في اوائل شهر كانون الاول ، استغلالا تاما في نهاية ذلك الشهر. كان برسي كوكس قد غادر العراق ، طبقاً للاوامر التي صدرت اليه قبل ان يكمل حصار الكوت كان في داخل مدينة الكوت حوالي ستة الاف عراقي ، ولقد تم رفض تنفيذ الاقتراح الداعي الى اخلاء هؤلاء العراقيين من المدينة بدأ الحصار بهجوم تركي عنيف في اليوم الرابع والعشرين من شهر كانون اول ، ولم ينجح ذلك الهجوم ، ولم يتكرر ايضا كانت القوة التي يقودها خليل باشا في ذلك الوقت ومايليه ، تتألف من عناصر قوية من الفيلق التركي الثالث عشر (الفرقتان ٣٥ و ٣٦) والفيلق الثامن عشر (الفرقتان الخامسة والاربعون والحادية والخمسون) اضافة الى الفرقتين الثانية والثانية والخمسين اللتين وصلتا فيما بعد

كان جيش خليل باشا اكثر عددا ، وايسر تجهيزا من القوات التي جاءت لنجدته اما جيش طاونزند فكان مؤلفا من فيلق دجلة ، المؤلف من الفرقة الهندية السابعة والتي عرفت بعد فترة قصيرة باسم الفرقة الهندية الثالثة ، ولواء الخيالة السادس ، وفيلق من قوات متنوعة ، وقد تولى امرة قيادتها ابتداء من اليوم الثاني عشر من شهر كانون الاول الفريق «ايلمر». تركزت هذه القوات في «علي الغربي» منذ الايام الاولى لسنة ١٩١٦ ومن ثم تحركت في اعالي النهر ، واحتلت بلدة «شيخ سعد» لكنها اخفقت في الاستيلاء على موضع «ام حنة» في اليوم الحادي والعشرين من شهر كانون الثاني ١٩١٦ [١] لكن احوال الفيضان ، ووجود الاوحال ، والمرض ، ونقص وسائل النقل والتموين ، قد اوقفت عمليات هذه القوات بحيث غدت غير قابلة للحركة قبل اسبوع من ذلك الوقت ، استخلف الفريق السر نكسون الذي انهارت صحته ، بالسر برسي ليك في منصب القيادة العليا ، كانت العناية الاولى التي ابداها السرليك ، هي التخطيط لتحسين التسهيلات في ميناء البصرة ، لان الاضطراب والفوضى كانتا ضاربتين هناك ، ولغرض الاقدام على تعزيز الاسطول النهري الذي كان يكتنفه النقص المشين ، وشق الطرق ، ومد سكك الحديد

---

(١) موقع ام حنة ، على الضفة اليمنى من نهر دجلة وفي الجنوب مباشرة من دورة النهر التي عرفت انذاك باسم (دورة الخضيري والى الشمال مقام (محمد الحسن» ومن ام حنة وبامتداد النهر على الجهة اليمنى كان يقوم خط المراقبة التركي

ادت هذه الخطة الى اعطاء وعد باجراء تحسينات مقبلة لكن تلك التحسينات جاءت كلها جد متأخرة بالنسبة الى عمليات الكوت وكان ارسال الفرقة البريطانية الثالثة عشرة من اوربا ، والعملية الشاقة لتحويل السيطرة على الجيش البريطاني والجيش البريطاني الهندي ، وقوة الحملة الهندية (د) والتي اصبحت الان تعرف باسم «قوة حملة بلاد الرافدين» من الدائرة الهندية الى السيطرة المباشرة لوزارة الحرب البريطانية ، كل ذلك كان من العوامل الاخرى المشجعة ، كذلك كان احتلال الروس لارضروم في اليوم السابع عشر من شباط ، وتقدم قواتهم جنوبا نحو كرمنشاه على الطريق المؤدي الى بغداد ، من العوامل المشجعة ايضا. ولكن النجوم التي تسري في مسالكها وبتحالف قوي معها من الانحطاط العسكري الخالص ، والاوضاع المدمرة للقلوب ، كل هذه القوى قد تحالفت الان ضد فيلق دجلة ذلك ان الهجوم الموعود به على الضفة اليمنى من فرع «الدجيلة» قد تحول الى كارثة ، نتيجة سوء فهم القادة وكانت الطلبات التي تقدم بها «طاونزند» للنجدة ، تشير الى تواريخ جد متأخرة بالنسبة الى طاقة تحمله

خلف «غورنج» الفريق «ايلمر» في قيادة الفيلق ، واستطاع بقوات جديدة من الفرقة الثالثة عشرة التي يقودها اللواء «ستانلي مود» ان يقتحم موقعي «ام حنة» و «الفلاحية»[٢] وذلك في اليوم الخامس من شهر نيسان ، ولكن خط «الصناعيات»[٣] قد برهن على عدم اختراقه اما موقع «بيت عيسى» على الضفة اليمنى من النهر ، فقد تم احتلاله[٤] ولكن الهجوم الذي وجه في اليوم الثاني والعشرين من نيسان ضد «الصناعيات» لم يكن ناجحا وسبب خسائر فادحة

ارتفع عدد القتلى من فيلق دجلة ، خلال اربعة شهور الى اكثر من ثلاثة وعشرين الف رجل وكانت الهجمات الجبهوية الاخرى خارج نطاق البحث ، في الوقت الذي غمرت فيه الفيضانات اجنحة ذلك الفيلق ، ولم تعد التموينات التي تلقيها الطائرات تحول دون النهاية المحققة كما ان المحاولة اليائسة غير الجديرة التي اريد بها شراء سلامة الحامية بالمال من القائد التركي ، قد تم عرضها فرفضت تم ارسال كل من «لورنس واوبري هوبرت» الى العراق للقيام بجهد لم يكن السربرسي كوكس قد وافق عليه[٥]

---

(٢) الفلاحية تقع في ذات المنطقة التي يقع فيها موقع ام الحنة وقد حدثت فيه عدة معارك اولها المعركة التي وقعت في ٢١ كانون الثاني ١٩١٦ والثانية في ٢٢ شباط.

(٣) موقع الصناعيات يقع شرقي الكوت بمسافة ثمانية اميال على الضفة اليسرى من نهر دجلة والى مقربة منها نحو الجنوب تقع منطقة تخيلات

(٤) بيت عيسى يقع الى الشمال من موقع حجلة على الضفة اليمنى من النهر

(٥) قام لورنس بمهمة اقناع القائد التركي خليل باشا بفك الحصار عن الانكليز في الكوت مقابل مبلغ مليون جنيه استرليني ولما رفض القائد خليل باشا ذلك العرض رفعه لورنس ورفيقه هوبرت الى مبلغ مليوني جنيه ولكن الرفض المطلق كان الجواب الحاسم على ذلك وقد تحدث خليل باشا في مذكراته التي نشرت بالتركية مؤخرا وترجم قسم منها الى العربية في بعض الصحف العراقية منها جريدة «العالم العربي» عن معركة الكوت ورشاوي الانكليز باسهاب.

واخيرا فشلت مغامرة بطولية لاقتحام الحصار من ناحية النهر ، عن طريق استخدام احدى سفن شركة لنج المعروفة باسم «جلنار» التي كان يقودها النقيب «كولي». وفي اليوم التاسع والعشرين من شهر نيسان ، استسلم طاونزند هو وافراد حاميته المؤلفة من الفين وستمائة وخمسين نفرا من البريطانيين ، وستة آلاف وخمسمائة نفر من الهنود. كانت المعاملة المقيتة في العراق وتركيا ، لاسرى الكوت الذين وقعوا في ايدي الاتراك ، والاجراءات والتقرير الذي اعدته لجنة العراق ، والذي القت فيه اللوم عن تلك الهزيمة على عاتق كل من يخصهم الامر، قد اعدت بايد سخية ولكن متحاملة ، انما تعود بالاحرى، الى تأريخ الجيش البريطاني، اكثر مما تعود الى تأريخ العراق . ومع كل ذلك تم تقييم المؤثرات المحلية لاندحار الكوت ذلك لان الكثيرين من افراد العشائر المتقلبين قد غيروا مواقفهم مجددا ، وانسحبوا من الميدان ، ولهذا فلم يبق في مستطاعنا عمل شيءٌ ما ، سوى بذل القليل لتطوير الادارة المدنية ، او توسيع نطاقها ، فيما وراء ضفاف النهر ، وقد ازداد التردد لدى سكان المدن في تعريف انفسهم للبريطانيين ، ولو ان ذلك كان اقل مما كان متوقعا له

بدأ الاتراك الذين دخلوا الكوت مجددا منتصرين ، يتصرفون في حملة واسعة لتعويد الناس على الطاعة ، وقد شنقوا او فتكوا ببعض المدنيين من العراقيين الذين اقترفوا الخيانة لانهم تحملوا وقع الحصار ، وذلك درس لن ينساه الجمهور العراقي في اي مكان وبعد ان وطد خليل باشا مركزه على نهر دجلة ، استولى على منطقة الصناعيات بفيلقه الثامن عشر (الفرقتان ٤٥ و ٥٢) واستطاع ان يبعث بفيلقه الثالث عشر الى داخل بلاد فارس لمقاومة الروس الذين استطاعوا ان يردوا ذلك الفيلق بصفة حاسمة على اعقابه ، وذلك بعد ان سبق للقائد «باراتوف» ان احتل «كرند» وراح يهدد مدينة خانقين[٦]

تسلم رئيس الاركان البريطاني في اليوم الثلاثين من نيسان تعليمات تقضي بان يقوم بدور الدفاع ، ولكن عليه ان يصون مواقعه المتقدمة ، على امل التعاون مع الروس ، والتقليل من فقدان الانحياز،وعلى اثر ذلك دخلت قواته مرحلة من اعادة التجمع ، واعادة التشكيل،وهكذا انضمت فرقة جديدة هي الفرقة الرابعة عشرة ، الى القوات المتقدمة التي كانت تقابل مدينة الكوت

ومع ان الفترة الممتدة من شهر نيسان حتى شهر كانون اول من سنة ١٩١٦ ، لم تتميز باية

---

(٦) كان باراتوف يقود الفيلق القفقاسي الاول الذي خصص له لمهاجمة العراق الاوسط على محور كرمنشاه – خانقين – بغداد ، وقد تصدى له الفيلق التركي الثالث عشر الذي كان يقوده العميد علي احسان ، وعندما تولى الجنرال باولوف قيادة القوات الروسية بدلا من باراتوف في نيسان ١٩١٧ كانت قواته ترابط في كل من قصر شيرين وخانقين ووصلت مفرزة من هذه القوات الروسية الى ناحية «السعدية» كما احتلت قلعة «شروان» في التاسع من ايار ١٩١٧ وكانت القيادة الروسية قد طلبت من القيادة الانكليزية التعاون بتعرض للقوات التركية في «دلي عباس» وسد نهر العظيم (العميد الركن شكري محمود نديم الجيش الروسي في حرب العراق ص ٣٢) .

عمليات حربية ، الا انها شهدت انتقالا تدريجيا للقوات البريطانية من موضع النقص في التجهيزات وخدمات النقل ، وتعزيزات تنظيم تميزت بالوفرة وبالاصالة وعلى الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها القائد «السر برسي ليك» الا ان هذه الامور لم تتحقق ، الا بصفة تدريجية تنطوي على الالم ، حتى في شهر اب ، حيث كان من اللازم – لاسباب تموينية – سحب الفرقة الثالثة عشرة الى المؤخرة

اخذت الاسلحة ، والذخيرة والتجهيزات ، ومواد سكك الحديد ، ووسائط النقل البري والنهري ، تصل اسبوعا اثر اسبوع فلقد تم انشاء ميناء البصرة حسب اسس عصرية موسعة على يد «السر جورج بكونان» وذلك ببناء الارصفة ، وتوفير التجهيزات ، وعمليات الكري والتعويم . كذلك انشئت الطرق وسكك الحديد الخفيفة لغرض استخدامها ، وتمت صيانتها بانشاء سدود تحميها من الفيضانات التي تهدد دوما

وتضاعف عدد الاسطول النهري الى خمسين ضعفاً ، وذلك بضم سفن متنوعة اليه من كل الاماكن ، كما تم تنظيم مديرية للنقل النهري الداخلي التي اخذت تشرف على اسطول لامثيل له في انهار العالم ، بالنظر الى عدد الحمولات المستعملة ومقاديرها ، الامر الذي لعب فيما بعد ، دورا له اهميته الواسعة

كذلك تمت تقوية القنوات ، وعمليات الانارة ، في نهري دجلة وشط العرب بقصد تسهيل الملاحة فيهما ، كما شقت قناة عميقة بكلفة فائقة عبر «هور الحمار» ولكن تم التخلي عنها ولم يتم استعمالها

اما بالنسبة الى الطرق البرية فقد شرع باستخدام وسائل النقل الآلية على نطاق موسع خلال سنة ١٩١٦ ، وانشئت نواة للمستودعات ، واماكن التصليح اللازمة لذلك واستطاعت هذه الوسائل ان تغير في يوم من الايام والى الابد ، مفاهيم العراقيين عن الحركة في البر . اما الطائرات التي لم تكن موجودة عند اندلاع الحرب ، والتي لم يزد عددها عن ثلاث طائرات في خريف سنة ١٩١٥ ، فقد تضاعف عددها وكانت من انواع محسنة ، بحيث تصل الى مستوى التفوق على طائرات العدو لاول مرة

وبالنظر الى الخدمات الطبية التي كانت ناقصة فيما سبق الى درجة الفضيحة المحزنة ، فقد اعيد ترتيبها ، وازدادت زيادة كبيرة وتم توحيد مديرية العمل ، التي وفرت الاجور الجيدة ، والاستخدام الحسن ، للالوف من العرب والاكراد في مديرية متقدمة هي مديرية المواد المحلية ، التي وسعت عملياتها توسيعا كبيرا في كل المناطق المسيطر عليها ، واخذت تمارس اعمالها عن طريق عدد لايحصى من التعهدات والتجهيزات . فهذه الخدمات المنوعة المتشابكة التي ضاعفت الطاقة التموينية للحملة ، وملأت مناطق القاعدة ، وخطوط المواصلات ، قد تم تنسيقها بقدوم مفتش المواصلات العام الفريق «هاكمون».

بوشر ببناء سكك الحديد ، على حدة من الخطوط الخفيفة المتوفرة في الميناء ، وذلك في شهر نيسان سنة ١٩١٦ اذ كمل مد خط متري من البصرة الى الناصرية في شهر كانون اول ١٩١٦ ، في حين شرع بمد خط من قياس اضيق بين القرنة والعمارة في شهر تموز،حيث تم افتتاحه في شهر تشرين الثاني وفي شهر اب مد خط خفيف اخر يربط بين شيخ سعد والسن[٧] ومن ثم اوصل هذا الخط الى «امام منصور»[٨] وفي سنة ١٩١٧ حول خط القرنة – العمارة الى خط متري ، بينما انشئ في صيف تلك السنة خط آخر بين الكوت وبغداد ، وقد ملئت الثغرة القائمة بين القرنة والبصرة فيما بعد بينما بقيت الثغرة القائمة بين العمارة والكوت ولكن كل هذه السكك كانت قد قلعت كلها بعد انتهاء الحرب ماعدا السكة الممتدة بين البصرة والناصرية وكانت كل هذه السكك قد استخدمت لاغراض الحرب،ولم يكن لها اي دور اقتصادي في الحياة المدنية

اصبح مستطاعا في خريف سنة ١٩١٦ امعان النظر في القيام بعمليات حربية اخرى ، حيث اخلى السر برسي ليك القائد المسن والمريض ، المجال امام القائد الجريئ المنافس ستانلي مود ، وذلك في شهر اب من تلك السنة كان فيلق دجلة قد تم تقسيمه الآن الى فيلقين:الاول والثالث ، وحل الفريق «كوب» محل غورنج في قيادة الفيلق الاول (الفرقتان الثالثة والسابعة) في حين اعطيت قيادة الفيلق الثالث (الفرقتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة) الى العميد مارشال واستطاعت الفرقة الخامسة عشرة ، تحت قيادة الفريق بروكنغ ، ان تحتل القسم الادنى من الفرات

كان هناك لواءان من الخيالة ، واكثرية قوات الجيش ، مهيأة للقيام بعمليات هجومية ، دون التخلي عن صيانة طرق المواصلات التي ظفر بها الآن. كانت الحالة بالنسبة الى العمل الان ، اقوى ، منذ التراجع الروسي ، والتغلغل التركي في بلاد فارس ، ذلك التغلغل الذي اذا لم يتم صده، فانه قد يهدد حقول النفط هناك .

بدأت اللجنة العسكرية في الوزارة البريطانية تؤيد فكرة الاقدام على تطبيق «سياسة شبه هجومية على اقل تقدير» ، «وان يتوطد النفوذ البريطاني في ولاية بغداد فيما بعد». ولهذا الغرض صدرت التعليمات الى القائد «ستانلي مود» بان يعزز مواقعه الامامية ، وبذلك احس بأنه قد اصبح طليقاً كما يأخذ بنظر الاعتبار احتمال حصول تقدم كي يتزامن ذلك مع الجهود التي يبذلها الروس في بلاد فارس وفي كردستان.

---

(٧) السن مجموعة من الروابي الرملية تمتد من ضفة دجلة اليمنى الى جدول الدجيلة ويعرف القسم الشمالي من هذه الروابي باسم «السن» والجنوبي باسم «الابتر»

(٨) امام منصور يقع على الضفة اليمنى من استدارة قناة الدجلية التي تتفرع من دجلة .

من بين القوات التي كانت تواجه احداها الاخرى في مواضع الكوت، اصبحت القوات البريطانية الآن اكثر قوة. ولذلك صمم «مود» حسب خطة مدروسة يتم تنفيذها في مراحل محدودة ومتلاحقة. على ان يدحر قوات العدو، دون الاهتمام ببغداد، او بأية اعتبارات سياسية.

بدأ مود عملياته الحربية في اليوم العاشر من شهر كانون اول ١٩١٦.ان تفاصيل هذه العمليات تخص التاريخ الحربي، ولكن يكفي هنا ان نسجل بان المراحل التي تم بها تنظيم تقدم «مود»، والتي بقيت كل مرحلة منها تسير بصبر وبمنطق حتى النهاية، قد ادت – رغم المقاومة الشديدة والخسائر المعتدلة – الى تطهير القوات التركية من الضفة اليمنى لنهر دجلة حتى شط الغراف (الحي) وذلك في اليوم الرابع من شهر شباط، ومن ثم الاستيلاء على (دهرابند)[٩] في اواسط شباط، وعلى موقع «الصناعيات» في اليوم الرابع والعشرين منه.

تم عبور نهر دجلة من ضفته اليمنى الى الضفة اليسرى في ذلك اليوم، ولهذا راحت القوات التركية المنحلة المندحرة، تتعقب الضفة اليسرى لنهر دجلة متجهة نحو بغداد. وبعد توقف لاغراض التموين، واعادة التنظيم، واعاقة موقتة لعبور نهر ديالى، لم يستطع الاتراك اظهار اية مقاومة جدية، دون ماسمح به رئيس الاركان الامبراطورية العامة في لندن، في البرقية التي بعث بها، من استغلال النجاح الذي حققه القائد «مود» الى اقصى حد، والاستيلاء على بغداد، وهكذا استطاعت القوات البريطانية ان تدخل بغداد في اليوم الحادي عشر من شهر اذار سنة ١٩١٧

تحقق الآن، الهدف السياسي من الحرب، ان كان ذلك هو القصد حقا. غير ان احتلال بغداد من الناحية الستراتيجية، لايمكن صيانته من دون احتلال اراضي اخرى الى الشمال والى الغرب. وعلى هذا فلابد من تهيئة الطرق التي تصل الى تلك الاراضي، وان تتم الحيلولة دون خطر الفيضان المدمر. اندفعت الارتال البريطانية بحماسة الى امام، واستطاعت في نهاية شهر اذار، وبعد سلسلة من العمليات الناجحة، على نهر دجلة وضفتي نهر ديالى، ان تستولي على خط شهربان – سميكة – فلوجة، ولو ان منخفض عقرقوف، والطرق الواقعة الى الغرب من بغداد قد اغرقها الاتراك بالمياه بعد ان نسفوا السدود المقامة على نهر الفرات. وحتى اواخر شهر نيسان، وحين تواصلت العمليات للاستيلاء على سامراء، وجبل حمرين، اعتبر الوضع آنذاك مصونا بصفة تامة، وعندئذ سمح للقوات المتقدمة بالتوقف.

لم تلبث القوات الروسية، على الرغم من اندلاع نيران الثورة في الحادي عشر من اذار[١٠]

---

(٩) دهرابند. لم نجد لهذا الموقع اي ذكر في الخرائط العسكرية والمعتقد انه فرضة عند ثنية دجلة بين الفلاحية والصناعيات.

(١٠) **يقصد المؤلف بالثورة هنا هي الثورة البلشفية** التي وقعت ضد القيصرية في اليوم الثامن شهر تشرين الثاني سنة ١٩١٧ وليس **في اليوم الحادي** عشر من اذار كما ذكر ذلك المؤلف خطأ، وقد [illegible] ره البرجوازية الاولى التي [illegible]ثت في السابع من **شهر شباط** سنة ١٩١٧.

ومن دون نتائج غير متوقعة، ان تقدمت مرة اخرى عبر شمالي غربي بلاد فارس، وتوجهت نحو كرمنشاه، في وجه مقاومة ضارية ابداها الفيلق التركي الثالث عشر، ولكن هذا الفيلق لم يلبث مؤخرا ان تحرر وارتد الى «كفري» في حين احتل الروس كلا من «قصر شيرين» و «خانقين»، واخيراً قزل رباط، حين اصبحوا قادرين على ان يضعوا ايديهم في ايدي البريطانيين[11]

على ان الامال التي كانت معقودة على مساعدة الروس للبريطانيين من ناحية الشمال ضد الموصل او الاستيلاء على بغداد، قد ثبت بانها كانت باطلة. ذلك لان قوات القيصر «اخذت تتفكك ببطء، واصبح وجودها على حدود العراق الشمالية والشمالية الشرقية لاينطوي على اي شيْ نافع، سوى الارباك المثير للالام».

مر خريف سنة ١٩١٧ وشتاؤها، وربيع سنة ١٩١٨، من دون وقوع عمليات حربية كبيرة. كان توقع اقدام الاتراك على حركة مضادة في العراق، يقوم بها جيش الصاعقة «يبلدرم» الذي كان يتباهى به، والتي تهدف الى كنس القوات البريطانية وارجاعها الى الخليج العربي، كان هذا التوقع مخيبا للآمال، وذلك لان الاتراك فضلوا ان يبذلوا مثل هذا الجهد وباقصى مايستطيعون في جبهة سوريا – فلسطين. كذلك كان في مستطاع البريطانيين الذي يحتفظون الآن بقوات مهمة في اي مستوى من المستويات، وبنظام عجيب، ان يخططوا لنجاح غير موسع، وذلك نتيجة نقص القوات الفعالة لدى العدو لدحر القوات البريطانية، او احباط الهدف الستراتيجي من عمليات التعقيب.

وفي شهر ايلول، ونتيجة واحد من الاخطاء في قراراته العسكرية، اقدم القائد «مود» على محاولة فجة غير ناجحة للاستيلاء على الرمادي. وبعد شهرين من ذلك الوقت وفي جو افضل، عاود الهجوم مرة اخرى فاستطاع ان يقدم مواضعه ليس الى الرمادي حسب، بل والى مضيق جبل حمرين على نهر ديالى، والى تكريت على نهر دجلة. وكانت تلك هي آخر العمليات التي قام بها القائد مود، فلقد توفى بالهيضة، وهو مكلل بالاعجاب والتقدير، في اليوم التاسع عشر من شهر تشرين الثاني حيث خلفه في منصبه الفريق «مارشال» من الفيلق الثالث، يعاونه الفريق (غلمان) رئيس اركان قواته.

لم يدع رئيس الاركان الجديد اية لحظة من الوقت ان تضيع، في تحقيق سياسة تتصل به حسب مهمة القيادة المفترضة له. وكانت تلك السياسة تنطوي على الاستمرار في الضغوط المتواصلة، بهجمات محلية، وان يعمد البريطانيون في الوقت الذي يوطدون فيه مركزهم في بغداد،

---

(١١) لم يتجاوب القائد الانكليزي «مود» مع طلب القيادة الروسية للتعاون في تطويق القوات التركية في قاطع دلي عباس وسد نهر العظيم والتقدم نحو كفري، الامر الذي ساعد علي احسان على حشد قواته الاحتياطية التي هاجم بها القوات الروسية واخرجها من قلعة شروان ودفع بها الى شرقي ديالى، واسترد «السعدية» حين شرعت قوات باراتوف في الحادي عشر من ايار ١٩١٧. بالانسحاب عن طريق كرمنشاه – همدان والذي نعتقده ان الانكليز لم يرغبوا ان يشركوا احدا غيرهم من حلفائهم في احتلال العراق.

الى تطوير موارد النفط. والقوة البشرية جهد المستطاع. لخدمة المجهود الحربي.

انتهت احدى العمليات التي قامت بها الفرقتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة. في اواخر شهر تشرين الثاني بالاستيلاء على ممر صقلتوتان(١٢) في جبل حمرين وعلى مدينة «قره‌تبه» في كفري، وفي شهر اذار تقدمت القوات البريطانية على نهر الفرات، فاحتلت كلا من «هيت» و «آلوس» و «حديثة» و «عانة». واخيرا وبعد استطلاعات خفيفة قامت بها الى مسافة خمسة وسبعين ميلا فيما وراء هذه المدن، ثبتت القوات مواقعها في «حديثة».

وبعد مرور شهر واحد، بدأت حركة تقدم اخرى على الجناح الايمن. فتم احتلال كفري في اليوم الثامن والعشرين من نيسان، كما احتلت طوزخرماتو في اليوم التالي. ومن ثم وحسب الاوامر الصادرة من وزارة الحرب البريطانية، تقدمت القوات نحو مدينة كركوك في اليوم السابع من شهر ايار، ووجهت على الفور غارة على «التون كوبري» قامت بها قوات الخيالة خلال منطقة «الحويجة» من نهر دجلة.

لم تمكث القوات في كركوك بعد ذلك بسبب مصاعب التموين العسكري. فضلا عن ان البقاء فيها كان ينطوي على مأساة من وجهة نظر العلاقات المحلية، ولذلك انسحبت من المدينة بعد اسبوعين، في اعقاب احتلال لها قوبل بالترحيب والوعود من قبل مئات من المسيحيين، واليهود المحليين الذين استبد بهم اليأس، وبذلك اصبحت «طوزخرماتو» هي الموقع المتقدم. وعلى هذه الشاكلة انقضى صيف سنة ١٩١٨م واخيرا وفي شهر تشرين الاول غدت الهدنة مع تركيا مشهورة، واستطاعت القوات البريطانية، رغم وجود قوات "احسان علي باشا" المتناقصة اليائسة التي تركزت في مضيق «الفتحة» وفي منطقة كركوك، ان تتقدم بصفة متواصلة نحو كركوك وآلتون كوبري على الجناح الشرقي، وان تندفع صعدا الى نهر دجلة في الناحية الغربية.

لم تلاق القوات الاولى سوى مقاومة خفيفة، ولذلك اعيد احتلال كركوك. اما القوات الاخرى، فانها بعد ان اصابت بعض الاراضي. لاقت مقاومة عنيفة في جبل مكحول بجانب نهر دجلة، حيث نشب قتال عنيف هناك(١٣) ثم اعقبت ذلك عمليات متحركة لكنها كانت ضارية جدا، انتهت في اليوم الثلاثين من شهر تشرين الاول. بتدمير واستسلام كل العناصر المتبقية من الجيش السادس التركي، ماعدا بضع مئات من الرجال والمدافع التي كانت موجودة في مدينة

---

(١٢) صقلتوتان للفظ «صاقال طوتان» ومعناه الممسك باللحية وهو مضيق قليل العرض عبر التلال التي تقع في الطريق بين قزل رباط وخانقين.

(١٣) كانت معركة الفتحة من اشد واوسع المعارك الاخيرة التي حدثت بين الاتراك والانكليز. فلقد استبسل الاتراك في هذه المعركة والحقوا بالانكليز خسائر فادحة في الرجال والعتاد ولقد بقيت بعض تجهيزات الانكليز وبقايا ملابسهم واحذيتهم في شعاب جبل حمرين ظاهرة حتى بعد مرور ثلاث سنوات على تلك المعركة. كما حدثني بذلك المرحوم العم ياسين الحاج مخلف الناصري. الذي خاض تلك المعركة مع الاتراك.

الموصل[١٤] وصلت القوات البريطانية الى القيارة في اليوم الحادي والثلاثين من شهر تشرين الاول، وفي اليوم التالي له قوبلت قوات الخيالة التي كان يقودها الفريق «كاسلز» بعلم الهدنة وبانبائها، التي وصلت الى بغداد في اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني حيث اشترطت تلك الهدنة بان «على كل الحاميات التركية في بلاد الرافدين ان تستسلم الى اقرب قائد حليف»، في حين اقرت المادة السابعة من الهدنة، بانه يحق للحلفاء ان يحتلوا اية نقاط ستراتيجية في حالة ظهور وضع قد يهدد سلامة الحلفاء». ومع كل ذلك فقد طلب علي احسان باشا الذي اتصل بالفريق كاسلز بلن تنسحب القوات البريطانية الى القيارة وهي ابعد نقطة كانت تلك القوات قد احتلتها عند اعلان الهدنة. غير ان رئيس اركان القوات البريطانية من الناحية الثانية فسر مواد الهدنة بشكل مغاير جدا، واعتبر الاحتلال البريطاني المباشر لمدينة الموصل، متطابقاً تمام المطابقة مع المادة السادسة عشرة من الهدنة.

اخفقت البرقيات التي تبودلت مع العقيد لجمن الذي عين حاكما للمدينة، في اخراج علي احسان وقواته من الموصل. فقد زعم علي احسان بان الموصل ليست من العراق، وان قواته ليست «حامية» بل هي جيش ميدان. وفي مؤتمر عقد في الموصل في اليوم السابع من تشرين الثاني، حضره القائد «مارشال» ووكيل المفوض المدني، وقع علي احسان على اتفاق الهدنة، محتجا بان الشروط قد امليت عليه املاء، وانه ينبغي له ان يخلي كل اجزاء المدينة في غضون عشرة ايام.

ولقد تم تنفيذ هذا الشرط والشروط الاخرى المرتبطة بجماهير سكان الموصل. ولسوف يظهر فيما بعد، بان الموقف الحازم والناجح، الذي اتخذه القائد مارشال، في هذه المبادلات، كان من المواقف الفعالة في اعتبار الموصل جزءا لايتجزأ من العراق. فلو ان خط الهدنة الذي تم تقبله، كان يشمل الاراضي التي كان الاتراك يتشبثون بها، ومن بينها مدينة الموصل واطرافها التي تؤلف الاقضية الكردية جزءا منها في الوقت الحاضر، لكان من المحتمل ان تغدو تلك الاراضي لتركيا بدلا من ان تكون للعراق.

الاتراك والانكليز. وقبل اعلان الهدنة بايام قلائل قد وقعت في سهل «الحويش» عند بلدة الشرقاط.

٥ ـ الادارة البريطانية اثناء الحرب سنة ١٩١٧ ـ ١٩١٨

شهدت العشرون شهرا الاخيرة من الحرب، فترة تكوين عميقة من العلاقات الانكليزية العراقية، اذ احتلت القوات البريطانية اواسط العراق، واقامت فيه للجماهير ادارة في كل منطقة. كانت اوضاع الحياة والحكومة معا شاذة بصفة واضحة، ذلك لان السلطة التركية قد اختفت، وانعدم وجود كثير من العراقيين، من افراد الطبقة العليا، وكبار الموظفين، وغدت السياسة المحلية خاملة، واعطيت الاسبقية للحاجات الحربية من دون نقاش، كما اغلقت المواصلات على نطاق واسع في وجه المدنيين

ومع كل ذلك فان الروابط الوثيقة التي وجد العراقيون، والضباط البريطانيون، والقوات البريطانية، انفسهم في ضمنها، في علاقات كثيرة متبادلة، ومانجم عن ذلك من التقييم المشترك، والمشاركة في ضرورة اعادة مهات الحكومة والمجتمع، قد ادت هذه الامور بصفة حتمية الى اتخاذ الكثير من القرارات التي ساهمت بصفة مباشرة، او في صفة رد فعل، في اضفاء شكل للحياة العامة طيلة جيل كامل، من امثال القرارات التي تخص القانون، وتطبيق الاجراءات التركية الموجودة او تعديلها، وبناء هيكل الادارة ووحداتها، وقضايا العملة وماشاكلها

اما في جنوبي العراق، فان جميع القوات العسكرية البريطانية المتوفرة، قد استطاعت ان تسيطر على المدى الممتد على كل المناطق التي تقع حول الانهار. ولقد كان استغلال الموارد المحلية لاستعمال الجيش، واستخدام العمال العراقيين، وبناء سكك الحدود، والجهود المبذولة لتحسين امور الملاحة في نهر دجلة، من بين الامثلة على النشاط العسكري الذي اوجد نتائج مدنية. ولقد برزت عن هذه النتائج الوف الادعاءات، واسباب التظلم، والطلبات التي قدمت من المعوزين وكبار السن بين الجماهير، الى الضباط السياسيين الذين يمكن الوصول اليهم بصفة دائمة

ولقد كان التصرف المنطوي على الصبر ازاء هذه الحالات، هو الذي اوجد نغمة «الادارة الوليدة»، ودلل على بعد هذه الادارة عن المستويات التركية.

فلقد بدا على اهالي البصرة ان انتشر الغنى فيما بينهم على نطاق واسع، وكان يقود اولئك الاهالي رجال تقدميون وصفوا بانهم كانوا في تلك الفترة، اكثر اهتماما بالمستقبل المادي لمدينتهم، من الحركة القومية الوليدة التي برزت قبل سنة ١٩١٤ وفي مدينة «العمارة» كان مشهد النشاط

العسكري الهائل ومارافقه من رخاء قد استطاع ان يحكم السيطرة على «بني لام» «والبومحمد». ولكم كان امرا محزنا اذ وجدنا افرادا من هؤلاء كانوا يتهمون بالمراسلة مع الاتراك، ويجري نفيهم الى الهند.

اصبح الضباط السياسيون البريطانيون، نتيجة الاستقرار النسبي في جنوبي العراق، وبعده عن خط النار، قادرين على توسيع اتصالاتهم، وفرض الضرائب، وادارة شؤون «الشبانة» ومكافحة العداوات، والمعاقبة على اقتراف الجرائم، بروح الحماسة، وحسن النية، والتجارب اليومية المستخلصة. لقد تعلم هؤلاء الضباط السياسيون على الفور، ان يميزوا بين من يعتمد عليهم، وبين المتذبذبين من شيوخ العشائر، وان يلموا بالمناسبة التي يرون فيها الحاجة تدعو الى ترحيل المعاندين من هؤلاء الشيوخ من اماكنهم

كانت حالة الامن على الطرق الرئيسة جيدة بصفة عامة، وقد توقفت المعارك بصفة غالبة، ولم تعد هناك سوى حدود جبال «بشتي كوه»، ومناطق اخرى نائية من المنتفق، «وبني ججيم»، لم تتم السيطرة عليها بعد. وكان الضباط السياسيون او مساعدوهم خلال الفترة ١٩١٧ - ١٩١٨ موجودين في جميع مراكز الاقضية التابعة لولاية البصرة تقريبا

كان البيان الذي اعلنه القائد «مود» لدى احتلاله بغداد، ذلك البيان الذي صاغ عباراته «السرمارك سايكس» في نثر ملتهب في لندن، قد اكد للجمهور العراقي تقديم الاريحية البريطانية (!!) ودعا الجمهور «عن طريق نبلائكم وكباركم وممثليكم للمساهمة في ادارة شؤونكم المدنية».

لم يحدث اي انطباع كبير. ولكن تعاظم التأكيد على الفور، وبصفة اوسع، على الامور التي تستدعي الاهتمام العاجل من لدن الضابط السياسي الرئيس، واصبح الزوار العديدون الذين كانوا يفدون على مكتب الضابط السياسي الرئيس، يشمل كل وجهاء بغداد والمناطق الممتدة، بما فيهم الشيخ المسن السيد عبد الرحمن النقيب، باعتباره رئيسا لاولئك الوجهاء، وعشرات بل مئات من رؤساء العشائر من كل جزء من اجزاء البلاد

ارسلت برقية مجاملة من علماء الشيعة الكبار في مدينتي النجف وكربلاء الى الملك جورج الخامس. وكان السربرسي كوكس يقابل بالتكريم من لدن شيوخ العشائر في مناطق الفرات التي لم تطأها من قبل اقدام اي جندي بريطاني، ولا يمكن له ان يصل اليها لعدة شهور اخرى. ومن ثم كان اولئك الرؤساء يعودون الى اهليهم مزودين بالتعليمات للحفاظ على الامن، والاستمرار في زرع حقولهم

اما في مدينة بغداد ذاتها، فان السنتين اللتين كان ينذر خلالها تحمل البؤس المخيم على المدينة، قد بلغتا ذروتها بانتشار اعمال الغصب والتخريب التي شهدتها الاسابيع القليلة الاخيرة من الاحتلال التركي. فلقد دمرت المباني العامة تدميرا تاما، وحولت محطة اللاسلكي التي اكمل

الالمان بناءها، الى خراب. وكانت الاوضاع المزرية شاخصة في السجون، وفي المستشفيات وحتى الشوارع. فلقد تعطلت الاعمال الجديدة التي تم الشروع بها وبقي البعض منها نصف جاهز في اكوام من الانقاض المتراكمة

وغدا الطعام في بعض انحاء مدينة بغداد شحيحا الى درجة انه اصبح ينذر بالموت جوعا، واصبحت الحياة هامدة، ولم يعد للخدمات العامة من وجود، وفزع الناس كثيرا من هذا الوضع، الى ان انتعشت الاوضاع في صفة وسائل للنقل لم تكن متوقعة قبلا، وتدفق الاموال، وظهور عملة نقدية ثابتة، وفتح مصارف بريطانية جديدة، واعادة فتح ما كان موجودا منها من قبل. كما توفر للجمهور مجال العمل، والمستوى العالي من الامن، وتطورات الخدمات العامة الى الحد الذي تسمح به الامكانيات الحربية

كان الالحاح على فرض القيود الصحية، واسترداد المساكن المغتصبة، والتفتيش عن الاسلحة، والقيود المفروضة على الحركة، واصدار الانظمة المتنوعة، كانت كل هذه الامور من المظاهر التي لم يتقبلها الجمهور الا قليلا. وبصفة عامة كانت مدينة بغداد في الفترة ١٩١٧ - ١٩١٨ اكثر دهشة وتفاؤلا، وتقبلا للآراء وللوسائل الحديثة، ولذلك كان من العسير كثيرا على الادارة العسكرية ان ترضى بها بالصفة التي قدرت لها وذلك «بالحد الادنى من الكفاءة الادارية اللازمة لحفظ النظام».

وفي مدن الكوت، والعزيزية، وبعقوبة، كان عدد من شيوخ العشائر فيها، الذين كانوا يتوقعون عودة الاتراك وانتصارهم، قد رافقوا جيش «علي احسان». ولكن عودة الاحوال الاعتيادية الى ضفاف نهر دجلة كانت سريعة، فاعتبرت اعادة بناء مدينة «الكوت» مجددا، من الامور النموذجية. كذلك عاد افراد عشائر شمر طوقة، وزبيد، وربيعة، مبكرين الى حقولهم ومحاريثهم

وفي منطقة ديالى كان التقدم يسير مسرعا، ذلك لان انسحاب الاتراك من جبل حمرين قد مهد الوصول الى رؤوس القنوات الحيوية هناك، كما عرضت عشائر الفرات التي تقطن في اعالي الهندية، وهي عشائر زوبع والدليم، ولاءا ينطوي على التردد بعد احتلال مدينة الرمادي والمراكز الاخرى للدليم

ادت الضرورة الملحة لزيادة انتاج الغذاء في الاراضي التي اجتاحتها الحرب، بالاضافة الى حماية الملاحة العسكرية في الانهار في سنة ١٩١٧، الى تأسيس «مشروع التنمية الزراعية» تحت اشراف المستر «غاربت» رئيس مجلس الايرادات. وكان ذلك المشروع يهدف الى انتاج ثلثمائة الف طن من القمح، بالاضافة الى الوسائل التي استعملها المشروع لتوفير البذور، وتجهيز المحاريث، والمواشي، والمساعدة في تطهير قنوات الري

ولقد تم الحصول على مساندة الشيوخ لهذا المشروع، عن طريق الوعد بحصولهم على

ايرادات ممتازة، وبالدعاية المتحمسة التي كان الضباط السياسيون يبثونها للمشروع. وعلى الرغم من العقبات المتنوعة، من امثال الاضطرابات العشائرية، وفشل استعمال بعض القنوات، وسرقة البذور، واعمال المسح المغشوشة، فقد نجح مشروع التنمية الزراعية في تحقيق جزء كبير من اهدافه، ووفر لعامة العشائر مظهرا غير متوقع من التخطيط الحكومي، والانفاق بقصد زيادة الانتاج الذي ينبغي ان يحصل عليه رعايا الحكومة بصفة مباشرة

وفي مناطق الفرات، وكانت تؤلف الميدان الرئيس لتطبيق مشروع التنمية الزراعية، ذلك الميدان الذي يكتنفه الاضطراب عادة، لم تكن القوات العسكرية متوفرة في تلك المناطق لشهور، كيما يستطاع بها تثبيت منزلة الدولة الجديدة واعتبارها، كما انه لم تكن للبريطانيين اية معرفة بالشخصيات البارزة في تلك المناطق. فلقد كان كل رئيس قبلي مطلق التصرف لتقوية مركزه، وضمان الامتيازات له، والانتقام من خصومه.

كانت المرحلة الأولى بالنسبة الى وضع مناطق الفرات هذه، تتمثل في أرسال ضابط سياسي بريطاني الى مدينة الحلة في شهر ايار سنة ١٩١٧ ولقد استطاع هذا الضابط السياسي، ومن دون قوات تحت امرته، ان يوطد شيئا من السلطة في منطقة الحلة وفي منطقة الهندية أيضا، لكنه فشل في مهمته تلك في مدينة الديوانية وذلك لوجود قوة تركية كانت قد تمركزت في المدينة تحت أمرة ملازم شركسي[٢] حتى شهر آب من تلك السنة، ولهذا فلم يتم التقدم الى الجنوب من الديوانية.

ولقد ترك لسكان الشامية، والسماوة، والرميثة، أن يزاولوا قسرا وسائلهم الخاصة، كذلك اكد السر برسي كوكس لأسرة «كمونة» الكربلائية التي كانت على اتصال معه منذ سنة ١٩١٦، بأن تحتفظ بنفوذها الى حين ابداء ملاحظة اخرى بشأن ذلك.وحين اثيرت هذه الأسرة من قبل الاسر المنافسة[٣] استطاع كل من محمد علي كمونة، وفخر الدين كمونة، توطيد نوع من الأمن في كربلاء لعدة شهور.

ولما كان الحصار التام على الأتراك في كربلاء متوقعا، او منظما من قبل نظام حكم كان يوجه السباب اليه صراحة، فأن حكم آل كمونة لم يستطع ان يواصل وجوده، وسرعان ماتم عزل الأخ الأول، ولحق به الاخ الثاني، واذ ذاك تم ارسال ضابط بريطاني لادارة مدينة كربلاء ومنطقتها.

وفي مدينة النجف جوبهت السلطة البريطانية فيها، من قبل شخص يدعى «عطية ابو كلل» وهو رجل قوي كان يتزعم قبلا جماعة «الزغرت»،واستطاع أن يؤلف حكومة داخلية في النجف

---

(٢)كان هذا الضابط الشركسي يدعى الملازم محمد اغا

(٣) كانت اسرة (آل الوهاب) في مقدمة الاسر الكربلائية التي قاومت نفوذ آل كمونة.

خلال الفترة ١٩١٥ ١٩١٦، ولكن هذه الحكومة لم تستمر طويلا في شهر تموز سنة ١٩١٧ تم أرسال وكيل معتمد للحكومة البريطانية هو «حميد خان» (ابن عم اغاخان) من بغداد، ومن دون قوات تشد ازره، لكي يبذل جهده في تهدئة الوضع هناك.

ولقد ادت اعمال التمرد والمقاومة للاحتلال التي نشبت في النجف، خلال شهر تشرين أول، ومارافق ذلك من سخط نتيجة وصول اعداد كبيرة من عشائر «عنزة» الى المدينة، ادت هذه الأعمال الى وضع خطير، كان من نتائجه استقالة حميد خان من عمله، ووصول ضابط سياسي بريطاني الى الشامية[٤]

كان عطية ابوكلل مايزال قادرا على اشاعة الاضطراب والاعتصاب ليس في النجف وحدها حسب، بل وفي الكوفة وابي صخير ايضا. ولم يكن مستطاعا اعادة النظام الى حالهِ الا عن طريق الاستعانة بالمجتهدين. ولكن هذه الأوضاع كانت تتناقض بجلاء مع المهمات الضرورية لحكومة الأحتلال، ولذلك استقرت في شهر كانون الأول ١٩١٧ حاميات عسكرية صغيرة في مدن اواسط الفرات، يصحبها ضباط سياسيون بريطانيون حيث شرع بوضع البدايات الأولى للادارة الاعتيادية. استقر عطية ابوكلل في النجف، واقام علاقات له مع عجمي السعدون، ومع الأتراك، في الوقت الذي كانت فيه الأوضاع في السماوة وعشائر بني حجيم يسودها الاضطراب. وفي اوائل سنة ١٩١٨ وقع حادث وفر الفرصة للاختيار امام سلطة الحكومة في مناطق الفرات الأوسط، التي عانت لعدة شهور من الدعاية المعادية الممولة جيدا من المصادر التركية والألمانية[٥]

ومع انه لم توضع في النجف اية حامية بريطانية، الا ان المدينة بقيت لبضعة اسابيع، تدار من الكوفة بقوات شرطة جديدة، وببلدية مستعارة، وتوفير بعض الخدمات في المدينة، وتوزيع الهبات التي ترسلها عائلة الأودة في الهند، الى علماء الشيعة في الوقت المحدد لها.

في شهر كانون الثاني ١٩١٨ ادت النيران التي اطلقت بحدة على القوات الهندية، من وراء اسوار مدينة النجف، الى فرض غرامة على المدينة وفي اليوم التاسع عشر من شهر اذار قتل النقيب، «مارشال» مساعد الضابط السياسي البريطاني الذي كان يسكن في احد الخانات

---

(٤) هو النقيب بلفور الذي كان يتقن العربية وقد جعل مقره في الكوفة.

(٥) كان الانكليز كالعادة وحتى الان يعتبرون اي تمرد او ثورة ضدهم في ذلك الوقت وعلى الأخص في المناطق التي يحكمونها بأنها موحى بها وممولة من قبل الأتراك والألمان وهم يقصدون بذلك ان ينكروا الباعث الوطني الذي كان يحفز ابناء العراق الى مقاومة الاحتلال بشتى الطرق والوسائل كما حدث ذلك بالنسبة الى ثورة النجف سنة ١٩١٨ وكذلك الثورات التي حدثت في المناطق الكردية خلال سنتي ١٩١٨ و ١٩١٩، ١٩٢٠ فلقد كان الانكليز يعتقدون نتيجة تعاون بعض رؤساء العشائر ورجال الدين معهم بأن الحكم الذي كانوا يطبقونه في ظل الأحتلال كان حكما مقبولا من لدن الشعب، متجاهلين في ذلك تجاهلا تاما، الاحاسيس الوطنية وتطلع الناس الى التحرر والمساهمة في تشكيل حكومة وطنية تكون مقبولة من اكثرية الشعب. ونفس هذه النظرة الخاطئة كان الانكليز ينظرون بها الى الثورة العراقية الكبرى في سنة ١٩٢٠ وغيرها من الثورات اللاحقة.

خارج اسوار النجف. وكان مقتله هذا بداية حركة لمنهاج الماني منظم لحدوث مثل هذه الأعمال.

كانت قدسية مدينة النجف تتطلب في نظر السر برسي كوكس، وقائد الجيش البريطاني حمايتها من انزال العقوبة الصارمة بها،ولكن ابداء اي ضعف ظاهر ازاء ذلك من شأنه ان يؤدي الى نتائج اشد سوءا. ومن دون ان تطلق اطلاقة واحدة تم فرض الحصار تماما على المدينة. ولقد استنكر رئيس المجتهدين[٦] حادث مقتل النقيب مارشال، وبقي على اتصال مع القوات التي تحاصر المدينة.

في اليوم العاشر من نيسان اخذت المدينة تقوم بتسليم القتلة الذين تم تشخيصهم اضافة الى الذين اشتركوا معهم، وسرعان ماارتفع العدد المطلوب منهم الى مائة شخص وشخصين[٦] وقد ثبتت التهمة على اثنى عشر متهما حكم عليهم بالأعدام، بينما حكم ثمانية اخرون بالسجن مدى الحياة، وعلى اخرين غيرهم بالحبس لمدد اقل.

لم يجر الضباط السياسيون الذين كانوا يتقدمون الجيش البريطاني الزاحف، اي اتصال مع الاكراد قبل سقوط بغداد، ولذلك كانت العلاقات التي اقامها البريطانيون مع الأكراد بعد سقوط بغداد في شهر اذار ١٩١٧، مخيبة للآمال.ولم تعقب الرسائل التي تبودلت مع الأكراد الساكنين في كركوك وفي السليمانية اية رسائل اخرى. وكانت «خانقين» وهي المنطقة الكردية الوحيدة التي فتحت ابوابها امام التغلغل البريطاني،تعاني من اوزار الاحتلال الروسي لها. ولم تنتج عن الاتصالات التي اجراها الروس مع الاكراد قبل الحرب، سوى عودة اكراد كل المناطق المجاورة الى جانب الأكراد، وخسران حسن النية بشكل مؤلم.

ادى الأنسحاب الروسي الذي حدث في شهر حزيران بقواته المفككة، وبنصف ماكان لديها من الذخيرة،الى عودة الأتراك مجددا الى المناطق التي انسحب الروس منها، وتدمير كل مناطق الحدود. على ان هذا الأمر نفسه قد افسح المجال امام العمليات الحربية البريطانية التي وقعت في خريف سنة ١٩١٧ وأخيرا تم استقرار احد الضباط السياسيين البريطانيين في خانقين، بعد تسعة أشهر من التماسات كبيرة اجراها مصطفى باشا باجلان ومعه سكان الريف الذي اصابه الدمار[٧]

---

(٦) هو السيد محمد كاظم اليزدي راجع عنه علي الوردي: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث الجزء الخامس، القسم الأول ص ٦٢

(٦) يتضح هنا بكل جلاء مدى التعسف الذي جبل عليه الانكليز في معاملة الشعب العراقي الذي وقع ضحية احتلالهم البغيض في الحرب العالمية الأولى،في سبيل الأنتقام من الشعب لمقتل ضابط انكليزي واحد، وبقصد تحطيم روحية الكفاح ضد المحتلين، ابى الأنكليز الا ان يعتقلوا هذا العدد الكبير من الرجال الذين اتهموا بمقتل النقيب مارشال، وان يشنقوا اثني عشر رجلا فضلا عن العشرات الذين حكم عليهم بالسجن لمدد متفاوتة.

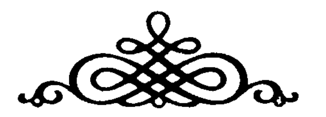
(٧) بدا الروس هجومهم على مدينة خانقين في صبيحة اليوم الثالث من شهر حزيران سنة ١٩١٦ وكانت القوات التركية التي واجهت ذلك الهجوم الروسي تتألف من الفيلق الثالث عشر الذي كان يقوده «علي احسان» اضافة الى الفرقة السادسة واللواء

تم احتلال مدينة كفري خلال شهر نيسان ١٩١٨،ولذلك بوشر بالعمل فورا لاعادة الأوضاع الأعتيادية الى منطقتي خانقين وكفري، وبذلك عادت الخصومات مجددا بين العشائر التي تقطن المنطقتين ماعدا عشيرة «سنجابي» التي كانت تسكن عبر الحدود.

كان تقدم القوات البريطانية باتجاه كركوك في ربيع سنة ١٩١٨ قد قوى آمال الانكليز في اجراء اتصال مع جنوبي كردستان، وقوبل وصول القوات الانكليزية الى كركوك من دون مقاومة تذكرمن الأهالي ومن عشيرة «هماوند» الكردية. غير ان تخلي البريطانيين عن كركوك قد أدى الى حدوث مآسي اقترفها الأتراك بعد ان اعادوا احتلال تلك المنطقة مع منطقة السليمانية مجددا. على ان الضباط السياسيين البريطانيين، استطاعوا من مقراتهم في كفري «وطوزخرماتو» ان يضمنوا اتصالهم باغوات الأكراد، وعلى الأخص بالناطق باسمهم المعروف الشيخ محمود البرزنجي بن الشيخ سعيد البرزنجي الذي قتل في الموصل سنة ١٩٠٨

كان تغلغل البعثة البريطانية الذي اعقبه تغلغل قوات بريطانية خفيفة في شمالي غرب بلاد فارس في اوائل سنة ١٩١٨، قد اضعف الجيش البريطاني بسبب التوسع المكثف،لكنه ادى من الناحية الأخرى الى الاتصال في اورميا مع الطائفة الآثورية.

انتهت الفترة العصيبة خلال سنتي ١٩١٦ ١٩١٧ بانهيار الروس،وادت الجهود التي بذلها الحلفاء الى توحيد كل العناصر المعادية للأتراك في اذربيجان•غير ان موقف الحكومة الفارسية الذي كان ينطوي على الضعف والتذبذب، قد ترك الباب مفتوحا امام التآمر والعنف الذي كان الجميع يمارسونه.



الخامس. واستطاع الأتراك احباط الهجوم الروسي، وارغام القوات الروسية على الأنسحاب من كل الجبهات الى قصر شيرين وسارت القوات التركية في اثر القوات الروسية المنسحبة فوصلت الى مدينة همدان الفارسية واحتلتها في العاشر من حزيران ثم ارتدت بعد تسعة اشهر الى خانقين في منتصف اذار ١٩١٧ (العميد محمود شكري نديم: الجيش الروسي في حرب العراق ١٩١٤ ١٩١٨ ص ٢٣ ٣١).

الفصل الرابع
الانتداب والملكية في العراق

١ ـ العراق بعد اعلان الهدنة

٢ ـ الادارة البريطانية خلال الفترة ١٩١٩ ـ ١٩٢٠

٣ ـ مقاومة البريطانيين

٤ ـ ثورة سنة ١٩٢٠

٥ ـ الملك فيصل الاول

١ ـ العراق بعد اعلان الهدنة

كانت الشهور التي اعقبت اعلان الهدنة في العراق ، والتي كان من المؤمل ان تشهد فترة من الراحة والثقة الجماهيرية العامة،قد تلاها فورا تجمع غير ظاهر في اول الامر لعناصر التذمر والتمرد ، لكن هذا التجمع مالبث ان اصبح مكشوفا فيما بعد ذلك ان هذه العناصر التي شملت قطاعات واسعة من الرأي العام ، ما فتئت ان توحدت ، وتحركت للعمل نتيجة ظهور حركة وطنية حمسة وثورية بين العناصر السياسية ، واستطاعت في سنة ١٩٢١ ان تخلق التمرد على القانون والاعتصاب بين العشائر في انحاء واسعة من البلاد[١] الامر الذي تطلب القضاء عليها عن طريق المبادرة بعمليات عسكرية كبيرة،استطاعت السياسة البريطانية التى استهدفت انشاء دولة في العراق والتي تم اعلانها قبل الثورة[٢] بعد فترة من التوقف تحقيق انشاء اول حكومة موقتة ، على ان تعقبها حكومة ملكية منتخبة في العراق. وفي خلال هذه المدة ، استطاعت ادارة اللاد ، التي كانت تدار مباشرة من قبل البريطانيين اولا ، ومن قبل البريطانيين والعراقيين فيما بعد ، ان تتطور وتتحسن بصفة عامة ، ماعدا الفترة التي وقعت فيها حوادث الثورة. وفي الوقت ذاته كانت تجري في الاقطار المجاورة للعراق ، حوادث لها اهميتها. فقد انشئت في اواخر سنة ١٩١٨ حكومة عربية في سوريا بدعم من البريطانيين ، في كل من دمشق وحلب ، تحت حكم الامير فيصل بن الحسين ، ذلك الامير الذي تربى تربية تركية وهو من اسرة امراء مكة المتحدرين من سل الرسول العربي محمد «ص» ، والذي استطاع ان يحقق له مكانة مرموقة في العالم العربي بحنكته السياسية وبشخصيته البارزة.

---

(١) لايفتأ المستعمرون وعملاؤهم في كل زمان ومكان ان يصفوا الحركات الوطنية الهادفة الى تحرير الشعوب واستقلالها بالتمرد والاعتصاب والعدوان وماشاكل ذلك من النعوت المبتذلة. فكأن الاحتلال والاستيلاء على اراضي الغير يعتبر من الامور المسموح بها من دون عقاب،وكأن البلد الذي احتلت ارضه ، وذل شعبه واهينت كرامته يعتبر معتديا ، اذا ما انتفض بوجه الظلم والاحتلال وثار لطرد المستعمرين والمحتلين من بلاده فلم تظهر في التأريخ الانساني كله ، اية حركة وطنية تستهدف التحرر والاستقلال ، الا ووصفت بالتهور والاندفاع ، وهذا الاندفاع والثورة هما اللتان يصفها المستعمرون بالعدوان كما يشير المؤلف الى ذلك صراحة الى بوادر الحركة الوطنية التي مهدت لثورة العشرين ضد الاحتلال البريطاني البغيض الذي جثم بكلكله على العراق ، وتنكر بسرعة لكل ماقطعه من عهود ووعود

(٢) كذب المؤلف فيما ادعاه من ان السياسة البريطانية كانت قد استهدفت انشاء دولة في العراق قبل الثورة ذلك لان بريطانيا لم تعلن اية سياسة لها في العراق سوى انتدابها عليه ولوقت لم يكن محددا ، كما ان التفكير في انشاء الحكومة الموقتة لم يخطر على بال الحكومة البريطانية الا بعد ان قامت الثورة والحقت الخسائر البشرية والمادية الكبيرة بقوات الاحتلال .

ولكن ازدياد الصراع داخل حكومة فيصل هذه والناجم عن المفهوم السياسي والبنية التنظيمية الداخلية اضافة الى مطالبة الفرنسيين يتولى الحكم في سوريا وتقاعس الحكومتين البريطانية والامريكية عن تخفيف هذه المطالبة [٣] ، كل هذه العوامل قد ادت في شهر تموز سنة ١٩٢٠ الى انهيار الدولة العربية في سوريا ، واختفائها ، وذلك حادث اطلق الحرية للامير فيصل بعد سنة من ذلك التأريخ للبحث عن مصير اخر له

وفي تركيا المحطمة التي كان شعبها وجيشها على وشك الانهيار والتي لم تعد قوية الا في مضايقة جارها العراق ، بما كانت تهدد به حدوده من اخطار ، سرعان مابعث مصطفى كمال الحمية في نفوس الاتراك فاصبحت تركيا في سنة ١٩٢١ تمثل تهديدا مؤكداً لولاية الموصل

اما في بلاد فارس التي مزقتها الحرب واضعفتها فقد تم التوصل في شهر اب سنة ١٩١٩ الى اتفاق مع الحكومة البريطانية بشأن اعادة الاستقرار الى البلاد وتحقيق تقدمها بمعرفة من بريطانيا. ولكن هذا الاتفاق فشل في سنة ١٩٢١ في الحصول على موافقة المجلس الفارسي عليه، بينما تمت المصادقة من قبله على عقد معاهدة مع الدولة السوفيتية الجديدة ، حيث ادى ذلك الامر فيما بعد الى حدوث تقدم سريع باتجاه السلطة العليا ومن ثم الوصول الى العرش من قبل واحد من اقسى الدكتاتوريين تعسفا وكفاءة [٤]

وفي بريطانيا كانت قضية مستقبل العراق قد احتلت نصيباً ملموسا من الاعمال الرسمية والبرلمانية في ذلك الوقت ذلك ان وضع العراق باعتباره ولاية عثمانية سابقة، كان لابد من ادخاله ضمن معاهدة الصلح مع تركيا بمثابة مقدمة للتصرف بشأنه. فالالتزامات التي اعطيت اثناء الحرب للفرنسيين (اتفاق سايكس بيكو) [٥] والوعود التي قطعت لحكومة الحجاز [٦]، والضغط الذي مارسه الرئيس الامريكي (تيودور ولسون» بشأن حق تقرير المصير للشعوب ، والمصالح الستراتيجية البريطانية في الشرق الاوسط ، والمسؤولية المترتبة على تحقيق الامن والتقدم في العراق ، لدى الجمهور الذي اقيمت الان معه روابط شخصية وثيقة ، كل هذه الامور كانت من العوامل التي ينبغي التوفيق فيما بينها

---

(٣) يكذب المؤلف للمرة الثانية عامدا فهو يعرف جيدا ان بريطانيا وفرنسا قد تآمرتا ، قبل ان تنتهي الحرب العالمية الاولى ، على البلاد العربية واقتسامها فيما بينهما ، اما امريكا فانها فرضت على نفسها العزلة في اعقاب الحرب العالمية الاولى ولم تحاول ان تمد نفوذها الا بعد وقت غير قصير

(٤) المقصود به رضا بهلوي القوقازي الضابط في حرس شاه ايران الذي تغلب عليه وقضي على الاسرة القاجارية الحاكمة ونصب نفسه شاها على بلاد فارس وقد بدأ بحركة الانقلابية في سنة ١٩٢١

(٥) اتفاق سايكس بيكو السري بين الانكليز والفرنسيين الذي قسم البلاد العربية التي انسلخت عن الدولة العثمانية بينهم فاعلنت بريطانيا انتدابها على العراق وفلسطين ، وفرنسا على سوريا ولبنان

(٦) الملك حسين [illegible] علي الذي اعلن نفسه ملكا على الحجاز ولكن حكمه لم يدم طويلا بعد ان رفض السماح باقامة وطن قومي يهودي في فلسطين ، [illegible] فضل الانكليز عليه عبد العزيز بن سعود الذي كانت لاسرته روابط مع الانكليز منذ القرن الثامن عشر

ولما كانت الصفة القانونية لعصم العراق الى بريطانيا لم ينطلق اي صوت للدفاع عنها في الوقت الذي كانت فيه الاصوات التي تطالب بجلاء الانكليز عن العراق قليلة، فان المشكلة لايمكن حلها الا في اطار صياغة دستور، وايجاد وضع سياسي لدولة العراق المقبلة، ولذلك تضاربت الاراء حول هذا الموضوع لدى الذين يحكمون بغداد، ولدى الحكومة البريطانية (الوايتهول)

فلو ان الحكومة البريطانية بما توفر لديها من معلومات وافية وقوية وبعيدة عن نطاق ضيق التفكير، قد اقدمت على اتخاذ قراراتها بمزيد من الحكمة والسرعة ولو امكن ابراز خطة لاقامة حكومة ذاتية عراقية الى حيز التنفيذ، وان مثل هذه الخطة قد طبقت فعلا وبشكل متقدم في اوائل سنة ١٩١٩ ولو قلصت اجراءات اللجنة التي تألفت لهذا الغرض ولم يتم التطويل فيها، لامكن التغلب على الاحتجاجات التي كان يبديها «ارنولد ولسون» ومماحكاته وربما لواعيد السير برسي كوكس الى بغداد لو حدث كل ذلك، لامكن آنذاك تجنب الكثير من المتاعب والخسائر وما خلفته الحدة والشدة من آثار

وفي الوقت ذاته كانت الحرب قد انتهت وتم احتلال كركوك، واربيل والموصل وفسرت بنود اتفاق الهدنة بشأن هذه المحافظات وشملت الجيش البريطاني عن طريق ادارته المدنية( ) في تأسيس حكومة مباشرة لولاية الموصل برمتها، ذلك الاقليم الذي لم تجر معه في اي وقت من

(*) من بين الضباط البريطانيين الذين انضموا الى الادارة المدنية خلال الفترة بين سقوط بغداد واعلان الهدنة هم كل من «بارلباي»، و «ماي» (للمالية) وسفرايت (للكمارك) و «بومان» (للتربية) اما الضباط القانونيون فهم كل من بوبهام كارتر ودراور، وبل، ونورتن، وضباط المرتزقة بويل، وكاننغ برس، وبتولف وهول والضباط الطبيون هم كل من الاطباء باتاي كيري ايفانس، وهجس، وذ مؤسسات الشرطة العراقية، كونس، وديفز. وبرسكوت، وولكنس وفي تسجيل الاراضي رويدز، وضباط سياسيون في مختلف الواجبات الادارية كل من بلفور، وبوردلون وبراون وبيري وكوك. ودالي ودتشبورن، غ ف ب جلان، سي ج هوكر، و هاي، س لي هجكوك. ر ف جاردان ج ف جفري، هـ اي لويد، ستيفن همسلي لونغرغ (مؤلف الكتاب) ميك ل ف نادلر ب ف نور برى، هـ.س بولي، ج سكلر س، ج س تومبسون، وتيلر، ووينغيت ويتس. وقد حذفت هذه القائمة عشرات من الضباط الذي عهدت اليهم مهمات بدلا من مهمة الضابط السياسي لفرقة من فرق الجيش

وفي الفترة مابين الهدنة وتشكيل الحكومة المؤقتة في تشرين الاول ١٩٢٠ تم نقل دائرة الزراعة العسكرية الى الادارة المدنية ونقل اليها كل من جي س كامرون، ر ج غراهام (بمنصب مدير)، ج ف وبستر، ر.ڤ. جيسمان توماس ولدائرة الري ل لويس (بمنصب مدير)، ب ل بورز، ر جى غارو، ب ج سلير، ب ابتكن، غ و شارب، ج ستراشان ولميناء البصرة سي وورد(مدير) وللبريد والبرق، ڤ كليريسي، ڤ دي سمدت. و و غمبلي، وللسكك الحديدية غ لوبوك (مدير) تينش. ڤ ج كيبرناتدر ودخل ف كونلف اون. الخدمة رئيسا للجنة تعويضات اللاجئين، ف و بيري للمساحة سي جادويك للبيطره وجند للاشغال العامة كل من ڤ. هـ. دي. ڤ اتكنسون. كيري وكلاي وليتام. هـ. هـ. ويلي، ج م. ن، وفي مطبعة الحكومة كامرون ودائرة المالية س. باري.

الاوقات ، سوى اتصالات بريطانية ضئيلة ، ثم انقطعت تلك الاتصالات طيلة اربع سنوات بصفة مطلقة.

اوجدت اوضاع الحرب ، في كل مكان ، نقصاً ساحقا في التموينيات ، وهجرا للقرى ، ومجاعة في بعض الاماكن•غير ان ولاء العشائر كان قويا ، وظلت السلطة الفردية سليمة والسيطرة الابوية للاغوات مازالت غير معرضة للاهتزاز. فبالنسبة الى هذه العناصر الموغلة في القدم،والتي خفي البعض منها جزئياً تحت طقوس التدين الظاهرة ، وما اضيف اليها من عناصر اخرى قد ادت سنة ١٩١٨ الى نهاية ما فقد وجد الاغوات ان من غير المتصور ان تزول حكومة «الخليفة» الى الابد من الاقضية ومن الوديان ، وماذا عن الانكليز المسيحيين القادمين حلفاء الروس الكفار؟ لقد وجد الكثيرون ان من الملائم لهم ان ينشروا الدعاية للجامعة الاسلامية،والتي كان التاريخ الطويل اللازم لعقد معاهدة الصلح مع تركيا ، يوفر وقتا واسعا ملائما لها وكذلك لم يكن الحكم الجديد محبوبا، بسبب ماذيع عن الكفاءة التي يتمتع بها، ونتيجة صداقاته التي اقامها مع العرب. ومن سوريا تدفقت الحكايات عن قيام دولة عربية في دمشق كما تزيد في تشجيع المفاهيم المهمة الممزقة ، حول «الاستقلال الكردي»،وذلك ما كان يتوقعه قبلا،ليس المهاجرون الاكراد في باريس والمثقفون الاكراد ، او الفتيان الذين سيتولون الزعامة في مدن الجزيرة الشمالية حسب،بل المقبول ظاهريا بصفة اكثر من قبل اللجنة الكردية ذاتها في اسطنبول،والتي يتزعمها سيد عبد القادر شمدينان وحتى لدي ابن اخيه «سيد طه» الذي كان يترقب الفرص في مدينة «نهري» لكي يقطع عنق اسماعيل اغا (سمكو) عند منطقة الحدود الفارسية ، بل وحتى بالنسبة الى الشيخ محمود المسيطر على السليمانية

لقد تطورت مثل هذه الافكار تطورا جيدا عن طريق الدعاية المثيرة للاضطراب التي كانت تهب بلا انقطاع عبر الحدود التركية ، والتي قيل عنها بان العملاء البلشفيك كانوا يساهمون في نشرها ايضاً

اما بالنسبة الى النداءات والدعوات الصادرة من الاكراد القاطنين في بلاد فارس والحانقين على حكومتهم الخاصة،فان الممثلين البريطانيين لم يستطيعوا ان يفعلوا شيئا سوى الرد على ذلك سلباً

ولقد ادى هذا الامر ، ومارافقه من انعدام وجود القوات البريطانية في كردستان،والحكايات التي ترددت عن جلاء تلك القوات عن العراق ذاته ، الى اضعاف اعتبار البريطانيين وهيبتهم. يضاف الى هذا ان الاتراك الموجودين في جزيرة ابن عمر و «وان» و «بشقالا» ،والاغوات الخاضعين لهم قد استطاعوا ان يثيروا الريبة والشكوك لدى الاكراد ومن هنا غدت مهمة تأسيس حكومة مقبلة امرا لامجال الى تحقيقه

والواقع ان موقف الاداريين الجدد الشباب منهم والمتحمسون لذلك . كان يمثل ثقة

صريحة صادقة ، ذلك لان حسن نواياهم واهتمامهم القوي بمكانة البريطانيين، كل ذلك قد جعل الاداريين الجدد يواجهون المخاطر بشجاعة كبيرة في المكان وفي الزمان معا لقد وطد هؤلاء العزم على ان يحبوا الغير ويكونوا محبوبين. والحقيقة انه على الرغم من الحوادث المؤسية التي اتسمت بها الشهور القلائل القادمة ، فقد نمت كثير من الصداقات المخلصة بين الرؤساء الاكراد ، والضباط البريطانيين

وهكذا وعن طريق اعادة الحياة الاعتيادية في وقت مبكر ، وبصفة افضل من الامن المعتاد ، تم تحقيق ادارة فعالة ، بحيث تحققت لدى بعض الاغوات لاول مرة ،الامكانيات القائمة لانشاء حكومة امنية متماسكة ، حتى وان كانت مثل هذه الحكومة لابد وان تحدد المراكز الخاصة لأولئك الاغوات

تميزت تلك الفترة بتغلغل متسارع الخطى للمفاهيم الغربية،ولوسائط النقل العصرية في كردستان،فازداد النقل بين الموصل وبغداد ، وفتحت طرق جديدة ، ومنح تشجيع فعال لزراعة المحاصيل من التبوغ ، والكروم ، والقمح ، والرز ، والفواكه ، واعيد شحن الاسواق بالمواد ، وانتشار الثراء

تم ، منذ الايام الاول للاحتلال،تعيين الضباط السياسيين البريطانيين في كل من كركوك والتون كوبري ، واربيل والموصل ذاتها ، وذلك في اعقاب نقل العقيد لجمن من الصحراء ، وكذلك في الاقضية الكردية ، حيث سلمت الى القائمقامين هناك ادارة ماتزال في عهد التكوين . ولقد تراءى للحكومة البريطانية خلافاً لآراء الفرنسيين ، بان على حكومة الموصل ان تتجنب التشبه بالحكومات القائمة في القسم الادنى من العراق ، غير ان مثل هذا التمييز لم يكن له اي تأثير عملي ، ولم يتحقق من لدن الجمهور العام ، ماعدا فئة من المسيحيين الذين كانت تحميهم فرنسا ، والذين اعتادوا اثارة الاضطراب هناك

اقيمت حاميات عسكرية صغيرة في كركوك ، والتون كوبري ، واربيل والموصل ، وفي زاخو ودهوك . غير انه لم توضع اية حامية ضمن الجبال المرتفعة.ولكن حتى اذا كانت الادارة المحسنة تمارس اتصالاتها الودية ، وتعطي مثل هذا التاكيد المحدد جهد المستطاع،فقد ظهرت على الفور دلائل تشير الى ان دعاية متشددة من المناطق القريبة من تركيا ، قد اخذت تنشط نشاطا فعالا ذلك ان جماعة من عشائر الغويان استطاعت ان توقع النقيب بريسون ، الضابط السياسي في زاخو ، في كمين نصبته له ، ففتكت به خلال شهر اذار سنة ١٩١٩ (٦) ولم يتم الثأر لمقتله

---

(٦) كانت حوادث اغتيال الضباط السياسيين الانكليز في الشمال من صميم الثورة التي قامت بها العشائر الكردية ضد الاحتلال البريطاني منذ اوائل سنة ١٩١٩ ، وقبل ان تبدا الثورة العراقية الكبرى في اواسط العراق وادانيه . فلقد احتل الانكليز مدينة زاخو في اليوم الاول من كانون الاول سنة ١٩١٨ وخلف النقيب «بيرسون» النقيب «ووكر» الذي عين اول الامر،وقد تم تدبير =

وبعد مرور ثلاثة اشهر على وقوع ذلك الحادث قتل النقيب «ولي» مع اثنين من الضباط السياسيين هما النقيب «مكدونالد» والقناص «تروب» على يد فريق من الرؤساء والساخطين في مدينة العمادية[٧] ولكن في هذه المناسبة تم اتخاذ اجراءات عقابية فانزل العقاب بقبيلة «برواري كولي» وبعض العشائر المتشابكة وطبق حكم الاعدام بالجناة

اخذت الارتال العسكرية تتغلغل،وان لم يكن من دون اصابات كانت تلحق بها ، وتواصل التقدم ، وتجابه السير ، في تلك البلاد الشاقة ذات المسالك الوعرة ، بما في ذلك المناطق التي تسكنها قبائل «الغويان»-ولكن وجد ان من الحصافة ان يجري سحب مساعد الضابط السياسي من العمادية الى دهوك ، حيث عهد بالسلطة الى احد الزعماء الاكراد المحليين هناك

ولقد حدثت مثل هذه الطعنات من الخلف في منطقتي «عقرة» و «برزان» بصفة مشتركة مع ماحدث في الزيبار،ذلك الحادث الذي اثاره شخص نصف مجنون هو الشيخ احمد البرزاني . كانت علاقات هذا الشيخ متوترة جدا مع الاتراك الموجودين في «وان» ومع الرؤساء القاطنين عبر الحدود

اقدم الضابط السياسي الانكليزي «بل» الذي خلف العقيد «لجمن» في الموصل ، نتيجة سبب كاف ، على فرض الغرامة على اثنين من الزعماء الزيباريين وذلك في شهر تشرين الاول سنة ١٩١٩ وكان ذانك الزعيمان صديقين للشيخ احمد في تلك الفترة ، وقد تقبلا منه المساعدة في توجيه هجوم مركز على ذلك الضابط السياسي ومساعده النقيب «سكوت» عندما كان الضابطان يقومان بجولة على مقربة من «بيرا كبرا» في اقليم الزيبار[٨]-قتل الضابطان واثنان من

اغتيال بيرسون من قبل السيد «حسو دينو» احد رؤساء الغويان ، حيث اعد هذا خمسة عشر رجلا من رجاله ففتكوا بالنقيب «بيرسون» على مقربة من قرية «بيجو» في اليوم الرابع من شهر نيسان ١٩١٩ وجردوا معيته من السلاح والامتعة والدواب. (انظر المرحوم عبد المنعم الغلامي ثورتنا في شمال الوطن ج١ من ٢٧ ط ١٩٦٦)

(٧) انتشرت الثورة في العمادية مثل بقية الانحاء الكردية الاخرى ، وكان النقيب «ويلي» قد عين بوظيفة معاون الحاكم السياسي في العمادية في ٢٨ حزيران ١٩١٩ ولذلك قرر زعماء العمادية وفي مقدمتهم الحاج رشيد بك القيام بهجوم على مقر الحامية البريطانية في العمادية،حيث اسفر ذلك الهجوم الذي وقع ليلة الخامس عشر من تموز ١٩١٩ عن مقتل النقيب مكدونالد والعريف تروب ، واحد الاطباء وهنديين من دائرة البرق وثلاثة وعشرين فردا من افراد الشبانة.ولقد ايد الزعيم الدين الشيخ بهاء الدين النقشبندي في العمادية تلك الثورة (المرجع السابق ص ٤٢ ومابعدها) وكذلك كتاب الدكتور كمال مظهر احمد الشعب الكردي في ثورة العشرين العراقية «طبعة ١٩٧٨»

(٨) «بيرا كبرا» كانت مركز الناحية في قضاء عقرة في سنة ١٩٥٣ وكان «بل» وهو برتبة عقيد قد وصل الى الموصل خلفا للعقيد لجمن وذلك في ١٢ [illegible] اول ١٩١٩ وقد طلب الى زعماء الزيباريين ومنهم فارس اغا واخوه محمود اغا ان يسلموا كفالة نقدية بشأن [illegible] الامن تبلغ اربعة الاف روبية لكل رئيس منهم ، وعلى هذا الاساس قرر الرؤساء ان يفتكوا به وحصلوا على [illegible] في ذلك،وكمنوا للعقيد «بل» ومساعده النقيب «سكوت» عند شريعة دلان على نهر الزاب [illegible] الى الشريعة اطلق اصحاب الكمين النار عليهم فقتل النقيب سكوت اول الامر ، ثم لحق [illegible]ك معهما احدهما من عقرة والثاني اثوري وعلى اثر ذلك اشتعلت نيران الثورة في منطقتي

رجال الجندرمة معها واعقب ذ لك نهب مدينة «عقرة»، ولكن سرعان ماتحطم التحالف القبلي فعاد البرزانيون الى مواطنهم،واذ ذاك تجمع سكان عقرة وطالبوا بعودة الضابط البريطاني لحمايتهم فنجحوا في ذلك حيث تحرك رتل عسكري الى منطقة الزيبار لانزال العقاب بها ، واقدم رجال ذلك الرتل على حرق بيوت الزعماء الزيباريين ، الذين ذهبت جهودهم هباءا ، لاثارة ثورة عارمة ضد البريطانيين.كذلك لم يستطع قائمقام «نهري» عبر الحدود ان يحرك «سيد طه» او عشيرة «الاورامار» لمساندتهم

كان حلم بعض متزعمي الاكراد بقيام كردستان تحت رعاية البريطانيين قد ظهر بانه اوشك ان يتحول الى واقع في مدى اسابيع،وذلك بعد ان اصبح الاغوات يفدون على مدينة السليمانية ويغادروها وبعد ان اخذ البريطانيون في اعقاب اختفاء الاتراك من المنطقة ، يشجعون هذه البوادر ويضعون الخطط لتنفيذها وينفقون عليها بسخاء

غير ان ذلك الحلم لم يتحقق لان مثل هذه التجربة كانت، في الواقع تنقصها كل عوامل النجاح العملي كان الشيخ محمود ، لما له من اتباع واعتبار هو المرشح الوحيد لرئاسة حكومة كردية تقام في جنوبي كردستان.غير انه لم يكن متزنا وكان اتباعه ، وعلى الاخص الرؤساء منهم يبتغون الهدايا والهبات من دون ان يتقبلوا اية التزامات تربطهم، وكانت المفاهيم السياسية لهؤلاء الرؤساء وتجاربهم وتأخرهم الاجتماعي ، واخلاقهم ومستوى تطورهم ، كان كل ذلك يحول دون استطاعة الشيخ محمود من انشاء احط مستوى لاية حكومة

ففي غضون اسابيع فترت همة العشائر المؤيدة له ، واعيد العمل بالسلطات التي كان الحكمدار السابق يطالب بها وحين اضمحلت حدة الرخاء الذي عاد الى المنطقة ، نجم عن ذلك تمرد عام ضد الشيخ محمود.وفي الوقت ذاته سمح لعشائر الجاف في حلبجة بالانفصال عن نفوذ السليمانية،وعين ضابط بريطاني هو المقدم «سون» في منصب الحاكم السياسي لحلبجة وكان «سون» هذا من الذين ينتقدون الشيخ محمود بشدة

الزيبار وعقرة (عبد المنعم الغلامي ثورتنا في شمالي الوطن ص ٧٥ ومابعدها) والحقيقة ان الاجراءات التي اقدمت عليها سلطات الاحتلال الانكليزي كانت نابعة في الاساس من التخطيط الاستعماري الانكليزي لشق الوحدة الوطنية في العراق ، وتضخيم الثغرة بين الاكراد والعرب ، وبذر بذور الفتن والاضطرابات التي توارد حدوثها طيلة العهد الملكي والتي اشتدت في العهد الجمهوري. فلقد قطع الانكليز منذ الحرب العالمية الاولى وفي عهد الاحتلال والانتداب عهودا ووعودا كثيرة للزعماء الاكراد كانت تفسر في نظر قصيري النظر من المتزعمين والمتزمتين بالانفصال التام لكردستان عن بقية الوطن العراقي رغم ان كردستان عاشت الوف السنين في نطاق موحد مع بقية اجزاء القطر العراقي واختلط نضال الاكراد بنضال العرب وغيرهم في الدفاع حتى في العهود القديمة عن تربة العراق ووحدة اراضيه ، وتضامن شعوبه وانصرافها الى العيش سوية في سلام ورخاء،وذلك امر كان يضير المستعمرين وعملاءهم من اصحاب النوايا الخبيثة، والمصالح الانانية الضيقة الذين لايفكرون لا في مصلحة الشعب الكردي ولا الشعب العربي ولا مصلحة الوطن سواء كان الاكراد ام العرب هم الذين يقطنون هذا الوطن وينبغي لهم ان يحافظوا على امنه وسلامته من اي اعتداء يقع عليه

ازدادت العلاقات توتراً ومشقة ذلك لان الحاكم[٩] لم تكن لديه الحكمة ولا المعرفة في مقاومة مستشاريه،وهكذا لم يعد مستطاعا تأجيل الازمة واخيرا وعلى حين غرة في شهر ايار سنة ١٩١٩ ، حرك الشيخ محمود عصابة من انصاره وفدت عبر الحدود الفارسية،فاعتقل الضابط السياسي الانكليزي في السليمانية،وقطعت المواصلات واعلن استقلال كردستان، اما الضابط السياسي البريطاني في حلبجة فقد استطاع الهرب بمساعدة من «عادلة خانم»[١٠].على ان الاسرى من الانكليز قد تم احتجازهم في السليمانية من دون ان تساء معاملتهم،وما لبثت السلطات الانكليزية ان ارسلت نجدة محسنة من القوات الهندية والسيارات المدرعة على الفور،فتقدمت من كركوك،لكن هذه النجدة ارغمت على التراجع في مضيق «طاسلوجة»[١١] ومع كل ذلك فلم يزدد عدد قوات الشيخ محمود ولم تقف العشائر الكبيرة الى جانبه.

استغرقت عملية تجميع قوات بريطانية اكثر فعالية من الحاميات المتناثرة في محافظة الموصل زهاء شهر من الزمن،ثم اعقبها حدوث تقدم آخر قام به لواءان من كركوك. التحمت المعركة في السابع عشر من شهر حزيران في مضيق بازيان حيث تمزقت قوات الشيخ محمود ووقع نفسه اسيرا وهو متخن الجراح ،[١٢] واذ ذاك اخذت القوات البريطانية تتوافد في ارتال على المناطق الكردية،لاعادة الامن والاطمئنان،حيث استطاع المقدم «سون» اقامة ادارة اعتيادية في السليمانية ، وشهدت المنطقة فترة انتعاش وتقدم نتيجة انتشار قوات الشرطة المحلية فيها ،

---

(٩) المقصود به الشيخ محمود نفسه

(١٠) كان الضابط السياسي الانكليزي في حلبجة انذاك هو النقيب «ليز» من ضباط الطيران وقد عين في ذلك المنصب في الرابع عشر من اذار ١٩١٩ وقد هرب من حلبجة عندما حاصره فيها انصار الشيخ محمود ، وكان القصد من ذلك الحصار هو اعادة حلبجة تحت نفوذ الشيخ محمود ، وهكذا وصل النقيب «ليز» الى خانقين سالما اما «عادلة خانم» فهي زوجة الشيخ عثمان رئيس الجاف وكانت على اوثق علاقة بالمقدم «سون» من قبل الحرب ومابعدها. وقد منحها الانكليز لقب «خان بهادر»،وحين حاولت مجموعة من عشيرة «دزئي» الموالية للشيخ محمود الهجوم على دار عادلة خانم ، تحرك الانكليز انذاك فقامت طائرتان حربيتان بتدمير قريتي «بارام اوه» و«بلخه» وقرى اخرى في هورمان (د. كمال مظهر احمد دور الشعب الكردي في ثورة العشرين العراقية ص ١٤٢)

(١١) كانت القوة الانكليزية التي وصلت الى «طاسلوجة» تتألف من حوالي خمسة الاف رجل يقودها الرائد «بومي» وحين علم الشيخ محمود بذلك خرج بقواته لملاقاة القوات الانكليزية،وصلت القوات الانكليزية الى طاسلوجة في الخامس والعشرين من ايار ١٩١٩ والتحمت في معركة مع الثوار استمرت من الصباح حتى العصر ، وانتهت بهزيمة القوات الانكليزية وتراجعها الى كركوك تاركة وراءها اكثر من مائة قتيل،ومن ثم واصل الثوار تحركهم فاستولوا على جمجمال وكان اول الداخلين اليها عبد الكريم الهاوندي على رأس خيالته،وتم اسر النقيب «بوند» الحاكم السياسي في المدينة وارساله مخفورا الى السليمانية ومن ثم انتشرت حوادث الثورة الى كل من رانية وكويسنجق (عبد المنعم الغلامي ثورتنا في شمال الوطن ص ٩٨ - ١٠٠)

(١٢) بعد ان وقع الشيخ محمود في الاسر نقل الى بغداد وجرت محاكمته امام مجلس عرفي عسكري حكم عليه بالاعدام وعلى صهره الشيخ محمد غريب بالسجن خمس سنوات وتغريمه عشرة الاف روبية،ولكن الحاكم الانكليزي العام في العراق ابدل حكم الاعدام على الشيخ محمود بالسجن لمدة عشر سنوات ثم نفيه هو والشيخ محمد غريب الى الهند،حيث لبثا فيها حتى سنة ١٩٢٢ حين تم اصدار العفو عنهما واعادتهما الى الكويت ومنها الى السليمانية (المصدر السابق ص ١١١).

وتنشيط العمل بالاقدام على شق الطرق وبنائها

وفي راوندوز وجد الضابط السياسي البريطاني الذي عين هناك لاول مرة في شهر كانون الاول ١٩١٨ انه يستحيل عليه استتباب الامن من دون دعم عسكري ولذلك تم سحبه من هناك في شهر تموز ١٩١٩ الى «باطاس» وعين مكانه في راوندوز احد الارستقراطيين من الاكراد ، لكن الاضطراب مالبث ان تعاظم في المنطقة اكثر من ذي قبل وقد اشتد وتضاعف في اعقاب الاضطرابات التي وقعت في عقرة في شهر تشرين الاول[١٣]

في اوائل سنة ١٩٢٠ تكشفت الامور عن الفوضى والاضطراب ففي زيارة محفوفة بالمخاطر ، قام بها الضابط السياسي الانكليزي في اربيل[١٤] للمنطقة ، وجد ان انقاذها من الفوضى الضاربة اطنابها فيها ، انما يتمثل في تعيين احد الشبان من الاكراد المثقفين وهو ، اسماعيل بك ، ممثلا للحكومة هناك[١٥]

كان موقف قبيلة «شمر» مترجرجا على الدوام ولايمكن تقديره اذ كان البعض من رؤسائهم المحاربين يقومون على وجه اصح ، بزيارة الحكومة الجديدة ،بينما كان البعض الآخر منهم ينتهز فرصة حدوث الاضطراب لكي يغير على عشائر الجبور الذين يقطنون على ضفاف الانهار،ولقد اخفق «العاصي» الزعيم الاسمي للقبيلة والمحارب المراوغ في الظهور مرة اخرى وبالنظر لاعمال السلب الكبرى التي قامت بها «شمر» على الطرق خلال شهر ايلول سنة ١٩١٩ فقد تم فرض غرامة كبيرة عليها ، كما وجهت الحكومة ذاتها غارة معاكسة ناجحة

تم توطين عدد ممن يمتهنون حرفة الزراعة في بعض الاراضي لكن الاكثرية الرحالة بقيت موزعة هنا وهناك ، حيث بقي القسم الاكبر منها والذي يرأسه «دهام الهادي» حفيد «العاصي» بعيداً عن نطاق السيطرة في الاراضي السورية

* * *

كذلك شهدت المنطقة العليا من الفرات خلال سنة ١٩١٩ اكثر من مجرد الاضطراب العشائري،ولقد انبعثت المتاعب في هذه المنطقة من التجاوزات الحادة التي كانت تقوم بها العشائر المجاورة لها في الاراضي السورية،والتي تحكمها الان حكومة عربية يساندها البريطانيون. ولقد ادى

---

١١) كان الحاكم السياسي في راوندوز هو النقيب «كيرك» وقد عين في عقرة بعد القضاء على الثورة فيها

(١٤) كان الحاكم السياسي البريطاني في اربيل انذاك هو النقيب «هاي» الذي دون مذكراته في كتاب اصدره في سنة ١٩٢٠ بعنوان «سنتان في كردستان» ولقد قام المرحوم فؤاد جميل بترجمة هذا الكتاب الى العربية واصدره في جزئين سنة ١٩٧١

(١٥) هو اسماعيل بن سويد اغا بن عبد الله باشا من زعماء بلدة «باطاس» وقد عينه النقيب «هاي» حاكما على مدينة راوندوز باتفاق العشائر الموجودة هناك .

لغياب الامير فيصل في اوربا[١٦] ، ونفاد صبر الضباط العراقيين بشكل مباشر ، الى حدوث اعمال عدوانية على الحدود ، نتيجة دوافع سياسية محضة

في شهر كانون الاول من سنة ١٩١٨ تم ارسال ضابط سياسي بريطاني لملء الفراغ الحاصل في دير الزور[١٧] من دون ان يدعم باي عون عسكري،كان احد المحافظين العرب الذي عين لذات المنصب من لدن حكومة حلب ، قد تم سحبه[١٨] غير ان الدعاية الشريفية مالبثت الان ان تدفقت على هذه المنطقة،تلك الدعاية التي كان يقوم بها حزب «العهد» العراقي ، الذي انبعث مجددا تحت زعامة ياسين الهاشمي ، وهو قائد فيلق تركي سابق ، ويتولى منصب رئيس اركان قوات «فيصل» في دمشق وكانت هذه الدعاية تنادي بالقومية العربية ، وبالثورة ضد الاجانب

جرت في صيف سنة ١٩١٩ محاولات للاتفاق على تسمية الحدود بين العراق وسوريا لكنها انتهت الى تسوية غير حكيمة،وذلك بجعل نهر خابور ذاته يمثل خط الحدود بين البلدين.ولقد قيل بان الامير فيصل نفسه كان قد وافق على هذا الاجراء الذي تم التوصل اليه مع الفرنسيين،ولكن الاتفاق ظل غير معمول به ، واشتد الضغط على البريطانيين لكي يخلوا محافظة دير الزور كلها ، مادامت قواتهم قد جلت كلها في الواقع عن الاراضي السورية باكملها في تلك اللحظة. واذ قاربت سنة ١٩١٩ على الانتهاء ابرزت الشائعات العشائرية وما رافقها من تعيين قائمقام من لدن السلطات السورية على المدن التي جلت عنها القوات البريطانية ، دلائل واضحة على ان الهجوم الشريفي على منطقة «دير الزور» يوشك ان يقع

شهدت السنة التي اعقبت الهدنة تغييرا طفيفاً بين العشائر التي تسكن القسمين الاوسط والادنى من العراق فقد اجريت هناك بعض الاستبدالات في الزعامة العشائرية واعيد البعض من الخارجين على القانون الى اماكنهم كما رجع المنفيون من الاراضي التركية ومن الهند ، الى مواطنهم ، وغدت حركة التنقل اكثر حرية بعد ان زالت القيود التي فرضت اثناء الحرب ، واستؤنفت الاعمال التجارية المعتادة ، وزادت الفة الناس لسكة الحديد وللسيارات وقد صحب ذلك وقوع البعض من حالات الاقتتال بين العشائر ، وحدوث غارات قليلة من الطراز

---

(١٦) كان فيصل في ذلك الوقت قد ذهب الى باريس لحضور مؤتمر الصلح الذي عقد هناك لغرض ان يدافع عن حق العرب في الاستقلال والسيادة اعتمادا على العهود التي قطعها الانكليز لابيه الملك حسين.

(١٧) كانت الحكومة العربية في سوريا قد احتلت دير الزور في اوائل كانون الاول ١٩١٨ وعينت عليها مرعي باشا الملاح يعاونه في ذلك احد اشراف المدينة المنورة المدعو على الناصر،وحين اخذ «علي الناصر» يشتد في معاملة اهل الدير نظم البعض من سكانها مذكرة سرية تقدموا بها الى الحاكم السياسي البريطاني في عانة راجين فيها وضع دير الزور تحت الاحتلال البريطاني،وعلى اثر ذلك ارسل الانكليز النقيب «كارفر» مع بعض المدرعات والسيارات لاحتلال المدينة ،واخيرا رجع المركز العام لجمعية العهد العراقية اشعال نيران الثورة في دير الزور،واحتلالها،حيث عين لها فيما بعد «رمضان شلاش» من عشيرة العقيدات وقد احتج الامير فيصل على هذا العمل وطالب بخروج الثوار من البلدة حيث عاد الانكليز الى احتلالها مرة اخرى ، ونشروا بيانا بذلك في ٢٢ كانون اول ١٩١٩ (مقدرات العراق السياسية تاليف امين العمري ج ٣ ص ٣٣٦ ومابعدها)

(١٨) هو رمضان شلاش

التقليدي ، والاصرار على النزاعات القديمة القائمة بين المتجاورين ، وتعاظم الاوهام التي نمت اثناء الحرب ، وانبعاث التأثيرات المعادية للاجانب ، فكانت هذه الامور كلها من الظواهر التي تميز بها العالم العشائري في تلك السنة التي شهدت رغم كل ذلك ، اجراءات من الامن ، اكثر مما تستطيع الذاكرة الحية ان تتذكره

وعلى الحدود بقي «اللر» وسكان مندلي يواصلون منازعاتهم حول الحقوق المتعلقة بجدول ماء كان يجري من احد التلال.وكان والي «بشتكوه» مايزال يدعي الولاية على المنطقة،وكان هذا الوالي في وقت من الاوقات يفرض الجزية بالقوة على «بني لام» الذين يرعون مواشيهم ويمكثون فيما كان يسميه باراضيه. اما السلام القائم بين بدو جنوبي العراق ورعايا ابن السعود فكان يشوبه الحذر ولوأن أمير نجد كان منذ سنة ١٩١٧ ومابعدها منشغلا انشغالا جدا في المنازعات العربية.

اما في المدن فان التغييرات التي احدثتها الادارة الجديدة كانت اكثر وضوحا. فما خلا «النواحي السياسية» كانت هذه التغييرات بارزة في تخطيط الشوارع وتوسيعها ، ونظافة الاسواق وتبسيطها بصفة جيدة في مدينة الموصل،وفي بناء جسور جديدة في بغداد ، والحلة ، والعشار ، وفي ارتفاع عمل الشرطة ، وصيانة الامن ، وتقليل حدوث الجرائم[١٩]

ومن الظواهر الاخرى ذلك التحول التام الذي حدث في السجون المدنية وفي اقامة اكثر من عشرة سجون جديدة واصلاح القديم منها[٢٠] وتوسيع مصلحة البرق والهاتف ، وتوفير التسهيلات الصحية لكل قادم الى المؤسسات الصحية

وفي ميدان البلديات العراقية ، تمت دعوة العراقيين للمشاركة في هذا المجال مشاركة مهمة وان لم تكن البلديات تنعم بالمسؤولية الكاملة. وتم تشجيع التفاخر بين المدن على الاقل فغدت بعض التحسينات الملحة المطلوبة من الامور الممكنة. ومع ان القيود والمتطلبات التي استدعتها حالة الحرب ، قد بدا عليها الاسترخاء مؤخرا،فان المعسكرات الواسعة ، والمخازن ودوائر اسطول النقل التي يتطلبها الجيش ، قد اخذت تتقلص ، ومع كل ذلك فان ايجاد حياة مدنية ما تزال تعتبر من الامور الشاذة،وان وجود عنصر اجنبي وعسكري مهما كان مفيدا ، لابد وان يثير التذمر والانزعاج بين السكان كلما مرت الشهور.

---

(١٩) لايوجد ادنى شك في ان هذه الاعمال نابعة من الضرورات العسكرية وبقاء الاحتلال الغاشم ، اكثر من ان تكون نابعة من رغبة البريطانيين الصادقة في تهيئة العراقيين لكي يمسكوا بزمام السلطة والاستقلال

(٢٠) ان كثرة وجود السجون في اي بلد في العالم ، حتى وان كانت قائمة على الاسس العصرية ، يعكس بصفة جلية لاتقبل الشك الواقع الاصلي في ذلك البلد ، لان كثرة السجون ، تعني كثرة من تطبق العقوبات عليهم وهؤلاء اما ان يكونوا من مقترفي الجرائم الاعتيادية كالقتل والسرقة وماشاكلها واما من المتمردين المعارضين للحكم القائم في ذلك البلد . وعلى هذا فاذا كان مايقصده المؤلف هنا من وراء الاشارة الى كثرة السجون الجديدة هو التفاخر بما كانت تعمله الادارة البريطانية فان هذا لايمكن ان يكون مدعاة للتفاخر ابدا ، بل هو دليل قاطع على تذمر الشعب من الحكم الاجنبي المفروض عليه رغم ارادته،او على ضعف ذلك الحكم الاجنبي في مقاومة اسباب الجريمة حيث توجد اساليب كثيرة يمكن القضاء بها بصفة سليمة على الجرائم والمخالفات دون اللجوء الى استعمال القوة وفتح ابواب السجون امام المخالفين.

٢ ـ الادارة البريطانية خلال الفترة ١٩١٩ ـ ١٩٢٠

بقيت ادارة العراق المحتل، حتى شهر تشرين الاول من سنة ١٩٢٠، من مسؤولية القائد العام للقوات البريطانية، التي كانت تمارس، تحت اشراف نائبه، مفوض الشؤون المدنية. غير ان القائد العام لم تكن له، من الناحية العملية، اية مناسبة ظاهرة للتدخل في الشؤون المدنية. وكان السر برسي كوكس هو الذي يقوم بمهمة مفوض الشؤون المدنية الى وقت تعيينه وزيرا مفوضا لبريطانيا في طهران، وذلك في شهر ايار سنة ١٩١٨، حيث سلم وظيفته السابقة الى المقدم ارنولد ولسون الذي كان يشغل وظيفة وكيل مفوض الشؤون المدنية طيلة الثلاثين شهرا التي اعقبت ذلك

ونظرا للوضع المنفصل الذي يخص الموصل، والذي لم يعد الان يعتبر اسميا، كانت البلاد كلها ابتداء من اوائل سنة ١٩١٩ وما بعدها، تدار من لدن بغداد حسب اساليب موحدة بصفة عامة. ففي مقر الادارة الذي تعاظم بما التي عليه من مسؤوليات جديدة، كانت عناصر السكرتارية قد تم تاليفها، فظهرت صيغة مالحكومة منظمة. وما خلا موظفيه الشخصيين، ومن بينهم «المس غرترود بل» كان مفوض الشؤون المدنية، يعتمد على خمس من السكرتيريات. فقد كانت السكرتارية الخاصة بالواردات تحت امرة العقيد «هويل»، وهي تشمل ايرادات الاراضي، وكثير من الايرادات المنوعة، وتسجيل الاراضي، وقضايا الارض، واعمال المسح، والزراعة والري والبلديات.

وكانت السكرتارية المالية التي رأسها العقيد «سليتر» قد حصلت في سنة ١٩١٩ على تفويض من المقدم «ماي» يشمل كل مسائل الصرف والميزانيات، والعملة، والتدقيق، والكمارك، والقضايا التجارية. وصحف الحكومة ومطابعها. وكان السكرتير القضائي «السر بونهام كارتر»، الذي خلف «نوكس» في سنة ١٩١٩، يقوم بتوجيه التشريع، والمحاكمة، والاوقاف، في حين وضعت سكرتارية الصحة تحت امرة العقيد «بتي» الذي خلفه العقيد غراهام في سنة ١٩٢٠، وكانت هي التي تعالج قضايا الصحة، والمسائل الصحية، والموضوعات المتصلة بها، وبالحجر الصحي، ونقل الجثث والزوار، والجنون، والسجون المدنية، ومكتب الجو او المناخ.

وكان السكرتير الاول للاشغال العامة هو العميد «اتكنسون» الذي لم يمكث سوى شهور قلائل في العراق، وكان المقصود ان يشتمل فرعه هذا، سكك الحديد، وميناء البصرة، والري،

والاشغال العامة، وكل وسائل المواصلات. وهناك دوائر لم تشملها اية سكرتارية، وكانت من اشهر هذه الدوائر هي دوائر الشرطة والتعليم التي وضعت تحت اشراف مفوض الشؤون المدنية بصفة مباشرة.

وكانت ادارة الشؤون العشائرية من الناحية السياسية، وكذلك الامن، والشؤون الاجتماعية بصفة عامة، وجباية الايرادات، والعلاقات مع الجيش، من الوظائف الاساسية التي كانت تنهض بها الدائرة الشخصية لمفوض الشؤون المدنية، ويجري العمل بها في المحافظات، عن طريق الضباط السياسيين التابعين له.

ومن بين الدوائر التي كانت تعمل بحماسة طليعيةقبل اعلان الهدنة وما بعدها بمدة سنتين، هي دوائر التسجيل العقاري التي كان يرأسها «رويدز» والاوقاف التي رأسها «كوك». وكانت تسانده فيها لجنة من مشاهير رجال الدين الاقوياء[1] وكذلك دائرة المساحة التي وضعت تحت امرة العقيد «بيري» ومطبعة الحكومية تحت امرة «ويكفورد»، ودائرة البريد والبرق التي رأس الاول منها «كليريس». ورأس الثانية «دي سمدت»، ومن ثم جمعتا سوية تحت امرة (غمبلي) حيث بقيت هاتان الدائرتان من مسؤولية الادارة المدنية ابتداء من حزيران سنة ١٩١٩ اما دائرة الاشغال العامة التي اسسها اتكنسون في اواخر سنة ١٩١٩، فقد اشرف على ادارتها « ولسون» من سنة ١٩٢٠ الى السنة ١٩٢٥

وكانت المحاكم، ومسألة تطبيق القانون المدني التركي – ما خلا بعض القضايا المهمة التي تخص الضباط الاداريين–تطبق الاجراءات المدنية التركية بصفة عامة،وتدار امورها باللغة العربية، وبالرضا العام، وهي الوحيدة بين الدوائر الحكومية التي كانت تستخدم منذ البداية كبار الشخصيات العراقية. ذلك لانه، بالنسبة الى القضايا الاجرامية، تم اعداد قانون جديد، هو قانون العقوبات البغدادي، ووضعه موضع التنفيذ.

ينبغي هنا ذكر المزيد عن الدوائر التي حققت التحسن والضبط في الادارة. فلقد كانت دائرة الزراعة، ولاول مرة في العراق، من الدوائر التي تم تنظيمها على اساس علمي، واخذت تستخدم الاخصائيين في النبات وكيمياء التربة، وزراعة القطن، وتحسين الاصواف، وتربية المواشي وغيرها من الفروع. ولما كانت دائرة الزراعة هذه تدار من قبل السيد غراهام في سنة ١٩٢٠، وروجر توماس فيما بعد، فقد استطاعت ان تبرز الشواهد على نشاطها، وان تنشر كراريس عن البحوث الزراعية، وتقوم بتوزيع البذور، وتستورد الحيوانات من الخارج. ولكن

---

(١) عرفت هذه اللجنة باسم المجلس العلمي للاوقاف وكان اعضاءؤه مؤلفين من كل من الشيخ ابراهيم الراوي، وامين ملا رشيد، والسيد شمسي الالوسي، وقد عين هؤلاء الثلاثة في اليوم الاول من شهر ايار ١٩١٧، ثم اضيف اليهم اثنان هما قاسم الفندي الذي عين في ٢٨ تموز ١٩١٧، وصالح الملي الذي عين في ٢١ اب من نفس السنة (تقرير المس بل وترجمة جعفر خياط (فصول من تاريخ العراق القريب) حاشية ص ٣٠٥ ط ١٩٧١

الوقت لم يكن يسمح في الواقع ، لدائرة ، او حتى لواحد في العشرة من هذه الدائرة ، بان تسد حاجات الزراعة في العراق.

وضعت دائرة الري اول الامر تحت امرة العميد «لويس» ومن ثم العميد اتكنسون ، وبقيت هذه الدائرة حتى سنة ١٩٢١ غارقة في دراسة مشاكل الفيضان وتوزيع المياه والتطبيقات العملية للوقاية من الفيضانات ، ولكن حيل بينها وبين النهوض باعمال مهمة نتيجة الالحاح على الاقتصاد الذي طبق بعد الحرب. ومع كل ذلك كانت اعمال هذه الدائرة من الامور المرغوب فيها.

م تشجيع الدائرة وربطت ببعض الاعمال الرئيسة التي تخصها ، وبقضايا النواظم ، وكري القنوات ، واصلاح سدة الهندية في الدرجة الاولى.

فهاتان الدائرتان، الزراعة والري، بالاضافة الى دائرة المساحة ، قد تم تحويلها من الجيش الى السلطة المدنية ، بعد ان انقص عدد موظفيها وكذلك الاموال المخصصة لها ايضاءوذلك في سنة ١٩١٩

كانت دائرة الشرطة التي اسسها العقيد بريسكوت في سنة ١٩١٨ بعد ان خلف فيها العقيد «غريغسون» قد اخذت توسع من سيطرتها بسرعة الى كل انحاء العراق ، واستطاعت بامانتها وبراعتها ان تحظى بالاحترام العام. لان «الضبطية» او «البوليس» لم تكن معروفة قبل ذلك. اما قوات المرتزقة «الليفي» وهي خلف لقوات «الشبانة» التي سبقتها ، وكانت مثلها من القوات العسكرية الضاربة ، فقد انتظمت في صفة فرق من مختلف الشخوص المحلية ، تحت امرة ضباط بريطانيين، ولها مركزها العام في بغداد. كانت واجباتها هي التخفيف عن كاهل الجيش من كثير من المهمات ، وتعزيز قوة الشرطة. كما تم انشاء دائرة للبيطرة في كانون الثاني سنة ١٩٢٠ تحت امرة المقدم «جاد ويك» وعهد الى قضايا العناية باللاجئين من الارمن والآثوريين الى ادارة مدنية منفصلة انشئت في المخيم الذي اقيم لهم في بعقوبة ، وتولى شؤونها العقيد «كنليف اون».

جابهت دائرة التعليم التي اوحى بها اول الامر وقام بتأسيسها المقدم «بومان» مشكلة توفير المدارس في العراق ، في الوقت الذي انعدمت فيه الاموال ، والبنايات ، والكتب ، والتجهيزات الاخرى ، والمعلمين اللازمين لذلك ولو بنسبة واحد في العشرة من الكميات الكافية. وبخطوات مخيبة للامال على الدوام ، لكنها اكثر سرعة من الناحيتين المالية والوظيفية ، تم فتح المدارس الابتدائية التي كانت تهدف الى تحقيق مستويات طيبة ، حيث بلغ مجموع هذه المدارس خمسا وسبعين مدرسة في نهاية سنة ١٩١٩

كانت خمس وستون من تلك المدارس تدرس باللغة العربية، واحدى عشرة باللغة التركية ، وسبع باللغة الكردية ، وواحدة باللغة الفارسية. ولم تستطع مدرسة اعداد المعلمين التي اسست حديثا ان توفر سوى جزء ضئيل من المتطلبات الملحة لهذه المدارس ، في حين كان نطاق المدارس الثانوية الذي حدد في ثلاث مدن رئيسة ، منحطا الى درجة يؤسف لها. كذلك كان تغلغل

السياسة التي عمت القطر كله الى تلك المدارس في تلك الايام، اقل ظهورا.

تحققت الوسائل اللازمة لاعادة فتح كلية الحقوق، والمدرسة التجارية الصناعية. في حين واصلت الكتاتيب الخاصة، التي يديرها الملالي،والبالية في طرائقها ومداها وتجهيزاتها، عملها في تعليم القراءة والكتابة للالوف من تلامذتها. غير ان الميل الى مضاعفة عدد المدارس الحكومية ذات النمط الغربي، كان يلاقي المقاومة، ولقد توقف تعليم اللغة الانكليزية رغم كثرة الالحاح عليه. اما عن الرغبة في فتح مدارس للبنات، والتي كانت آراء المسلمين منقسمة حولها في اول الامر، فقد تم افتتاح خمس مدارس ابتدائية في الاسابيع الاول من سنة ١٩٢٠ كذلك حظيت مدارس الاقليات المسيحية واليهودية، وتلك التي تديرها بعثات التبشير المسيحية، بالدعم وبالاموال،وكان البعض من هذه المدارس على مستوى عال

بدأت بعض اعمال التنقيب عن الآثار القديمة على يد «كامبل ثومبسون» في موقع«ابو شهرين» (اريدو) وذلك في ربيع سنة ١٩١٨، كما اجرى السيد «هول» هو الاخر تنقيبات في «اور» وفي اماكن اخرى في سنة ١٩١٩.وكان يجري طبع الصحف في النجف سنة ١٩١٨، وفي السليمانية سنة ١٩١٩، وفي البصرة وبغداد والموصل منذ ان تم احتلال هذه الاماكن. وصدرت صحف بالانكليزية في بغداد والبصرة، وبالعربية في هاتين المدينتين والموصل، وبالتركية في كركوك، وبالكردية في السليمانية[٢]

ولقد وفرت الزيادة الكبيرة في السلع التي دخلت العراق خلال الفترة ١٩١٨ - ١٩١٩، اعلى مستوى من ايرادات الكمارك التي كان يديرها «واتكنسن» والمقدم «سيفرايت». وحصلت هذه الزيادة نتيجة لتوقف التصدير من روسيا الى شمالي بلاد فارس، كما ادت الى ازدياد قوة الصرف في العراق، وزيادة النضوب العام في المخزون من السلع خلال فترة الحرب. وشرع بتوزيع الروبية الهندية التي اصبحت هي العملة العامة السائدة في العراق، وذلك بمقدار معتدل، وارتفع نطاق وسائل النقل المدني التي يستطيع الآن ان ينهض بها ميناء البصرة بعد ان طور تطويرا تاما، وعهد بادارته الى العقيد «وورد» في خريف سنة ١٩١٩، وسرعان مانقلت ادارة هذه الميناء الى الادارة المدنية

وكانت سكك الحديد التي سلمها الجيش في نيسان ١٩٢٠ في اقصى مدى، وهي تؤلف

---

(١) لم يتأكد لدينا صدور صحف في النجف في تلك السنة عدا جريدة النجف الفارسية التي كان يديرها مسلم زوين والتي صدرت سنة ١٩١٠ اما في السليمانية فصدرت جريدة «سلياني بشكوتن» «تقدم السليمانية» بالكردية، وفي كركوك «نجمة كركوك» بالتركية صدرت في ١٥ كانون الاول ١٩١٨، وفي بغداد جريدة «العرب» التي صدرت بالعربية في ٤ تموز ١٩٠٧، وفي الموصل «الموصل» التي صدرت في ١٤ ت ١٩١٨،٢، وفي البصرة«الاوقات البصرية»التي اصدرها سليمان الزهير وقد صدرت سنة ١٩١٥». اما الصحف الانكليزية فهي «الاوقات البغدادية» التي صدرت في ١ كانون الثاني ١٩١٨، والاوقات العراقية» التي صدرت في ايار ١٩٢١ وحلت محل جريدة سليمان الزهير.

حوالي الف ميل من الطرق الحديدية(*) ولم يكن اقتصاد العراق مستعدا لضم هذه السكك التي انشئت بسرعة بتجهيزات بالية، وقاطرات مسحوقة، وخطوط صممت اصلا لخدمة الاغراض العسكرية. كان مدير السكك العام خلال الفترة ١٩١٩ ١٩٢٠ هو العقيد «لوبوك» وكان العمال الذين تستخدمهم ادارة السكك في هذه الفترة كلهم من الهنود

* * *

كانت الاجراءات المالية لادارة الاعمال الكبرى التي تتطلبها الادارة المدنية التي يجري وضعها وتمويلها من الصناديق المالية للجيش البريطاني، موضوع بعثة ارسلت الى العراق برئاسة «السر جون هوت»، وكانت الاموال المخصصة لها تبلغ مليوني باون، عدا نفقات سكك الحديد. ولكن معظم تلك الاعمال اتخذت اشكالا لاعلاقة لها بالحاجات المدنية. كذلك فان الاسطول النهري الكبير، وهو عسكري يعمل في النقل داخل المياه الاقليمية، لم يتم بعد تحويله هو الآخر، الى الادارة المدنية، ولم تكن وحداته يجري بيعها في المزاد العلني، كما كان عليه الامر بالنسبة الى كثير من المخازن العسكرية الكبيرة والعديد، والتي لم تعد اية حاجة اليها.

وازاء عاصفة الاحتجاج القوية التي انطلقت من مفوض الشؤون المدنية، ومن اصحاب المصالح التجارية من العراقيين والبريطانيين معا، اودعت تلك السفن النهرية في «بمباي» من قبل «اللورد لانتشكيب» نيابة عن الحكومة البريطانية، ولم يلبث اسطول النقل المدني في مياه نهر دجلة ان قلص الى المستوى الذي كان عليه قبل الحرب، وفقدت شركة لنج سفينتها «جلنار» مع بعض السفن الصغيرة الاخرى، لكنها مالبثت ان حصلت في سنة ١٩٢٠ على السفينتين «زنوبيا» و «زبيدة» اللتين بنيتا في سنة ١٩١٦، حيث ادخلت الشركة المتطلبات العصرية على اجهزتها

(*) كان طول سكة حديد بغداد – البصرة ٣٥٢ ميلا، وخط بغداد – حتى الحدود الفارسية ١٣٠ ميلا وبغداد – الكوت ١٥٨ ميلا، والزبير جبل سنام ٣٠ ميلا، واور – الناصرية عشرة اميال. ومن قره‌غان (على خط سكة خانقين) الى «كنكربان» (خارج كفري) ٢٣ ميلا، بالاضافة الى خط طوله ثمانية وثلاثون ميلا من البصرة الى المعقل. وكان خط بغداد – الشرقاط (٣)، وهو من القياس المتري، يبلغ ١٨٦ ميلا، وهناك خط اخر بالقياس الضيق بين بغداد والكفل يبلغ ٢١ ميلا، وبين بغداد والفلوجة ٣٨ ميلا

(٣) قلص خط بغداد – الشرقاط في سنة ١٩٢٧ اذ اصبح خط بغداد ينتهي في محطة بعيجي (قضاء بيجي الحالي) وفي اواخر سنة ١٩٣٦ تقرر مد هذا الخط الى الموصل وكان كل من حكمت سليمان وجعفر ابي التمن وكامل الجادرجي قد قدموا في قطار خاص خلال شهر نيسان من سنة ١٩٣٧ ايذانا ببدء مشروع ايصال سكة بغداد الى الموصل، حيث كنت من بين الذين حضروا ذلك، وحيث حمل جعفر ابو التمن المطرقة وسلمها الى كامل الجادرجي لكي يضرب المسمار الذي يربط اخر قضيب من السكلة ايذانا ببدء العمل في الخط الجديد، وهو يقول له (هاك كامل بك هذا شغلك موشغلي) لان كامل الجادرجي كان وزيرا للاشغال والمواصلات في وزارة الانقلاب.

ومشتاتها. فا مادت ... بواخرها الشهيرة «بلوس لنج» و «خليفة» و «مجيدية» و «ملامير» والتي كانت تعمل في المؤسسة الخاصة بهر «كارون» قبل الحرب. ومافتئت شركة لنج بعد سنة ١٩١٩ وفي غمرة الاضطراب الذي اصاب مصالحها، ان انضمت الى شركات النقل الاخرى من امثال شركة «غراي مكنزي» GRAY MACKENZIE، وانشأت منها شركة موحدة عرفت باسم «الشركة العراقية الفارسية للملاحة MesopotAMIANPERSIAN CORPORATION وقد عرفت هذه الشركة باسم مختصر هو مسبرس Mespers في كل من بغداد والبصرة

لم تعد المنافسة في ميدان الملاحة النهرية منافسة حكومية. فقد اختفت معظم السفن التي كانت تعمل قبل الحرب(**) لكنها كانت مع كل ذلك تقوم بنصيب له قيمته في ميدان النقل

* * *

وفي حكومات المحافظات، اعيد العمل بالوحدت الادارية التركية ذاتها. فقد كانت المحافظة تدعى في السابق، باسم «سنجق» او «لواء»، والمنطقة، تدعى «قضاء»، في حين طرأ على النواحي شيءٌ قليل من التغيير. وكانت الوحدات الست عشرة في سنة ١٩١٩، تشتمل على كل من العمارة، وبغداد، وبعقوبة، والبصرة، ودير الزور، والديوانية، والدليم، والحلة (من ضمنها كربلاء) وخانقين، وكركوك، وكوت الامارة، والموصل، والمنتفق، وسامراء، والشامية (من ضمنها النجف)

وسرعان ماسلخت من هذه الوحدات، محافظة «دير الزور» عن العراق، واعطيت الى سوريا، وتألفت من وحدتي خانقين وبعقوبة محافظة واحدة، وفقد «الكوت» صفته، لكنه استعادها ثانية في سنة ١٩٢٢، في حين ادخلت الشامية في محافظة الديوانية، وسامراء في محافظة بغداد، وتألفت من كربلاء والنجف محافظة واحدة مؤخرا، واخيرا انشئت محافظة اخرى هي محافظة اربيل(٤)

(**) هذه السفن هي «بغداد» «نجمة الشرق» التي تمتلكها شركة اصفر، «والفرات» و «الرصافة» وعدد من القوارب البخارية العائدة الى «شركة النقل النهري» التي يملكها الالمان، قد تم اغراقها من قبل الاتراك لسد منافذ المياه، واعاقة حركات النقل البريطانية. وتم ارسال السفينة «البصرة» الى اوربا، لكنها لم تتعد جزيرة مالطة، في حين نسف الاتراك الباخرتين «برهانية» و «حميدية» كيلا تقعا في ايدي الانكليز. ووصلت الباخرة «بغداد» الى الموصل، وهي اول باخرة تصل الى تلك المدينة، وهناك استولى عليها البريطانيون

(٤) حتى سنة ١٩٦٨ كان عدد المحافظات او الالوية في العراق يبلغ اربعة عشر لواء او محافظة ولكن حكومة البعث مالبثت بعد وصولها الى الحكم في اعقاب ثورة السابع عشر من تموز ١٩٦٨، ان زادت العدد الى سبع عشرة محافظة وابدلت اسماء بعض المحافظات، وكانت المحافظات التي استحدثت ثلاثا، هي محافظة دهوك، ومحافظة السماوة (ذي قار) ومحافظة تكريت (صلاح الدين).

وكانت كل محافظة تحت امرة ضابط سياسي بريطاني، بينما كان معاونوه يشرفون، كل واحد منهم، على قضائين او اكثر من اقضية تلك المحافظة. وكان مثل هذا يجري ايضا بالنسبة الى النواحي التي يرأسها مدراء عراقيون، وبقيت محافظة على ذات الاسلوب والتنسيق اللذين كانت عليهما قبلا

وفي مراكز المحافظات، كان تشكيل مجالس استشارية من الرجال المشهورين في المحافظة وموظفيها، تحت امرة الضابط السياسي البريطاني، يعتبر من اولى الخطوات التي تم اتخاذها في مبكر الايام التي اعقبت الحرب. وكانت هذه المجالس تعتزم ان تشرك الجمهور، شكليا والى مدى محدود، مع الادارة. غير ان هذه المجالس، مهما تم اختيار اعضائها بصفة جيدة، كانت مجردة من السلطة تماما، بحيث لم تستطع ان تؤدي اية خدمات فعالة، ولم تستطع البقاء في الايام العاصفة التي شهدتها سنة ١٩٢٠

كان الضابط السياسي البريطاني يمثل الحاكم المدني (وهو في الواقع يمثل ملك بريطانيا) ويسيطر على كل الدوائر. وكان يجري تفويض سلطاته الادارية والمالية، والقضائية، وفقا لاجراءات ملائمة، الى مساعديه في الاقضية، والذين كانت مهمتهم الاولى تتركز في حفظ الامن، والتعرف على العشائر، والتعامل معها، وجباية الضرائب

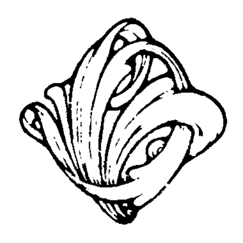
كانت المعضلة التي جابهتا ادارة «ارنولد ولسون»، بعد الغاء التعبئة العسكرية في اعقاب انتهاء الحرب، وماكان تتطلبه من الخدمات الاخرى، قد امكن حلها، عن طريق الاستعانة بالضباط الجيدين من الجيش البريطاني في العراق، ومن البلدان الاخرى الناطقة بالعربية، او من الكتائب التي اخذت تغادر العراق. غير ان التعقيدات التي واجهها موظفو ولسون، وتيارات المعارضة العميقة التي تطورت آنذاك، جعلت اولئك الموظفين قد يستهينون بها، مما ادى الى حدوث نتائج مؤسية ارتكبها بعض الاداريين الانكليز.

كانت ادارة ارنولد ولسون تبذل قصارى جهدها في اقامة علاقات ودية بين الحاكمين والمحكومين، ومع ذلك فان التهمة التي وجهت الى هذه الادارة بانها كانت من الاسباب التي ادت الى انفجار الثورة، تهمة لايمكن نكرانها ابدا. لقد كانت هذه الادارة قبل كل شيء ادارة دولة اجنبية عن البلد الذي يراد تطبيقها فيه

وزيادة على ذلك مازال الاحتلال العسكري الانكليزي يحس بوجوده، سواء في الاستيلاء على بيوت بعض المشاهير السابقين، او السيطرة العسكرية على حركات النقل والطرق، او المعسكرات التي اقيمت في المناطق المزروعة، مما ادى الى توقف الزراعة فيها، وطمر قنوات الري، وغير ذلك من القضايا التي كانت تثير تذمر الاهلين. وازدادت هذه المساوئ بمرور الوقت نتيجة التخلي عن تنفيذ كثير من المشاريع التي كان الناس يأملون ان يفيدوا من انجازها، والالحاح على فتح المدارس، وعدم استطاعة خبراء الزراعة من تحسين الوضع الزراعي، او مقاومة الجفاف، او

مقاومة الفيضان، في الوقت الذي كان فيه الاصرار شديدا على جباية الضرائب التامة عن كل محصول وناتج او بستان، وتنفيذ ذلك بالقوة على الاغنياء والفقراء على حد سواء، الامر الذي جعل افراد الشعب يجدون انفسهم، على الرغم من الاسعار الواطئة التي كانوا يتقاضونها عن حاصلاتهم، مجبرين على ان يدفعوا من الضرائب، اكثر مما كانوا يدفعونه في عهد الاتراك، مع عدم وجود اي تحسن في الطرق القديمة الشريرة التي تطبق في تخمين مقدار الحاصلات

اما في المدن فان نقص الموظفين التابعين للادارة كان يبعث الناس على اليأس، في الوقت الذي كان فيه الموظفون السابقون يتسكعون في المقاهي، بائسين معدمين، بينما ازداد عدد العراقيين العائدين من تركيا. كانت جهود ادارة ولسون ضئيلة جدا في استخدام العراقيين الذين يتمتعون بالتجربة وحسن النية في الوظائف سواء منها الكبيرة ام الصغيرة. ولذلك فان هذه الامور قد جعلت افراد الشعب العراقي في سنة ١٩١٩ مستعدين لدعم اية حركة مناهضة للبريطانيين التي قد يتسنى لها الظهور. وكانت الزعامة التي يمكن لهذه الحركة المناهضة، ان تتبعها هي الحركة الوطنية، التي كان البريطانيون يقللون عامدين من شأنها، في حين انعدمت ثقة ادارة ولسون بهذه الحركة الوطنية القومية



٢ ـ مقاومة البريطانيين

قبلت مراسلات الحجاز التي تبودلت خلال ١٩١٥ – ١٩١٦، بين الشريف حسين والسر هنري مكماهون، بفكرة قيام دولة عربية بعد الحرب، تشمل – مع استثناءات محددة – كل الأقطار العربية في قارة آسيا. ولقد جرى النقاش في الواقع، على ان يقف العراق، على حدة من البلدان الأخرى بالنسبة الى حاجيات وشروط مختلفة، وأمكن التوضيح بأن رسائل مكماهون أنما كانت تدعو الى اتخاذ «ترتيبات ادارية خاصة في البصرة وفي بغداد». ولكن الشريف حسين رد على ذلك بان أبعاد العراق عن الدولة العربية ينبغي ان يكون مؤقتا ولفترة يتم الأتفاق عليها عن طريق المفاوضات. ذلك لأن العراق بلد عربي تأريخي ومقدس.

لم يكن وضع سياسة بريطانية تنطوي على التملك الاناني للعراق، من الأمور التي يمكن التفكير فيها، بالنسبة الى اي رجل دولة ينظر الى الأمور نظرة جدية. والواقع ان الأوامر التي اصدرتها وزارة الحرب البريطانية في شهر اذار سنة ١٩١٧، قد سبق لها ان صورت بصفة محددة مسألة انشاء امارة عربية في البصرة وبغداد. بل ان انشاء دولة، او دول عربية كان هدفا للمثاليين وللواقعيين معا في كل من سوريا وفي لندن أيضا. وقد تحقق هذا الهدف بصفة منظورة تحت امرة الأمير فيصل في دمشق قبل انتهاء سنة ١٩١٨، وتم الاعراب بجلاء عن سياسة تقرير المصير للبلدان العربية التابعة للعثمانيين قبلا من لدن رئيس الوزراء البريطاني[١] في شهر كانون الثاني سنة ١٩١٨ كما تكرر موضوع سياسة تقرير المصير مرة ثانية في النقاط الأربع عشرة التي اوردها الرئيس الأمريكي ولسون، وكذلك اعيد ذكره مرة أخرى في الاتفاق الأنكليزي الفرنسي المعقود في اليوم السابع من شهر تشرين الثاني سنة ١٩١٨[٢] فلقد اعلن الاتفاق الأخير بأن

---

(١) في الخامس من كانون الثاني ١٩١٨ القى رئيس الوزراء البريطاني لويد جورج خطابا عن اهداف الحرب، اشار فيه الى العراق في المحتوى التالي الجزيرة العربية، وارمينيا، والعراق، وسوريا وفلسطين تستحق في نظرنا بأن يتم الاعتراف بأوضاعها القومية المنفصلة لكنه اوضح ان هذا لم يكن ليشتمل بعد على اعادة النظر الكاملة في السياسات البريطانية (د. غسان رابح العطية العراق دراسة سياسية ١٩٠٨ ١٩٢١ ص ١٥٩ ط ١٩٧٣ بالأنكليزية وقد نقل ذلك عن كتاب لويد جورج المعنون والحقيقة عن معاهدات السلام المطبوع في لندن سنة ١٩٣٨ مجلد ٢).

(٢) اذيع هذا [illegible] في اليوم الثامن من تشرين الثاني ١٩١٨ في كل من لندن وباريس، ونيويورك والقاهرة وقد نص على القول بان الغاية التي [illegible] فرنسا وبريطانيا العظمى في خوض غمار الحرب في الشرق من جراء اطماع المانيا هي: تحرير حكومات وادارات وطنية [illegible] سلطانها من رغبة السكان ومحض اختيارهم.

الهدف الذي تتطلع اليه كل من فرنسا وبريطانيا، هو التحرير الكامل والنهائي للشعوب التي عانت الاضطهاد طويلا على ايدي الأتراك، وانشاء حكومات وادارات قومية تستمد سلطاتها من الممارسة الحرة، ومن مبادرة السكان الأصليين واختيارهم»

لم يظهر الرأي العام العراقي، الذي اثار هذا الأعلان المشجع بين صفوفه، امالاً سامية ومباشرة خلال الحرب، اية دلائل منظورة عن الحس القومي. ذلك لأن الزعماء السياسيين الذين برزوا خلال الفترة ١٩١١ – ١٩١٤ كانوا قد تفرقوا بددا. فلقد كان السيد طالب النقيب خارج العراق. وكانت النوادي ميتة او غير نشطة، ولم يكن للصحافة من وجود، في حين كانت المواصلات مع البلدان الأخرى مقطوعة. غير ان الحركة القومية لم تكن ميتة. ولقد أصبح متوقعا ان أنتهاء الحرب لابد وان ينعش هذه الحركة بصفة أعظم حيوية عما كانت عليه قبلا.

وفي الوقت ذاته لم تكن اعمال البريطانيين ولا اقوالهم، ماعدا الخطاب الغامض المتحمس الذي القاه القائد «مود» في اذار ١٩١٧، تعطي اية اشارة عن مستقبل الحكومة الذاتية، ولم تستخدم القوات العربية في العراق لمقاتلة الأتراك، على الرغم من النجاح الذي حققته هذه القوات في الحجاز، وفي سوريا، ومن التحريض الذي كانت تقوم به وزارة الحرب البريطانية، وقد ظهر بأن القيادة العسكرية تخلت عن هذه الفكرة لأنه كان يستحيل ضمان اختفاء الأتراك بصفة نهائية، ولصعوبة تجهيز المجندين العرب وتدريبهم للقيام بحرب فعالة، وذلك بالنظر لنقص اتصالات القيادة العسكرية، بأفضل مادة عراقية متوفرة، ونعني بها الضباط الذين حاربوا مع الأمير فيصل، ولربما بسبب موقف حكومة الهند، التي لم توافق صراحة على المطامح القومية العربية وعلى اية حركة قد تشجع تلك المطامح.

كانت المواد التي انطوى عليها اتفاق سايكس بيكو المبتسر من الناحية الادارية، والذي اثار العويل والصراخ من الناحية الاخلاقية، والذي وقعت عليه كل من بريطانيا وفرنسا في شهر ايار سنة ١٩١٦، وفضحه الروس للعالم في شهر تشرين الأول سنة ١٩١٧، كانت هذه المواد قد بدت من الناحية الادبية في الواقع، وكأنها كانت موجهة بكل ثقلها ضد نظام حق تقرير المصير بالنسبة للعراق. فلقد اشترط ذلك الاتفاق بأن تودع مدينة الموصل، وجزء من ولاية الموصل ذاتها تحت استغلال الفرنسيين ضمن السيادة العربية، وان يطبق ذات الوضع على القسم الغربي من العراق، ولكن يخضع للسيادة البريطانية، في حين توضع المناطق الوسطى والجنوبية من العراق، تحت الحكم البريطاني المباشر. لقد كانت هذه الشروط التي لم يتخل الفرنسيون عنها بيسر، تتناقض تناقضا صريحا مع نصوص التزامات الشريف حسين وروحيتها. والواقع ان الحاجة الى مسالمة الأحاسيس الفرنسية، ولاسيما في سوريا، كانت تمثل الورطة الرئيسة التي لامهرب منها والتي واجهها البريطانيون بعد الحرب.

وفي الوقت ذاته كان الاعلان البريطاني الفرنسي، والتخفيف من القيود التي فرضت ايام

الحرب، وعودة العراقيين الى بلادهم من الخارج، والمطامح المتطلعة الى توفير الأمن والتطور في البلاد، كانت كل هذه الأمور قد ابرزت ان مستقبل العراق، يعتبر قضية مباشرة، واعادت القومية العراقية الى الحياة في يوم وليلة. فما ان انتعشت هذه القومية من مصادر مختلفة، حتى اخذت تنمو بسرعة خلال النصف الأول من سنة ١٩١٩ ومابعده.

كانت النواة الرئيسة للحركة القومية، تتمثل – دون ريب – في مطالبة قسم من الطبقات العراقية المتعلمة، بالاستقلال التام، كما تمثل الاستياء الذي كانت هذه الطبقة تتمسك به. ومما ساعد على ذلك، وكان معاديا للحكومة، اي معاديا للبريطانيين، هو أن هذه القوى، كانت في هذه المرحلة معرضة لدعاية دخلت العراق من تركيا، ومن روسيا البلشفية، ومن القوميين العراقيين المتحمسين الذين عملوا مع فيصل في سوريا، كذلك ساعدت على هذه الحركة أيضا، مخاوف رجال الدين من الشيعة على مراكزهم المهددة بالدمار على يد الأدارة البريطانية.

وكانت النواقص الحقيقية او المالية التي تشكو الادارة منها، والتي اتينا على وصفها في مكان اخر، قد ساعدت هي الأخرى على تفاقم التذمر وتعاظمه، ولذلك كان كل تردد وكل تأخير، وكل خيبة أمل، تعد من اخطاء البريطانيين، وتخلق المزيد من القوميين الجدده فلقد كان الشيوخ المتنافسون في كل مجموعة من العشائر، على استعداد دائم للانضمام الى اية حركة عصيان، وعزل الزعيم الذي يؤيده البريطانيون. وكان التلهف على ممارسة اعمال النهب، واللذة في شن الغارات على الغير، ومقت الانصياع لدفع الايرادات، والاقتناع بأن القوات البريطانية تقوم الآن بالجلاء عن العراق، كل هذه القضايا ساهمت هي الأخرى، في تمهيد السبيل امام شق عصا الطاعة بصفة جماعية، بل باسوأ من ذلك، ولهذا كان تاريخ سنة ٩١٩، وجزءا من سنة ١٩٢٠، واحدا من التواريخ التي تكاثرت فيها العناصر الساخطة، وتحالفت حتى بلغت الذروة في شهر تموز ١٩٢٠

فزع العقيد ارنولد ولسون من البيان الأنكليزي الفرنسي، واعلن بأنه غير ملائم بصفة مطلقة لأن يكون اساسا لايجاد حكومة في العراق. ولذلك راح يلح ويشدد القول بأنه لايوجد شيء ما سوى ايجاد ادارة بريطانية صارمة، ومهما كان نوع الدولة التي سيتم انشاؤها، تستطيع ان تحفظ البلاد من الفوضى. وهكذا اخذ ولسون يقاوم بشدة تلك المقترحات التي عرضها «خنزيره البري» لورنس حول امكانية انشاء مجموعة بكل يسر من الدول العراقية والسورية توضع تحت امرة الأمراء الشريفيين[٣]

كان اول عرض قدمه ارنولد ولسون الى الحكومة البريطانية هو انشاء دولة عربية في العراق،

---

(٣) اقترح لورنس في الرابع من تشرين الثاني ١٩١٨ ان يتم انشاء ثلاث دول عربية، هي القسم الأدنى من العراق من البصرة الى عانة، وحتى الراب الاسفل في الشمال وان تكون تحت امرة عبدالله وتوضع الموصل تحت امرة «زيد» في حين توضع سوريا تحت امرة فيصل (غسان العطية المصدر السابق ص ٧٠).

بشكل حذر، تشمل ولاية الموصل، وبعد ان يتم وضع هذه الدولة تحت حكم امير عربي، يجب دعمها بتعيين مندوب سام بريطاني، ومجموعة كاملة من المستشارين. غير ان مشقة اختيار احد الأمراء كانت واضحة، كما ان وكيل المندوب السامي، قد اخذ يعيد النظر ومن دون طائل في الادعاءات التي قدمت من احد اشراف الموصل(٤) ومن اشراف بغداد، ومن أمير مصري لم يحدد اسمه، ومن احد اولاد الملك حسين. وما ان وجد ولسون معارضة جدية لكل هؤلاء او اي منهم، فقد أنهى رأيه وفضل بأن مثل هذه الدولة يجب ان يحكمها السر برسي كوكس لمدة خمس سنوات ومن دون اي امير اطلاقا(٥) فقد كان ولسون يشعر بأنه اذا ماحدث هذا الأمر، فسوف يحقق الكفاءة، ويحصر الحركة القومية داخل حدود.

كانت شؤون الشرق الأوسط في لندن، في ذاك الوقت، تدار من قبل لجنة وظيفية داخلية يرأسها اللورد كرزن. وفي هذه اللجنة كانت المدرسة الغربية للمبدأ البريطاني حول الشؤون العربية تشتمل على المنافسة مع المدرستين الشرقية والهندية. كذلك عملت، في داخل هذه اللجنة الامزجة والآراء المتصارعة لكل من اللورد كرزن، والمستر ادون مونتاغو EDWINMONTAGU وزير شؤون الهند، دورا كبيرا ووافرا.

لقد عادت اللجنة المذكورة فأكدت البيان الانكلو فرنسي، لكنها لم تظهر سوى القليل من النوايا بشأن التخلي عن السيطرة البريطانية المباشرة. ومع كل ذلك فقد تم تخويل ارنولد ولسون، بان يقوم باجراء استفتاء في العراق، في كل محافظة من المحافظات، عن طريق الاجابة على الاسئلة التالية.

اولا هل هناك مصادقة على اقامة حكومة عربية في العراق تشمل ولاية الموصل تحت الوصاية البريطانية ؟

ثانيا هل يجب ان تحكم هذه الدولة من قبل رئيس عربي يصفة رسمية ليس الأ ؟

ثالثا من هو المفضل ان يكون اميرا لهذه الدولة ؟

لم يكن من المتوقع اعطاء اي جواب صريح عن هذه الأسئلة من لدن الرأي العام في العراق خلال الفترة ١٩١٨ – ١٩١٩ ذلك لأن الادارة القائمة آنذاك وكلها بريطانية، ولأن انعدام المؤسسات التمثيلية، وتركيب المجتمع كله، كان يحول دون ذلك. ولكن المحاولة قد تم الاقدام عليها، فعقدت الاجتماعات في كل المحافظات، والمح المندوب السامي في اوامره وتعليماته بأن الأجوبة (المرضية هي التي سوف يتم الترحيب بها، وان هذه الأجوبة متى ماتم استلامها، ستكون مؤيدة من قبل الأكثرية الملموسة لانشاء دولة عراقية موحدة تحت زعامة امير لم تحدد

---

(٤) هو المرحوم هادي باشا العمري عميد الأسرة العمرية المشهورة في الموصل.

(٥) اورد ولسون اقتراحه بأن يعين كوكس مندوبا ساميا على العراق للسنوات الخمس الأولى من دون اي امير عربي او اي رئيس اخر للدولة، وذلك في البرقية التي بعث بها الى وزير شؤون الهند ٢٤ تشرين الثاني ١٩١٨.

صفها، وباستمرار السيطرة البريطانية عليها.

كان من المشكوك فيه ان تكون تلك الاجتماعات ممثلة للجمهور ولاسيما في بغداد. وكان موقف الشيعة في المدن التي تقوم فيها الأضرحة المقدسة سلبيا، كما رفضت بعض المناطق الكردية اي حكم عربي.ومع كل ذلك فقد ظهرت مشابهة طيبة فيما فضلته الأكثرية، وعلى الأخص ما تعلق بالحاق الموصل بالعراق، لكن الاستنتاج الذي تم استنتاجه مسبقا جدا، هو ان السيطرة البريطانية لم تكن مرغوبة الا من قبل حفنة من «الساسة من ناكري الجميل» والذين لم تتم المصادقة على آرائهم قطعا(٦)

دفعت هذه النتائج لجنة اللورد كرزن الى دعوة المندوب السامي بأن يتقدم بعروض محددة لوضع «دستور لدولة عربية او مجموعة من الدول العربية على اساس رغبات السكان... مع بقاء السيطرة البريطانية التي لايوجد اي نزاع حولها». كان هذا الأمر يتطلب الأهتمام بالبيان الأنكلوفرنسي في هذا الشأن،وان مثل هذا الدستور يجب ان يكون مرنا، وان يعطي مجالاً لزيادة المشاركة العربية. ولقد ظهر من هذا ان امنية السياسة البريطانية كما اريد صياغتها، كانت مزيجا من الحرية التي جاء بها البيان، ومن الواقع الثابت للسيطرة البريطانية. حدث كل هذا في الوقت الذي لم يلتفت فيه الى الاشاعات المتزايدة عن القومية العربية في بغداد، وعلى ضفاف نهر الفرات، وحينذاك وجد ولسون، الذي استدعي الى لندن في شهر شباط سنة ١٩١٩، أن مشكلة الموصل قد حلت بصفة جزئية وذلك لأن جورج كليمنصو كان قد وافق في شهر كانون الاول سنة ١٩١٨،على التنازل عن حصته في الاسلاب التي جاء البيان الأنكلوفرنسي على ذكرها.

وعلى هذا الأساس ومع بقاء الاصرار الفرنسي على تمتع الفرنسيين بالنفوذ التام على الحكومة التي ستقوم في سوريا كلها، وفي ذات الوقت الذي كان فيه الأمير فيصل يسعى للحصول على تقبل للمطامح التي كان يتطلع اليها هو وابوه، والتي نالت التشجيع في وقت من الأوقات، لم يستطع ارنولد ولسون ان يطرح مشروعه الذي كان ينطوي على اقامة دولة عراقية شاملة.

ذلك لأنه يوجد امير يقوم الى جانبه مندوب سام بريطاني، وبالهيمنة البريطانية الفعالة على ادارتها، سوف تشمل مثل هذه الدولة ولايات الموصل ودير الزور وكل أنحاء كردستان، ماعدا المناطق التي صادقت معاهدة سيفر عليها، وحينذاك سوف تقوم حكومات عربية وتعين مجالس للمناطق العربية، وتكون المساندة المالية والعسكرية البريطانية متوفرة لهذه الحكومات.

كان اللورد كرزن، الذي قرر ان يؤجل اي التزام من جانب الحكومة البريطانية بشأن

---

(٦) لاشك ان هذه الحفنة كانت تضم اولئك الاشراف من البصرة الذين تقدموا بطلب الى الحكومة البريطانية بأن تربط العراق بحكومة الهند الانكليزية (راجع سليمان فيضي في غمرة النضال) وكذلك اهل الحلة الذين طلبوا تعيين كوكس حاكما على العراق).

موضوع الموصل، يفضل ان تكون ولاية الموصل امارة منفصلة تحيط بها حواضر كردية مستقلة.
استمر الجدل حول هذا الموضوع، وأصطدمت المطامح الفرنسية والعربية في سوريا، وخابت المساعي الطويلة لعقد معاهدة الصلح مع تركيا، واخذ الضغط الأمريكي يزداد في باريس، على حق الاختيار الحر من قبل السكان العرب، وذلك بالشكل الذي عدلته بعثة كنغ كراين لتقصي الحقائق، والتي قامت بزيارة سوريا في سنة ١٩١٩، وموقف مجلس العشرة في باريس الذي قرر في شهر كانون الثاني سنة ١٩١٩، انفصال العراق عن تركيا، ذلك المجلس الذي كان اعضاؤه في شهر اذار من تلك السنة على وشك ان يتفقوا على توزيع الانتدابات، اضافة الى اختلافات الرأي الواسعة بين مستشاري الحكومة البريطانية بشأن القضايا العربية، وزيادة المطالبة بالاقتصاد فيما بعد الحرب او حتى الجلاء او التراجع الى البصرة، تلك الموضوعات التي اثيرت في الصحافة البريطانية وفي البرلمان البريطاني، فهذه القضايا كلها كانت من العناصر التي تندر الملائمة فيما بينها، بقصد الوصول الى حل واضح لمستقبل العراق.

لم يكن للادارة البريطانية في بغداد حتى الان اي توجيه واضح تتلقاه من صانعي السلام في اوربا، حول فكرة الانتداب الجديدة التي طرحها الجنرال سمطس في مؤتمر فرساي والتي تم ادخالها في ميثاق عصبة الأمم الذي كان من المقرر ان يولد في اوائل سنة ١٩١٩، ذلك الانتداب الذي اعد بصفة خاصة كيما يتم تطبيقه حسبما اشترطت ذلك المادة الثانية والعشرون من ميثاق عصبة الأمم، على البلدان التي كانت تابعة للأتراك قبلا.

كان قبول هذا التفسير من لدن الدول المختصة قد حصل بصفة ضمنية في معاهدة فرساي التي تم التوقيع عليها في ٢٨ حزيران ١٩١٩، وصودق عليها في اليوم العاشر من شهر كانون الثاني سنة ١٩٢٠ اما بالنسبة الى العراق، فقد تناقص فيه عدد الجيش البريطاني بصفة منظورة في ذات الوقت، ذلك لأنه تم التخلي عن المواقع التي كانت ترابط فيها الحاميات العسكرية، وجرى تقويض المعسكرات، وأصبحت القوات المتحركة الفعالة اقل عددا، بل أصغر من ذلك كثيرا جدا. والواقع ان الأدارة المدنية كانت تلاقي على الدوام تقبلا شعبيا ملموسا في المدن وفي الأرياف من جانب العناصر المعتدلة التي لادخل لها في السياسة، ومن جانب الجمهور العام.

غير انه ما ان تقدمت سنة ١٩١٩ حتى ازدادت الدلائل على المقاومة التي اخذت الحكومة في شكلها الجديد تجابهها، تلك الحكومة التي لم ترض مطامح القوميين. فقد تناهت الانباء عن التمرد المحلي في كردستان، ذلك التمرد الذي بولغ فيه كثيرا[٧] وأخذت الرسل والأموال الكثيرة تصل الى بغداد والى منطقة الفرات من الضباط العراقيين الموجودين الان في دمشق وحلب. وقد

(٧) يقصد المؤلف بذلك الثورات التي حدثت في خانقين وكفري وفي زاخو والعمادية والزيبار وعقرة والسليمانية التي اشرنا اليها فيما سبق (انظر كتاب المرحوم عبد المنعم الغلامي: ثورتنا في شمال الوطن)، وكتاب الدكتور كمال مظهر احمد: مشاركة الشعب الكردي في ثورة العشرين العراقية.

وجه هؤلاء الضباط مذكرات الى القيادة البريطانية في سوريا، وأخرى غيرها الى وزير الخارجية البريطانية، وكلها توضح الحاجة الى ايجاد نظام حكم قومي في العراق[٨]

وعلى اثر ذلك استدعى ارنولد ولسون، احد الاداريين والمحامين البغداديين المشهورين هو «ناجي السويدي» من دمشق لكي يقبل بوظيفة مستشار في بغداد، لكن السويدي ما ان وجد الجو في بغداد غير ودي حتى عاد ادراجه، وهو غير سعيد، الى سوريا[٩] كذلك تحدث زائرون عراقيون اخرون من الغرب عن الموقف الاستعماري الذي تقفه ادارة ارنولد ولسون، ذلك الموقف الذي بدا عليه بأنه كان يقلل او يتجاهل القابليات العراقية.

تعاظمت الاشاعات في بغداد عن الأنتداب المقترح فرضه على العراق، والذي سيتم اقراره حالا من قبل المجلس الاعلى لمؤتمر الصلح. كما ذكرت الأنباء أيضا ان النساء والأطفال البريطانيين قد اخذوا يتوافدون على البلاد وكأنهم ذاهبون الى احدى المستعمرات البريطانية. والحقيقة ان خمسمائة نفر من هؤلاء البريطانيين كانوا قد دخلوا العراق في اواخر سنة ١٩١٩ لقد ظهر بأن عمل الدوائر المدنية البريطانية ومشروعاتها كانت تشير الى احتلال دائم للعراق. ذلك لأنه تم اعتقال وابعاد الكثيرين من مسببي الاضطرابات، اي القوميين والوطنيين. وشهرا بعد شهر تم ابتلاع صنوف الواعين سياسيا. فقد انشئت مدرسة ثانوية وطنية[١٠] لتكون مركزاً للدعاية وباقتراب فصل الخريف من تلك السنة غدت نتائج التحريض السياسي المنبعث من سوريا ومن بغداد، وتعاظم العنف في كربلاء والنجف، اكثر وضوحا بين العشائر التي تقطن الفرات.

اما في بغداد حيث تواردت الأنباء عن الأجتماعات والمنظمات السرية فقد لوحظت

---

(٨)يريد المؤلف بذلك القرار الذي اتخذه المؤتمر العراقي الذي انعقد في دمشق في يوم اعلان استقلال سوريا وطبيعي ان الاكثرية الساحقة التي حضرت ذلك المؤتمر وشاركت في صياغة قراراته كانت من الضباط العراقيين وقد صدر قرار المؤتمر في اليوم الثامن من شهر اذار ١٩٢٠

ومما جاء في القرار قوله «وبصفتنا ممثلي الشعب المكلفين بالاعراب عن ارادته اعلنا الان باجماع الاراء استقلال البلاد العراقية المسلوخة عن تركيا بحدودها المعروفة من شمالي ولاية الموصل الى الخليج، استقلالا تاما لا شائبة فيه، وايدنا استقلال سوريا التام، واعلنا اتحاد العراق بها اتحادا سياسيا واقتصاديا، ونادينا بحضرة صاحب السمو الملكي الأمير عبدالله ملكا على العراق واعلنا انتهاء الحكم الاحتلالي العسكري الحاضر على ان تقوم مقامه حكومة وطنية مسؤولة امام الشعب (مقدرات العراق السياسية. ج٣ ص ٤٠٩ — ٤١٠).

(٩) لم يستطع السويدي ان يهضم السياسة التي كان ولسون يعمل على تثبيتها ولاسيما فيما يخص مستقبل العراق ولذلك ترك وظيفته التي عين فيها وعاد الى سوريا•فقد كان السويدي قد الم بأن الأنكليز غير جادين في ايجاد حكم نيابي للعراق.

(١٠) يقصد بها مدرسة التفيض الاهلية التي اسست في شهر تشرين الثاني سنة ١٩١٩ وكانت تعرف اول الأمر بأسم «المدرسة الاهلية الثانوية» وكان مديرها ومؤسسها الرئيس المناضل المعروف المرحوم علي البازركان•وكان البازركان ورفاقه الذين اسسوا تلك المدرسة من الاعضاء النشطين في جمعية الحرس وكانت المدرسة مركزا للاجتماعات التي كان يعقدها رجال الحرس. وكان مديرها يقيم الحفلات الوطنية حيث تلقى خلالها خطب مهيجة وقصائد حماسية (انظر: امين العمري: مقدرات العراق السياسية ج ٣ ص ٥٩).

وكذلك علي البازركان. الوقائع الحقيقية في الثورة العراقية.

اتصالات جديدة وذات اهمية بين السنة والشيعة، وظهور ارتباطات سياسية دينية مشتركة، وتبادل المجاملات من دون سابق اشارة. وعلى هذه الشاكلة انقضى شتاء سنة ١٩١٩

وعلى الرغم من تفاقم العنف المتوقع في هذا الوقت، ومن تعاظم الحركة السياسية فقد امكن الحفاظ على الهدوء الحذر خلال هذه الشهور ماعدا منطقة واحدة هي منطقة الفرات الاعلى. لقد كانت التهديدات والاشاعات يتردد صداها هناك من قبل الاتراك الموجودين في ماردين، وكذلك من قبل وكلاء الحكومة العربية في حلب. وفي اواسط كانون الأول سنة ١٩١٩ احتلت العشائر المهتاجة التي كانت تصحب الحاكم الشريفي للفرات، مدينة دير الزور. اما الحالة الحرجة والمذلة التي طغت على هذه المدينة، ومارافق ذلك من انشغال الحاكم السياسي البريطاني فيها، فأنها لم تنته الا في يوم عيدالميلاد، وذلك في اعقاب ترتيب بين ممثلي المندوب السامي البريطاني وممثلي جعفر العسكري محافظ حلب، حيث تخلى البريطانيون عن دير الزور [١١]

لقد أصبحت دير الزور مركزاً للدعاية وللقاءات، والتهديدات الصارمة الداعية الى ضم ولاية الموصل اليها، ولم يلبث افراد القبائل ان دخلوا مدينة «البوكمال» ونهبوها، وكانت هذه المدينة تستخدم قبلا مقرا لجباة الضرائب العاملين داخل العراق. وكان المحافظ التالي في دير الزور وهو موصلي [١٢] قد شن حملة دعاية شريفية عنيفة وممولة تمويلا جيدا، ورفض كل المقترحات الداعية الى اجراء تسوية سلمية لقضايا الحدود بين العراق وسوريا، ولم تستطع الهيئات البريطانية، التي لم تكن لها اية قوة في المنطقة كلها، ان تفعل شيئا ما سوى الأحتجاج والتهديد باتخاذ اجراءات انتقامية جوية.

ادت عودة الأمير فيصل من اوربا في سوريا في اذار سنة ١٩٢٠ الى انسحاب الغزاة [١٣] وفي اوائل شهر ايار من تلك السنة انعقد مؤتمر للحدود في قرية «عشارة» ووافق على تحديد خط للحدود يبدأ مباشرة من غربي «القائم». ولكن هذه التسوية اخفقت اخفاقا تاما في تحسين

---

(١١) بعثت بريطانيا بالنقيب كارفر معاون الحاكم السياسي في عانة حاكما سياسيا على دير الزور ولكن محافظ الدير المعين من قبل حكومة دمشق العربية مرعي باشا الملاح لم يوافق على هذا الأجراء واقترح الذهاب الى حلب للتعرف على السلطة العليا فيها بهذا الشأن وكان جعفر العسكري يتولى منصب محافظ حلب، حيث تم الاتفاق على الجلاء عن دير الزور وضمها الى منطقة النفوذ البريطاني مؤقتا، واخيرا قرر العراقيون الموجودون في سوريا تعيين المرحوم مولود مخلص حاكما لمحافظة دير الزور والذي تحرك اليها من دمشق في الثاني عشر من كانون الثاني ١٩٢٠، وهو يحمل تعليمات الأمير زيد نائب الملك فيصل في سوريا بوجوب توطيد الآمن في محافظة الدير واجراء المذاكرت مع حاكم البوكمال السياسي المستر مايلس لصرف النظر عن جعل نهر الخابور حدا فاصلا بين سوريا والعراق (امين العمري مقدرات العراق السياسية. ج٣ ص ٣٥٠ - ٣٥١).

(١٢) هو مولود باشا مخلص

(١٣) يقصد المؤلف بالغزاة هنا العشائر التي غزت كلا من دير الزور والبوكمال وكانت هذه العشائر تتألف من العقيدات وعنزة، والبقارة والجبور التي كانت تخيم على مقربة من دير الزور وفي جوارها في تلك الايام.

الأوضاع. ذلك لأن جماعات السلايين الذين كانت تحرضهم سوريا، والتظاهرات مافتئت ان اجتاحت كل اراضي الدليم ومواطن قبيلة شمر.

كان الأيمان بمقت البريطانيين، وبضرورة جلائهم من العراق، ايمانا شاملاً ولذلك أصبح الطريق بين بغداد والموصل، ووضع سكة الحديد هناك، غير مأمون، ومالبثت شعارات الدعاية العنيفة التي نظمها حزب «العهد» العراقي، أن اخذت تظهر في مدينة الموصل ذاتها، وساعدت الجهود التي بذلها عملاء الاتراك الموجودون في جزيرة (ابن عمر) أولئك الضباط والمبعوثين الشريفيين، الذين كانوا يدفعون اموالا كانت في الأصل، كما تشكى الحاكم السياسي في العراق، قد دفعت من قبل الحكومة البريطانية ذاتها الى الشريف الذي كان يحكم سوريا.

لايعرف احد مدى ادراك الأمير فيصل للنشاط الذي كان يمارسه مؤيدوه المتحمسون في العراق. ومع كل ذلك فقد كان موقف فيصل من ذلك النشاط موقفا صائبا. ففي الأسبوع من شهر حزيران دخلت قوة عشائرية تحت امرة جميل المدفعي [١٤] الى مدينة تلعفر، فقتلت اثنين من الضباط البريطانيين هناك، هما النقيب «ستوارت» والنقيب «بارلو» ومعهما اثنين من رؤساء العرفاء [١٥] كما تحركت هذه القوة لتهديد الموصل [١٦] ولكن رتلا بريطانيا صغيرا من تلك الحامية استطاع ان يشتت رجال العشائر، وان يعيد احتلال تلعفر، وفي اثر ذلك تم اقرار سلم مشوب بالحذر في منطقة الفرات الاعلى والجزيرة، وتملصت حكومة دمشق بحصافة، من هذه الأعمال وغيرها التي اقترفها وكلاؤها.

لم تلبث الحالة في بغداد وفي اواسط الفرات ان ازدادت سوءا في اواخر ربيع سنة ١٩٢٠ اذ أستمرت الأجتماعات الوطنية المهمة، وراحت تتبارى في القاء الخطب اللاهبة، وأشتهر عملاء

---

(١٤) كانت القوة التي حاصرت الحامية البريطانية في مدينة تلعفر يقودها جميل الخليل قائد الدرك السابق في تلعفر وليس جميل المدفعي، ذلك لأن الحملة التي قادها جميل المدفعي من دير الزور كانت قد وصلت الى تلعفر بعد ان سقطت المدينة بأيدي الثوار، واداك حاولت هذه الحملة التوجه الى الموصل.

(١٥) تحصن هذان ومعهما احد الجنود فوق سطح بناية السراي في تلعفر وكانا يطلقان نيران رشاشاتهم على المهاجمين، ولم يلبث احد الضباط المرافق للحملة القادمة من دير الزور، بعد ان وصلت الى البلدة، ان قذف سطح السراي بقنبلتين يدويتين فانفجرتا واحدثتا دويا مرعبا وتطايرت اشلاء الجنود الثلاثة في الهواء «محمد يونس السيد عبدالله: اهمية تلعفر في الحركة الوطنية ص ٤٨ طبعة ١٩٧٦».

(١٦) استطاعت حملة دير الزور التي يقودها جميل المدفعي ان تجمع في طريقها عدداً من افراد العشائر التي مرت بها وان تتوجه الى الموصل بقصد الاستيلاء عليها، وذلك بعد ان نظم فرع جمعية «العهد» في الموصل، التمهيدات لذلك «انظر مقالتنا في مجلة آفاق عربية عدد حزيران سنة ١٩٨٢ حول حملة دير الزور، وموقعة عين الدبس وغيرها من الحركات الثورية الأخرى في اواسط سنة ١٩٢٠».

الأتراك والبلشفك نشاطهم[١٧] بالاضافة الى الأعمال التي كانت تمارسها القومية العربية ورجال الدين، وخروج افراد العشائر على القانون، وماكان يرافق ذلك من ضغينة ضد البريطانيين. ولقد تأثرت حالة الأمن في بغداد ذاتها، فكانت الأسواق تغلق في فترات متقطعة ووقعت كثير من الحوادث القبيحة.

وجهت التحذيرات الى بعض الزعماء السياسيين، كان من بينهم السيد محمد الصدر، وجعفر ابو التمن، وناجي السويدي، وعلي البزركان، كذلك ادى اعتقال احد المحرضين الصغار[١٨] الى اثارة الحشود الغاضبة واطلاق نيران البنادق[١٩] ومما زاد من ايقاد هذه النار الملتهبة، ذلك القرار الذي اتخذته مجموعة من العراقيين الموجودين في دمشق والتي اختارت فيصل بن الحسين ملكا على سوريا، حيث قررت تلك المجموعة بأن يعرض عرش العراق على الأمير عبدالله وهو شقيق للملك فيصل وأكبر منه سنا[٢٠]

---

(١٧) لسنا نعتقد بأن دعاية البلشفيك الروس ونشاطهم كان من الأهمية في مكان بالنسبة للعراق. فنحن نخالف اولئك الذين يدعون بأنه كان للثورة البلشفية تأثير على قيام الثورة العراقية الكبرى ١٩٢٠ ذلك لأن عوامل الثورة في الواقع كانت داخلية محضة تتمثل في تنكر الحلفاء للوعود التي قطعوها بشأن اقامة حكومة عراقية مستقلة، وبسبب الضرائب الفادحة التي فرضتها سلطات الاحتلال على الشعب حيث انصب كل نشاط الادارة الاحتلالية على امتصاص ثروات الشعب في الدرجة الأولى.

(١٨) المقصود به «عيسى عبدالقادر الريزلي» الذي القى في الأجتماع الذي عقد في جامع الحيدرخانه قصيدة من أربعة وعشرين بيتا دعا فيها الى الأتحاد بين المسلمين وختمها بهذين البيتين

«وبعد اقول للجاسوس منا   تجسس مااستطعت الحاضرينا)

وبلغ من تريد فقد بنينا   لاستقلالنا الاس المتينا

علي الوردي لمحات من تاريخ العراق ج٥ ص١٧٦) وكان مطلع القصيدة هو

«بني النهرين نسل الطيبينا   افيقوا واسمعوا حقا مبينا) علي البزركان ص ٩٥).

(١٩) رد الأنكليز على ذلك بأن بعثوا ببعض المدرعات الى الاجتماع المعقود في جامع الحيدرخانه فتصدت تلك المدرعات للمجتمعين. وحدث اثناء ذلك ان هجم احد الحاضرين وهو النجار رشيد الأخرس بفأس في يده على سائق احد المدرعات فضربه بها وعندئذ صوب احد الأنكليز نيران بندقيته الى الأخرس فارداه قتيلا وكان من أول شهداء ثورة العشرين.

(٢٠) بعد ان عاد الأمير فيصل من مؤتمر الصلح الى سوريا اتفقت كلمة الأحزاب السورية على رفض الأنتداب الفرنسي على سوريا وكذلك رفض الأنتداب البريطاني على فلسطين، حيث بدأ اعضاء من حزب الأستقلال العربي، وحزب الاتحاد السوري وفريق من اعضاء المؤتمر السوري»بالتفاوض مع فيصل واقناعه بضرورة اعلان استقلال سوريا وبضرورة تتويجه ملكا عليها. وفي الوقت ذاته طلب الأمير فيصل الى الضباط العراقيين في سوريا الذين كانوا يطالبون فيصلا بضرورة بذل الجهود لتحرير العراق، بأن يؤلفوا هيئة منتدبة من بينهم للتذاكر معهم في امر تأليف «مؤتمر عراقي يجتمع الى جانب المؤتمر السوري فيعلن استقلال العراق تحت ملوكية الأمير عبدالله في الوقت الذي يعلن فيه استقلال سوريا.ولقد تألف اعضاء المؤتمر العراقي من خمسة وعشرين عضوا من بينهم جعفر العسكري، وناجي السويدي وتوفيق السويدي ورضا الشبيبي وعلي جودت الأيوبي وجميل المدفعي وتحسين علي ورشيد الهاشمي «شقيق الشاعر محمد الهاشمي) وثابت عبدالنور ويونس وهبي ونوري القاضي وحمدي صدر الدين وغيرهم. وحينذاك انعقد المؤتمران السوري والعراقي معا في دمشق في اليوم السابع من ١٩٢٠ وفي نفس اليوم صدر قرار المؤتمر السوري باعلان استقلال سوريا واختيار الأمير فيصل ملكا عليها. وكان من بين الموقعين على ذلك القرار كل من محمد جميل بيهم وحمل الاتاسي وابراهيم هنانو وصبحي الخالدي وعبدا[illegible] الخالي وغيرهم (امين العمري مقدرات العراق السياسية ج ٣ ص ١٨٨ وما بعدها)

وكانت لهجة المناقشات التي جرت في مجلس العموم البريطاني، وجوهرها عن قضايا الشرق الأوسط، قد تمت دراستها بأمعان وقوة من لدن الساسة العراقيين، ذلك ان المظاهر المقيتة للادارة المحلية، واستبعادها العناصر العراقية، بقيت تطبق دون ادخال اي تحسين عليها. وأخيرا جاءت الأنباء مؤكدة الأشاعات المغرضة التي قالت بأن الدول المنتصرة قد اقرت في الأجتماع الذي عقد في (سان ريمو) في اليوم الثامن والعشرين من نيسان، بأن يعهد الى بريطانيا بالانتداب على العراق. وقد اعلن هذا النبأ الذي قضى على آمال العراقيين في التمتع بالأستقلال التام، في بغداد وذلك في شهر ايار مصحوبا بتأكيدات مبهمة من لدن الحاكم المدني البريطاني. على أن تأثير هذه الحوادث لم يتعاظم نتيجة التوصيات التي وضعتها اللجنة التي ترأسها بونهام - كارتر، والتي لم يتم الاعلان عنها، وكانت هذه اللجنة قد الفت من قبل السر ارنولد ولسون في شهر اذار لكي تضع مسودة الدستور المقبل للعراق. ومع ان توصيات تلك اللجنة جاءت، مطابقة للافكار الاصلية التي كان يقول بها ارنولد ولسون، الا أنها باصرارها على ان تظل الهيمنة البريطانية مستمرة على تركيب المندوبين والموظفين العراقيين، كانت تنطوي على الحذر، وتضمر العداء الى درجة غير مقبولة تماما في نظر الوطنيين العراقيين.

قبل وقوع مذبحة تلعفر بيومين اي في اليوم الثاني من شهر حزيران، جرى لقاء بين ارنولد ولسون وكتلة مؤلفة من خمسة عشر شخصا من الممثلين الوطنيين[٢١] وقد أضاف ولسون من جانبه الى هؤلاء خمسة وعشرين شخصا من البارزين الذين اختارهم بنفسه، وأستخدمهم لغرض توضيح الهوة الفاصلة بين الآراء التي يقول هو بها، وبين تلك الآراء التي يؤمن بها القوميون.

وفي الوقت الذي لم ترض فيه القوميات بالتوضيحات التي اوردها ولسون والتأكيدات التي اعطاها، راح يعتبر مطاليبهم بالأستقلال الناجز للأمة العراقية، بأنها مطاليب عصابة متهوسة،

---

(٢١) عندما تم القاء القبض على عيسى عبد القادر، اختار المجتمعون من بينهم خمسة عشر رجلا، لمواجهة الحاكم العسكري البريطاني، وتقديم احتجاج اليه، عن اعتقال عيسى عبد القادر، وكان هؤلاء هم كل من السيد ابو القاسم الكشاني (الذي ايد مصدق في حركة تأميم النفط في بادئ الامر ثم انقلب عليه وانحاز الى جانب الشاه السابق وبارك انقلاب الجنرال زاهدي)، والسيد محمد الصدر، جعفر ابي التمن، الشيخ احمد الظاهر، يوسف السويدي، عبد الكريم حيدر، الشيخ عبد الوهاب النائب، الشيخ سعيد النقشبندي، السيد فؤاد الدفتري، السيد محمد مصطفى الخليل، احمد الشيخ داود، علي البزركان، ياسين الخضيري، محمود الشابندر، عبد الرحمن الحيدري، رفعت الجادرجي.

اما الاشخاص الذين اختارهم ارنولد ولسون بنفسه فمنهم عبد الجبار الخياط، عبد القادر الخضيري، محمود الشابندر، جميل صدقي الزهاوي، صالح الحلي، محمد حسن الجوهر، جعفر عطيفة، الشاوي، عبد الكريم الجلبي، مناحيم دانيال، ساسون حسقيل، خسرو لموبجيان، عزرا مناحيم دانيال، يهودازلوف، الحاج علاء الا لوسي (لم يحضر الاجتماع). وما ان علم الوطنيون بما فعله ولسون حتى بادروا الى الاجتماع بأولئك المندوبين، وتذاكروا معهم، حيث قرر الجميع مطالبة السلطة المحتلة بطلب الاستقلال التام (محمد علي كمال الدين: «معلومات ومشاهدات في الثورة العراقية الكبرى» ص ٢١٩ ومابعدها طبعة ١٩٧١)

واخذ يؤكد بأن الجمهور الرئيس في العراق سوف يكون أكثر تساهلا، واوسع امنا، في ظل حكم قد يرقى الى درجة الحكم البريطاني المباشر.

وفي الوقت ذاته كانت لجنة اللورد كرزن، وهي اقل حذرا وأكثر تحررا من آراء ولسون نفسه، قد اعادت النظر في المقترحات التي وضعتها لجنة بونهام كارتر، وفي الانتقادات التي وجهت اليها، وقررت بأن الوقت أصبح ملائما الان، للاعلان عن وضع دستور للعراق. وطبقا للأوامر الواردة من لندن، اعلن الحاكم السياسي في اليوم السابع عشر من شهر حزيران ١٩٢٠، ان جمعية عامة منتخبة سيتم عقدها، وأن هناك تطلعا اولياً نحو وضع دستور لدولة عربية ستكون حكومتها الذاتية، حكومة حقيقية وفعالة، وان لم تكن كاملة. غير ان اعلان هذا الأمر جاء متأخرا. فلقد سارت العواطف والأماني القومية قدما، وكانت القوى في المدن وبين العشائر في حركة لايمكن ازاءها للعبارات اللطيفة، أن توقف اعلان الدستور.

لم تترك الأيام القلائل التي امضاها السر برسي كوكس في بغداد، وقد غادرها الآن بعد ان تم تعيينه وزيرا مفوضا في طهران، سوى انطباع ضئيل، عن كل ماكان يتمتع به من اعتبار شخصي، ذلك ان «الأنتداب» تلك الكلمة المقيتة، قد أينع الآن، والحكم البريطاني المباشر الفعال متواصل، ولم تعد للاستقلال الحقيقي اية دلالة، ولا أي امل مبكر، كما ان اللجنة المؤلفة من المندوبين السابقين في البرلمان العثماني، والتي كان يرأسها السيد طالب النقيب الذي عاد الى العراق في شهر شباط سنة ١٩٢٠ قد أخذت ومن دون ادنى تأثير على الرأي العام في العراق، تواصل اعمالها في التمهيد لعقد الأنتخابات الموعودة[٢٢]

وفي الوقت ذاته سارت لائحة جلاء الجيوش البريطانية عن العراق قدما، وأصبحت القوات البريطانية الفعالة قليلة، وموزعة، وكانت طرق المواصلات في العراق وفي بلاد فارس طويلة ولايمكن الدفاع عنها، في حين كانت الواجبات المحددة لحراسة المخازن، والأسرى الأتراك

---

(٢٢) تحرك السيد طالب النقيب الى هذا العمل تنفيذاً لرغبات الحاكم البريطاني العام ارنولد ولسون الذي اراد كما يقول الدكتور علي الوردي – ان يقوم بعمل يلهي به الناس خلال الايام الاخيرة من حكمه وقد نشرت الدعوة لاجتماع اولئك النواب في الصحف في الثاني عشر من تموز ثم ارسلت الدعوة الى النواب للحضور في السادس من آب. وحين علم زعماء الحركة الوطنية بتلك اللعبة قرروا دعوة المندوبين لحضور اجتماع في دار السيد عبد الرحمن باشا الحيدري وهناك حاول السيدان يوسف السويدي ومحمد الصدر اقناع اولئك النواب بالانسحاب من اللجنة لكن النواب رفضوا تلك المبادرة وانهم – كما يبدو كانوا يرون نجاح الثورة امرا غير مضمون

وفي صباح اليوم السادس من آب حضر النواب السابقون الى محل الاجتماع في دار الحاكم فحضره ارنولد ولسون وحاكم بريطاني يدعى نورتن والمترجم محمد مرزا البوشهري وهو محمد خان بهادور مترجم ومساعد كوكس في الخليج العربي والذي عرف مؤخرا باسم المحامي محمد احمد في البصرة. واختار الاخرون اربعة من زعماء الحركة الوطنية هم جعفر ابو التمن ومحمد الصدر، ويوسف السويد وعبد الرحمن الحيدري للانضمام الى اللجنة ولكن السويدي وابا التمن والصدر قرروا مقاطعة اللجنة ووجهوا الدعوة الى عقد اجتماع شعبي عام يعقد في جامع الحيدر خانة في ١٥ آب لاثارة الجماهير على اللجنة (د علي الوردي لمحات من تأريخ العراق الحديث ج ٥ القسم الثاني من ٧ ٨

والمسيحين اللاجئين من تركيا، قد تم احتسابها لغرض أستخدام كل القوة الباقية تقريبا. كذلك فأن عوائل الجنود البريطانيين التي وصلت مؤخرا الى العراق، قد تم حجزها في «كرند» داخل بلاد فارس.

ومنذ شهر اذار سلمت القيادة العسكرية البريطانية في العراق، الى قائد كبير السن جديد على العراق هو «السر ايلمر هالدين»[٢٣] والذي لم يظهر منذ البداية سوى ثقة ضئيلة بالتحذيرات الصادرة من لدن الحاكم المدني، وضباطه، تلك التحذيرات التي أصبحت الان اداوات أنفجار واثارة بارزتين.



(٢٣) صاحب كتاب «الثورة في العراق» الذي ترجمه ونشره المرحوم فؤاد جميل.

٤ ـ ثورة سنة ١٩٢٠ [1]

نجمت الاضطرابات التي انفجرت بين افراد العشائر في منتصف صيف سنة ١٩٢٠ بصفة مباشرة عن عوامل يعود البعض منها الى امور مألوفة من زمان طويل في العراق ، وذلك من امثال التمسك بالقبيلة والمقاومة ، وحب الغزو والنهب ، وتحريضات مجتهدي الشيعة اصحاب المصالح الذاتية ، ومطامع المشيخة المحلية ، او التنازع على المشيخة ، والامتناع عن دفع الضرائب ، وشدة النفور من الحكومة ، كما يعود البعض الآخر من هذه العوامل الى الحماسة ، والدعاية القومية الممولة تمويلا حسناً لهذه الغاية

ومن الامور التي ساعدت في تلك العوامل ، تبعثر القوات البريطانية ، وقلة عددها ، واعادة توزيعها ، ووضع القيادة العسكرية التي كانت تبدو في بعض الاحيان فاترة او متعبة ، وفي احيان اخرى ، غير متعاطفة ، ان صوابا حدث ذلك ام خطأ ، مع حاجات الادارة او حجمها . ولقد ادى التمرد الناتج عن ذلك ، الى اخضاع البلاد ، لمدة ثلاثة شهور ، الى اوضاع مشابهة لما كانت عليه اثناء الحكم التركي ، وذلك في فترة من أكثر الفترات التي مرت بها فوضى واضطرابا

فلقد شمل التأثير الذي احدثته هذه الاوضاع حوالي الثلث من الريف العراقي خارج المدن الكبرى ، وتميزت هذه الاوضاع بانقطاع المواصلات ، ورفض دفع الواردات ، ومقارعة قوات

---

(١) لم يشأ المؤلف هنا ، الا ان ينعت ثورة العشرين بمثل مانعتها به اضرابه من الكتاب الغربيين، حيث اطلق عليها كلمة «التمرد او الاعتصاب INSURRECTION بدلا من كلمة «ثورة Revolution» كل ذلك بقصد التقليل من قيمة المقاومة المسلحة التي جوبه بها المحتلون الانكليز من قبل الشعب العراقي، وانفجار تضحيته في سبيل تحرره وانعتاقه، وتعلقه بالحياة الحرة الكريمة. صحيح انه كان للعوامل التي ذكرها المؤلف اثرها الفعال في ايقاد نيران الثورة، ولكنه انكر العامل الاقتصادي الذي يعد من اقوى العوامل. اذ ان سوء الوضع الاقتصادي وفداحة الضرائب التي فرضت على المزارعين في الدرجة الاولى كانت من بواعث التمرد والتذمر. ومع ذلك فقد اورد المؤلف في ثنايا هذا القسم كلمة «الثورة» بلفظها العربي ، ولسنا نعلم هل كان ذلك نابعا عن اعتقاده بحقيقة الثورة، ام انه جارى العراقيين في هذا القول. ومهما كانت تسمية الغربيين والاستعماريين منهم قبل غيرهم، فقد كانت ثورة العشرين من الثورات الحقيقية الشعبية حقا اذ شاركت فيها جماهير الشعب من مختلف الطبقات والمراتب، وكشفت عن مدى بغض الشعب لسيطرة الاجانب واستعداده لتقويض تلك السيطرة، فهو لم يكن متخلفا في هذه المقاومة عن بقية الشعوب الاخرى التي شهد العالم نضالها ضد الاحتلال ولاسيما خلال الحرب العالمية الثانية في الاقطار التي احتلتها المانيا وايطاليا واليابان.

الحكومة ، وبالهجمات المحلية المتعطشة الى سفك الدماء ، ونهب المساكن والاموال ، في حين لم يحدث في المدن اي اضطراب[٢]

كان حادث الثورة[٣] بالنسبة الى ضباط الادارة عاملا من عوامل الوهم والخيبة ، وضياع العمل الذي كرس لمدة سنتين ضياعا جزئيا ذلك لان هذه الثورة كانت تعني بالنسبة الى هؤلاء الضباط والى القادة العسكريين ايضا ، مرحلة من الكبت الشديد ، يوما بعد يوم ، لحياة وبقاء مهددين بالخطر. اما بالنظر الى الحكومة البريطانية فان الثورة كانت تذكيرا لها بان تطبيقها لسياستها كان في حد ذاته ، اقل من التأخيرات التي كانت تقع من لدنها ، ومن الانهيار النفسي ، الذي لم يعن كثيرا بالنقمة المحلية ، او بقوة القومية العراقية ، وقدرتها على كسب التأييد الشعبي

كذلك كانت تذكيرا للحكومة البريطانية ايضا ، اذا ما احتيج اليه ، بمدى الحاجة الى اقامة نظام حكم في العراق ، يستطيع عن طريق ارضاء العناصر الكبرى في البلاد ، ان يخفف من الاعباء الحالية التي تثقل كاهل دافع الضريبة البريطاني وبالنظر الى افراد العشائر في العراق ، والدين تكبدوا اصابات شديدة دون الحصول على اي عوض من ذلك من اي نوع كان ، فان الثورة قد لقنتهم ، ليس لاول مرة ولا لآخر مرة ، درسا قد يساعد النتائج غير الحميدة والناجمة عن خدمة اغراض الساسة المدنيين[٤] وللذين تزعموا الحركة الدينية من الفرس.

لم يقم سكان المدن وزعماؤهم المدنيون ، رغم ما كانوا يظهرونه من اخلاص وحمية ، باي دور مادي او عملي في الثورة ، لكنهم استفادوا من اضطراب حبل الامن ، والذي كانت الادارة ، على الرغم من وجودهم ، قادرة على صيانة الامن في المدن ومع كل ذلك فقد كان هؤلاء الزعماء يزعمون ، كما لايزال الجيل الذي خلفهم يزعم، بان «حرب التحرير الوطنية» التي اضفيت عليها صفات البطولة ، قد ادت بصفة ضرورية الى تعديل السياسة البريطانية ، واجبرتها على اقامة دولة عراقية

ان وضع مقارنة ايجابية بين الترتيبات الدستورية التي صيغت في السابع عشر من حزيران

---

(٢) لم تقتصر الثورة على الريف ، كما يذكر المولف ذلك.فقد شاركت فيها مدن كثيرة من امثال بغداد ، والنجف ، وكربلاء ، ومن بعض المدن الشهيرة في الشمال ، وان كانت مشاركة ابناء الريف اوسع واعم نتيجة تجمعهم في مناطقهم وتماسهم الشديد مع المدن

(٣) كتب المؤلف كلمة «ثورة» باللفظ العربي وبالحروف الانكليزية THAWRA

(٤) ولقد بقي افراد العشائر حتى اواخر سني الثلاثينات في العهد الملكي ، يثارون ويدفعون الى التمرد بتحريض من بعض الساسة المدنيين ، ومحترفي الحزازات والحركات الطائفية ، فضلا عن بعض رؤساء العشائر الذين خاضوا غمار السياسة بعد ان اصبح البعض منهم وزراء واعضاء في مجلسي الاعيان والنواب وعلى الاخص في الفترة التي سبقت وقوع انقلاب بكر صدقي وخلاله ، حيث غدت الانقلابات العسكرية المتوالية تعوض عن تمرد العشائر واعتصابها مما سيطلع عليه القارئ بكل وضوح في الفصول التالية

سنة ١٩٢٠ والتي اذيعت قبل الثورة ، والتي كانت في الواقع اجراءات تمهيدية لانشاء دولة عربية تعمل طبقاً لبرلمان وطني ووزراء ، وموظفين عراقيين ، وبين الترتيبات التي اعدها السربرسي كوكس في خريف تلك السنة [٥] ، لايمكن ان تدعم هذا الرأي ذلك ان الثورة على الرغم من الحاقها الخسائر المؤسية بالذين شاركوا فيها ، كانت قد اخرت ، الى بضعة اشهر ، تأليف الدولة الجديدة

ومن ناحية اخرى قد يقال عن الثورة بانها قد خففت الى حد ما من وسيلة تطبيق السياسة البريطانية ، وعززت قضية التفاهم عن طريق المعاهدة بدلا من قيام حكومة انتدابية بشكل مباشر. ومع ان العمليات الحربية التي قامت بها عشائر الفرات قد اظهرت دلائل على تدريبها او قيادتها من قبل ضباط مدربين ، هم الضباط الذين خدموا في الجيش التركي وكانوا ضمن قوات الامير فيصل ، مع كل ذلك فان مجرى الحوادث لم يكن له سوى قدر ضئيل من الاهمية

ذلك لان الثورة لم تتبع اية استراتيجية او اي تزامن اكثر دقة من مجرد نشر الفوضى الشاملة على ايدي عملاء العشائر ، متى وحيثما كان ذلك مستطاعا وقد ادى هذا الامر الى بقاء الادارة بصفة مستمرة وفي معظم المناطق.

وحتى الحد الادنى من السيطرة الموحدة على عمليات الثورة ، لابد وان جعل وضع البريطانيين من الامور التي لاتطاق ، وبذلك توحدت الهيئات الرئيسة التي كانت تلوح بقضية القومية ، او الفوضى. ويشير انعدام التماسد ليس الى فشل العنصر السياسي اللازم لتحقيق ذلك التماسك حسب ، بل والى الاغراض الضيقة لرؤساء العشائر ، والى تنوع دوافعهم ، ونقص الاحساس بالخدمة للقضية المشتركة

كذلك ينبغي علينا ان لاننسى بانه كانت في العراق نسبة عالية من رؤساء العشائر ، وبين الاشخاص البارزين في المدن ، قد منعوا حدوث اي تأيد للثورة ، في حين كان اخلاص القوة المسلحة العراقية المؤلفة من الشرطة والشبانة للادارة من الامور المشهودة

تطلبت اعادة الاوضاع السليمة الى البلاد ، بضعة شهور من الجهود العسكرية البريطانية المضنية ، التي لم تتميز ببعض الافعال المؤسية حسب ، بل بوقوع شواهد دللت على البسالة العسكرية ايضا فهذه الجهود التي اشتملت على جلب التعزيزات المهمة من الهند ، والتي كلفت مئات الاصابات وكميات من المهات الحربية ، واقامة المئات من المواقع المحصنة ، وعشرات الاميال من سياجات الاسلاك الشائكة ، ونفقات قدرت بأربعين مليون باون ، وهو

---

(٥) يشير المؤلف بذلك الى موضوع الاستفتاء الذي حاول ارنولد ولسون اجراءه ، والمحاولات التي اريد بها ، عن طريق دعوة النواب العراقيين في البرلمان التركي ، الى المشاركة مع السلطات البريطانية في تهدئة الوضع ، وحمل السكان على القبول بالحكم البريطاني المباشر للعراق ، مما ورد ذكره في القسم السابق

مبلغ يفوق كثيرا ذلك المبلغ الذي تم انفاقه على الحلفاء العرب خلال الحرب في الحجاز وفي سوريا

بقي الامن خلال شهر حزيران سنة ١٩٢٠ في كل انحاء العراق غير مضطرب ، ماعدا بعض الحوادث التي اعقبت مذبحة «تلعفر»،والواقع ان بعض المراقبين كانوا يعتقدون بان الامن قد تعزز بعد ان اخفقت القوات العشائرية خارج الموصل ، وبعد اعلان السياسة البريطانية في بغداد ، اثر عودة السربرسي كوكس ، واعتقال بعض المحرضين الوطنيين في بغداد وكربلاء والحلة ، والديوانية ، حيث تم نفي البعض منهم الى جزيرة «هنجام» في الخليج العربي[٦]

ولكن هذه الآمال كانت مزورة ، ذلك لانه لم يتم تجنب اعمال العنف التي الفها العراق في تأريخه الطويل وقع حادث في الرميثة على الفرات الادنى ، في الاسبوع الاول من شهر تموز ، ولم يكن مرتبطا اول الامر ، باية سياسة قومية او اية سياسة اخرى ، ادى الى قلع سكة حديد البصرة – بغداد قرب الرميثة والسماوة ، حيث حاصر افراد العشائر بصفة مطلقة ، دوائر الحكومة فيها فشلت الجهود البريطانية الاولى التي صممت للوصول الى الرميثة ، ولم تمكن لنجدة تلك الدوائر في اليوم العشرين من تموز ، الا بعد قتال عنيف ولكن تم التخلي عنها فورا وثارت العشائر في المشخاب ، و «ابي صخير» في الثالث عشر من تموز ، وحاصرت «الكوفة» بعد اسبوع من ذلك التأريخ حيث قتل النقيب ج س مان[٧] ثم جرت مهاجمة الكفل حيث تم ارسال رتل من كتيبة مانجستر على عجل لنجدتها ولكن هذا الرتل تعرض ، لسوء الحظ ، الى خسائر فادحة من القتلى والاسرى مما رفع من معنويات القوات العشائرية الثائرة واخلت القوات البريطانية سدة الهندية «والمسيب» ومن ثم اعيد احتلالها في منتصف شهر آب ولم تستطع القوات البريطانية الجلاء عن الديوانية الى الحلة الا بمشقة بالغة ، حيث بقيت القنوات والمدن الواقعة الى الجنوب منها ، خارج نطاق السيطرة لبضعة اسابيع وفي المنتفق ، ارغم الحكام السياسيون البريطانيون في كل من الشطرة ، وقلعة سكر ، وسوق الشيوخ على اخلائها ايضا في شهر آب وما خلا مقر محافظة الناصرية،ساد المنطقة هناك نظام غير حكومي لبضعة اسابيع ، وان لم يقدم ذلك النظام على اتيان اعمال ثورية مركزة

---

(٦) كان من بين المنفيين من بغداد كلا من الشيخ احمد الشيخ داود ، وجعفر الشبيبي ، ومحمد مصطفى الخليل ، وعارف السويدي والشيخ احمد مختار محلة الشيخ فتحي وهو احمد الشيخ داود وصبري قاسم اغا ، ونوري فتاح والسيد امين رئيس بلدية الاعظمية،وفي ٣٠ ايار ١٩٢١ اذاع المندوب السامي بياناً بالعفو عن القائمين بالثورة ومن بينهم بعض الهاربين من وجه العدالة من امثال الشيخ ضاري المحمود شيخ زوبع وولداه خميس وسلمان والاشخاص الذين قتلوا او حرضوا على قتل بعض الضباط السياسيين في تلعفر وديالى .

(٧) كان هذا يتولى منصب الحاكم السياسي في الشامية وقد عرف بحدة ذكائه ومكره واستطاع بمسعاه ايقاف قبائل الشامية عن اعلان الثورة ولهذا الضابط كتاب قيم عن اوضاع العراق عنوانه «اداري في دور التكوين ١٩٨٣ – ١٩٢٠ طبع لندن ١٩٢١ وهو من الكتب التي قررنا ترجمتها ونشرها ان شاء الله .

ثم قلع سكة الحديد ونهب احد القطارات وتدمير سفينتين نهريتين حربيتين هما «غرين فلاي» و «س ، ٩ .» (٨) وقتل ملاحوهما ، وعلى الرغم من ذلك ظلت نواة الولاء للادارة البريطانية موجودة تحت اشراف الاقوياء من شيوخ المنتفق ، واخذت الاحوال هناك تعود ، ومن دون الاقدام على عمل حربي ، الى مايشبه الحالة الاعتيادية في اواسط شهر تشرين الاول

لم تجد القلاقل التي حدثت اي وقت لها للانتشار الى الكوت ومناطق العمارة الواقعة على القسم الادنى من نهر دجلة ، كما انها لم تبلغ مدينة بغداد وضواحيها ما خلا وقوع حوادث منعزلة كان من بينها تدمير المخازن الرئيسية التي تحفظ فيها وسائل النقل المتحركة وكذلك فلم تبلغ الإضطرابات مدينة البصرة على الرغم من الجهود التي بذلها بعض المحرضين لذلك

بقيت الموصل والمناطق الكردية التابعة لها هادئة[٩] على الرغم من الدعاية العنيفة التي كانت تتسلل عبر الحدود ، وحدوث بعض الغارات العشائرية الواسعة اما السليمانية ، الغريبة عن القومية العراقية[١٠] والتي اصابتها الحوادث التي وقعت في سنة ١٩١٩ ، فانها قد بقيت على حدة وحدث توتر شديد في محافظة كركوك ولكن ذلك لم يؤد الى انفجار الاضطرابات فيها ، عدا ماحصل في «كفري» التي استولى عليها رجال العشائر لعدة ايام خلال شهر آب ، حيث اسروا النقيب «سالمون» مساعد الضابط السياسي فيها ، ومن ثم قتلوه[١١]

وفي اربيل انسحبت الادارة التي كانت تتعرض لضغط شديد موجه من قبل الاتراك ، من اقضية كل من رانية ، وكويسنجق ، وباطاس ، لكنها مع كل ذلك حظيت بمساندة بعض الاغوات الموالين ، واستطاعت ان تحافظ على وضعها في المدينة وفي الريف المحيط بها

---

(٨) كانت لدى الانكليز في الناصرية خمس سفن ، ثلاث منها حربية هي «غرين فلاي» وشو فلاي «وستون فلاي» الى جانب سفينتين عاديتين كانت كل واحدة منها تسحب جنيبتين . وقد تحركت هذه القافة بقيادة الملاح «سفولك» من الناصرية في ٢٦ آب ١٩٢٠ ، متجهة نحو السماوة ، فشرع الثوار يمطرونها بالرصاص قرب «الخضر» ، وقد اصاب العطب محرك احدى السفينتين فجنحت الى الشاطئ واذ ذاك هاجمها الثوار وقتلوا اكثر جنودها ثم نهبوها مع الجنيبتين واضرموا النار فيها وكانت هذه الباخرة هي «غرين فلاي» (راجع تفاصيل ذلك في علي الوردي ج٥ قسم اول ٢٨٣ وما بعدها وفريق المزهر الفرعون الحقائق الناصعة ص ٤٨٨ ، ومحمد علي كمال الدين معلومات ومشاهدات ٢٦٤) .

(٩) لم يعد الهدوء الى المناطق الكردية الثائرة بمثل هذه السرعة التي اتى المؤلف على ذكرها فقد استمرت حركات التمرد والتصادم مع القوات الانكليزية طيلة سنة ١٩١٩ وشطر كبير من سنة ١٩٢٠ وحتى بعد نشوب الثورة في مناطق الفرات وديالى وغيرهما (راجع «عبد المنعم الغلامي وكمال مظهر احمد»)

(١٠) وهذا نوع من الدس لدى المؤلف ذلك لان القومية العراقية ، لاتفرق اطلاقا بين العرب وغير العرب على خلاف مايتظاهر به بعض القوميين المتشددين سواء من العرب او الاكراد او التركمان او غيرهم فهذه العناصر ، العربية والكردية والتركمانية وغيرها عاشت اجيالا عديدة متجاورة ومتشابكة في المصالح وبصلات الزواج ، في وحدة تكاد تكون متماسكة على الرغم من الحزازات التي كانت تثار في بعض الاحيان وكانت كلها موجهة ضد الحكومة وسوء ادارتها

(١١) انظر تفاصيل الثورة في كفري في كتاب د كمال مظهر احمد مشاركة الشعب الكردي في ثورة العشرين العراقية ، وكذلك كتاب عبد المنعم الفلاحي ، ثورتنا في شمال الوطن .

تمت السيطرة على اعالي الفرات بمساعدة شيوخ الدليم وعنزة ، الى ان تم اغتيال العقيد لجمن في اليوم الثاني عشر من شهر آب ١٩٢٠ ، حيث ادى ذلك الى قيام انتفاضات محلية ، وعزل مدينة «عانة» ، ونهبها هي والقرى الاخرى القريبة منها ، واضطرار الادارة الى الانسحاب من «هيت» لبعض الوقت ، حيث تمت اعادة الوضع الى سابقه بوصول ارتال عسكرية اعادت احتلال هيت في اليوم الثامن من شهر تشرين الاول ، غير ان منطقة الدليم بقيت مرتبكة لمدة نصف سنة اخرى

احدثت الدعاية المنبعثة من سامراء انتفاض بعض العشائر القاطنة حواليها مما ادى في اواخر شهر آب الى وقوع هجوم غير ناجح عليها[١٢]. وفي مناطق اخرى شمالي بغداد وشرقيها سيطرت قوى العنف هناك وحظيت بالتأييد والمكافأة فقد هوجم مقر محافظة ديالى في مدينة بعقوبة ، ومدن اقضية شهربان ، ودلتاوة بالتعاقب، واحتلتها العشائر جزئيا، ونهبتها في اواسط شهر آب ، وذلك بايحاء من رجال السياسة ، حيث تم قتل الضباط السياسيين البريطانيين ، النقيب «رغلي» والعقيد «برادفيلد» والنقيب «بوكانن» بالاضافة الى عدد من آمري قوات المرتزقة البريطانية ، واسر البعض الاخر منهم[١٣]

ففي هذه المناطق وفي مدينة «مندلي» على الحدود، كانت قد اقيمت ادارات مؤقتة تبعث على الامل اما المدن التي يقطنها التركمان والاكراد معا ، وهي قزلرباط (السعدية) وخانقين ، فقد دخلتها العشائر الكردية واحتلتها في ذات الاسبوع كما وقع هجوم على المعسكر الذي جمع فيه الاثوريون في بعقوبة. كان من اليسير على القيادة العسكرية ، في المناطق التي تتوفر المواصلات فيها في اواسط العراق ، وذلك بعد ان توفرت لهذه القيادة في اواسط شهر ايلول ١٩٢٠ ، قوات اقوى ، واستطاعت ان تستعيد المبادرة في يدها ، ان تبادر الى اعادة اقامة الادارة في تلك المناطق ، وان تعاقب الثوار ، بما توفر لديها من ارتال عسكرية متنقلة كانت تقوم بزيارة تلك المناطق

وبالنظر الى الانفراج العام للجمهور ، والى مافعله الكبار من اصحاب الاملاك في بغداد ،

---

(١٢) انظر مقالنا في مجلة افاق عربية عدد حزيران ١٩٨٢ عن محاصرة سامراء من قبل عشائر العزة والجبور والبو صقر وغيرهم وسبب ارتداد تلك الجموع عن دخول سامراء واحتلالها ، وماقامت به تلك الجموع من هجوم على مدينة «بلد» اثناء تراجعها عن سامراء

(١٣) وضع [illegible] زوجة النقيب «بوكانن» واسمها «زيتون بوكانن» كتابا عن الثورة في ديالى ولاسيما في شهربان بعنوان «في ايدي العرب» صادر في سنة ١٩٢٤ وعندما عهدت الي ادارة مدرسة التفيض الاهلية بتحرير مجلة التنفيض واصدارها في اوائل سنة ١٩٣٩ [illegible] مقالات عن الثورة في الخالص من المرحوم «علي مهدي» بعنوان «كيف التهبت نيران الثورة في دلتاوة» نشرت في الاعداد الاولى [illegible] في المجلة وحين اصدر صديقنا السيد عبد الرزاق بستانة في اوائل الستينات مجلة اسبوعية باسم «المناهل» اعاد [illegible] تلك المقالات التي نشرتها «التفيض» من دون ان يشير الى مصدرها وقد اعتمد الدكتور علي الوردي على بعض ماجاء في [illegible] «المناهل» دون ان يلتفت الى اصل المصدر وهو مجلة «التفيض».

ان اخذت الاضطرابات في اواسط العراق تخف تدريجاً الى ان اختفت تماما ولكن مع كل ذلك بقيت اعمال التحريض والمنازعات القائمة بين العشائر في ديالى ، خارج نطاق السيطرة عليها وتهدئتها الى حد كبير ولاكثر من سنة اخرى اختفت الادارة التي انشئت في مندلي في اوائل سنة ١٩٢١ ، وتقلص عدد افراد العشائر التي هاجمت كفرى وخانقين ، وتحولوا الى عدد صغير من الخارجين على القانون ، وما لبث الهدوء ان اخذ يعود الى سكان مدن ديالى وبغداد وضواحيهما. وفي اواسط الفرات وادانيه استطاعت القوات البريطانية ان تظهر بمظهر القوة المحترمة في الاسابيع الاولى من شهر تشرين الاول ١٩٢٠ ذلك لانه امكن اعادة الاعتبار الى الادارة في النجف وكربلاء ، ونجدة كل من الكوفة والسماوة المحاصرتين واللتين انشئت فيهما حكومتين مؤقتتين لبضعة اسابيع ، حيث امكن استعادة الاسرى البريطانيين الذين تم اسرهم في شهر تموز مع افراد كتيبة مانجستر وعدة كتائب اخرى ، وكان هؤلاء الاسرى في حالة جيدة اخذت حملات تأديبية متنوعة تنطلق الى مناطق الاهوار التي لم تزرها القوات الانكليزية قبلا ، حيث استمرت المسيرات والاستعراضات العسكرية البريطانية متواصلة خلال شتاء ١٩٢٠ ١٩٢١ كما اعيد بناء الطرق بما في ذلك سكة حديد البصرة – بغداد بصفة متقدمة وقدم الشكر الى زعماء العشائر الموالية وكوفئوا على ذلك ، وغدا امر اخضاع الثائرين مقبولاً عدا قلة منهم هربوا خوفاً، وانتقلوا في الاصل الى سوريا والحجاز

ادت ضريبة البنادق الى فرضها رئيس اركان الجيش البريطاني على العشائر ، الى جمع هذا النوع من السلاح بصفة فعالة ، حيث تم استلام حوالي سبعين الف بندقية ، منها احدى وعشرون الف بندقية من النوع الحديث ، وقد جمعت هذه كلها من عشائر اواسط الفرات وحدها خلال ستة اشهر ولم تجمع من المنتفق اية اسلحة وذلك لاسباب استثنائية كما قامت احدى الحملات العسكرية البريطانية بزيارة «الغراف» في شهر كانون الثاني ١٩٢١

في اواسط شهر تشرين اول عاد السربرسي كوكس الى العراق ، كما كان قد تقرر ذلك ، لكي يخلف نائبه ولسون ، في منصب الحاكم السياسي العام ، وليحقق المنهاج الدستوري الذي اذيع قبل اربعة اشهر خلت وبعد ان اجرى كوكس مشاورات في جنوبي العراق[١٤] وصل الى بغداد في اليوم الحادي عشر من شهر تشرين الاول ولقد ابدى دهشته حقا في البيان الذي نشره في السابع عشر من ذلك الشهر ، من الاهداف التي كانت ماتزال تتوخاها قلة من افراد

(١٤) وصل كوكس الى البصرة في الاول من تشرين الاول ١٩٢٠ وبعد ان قابل ابن السعود في «العقير» والشيخ خزعل في المحمرة استقل في اليوم الثاني طائرته لزيارة معارفه في الناصرية وسوق الشيوخ والعمارة والكوت وغيرها من المدن الواقعة على ضفاف دجلة والفرات للوقوف بواسطتهم على الرأي العام في البلاد واعادة الثقة الى النفوس فلما كان يوم ١١ من الشهر وصل الى بغداد بالقطار (عبد الرزاق الحسني: تاريخ العراق السياسي الحديث ج ١ ص ١٥٦ طبعة ١٩٥٧

العشائر الثائرة[١٥] اما المحاولة التي اراد بها رجال الدين من الشيعة ان يعيدوا بصفة جدية مراكزهم التي اهتزت بصفة مؤقتة ، وان يعلنوا انفسهم وسطاء بين الحكومة وافراد العشائر الشيعية ، فقد حال رفض السر برس كوكس لها دون حدوثها اخذت الاوضاع تعود الى الحال الاعتيادية اسبوعا بعد اسبوع ، وعلى ذلك اصبح مستطاعا استئناف التقدم الذي انقطع في بناء الدولة



(١٥) المقصود بذلك البيان الذي اذاعه كوكس ونشرته جريدة العراق ١٢٤ وبتاريخ ٢٦ تشرين الاول ١٩٢٠ والذي ذكر فيه ان الحكومة البريطانية قد انتدبته ليعود الى العراق لتنفيذ مقاصد الحكومة الثابتة ، بمساعدة رؤساء الامة ، وتشكيل حكومة وطنية في العراق بنظارة حكومة بريطانية ويصعب على فخامته جدا تنفيذ منويات الحكومة البريطانية مادامت بعض اقسام العشائر والطوائف في العراق تعادي الحكومة ولايعلم فخامته غرض العشائر الذين يشغلون انفسهم بالحرب فاذاكان هناك سوء مفهومية يمكن ازالتها فيسر فخامته ان يبلغ العشائر ذلك اليه بواسطة اقرب حاكم سياسي اليهم (عبد الرزاق الحسني تأريخ الوزارات العراقية ج ١ ص ٩ ١٠ طبعة ١٩٧٤)

٥ . الملك فيصل الاول

لم يكن «استقلال العراق التام المباشر» ليؤلف اي جزء من المنهاج الذي كان «برسي كوكس» يسعى الى انجازه ، بعد الفشل الذي احاق بالحركة الثورية التي نظمت لنوال ذلك الاستقلال . كما ان انهيار حكومة الامير فيصل في سوريا في شهر تموز سنة ١٩٢٠ ، لم يدع حتى اكثر المدافعين المتحمسين في تلك الحكومة›ينذر الان ان يتوقعوا ذلك الانهيار .

كانت بريطانيا قد تقبلت الانتداب الذي فرض على العراق ، بكل ماكان يشتمل عليه ذلك الانتداب من وصاية مهما تم تفسيرها ولقد سمحت معاهدة «سيفر» مع تركيا ، والتي كثر النقاش حولها ، وتم التوقيع عليها في اليوم العاشر من شهر آب ١٩٢٠ ، قد سمحت للاكراد ان ينضموا – اذا ما رغبوا في ذلك – الى الدولة التي ستقام وتشمل اواسط كردستان .

ومهما كان برسي كوكس ، ومستشاروه ، متعاطفين مع اماني العراقيين ، الا انهم كانوا مقتنعين بان اخضاع العراقيين الذي تطلبه الحكومة البريطانية ، يجب – لغرض صحته ودوامه – ان يأتي بالتدريج وبخطى متقدمة صحيح ان الادارة البريطانية العملية ، التي كانت تعمل بصفة منظورة في كل المناطق ، والمحافظات ، والاقضية ، قد اصبحت حقيقة واقعة ، بحيث لم يعد مستطاعا ، في تلك اللحظة ، الكشف عن الامور السياسية

وفي الوقت ذاته كان المنهاج الذكي لانشاء «ادارة عراقية» والذي تم تطويره في اول الامر ، قد اخذ يحظى بواقع متزايد ، وفقاً للخطوط التي اعتمدتها لجنة بونهام – كارتر ، واقدمت كل من الحكومة البريطانية ، والسر برسي كوكس نفسه على تعديلها بصفة ملموسة ، بحيث اصبح متوقعا بان يحظى ذلك المنهاج بالتأييد من لدن اصحاب الآراء المعتدلة ، او غير ذوي الآراء السياسية ، تلك الآراء التي اخذت تتوطد الآن ، نتيجة التجارب المفزعة التي حدثت خلال شهري تموز وآب ، بالاضافة الى الضباط البريطانيين ، الذين كانت اغلبية كبرى منهم ، في الواقع ترغب وتتشوق الى المساعدة في انشاء نظام حكم جديد

كان التطرف في تلك اللحظة مستترا تحت سحابة ، حيث كان المتحمسون لذلك التطرف يعيشون خارج البلاد ، في حين ظل الاخرون منهم صامتين بصفة مؤقتة كان كثير من القوميين المخلصين ، بل معظمهم ، يرغبون ان يشاركوا لوقت ما في نظام الحكم الجديد ، الذي وان لم

يكن يرضيهم تماما الا انه كان على الاقل يمثل تقدما جوهريا وهكذا في غضون اسبوع منذ وصوله الى بغداد ، واستقباله استقبالا وديا في كل انحاء العراق ، استطاع برسي كوكس وبمعونة من مستشاريه بونهام – كارتر ، وهول ، وفلبي ، وسليتر ، وبولارد ، والمس بل ، ان يهيئ الخطط لاقامة حكومة عراقية مؤقتة

كان المقرر ان يحظى المجلس الذي يضم وزراء مسؤولين، بمساعدة من المستشارين البريطانيين ، وان تستأنف الخدمة المدنية العراقية الشاملة الامساك بزمام الحكومة في المحافظات اما بالنظر الى رئاسة مجلس الوزراء ، فقد استطاع السربرسي كوكس ان يتغلب على التردد الاصيل الذي اظهره نقيب بغداد ، السيد عبد الرحمن الكيلاني ، واخيرا اصدر السيد النقيب ، في اليوم الخامس والعشرين من شهر تشرين الاول ، دعوات الى البارزين من رفاقه في القطر والذين اختارهم هو نفسه مع برسي كوكس للمناصب الوزارية

ولم يلبث مجلس الوزراء ، الذي رفض السيد عبد الرحمن النقيب مرتين ان يشارك فيه ، ان اجتمع في اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني وقد ضم المجلس كلا من السيد طالب النقيب ، الذي اعتبر بالنظر الى مطامعه الشخصية الظاهرة جداً بانه جدير برآسة المجلس ، وكذلك السيد جعفر العسكري الضابط البغدادي ذا التربية التركية ، والشخصية الممتازة بشكل غير اعتيادي ، والذي ترك الجيش التركي ، وانضم الى الجيوش العربية اثناء الحرب ، ونال مرتبة رفيعة تحت امرة الامير فيصل ، وساسون حسقيل ، الممول اليهودي ، والنائب السابق في البرلمان العثماني ، والذي احتل مناصب رفيعة في اسطنبول اما الوزراء الآخرون فكان من بينهم صاحب الاملاك الشهير في البصرة ، السيد عبد اللطيف المنديل ، الذي تولّى وزارة التجارة ، والقائد التركي المتقاعد من كركوك ، عزت باشا الذي تولى وزارة الاشغال[1] ، ورئيس بلدية الموصل السابق ، محمد علي فاضل ، والقاضي السابق في بغداد وفي مكة السيد مصطفى الآلوسي الذي تولّى وزارة العدل كذلك تم اقناع السيد عبد الرحمن النقيب بتعيين السيد مهدي الطباطبائي وزيرا للمعارف والصحة[2] والى هؤلاء اضيف عدد من الوزراء بلا وزارة[3] مهم

---

(١) عزت باشا الكركوكلي تولى منصب رئيس اركان الجيش في عهد الوالي عبد الرحمن باشا ،وقد حاول القضاء على امارة السعدون في المنتفق وتولى منصب القائم باعمال والي البصرة بعد ان عزل واليها علاء الدين الدروبي في سنة ١٩١٢

(٢) كان هؤلاء الوزراء بلا وزارة هم كل من عبد الرحمن الحيدري ، وعبد الجبار الخياط ، وفخري جميل ، وعبد الغني كبة ، والشيخ عجيل السمرمد وعبد المجيد الشاوي ، والشيخ محمد الصيهود ، وامير ربيعة ، وداود اليوسفاني ، والشيخ سالم الخيون ، واحمد باشا الصانع ونجم البدراوي ، والشيخ ضاري السعدون(٣م

(٣) ان كل هؤلاء كانوا من الموالين للانكليز ولم يشاركوا في الثورة العراقية بل آزروا الانكليز ضدها وقد نسي المؤلف اسم حمدي باباان فلم يدرجه بين الوزراء بلا وزارة ، وذلك بعد ان اعتذر عن الاشتراك هو والسيد هادي القزويني ، فحل محلهما كل من ضاري السعدون ونجم البدراوي كذلك اعتذر السيد حسن الباجةجى عن قبول وزارة العدل فاعطيت الى السيد مصطفى الالوسي وظلت وزارة النافعة شاغرة الى ان ابدل اسمها باسم وزارة الاشغال التي عين لها عزت الكركوكلي وكان =

سنة من الذوات البارزين ، وثلاثة من المدن منهم مسيحيان[4] وثلاثة من رؤساء العشائر في الفرات الاوسط في حين رفض احد افراد عائلة بابان الكردية ان يشارك في الوزارة

تولت الاجتماعات الاولى التي عقدها مجلس الوزراء دراسة وضعه ، واجراءاته ، والموافقة عليها كذلك تم الاعتراف بالسلطة العليا للمندوب السامي وكان من المطلوب موافقته على تأييد كل قوانين الدولة والتعيينات الادارية الرفيعة كلها وكان الدور الذي يلعبه المستشارون البريطانيون في الوزارات ثقيلا وشاملا ومع كل ذلك فقد استطاع برسي كوكس في الحادي عشر من شهر تشرين الثاني ١٩٢٠ ان يعلن بانه الى ان تتم دعوة الجمعية الانتخابية العامة التي اجازها البيان الصادر في اليوم السابع عشر من شهر حزيران ، عقد انشئت حكومة قومية مؤقتة ، وان مجلس الوزراء يتألف من رئيس للوزراء ، ووزراء لكل من الداخلية والمالية والعدل والتربية والصحة والدفاع والاشغال العامة ، والتجارة ، والاوقاف مع وزراء اخرين بلا وزارة ، والى ان يتم تشريع القانون الاساسي ويشرع بتطبيقه سوف يكون مجلس الوزراء هو المسؤول عن ممارسة ادارة الحكومة والتي سوف تخضع لاشرافي وسيطرتي ، ماعدا الشؤون الخارجية والعمليات الحربية والقضايا العسكرية بصفة عامة عدا مايتعلق منها بالقوات المجندة محليا».

وفي ذات الوقت تم تعيين المستشارين البريطانيين للوزارات فعين «فلبي» مستشارا للداخلية ، وسالتر للمالية على ان يعمل في وزارة التجارة واتكنسون للمواصلات والاشغال ، «وايدي» للدفاع والسر بوبهام – كارتر للعدل ونورتن للصحة والتربية وكوك للاوقاف

استطاع مجلس الوزراء بكل اعتبار وتصميم ان يتحمل تنفيذ مهماته وبضغط من جعفر العسكري اعدت الترتيبات الخاصة باستعادة الضباط العراقيين العاملين في حكومة فيصل في سوريا والذين كانوا من اشد القوميين حماسة ومن المتشككين بالحكم الذي اوحى البريطانيون به في العراق اولئك الضباط الذين كانوا يؤلفون عنصرا مهما في السياسة العراقية[5] كذلك سمح لعدد من الساسة الذين ابعدوا في السنة ١٩٢٠ عن العراق الى جزيرة

السيد محمد مهدي الطباطبائي من ذوي الخدمات السابقة في وظائف الحكومة في بداية الاحتلال ، حيث ورد اسمه في ملاحق مذكرات ولسون. فقد عينه الانكليز معاون حاكم سياسي في شباط ١٩١٨ (علي الوردي لمحات من تاريخ العراق الحديث الجزء السادس ص ٣٠)

(٤) هما عبد الجبار الخياط وداود اليوسفاني وكان الاخير قد اشتغل في معية الضباط السياسيين الانكليز في مناطق الشمال كما كان عضوا في البرلمان العثماني

(٥) نشرت جريدة الوقائع العراقية في عددها ا[illegible] الصادر في يوم الخميس الرابع عشر من شهر كانون الثاني سنة ١٩٢١ اسماء الرعيل الاول من الضباط العراقيين الذين عملوا سابقا في ا[illegible] العثماني وتم قبولهم في الجيش العراقي الذي اسس في السادس من كانون الثاني [illegible] سنة؛ وكان ثمانية مـ[illegible] رتبة عقيد من [illegible] ، تسعة وعشرون برتبة مقدم من بينهم الحاج رمضان علي، وستة واربعون برتـ[illegible] [illegible]ـهم محمود رامز وامـ[illegible] [illegible] صدقي وتوفيق وهبي وحسين فوزي ، =

هنجام في الخليج العربي بتهمة التحريض على الثورة ، بالعودة البلاد[٦] في حين اطلق سراح البقية منهم وفقا للعفو العام الذي اعلن في شهر حزيران ١٩٢١

بدأ العمل بتأليف لجنة لتعديل قانون الانتخابات العامة المهم وتلك مهمة بدئت باجتماع سري عقده النواب السابقون في العهد العثماني برئاسة السيد طالب النقيب وذلك شهر آب ولقد برهنت تلك اللجنة على مدى جموحها ذلك لان المندون السامي كان يؤيد تسمية تمثيل منفصل للعشائر، بينما كان الوزراء يمقتون ذلك. ومع ان ابناء العشائر يؤلفون اكثرية السكان ، الا انهم لايستطيعون مع ذلك بدون هذا الشرط ، ان يحصلوا اطلاقا على ناطقين برلمانيين باسمهم

كانت مسودة القانون المعدلة غير مرضية في اول الامر ، لانها ، من بين العيوب الاخرى فيها ، كانت تتجاهل الحقوق الخاصة للاكراد وفقا لمعاهدة «سيفر». ولذلك تم تأجيل وضع مسودة التعديل هذه ، بناءا على رغبة وزير الداخلية طالب النقيب ، الذي دفعته مطامعه الخاصة حتى الى تأجيل اجراء الانتخابات بصفة مطلقة، الى ان تنضج مخططاته[٧]

اشتملت خطة تعديل الحكومة الموقتة حسب الخطة التي نشرت في شهر كانون الاول سنة ١٩٢٠ على اجراء اعادة عامة لتقسيم الوحدات الادارية التي كانت سارية في العهد التركي والفقدان الموقت للتحسينات التي ادخلت من سنة ١٩١٨ الى سنة ١٩٢٠ كذلك تضمنت هذه الخطة ايضا اجراء فصل تام للوظائف التشريعية عن الوظائف التنفيذية ، وهي بدعة ، او اعادة للطرق التركية كانت محبذة في هذه الحالة ، واستلزمت حاجة مباشرة، وعلى كل المستويات، تعيين المزيد من القضاة والحكام ، لان الوسائل التي طبقتها وزارة العدل التي مضت منذ البداية

ونظيف الشاوي ولقد كان عدد العراقيين الموجودين في سوريا من الضباط العراقيين مائتين واربعين فردا وقد ابرق كوكس في ٢٧ تشرين الثاني الى الحكومة البريطانية يطلب الاذن منها بتسهيل عودة هؤلاء الضباط وعادت مجموعة اخرى في منتصف شباط ١٩٢١ كان في مقدمتهم نوري السعيد الذي عين وكيلا لجعفر العسكري وزير الدفاع. وتقول المس بل في احدى رسائلها عن لقائها بنوري السعيد «في اللحظة التي رأيته فيها ادركت اننا نواجه طاقة قوية ومرنة وانه ينبغي اما ان نتعاون معه او نخوض غمار صراع شاق حقا للتغلب عليه (اليزابث برغوين حياة المس من رسائلها الجزء الثاني ص ٢٠٩ – ٢١٠ طبعة لندن ١٩٦١ بالانكليزية)

(٦) اصدرت جريدة الاستقلال التي كان يصدرها المرحوم عبد الغفور البدري عددا خاصا عن عودة بعض المنفيين العراقيين الى هنجام والهند صدر في اليوم التاسع من شباط ١٩٢١ ولكن طالب النقيب وزير الداخلية الذي كان يحقد على جريدة الاستقلال لانها كانت تبث الدعاية لفيصل قبل مجيئه الى العراق ، والى رفض صاحبها عبد الغفور البدري مبلغ اثنى عشر الف روبية لقاء الكف عن تلك الدعاية لفيصل ، ان طالب مالبث ان اصدر في ذلك اليوم قرارا بتعطيل الاستقلال ، وتوقيف صاحبها مع احد عشر رجلا من اعوانه حيث سيق عبد الغفور وقاسم العلوي المحرر الاول في الاستقلال ، والشيخ مهدي البصير الى المحكمة فحكم على البدري بالسجن مع الاشغال الشاقة لمدة سنة، وعلي مهدي البصير لمدة تسعة اشهر، وقاسم العلوي لمدة ستة اشهر (انظر الوردي ج ٦ ص ٣٧ وطالب مشتاق اوراق ايامي ج ١ ص ٦٩)

(٧) لايوجد شك في شدة تجاوب السيد طالب النقيب ، في هذه الفترة ، مع الدسائس الانكليزية ولذلك كان يؤيدهم في موقفهم التحريضي من الاكراد كما اراد تأجيل الانتخابات لكي يحشد كل مالديه من جهود وانصاره لضمان ترشيح نفسه ملكا على العراق

قدما في استخدام المسؤولين العراقيين، لم تكن ناجحة في توفير العدد المطلوب من اولئك المسؤولين

كان محافظو المحافظات ، وقائمقامو الاقضية ، ماعدا محافظة السليمانية وشيء من الحذر في اواسط الفرات ، يخضعون كلهم للضباط السياسيين البريطانيين ومساعديهم ، ذلك لان المحافظين الفعالين في كل المحافظات كانوا يمثلون كل الاصناف ، وكل الاعمار ، وكل درجات الموهبة والامانة بين الموظفين الذين عملوا قبلا لدى الاتراك وكان نظام المحافظات الجديد ، والذي اشتمل على عشر محافظات ، وخمسة وثلاثين قضاء ، وخمس وثمانين ناحية يعتبر اشارة اكثر وضوحا للجمهور بان الحكومة العراقية غدت الان حقيقة قائمة

لقد عين في كل محافظة واحد او اكثر من الضباط البريطانيين بصفة مستشارين (عرفوا مؤخرا باسم مفتشين اداريين) ، وذلك اجراء كان يوحي بالعمل بصفة مرضية على العموم ، ويحظى بثقة كلا العنصرين ، البريطاني والعراقي لقد حدثت في بعض الاماكن اخطاء مؤسفة بالنسبة الى المستويات التي وجدت في العهد التركي ، وكانت هنالك دلائل تشير الى ان الادارة كانت تقوم على اسس التقسيم السياسي ففي الموصل قتل المحافظ الذي ارسل الى هناك عنوة[8] وفي بعض الحالات كان موظف التنفيذ العراقي ، وهو اكثر تجربة من مستشاره البريطاني ، ولا يقل عنه مقدرة ، هو الذي يسيء العلاقة ، ولكن ماكنة الدولة كانت بصفة عامة تعمل بتقبل تام ، وبالقليل من الاحتكاك

حدث في اوائل سنة ١٩٢١ تقدم في اتجاه تأسيس الجيش العراقي وكان القصد من انشائه في اول الامر ، ان يستخدم للوظائف الدفاعية التي لابد وان تقع على عاتقه وتتطور بعد جلاء القوات البريطانية،التي كانت تقوم بذلك الجلاء مسبقا تحت وطأة الالحاح الشديد من الصحافة والساسة في بريطانيا اولا وثانيا لكي يكون الجيش مجالا لاستخدام الطائفة العسكرية التي يمكن ان تغدو ذات خطر

كان ادماج قوات المرتزقة (الليفي) التي تضم الان قوة مؤلفة من اكثر من الفين من الافراد الاقوياء المتدربين والمعدين اعدادا فاخرا في الجيش العراقي ، ينطوي على احداث تغييرات اساسية في تركيب الجيش ، واستبدال كل ضباطه تقريبا ، بالضباط الجدد القادمين من قوات

---

(٨) هو السيد حامد السامرائي وقد قيل في حينه ان مصرعه قد تم تدبيره من قبل الانكليز انفسهم ، لانه ما ان تسلم منصبه حتى بدأ يضايق الضباط السياسين البريطانيين هناك فدبروا امر مقتله والتخلص من مضايقته لهم. ولقد ذكر المرحوم عبد العزيز القصاب في ص ٢١ من مذكراته ا السيد حامد قد اغتيل في يوم وصوله بالذات الى الموصل من قبل شخص مجهول بينما كان جالسا في بيت آل المفتي في محلة باب سنجار وان الحكومة لم تهتم للامر ولم تكشف الاسباب لارتكاب هذه الجريمة ويذكر القصاب انه عندما اختير محافظاً للموصل قابل وزير الداخلية توفيق الخالدي ورئيس الحكومة العراقبة الموقت عبدالرحمن النقيب واخبرهما بان لا يتمكن من الذهاب الى الموصل قبل ان يعرف اسباب هذا الاغتيال وهل حدث لعدم رغبة اهل الموصل فيه ام لان الانكليز لا بريدون تعيين عربي للموصل.

المرتزقة غير ان هذه الخطة قد رفضت واستعيض عنها بخطة تقضي بان توضع قوات المرتزقة موقتا تحت اشراف وزارة الداخلية وان تحافظ على كيانها المنفصل

انفقت وزارة الدفاع النصف الاول من سنة ١٩٢١ في اعداد الوظائف والموظفين ، وشروط الخدمة ، وكل الامور التمهيدية اللازمة لانشاء الجيش كان نوري السعيد صهر جعفر العسكري ، من الضباط اللامعين والوطنيين العراقيين قبل سنة ١٩١٤ قد عاد من سوريا لكي يتولى منصب رئيس اركان الجيش كذلك تم افتتاح الكلية العسكرية في شهر تموز١٩٢١

في الاسابيع الاولى من هذه السنة تحسنت الاوضاع في العراق تحسناً واسعا فقد توفر الوقت والفرص الان للمضي قدما في تطوير الدستور والادارة وفي اختيار حاكم للبلاد كانت الثورة قد انتهت ، ولو ان الاضطراب العشائري مايزال متفاقما في المنتفق ، وعلى درجات متباينة في كل مكان وعلى الرغم من النواقص الواضحة فأن هناك حكومة مؤلفة من العراقيين كان تمارس اعمالها ولقد اظهر الوزراء حسن نية ، وصبرا ظاهرين ولم تكن اليد المفردة التي كان يحركها السيد طالب النقيب بكل جلاء ، تنذر بالخطر لحظتئذ

لقد تم التوصل الى اتفاق بشأن الحدود مع الفرنسيين في سوريا سنة ١٩٢٠،ورافق ذلك تحديد خط حدود تم تجاهله منذ ظهوره ، وهو يفصل جبل سنجار والبوكمال ولكن علامات الحدود غدت الآن خالية من اعمال العنف على اقل تقدير،ولم تستطع الدعاية الملحة واعمال الفوضى المتسللة من الحدود التركية ، اثارة الاكراد العراقيين او ابناء الفرات بصفة خطيرة ذلك لانه تم التوقيع على معاهدة الصلح بين الحلفاء وتركيا واصبحت الاوضاع الجديدة هي التي تهيمن على بلد سبق له ان استنكر من قبل معاهدة سيفر ولم يعترف بها

وفي لندن ، كانت شؤون العراق من سنة ١٩٢١ ومابعدها تدار من قبل «دائرة الشرق الاوسط التي انشئت حديثا ضمن وزارة المستعمرات وكان اول عمل اقدم عليه تشرشل بعد ان نقل من وزارة الحربية الى وزارة المستعمرات،هو ان يعقد مؤتمراً في القاهرة لكي يقرر دفعة واحدة و بصفة عامة الكثير من القضايا المهمة للشرق الاوسط ولقد اجتمع هذا المؤتمر فعلا في اليوم الثاني عشر من شهر اذار سنة ١٩٢١ ، وحضره كبار موظفي الخدمة وخبراء الخارجية ، الخ ومستشارو تشرشل للشؤون الشرقية بما فيهم لورنس ، كما حضره من العراق كل من الذي صحبه القائد العام للقوات البريطانية الفريق هالدن وجعفر و ساسون حزقيل والمس بل واثنان من مستشاري الوزارات[9]

المؤتمر فيما يخص العراق يشتمل على اختيار حاكم للبلاد ، ومعاملة اكراد العراق والتقليص المكثر للنفقات البريطانية في العراق وانشاء القوات العراقية التي صممت

---

(٩) ... المرشحين هم سليتر ، وايدي واتكنسن قد شاركوا في مؤتمر القاهرة ولم يذكر المصدر ... الحديث ج ٦ ص ٤٨).

لكي تضمن الدفاع عن العراق بعد جلاء الحاميات البريطانية عنه لم يكن هناك بالنسبة الى منصب امير وملك العراق اي مرشح محلي قد يحظى بتأييد مقارب للكمال ذلك ان اسرة النقيب الذي تقدم به العمر[١٠] ،لاتستطيع ان ترشح خلفاله يكون مقبولا اما السيد طالب النقيب فانه بسجله السابق ، وبشخصيته المفضوحة بشكل سافر،قد اصبح يخشى منه الان ، اكثر من ان يقبل ترشيحه

اقترحت بعض الاوساط في بغداد وكركوك ترشيح احد الامراء الاتراك ، هو «برهان الدين» على اكثر احتمال[١١] لكنه كان من النادر للحكومة البريطانية ان ترحب بترشيح هذا الامير. كذلك لم يكن «اغا خان» الذي اقترح ترشيحه ، مرشحا جدياً ، في حين كان ترشيح والي بشت كوة ادنى من ذلك كذلك لم يكن هنالك اي تفكير في شيخ المحمرة الذي رشح نفسه ، كما لم يخطر على بال احد ترشيح امير نجد عبد العزيز بن سعود غير ان الامير فيصل كان موجودا الآن، وقد اقترح ارنولد ولسون في تموز سنة ١٩٢٠ ترشيحه ، حين سقطت دمشق بايدي الفرنسيين

في شهر كانون الاول من تلك السنة خول اللورد كرزن ، العقيد كورنواليس الضابط السابق في السودان ، ومن المشتغلين بالقضايا العربية ،والذي خدم مع فيصل في سوريا ،وظفر بصداقة وثيقة معه ، بان يعرض على فيصل عرش العراق ، ولكن فيصل رفض ذلك العرض ، بالنظر الى المطالبة العليا التي ابداها اخوه الاكبر الامير عبدالله[١٢] اما بالنسبة الى الذين كانوا في مؤتمر القاهرة يبحثون عن ملك للعراق ، فقد بقي فيصل هو الخيار المعتمد ، حيث قطع المنهاج الذي اعد لترشيحه واختياره ، شوطا بعيدا في هذا المضمار

كان الدور الملقى على عاتق بريطانيا هو ان تشجع الامير فيصل على زيارة العراق ، وان يعرض نفسه ملكا عليه ، وان لايثار فيما بعد اي اعتراض على اختياره ولكن في الوقت الذي لم تمارس فيه القوة لفرض مثل هذا الامر ، اصبح واضحا ، ان مثل هذه التجربة ينذر ان تبوء بالفشل

اما بالنسبة الى الاكراد فلم يتم التوصل الى اتخاذ اي قرار لقد غدا الان واضحا تمام

---

(١٠) كان السيد عبد الرحمن النقيب حين تولى رئاسة الحكومة الموقتة في الثامنة والسبعين من عمره ، ومصابا بداء المفاصل ومن الزاهدين في المناصب. وقد ذكرت المس بل في احدى رسائلها انها زارته في بيته في ٦ شباط ١٩١٩ وعرضت عليه تاج العراق فرفض ذلك رفضاً باتا وقال «ان صيرورتي رئيسا سياسيا للدولة هي ضد اشد مبادئ عقيدتي » (الوردي ذات المصدر ص ٢١).

(١١) الامير برهان الدين هو ابن السلطان عبد الحميد الثاني وقد حظي ترشيحه لعرش العراق بتأييد التركمان في كركوك وعدد كبير من اهالي البصرة الذين جمعوا له بعض الاموال لكي ينفقها في الدعاية لترشيحه. وكان برهان الدين هذا من مواليد ربيع الاول سنة ١٣٠٦ هـ - ١٨٨٨م. اما اغا خان زعيم الاسماعيلة ، فقد فكر بعض الانكليز في ترشيحه ، كما رشحوا ابن السعود ايضا اما والي بشت كوه غلام رضا خان فانه هو الذي رشح نفسه ،وحاول خزعل شيخ المحمرة ذلك وبذل الاموال.

(١٢) راجع تفاصيل تشبث عبد الله بعرش العراق في الجزء السادس من كتاب الدكتور علي الوردي: لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث.

الوضوح ان «الدولة الكردية» التي تصورتها معاهدة سيفر ، لم يعد لها من وجود ابدا ، لان معاهدة سيفر ذاتها اصبحت عاطلة ، بعد ان ظهر مصطفى كمال وقام بحركة البعث القومي غير المتصورة في تركيا ولما كان الاكراد في محافظات الموصل وكركوك والسليمانية غير اهل للتمتع بالحكم الذاتي بشكل واضح جدا ، فلابد وان يثير وجود هم المتاعب ضمن دولة عربية ، كما ان رغبة المندوب السامي في تلك الحالة في ان يحكم الاكراد انفسهم بصفة مباشرة، لم تحظ باي تقبل من لدن الوزراء العراقيين الذين كانوا يرون ان الاكراد يجب ان يؤلفوا جزءا غير منفصل من العراق.

لم يعد هنالك من خيار غير ذلك الخيار الذي تم قبوله علانية في كل من مؤتمر القاهرة وفي العراق ، وهو الاعتراف بوجود تمييز بين العرب والاكراد بالنسبة الى الاجراءات الادارية ، ومعاملة الاكراد باللطف والعطف ، والامل في الحصول على رغبتهم المطلقة في الانضمام الى الدولة العراقية ، وان لايستطيع الاكراد من الناحية الاقتصادية الا ان يكونو متحدين معها. قبلت كركوك فعلا تعيين محافظ لها في شهر شباط سنة ١٩٢١ واصبحت اربيل تابعة الى كركوك ، ويديرها نائب محافظ وظلت الموصل منذ حادثة القتل التي وقعت في كانون الاول سنة ١٩٢٠ ، تحت اشراف ضابط سياسي بريطاني[١٣] وان كان اتحاد الموصل مع العراق قد اصبح مقبولا اما محافظة السليمانية فقد رفضت في ذلك تقبل اي حاكم لها سوى المندوب البريطاني السامي نفسه

تم التوصل في مؤتمر القاهرة الى اتخاذ قرارات مهمة بشأن قضايا الدفاع لقد تقرر ان يتم تقليص القوات البريطانية مرة اخرى ، وكانت القوة الجوية البريطانية في سنة ١٩٢٢ هي التي ستتسلم السيطرة من الجيش البريطاني. كما تقرر ان تنتقل امرة قوات المرتزقة التي ازداد عددها بافة مجندين اليها ليس من العرب وحدهم حسب بل ومن الاكراد والاثوريين، من وزير الداخلية الى المندوب السامي البريطاني ومن ثم الى القيادة العسكرية البريطانية التي كانت هي التي تدعم نفقات تلك القوات.

انفض مؤتمر القاهرة في اليوم الخامس والعشرين من شهر اذار ، وعاد السر برسي كوكس الى بغداد في اواسط شهر نيسان ، ليجد ان اختيار حاكم للعراق ، قد اصبح الان يهيمن على التفكير السياسي برمته لقد اضمحلت الترشيحات المحلية لحكم العراق ، وانمحت من الصورة الان ذلك لان السيد عبد الرحمن النقيب ، الذي كان تتبعه الخاص ملموسا لكنه كان مغايرا في مصدره ، لم يعد له اي مطمح شخصي ، واصبح يميل بالتدريج الى اتخاذ موقف المعارضة لمن يريد ان يؤكد ترشيح حاكم من الاسرة الشريفية ، وذلك بعد ان ظهر بان البريطانيين كانوا يرغبون في ترشيح مثل هذا الحاكم الشريفي وما عدا فيصل ، فان المرشحين الاجانب لم

---

(١٣) يقصد بالحادثة مقتل محافظ الموصل التي سبقت الاشارة اليها، اما الضابط السياسي الانكليزي فهو العقيد «نولدر».

يظهروا اية رغبة في الترشيح

كان تصرف السيد طالب النقيب في وزارة الداخلية بملاحظاته الكثيرة الخالية من الاحتراس وانفاقه المفرط للاموال العامة ، يشيران الى وجود تصميم لديه للحصول على عرش العراق سواء بصفة مباشرة في الوقت الحاضر او بمثابة خلف للنقيب عبد الرحمن الكيلاني ، ولذلك فلم يعد مستطاعا تجاهل موقفه الناشيء هذا بشكل متعاظم لقد كان طالب النقيب شخصية يمكن ان تكون ذات قيمة للعراق ، وفعلا كان على مثل هذه الشاكلة اثناء الايام التعسة التي مرت خلال سنة ١٩٢٠ (١٤) لكن ظهر عليه الآن تماما بانه كان يسعى لتحقيق غايات ذاتية تنطوي على الخطورة.

وبعد ان هدد السيد طالب النقيب ، في حفلة عشاء ، بانه سوف يعبئ القوات العشائرية التي تعد بالالوف ، ويستخدمها «لمنع النفوذ البريطاني من ان يستخدم لصالح احد من المرشحين ، وجد السر برسي كوكس ان من الحكمة ابعاده عن المسرح ، وعلى اثر ذلك اعتقلته السلطات العسكرية البريطانية وابعدته الى جزيرة «سيلان» (١٥) وبذلك اصبح موقف المندوب السامي والضباط البريطانيين في الحكومة لصالح قضية الامير الشريفي علانية امافلبي، صديق طالب النقيب فقد بقي يدافع عن النظام الجمهوري بشدة (١٦) واعقب ذلك في الثلاثين من شهر ايار ١٩٢١ اذاعة العفو العام المنتظر عن السجناء السياسيين.

غادر الامير فيصل الذي تزامنت ترتيباته مع الخطة البريطانية ، ميناء جدة مع كورنواليس وطائفة صغيرة من المؤيدين في اليوم الثاني عشر من حزيران تم تبادل البرقيات الودية بين فيصل والسيد عبد الرحمن النقيب ، وحتى مع خصمه المتوقع عبد العزيز ابن سعود وفي بيان اصدره كوكس في السابع عشر من شهر حزيران انبأ جمهور العراق ، بان الحكومة البريطانية ، وفي سبيل مصالح العراق ، لن تضع اية عقبة امام اختيار حاكم من الاسرة الشريفية ، وتالفت من السيد عبد الرحمن النقيب وامين العاصمة بغداد (١٧) لجنة استقبال قوية من العاصمة ، وتوجهت الى البصرة وفي هذه المدينة التي سبق لها مؤخرا ان تقدمت باسترحام الى كوكس

---

(١٤) وقف السيد طالب النقيب بكل جلاء ضد الثورة العراقية في سنة ١٩٢٠ املا منه بان يثيبه البريطانيون على ذلك بعرش العراق الذي كان يسعى اليه

(١٥) فصل الدكتور علي الوردي في الجزء السادس من كتابته كيفية القاء القبض على طالب النقيب واعتقاله ونفيه الى سيلان ،مصيره بعد ذلك النفي

(١٦) لم يشر «فلبي» في مذكراته الى انه كان يحبذ النظام الجمهوري، وانما ذكر الجمهورية عندما تحدث عن مطامع طالب النقيب فقال «كنت في الواقع احمل آراء واسعة عن مستقبل (طالب النقيب)، ومهما برهنت عليه طاقته فانه سوف يكون اكثر ملاءمة لان يصبح رئيسا للوزارة مثلا او رئيسا للجمهورية. ومنذ هذه اللحظة سرت قدما في تدريبه على تولي احد هذين المنصبين (مذكرات فلبي المعنونة ايام عربية ص ١٨٩ طبعة لندن ١٩٤٨ و «اربعون سنة في التيه» وسوف نترجمها قريباً).

(١٧) هو عبد المجيد الشاوي وكان لقبه رئيس بلدية بغداد.

لاقامة نظام حكم منفصل نصف مستقل فيها جرى استقبال الامير فيصل في اليوم الثالث والعشرين من شهر حزيران بصفة ودية ملموسة،وفي مدن الفرات ولاسيا كربلاء والنجف كان استقبال الامير فاترا لكنه كان في بغداد حماسيا تماما وسرعان ما ظهر جليا ، بان شخصية الامير فيصل ، وموقفه كانا من اعظم ما كان يتميز به ، وقد اكسبه التأييد حتى من لدن الانصار السابقين للسيد عبد الرحمن الكيلاني والسيد طالب النقيب لقد كان فيصل يظفر بمكانة وطيدة حيثما حل ، واصبحت القضية تتركز حول اندر الاحتمالات بشأن شكل انتخابه وتتويجه

كان من غير المعقول ، بل من غير الملائم في الواقع ، ان يكون هناك انتظار الى ان يتم التوقيع على معاهدة صلح ثانية ماتزال بعيدة المدى ، مع تركيا ، او تمديد تبادل الآراء مع الحكومتين اللتين لهما مصلحة في الموضوع ، ونعني بهما الحكومة الفرنسية وحكومة الهند كذلك اصبح مستطاعا تجاوز الشكاوي التي اوردها المتحدثون باسم حكومة الولايات المتحدة الامريكية في جنيف ، والقائلة بان حكومتهم لم تتم استشارتها استشارة صحيحة في موضوع شروط الانتداب على العراق

كانت نية برسي كوكس منعقدة على الدعوة لانشاء جمعية دستورية لغرض انتخاب الملك غير ان مثل هذا الامر لابد وان يؤدي الى تأخير يمتد عدة اشهر ، لايمكن خلاله تجاهل احتمال وقوع انقلاب متطرف يصبح بداية غير صالحة للحكم الدستوري ولذلك تقرر تقليص مثل هذا الاجراء ففي اليوم الحادي عشر من شهر تموز ، وبعد ان تخلى «فلبي» عن وظيفته التي كانت سياسية تخالف تلك الوظيفة[١٨] صادق مجلس الوزراء على قرار باعلان الامير فيصل ملكا على العراق ، على شرط ان تكون حكومة سموه حكومة دستورية ، نيابية وحرة ، مقيدة بالقانون» وما ان تم القبول بهذا القرار ، حتى اعلن كوكس ، بانه ، ولغرض الظفر بالشرعية الحقة ، لابد ان يعزز ذلك القبول بالرضا الذي يبرزه الاستفتاء العام

---

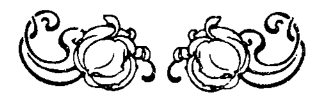
(١٨) كان فلبي قد عين اول الامر مستشارا لوزارة الداخلية التي شغلها السيد طالب النقيب،فلما تم ابعاد طالب، اصبح «فلبي» وزيرا للداخلية وكالة، ولكن فلبي صرح في مذكراته «بان تشرتشل قد صرح في البرلمان البريطاني ان فيصلا كان في طريقه الى العراق ليرشح نفسه للعرش، لكن الغريب ان السياسة التي اعلن عنها في حرية انتخاب رئيس للدولة ماتزال معترفا بهذا، وان الوضع والحالة هذه، ليس في صالح فيصل واقليته الضئيلة من المؤيدين له في البلاد»،وعن قضية استقبال فيصل لدى وصوله البصرة يقول فلبي «ولقد بحثت المسألة مع برسي كوكس الذي كان يرتاب في موقفي الشخصي، ولكي اريحه مما كان يفكر فيه تطوعت في الشخوص الى البصرة لاستقبال فيصل...

وفي كل محطة نتوجه في طريقنا اليها كان حكام المناطق والمستشارون وجمهور كبير من الاهلين يسألونني «ماذا يجب ان نفعله في سبيل استقبال فيصل؟ فكنت ارد عليهم ليست هناك اوامر رسمية عليكم ان تقرروا ماترتأونه بانفسكم،علما بان فيصل قادم الان مرشحا للعرش،وليس ملكا»،وهذه التصريحات من جانب فلبي تتناقض تناقضا مع روح الوظيفة التي يشغلها وهي وكالة وزارة الداخلية في الحكومة الموقتة التي اريد من وراء تأليفها التمهيد لترشيح فيصل لعرش العراق (انظر مذكرات فلبي المعنونة «ايام عربية»

تم اجراء الاستفتاء في اواخر شهر تموز وكانت صيغة المصادقة التي اعدتها الحكومة قد جرى تعديلها في بعض المحافظات او اضيفت اليها ملاحق فقد اضيفت الى الصيغة الاصلية الكلمات التي تطالب بالتحرر الكامل من السيطرة الاجنبية ، كما تمت في عبارات اخرى ، المطالبة بانشاء جمعية دستورية خلال ثلاثة اشهر

كانت البيانات الخاصة بالموصل ، وهي مؤيدة بصفة عامة ، تتحدث عن ضمان حقوق الاكراد والاقليات الاخرى ، في حين راحت مناطق الفرات تطالب باستمرار بفرض السيطرة البريطانية، بينما رفضت كركوك ترشيح الاميرفيصل ، وقبلت اربيل بذلك الترشيح. غير ان الاغلبية الساحقة، والتي لم تكن تقل عن ست وتسعين في المائة بصفة عامة، قيل عنها رسميا بانها قد قبلت بالملك الجديد كما ان البارزين من رؤساء العشائر ، ومن بينهم «ابن هذال» زئيس عشائر العمارات و«علي سليمان» رئيس الدليم ، كانوا قد اقسمو يمين الولاء للملك حتى قبل ان تتم عملية التتويج

كان آخر امر اخرق اصدرته الحكومة البريطانية في اخر دقيقة، ينص على انه ينبغي للامير فيصل في الخطاب الذي سيعلن فيه تقبله العرش ، ان يؤكد السلطة المطلقة للمندوب السامي ولقد حذف هذا التاكيد لحسن الحظ (١٩) لم تبق اية عقبات اخرى امام اعلان التتويج رسميا ولقد تم ذلك حسب الاحتفال اللائق في صبيحة اليوم الثالث والعشرين من شهر اب ١٩٢١ وفي حدة حرارة الصيف ، في ساحة «السراي» ببغداد. وعلى هذه الشاكلة ورث فيصل الاول حكم العراق من السر برسي كوكس الذي كان يشغل رئاسة الدولة بصفة رسمية



(١٩) كانت وزارة المستعمرات البريطانية قد ابرقت الى مندوبها في بغداد بان يعتبر الامير فيصل حاكما على العراق. وليس ملكا ولكن [illegible] ب السامي كوكس عارض هذا الطلب، واصر على ان يكون فيصل ملكا دستوريا على العراق.

الفصل الخامس

مملكة العراق

١ ـ بداية الحكم

٢ ـ المعاهدة الأولى

٣ ـ التهديد الموجه الى الموصل

٤ ـ المجلس التأسيسي

٥ ـ تسوية قضية الموصل

٦ ـ جارات العراق الأخر

٧ ـ الحياة والحكومة في الفترة مابين ١٩٢١ ـ ١٩٢٦

٨ ـ الانماء والتطور

١ . بداية الحكم

قدر للملك الجديد ان يحكم العراق لمدة اثنتي عشرة سنة. وحين كان في السادسة والثلاثين من عمره عندما تولى العرش، كان يمتلك صفات نادرة من الفطنة والعطف، ولقد ساعدته على ذلك حنكته السياسية التي تعكس الذكاء الممتاز، تلك الحنكة التي استخدمها بصفة مكرسة دوما، وكانت معرضة للأخطار في بعض الأحيان، في سبيل خدمة وطنه المختار، كما ان تلك الحنكة قد عايشت الأخطار المحزنة التي احاقت ببناء كيان الدولة ضمن سنوات قلائل،اشد ضغطا وأعظم آمالا مما كان معظم المراقبين يتوقعونه.

والواقع ان القرار البريطاني بتشجيع ترشيح هذا الامير الذي طرد من عرشه،والذي لم يكن من اهل العراق، لكي يتولى عرش العراق ذاته، كان ينطوي على بذور كثير من البركات لهذا القطر.

قدمت عائلة الملك من مكة للانضمام اليه في بغداد. وكان اخوه من ابيه الأمير زيد، والبالغ من العمر آنذاك احدى وعشرين سنة، اول من قدم معه، حيث امضى بعد سنة من ذلك الوقت ثلاث سنوات في اكسفورد، وسرعان ماتم توفير المستلزمات المادية للعرش، وكانت تلك المستلزمات تافهة الى حد كبير، وأصبحت الشخصية الملكية هي المحور الذي لانقاش حوله، لحياة العراقيين السياسية والاجتماعية معا، فأصبح اسمه يذكر في خطب ايام الجمع، وذلك بعد مرور اول جمعة على تقلده الملك.

وبما امتاز به من مقدرة على الاتصال بالناس، أصبح فيصل معروفاً لدى الألوف من مواطنيه. والواقع انه لم يقم بمساهمات اعظم وأكثر من الناحية الشخصية، من تطلعه الى تحقيق المساواة بين المدينة والريف، ذلك التطلع الذي كان يعكس خلفيته وتربيته نصف المدنية ونصف الصحراوية،وكذلك قدرته التي كانت تخونه في بعض الأوقات على الموازنة بين القوى المتطرفة للقومية العراقية وبين ضرورات الارتباط ببريطانيا.

كانت علاقات فيصل مع المندوب السامي الذي استقر الآن على ضفة نهر دجلة. منفصلا انفصالاً جسمانياً ورسمياً عن حكومة العراق عبر النهر، وكذلك مع العناصر البريطانية التي كانت هي المسيطرة حتما في الدوائر الحكومية خلال الأشهر الأولى، اجل كانت هذه العلاقات ودية

وذات قيمة، ولو ان العراقيين الذين كانوا يحيطون به، كما برز ذلك في الحال، كانوا يضمون فيما بينهم عناصر قومية، اقل واقعية او اكثر خيالا وتطرفا قد تكون مخربة.

كان كورنواليس الذي تولى مهمة المستشار لوزارة الداخلية منذ شهر اب سنة ١٩٢١ قد أصبح نفسه هو المستشار الشخصي للملك فيصل. وكان الوضع الدستوري للبلاد مايزال غير واضح على انفراد، ذلك ان من عناصر هذا الوضع هو ان السيادة التركية لما تزل موجودة وان كانت خامدة، وهناك انتداب قبلت به بريطانيا، لكن العراق لم يكن يرحب به، وهناك ملكية دستورية ولكن من دون دستور ومعاهدة مقصودة لتنظيم العلاقة مع بريطانيا. ولكن هذه المعاهدة لم تكن قد وجدت بعد. ومع كل ذلك، فأن هذه المظاهر لم تؤد الى اضطراب الادارة في البلاد، تلك الادارة التي سارت خلال نصف السنة الأولى من حكم فيصل سيرا مطردا وبلا انقطاع.

كان مجلس الوزراء الذي يرأسه السيد عبدالرحمن النقيب، والذي استقال بصفة صائبة عندما اعتلى فيصل العرش، قد اعيد تأليفه مع حدوث تغييرات فيه[1] ذلك ان الوزارة الجديدة التي تألفت في اليوم العاشر من شهر ايلول ١٩٢١، كانت تضم «ناجي السويدي» ذلك المحامي والوطني صاحب الأسم والسجل الشهيرين وزيرا للعدلية، والطبيب الموصلي المسيحي حنا خياط وزيرا للصحة، ومن ثم مديرا عاما لها. وكذلك معظم الوزراء السابقين بما فيهم جعفر العسكري وزير الدفاع، وساسون حسقيل وزير المالية، في حين خلف الحاج رمزي – وهو شخص لا اهمية له[2] السيد طالب النقيب في تولى وزارة الداخلية. ولم يتغير وزراء العدل، والأشغال، والأوقاف. اما وزارة التربية التي تم فصلها الان[3] فقد عهد بها الى احد المثقفين هو السيد محمد علي الشهرستاني. ولم تتغير هذه الوزارة حتى شهر آذار سنة ١٩٢٢

من بين المستشارين البريطانيين الذين عملوا في الوزارات، كان كنهان كورنواليس قد امضى في وزارة الداخلية اربع عشرة سنة، في حين تقاعد بونهام-كارتر، في شهر ايار سنة ١٩٢١، فحل محله «نيجل دافدسون» من حكومة السودان ايضا، ليخلفه في منصبه السيد دراور. وعندما غادر اتكنسون العراق عائدا الى الهند، خلفه في منصبه نائبه «وتلي»، بينا اصبح يونيل سمث مستشارا لوزارة التربية، كما عين العقيد «جويس» زميل الأمير فيصل ولورنس اثناء الحرب العربية، مستشارا لوزارة الدفاع ولم تتبدل وظيفة كل من سليتر وكوك.

كان تجميع الدوائر يختلف اختلافا واسعا عن نظام السكرتاريات الذي طبقه السر ارنولد

---

(١) يقصد المؤلف بذلك الوزارة النقيبة الثانية التي تألفت بعد تتويج الملك فيصل الأول في اليوم العاشر من ايلول ١٩٢١، وكان فيصل نفسه قد اصدر الارادة الملكية الموجهة الى السيد عبدالرحمن النقيب، بتأليف الوزارة المذكورة.

(٢) الحاج رمزي من الموظفين العثمانيين المحبوبين في العراق، وكان يعمل اول الأمر في ابي صخير.

(٣) كانت وزارة التربية (المعارف) مرتبطة اول الأمر بوزارة الصحة ومن ثم تم فصلها احداهما عن الأخرى.

ولسون، ذلك لأن وزارة الداخلية مثلا، كانت تشمل بالاضافة الى قضايا سياسة العشائر والشؤون البلدية، الشرطة العراقية، والسجون المدنية ودوائر الزراعة والبيطرة، ومصلحة الصحة التي الغيت وزارتها. ومكتب الصحافة(٤) ودائرة الواردات الى ان تم تحويل هذه الدائرة الى وزارة المالية في شهر تشرين الأول سنة ١٩٢١

وكانت وزارة المالية تمارس اعمالها الأعتيادية في قضايا الايرادات والمصروفات والحسابات، ووضع الميزانية، والعملة، واستحداث الوظائف،والرقابة على ميناء البصرة، اما اعمال وزارة المواصلات والاشغال فكانت تشمل دوائر الري، والأشغال العامة، والبريد والبرق، والمساحة، وسكك الحديد.

كانت مهمة الوزارة في الحكم مرتبطة بالتشدد المالي الذي غدا مفرطا، نتيجة الاضطرابات التي وقعت خلال السنة الماضية، وبسبب استمرار الركود الاقتصادي الذي حدث بعد الحرب، وبالحاجة الى توفير الأموال اللازمة لوزارة الدفاع والعرش ذاته، وليس بالنسبة الى صيحات الصحافة والجمهور في بريطانيا واللذان كانا يطالبان بتطبيق اقتصاد متشدد لايرحم في العراق، او بالجلاء العاجل عنه حقا، ذلك الاقتصاد الذي يمكن ان يوفر الأموال من ذلك المصدر.

بدأت الدولة الجديدة في العراق من دون ديون، ولكن بسيولة مالية جهد ماتستطيع الحصول عليه منها، وكانت الخدمات العامة للصحة وللأشغال والتربية وغيرها، تواجه تخفيضات غير معقولة، وذلك في لحظة كان فيها جمهور الدولة الجديدة يوحي بالأمل في حدوث تطور عاجل ومفيد. ذلك ان المستشفيات والمستوصفات لابد من توفيرها بذاتها في ذلك الوقت، وينبغي ان لايزداد عدد المدارس الآزيادة طفيفة،وان لا يوسع التعليم الثانوي والفني الى اكثر مما تشير اليه الحاجة والرغبة العامتين.

قسمت وزارة التربية والصحة الى وزارتين، ومن ثم اصبحت وزارة الصحة فيما بعد، مجرد مديرية تابعة لوزارة الداخلية. وكان واضحا ان في الاستطاعة الاقدام على انشاء بعض الاشغال العامة، ولكن الطرق بقيت مع كل ذلك، فظة غير معبدة. ولم تستطع دائرة الزراعة ان تواصل عملها في البحث والمشاهدة الا في نطاق ضئيل، في حين اقتصرت اعمال دائرة الري على امور الصيانة وبعض الأعمال الطفيفة.

وفي المحافظات كان يجري تغيير وتجميع نظام الوحدات الادارية التركي الذي شرع به خلال الفترة من سنة ١٩١٧ الى سنة ١٩٢٠ بصفة تدريجية * في حين كان وضع محافظة السليمانية، كما

---

(٤) كان يعرف بأسم مكتب المطبوعات الذي تحول الى ملاحظية المطبوعات خلال سني العشرينات حتى اواخر الثلاثينات ثم سمي بأسم مديرية الدعاية في سنة ١٩٤١،وهي اصل وزارة الثقافة والاعلام وماتتبعها الان من منشآت دور الطباعة والصحافة المتعددة المزدحمة بالموظفين

(*) تألف المفتشون الاداريون البريطانيون الذين عملوا في المحافظات او في وزارة الداخلية في اوائل سنة ١٩٢٣ من كل من ادمونز، وجيلان، واسش ووراي، وفلايمان، والبان، وليون، وملر، و«بري» «كتلفيل» وهيجكوك و«بولي» و «الدرمان» و ـ

هو منظور يختلف من شهر الى شهر. اما الكوت التي فصلت عن محافظة بغداد، فلم تصبح محافظة منفصلة الا في اوائل سنة ١٩٢٢ ولقد فصلت اربيل في سنة ١٩٢٣ التي كانت تابعة لمحافظة كركوك في سنة ١٩٢١، كما فصلت الديوانية عن محافظة الحلة ايضا. اما الحركة الانفصالية في البصرة فلم يعد يسمع عنها شيء ما.

غدت مجالس المحافظات التي اسست اثناء الثورة، ميتة الآن، وعادت المجالس الادارية التي انشأها الأتراك من الموظفين والرجال البارزين، الى الحياة مرة اخرى في كل محافظة وفي كل قضاء. واقبل الموظفون الاداريون من المحافظين والقائمقامين على العمل بكل همة في معظم المناطق مع زملائهم البريطانيين الذين اخذ معظمهم يعمل على دعم النظام الجديد بكل اخلاص. وكما هو الامر في الحكومة المركزية ذاتها، سرعان مااخذت تظهر في المحافظات المصاعب الناجمة عن أنقسام السيطرة بشكل واضح وان لم تكن في كل مكان.

وفي ميدان البلديات، كان عدد من المصالح التي انشأها الجيش البريطاني، قد تم تحويله الى رؤساء البلديات، والى المجالس البلدية. ومنذ اوائل سنة ١٩٢٤ لم يعد يتم تعيين المجالس البلدية من قبل الحكومة، وانما كان يجري اختيارها عن طريق الأنتخاب حسب الأنظمة التركية التي اعيد العمل بها. ولقد تطورت عظمة البلديات، وظهرت دلائل على المبادرات المحلية الملحة، لكن هذه المبادرات مالبثت،لسوء الحظ، ان تحطمت بكل جلاء نتيجة الفقر الحادث في ثلاث من المدن الكبرى، وعدد كبير من المدن الصغرى.

اخذت الصحف وكلها ملك لافراد ماعدا جريدتي «كركوك» و«السليمانية» تتضاعف،وبدأ العمل باصدار جريدة «الوقائع العراقية»[٥] في حين انتعشت المعاهد الخيرية والأدبية او ظهر البعض منها الى الوجود.وقد صممت هذه المعاهد على اقل تقدير لمكافحة الأمية الضاربة اطنابها بين الجماهير، الى درجة تكاد ان تكون مطلقة. وكان من بين هذه المعاهد، «الجمعية الاسلامية الخيرية» و «العصبة الثقافية» وعدد من النوادي الادبية[٦]

«ولسون» و «يتس» «وكجنغ» «حفريز» «ريد» و «لونغرغ» (مؤلف الكتاب) و «دتشبورن» «لويد» «جاردان». وكان البعض من هؤلاء المفتشين قد بقوا في الخدمة حتى سنة ١٩٢٧ هذا بالاضافة الى كل من «كوك» و «جايمان» «غلوب» ولم يتم بعد ذلك التاريخ تعيين المزيد من المفتشين الاداريين البريطانيين ماعدا ستافورد الذي استقدم من مصر وامضى الفترة مابين سنتي ١٩٢٨ ١٩٣٣ في العراق.

(٥) الوقائع العراقية IRAQI GAZZETT خصصت لنشر القوانين والأنظمة والبيانات وماشاكلها وقد صدر العدد الأول منها في الثامن من الأول ١٩٢٢ وكانت تصدر ثلاث مرات في الاسبوع ولاتزال تصدر حتى الان وتصدر نسخة منها بالانكليزية مرة واحدة في الاسبوع.وقد توليت تحريرها واصدارها ابتداء من اليوم الثالث من كانون الثاني ١٩٦٩ حتى اخر ايلول ١٩٧٢

(٦) من بينها النادي العلمي في الموصل، ومثيله في بغداد.

مرت الحياة العشائرية خلال تلك الشهور في فترة من الهدوء. ذلك لانه تمت تسوية المنازعات المتأصلة في الدليم، واعيد فتح الطرق، بصفة حذرة، الى سوريا مرورا بمدينة دير الزور، كما انجزت عملية توطين كبرى للسكان على ضفاف قناة الصقلاوية التي اعيد فتحها. ومالبث انصار الاتراك من افراد قبيلة شمر ان عادوا فدخلوا الاراضي العراقية، كما انه لم يظهر اي حادث يستحق الذكر من قبل الاكراد الذين تم تطمينهم. كذلك رضيت عشائر منطقة ديالى بالمصالحة التي قضت على كثير من العداوات طويلة الامد، التي كانت قائمة فيما بينها. واصبح للعمل المجد الواسع الذي تمارسه الشرطة تأثيره الفعال ضد العناد والتصلب. كذلك اظهر توطين اقسام عشائرية من بغداد على ضفاف قناة اليوسفية» التي اعيد تخطيطها، نهجا جديدا ومشجعا لتقسيم الاراضي وتوزيعها بصفة منتظمة.

لم تكن العشائر التي تقطن اواسط نهر دجلة مثيرة للقلاقل، بل كانت تعيش في سلام، بعد ان تم توزيع المقاطعات الزراعية في العمارة، واسكات الادعاءات الملحة التي كان يدعيها والي «بشت كوه». وكانت المنتفق بمفردها تؤلف سجلا للجريمة وللاضطراب واعمال العنف، والامتناع عن دفع الضرائب. ولقد ساء الوضع هناك، بسبب الحيازة الواسعة للاسلحة نتيجة الشرور الزراعية المتفاقمة في المنطقة، والتي لم يتم اصلاحها الا بصفة جزئية وعن طريق استخدام الشرطة، او الاستعانة باعمال القوة الجوية البريطانية. اما شيخ الزبير نصف المستقل، فقد استعيض مؤخرا عن تحكمه، وذلك بتعيين مدير اعتيادي للمدينة[7]

وعلى حدود سلطان نجد، وهذا هو اللقب الذي اتخذه ابن السعود في سنة ١٩٢٠، كانت العلاقة بين قبيلتي «الضفير» و «العمارات» العراقيتين وقبائل المنتفق المنعزلة مع «الاخوان»[8] حذرة ، وذلك منذ ان اندفعت في سنة ١٩٢١ عناصر قبائل شمر اللاجئة الى العراق، هربا من الدولة السعودية. ولقد وقعت بعض الغزوات الصغرى، غير ان ايا من الحكومتين السعودية او

---

(٧) سبق ان اشرنا في هامش سابق الى شيخ الزبير ابراهيم العبدالله الذي تذكر المس بل في تقريرها، بانه من اوائل البصريين الذين اتصلوا بالسلطات الانكليزية اثر احتلالها البصرة، وقدموا لها المساعدات المختلفة. وعندما تألفت الحكومة العراقية الملكية في العراق في ٢٣آب ١٩٢١ تقرر جعل الزبير ناحية تابعة للبصرة ولكن هذا القرار لم ينفذ في حينه وبقي الشيخ ابراهيم العبد الله هو الحاكم الحقيقي للزبير، واذ ذاك التمس ابناء الزبير في طلبات كثيرة تنفيذ القرار السابق، واستجابت الوزارة الهاشمية لذلك، فاستدعت الشيخ ابراهيم للاقامة في بغداد، وتسلمت الحكومة شؤون الزبير ونظمت ادارتها وعينت لها مدير ناحية، ولم يسمح للشيخ ابراهيم بالعودة الى الزبير الا اواخر شهر نيسان ١٩٢٥ (الحسني: تاريخ الوزارات العراقية ج ١ص٢٣٤).

(٨) الاخوان هو اللقب الذي اطلقه انصار محمد بن عبد الوهاب مؤسس المذهب الوهابي السلفي، على انفسهم ولكن هؤلاء الاخوان ·ما لبثوا مثل بقية الطوائف الاخرى ان تطرفوا وادخلوا على تعاليم محمد بن عبد الوهاب كثيرا من البدع والتحريفات الفاحشة فاصبحوا يعتبرون كل من لا يتقبل مذهبهم، كافرا يحل قتله ونهب امواله ولذلك وجدت العشائر البدوية في الجزيرة العربية في المذهب الوهابي وسيلة اخرى، غير وسيلة العداء القبلي، لمهاجمة بعضها البعض والفتك واعمال السلب. اما «الاخوان المسلمون» الذين ظهروا في تنظيمات سياسية في مصر وفي العراق وفي سوريا فان للداهية الانكليزي «فلبي» ضلعا في تنظيمهم (انظر: رهينة خميني او الهجوم على القرن العشرين).

العراقية لم تستطع السيطرة على رعاياها. والواقع انه كان يدور هنالك همس بان ملك العراق لابطاقته الخاصة ولا بطاقة اسرته، غير راغب في مضايقة الامير النجدي المعادي للهاشميين، بمثل هذه الوسيلة.

فلقد ادى استيلاء ابن السعود على «حائل» وتقويض حكم «آل الرشيد» في شهر تشرين الثاني سنة ١٩٢١، الى ارتفاع اعتباره وادعاته. كما ادى تعيين احد افراد اسرة السعدون لقيادة فيلق الهجانة العراقي على حدود نجد(٩) الى اثارة جديدة من قبل الجانبين، وشحذ العداء الشخصي لشيخ قبيلة «الضفير»(١٠) وهكذا انقضت اواخر شتاء سنة ١٩٢١ – ١٩٢٢ الى غمرة من التوقعات اليومية بحدوث قلاقل على نطاق واسع مع زعيم الاخوان «فيصل الدويش» شيخ قبائل «المطير» تلك القلاقل التي اتسمت بالصفة العدوانية.

ولكن من اكثر الامور خطورة بالنسبة الى ماكنة الدولة الاساسية في العراق هي الاوضاع التي سادت الحدود التركية وكردستان العراق، في هذه الشهور، ذلك لان الاتراك، على الرغم من اندحارهم النهائي سنة ١٩١٨، فانهم نتيجة تمسكهم العقيم بمعاهدة «سيفر» وكفاحهم في سبيل بقاء وجودهم في اسيا الصغرى – لم يتخلوا عن الاعمال العدوانية التي كانوا يقترفونها على حدود ولاية الموصل وفي ارجائها. فلقد اكد الاتراك في ميثاقهم القومي الذي اعلنوه في الخامس والعشرين من شهر كانون الثاني سنة ١٩٢٠، بان الاراضي غير المسكونة من قبل العرب في ولاية الموصل، سواء كان العدو قد احتلها ام لا، يجب ان لا تنفصل عن تركيا. وكانت الاشارة في هذا الادعاء مركزة بكل جلاء على كردستان. ومن هذه الناحية انطلقت حملة الدعاية في سنة ١٩٢٠، وكذلك الادعاءات التافهة بعرش بغداد، بالنيابة عن السيد احمد السنوسي الذي اتى به الاتراك الى مدينة «دياربكر» في سنة ١٩٢١، وما اعقب ذلك من استعادة الاتراك سيطرتهم على مناطق الحدود والعشائر في «وان» و «جلمريك»، واغرائهم رؤساء الأكراد في منطقة راوندوز، وارسالهم احد الموظفين المدنيين الاتراك تصحبه بعض القوات الى هناك.

ونظرا للسيطرة التي كانت تمارسها عشائر السورجي الهمجية، والتي كانت تشايع الاتراك بصفة مهيمنة، وللانقسام الحاصل لدى عشائر «بشدر»، فقد اصاب التغلغل التركي تقدما ظاهرا في تلك المناطق في سنة ١٩٢١ ولكن تم وقف ذلك التغلغل بفعل الغارات التي قامت بها القوة الجوية البريطانية، واعمال الشرطة العراقية، وكذلك قوات العشائر الموالية والتابعة لقوات المرتزقة

---

(٩) هو [illegible] يوسف بك السعدون وهو من المعادين جدا لحمود بن صويط شيخ الضفير.

(١٠) هو الشيخ حمود الصويط الذي سلب من احد التجار العراقيين مبلغ خمس وعشرين الف ليرة وهرب مع عشيرته الى السعودية واصبح وكيلا لدى ابن السعود في جباية اجور الرعي من العشائرالعراقية التي كانت ترعى مواشيها في المناطق السعودية المجاورة

، خلال فصل الخريف، تمهيدا لتوجيه ضربة قاضية الى «عبيد الله» شيخ عشائر السورجي، [١١] الذي اوقع فريقاً من قوات المرتزقة في كمين نصبه له، ومن ثم رد على اعقابه في عمليات عسكرية قامت بها قوات المرتزقة العراقية، والقوة الجوية الريطانية،وذلك في منتصف فصل الشتاء.

ولكن خضوع العشائر، في اعقاب تلك العمليات الحربية، كان ينطوي على الحذر فلقد بقي عبيدالله على سعة من امره. وفي اوائل سنة ١٩٢٢ قامت القوات التركية من قواعدها في نصيبين والجزيرة [١٢] بتوجيه عدوان جديد. وفي والوقت ذاته كانت منطقة السليمانية هادئة نسبيا. نتيجة غياب الشيخ محمود واقاربه الادنين عنها، ولكن جماعة من الاكراد الفرس على الحدود استطاعت ان تهاجم سهل حنبجة، وان تجبي الضرائب من سكان ذلك السهل، وان تنصب كميناً للقوات المرتزقة، وتهدد المدينة بالاستيلاء عليها، الى ان استطاعت طائرات القوة الجوية البريطانية تشتيت اولئك المعتدين.

كانت هناك مشكلة اخرى شاقة وتحمل على اليأس وهي ترتبط بموضوع المطالب التركية، ونعني بها مشكلة الاثوريين [١٣]. ذلك ان انخراط هؤلاء الاثوريين في قوات المرتزقة، والذي بدأ مترددا ثم تحول الى اندفاع مثير، لم يضع حلا لمطالب هؤلاء المستديمة، او قد ساعد حتى على توطينهم في العراق، باعتبارهم واحدة من الاقليات. لقد ادت وفاة باولس مارشمعون في سنة ١٩٢٠، الى ان عهد بزعامة الآثوريين الى صبي ضعيف، لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره يدعي «ايشاع» [١٤] وقد ادى هذا الامر الى ان يفقد كثير من اهل بيته ما كانوا يتمتعون به من سلطان، والى انتقال تلك السلطات الى مغامرين، من امثال «اغا بطرس باز» [١٥] احد القتلة والنصابين الدوليين، ذلك المخادع المعتدي، الذي فطر على الشقاوة والاجرام.

فلقد استطاع، اغا بطرس باز هذا بما ناله من مساندة البريطانيين وتخويلهم اياه ان يقود الالوف من الاثوريين عبرالجبال والوديان من «عقرة» الى «اورميا».ولكن مشروعه هذا ما لبث ان

---

(١١) هو ابن الشيخ رقيب الشيخ محمد البجلي وكانت عشائر السور جي قد قاتلت الانكليز في معركة كردسين في السادس من كانون اول سنة ١٩١٩ والتي تقول المصادر العربية بان الانكليز خسروا في تلك المعركة زهاء ثلثمائة قتيل (عبد المنعم الغلامي: ثورتنا في شمال الوطن ج ١ ص ٩٤).

(١٢) يقصد بالجزيرة هنا «جزيرة ابن عمر»

(١٣) لا يفتأ المؤلف يتحدث عن مشكلة الاثوريين في كثير من فصول كتابه هذا وهو بهذا التكرار انما يحاول ان يركز الانظار على هذه الاقلية الغريبة عن العراق والتي كانت منذ البداية العوبة بايدي الاستعماريين وعلى الاخص الانكليز منهم،وعقبة من العقبات الرئيسة التي اعترضت طريق التحرر والطمأنينة والتقدم في العراق. فلقد كان يجري تحريض هذه الطائفة الغريبة في ذلك الوقت ضد الحكم العراقي،رغم انه لم يكن حكما وطنيا خالصا ونقيا من شوائب التدخل البريطاني، وذلك كما سوف يمر بنا في الفصول القادمة، مما التصق التصاقا قويا بتاريخ العراق الحديث خلال الفترة بين الحربين العالميتين الاولى والثانية.

(١٤) هذا الصبي هو الذي اصبح فيا بعد «مارشمعون» واثار القلاقل خلال سني العشرينات واوائل الثلاثينات بتأثير عمته «سرمة خاتون» عليه.

مات سنة ١٩٢٠ لما اصابه من اعمال النهب والمصادمات الوحشية، وجرائم القتل الجماعي. واخيرا تركزت الاقلية الاثورية في معسكر اقامته لها القوات البريطانية في منطقة شيخ مندان خارج مدينة الموصل. ومن هذه المنطقة قررت الفئات الاثورية التي ذهبت الى اوربا، في اوائل سنة ١٩٢١ ان تشق طريقها الى بلاد فارس عن طريق بغداد، ولكن هذه الفئات لم تستطع ان تحقق هدفها ذاك بسبب المقاومة التي تلقتها من جانب الفرس، ولذلك تمزقت تلك الفئات وتبعثرت في البلاد التي مرت بها، في حين استطاعت فئة منها ان تعود الى بغداد.

وبمساعدة من البريطانيين ودعمهم المادي، تم اسكان الاثوريين الذين قدموا من منطقة «حكاري» في القرى العائدة للحكومة في مناطق «دهوك» والعمادية»، بينما استقر اخرون — بعد ان انهكهم التعب، والجوع، والمرض — في التلال القائمة على الحدود، ولكن شيطانهم «اغا بطرس باز» استطاع ان يهرب الى اوربا وان يلقي حتفه في مدينة باريس بعد ذلك مباشرة.

انشئت بطريريكية للاثوريين في «بيباد» على مقربة من العمادية، كانت تقوم على خدمتها «سرمة خانم» عمة الصبي «ايشاع» الذي عين بطريركا، غير ان القلاقل التي كان الاثوريون يثيرونها لم تجد نهاية لها.

اما بالنسبة الى الارمن اللاجئين الى العراق والذين قدر عددهم بحوالي خمسة عشر الف نفر اثناء انتقالهم في اواخر سنة ١٩٢٠ من «بعقوبة» الى معسكر خاص بهم اقيم على مقربة من «نهر عمر» قرب البصرة، فقد تم البحث عن وسائل اخرى لاخضاعهم. ذلك ان عدم تعاونهم، ورفضهم الشديد للعمل في العراق، قد ادى الى احباط كل الجهود التي بذلت لهم، ولقد تناقص عددهم بعد ان تفرق قسم منهم في المدن واختلطوا مع الاثوريين او نزحوا الى بلاد فارس، ولكن البقية الباقية منهم والتي يقدر عددها بثمانية الاف شخص قد تم نقلهم في السفن الى ميناء «باطوم» وعلى نفقة الحكومة البريطانية، وتم ذلك في الواقع طبقا لاتفاق مع الحكومة الارمنية الجديدة التي انشئت عبر القفقاس، اما الذين بقوا منهم يقاومون كل اشكال المساعدات، فقد ارغموا في شهر اذار سنة ١٩٢٢ على ان يغادروا معسكر «نهر عمر» حيث اغلق المعسكر بعد ذلك.



٢ - المعاهدة الاولى

كان العرض الذي قدمته الحكومة البريطانية في الاعراب عن العلاقة الانكليزية العراقية، في صفة معاهدة بينهما بدلا من الحكومة الانتدابية المتستر عليها، قد حظي بمصادقة الامير فيصل عليه،قبل وصوله الى العراق. وقد ظهر ان مثل هذا العرض لن يلقي المعارضة بصفة اولية من لدن الناطقين باسم القومية هناك. كذلك بدا بان الطرفين، الأنكليز وفيصل، كانا يودان تقليص صفة العار المذل المضفاة على العلاقة بين الحارس والمحروس، وان يتمتع العراق منذ البداية بالاعتبار الذي تحظى به المعاهدة والتي يراد من ورائها ايجاد دولة مستقلة.

والواقع ان هذه الطريقة كانت من دون جدال، اهم طريقة حصيفة ومبدعة لتمشية الحالة التي كانت تفتقر الى كل ماسبق. غير ان التذمر الذي اثاره الوطنيون العراقيون، وتسميم العلاقات الانكليزية العراقية طيلة السنوات العشر التي اعقبت ذلك ، ونظام الانتداب ذاته، كل هذا قد بقي على حاله ومن دون ادنى تغيير.

ومع ان الانتداب لم يرد ذكره في مسودة المعاهدة، الاّ انه قد عهد به بصفة معروفة الى بريطانيا، وتقبلته بدورها، وادخل الآن ضمن مسودة راحت تنتظر تصديق عصبة الامم عليها في الايام الاخيرة من سنة ١٩٢١

كان ابعاد مثل هذا الوضع القائم عن «الاستقلال التام» الذي طالب به القوميون، واضحا كل الوضوح مهما كانت العبارات التي فسر بها الانتداب، والاعذار التي انتحلت لغرضه، او لابقائه مخفيا عن الأنظار.

كان لابد للملك وبطانته من ان ينظروا الى المعاهدة والى الانتداب الذي تسترت عليه، مهما كانت سخية تلك المعاهدة، نظرة معادية منذ البداية وبصفة حتمية. لقد كان تشرتشل هو الذي قاده في لندن، ولقد تشكي، وهو يتصور صيغة مغايرة جدا للمعاهدة، بان الانتداب يجب ان يزول، وان يختفي وان يتم رفضه. واذا ما زعم بان الضرورة الدستورية القابلة للنقاش، او القانون الدولي، كانا غير واقعيين، او انهما يندر ان يؤلفا قاعدة كافية، وان الشيئ الوحيد المهم بالنسبة الى فئة صغيرة من العراقيين الذين وجدوا - كما فعل ذلك الساسة العراقيون من سنة ١٩٢١ الى ١٩٣٠، الذين خاضوا معركة استمرت عشر سنوات من الكفاح السياسي الذي تميز بالمقاومة

المدنية، واعمال القتل، والتمرد المتعمد - ان مايبقى صوابا هو ان الانتداب لايشتمل في الواقع على الاستقلال التام، وانه ليس سوى اهانة تحطم الكرامة القومية للعراق، في نظر جميع المسلمين في كل مكان.

وفي الوقت الذي تواصلت فيه المباحثات بشأن المعاهدة من قبل الوزارة في اوائل سنة ١٩٢٢، اخذت فكرة الرأي العام حول الموضوع تزداد وضوحا. فلقد شرع القوميون المتطرفون الذين ضموا الى جانبهم ولاسباب مختلفة حتى رجال الدين من الشيعة، والمؤيدين البارزين، وحتى اصدقاء الملك نفسه، ينادون بمقاومة العبودية التي يفرضها الانتداب، ويطالبون بجلاء البريطانيين جلاء تاما عن البلاد، تلك الصرخة التي لم تخفق في احداث رد فعل، كما قيل، من جانب «حزب الانكلبز» المؤلف من البارزين وشيوخ العشائر المؤيدين، كان له تأثيره في الحكم البريطاني.

اما القوميون المعتدلون كثيرا، والذين شاركهم الملك في آرائهم، فقد وقفوا الى جانب الغاء الانتداب، وعقد معاهدة متساوية وودية، واستمرار الدعم البريطاني. ولم تلبث الهوة التي حصلت في الرأي العام ان ازدادت اتساعا واكثر بروزا، بعد المؤتمر الذي عقد في مدينة كربلاء في شهر نيسان سنة ١٩٢٢، والذي عقد في الدرجة الاولى للاحتجاج ضد «الاخوان» بدعوة من الشيخ مهدي الخالصي الذي كرس حياته للسياسة [١].كان ينظر الى هذا المؤتمر الذي حضره حوالي مائتي شخص من الرجال البارزين لدى الشيعة، والعلماء، وافراد العشائر، نظرة ملؤها القلق من لدن الاطراف المعتدلة. ورغم ان القرار الذي تمت الموافقة عليه في النهاية كان قرارا تافها، الا انه كان عاملا فعالا في تكتيل الرأي المناهض للمعاهدة، كما كان حافزا ايضا الى تبني مبدأ يقرب من الفوضى في مناطق «المنتفق» و «شمر» التي اتسمت بالحساسية.

---

(١) لم يقتصر مؤتمر كربلاء على تمثيل الشيعة وحدهم كما ذكر ذلك المؤلف خطأ او تعمدا، وانما شارك فيه اهل السنة ايضا. فقد توجه موكب علماء السنة بزعامة الشيخ عبد الوهاب النائب، والشيخ ابراهيم الراوي وغيرهما الى كربلاء فاجتمعوا بالشيخ مهدي الخالصي في دار الشيخ تقي الشيرازي ثم نزلوا ضيوفاً على السيد قاسم الرشدي في داره. كذلك وصل وفد اخر من الموصل يضم كلا من مولود مخلص وسعيد الحاج ثابت وعبد الله النعمة وعجيل الياور ومحمد اغا ونزلوا في دار الحاج عمر العلوان،وقدمت دعوة الى الملك فيصل لحضور المؤتمر لكنه اعتذر تحت ضغط من برسي كوكس، واناب عنه وزير الداخلية توفيق الخالدي ، كما بعث نوري السعيد ممثلا شخصيا للملك نفسه. ولقد افتتح المؤتمر في صباح اليوم التاسع من نيسان ، وتقرر في ذلك اليوم تنظيم مذكرات تتضمن ابراز موقف الشعب العراقي ازاء اعتداءات «الاخوان»،ثم انعقد الاجتماع النهائي في الثالث عشر من نيسان في دار الشيرازي افتتحه جعفر ابو التمن بخطاب. وتليت في الاجتماع برقية الملك التي شكر فيها القائمين بالمؤتمر. ولقد امتنع بعض رؤساء العشائر الفراتية عن توقيع مذكرات المؤتمر وكان على رأسهم عداي الجريان، وعمران الزنبور وشمران الجلوب ومراد الخليل وعقد هؤلاء المنشقون اجتماعا لهم في الحلة وقرروا تنظيم مذكرات مضادة لمذكرات مؤتمر كربلاء (انظر تفاصيل المؤتمرين :على الوردي: تاريخ العراق الحديث الجزء السادس ص١٤١ ومابعدها) وانظر ماكتبه سندرسن عن عداي الجريان وعمران الزنبور في ترجمتنا لمذكرات سندرسن الطبعة الثالثة ص ٥٣ ومابعدها سنة ١٩٨٥

وهناك شر آخر غدا الآن اكثر ظهورا واتساعا،يتمثل في الادارة السياسية في بعض مناطق الفرات، والتي كان يطبقها القوميون من المحافظين والقائمقامين تطبيقا قويا.[٢] لقد كان هؤلاء يتجاهلون وجود زملائهم المستشارين البريطانيين، ويتجهون صراحة الى مناصرة رؤساء العشائر في منازعاتهم بشأن الأراضي،وتقديرات الضرائب،والتجهم بوجوه الزمرة الانكليزية[٣]. تعاظمت المقالات التي كانت تنشرها صحافة العاصمة في العنف[٤] وكانت تظاهرات الشوارع كثيرة الوقوع في بغداد. والوفود تنتظر مواجهة الملك. ولم تلبث الوزارة ان دعمت تلك التغييرات، وذلك باستقالة خمسة من اعضائها كان من بينهم ناجي السويدي، وعزت الكركوكلي، وعبد اللطيف المنديل. وكان من بين الوزراء الذين حلوا محل المستقيلين، توفيق الخالدي وهو من كبار الموظفين ومن طراز عال، كان نائبا في مجلس المبعوثان التركي، وامينا للعاصمة مؤخرا، وصبيح نشأت التركي الكردي ذو الطاقة الشهيرة والمزاح المرح الغني، وعبد المحسن السعدون النائب السابق عن البصرة في المبعوثان التركي صاحب الآراء المعتدلة والشخصية السامية والسياسي القومي القوي، والحاج جعفر ابو التمن رجل الأعمال.

وافقت هذه الوزارة، بعد ان خرج منها ابو التمن، على المعاهدة في اواخر شهر حزيران ١٩٢٢، لكنها اشترطت لذلك شرطا، قاومه برسي كوكس عبثاً، يقول بان المعاهدة يجب ان يصادق عليها بالقانون الاساسي، وقانون الانتخاب، من قبل المجلس التأسيسي المقبل.

كان قانون الانتخاب قد تم نشره في شهر ايار، واعقبت ذلك المصادقة على المعاهدة عند البداية الاولى لعملية الانتخابات. واستمر الشعور المعادي للمعاهدة يظهر بصفة مثيرة، واصبح خطراً شديداً يتهدد النظام العادي، وذلك جراء الموقف المعادي الذي وقفه العلماء غير المهادنين، وفئات من شيوخ الفرات واصحاب المصالح الخاصة منهم وكذلك المناهضون المحليون من موظفي الادارة.

كانت الحالة في السليمانية، تنذر بالخطر بصفة خاصة،وقد تم ارسال ياسين الهاشمي الى هنالك باعتباره الشخصية القومية المهيمنة، محافظا للمنطقة في الوقت الذي ظلت فيه الاوضاع مضطربة في المحافظات الاخرى ومنها الدليم والحلة، والنجف، وديالى، بل ان هذه اصبحت تنذر بالمخاطر.وفي محافظات اخرى بذل المعارضون للمعاهدة جهودا كبرى، فاصبحت

---

(٢) من امثال جلال بابان الذي عين قائمقاما لسامراء، وياسين الهاشمي الذي عين محافظا للمنتفق، ورؤوف الكبيسي قائمقام سوق الشيوخ، وعلي جودت الايوبي محافظ الحلة وغيرهم.

(٣) المقصود بذلك الفئات الموالية للانكليز من رؤساء العشائر واضرابهم.

(٤) كانت الصحف المبرزة بالدفاع عن القضايا الوطنية في ذلك الوقت هي صحيفة الاستقلال لصاحبها المرحوم عبد الغفور البدري، وصحيفة «الرافدان» لمنشئها الاستاذ «سامي خونده»، وجريدة «دجلة» التي اصدرها المرحوم داود السعدي يعاونه فيها المرحوم الشاعر رشيد الهاشمي والذي شارك ايضا في صحيفة «الرافدان» بالاضافة الى بعض الصحف والمجلات غير السياسية من امثال الناشئة الجديدة لصاحبها ابراهيم صالح شكر التي صدرت في صفة مجلة شهرية ثم تحولت الى صحيفة اسبوعية.

معارضة المعاهدة مرادفة لمعارضة البريطانيين، ولذلك اخذ رجال السياسة والدين يعكرون صفو الامن بين العشائر، ومن هنا غدت اعمال العنف والاضطراب متوقعة في كل لحظة.

ووفقاً لقانون الجمعيات الذي نشر في تموز سنة ١٩٢١ اقدمت عناصر سياسية من الشيعة في بغداد على تأليف حزبين هما «الحزب الوطني»(٦) وحزب «النهضة»(٧) وكان الحزبان ندا للحزب الحر المعتدل الذي الفه السيد محمود، الابن الأكبر للسيد عبد الرحمن النقيب(٨)

في اوائل شهر آب عقدت اجتماعات حزبية اخرى في بغدادوفي النجف. وقد تميزت. الأحزاب والصحف الشيعية بالعنف وعدم المسؤولية، فراحت تطالب برفض المعاهدة، وعدم الاشتراك في الانتخابات. واخذ الشيخ مهدي الخالصي، الذي اتجه في بعض الاوقات الى تحبيذ الآراء التركية(٩) يلقي الخطب اللاهبة ضد كل اولئك الذين اعلنوا استقلالهم. وحين تحققت الوزارة بان الملك قد تعب كثيرا من المعارضة المتطرفة الموجهة ضد الوزراء انفسهم، وضد مجالسهم، اقدمت الوزارة على الاستقالة برمتها في اليوم الرابع عشر من شهر آب

كانت الايام التي اعقبت ذلك حرجة بالنسبة الى المملكة العراقية.فلقد ظهر موقف الملك مؤخرا بانه في الواقع كان موقف الشخص الذي تبدو عليه الرغبة في التعرف على العناصر المشتطة في مقاومة المعاهدة، ، تلك المعاهدة التي لم تكن تمثل سياسة الحكومة البريطانية فحسب، بل

---

(٦) تأسس الحزب الوطني في بغداد في اليوم التاسع عشر من شهر اب ١٩٢٢، وكانت لجنته التنفيذية مؤلفة من كل من محمد جعفر ابي التمن، احمد الشيخ داود. حمدي الباجه جي. مولود مخلص، عبد الغفور البدري، ومهدي البصير، وبهجت زينل، وقد ذكر مهدي البصير بان الحزب الوطني كان مدعما من قبل السيد محمد الصدر (القضية العراقية)

(٧) تأسس حزب النهضة في الكاظمية في اليوم الثاني من شهر اب وكانت لجنته التنفيذية مؤلفة من كل من امين الجرجفجي، واحمد الظاهر، وعبد الرسول كبة، وواصف قاسم اغا، وعبد الرزاق الازدي، ومهدي البير ومحمد حسن كبة. ويلاحظ انه لم تصدر باسم اي من الحزبين المذكورين صحيفة خاصة تنطق بلسانه • وكانت جريدة الاستقلال لصاحبها عبد الغفور البدري وما اعقبها من جرائد اخرى بدلا عنها عند تعطيلها، هي التي تمثل آراء الحزب الوطني، في حين اصدر حزب النهضة بعد انبعاثه في سنة ١٩٢٧ صحيفة تنطق بلسانه باسم «النهضة العراقية» صدر عددها الاول في اليوم العاشر من آب سنة ١٩٢٧ عطلتها الوزارة العسكرية ثم استأنفت الصدور بعد استقالة الوزارة المذكورة،وكانت الصفة الشيعية هي الغالبة على حزب النهضة وحده على خلاف ماذكره المؤلف.

(٨) تأسس الحزب الحر المعتدل في بغداد بتأييد من عبد الرحمن النقيب. وكان ولده الاكبر «محمود» هو رئيس الحزب الذي تألفت لجنته التنفيذية من المشايعين للانكليز وهم جميل صدقي الزهاوي، وعبد المجيد الشاوي. وفخري الجميل، وحسن غصيبة وداود النقيب. وقد ذكرت المس بل في احدى رسائلها ان علي السليمان وكل شيوخ العشائر الكبار قد وقعوا على الانتماء الى الحزب المذكور حيث عادوا في اليوم الثاني الى مواطنهم لتنظيم الفروع الحزبية في الالوية وقد جهز رجال القوة البريطانية طائرة خاصة لنقل علي السليمان بها الى الرمادي (اليزابت يورغوين: المس بل في رسائلها ج٢ ص٢٨٩ ومابعدها).

(٩) ذكرت المس بل في احدى رسائلها ان فتوى صدرت في تحريم الدفاع عن العراق ضد الاتراك، وان نسخا من هذه الفتوى قد الصقت على باب صحن «الكاظمية». ويبدو ان الانكليز قد اتهموا السيد مهدي الخالصي باعطاء تلك الفتوى. ويذكر الدكتور علي الوردي ان الشيخ مهدي الخالصي كان شديد الميل الى الاتراك ويقال انه كان في تلك الآونة يتراسل معهم سرا.. ويذكر الوردي ايضا عدة قصص عن وصول رسائل من الاتراك الى الخالصي ورد الخالصي عليها وان جواسيس الانكليز استطاعوا الحصول على تلك الرسائل (د. علي الوردي. تأريخ العراق الحديث الجزء السادس ص٢١٤ ٢١٥).

وحتى سياسة الوزارة العراقية ذاتها. وسرعان ما ساءت العلاقات مع المندوب السامي الذي تميز بالصبر بصفة محددة. فقبل يومين من البدء باحتفالات التتويج المنتظرة في الثالث والعشرين من شهر آب، اصدر الحزبان[١٠] بياناً عنيفاً يحتجان فيه صراحة الى الملك من النفوذ البريطاني، ويطالبان بتعيين السيد محمد الصدر رئيساً للوزارة[١١] وفي اثناء الاستقبال الرسمي ذاته وجه الشتم عمدا من قبل المتظاهرين المعادين للبريطانيين، والذين كان يقودهم احد موظفي البلاط عند اعتاب القصر[١٢].

طلب تقديم اعتذار عما حصل فاجيب ذلك الطلب، لكن الملك رفض ان يتخذ اي اجراء ضد المعتدين، وهكذا غدا النظام العام معلقاً في الميزان، ولم يعد للوزارة اي وجود آنذاك. في هذه اللحظة اصيب الملك فيصل بنوبة حادة من الزائدة الدودية، فاقدم الدكتور نوئيل براهام على اجراء العملية الجراحية التي تطلبت الضرورة اجراءها على الفور، وذلك في اليوم الخامس والعشرين من شهر اب، ولكن قبل ان يشفى الملك من اصابته تلك، وجد برسي كوكس نفسه ملزما باتخاذ عمل حازم. فقد اوضح للرأي العام موقف الحكومة البريطانية والمسؤوليات الملقاة على عاتقها، واستنكر التمادي الخطر الذي يمارسه المتطرفون، وعطل الحزبين والصحف المسيئة، واعتقل ونفى عددا من اشد الساسة عنفاً[١٣]

كان تأثير هذا الاجراء الذي اقدم كوكس عليه سريعا جدا، وكانت فرحة العناصر المعتدلة عميقة في كل انحاء العراق وعلى كل المستويات. ولقد تم دعم عملية اعادة الاوضاع العشائرية

---

(١٠) الحزب الوطني وحزب النهضة العراقي.

(١١) لم يتضمن الاحتجاج الذي قدمه الحزبان المعارضان الى الملك طلب تعيين السيد محمد الصدر رئاسة الوزارة وانما اقتصر الطلب على تأليف وزارة وطنية من الاكفاء المخلصين، وان كان السيد محمد الصدر هو الذي ترأس الاجتماع وربما توفرت لدى المؤلف ادلة على ذلك غير ما اتى على ذكره الذين ارخوا لهذه الفترة.

(١٢) توجهت التظاهرة التي نظمها الحزبان في يوم التتويج الى ساحة القشلة حيث كان مقر الملك هناك، فالقيت خطب لاهبة منها خطبة مهدي البصير باسم الحزب الوطني وخطبة محمد حسن كبة باسم حزب النهضة، وذلك في الوقت الذي وصل فيه كوكس وحاشيته الى القشلة وحين اخذ يصعد السلم هتف «حسون ابو الجبن» قائلا: تسقط بريطانيا يسقط الاستعمار» فردد المتظاهرون هتافه. وقد اعتبر كوكس تلك الهتافات اهانة له ولحكومته. ونظراً لأن الملك كان قد اوفد الاستاذ فهمي المدرس الى المتظاهرين ليطلع على مطاليبهم، وكان كوكس يعتقد بان فهمي المدرس وان كان موظفا في البلاط الا انه كان يعمل مع المعارضة سرا، فقد انتهزها فرصة طيبة لازاحته ولذلك وجهت دار الاعتماد البريطاني الى رئيس الديوان الملكي رسالة مؤرخة في ٢٤ آب يحتج فيها المندوب السامي على ماحدث، ويطلب تقديم اعتذار عنه، وان يعزل فهمي المدرس من منصبه وقد حدث ماأراده كوكس، وقيل ان رستم حيدر كان وراء تلك المناورة ضد الاستاذ المدرس.

(١٣) في ٢٦ آب اصدر كوكس بياناً كله تهديد ووعيد وارفق به صدور اوامر باغلاق الحزب الوطني وحزب النهضة، وتعطيل جريدتي «المفيد» و «الرافدان» واعتقال مهدي البصير وسامي خوندة وامين الجرجني وعبد الرسول كبة وحبيب الخيزران ونفيهم الى جزيرة «هنجام» حيث مكثوا هناك مدة من الزمن وتخلص من النفي عبد الغفور البدري وابراهيم حلمي العمر وقد هرب الاخير الى الأردن.

تدريجا، وذلك بنقل المحافظين الذين ظهرت وطنيتهم اثناء عملهم في الادارة، وقصف الثائرين الحقيقيين في الديوانية، وفي المنتفق، تأديبا لهم[14]

وبعد ان نجحت العملية التي اجريت للملك فيصل، واكدها الأطباء الذين بعث بهم والده الحسين من الحجاز، قدم فيصل في العاشر من ايلول، الشكر علانية الى المندوب السامي على الاجراءات التي اقدم عليها. والواقع ان تلك الاجراءات قد انقذت الدولة من الفوضى، كما انها ربما انقذت الملك فيصل نفسه من ان يعيش مرة ثانية في المنفى ومن دون عرش.

طلب الى السيد عبد الرحمن النقيب، بعد ان تحسن الجو، ان يؤلف وزارة اخرى[15] ادخل فيها توفيق الخالدي وزيراً للعدلية، وعبد المحسن السعدون وزيراً للداخلية، وكلا من ساسون حسقيل وجعفر العسكري، وعلي فاضل، وصبيح نشأت في ذات الوزارات التي كانوا يشغلونها سابقا، بينا عين المتمول النجفي الحاج محسن شلاش وزيراً للتربية كما الغيت وزارة المواصلات وما ان تحققت الوزارة من المناقشة بان الدخول في عصبة الامم، وهو الهدف الثاني للعراق، سوف يضع بنفسه حدا نهائياً للانتداب المقيت، حتى اكدت قبولها بالمعاهدة التي وقع عليها اخيراً كل من السيد عبد الرحمن النقيب والسربرسي كوكس في اليوم العاشر من شهر تشرين الاول سنة ١٩٢٢

كانت هذه المعاهدة التي اريد لها ان تمتد لمدة عشرين سنة بعد مصادقة المجلس التأسيسي عليها، قد تضمنت ولو من دون اشارة مباشرة الى الانتداب، معظم الاحكام الواردة فيه فقد اشتملت موادها على الالتزام باحترام الاجراءات الدستورية، وحرية الاديان والتعليم والمؤسسات التبشيرية كما اشتملت على حماية حقوق الاجانب، وتوفير الفرص الاقتصادية المتساوية لكل الدول (سواء كانت من اعضاء عصبة الامم ام لا وكان هذا الشرط صدى للمراسلات التي جرت بين «كولبي»[16] وكرزن، بشأن سياسة الباب المفتوح) والتعاون مع

---

(١٤) اصدر كوكس اوامره بعزل محافظ الحلة على جودت الايوبي، وعزل اعوانه من القائمقامين وفي مقدمتهم السيد خيري الهنداوي وشاكر الملا حمادي. وقامت الطائرات الانكليزية بقصف بعض العشائر المتمردة ومنها آل فتلة في المهناوية، والاقرع في عفك، وخفاجة في الشطرة، والعزة في المنصورية (الوردي ج٦ص١٦٤).

(١٥) كان كوكس هو الذي اقنع الملك فيصل بان يعيد النقيب تأليف وزاراته الثالثة التي تألفت في الثاني عشر من ايلول ١٩٢١ ولقد رشح الشيخ عبد الكريم الجزائري لتولي منصب وزير التربية ولكنه اعتذر عن ذلك فاختير الشيخ محمد على هبة الدين الشهر ستاني لهذا المنصب. ومن بين ماقررته هذه الوزارة استعمال اللغة العربية في المكاتبات الرسمية بدلا من الانكليزية ابتداء من شهر نيسان سنة ١٩٢٢ وقد اشار النقيب في منهاج وزارته الى ان من اهم الامور التي تعتني بها وزارتنا هو تأييد المؤتمر الممثل للشعب العراقي، ووظيفته سن القوانين الاساسية، لان المؤتمر بمثابة الروح للمملكة الديمقراطية التي لاتقوم لها قائمة الا به» (الحسني تاريخ الوزارات ج١ ص٦٠)

(١٦) وزير خارجية حكومة الولايات المتحدة الامريكية.

عصبة الامم، والاجراءات الصحية الدولية، والنظام الجديد الذي تم اعداده بالنسبة الى الاثار القديمة.

كانت بنود المعاهدة مفتوحة امام تعديل فصلي متفق عليه، وقد وافقت بريطانيا على ان تمارس الضغط لترشيح العراق للدخول في عصبة الامم «حالما يصبح ذلك ممكنا»، وكانت هناك اتفاقات منفصلة ومالية يجري اعدادها بل الواقع ان مسودات تلك الاتفاقات قد وضعت بعد ذلك، وكانت تشمل التعاون العسكري، والشؤون المالية والسياسية) واوضاع الموظفين البريطانيين في الحكومة العراقية.

وبصفة عامة تم نقل المسؤوليات التي التزمت بها بريطانيا للعراق تجاه عصبة الامم، الى الحكومة العراقية ذاتها لتنفيذها، في حين حددت الميادين، والانماط التي ستواصل بريطانيا طبقا لها، الاستمرار في مساعدة الدولة الفتية ودعمها[١٧]

اشترط الاتفاق العسكري، بان يصبح العراق، خلال اربع سنوات، ملزما بالدفاع عن نفسه كلية فيما يخص الاضطراب الداخلي، والعدوان الخارجي معا. ولهذه الغاية فان على الحكومة العراقية ان تخصص مالايقل عن الربع من ايراداتها لشؤون الدفاع. ومن ناحية اخرى فان الحكومة البريطانية بالاضافة الى احتفاظها بقوات لها في العراق وعلى نفقتها الخاصة، سوف تزود الدولة العراقية ايضا بالضباط والمدربين والاسلحة والتجهيزات، وان تكون تحركات الجيش العراقي عرضة للتفتيش وللارشاد من قبل المندوب السامي نفسه.

كان ارضاء امريكا والدول الاخرى عن الغاء الاستعمار قد تم احرازه[١٨] واعطيت ضمانات قانونية محددة لقاء ذلك. مثال هذا ان رعايا هذه الدول يجب ان يحاكموا امام محاكم تضم واحداً او اكثر من الحكام البريطانيين، وان لايجري تفتيش دورهم الا بحماية، وان يستخدم اخصائيون قانونيون بريطانيون فيما بعد من قبل الحكومة البريطانية، وان تتم مصادقة المندوب السامي البريطاني على كل الاحكام القانونية التي تمس الاجانب قبل ان يجري عرضها على البرلمان.

---

(١٧) اجرى مجلس الوزراء العراقي في جلسته التي عقدها في ٢٥ حزيران ١٩٢٢ عدة تعديلات على النص التمهيدي للمعاهدة من اهمها المادة الاولى التي نصت على ان ينظم ملك العراق قانونا اساسيا يعرض على المجلس التأسيسي، والمادة الثامنة عشرة التي نص فيها على ان «تصبح هذه المعاهدة نافذة العمل حالما تصدق من قبل الفريقين الساميين المتعاقدين بعد قبولها من المجلس التأسيسي، وتظل معمولا بها لمدة عشرين سنة» كذلك سجل جعفر ابو التمن عدة اعتراضات على نص المعاهدة وفي اليوم التالي قدم استقالته. والظاهر انه اراد ان ينبه المعارضة الى خطورة الموقف بعد ان لاحظ اتجاها قويا في مجلس الوزراء يميل الى التصديق على المعاهدة» (الدكتورة. رجاء حسين حسني الخطاب: العراق بين ١٩٢١ - ١٩٢٧ ص ٦١ - ٦٣).

(١٨) استطاع الانكليز والفرنسيون الالتفاف داخل عصبة الامم وخارجها على مبادئ الرئيس ولسون حول تقرير المصير للشعوب المحررة، واشراك امريكا في المناورات التي بدأت حول اقتسام مناطق النفوذ ولاسيما ما تعلق منها بالمناطق التي يتوفر النفط فيها كمن امثال اقليم الاحواز العربي المغتصب من قبل حكومة فارس، والعراق، وبقية امارات ومشيخات الخليج حيث اشتد الصراع على ذلك منذ اوائل سني الثلاثينات (انظر كتاب المؤلف لونغرغ المعنون: استثمار النفط في الشرق الاوسط ١٩٣٨)

وطبقاً للاتفاق المالي وافقت مملكة العراق، بان لاتتعاقد حول اية ديون خارجية من دون موافقة بريطانيا، وان يتم الاعتراف بمسؤوليتها المالية في تحديد حصتها من الديون العثمانية العامة. وان توافق بان تنقل اليها بعض الاشغال المملوكة للبريطانيين والتي كانت قيمتها تبلغ زهاء سبعمائة الف باون. وكانت تلك الاشغال تشمل على وجه التحديد، املاك سكك الحديد، وميناء البصرة. وكذلك ينبغي اعفاء المواد التي تخص القوات البريطانية من رسوم الكمارك والضرائب الاخرى.

ومع ان الرضا عن توقيع المعاهدة كان اجماعيا لدى الرأي العام العراقي، الا ان الاضطراب العام لم يبدأ الا بعد مرور اربعة اسابيع على التوقيع، وذلك بنتيجة الفتاوي المعادية التي اصدرها علماء الشيعة غير المسالمين ضد المشاركة في انتخابات المجلس التأسيس(١٩)

ومع ان تأثير هذه الفتاوى كان ضئيلا في معظم انحاء العراق،الا انه كان قويا في الفرات الاوسط، حيث توقفت عملية الانتخاب هناك، بعد ان اصدرت ارادة ملكية باجرائها في الحادي والعشرين من شهر تشرين الاول. وفي الشمال كان لتهديدات الاتراك وضغوطهم تأثير مماثل ايضا.

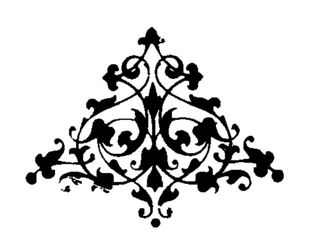
وما ان واجه السيد عبد الرحمن النقيب هذه المصاعب، وعلى الاخص عدوان الاتراك على العراق، وكان في ذات الوقت شيخا مسنا متعبا، ويؤيد الاتراك في قلبه، حتى قدم استقالته من المنصب الذي شغله باخلاص خال من كل الاغراض، فخلفه عبد المحسن السعدون في رئاسة الوزارة التي الفها في اليوم العشرين من شهر تشرين الثاني ١٩٢٢ واحتفظت هذه الوزارة بالوزير السابق ساسون حسقيل، وجاءت بالسيد ناجي السويدي الى وزارة الداخلية، وعبد اللطيف المنديل الى وزارة الاوقاف. وعين عبد الحسين الجلبي لوزارة التربية، واعطيت وزارتا الدفاع والاشغال وكالة الى القائدين العسكريين السابقين ياسين الهاشمي ونوري السعيد(٢٠) وبعد ايام قلائل انتقل ناجي السويدي الى وزارة العدل حيث تخلى عنها رئيس الوزراء لكي يحتفظ بوزارة الداخلية وكالة(٢١)

(١٩) صدرت الفتاوي لمقاطعة انتخابات المجلس التأسيس من لدن اربعة عشر عالما في مقدمتهم كل من محمد حسين الغروي النائيني، وابي الحسن الموسوي الاصفهاني، ومحمد مهدي الكاظمي الخراساني الخالصي،وقد اصدر الاصفهاني فتوى جديدة قال فيها «ان هذا الانتخاب يميت الملة الاسلامية فمن انتخب بعدما علم بتحريم الانتخاب حرمت عليه زوجته وزيارته ولايجوز رد السلام عليه ولايدخل حمام المسلمين (الوردي: الجزء السادس ص٢٠٣)

(٢٠) عين ياسين الهاشمي وزير الاشغال والمواصلات وكيلا لوزارة الاوقاف في الخامس والعشرين من الشهر ذاته. وكان عبد المحسن السعدون قد طلب تعيين عبد المحسن شلاش وزير الاشغال والمواصلات فلما اعتذر هذا عن القبول عهد بتلك الوزارة الى ياسين الهاشمي.

(٢١) ذكرت المس بل في احدى رسائلها ان السعدون والسويدي والمنديل قد راجعوها وطلبوا اليها ان تقنع المندوب السامي بالموافقة على نقل ناجي السويدي من وزارة الداخلية وتسليم هذه الوزارة وكالة الى عبد المحسن السعدون، (وقد طلبوا الي بان

ولقد التزمت الحكومة الجديدة بقبول المعاهدة، وبدعوة المجلس التأسيس الى الانعقاد، وبالدفاع عن وحدة الاراضي العراقية ازاء الادعاءات التركية، التي اشتد التأكيد عليها الآن بصفة مكشوفة.



اهيْ ذهن المندوب السامي لهذا الاجراء الذي وافقت عليه حالا وذلك لان محسن السعدون سيكون افضل من ناجي السويدي في توليه منصب الداخلية، لان السعدون اقل تأثرا بالمؤثرات السياسية•ولقد وافق السربرسي على ذلك واجريت التعيينات الآن ELIZABETHBURGOYNE: GERTRUDEBELLFROM HERPERSONA LPAPERS1914 1926 P 307 اليزابث بورغوين غرترودبل من رسائلها الشخصية ١٩١٤ ١٩٤٦ ص ٣٠٧ .

٢ ـ التهديد الموجه الى الموصل

لم تورد اوائل ربيع سنة ١٩٢٢ في الواقع اية انباء مريحة عن المناطق الكردية والحدود التركية. ففي السليمانية طالبت بعض الفئات بعودة الشيخ محمود، وفي بشدر كان العنصر المستقل تحت زعامة شخصية شهيرة هو «بابكراغا»[١] يلاقي مقاومة من القسم المؤيد للاتراك. وفي منتصف شهر اذار من تلك السنة ظهر قائمقام تركي جديد في راوندوز[٢] وفي اثره قوات يقودها القائد الشهير «علي شفيق» الملقب «يوز دمير» اي «الكتف الحديدية» لتعلن افتتاح الاتراك للولاية مجددا.

واخيرا في شهر ايار انتشرت القلاقل التي وقعت في مناطق عشائر «زنكنه» الى مناطق عشائر «الهماوند» التي ماتزال متمردة. ولم يلبث رئيسها «كريم فتاح» ان رتب عملية اغتيال اثنين من الضباط البريطانيين هما النقيب «ماكانت» و النقيب «بوند»[٣] وبذلك وطد مركز الاتراك في راوندوز. غير ان محاولة هؤلاء توسيع الحركة ضد البريطانيين، او ضد حكومة بغداد، قد اوقفت في ذات اللحظة، وذلك على اثر ارسال رتل من قوات المرتزقة، وطائرات من القوة الجوية البريطانية، في ذات الوقت الذي كان فيه «سمكو» رئيس «شكاك» و «طه النيري» قد تخليا، لاغراض خاصة عن اشعال نيران الثورة على الحدود.

ولكن ما ان انسحبت القوات البريطانية حتى تقدم الاتراك مرة اخرى فاحتلوا مدينة «رانية» واصبحوا على اتصال بمنطقة بشدر المتحررة ، حيث اجبرت الاحوال التي نشأت ، البريطانيين عَلى ان يخلوا رعاياهم من السليمانية بواسطة الطائرات ، وان يتركوا الامر فيها الى المجلس الذي

---

(١) هو ابن سليم اغا رئيس عشيرة «نور الدين) في قضاء بشدر وكان من المؤيدين للحكومة العراقية والمعارضين لعودة الاتراك.

(٢)

(٣) كريم فتاح الهماوندي كان يسيطر على منطقة جمجمال في اول الأمر ومالبث ان انسحب الى دربند بازيان.. للانضمام الى قوات الشيخ محمود وقد وقعت معركة حامية بين جماعة كريم فتاح والقوات الانكليزية في ١٨ حزيران ١٩١٩ تمكن فيها الانكليز من دحر الثوار واسر عدد منهم وكان من بين الاسرى الشيخ محمود نفسه وعمه «حاجي سيد حسن» وكاتبه «محمد طاهر» (الغلامي: ثورتنا في شمال الوطن ص١٠٧) وكان كريم فتاح هو الذي رتب اغتيال النقيبين الانكليزيين «ماكانت وبوند». والاخير كان يشغل منصب معاون الحاكم السياسي في جمجمال. فقد حدث ان ذهب الاثنان الى كريم فتاح في دربند بازيان واذ ذاك اشار الى رجاله بقتلهما رميا بالرصاص وكان النقيب «ماكانت» يتولى آمرية الدرك (المصدر السابق ص١١٠).

برأسه الشيخ عبد القادر شقيق الشيخ محمود. اصبح الان في قدرة الاتراك ان يحتلوا كويسنجق ، وان يهددوا مدينة عقرة،في ذات الوقت الذي لم تكن فيه القوات البريطانية والعراقية، تمسك بشيءْ سوى الخط الداخلي لمدن اربيل – كركوك كفري.

على ان الاندفاع التركي المماثل الذي وقع خلال شهر ايلول ١٩٢٢ باتجاه العمادية في اقصى الشمال ، جيث كانت تجري هناك اعادة توطين الاثوريين. قد لقي مقاومة من العشائر الكردية في المنطقة، وانضمام الاثوريين الى صفوفهم بسرعة. تحت وطأة هذه الظروف وجد المندوب السامي نفسه، ولربما وقع في الخطأ نتيجة القرار الذي اتخذه، ان من الواجب عليه ان يرتب مسألة عودة الشيخ محمود الى السليمانية، وذلك لملئْ الفراغ الذي كانت الحكومة تشعر به هناك ولقد ايد الملك فيصل هذا الاجراء، واستعار من جيشه بعض الضباط الاكراد في الوقت الذي قام فيه المقدم «نوئيل» بمصاحبة الشيخ محمود في عودته

ولكن الشيخ محمود، وعلى النقيض من كل الوعود التي الزم نفسه بها، ما لبث ان اخذ يتراسل مع القائد على شفيق ، الذي كان يصفه بالرجل المتوحش، ويتآمر مع لجنة تركية نشطة في كركوك، الفتها عائلة النفطجي «وبعض التركمان المتمردين، والمطالبة بان يحمل الشيخ محمود لقب الحاكم الاول، وان يعين فيما بعد ملكا على كردستان. في هذه اللحظة، اي خلال شهر تشرين الثاني، تدنى اعتبار الحكومة العراقية وضعفت سيطرتها على الاجزاء الجنوبية من كردستان حتى بلغت الحضيض الى درجة ان السيد «طه النهري» وكان لاجئا الان من موطنه، لم يستطع حتى بمساعدة الحكومة ان يجمع بعض القوات العشائرية ، في الوقت الذي اخفقت فيه الطائرات البريطانية في تشتيت شمل الاتراك الذين احتلوا مدينة رانية.[٤] وفي السليمانية ساد حكم من الارهاب والاضطهاد على يد ما عرف باسم «الحكومة الكردية» حيث ارسلت هذه الحكومة بعثة منها الى بغداد وهي تحمل مطاليب غير واقعية على اعلى المستويات.

تمت مجابهة الحركة الاولى للعدوان التركي على الحدود الشمالية، بتعزيز القوات البريطانية والعراقية في منطقة الموصل،وباقامة الامير زيد في مدينة الموصل ذاتها بصفة موقتة[٥] ذلك ان

---

(٤) تحرك في رانية ضد الانكليز كل من «غفور خان» من عشائر «اكو» وسواراغا» من عشيرة «بيران» ومحمود اغا من عشائر نور الدين. ولما لم يستطع النقيب «باركر» معاون الحاكم السياسي في رانية الوقوف بوجه الحركة غادر رانية مع الحامية التي كانت ترابط فيها وذلك في اواخر ايار ١٩١٩ واذ ذاك قصفت الطائرات البريطانية الثوار في رانية فلجأ عدد كبير منهم الى الحدود الفارسية والتحق اخرون بالشيخ محمود وبذلك استطاع الانكليز احتلال رانية (عبد المنعم الغلامي: ثورتنا في شمال الوطن ص ١٠١ – ١٠٤).

(٥) كان الامير زيد قد وصل الى العراق لاول مرة في شهر تشرين الثاني ١٩٢٢ وفي شهر ايار ١٩٢٣ توجه مع القوات البريطانية والعراقية الى الموصل فاتخذها مقرا له وذلك لغرض اتخاذ الاجراءات اللازمة لكسب شعور الاكراد الى جانب العراق. كما انه الف هناك قوات غير نظامية من افراد العشائر العربية لصد اي اعتداء قد يقع على المناطق الواقعة غربي الموصل (تكوين الحكم الوطني في العراق ترجمة بشير فرجو ٦٩ – ٧٠).

شعبيته التي كان يتمتع بها وزيارته من قبل الملك فيصل شخصيا، قد اديتا الى توحيد الاحاسيس العراقية المناهضة للاتراك.ولكن توفز الاعصاب بقي متواصلا بعد ان كشف الاتراك عن مطاليبهم الحقيقية الواسعة.

وفي اوربا، كانت هدنة «مودانيا» التي انهت الحرب التركية اليونانية في شهر تشرين الثاني، وكذلك المرحلة الدقيقة الحرجة في العلاقات البريطانية التركية، قد اعقبها انعقاد مؤتمر «لوزان الاول». ففي هذا المؤتمر جوبه اللورد كرزن بشخصية عصمت باشا المتحدث باسم تركيا الثائرة والواثقة من نفسها والمنتصرة على الاضطراب وجميع اعدائها(٦)

طالب الاتراك بولاية الموصل اعتمادا على اساس العنصر، والادعاء بان العرب في الموصل قليلون، وان الاتراك كثيرون، وان من النادر تمييز الاكراد عن الاتراك، وانه لاتوجد اسس اقتصادية لان معظم تجارة الموصل تتم مع الاناضول، ولان البريطانيين قد احتلوا الموصل بعد ان اعلنت الهدنة في شهر تشرين الثاني ١٩١٨، وان للموصل حق تقرير المصير، وذلك لان سكان الولاية انفسهم قد طالبوا بعودة الاتراك اليهم.

كان من الضروري لتركيا ان تمنع انفصال اكبر قسم من الشعب الكردي، وتدعه يخضع لهيمنة حكومة اخرى ربما تكون اكثر تحررا،سيما وان الاتراك كانوا قد خططوا سياسة اذابة العنصر الكردي، ومن ثم نفذوا هذه السياسة بشدة وفرضوا الاضطهاد على الاكراد. واستطاع اللورد كرزن ان يفند مسألة عدد السكان التي طرحت في المؤتمر،والتي كانت في الواقع تبعث على السخرية والضحك. فلقد اوضح بصفة ايجابية وضع الجماعات العرقية وعلاقاتها، وصحح الاتصالات الاقتصادية المزعومة، وذلك لان تجارة الموصل كانت تقوم في الواقع مع سوريا وبغداد بصفة غالبة ودائمية، كما انه دحض الادعاء القائم على اساس تقرير المصير، وراح يؤكد مطالبة مملكة العراق برمتها بكل حق لها في ولاية الموصل، واخذ يذكر عصمت باشا بموضوع الانتداب على العراق والذي سبق ان شمل الموصل ذاتها ايضا.وبالنظر الى ما يخص التضاريس الارضية الحادة، والحياة البدائية التي يحياها السكان، فان اللورد كرزن لم يستطع ان يوافق على احتمال اجراء الاستفتاء العام في الولاية بصفة ايسر.

انفض المؤتمر في اليوم الثاني من شهر شباط سنة ١٩٢٣، ومن دون ان يتم حل المشكلة،

---

(٦) مؤتمر لوزان افتتح هذا المؤتمر الذي حضره مندوبون عن الحكومة الامريكية وبريطانيا، وفرنسا. وايطاليا واليابان ورومانيا ويوغسلافيا وتركيا، في العشرين من تشرين الثاني ١٩٢٠ وقد تم التوقيع على معاهدة لوزان في ٢٤ تموز ١٩٢٠، وتضمنت المادة الثالثة منها حدود تركيا مع سوريا والعراق. والتي تقول «سوف يعين خط الحدود بين تركيا والعراق باتفاقية ودية تعقد بين تركيا وبريطانيا خلال تسعة اشهر... وتتعهد الحكومات التركية والبريطانية تعهدا متبادلا بانه الى حين التوصل الى قرار حول موضوع الحدود لن تحدث حركة عسكرية ولا اية حركة اخرى قد تغير بطريقة ما حالة الاراضي الراهنة التي يتوقف مصيرها النهائي على ذلك القرار». وكانت المادة الاولى من معاهدة لوزان قد نصت على انهاء حالة الحرب مع تركيا واعادة السلام معها.

ورفض الاتراك بصفة مطلقة العرض الذي تقدم به اللورد كرزن،او التهديد بالاشارة الى قضية تحكيم عصبة الامم في الموضوع. سارت الجمعية الوطنية التركية في اوائل شهر نيسان من هذه السنة قدما في منح المغامر الامريكي الاميرال جستر[٧] الباحث عن الامتيازات، امتيازا بمد خط حديدي،والتنقيب عن المعادن حتى داخل حدود العراق غير انه في مؤتمر لوزان الثاني الذي انعقد في اليوم الثالث والعشرين من شهر نيسان ١٩٢٣ قد ظهرت مجالس اكثر حكمة. فالضغط البريطاني لاحالة قضية الموصل الى عصبة الامم لاصدار قرار عنها، كان يمثل خطوة متجاوبة تماما مع الرأي العام العالمي برمته آنذاك،بحيث لم يعد مستطاعا مقاومة مثل هذه الخطوة.

تمسك عصمت باشا» بكل ادعاءاته، لكنه وافق على القول بانه اذا ما اخفق الاتفاق الانكليزي التركي خلال اثنى عشر شهرا (انقصت هذه المدة الى تسعة اشهر فيما بعد) فانه يطلب حينذاك تحكيم مجلس العصبة في النزاع.

ظل البحث عن اتفاق من هذه الشاكلة والذي جرى تعقبه في مؤتمرات حضرها السربرسي كوكس في اسطنبول خلال شهري ايار وحزيران سنة ١٩٢٤، امرا عديم الجدوى. ذلك لان ايامن الجانبين لم يظهر اي تساهل، وازاء التردد الواسع الذي اظهرته تركيا،اقدمت بريطانيا على احالة المشكلة الى مجلس عصبة الامم مرة اخرى،وكان المقرر ان ينعقد مجلس العصبة في اليوم العشرين من شهر ايلول سنة ١٩٢٤

لم تنتج كل هذه التحركات الدبلوماسية في اوربا شيئا ما، لكنها في الوقت ذاته ادت الى توحيد الحركة والعنف في كردستان. فقد اخذ الشيخ محمود يساند رفاقه القتلة على غصب ممتلكات اولئك الذي فقدوا النصير من الافراد،واخذ يعلن ترحيبه بالضباط الاتراك في السليمانية، وبعث بمندوبيه الى كركوك للتشاور مع التركمان المحليين، واكثر من هذا انه ارسل مندوبين من لدنه حتى الى الشيعة في كربلاء والنجف لينال مساعدتهم اياه.

واذ رفض الشيخ محمود اوامر المندوب السامي بان يؤكد وجوده في بغداد، فقد هرب من السليمانية بفعل قنابل القوة الجوية البريطانية، والتجأ الى سردشت بكل ما استطاع ان يجمعه من الاموال والانصار.ولكن الشدة التي اظهرتها طائرات القوة الجوية البريطانية قد حالت دون دخول عصابات الشيخ محمود الى السليمانية لاعادة احتلالها. كذلك اجريت الاتصالات مرة اخرى مع اخيه الشيخ عبد القادر.

---

(٧) الاميرال جستر اول المغامرين الامريكان الذين حاولوا الحصول على امتياز بالبحث عن النفط في تركيا والعراق في سنة ١٨٩٩ ثم جدد محاولاته تلك في عهد الاتحاديين وحصل منهم على وعد تحريري لمنح الامتياز المذكور. لكن الاتفاق لم يوقع عليه نتيجة قيام الحرب بين تركيا وايطاليا واحتلال ليبيا في سنة ١٩١١ (انظر كتابنا معركة النفط في العراق ج ١ ص ١٤ – ٢٥).

وهنا وجدت عشائر الجاف وغيرها منتهى المسرة في الانفصال عن نفوذ «حكومة السليمانية»

وعلى الحدود الشمالية كانت معاملة الاتراك للأكراد الساكنين هناك في اراضيهم تؤكد في داخل الحدودة العراقية – وجود المقاومة التي ابداها الاكراد بوجه عودة الاتراك•لقد كانت معسكرات الاتراك في نصيبين وجزيرة ابن عمر، تثير الفزع، وظل استمرار احتلال القوات التركية لرواندوز يؤلف مصدر مؤامرات عدوانية داخل العراق.

اما في الاراضي المتنازع عليها خارج الحدود، فقد اخذ توطين الاثوريين يسير فيها قدما، اذ بنيت مئات المنازل لهم في مناطق دهوك والعمادية وزاخو، بينما استقر اخرون منهم في موطنهم الاصلي منطقة «تياري»[٨] والبلاد المجاورة لها. واكثر من هذا ان الاثوريين ما ان اخذوا يحاولون التوطن في اوائل سنة ١٩٢٣ حتى جوبهوا بهجمات من قبل اغوات «الاورمار» في العمادية، مع ان الاثوريين ساعدوا في صد الهجمات التركية وهجمات الزيباريين على العمادية ذاتها.

تمت استعادة مدينة راوندوز من ايدي الاتراك بعملية عسكرية احسن اداؤها ، وشارك فيها الجيش العراقي، وقوات المرتزقة وقوات الشرطة، وذلك في شهر نيسان سنة ١٩٢٣، حيث شهدت المنطقة هبوطا في النفوذ التركي فيها. فلقد تم تعيين «سيد طه النهري» قائمقاماً لراوندوز، وعزز بحامية من قوات المرتزقة تمركزت فيها. اما الرتل الذي كان قد استعاد راوندوز فانه قد تقدم مرة اخرى نحو السليمانية. وبعد ان قلصت مدة المعاهدة باربع سنوات طبقا للبروتوكول الذي الحق بها، اصبح من اللازم الان وضع الترتيبات المسبقة للمستقبل الذي تحتله هذه المنطقة في الدولة العراقية

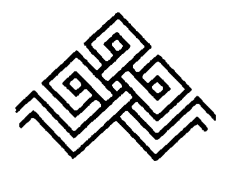
دخلت قوات الجيش العراقي، تؤازرها قوات المرتزقة، مدينة السليمانية في منتصف شهر ايار ، وتم بحث المستقبل فيها مع الاغوات وابناء المدينة المتشوقين الى توطيد السلام، وضمان عمل الحكومة. ونظرا لانه لايمكن الاحتفاظ بقوات هناك فان سلطة المجلس المحلي في السليمانية التي اودعت الى الرتل العراقي الذي دخلها ، كانت قصيرة وانتهت بانسحاب ذلك الرتل من المدينة

كان مستطاعا نقل المناطق البعيدة من عهدة محافظة السيلمانية من امثال جمجمال، وحلبجة، وسنغاو، ووضعها تحت الاشراف المباشر لمحافظة كركوك، على ان تترك المنطقة الضيقة المعرضة للاعمال التي كان الشيخ محمود يمارسها هناك. غير ان الشيخ محمود ما ان انذر بانه قد يتعرض لهجوم تقوم به قبائل الهماوند ضده خلال ايام قلائل قادمة، حتى عاد الى السليمانية في شهر تموز. وحين تجاهل للمرة الثانية امر المندوب السامي البريطاني بالقدوم الى بغداد، استنفرت القوات البريطانية للعمل ضده» وفي فصل الخريف ، وحين كان الشيخ محمود مايزال يأبى الخضوع او الولاء للحكومة البريطانية، دخل مجددا في مراسلات مشجعة مع الاتراك، ووضع الخطط

---

(٨) من مناطق «حكاري» ومنها اشتق الاسم الذي مايزال يطلق على الاثوريين حتى الان حيث يسمون بالتيارية او التياريين نسبة منطقة «تياري». (انظر كتابنا معركة النفط في العراق ج ١ ص ١٤ ٢٥).

لمهاجمة كركوك، والقدم على جباية الضرائب من قرى حلبجة، وجمجمال، وعلى مثل هذه الشاكلة انقضى شتاء سنة ١٩٢٣ ١٩٢٤[٩]



(٩) اشارت المس بل في رسالتها المؤرخة في الاول من اذار الى محاولات الشيخ محمود لمهاجمة كركوك فقالت واني اخشى بانه اذا لم يقم بتسليم الحكم الى الاشراف المحليين، ويخلي مدينة السليمانية، كما امر ان يفعل ذلك، فاننا سنضطر الى ان نقصف المدينة بالقنابل. ان الحرب الجوية فظيعة بشكل مفزع ولكن عندما تتقلص قواتك البرية الى مجرد هيكل عظمي ليس الا. فما الذي في مقدورك ان تفعله؟ (بور غوين: المس بل من رسائلها الجزء الثاني ص ٣١٠).

٤ ـ المجلس التأسيسي

اعقب التوقيع على المعاهدة الانكليزية العراقية في اليوم العاشر من شهر تشرين الاول ١٩٢٢ وضع مسودة وتعديلها للقانون الاساسي الذي وعد به.في كل من لندن وبغداد، وذلك بعد ان تم التوقيع النهائي في اليوم الرابع من شهر اذار سنة ١٩٢٤، على الاتفاقات الاضافية الملحقة، وقبول بروتوكول المعاهدة الذي سبق اعداده تلك الاتفاقات بعدة اشهر. ولقد جاء وضع هذا البرتوكول اولا نتيجة ازدياد تاكد البريطانيين من «المشاعر التي اظهرها العراقيون ازاء قضايا الانتداب، وثانيا من تعاظم ضغط الصحافة والرأي العام في بريطانيا على الحكومة البريطانية، وبصفة خاصة على السيد «بونار لو» رئيس الوزراء البريطاني المقبل، بقصد تقليص النفقات والالتزامات البريطانية في العراق. ومالبث هذا البروتوكول ان اعيد الى بغداد على يد السر برسي كوكس من لندن، وذلك خلال شهر اذار ١٩٢٣، حيث وقع كوكس نفسه على ذلك البروتوكول مع السيد عبد المحسن السعدون في آخر يوم من شهر نيسان.

حظي تقليص مدة المعاهدة من عشرين سنة الى اربع سنوات بالترحيب الحار من لدن الملك فيصل ورجال السياسة على حد سواء، في حين ظل انصار الانكليز من رؤساء العشائر وبعض البارزين وحدهم، غير واثقين من الحكومة العراقية الفتية، ويخشون من منافسيهم، ويعتبرون هذه الحكومة حكومة خائنة.

كان توقيع السر برسي كوكس على البروتوكول آخر عمل قام به في العراق. ففي اعقاب ذلك غادر بغداد في اليوم الخامس من شهر ايار. وهكذا استطاع هذا الرجل بذكائه، وصبره، وتصميمه النافع، ان يقدم خدمات جلى الى الدولة العراقية. اعطي منصب المندوب السامي الى خلف ليس اهلا له، هو السر هنري دوبس الذي خدم في البصرة في اوائل ايام الاحتلال، وكان قد جاء من الهند الى العراق ليعمل مستشارا لدى كوكس في اواخر سنة ١٩٢٣

«لم يحقق التحسن الذي طرأ على الجو السياسي، والترحيب الذي لقيه الملك فيصل في جولاته الناجحة التي قام بها في المناطق الشمالية والجنوبية من العراق، اية وسيلة لتهدئة علماء الشيعة. فلقد تضاعفت تحريضاتهم اللاهبة ضد البريطانيين، والتي ظهر فيها العنصر المؤيد للاتراك

بشكل ظاهر في عدة اوقات، وذلك عن طريق اصدار الفتاوى ضد الانتخابات التي تقرر اجراؤها في شهر حزيران ١٩٢٣ (١)

كان التصادم بين سياسة هولاء الشيعة وسياسة حكومتهم جلياً بارزاً. كذلك أدىٰ حادث وقع في اواخر شهر حزيران في السوق الى التحام النزاع بين اولاد الشيخ مهدي الخالصي، ورجال الشرطة (٢)

كان الملك يرغب ان يأذن باعتقال الأولاد وأَبيهم معا. ولكن جيْ بهم الى البصرة حيث غادروا البلاد ومن هناك توجهوا الى مكة لاداء فريضة الحج.

اغلقت الاسواق في النجف استنكارا لهذا الاعتداء الذي وقع على رجال العلم، الذين تجمع فريق منهم للخروج حانقين من العراق العاق. وقد سار هؤلاء الى كربلاء وصموا اذانهم عن تاكيدات الحكومة، ومن ثم غادروا العراق، باعداد متناقصة، الى كرمنشاه في بلاد فارس. بقي هؤلاء في كرمنشاه ينتظرون بثقة تامة، النتائج التي ستسفر عنها مثل هذه المبادرة المثيرة،ولكن اية نتائج لم تحدث، بل لم يعقب ذلك الحادث ادنى تعليق من مدينتي النجف وكربلاء، في الوقت الذي ابدى فيه الفريق الآخر منهم فرحه بما حدث. اما بالنسبة الى الحكومة العراقية فقد كان ذلك الموقف هو الجواب الحقيقي الذي ردت به على الاحتجاجات التي تقدمت بها الحكومة الفارسية، والتي لم تجد لها اذاناً صاغية في بغداد (٣)

---

(١) المقصود بها انتخابات المجلس التأسيسي.

(٢) شارك ولدا الخالصي، حسن وعلي، في لصق فتاوى تحريم انتخابات المجلس التأسيسي على ابواب صحن المرقد الكاظمي. وحين كان حسن يروم الصاق احدى الفتاوي على باب القبلة في المرقد حاول احد افراد الشرطة القاء القبض عليه، لكن حسن الخالصي هتف بالناس «اقتلوا هذا الرجل انه كافر يهودي» فامسك الحاضرون بذلك الشرطي وطرحوه ارضا واستل حسن سكينة من جيبه وقال للشرطي «سوف اقتلك» لكن الشرطي استطاع الافلات والعودة الى مركز الشرطة، واذ ذاك اقدمت ثلة من الشرطة يقودها المعاون عبد الرزاق الفضلي فالقت القبض على حسن وعلي ولدي مهدي الخالصي. ونظرا لان اكثرية مجتهدي الشيعة كانوا من اصل فارسي، والبقية منهم يحملون الجنسية الفارسية تخلصا من الخدمة العسكرية، فقد اجرت الحكومة تعديلا في قانون العقوبات البغدادي في التاسع من حزيران، وجوز هذا التعديل للحكومة حق نفي الاجانب من العراق، ولما كان السيد مهدي الخالصي فارسي الاصل ومن مدينة خراسان، فقد توفرت لدى الحكومة وسيلة قانونيه لابعاده هو واولاده عن العراق، حيث تم القاء القبض عليه في ساعة متاخرة من مساء يوم ٢٦ حزيران في داره واركب سيارة نقلته الى محطة القطار حيث اعد قطار خاص نقله مع ولديه واثنين من تلاميذه «سلمان الصفواني» الذي كان يعرف باسم سلمان القطيفي، وعلي فقي، الى البصرة، حيث تم نقلهم بالباخرة «فاسنا» الى بومباي، ومن هناك اعدت باخرة ثانية نقلتهم الى عدن ومن ثم ركبوا باخرة ثالثة الى جدة (انظر تفاصيل ذلك لدى علي الوردي ج ٦ ص ٢١٨ ومابعدها).

(٣) اعلن المجتهدون في النجف انهم متضامنون مع الخالصي وان نفيه اهانة للدين واهله، وصمموا على الهجرة من العراق احتجاجا على ذلك. توجه هؤلاء من النجف الى كربلاء فاعدت لهم خيمة نزلوا فيها هناك ومنع اتصال الاهالي بهم حاول محافظ كربلاء «مولود مخلص» التفاهم معهم واقناعهم بالعدول عن السفر، ولكنهم اصروا على ذلك واذذاك اذنت الحكومة للمحافظ بان يسمح بسفر الفرس، ووضع العراقيين من المجتهدين تحت مراقبة الشرطة وعدم السماح بسفرهم الى بلاد فارس. وفي اليوم الاول من تموز تم تسفير الفرس من المجتهدين وهم ابو الحسن الاصفهاني، وحسين النائيني، وجواد الجواهري، وعلي =

كذلك لم تجد نفعا الزيارة التي قام بها الوزير البريطاني في طهران للعراق لغرض الوساطة. وبعد اتصال عملي قام به المتحدثون باسم الدين من الشيعة، مع رئيس الوزراء في شهر تشرين الثاني، وادعائهم بحدوث تغيير في التفكير والسياسة، تم السماح لزملائهم الذين اختاروا المنفى بانفسهم، بالعودة الى العراق على شرط ان يتخلوا عن الامور السياسية بعد ذلك. وهكذا عادت نفس الجماعة التي خرجت، بالدخول الى العراق في شهر نيسان سنة ١٩٢٤، ومع ان هذه الجماعة مازالت تحتفظ بنفوذها، الا انها لم تستطع ان تسترجع سيطرتها القديمة على شؤون البلاد.

وما ان تم تطهير الميدان على هذه الشاكلة، حتى اصبح في مستطاع ماكنة الانتخابات ان تباشر عملها. اما الاضطراب الذي نشأ بين الاكراد والتركمان الساكنين في كل من كركوك واربيل، حول اقامة حكومة عربية، فقد استطاع المندوب السامي ان يهدأه، كما تم توضيح بعض الغموض الحاصل في الاحكام القانونية التي تخص تمثيل العشائر. ذلك لان افراد العشائر، الذين كانوا يخضعون لسلطة وزير العدل، في مستطاعهم ان يسجلوا اسماءهم بصفة ناخبين اعتياديين، بالاضافة الى تمتع الممثلين المحددين لهم، بعشرين مقعدا. ولذلك جعل هذا الامتياز الجديد الذي ناله افراد العشائر الذين لم توفر لهم مفاهيمهم التركية اي صوت على الاطلاق، جعل ابناء العشائر يمقتون المحافظين في الولاية والمنتمين الى الحزب الحر المعتدل الذي يتزعمه السيد محمود النقيب، كما انهم اثاروا الشقاق فيه مما ادى الى زواله.

استطاع الناخبون في السليمانية، والذين سجل البعض منهم في كركوك رغم ان مقر مدينتهم الخاصة بهم كان خارج نطاق السيطرة انذاك، ان يكملوا اوراق الانتخابات في محافظتهم، وان يختاروا نوابهم، بعد ان تم احتلال مدينة السليمانية مرة اخرى في سنة ١٩٢٤ وفي منتصف شهر اذار من تلك السنة كانت الاجراءات الخاصة بعملية الانتخابات الاولية والثانوية قد كملت.

وصلت وزارة السيد عبد المحسن السعدون في شهر تشرين الثاني الى مرحلة الاحتضار التي تسبق النهاية. وكان سبب ذلك هو الخلاف مع العناصر الشيعية، والى وجود شيء من عدم

= الشهرستاني، وعبد الحسين الشيرازي، ومهدي الخراساني، وحسن الطباطبائي، وعبد الحسين الطباطبائي. كذلك تم تسفير الشيخ محمد [illegible] من الحلة في مساء اليوم الثاني من تموز نتيجة اقدامه على تحريض الناس على التظاهر احتجاجا على تسفير اولئك الفرس (علي الوردي المصدر السابق ص٢٢٨ ومابعدها) توجه النازحون الى كرمنشاه فمكثوا فيها شهراً وقد ابرق القنصل البريطاني في [illegible] ، الى رئيسه الوزير البريطاني المفوض في طهران السر برسي لورين يصف له وضع المنفيين الذين اعلنوا امام الناس انهم [illegible] الى العراق الا بشروط منها عزل الملك فيصل وزعموا بان لديهم رسائل من رؤساء العشائر الكبار يؤيدونهم في مطلبهم [illegible] هناء انتقل النازحون الى «قم» وحاول السفير البريطاني في طهران اقناع حكومة بغداد بالسماح للنازحين بالعودة [illegible] ذلك (ذات المصدر ص ٢٣٧) كان عدد المهاجرين الى فارس ثلاثين شخصا، وعدد الذين منعوا من السفر [illegible] وقد توفي الشيخ مهدي الخالصي في خراسان في العاشر من نيسان ١٩٢٥ ودفن بجوار الامام علي بن [illegible]

الاتفاق مع الملك[4] واذذاك دعا الملك، جعفر العسكري الذي عاد من جنيف، وعين محافظا للموصل لبضعة ايام قيمة، لتأليف وزارة ينبغي لها ان تواجه المجلس التأسيسي. وما ان قبل بهذه المهمة حتى احتفظ باثنين من الوزراء الشيعة، احدهما الحاج محسن شلاش لوزارة المالية[5] كما اعطى وزارة الداخلية الى علي جودت الايوبي، وهورجل عصري الفكر ومن الضباط السابقين كان قد عهد اليه بوكالة محافظ الحلة. ومن ثم اكمل العسكري وزارته باستيزار كل من صبيح نشأت، ونوري السعيد، والشخصيتين البارزتين من الموصل والبصرة وهما احمد الفخري والشيخ صالح باش اعيان، لوزارات اخرى، في حين تم ابعاد ساسون حسقيل لاول مرة[6]

حققت الزيارة الرسمية التي قام بها الملك، في شهر كانون الاول من تلك السنة لكل من كربلاء والنجف، نجاحا كبيرا. كذلك رفع اطلاق الملك حسين على نفسه لقب «الخليفة» في شهر اذار ١٩٢٤، بعد الغاء الخلافة العثمانية، وهو اللقب الذي كان سلطان تركيا يلقب به في خطبة الجمعة، من اعتبار العائلة المالكة، وقوبل برغبات مدهشة من الشيعة والسنة على حد سواء.

تم افتتاح المجلس التأسيسي بخطاب احتفالي القاه الملك في اليوم السابع والعشرين من شهر اذار. ولقد امضى المجلس، تحت رئاسة عبد المحسن السعدون، في تنفيذ مهمته الاولى، وهي التصديق على المعاهدة العراقية الانكليزية وعلى البروتوكول الملحق بها. وبدا بان الاغلبية المؤيدة للمعاهدة، كانت مؤكدة، وانها كانت حاضرة في البداية، ولكن الجو سرعان ماتغير. ذلك لان الشدة التي انطوت عليها المعاهدة، ولاسيما ما تعلق منها بالاتفاق المالي، قد اكدتها اصوات المعارضة وزادت من التهويل بشأنها، وسرعان ماتمت تعبئة كل الاحاسيس التي تقاوم الانتداب.

لقد انسحب النواب الاكراد، لاسباب خاصة بهم، من المناقشات، ولم يعد نواب الموصل يفكرون في شيء سوى الخطر الذي كان يتهدد ولايتهم[7] اما رؤساء العشائر الذين كانوا يتحركون في عالم غريب بالنسبة اليهم، فانهم قد رأوا كل ذلك وسنحت لهم الفرصة المتاحة للمساومة على تأييدهم لقضية المعاهدة، لقاء منافع شخصية اوعشائرية. وسرعان مابرز القوميون من المحامين والساسة في المجلس التأسيسي، عنصرا واثقا من نفسه ونشطا، حيث شنوا حملة من الاصرار على تحقيق التغييرات الكبرى، بل التغييرات الاساسية في الواقع، في بنود المعاهدة، ومن

---

(٤) يبدو ان استفحال الضائقة الاقتصادية كان من الاسباب التي قللت من ثقة الملك فيصل بوزارة السعدون وقد ذكرت المس بل في رسالة لها مؤرخة ٣١ تشرين اول ان الملك قد اثار ازمة وزارية كعادته، وان تأثر الملك من هذه الوزارة، وهي حسنة على العموم، ليس معقولا (بورغوين ص ٩١٣).

(٥) اما الثاني فهو وزير التربية المزمن عبد الحسين الجلبي.

(٦) اعيد استيزار ساسون حسقيل بعد سقوط وزارة العسكري، وذلك في الوزارة الهاشمية الاولى التي تألفت في اليوم الثاني من شهر اب ١٩٢٤ ولم يستوزر بعد ذلك ابدا.

(٧) يقصد بهذا الخطر استمرار الاتراك في مطالبتهم بضم ولاية الموصل الى تركيا، اضافة الى حوادث الشغب التي احدثها الاثوريون في تلك الفترة.

ثم اعقب ذلك، التهويل المبالغ فيه، واثارة العنف الكلي في النهاية. لقد جرح اثنان من انصار المعاهدة جراحا عميقة في الشوارع[8] وهدد اخرون غيرهم بالموت.

وبلغ الارهاب الذي اثير عمدا خارج بناية المجلس، حدودا كانت خارج نطاق سيطرة الشرطة، مما استدعى انزال قوات الجيش لصيانة الامن[9]

كرس المندوب السامي، ولكن بنجاح ضئيل، جهودا وطيدة لعرض الطبيعة الاساسية للمعاهدة، وللحقائق المتعلقة بوضع العراق. فقد اوضح التزامات بريطانيا المقبولة ازاء عصبة الامم، واعطى تأكيدات حول ادخال تعديلات على المعاهدة فيما بعد، تكون في صالح العراق. غير ان عشرات اللقاءات التي جرت بين المندوب السامي، والملك ورئيس الوزراء، وكورنواليس، وياسين الهاشمي وزعماء المعارضة، لم ينتج عنها وضع قاعدة يمكن بها مصالحة «الوطنيين»[10] لغرض المصادقة على المعاهدة. وأخيراً أعلن المندوب السامي «هنري دوبس» بأن رفض العراق للمعاهدة، كما ظهر الآن بصفة حتمية، لابد من عرضه – مع كل الاسف – على عصبة الامم في اجتماعها المقبل، الا اذا حصل التوقيع على المعاهدة في اليوم العاشر من شهر حزيران، وان على بريطانيا حينذاك، ان تبحث فيما بعد ذلك التأريخ عن وسائل اخرى، بدلا من المعاهدة الودية السخية، لانجاز مهمتها الانتدابية. ولقد بقي موقف هنري دوبس ثابتا، ازاء هذه النقطة، ورفضه المساومة اوادخال تعديلات على المعاهدة.

ومثل اي يوم اخر سبقه، امتلأ اليوم العاشر من حزيران بالانشقاقات، والخضوع، والتحذيرات، والرفض. ولكن حتى بعد ظهر ذلك اليوم لم تظهر اية نتيجة، وحينذاك رفض «دوبس» رفضا قاطعا، تأجيل الموعد الى اربع وعشرين ساعة اخرى. وقبل منتصف الليل نجح رئيس الوزراء جعفر العسكري في اقناع تسعة وستين من مجموع مائة من اعضاء المجلس التأسيسي الذين حضروا القاعة. وفي النهاية تم الحصول على سبعة وثلاثين صوتا في عدم تعديل المعاهدة، واربعة وعشرين معارضا لها، وتغيب ثمانية نواب، كان تغيبهم دون شك، نتيجة التخويف.

---

(٨) هما عداي الجريان وسلمان البراك وقد تغيب بعض انصار المعاهدة عن الجلسات اثر ذلك من الخوف.

(٩) في الثاني من نيسان ١٩٢٤ قدم جعفر العسكري رئيس الوزراء الى عبد المحسن السعدون رئيس المجلس التأسيسي، نص المعاهدة وملحقاتها بكتاب مستفيض حيث جرت المناقشة عليها في ذلك اليوم ولكن المعارضة للمعاهدة تفاقمت وتعاظمت بما كان يعقد من اجتماعات جماهيرية وينشر من مقالات في الصحف المعارضة، وعلى اثر ذلك صدرت تأكيدات من الحكومة البريطانية ومن المندوب السامي في بغداد بأن المعاهدة المذكورة ستكون بدلا عن نظام الانتداب الذي فرضته عصبة الامم على العراق. كما صدرت من مجلس الوزراء عدة بيانات بان المجلس التأسيسي لن «يفرط بحقوق الشعب مهما كانت الاحوال». ووصل انذار من سكرتير عصبة الامم الى العراق بضرورة المصادقة على المعاهدة قبل عقد الاجتماع المقبل لمجلس العصبة في الحادي عشر من حزيران ١٩٢٤! اضافة الى الانذار الذي وجهته الحكومة البريطانية بهذا الشأن، واذذاك تقرر جمع المجلس التأسيسي ليلا فحضر الجلسة ٦٨ نائبا وتغيب عنها ٣٢ نائبا، وفي هذا الاجتماع تمت المصادقة على المعاهدة.

(١٠) كتب المؤلف كلمة «وطنيين» باللفظ العربي وبالحروف الانكليزية WATANIS .

كان قبول المعاهدة، وحتى وان صودق عليها بمثل هذه الطريقة الشاذة بشكل مؤسف، قد تمت احاطته بشروط وجد جعفر العسكري ان من اللازم ان يحددها، وهي ان على الحكومة البريطانية ان تفي بتعهداتها وتأكيداتها بتعديل الاتفاق المالي لصالح العراق، وان يسارع ملك العراق في التفاوض مع الحكومة البريطانية في سبيل هذه الغاية، والا فان المعاهدة برمتها سوف تكون ملغاة و باطلة «اذا ما اخفقت الحكومة البريطانية في صيانة حقوق ولاية الموصل بكاملها».

اعقبت الايام والليالي العاصفة لتصديق المعاهدة في العراق وعلى نطاق واسع، فترة هدوء نسبي، ذلك الهدوء الذي اصبح فيه كل عنصر معارض للمعاهدة او للبريطانيين خامدا لكنه مايزال حيا.

اما في المجلس التاسيسي فان ورود فقرة سلمية في القانون الاساسي، وفي قانون الانتخاب، قد دللت على الخوف الجامح الذي احاق بالنواب. كان القانون الاساسي، وهو نتيجة تامة ومعقولة لاعادة وضع مسودته بصفة متكررة، يمنح العراق دستورا شبه ثابت، يعلن بان العراق دولة ذات سيادة، مستقلة وحرة، ذات ملكية وراثية ودستورية، وحكومة ممثلة توطد حقوق الشعب والتاج، والتشريع، والوزراء، وتؤسس المحاكم، وتنظم المسؤليات المالية والادارية.

اما قانون الانتخاب فانه يمنح حق التصويت لكل شاب عراقي يدفع الضرائب، ويشترط لذلك ان يكون الانتخاب اوليا وثانويا حيث ينتخب الناخبون الثانويون، بنسبة واحد من كل مائتين وخمسين من الناخبين الاوليين، نائبا يمثل عشرين الفا من الناخبيين، وينبغي على النائب ان يكون منتميا الى ذات الدائرة الانتخابية المؤلفة من مجموع من المحافظة، بصفة ناخب. وكان هناك تمثيل منفصل يتمتع به افراد العشائر، والاقليات اليهودية والمسيحية في كل من محافظات بغداد، والبصرة، والموصل.

وفر حل المجلس التأسيسي، الفرصة التي كان جعفر العسكري يبحث عنها للاستقالة من رئاسة الوزارة. وفي اليوم الثاني من شهر اب تألفت وزارة جديدة برئاسة ياسين الهاشمي، فاذا بهذه الوزارة تجابه بقضايا الحدود الشمالية، وبالصعوبات المالية الملحة. تم استدعاء عبد المحسن السعدون لتولي وزارة الداخلية، وساسون حسقيل لوزارة المالية، واعطيت وزارة العدل لمحام شاب نشط وحاذق ومن اسرة طيبة، لكنه كثير القلق والتسرع، هو رشيد عالي الكيلاني، بينما عهد بوزارة المواصلات والاشغال الى عضو اصغر من اسرة الباجه جي، مؤثر وغير قاصر، هو مزاحم، واعطيت وزارة التربية الى سياسي ومتعلم هو رضا الشبيبي، في حين اعطيت وزارة الاوقاف الى شيخ الاسلام السابق والذي عاد مؤخرا من اسطنبول ونعني به ابراهيم افندي الحيدري [١١]

---

(١١) هو حفيد المرحوم ابراهيم فصيح الحيدري، المتوفي في سنة ١٨٩٦، من كبار العلماء والذي وضع مؤلفاً شهيرا عظيم الفائدة سماه (عنوان المجد في بيان احوال بغداد والبصرة ونجد) وقد صدرت طبعة ركيكة غير منقحة لهذا الكتاب في سنة ١٩٦٤ ببغداد وهناك الآن حاجة قصوى الى اخراج طبعة منقحة وموثقة لهذا الكتاب.

تولى رئيس الوزراء نفسه منصب وزير الدفاع، بالاضافة الى وزارة الخارجية التي انشئت حديثا،وذلك وفقا لتلميح موقوت، في حين تولى نوري السعيد منصب رئيس اركان الجيش الذي كان الملك على رأسه بصفة اسمية. وفي السابع عشر من شهر تموز قدمت الحكومة البريطانية الى مجلس عصبة الامم، اداة تجسد بها احكام وشروط كل الوثائق التي يتم الآن التصديق عليها فيما بينها وبين العراق. ولقد قبلت تلك الوثائق من لدن عصبة الامم في اليوم السابع والعشرين من شهر ايلول ١٩٢٤، مقرونة بشرط ينص على تقديم تقرير سنوي من لدن بريطانيا الى عصبة الامم حول وصايتها على العراق، على افتراض ان تتحمل الحكومة البريطانية، المسؤولية التامة عن تنفيذ المعاهدة، وعن التهرب عن تعديل المعاهدة بكاملها من قبل البريطانيين او العراقيين، من دون رضا عصبة الامم. ولقد صادق الملك جورج على المعاهدة في اليوم العاشر من شهر تشرين الثاني، كما صادق عليها الملك فيصل في اليوم الثاني عشر من شهر كانون الاول ١٩٢٤



٥ ـ تسوية قضية الموصل

في محافظة السليمانية البعيدة عن ضغوط بغداد، اخذ حلم انشاء دولة، اي نظام حكومة كردية،تحت زعامة الشيخ محمود، والتي خربت الريف وارغمت السكان على الهجرة من المدينة، يتجه الى نهايته في ربيع سنة ١٩٢٤ ذلك ان قضائي جمجمال وحلبجة، اللذين لم يعد مستطاعا الآن ادراتهما من كركوك، قد انتخبا للمجلس التأسيس نوابا، كان من بينهم شقيق الشيخ محمود. كان الشيخ محمود قد تجاهل مرة اخرى الانذار الذي وجه اليه، وحذر بانزال العقاب فيه، وهو الانذار الذي وجه بشكل مغاير وعلى اسس انسانية، الى سكان القرى، والقاضي بانه سيتم قصفها في آخر مرحلة. وطبقا لذلك توجهت احدى طائرات القوة الجوية في اواخر شهر ايار ١٩٢٤ بزيارة المدينة، حيث ارغم الشيخ محمود في النهاية على مغادرتها، وعلى هذا الاساس دخلت قوات المشاة والخيالة من الجيش العراقي، الى جانب قوات المرتزقة، مدينة السليمانية في شهر تموز، واخيرا تم استئناف الادارة فيها من قبل الحكومة العراقية، التي استطاعت ان توفر الاموال اللازمة لمعالجة الاوضاع السيئة القائمة هناك

اصبح في مستطاع سكان معظم الاجزاء غير المأهولة من مدينة السليمانية ان يعودوا الى بيوتهم بمعونة مجددة. وفي نهاية تلك السنة زاد عدد السكان في المدينة الى عشرين الف شخص. اما الشيخ محمود الذي اخذ يختبئ في القرى الجبلية، ويجتاز الحدود الى الاراضي الفارسية ويعود منها، فقد ظل يحتفظ بعصابة من الشقاة

وعلى الحدود الشمالية، ادت اعادة توطين بضعة آلاف من الاثوريين العائدين الى مواطنهم الجبلية القديمة، الى حدوث الاضطراب وذلك بعد مرور سنتين على اعادة توطيهم بصفة سلمية، ذلك لان المنطقة المعينة لهم كانت تقع تماما شمالي الحدود القديمة للولاية، ولكنها داخل منطقة طالبت الحكومة البريطانية بضمها الى العراق كي تصبح ضمانا لاعادة توطين الاثوريين فيها

ادى اقدام الآثوريين على اعتقال الوالي التركي في «جلمرك» حين كان يقوم بزيارة قرية «جل» في شهر تموز [illegible] ثم اخلاء سبيله. الى تو[illegible] [illegible]ام بشكل قاطع عبر الحدود، حيث اعقب ذلك بقدام القوا[illegible] [illegible] [illegible]ال الا[illegible] العراقية

نهر «الهيزل». غير ان هذه القوات سرعان ما تم اخراجها بفعل القوة الجوية البريطانية ومساعدة الاثوريين، لكن القوات التركية مالبثت في طريق انسحابها ان هاجمت القرى التي يسكنها الاثوريون واحرقتها، اضافة الى عدد من مراكز الشرطة العراقية. لم تجد الاحتجاجات الاعتيادية المتبادلة، ولاالمناقشات التي جرت في «جنيف» نفعا، في الحيلولة دون وقوع اعمال الانتقام الفظيعة، وتدمير القرى الكردية والاثورية عند الحدود.وعلى اثر ذلك بدأت اعمال الاغاثة، واسكان المشردين بمساعدة من الحكومة العراقية

عقدت الجلسة الثلاثون لمجلس عصبة الامم في جنيف، وبعد اليوم العشرين من شهر ايلول، استمع المجلس الى المجادلات الاعتيادية التي تحدث بها الناطقان باسمي الحكومتين التركية والبريطانية، «فتحي بك» و «اللورد بارمور».وتم تقديم ذات الادعاءات التأريخية، والعرقية، والاقتصادية، والستراتيجية، والسياسية، فجوبهت تلك الادعاءات، بذات التفنيدات والادعاءات المضادة

لم يظهر اي اثر للاتفاق او التفاهم. وكان القرار الذي قبل به الطرفان في النهاية، يشترط ارسال بعثة الى الموصل تقوم بها لجنة من عصبة الامم، لغرض تقصي الحقائق، ويكون حكم هذه اللجنة، اذا ماصادق عليه مجلس العصبة، مقبولا من كلا الفريقين. وفي الوقت ذاته كانت البرقيات التي وصلت الى جنيف وتضمنت اتهامات متبادلة حول اختراق منطقة الحدود، قد اجبرت مجلس عصبة الامم على انشاء خط حدود موقت وتم تثبيت هذا الامر في اجتماع عقد في بروكسل في اليوم التاسع والعشرين من شهر تشرين الاول، وقد عرف هذا الخط فيما بعد باسم «خط بروكسل»، ويمتد هذا الخط نوعا ما الى الجنوب من الخط الذي كانت تطالب به الحكومة البريطانية، ومن ثم فان هذا الخط يستثني بعض المناطق التي يقطنها الاثوريون، ومع كل ذلك فقد تقرر ان يحدد خط الحدود القومي الدائم والذي لم يطرأ عليه شيء من التعديل الا بصفة نادرة

تألفت لجنة الوصل من كل من «السيد دي فرسن»، وهو دبلوماسي سويدي، اختير رئيسا لها، وعضوية الكونت تالكي وهو رئيس وزراء سابق من هنغاريا، ومن القانونيين والجغرافيين المختارين، والعقيد باولس وهو ضابط متقاعد من الجيش البلجيكي

بعد ان زارت اللجنة اسطنبول ولندن، وصلت الى بغداد في النصف من شهر كانون الثاني سنة ١٩٢٥، ومن ثم انضمت اليها سكرتارياتها، ومساعديها من كلا الجانبين. ولكن كان فزع البريطانيين والعراقيين بارزا، حين وجدوا في الوفد التركي اثنين من المرتدين العراقيين الذين دخلوا في صفة خبراء اتراك، كان احدهما من اسرة «النفطجي» في كركوك، بينما كان الاخر صهراً للشيخ محمود[1]

---

(١) هذان العراقيان هما ناظم النفطجي وفتاح بك احد اقارب الشيخ محمود في السليمانية.

امضت اللجنة مع مساعديها وموظفيها بضعة ايام في بغداد، راحت خلالها تجري اللقاءات مع بعض البارزين من المواطنين، وقد اذهلتها التظاهرات المثيرة المخبولة. اما في الموصل، وهي نقطة التوقف التالية، فقد كانت الاحاسيس الشعبية مرتفعة. قدمت حماية الشرطة الى اعضاء اللجنة، لكن تم رفض هذا العرض

كانت صيانة الامن العام عسيرة، بالنظر الى عواطف السكان الهائجين المتظاهرين، والى وجود الكثير من العناصر المختلفة في اصولها، ومحاباتها، وميولها، ولذلك عقدت معظم تحريات اللجنة بصفة سرية. اما الشهود، وغالباً ما كانوا مناقضين بصفة ذاتية في اجاباتهم على الاسئلة التي تطرح عليهم، فانهم كانوا يترددون، في بعض الحالات، في التحدث، او انهم – بدافع الخوف من الانتقام منهم، لم يكونوا ليتحدثوا الى اللجنة الا في عزلة شديدة. وفي حالات اخرى كان هؤلاء الشهود جد متأثرين بمطامعهم وعداواتهم الشخصية، في حين لم تبرز هذه الاجابات، في حالات اخرى، سوى القليل من الاتجاهات التي لها قيمتها

لقد تأثر بعض الاشخاص بالقضايا العنصرية، بينما تأثر آخرون بالامور العشائرية، وغيرهم بالاعتبارات الاقتصادية، في حين تأثر الكثيرون منهم وبكل جلاء، بالمخاوف او الاماني الشخصية، التي لم تكن تتطلع الى قيام حكومة افضل، بل على العكس من ذلك كانت تريد قيام حكومة ضعيفة غير فعالة

امضت اللجنة شهرين كاملين في الولاية المتنازع عليها، وتصرفت بكل حرية في الاستفسارات المجدة والحصيفة، من كل مصدر ومن كل طبقة. تم تسليم التقرير الذي وضعته اللجنة، وهو من الوثائق المعتمدة والموضحة، الى مجلس عصبة الامم في شهر تموز ١٩٢٥ حيث جرت مناقشته في الايام الاولى من شهر ايلول تلك السنة. ولقد ابعد اعضاء اللجنة كل فكرة عن احتمال تقسيم الولاية. ذلك لانهم استعرضوا المحتوى العنصري للمنطقة المتنازع عليها، وتقبلوا بصفة عامة – وان لم يحصل ذلك من دون تحفظ –كل الحقائق والارقام التي ادلت بها الجهة البريطانية. ولقد وجد اعضاء اللجنة ان الاعتبارات الاقتصادية بصفة عامة، تربط الموصل بالعراق. كما صادقوا على خط بروكسل للحدود، واعتبروه خطاً منيعاً من الناحية الستراتيجية. وفي الوقت ذاته لم يقبلوا بالطلب الذي قدم اليهم لالحاق قسم من منطقة «حكاري» بولاية الموصل[٢] وكان هذا الرفض من الامور التي اثارت الخوف لدى الآثوريين المتحمسين لهذا الطلب

---

(٢) كان هذا الطلب من قبل الاثوريين المتشردين الذين ارادوا من ورائه ان يعتبروا وجودهم داخل العراق شرعيا ولتأكيد الاكاذيب التي مافتئوا هم وانصارهم من الاستعماريين الانكليز والفرنسيين والروس، وحتى بعض الكتاب اللبنانيين، وعلى رأسهم «يوسف ابراهيم يزبك» صاحب كتاب «النفط مستعبد الشعوب» الذين مافتئوا حتى الان يزعمون بان الاثوريين هم احفاد الاشوريين القدامى في العراق، ولذلك فان هؤلاء، ومن بينهم مؤلف الكتاب «لونغرغ» يطلقون عليهم اسم «الاشوريين» تمشيا مع الكذبة المفضوحة بشأن اصل هذه الطائفة

وصف اعضاء اللجنة، الاحوال السائدة آنذاك في العراق، بانها ماتزال غير مستقرة على الرغم من التقدم الذي تم انجازه في ظل حكومة الانتداب، كما انهم رفضوا فكرة الادعاء بالتملك القائم على اساس الفتح، او القانون الدولي، لكنهم اعترفوا في الاخير بان اغلبية السكان قد اظهرت في النهاية بانها تريد ضم ولاية الموصل الى العراق الذي يحكم الان حكما دستوريا، بدلا من اعادتها الى تركيا

وعلى هذا الاساس كانت توصية اللجنة تقضي بان توحد مع العراق، كل الاراضي التي تقع جنوبي خط بروكسل لقاء شرطين:اولهما، ان يظل العراق تحت الانتداب لمدة خمس وعشرين سنة، وثانيهما هو ضرورة الاعتراف بالمميزات العرقية والوعي الذاتي للاكراد، واستعمال لغتهم القومية بصفة رسمية وتعيين الاكراد، في الاقضية الكردية، اداريين، وقضاة، ومعلمين

لم يلبث الممثل التركي في جنيف، وهو رجل شديد التعصب القومي، والثقة بالنفس، وعدم التأثر بالحقائق او البراهين التي عرضتها اللجنة، ان رفض تقرير اللجنة بصفة مطلقة، وسحب وعده بالالتزام بقبوله، اذا ماصادق مجلس عصبة الامم عليه، واخذ يتساءل عن وضع اللجنة ذاتها. واذ ذاك قدم طلب عاجل الى محكمة العدل الدولية الدائمة في «لاهاي» في اليوم التاسع عشر من شهر ايلول، بان تعلن رأيها فيما اذا كان تقرير اللجنة بعد المصادقة عليه، يجب ان يعتبر مجرد عمل للوساطة، او توصية، او قرارا قطعيا

رفض الاتراك ان يحضروا جلسة المحكمة التي عقدت بعد شهر من ذلك التأريخ، ومع ذلك فقد اصدرت المحكمة المذكورة في اليوم الحادي وللعشرين من شهر تشرين الثاني، حكما يعلن بان القرار الذي سيتخذه مجلس العصبة في القضية سيكون قرارا قطعيا وملزما، وان ذلك القرار سوف يقرر بصفة محددة حدود ولاية الموصل على شرط ان يكون ذلك باجماع الآراء، ماعدا اصوات الفريقين المهتمين بالنزاع.

في الوقت الذي انعقدت فيه المحكمة الدولية، وصلت الى اوربا شكاوى عن حدوث خرق شديد للاوضاع القائمة في المنطقة التي فصلها خط بروكسل،واذ ذاك عين مجلس عصبة الامم احد الضباط الاستونيين هو الفريق «ف ليدونر» وطلب اليه ان يتوجه الى المنطقة المذكورة يرافقه موظفان احدهما جيكوسلوفاكي والاخر اسباني[٤] وان يوافي مجلس العصبة من هناك بتقرير مستعجل عن الوضع. امضى الضابط الاستوني شهر تشرين الثاني في التحري جنوبي خط بروكسل على الدوام، وذلك لان الاتراك رفضوا السماح باي اتصال شمالي الخط

لقد ظهر ان معظم حوادث خرق الحدود التي وقعت هناك، كانت من الحوادث العرضية او الاعتيادية٠اما في شمالي الخط فقد تحقق حدوث المخالفات الواسعة التي اقترفها الجنود الاتراك،

---

(٤) هما العقيد رودلف باك، وهـ. ماركوس.

والتي صاحبها او اعقبها، طرد القرويين من المسيحيين الذين دفع بالالوف منهم الى داخل حدود العراق

عرض التقرير الذي اعده الفريق ليدونر ووصف فيه تلك الاعتداءات، امام مجلس عصبة الامم في اليوم العاشر من شهر كانون الاول، فاحدث في اعضاء المجلس تأثيرا بالغا. وفي الوقت ذاته استمر مندوب تركيا «منير بك» في نظره الى قرار المجلس، والذي لم يصدر بعد، بانه ليس سوى مجرد توصية قد تأخذها حكومته بنظر الاعتبار بصفة جيدة. وفي الوقت ذاته ادعى هذا المندوب بان ولاية الموصل، ماتزال حسب القانون تخضع للسيادة التركية، وانها يجب ان تظل على هذه الشاكلة الى ان يتم نقض مثل هذه السيادة

وفي ذات الوقت تواصلت اجتماعات مجلس العصبة، ولجنته التي الفت لهذا الغرض، بتغيب الناطق باسم الحكومة التركية عنها. وفي اليوم السادس عشر من شهر كانون الاول عرض على المجلس قرار محدد تمت المصادقة عليه بالاجماع. لقد اشترط القرار بانه لغرض تثبيت خط حدود بروكسل، واذعان بريطانيا له في غضون سنة اشهر، اولا ان يتم عقد معاهدة عراقية انكليزية جديدة تكون مدتها خمسا وعشرين سنة (الا اذا اصبح العراق قبل انتهاء تلك المدة عضوا في عصبة الامم)،وثانيا،طرح مقترحات بشأن تنفيذ التوصيات التي وضعتها اللجنة بشأن الصيغ التي تم اختيارها بصفة خاصة عن الادارة الكردية. وهكذا انهى هذا القرار مهمة عصبة الامم بالنسبة الى النزاع القائم حول الموصل، وثبت قراره النهائي ضمن المادة الثالثة من معاهدة «لوزان» (٥)

تم تقبل هذا الحكم في العراق برضا تام وعميق، استطاع – مثلما فعلت ذلك قضايا قليلة اخرى – ان يوحد جميع آراء مختلف الطبقات والعناصر. لقد كان ذلك الحكم قرارا ينطوي على الحكمة والعدل الى ابعد الحدود، ومثالا بناءا من امثلة التعاون الدولي لتسوية المنازعات

لقد تأكد لدى جميع المطلعين على الانقسام، ومميزات العروق، والاقليات ومصالحها داخل ولاية الموصل، وكذلك بالنسبة الى التقدم الذي تحقق في الادارة وفي الاقتصاد خلال السنوات الست الماضية، ان اقتطاع ارض من حكومة عراقية متحررة نسبيا، او دائرة في فلك بريطاني – عراقي لحكومة قائمة، واعادة تلك الارض الى حكومة مركزية مستبدة وجائرة في ذلك الوقت، يعتبر امرا لايمكن احتماله، وقد يؤدي اذا ماتم تطبيقه، الى تمزيق دولة العراق.

بدأ العمل في العراق بمنتهى السرعة لتنفيذ قرار عصبة الامم. فقد صدرت التعليمات الى جميع الوزراء، من لدن رئيس الوزراء وهو نفسه نصف كردي، بان يسارع في تنفيذ سياسة تميز

---

(٤) سبق لنا ان نشرنا نص هذه المادة في هامش سابق.

المناطق الكردية عن المناطق العربية تنفيذا تاما، وذلك بتعيين الموظفين الاكراد في كل الدوائر هناك[٥]

كانت المعاهدة الجديدة مع بريطانيا والتي صادق البرلمان عليها في اليوم التاسع عشر من شهر كانون الثاني في سنة ١٩٢٦، ولقيت تذمرا حادا من قبل ياسين الهاشمي وحزبه (حزب الشعب) بسبب فترة الوصاية الطويلة، قد اشترطت اعادة النظر بشكل فعال من قبل الدولة المنتدبة في سنة ١٩٢٨ ومابعدها،خلال فترات تمتد كل فترة منها اربع سنوات الى انتهاء مدة الخمس والعشرين سنة، كما اشترطت المعاهدة المذكورة امكانية تقديم توصية بقبول العراق في عصبة الامم، وان هذا القبول سوف ينهي الانتداب المفروض عليه. كذلك اشترطت المعاهدة ان يتم، في ضوء التقدم الذي تحرزه مملكة العراق، او لاي سبب اخر، تعديل احكام الاتفاقات المالية التي وجهت الانتقادات اليها كثيرا

بقي على بريطانيا ان تحقق ماأخفقت عصبة الامم فيه، الا وهو الاتفاق والتعاون مع الجمهورية التركية. فلقد قوبل القرار الذي اتخذته عصبة الامم بشأن الموصل، بهجمات قاسية وفظيعة في الصحافة التركية، الى درجة ان مصطفى كمال لم يتردد من ان يشخص ذلك بنفسه. بل ان حتى مجلسه العسكري لم يتجاهل فكرة نشوب الحرب بين بريطانيا وتركيا، عندما اجتمع غداة عيد الميلاد في سنة ١٩٢٥ في انقرة. ولكن كانت تقوم في ذات إلوقت في تركيا مجالس اخرى اقل خطرا،وقد حملت تلك المجالس على الاذعان لقرار العصبة بالنفوذ المسالم الذي بذله كل من رشدي بك[٦] والسفير البريطاني، بل في الواقع بالاوضاع التي كانت سائدة في تركيا آنذاك

وفي اليوم الثامن عشر من شهر تموز ١٩٢٦ صادقت الجمهورية التركية على معاهدة تركية بريطانية عراقية، تم وفقا لها القبول بخط بروكسل خطا للحدود بين العراق وتركيا، كذلك تم تأليف لجنة حدود دائمة لتطبيق سياسة حسن العلاقات تحل محل خط الحدود المحايد.

وفي ذات الوقت تعهد العراق بان يدفع الى جارته، ولمدة خمس وعشرين سنة، العشر من مجموع مايحصل عليه من عوائد النفط، اذا ماتم العثور على منابع للنفط في ولاية الموصل،وبذلك وصلت قضية الموصل مرحلتها النهائية

* * *

(٥) يعني بذلك المرحوم جعفر العسكري

(٦) هو توفيق رشدي اراس الذي تولى منصب وزارة الخارجية في حكومة مصطفى كمال وشارك مشاركة فعالة في عقد المعاهدة التركية الانكليزية العراقية التي اعقبت صدور قرار عصبة الامم في موضوع الموصل وقد تم التوقيع عليها في الخامس من حزيران ١٩٢٦.

اصبحت الاوضاع في المنطقة الكردية من ولاية الموصل خلال السنة ١٩٢٥ واوائل سنة ١٩٢٦، اكثر هدوءا مما كانت عليه قبل سنوات مضت. ففي محافظة السليمانية، ادى فتح طرق المواصلات، وبناء مخافر الشرطة ومقراتها، الى تحديد الحركات التي كان الشيخ محمود ومن معه من الخارجين على القانون يمارسونها. ونظرا للعمل الذي قام به الجيش العراقي والشرطة العراقية، فقد اضطر الى ان يتسلل عبر حلبجة والمناطق الاخرى التي يديرها العراق، الى داخل الحدود الفارسية. كما انه اخفق في كسب تعاون عشائر الجاف معه، كما انه لم ينجح في نهب الاقسام التي هاجرت من هذه العشائر، ولذلك اعوزته الاموال اللازمة للاحتفاظ بانصاره

لم يعد في راوندوز اي وجود لاي نشاط تركي مباشر، كما ان النزاع في بشدر قد انتهى بمصالحة كانت لفائدة «بابكراغا». اما في الحدود الشمالية التي كانت تمثل المظهر المهم لتلك الفترة، فانه الى جانب الزيارة التي قامت بها لجنة الوصل لتلك الحدود وهجرة المسيحيين الذين طردوا من تركيا، كان يوجد زخم من اللاجئين الاكراد، الذين قدموا من المناطق التي نشبت فيها الثورة الكردية بزعامة الشيخ سعيد النقشبندي في شهر شباط ١٩٢٥، والتي ادى نجاحها المبكر الى اقدام الاتراك على اقتراف اعمال انتقام ثابتة وعنيفة

وكانت الجماعات التي نجت من الانتقام من هؤلاء الاكراد النازحين الى العراق تحت قيادة ابن سيد قادر رئيس «نيري» وابن الشيخ سعيد نفسه واخيه وقد تم توطين هؤلاء اللاجئين داخل العراق وفي اماكن بعيدة عن الحدود

وفي اوائل سنة ١٩٢٦ توجهت جماعات واسعة من الاكراد فاجتازت الحدود طلباً للالتجاء، الى العراق، اي الى ولاية الموصل. وكانت هذه الجماعات تضم اعدادا من عشيرة «ميران» تحت زعامة «نايف بك» قدمت في شهر شباط من تلك السنة، وتم توطينهم في ذات المنطقة التي اعتادوا الرعي فيها اثناء الشتاء على ضفاف نهر دجلة. كذلك تم في شهر نيسان توطين سبعة الاف نفر من عشائر الغويان ايضا

وفي اعقاب هؤلاء جاء زهاء الف شخص من المسيحيين الذين قدموا من منطقة «طور عابدين»، في ذات الوقت الذي توافد فيه حوالي عشرة الاف نفر، كما قيل، من عشائر «الارتوش» الى منطقة العمادية، وذلك نتيجة ضغط من القوات التركية التي دحرتهم وابعدتهم الى هناك

كانت المشكلة التي واجهتها السلطات العراقية نتيجة لجوء هذه الاقوام، غير المرغوب فيها والمعدمة تقريبا، من المشاكل المعقدة بصفة خطيرة. وبصفة عامة كانت النظرة في هذه الفترة الى المنطقة الكردية من العراق، تبدو ملائمة. ذلك ان الاكراد لم يتأثروا بالانتفاضات وبالارهاب الذي حل في كردستان التركية. كما ان الادارة الاعتيادية ومن نمط اساسي، قد سادت المحافظات الكردية الاربع، ماعدا منطقة صغيرة من محافظة السليمانية تقع عند الحدود مع بلاد فارس

قدمت مكافآت ملموسة وبسخاء حسن، الى الاكراد المتشائمين في موضوع اللغة، والقانون، والاجراءات المطبقة، والمدارس، وتعيين الموظفين. فقد كان المئات من الاكراد يعملون في الدولة العراقية، في الوظائف المدنيةوالعسكرية من جميع المستويات. كذلك تغلغلت القوات المدربة من الجيش وقوات المرتزقة التابعة للحكومة في كل زاوية داخل الريف الذي كان الاكراد يعيشون فيه. وتم بناء الطرق او اصلاح ماعطب منها، وفرضت الحراسة عليها، ومدت خطوط البرق، وشجعت تجارة التبوغ وتم تنظيم المؤسسات. كانت الحكومة البلدية هناك تسير قدما، واصبح الامن عاما. كذلك احتل النواب الاكراد مقاعدهم في مجلسي النواب والاعيان وفي الوزارة ذاتها. وبذلك اصبح اندماجهم التام في الدولة العراقية، يؤلف املا ليس من المستحيل تحقيقه

وعلى الرغم من الحنق الذي اصاب العراقيين من وجود الاقلية الاثورية المتمردة، الجامحة التي تصعب ادارتها، فقد ظهر بان هؤلاء يجب ان يتم توطينهم في العراق وليس في مكان اخر. لم تستطع البقية الباقية من هؤلاء، والتي يقدر عددها بعشرين الف شخص، ان تتركز في مستقر واحد، وذلك لان العراق لايستطيع ان يوفر مكانا وافيا، مزروعا، لايحتله احد. وهكذا انتشرت مئات العوائل من عشائر «باز» و «جيلو» في سهل الموصل، وفي منطقة التيارية العليا و «تاخوما» في مناطق دهوك والعمادية، وكذلك التيارية السفلى حوالي «برواري بالا»

كان المؤمل نميا بعد ان يتم ايجاد مكان لتوطين حوالي الف اسرة في منطقة «برادوست» من قضاء راوندوز، ولعدد اكثر من ذلك، في منطقة «برواري زير». تم جمع الاموال في لندن لمساعدة هؤلاء الاثوريين[7] وزودوا بالبذور وبالماشية. كما ان ماكان يحصل عليه المنضمون منهم الى قوات المرتزقة «الليفي» من مرتبات، قد جعل الكثير من عوائلهم تعيش سوية. غير ان احتفاظهم بهويتهم الاقلية واعتزازهم بديانتهم وتقاليدهم كانت تنتقل اليهم انفسهم، مثلما انتقلت طويلا الى الاخرين من الاقليات المسيحية الاخرى في العراق



(٧) كان هؤلاء الاثوريين ينتمون الى الطائفة التيارية في جبال ارمينيا ثم سكنوا في شمالي العراق بعد الحرب العالمية الاولى. وكان عددهم في سنة ١٩١٠ حوالي اربعين الف نسمة، التجأ منهم حوالي عشرة الاف نسمة الى العراق فمنحتهم الحكومة البريطانية اعانات لكل رجل وطفل وامرأة (١١٠) روبية في الشهر واستمرت تعيهم على هذا المنوال ثلاث سنوات كاملة (احمد رفيق البرقاوي العلاقات السياسية بين العراق وبريطانيا ١٩٢٢ ١٩٣٢ هامش ص ٩٧ طبعة ١٩٨٠).

٦ ـ جارات العراق الاخر

كانت علاقات العراق مع جارته الشرقية (فارس) غير مرضية،وبسبب اصرار النظام الفارسي على عدم الاعتراف بالمملكة الجديدة ، وبالتسلل المعتاد عبر الحدود المفتوحة التي يبلغ طولها الف كيلو متر ، فان مثل هذه العلاقات لايمكن ان تكون الا على هذه الشاكلة ولقد ازدادت هذه العلاقات سوءا ، بسبب الخصومة التي نجمت عن اقدام رجال الدين من الفرس على ترك العراق الى فارس بمحض ارادتهم وذلك في سنة ١٩٢٣،ولقد استمرت العلاقات على هذا المنوال حتى بعد عودة اولئك النازحين الى العراق في السنة التالية ، واعادة فتح الطريق امام الزوار الفرس في سنة ١٩٢٥ الى المراقد الشيعية،حيث شرعت سكك الحديد تقوم بنقلهم الى هناك

ولم تتحسن هذه العلاقات نتيجة اختراق الحدود من قبل عصابة سمكوو الاكراد الساكنين في بلاد فارس،ولا بالنزاعات التي كانت تذكرنا بما كان يحدث في الايام التي سبقت سنة ١٩١٤، من نزاعات بين السلطات الكمركية البصرية والفارسية حول شط العرب ، ولا بالعلاقات القائمة بين والي بشتكوه وعشائر بني لام ، ولو ان هذه العلاقات قد تحسنت في سنة ١٩٢٤،وكذلك فلم تتحسن العلاقات مع فارس بسبب الخصومة الدائمة بشأن مياه مندلي

ادت الاطاحة بالاسرة القاجارية الحاكمة المنهكة في بلاد فارس في الايام الاخيرة من سنة ١٩٢٤ على يد مغامر جرئي لكنه متوحش وغير متعلم،وشديد البطش،ونعني به «رضا بهلوي» الى اشاعة الثورة في الحياة الفارسية العامة في كل منطقة من بلاد فارس ، وتركت اثرا عميقاً في جارات فارس ذلك ان والي بشتكوه مع هربه المفزع الى العراق ، قد رجع الان الى موطنه الاصلي بقصد التفاهم ، بكل مايستطيعه مع ذلك الدكتاتور الذي استطاع ان يوطد مركزه

اما «خزعل خان» شيخ المحمرة ذو العلاقة الوثيقة ، طويلة الامد مع البريطانيين وشركة النفط الانكليزية الفارسية ، فقد اخفق بصفة غير حكيمة في ان يلائم نفسه مع نظام الحكم الجديد[1]،وراح يخاصم الحكومة الفارسية في اوضاع لم تكن لتوفر للحكومات البريطانية اي

---

(١) هذا محض افتراء او تبرير من المؤلف للعدوان الذي قام به رضا بهلوي على المحمرة الامارة العربية العراقية الاصلية. ذلك لان من اولى خطط الفرس وجميع حكامهم هو احتلال تلك الامارة والتمهيد للاعتداء على العراق. لقد سبق لبريطانيا ان قطعت الوعود الكثيرة لعميلها الشيخ خزعل عن حمايته وحماية امارته من اي اعتداء يقع عليها لكن بريطانيا وغيرها من الدول=

اساس حق لاقامة تمثيل دبلوماسي. لقد ثار خزعل وهو ضعيف ليجد نفسه وقد تحطم وتم التغلب عليه ، ونقله الى طهران.وبعد تمرد قصير قامت به العشائر العربية المحلية ، عشائر «كعب» «والمحيسن» واحتجاجات مضادة معتادة بين بغداد وطهران ، غدت عربستان، التي ابدل اسمها الى خوزستان، ولاية تابعة لفارس

تم التوصل في النهاية الى تسوية اعتيادية للغارات التي وقعت بعد ذلك عبر الحدود ، بين اقرب الموظفين من كلا الدولتين العراقية والفارسية اما الاضطراب الخطير الذي كان يسود مناطق خانقين وقصر شيرين في اواخر سنة ١٩٢٥ ، فقد تم التفاهم بشأنه في اجتماع عملي مشترك جرى في شهر اذار سنة ١٩٢٦ كان من الدلائل المشجعة على التعاون بين البلدبن ، ذلك الطلب الذي تقدمت به الحكومة الفارسية (والذي نقله السفير البريطاني في طهران الى المندوب السامي البريطاني في بغداد)للحصول على مساعدة من العراق في فتح طريق تجاري جديد من كركوك التي ينتهي عندها الخط الحديدي ، الى مدينة تبريز.

لقد استلزم قيام الثورة الكردية في شرقي الاناضول فتح هذا الطريق الذي يحتوي على طريق جبلي يمر خلال صاووج بولاق وراوندوز.ولقد بدأت حكومة العراق باجراء المسوحات لهذا الطريق ، وطلبت جلب المواد اللازمة لانشائه من اوربا

وفي اقصى الجنوب من ذلك عاد سلار الدولة الى الظهور مرة اخرى وهو الذي اشتهر بتعكير صفو الامن هناك. فهذا الرجل غير المتزن وشديد الاصرار على المطالبة بالعرش في ذات الوقت، قد وضع له آمال جديدة اثر تغيير الاسرة الحاكمة في فارس ، ولذلك نقد اجتاز الحدود متنكرا ودخل الى الاراضي العراقية في ربيع سنة ١٩٢٥، وكان يسعى الى تحقيق اطماعه القديمة في اقليم كرمنشاه، ويتطلع الى اثارة اكراد فارس مرة اخرى لكي يقفوا الى جانبه

كانت العصابة الخارجة على القانون والتي يتزعمها الشيخ محمود ، اولى الجماعات التي انضمت الى سلار الدولة هذا، لكن عدد الذين بادروا بذلك من افراد العصابة كان قليلا، وقد استطاع المندوب السامي البريطاني بالرسائل التي وجهها اليهم ان يصرفهم جميعا ، عدا حفنة من المؤيدين لسلار الدولة، عن هذا المشروع الذي لا امل فيه ووفقاً لذلك طار آمر القوة الجوية البريطانية في العراق الى طهران لكي يضع مع السلطات الفارسية، الخطط الثابتة التي تحول دون حدوث التمرد. وما ان فقد سلار الدولة الدعم الجديد الذي يحتاج اليه ، حتى تراجع الى سوريا

= الاستعمارية الاخرى ما كانت وحتى الآن لتقيم اي وزن للعهود والمعاهدات والوعود، في سبيل ضمان مستقبل مصالحها في بلاد فارس، ضحت بحليفها الشيخ خزعل لانها آثرت التفاهم مع رضا بهلوي على حساب الاستقلال الذاتي للاحواز . ولم يكن هذا الامر جديدا بالنسبة الى تاريخ الاستعمار الحديث. فلهذا الحادث ، اي العدوان الذي وقع على امارة المحمرة ، امثال عديدة في كل مكان من الاماكن التي تبث المستعمرون اقدامهم فيها سواء في اسيا ام افريقيا ام في اي مكان اخر (انظر مقالتنا عن افساح الانكليز الطريق امام حكومة طهران لاحتلال الاحواز والقضاء على امارة المحمرة والمصير السيئ الذي صار اليه الشيخ خزعل وذلك في مجلة (افاق عربية العدد ٦من سنة ١٩٨١)

لكنه مالبث ان عاد في شهر اب ١٩٢٦ مرة اخرى فوصل الى منطقة هورمان ، وحرك بعض القوى التي اضر بها الجوع ، فاندفعت الى نهب بعض القرى الصغيرة قبل ان يتم تشتيت تلك القرى، ولم تصل بعد ذلك اية مساعدة اخرى الى ذلك المطالب بالعرش الفارسي، والذي عاد فدخل العراق مجددا متنكرا، لكن سرعان ماا كتشف امره في مدينة اربيل، فالقي القبض عليه ، واودع رهن الاعتقال في بغداد، في الوقت الذي كان يجري فيه بحث ذلك التصرف الذي اقدم عليه

* * *

كان موقف العراق العام تجاه سوريا ، ينطوي على التذمر من الانتداب الفرنسي عليها ، وقد ادى ذلك الى اظهار العطف تجاه كل الوطنيين السوريين، وازاء الثورات التي قامت ضد ذلك النظام ، كما حدث في ثورة جبل الدروز سنة ١٩٢٥ ، غير انه لم تكن هناك اية آراء عن وقوع تدخل من جانب الملك فيصل كما نسب ذلك اليه

جرى استخدام الاطباء والمدرسين السوريين في العراق، وكان الممثلون السوريون مشاركين مشاركة ظاهرة في الحاشية الشخصية للملك

وكانت اعادة فتح الطريق من العراق الى سوريا سواء على جانب نهر الفرات الى دير الزور ، ام عبر الجزيرة من الموصل ،تمثل الامنية التي ادت الى عقد سلسلة من المؤتمرات في الموصل ، ودير القائم والبوكمال بين المندوبين العراقيين والسوريين والفرنسيين والبريطانيين خلال الفترة من سنة ١٩٢٠ حتى سنة ١٩٢٤.ولقد نجحت هذه المؤتمرات فعلا في اعادة فتح الطرق ، وتوفير الامن ، وتسوية جزء من العداوات القديمة جدا بين عشائر «العمارات» والعقيدات و «الدليم»

ففي داخل العراق ثبتت المسؤولية في قرى الدليم تحت زعامة الشيخ علي السليمان والحراس المتجولين من فيلق الهجانة الدليمي ولغرض حماية الطريق الذي اخذت تسير فيه سيارات شركة «نيرن» ، ابتداءا من خريف سنة ١٩٢٣ ومابعدها ، كان تعاون الفرنسيين في هذا الشأن تعاوناً تاما في هذا المضمار ، وان كانت الحوادث التي وقعت في سنة ١٩٢٥ [٢] قد اظهرت مدى ضعف الفرنسيين في حماية الامن كما تم في سنة ١٩٢٥ عقد اتفاق بشأن تجارة المرور ، استطاع ان ينظم حركة المتاجرة عبر الطريق الجديد ، وكذلك ضمان المعونة المشتركة في حملات مكافحة الجراد خلال سنة ١٩٢٦ وما بعدها

---

(٢) المقصود بذلك نشوب الثورة السورية في تلك السنة ضد الفرنسيين في جبل الدروز من ثم انتشارها الى مناطق اخرى خارج الجبل.

كان ادنى مظهر ملائم للعلاقات العراقية السورية يتمثل في النقص المتواصل في وجود حدود متفق عليها ، وذلك لان الحدود غير المخططة والمعمول بها منذ سنة ١٩٢٠ ، والتي كانت نافذة المفعول بصفة اسمية ، كان ينبغي تجاهلها في الواقع بصفة ضرورية واسوأ من ذلك كله ، هو استمرار الغارات العشائرية الملحة ذلك ان الاعتداءات التي كانت تمارسها عشائر «طي» واليزيدية ، والعقيدات ، والذليم ، متواصلة ، ولكن كان من اكثر المعتدين بروزاً للعيان هو «دهام الهادي» ذلك الشيخ المنشق عن قبيلة شمر،والذي انتقل الى سوريا ، نتيجة عدائه مع «عجيل الباور» ، الشيخ الشهير الذي اعترفت به حكومة العراق. فلقد كان دهام الهادي يغير من سوريا على قبيلة شمر وعلى عشائر العمارات التي يترأسها «ابن هذال»

لقد غدا مؤكدا في سنة ١٩٢٥ انه يستحيل عقد مؤتمر عشائري،ذلك لان القرارات التي اتخذت في اجتماع البوكمال في تلك السنة ، لم تكن قد كرمت بالقبول بعد ، وفي السنة التي تلت ذلك استطاع الشيخ عجيل الباور ان يصد الغارة الكبرى التي قام بها «دهام الهادي». فلقد ساعدت القوات الجوية البريطانية وفوج من السيارات الانكليزية المصفحة الشيخ عجيل في صد تلك الغارة،حيث راح عجيل يتعقب خصمه المنهزم الى ان استطاع نهب مالديه من ماشية ،ولذلك قوبل هذا الحادث باستمرار حرب العصابات التي لم تكن قد ظهرت اية نهاية لها في الظاهر

* * *

كان الامل في اقامة علاقات حسن الجوار بين العراق ونجد يصاب بالخيبة دائما. ذلك ان الملوكية الهاشمية في العراق ، والعواطف العراقية الناتجة عن ذلك ، لم تكن ودية ازاء سلطان نجد الذي كان يعتنق العقيدة الوهابية،وخصما للملك حسين وللبيت الهاشمي،الى درجة بلغت حد اعلان الحرب ، والانتصار على الملك حسين وعلى البيت الهاشمي معا ربما كان مستطاعا التخفيف من هذه العوامل بالطرق الدبلوماسية ، ولكن فرض السلام على افراد العشائر في صحاراهم ، كان امرا اكثر مشقة

كانت الغارة الكبرى التي شنها فيصل الدويش زعيم الاخوان من قبيلة المطير،مع حلفائه في شهر اذار سنة ١٩٢٢ على الرعاة العراقيين في موقع «ابو غار» في منطقة المنتفق،قد تم صدها بعمل قامت به القوة الجوية البريطانية،ولكن على الرغم من الاعتذار الذي تقدم به ابن السعود، والعقاب الذي تلقاه حمود الصويط شيخ قبيلة «الضفير»،فان هذا الوضع قد اضاف المزيد الى القلق الذي كان العراقيون يشعرون به والذي تم استغلاله ازاء ذلك ، لاغراض سياسية داخلية [٣]

---

(٣) انظر تفاصيل هذه الغارات في كتابنا «مذكرات غلوب باشا» الذي يصدر قريباً.

كانت النتيجة التي برزت عن ذلك الوضع قد تمثلت في عقد مؤتمر من ممثلي الدولتين العراقية والسعودية في المحمرة،حيث نجح هذا المؤتمر في اليوم الاول من شهر ايار في وضع مسودة معاهدة وقع عليها ممثلو الدولتين،وعلى هذا الاساس تم وضع المبادئ التي تخص الولاء القبلي ، وحددت عشائر المنتفق والضفير ، والعمارات في العراق ، واشترط تأليف لجنة فيما بعد ، تنهض بمسألة تحديد ملكية او عائدية آبار المياه التي تقع على الحدود ، والاتفاق على الوسائل التي تحول دون وقوع الغارات ، وحماية طرق الحجاج ولقد تجسدت الاحكام التفصيلية لذلك ، في البروتوكول الذي تم التوقيع عليه في «العقير» في اليوم الثاني من شهر كانون الاول سنة ١٩٢٢،فقد اشترط هذا البروتوكول لاول مرة قيام حدود عراقية نجدية انعقدت النية على تحديدها،مع اقامة منطقة محايدة تخصص لحقوق الرعي المشتركة فيها[٤] غير ان هذه العلاقات المتحسنة لم تدم طويلا،ذلك لان اللاجئين من نجد الى العراق استمروا في اثارة اعمال الانتقام،باقدامهم على الاغارة داخل الاراضي النجدية،وتلك عادة متأصلة لدى العشائر،وليس في مستطاع اي عمل حكومي تقويمها. ولما كانت عادة الغزو هذه تطبق بانعدام تام للمسؤولية،وتتجاهل حدود الاراضي معا ، وقد تصبح في بعض الاحيان هي السلطة السائدة، فانها كانت تؤلف جزءا من طريقة الحياة في الصحراء والتي لم يستطع اي عنصر جديد أن يطورها بعد

بعد ان اخفقت الجهود التي بذلتها بريطانيا لعقد مؤتمر بين حاكمي الدولتين العراقية والنجدية نفسيهما تم في الاخير عقد اجتماع حضره ناطقان باسم العراق ونجد في الكويت،وقد ترأسه احد البريطانيين وذلك في شهر كانون أول سنة ١٩٢٣[٥] واذ برهن الاجتماع على انعدام القوة لديه في تسوية الخلافات فقد تم تأجيله،لكن المناقشات مالبثت ان استؤنفت ومع كل ذلك فقد اخفق هذا الاجتماع في تحقيق الوفاق حيث تبددت آخر الامال التي عقدت عليه ، بالغارات التي وقعت على القبائل العراقية وفي اوسع نطاق ، والتي قام بها فيصل الدويش في شهر اذار ١٩٢٤ ، حيث بلغت قائمة القتلى من افراد القبائل قرابة مائتي شخص،في حين قدرت المواشي التي نهبت بثلاثين الف رأس

ولقد تكرر العدوان على نطاق اضيق خلال شهرين متأخرين عن ذلك التاريخ، ثم تعاظم كرة اخرى في شهر كانون الاول من تلك السنة،ليعقبه عدوان جديد وقع في شهر كانون الثاني في سنة ١٩٢٥،وفي الوقت ذاته ارتفعت منزلة ابن سعود الى درجة عظيمة وذلك بالانتصارات التي حققت في الحجاز والتي انتهت بالقضاء على حكم الملك الشريفي،وهكذا فرضت الحماية الوهابية

---

(٤) الغيت المنطقة المحايدة بين العراق والسعودية وتم تقسيمها بين البلدين في اواخر سني السبعينات ، بعد ان تم الاتفاق على حقوق الرعي

(٥) هو الممثل البريطاني السياسي في الخليج العربي آنذاك.

على المدينتين المقدستين[٦] ولكن اوقاتا طيبة سادت الحدود وسارت قدما. لقد تحركت حامية من الجيش العراقي مزودة بالسيارات المصفحة واجهزة اللاسلكي الى موقع «ابو غار» الصحراوي وتم توفير الاتصالات الجوية معها، وفي شهر ايار سنة ١٩٢٥ تحركت القبائل اللاجئة المستفزة الى داخل الاراضي العراقية لتكون بعيدة عن الاغراء في حين عادت القبائل الاخرى التي تعقبتها الى داخل العراق من حيث اتت

قام الاخوان بغارة على قبيلة «الضفير» في شهر حزيران ١٩٢٥ وقد اعلن عنها بانها كانت مناقضة لاوامر ابن السعود، الذي كان منشغلا في ذلك الوقت بتوطيد سلطانه في الحجاز. عقد الممثلون البريطانيون نيابة عن العراق مؤتمرا مع مندوبي ابن سعود في نقطة «بحرة» في الحجاز، حيث تم التوصل الى توقيع معاهدة في تلك النقطة في اليوم الاول من شهر تشرين الثاني من ذات السنة[٧]

ولقد قام السر جلبرت كلايتون الذي ساهم في التفاوض لعقد تلك المعاهدة، بزيارة بغداد فاوضح للملك وللوزارة بنود تلك المعاهدة، حيث تمت المصادقة عليها من الجانبين الملك والوزارة معا ولو تم تطبيق ذلك الاتفاق بذكاء وحسن نية لاستطاعت احكامه ان تشمل، كما يظهر، مشاكل الغارات المتبادلة، والهجرة عبر الحدود، وتبادل المعلومات، ووسائل الاتصالات الرسمية. غير ان تسليم المعتدين من افراد القبائل لم يتم الاتفاق عليه

عملت معاهدة «بحرة» الشيء الكثير بالنسبة الى العلاقات العراقية النجدية، لكنها لم تنجح في ايقاف كل الغارات التي كانت تقع داخل اراضي الطرفين. وعلى اثر توقيع المعاهدة بدأت القوافل بين واحات نجد والمناطق الجنوبية الشرقية من العراق تسير بكل حرية، ومع انه لم يتم التوصل الى تأليف اللجنة التي ظل العراق يصر على تأليفها لهذا الغرض، الا ان سلطات الحدود لكلا البلدين استطاعت ان تحقق اتصالات ودية فيما بينها

---

(٦) يقصد بهما المدينة المنورة ومكة المكرمة

(٧) كان المستر ايمري وزير المستعمرات البريطاني في العراق عندما وقعت غارات الاخوان على العراق، ولذلك شدد على عقد مؤتمر لتسوية الخلافات بين العراق ونجد ولقد ناب عن العراق توفيق السويدي وعن البريطانيين السر جلبرت كلايتون. وقد تألفت اتفاقية بحرة من اثنتي عشرة مادة تم التوقيع عليها في مخيم بحرة في اليوم الاول من تشرين الثاني ١٩٢٥ الرابع عشر من ربيع الثاني ١٣٤٤ هـ. ومن اهم موادها المادة : الثانية (أ) التي تنص على تأليف محكمة خاصة للنظر في تفاصيل اي اعتداء يقع من وراء حدود الدولتين.

٧ ـ الحياة والحكومة في الفترة مابين ١٩٢١ ـ ١٩٣١

حققت هذه السنوات الخمس الاولى من عمر المملكة العراقية في الواقع ، مدى كبيرا من احلام القوميين الاوليين.لقد شاهدوا اداة حقيقية يمكن الاعتماد عليها لحكومة عراقية ذاتية ، في ذات الوقت الذي اتخذت فيه الخطوات في كل دائرة من الحياة العامة والحكومة ، لانشاء دولة عصرية ، حيث جندت خدمات اكثر العراقيين قابلية لهذه المهمة كانت البدايات الاولى في معنى الوعي القومي الذاتي للاخلاص لهذه المملكة التي كانت المملكة الخاصة لاهل البلاد ، تنبع عن طريق الانتخابات ، ولو انه كانت ماتزال توجد عناصر طائفة قليلة من القبائل ومن الريف ، لم تتعود مثل هذه المفاهيم

لقد ظهر بان القدرة الادارية كانت متوفرة وقابلة للتحسن،وان المساعدة التي كان يقدمها حليف العراق على كل مستوى،من سياسة عصبة الامم والى العراك على اشغال منصب مدير ناحية، كل هذه الامور كانت على الدوام في سبيل خدمة هذه المملكة.وكان الدور الذي يمارسه البريطانيون في ميدان الادارة والذي يوصف عادة من قبل الصحف «بالتدخل» او «الامبريالية» والذي يثير الانزعاج في تلك الاوقات لدى الموظفين العراقيين نافدي الصبر ، كان يواجه بكل صبر واناة من لدن الموظفين البريطانيين الذين يحملون عقليات القرنين التاسع عشر والعشرين. ومع وجود مخالفات تقع عرضا،فقد كان هذا الدور بصفة مهيمنة معيناً وخاليا من الاغراض الخاصة على الدوام لكنه كان ضروريا ومرغوبا فيه.

ولقد اخذ هذا الدور يتناقص كلما مرت السنون وغدت الوظائف الاستشارية والتنفيذية يجري تمييزها بجلاء،وحيثما اصبحت المناطق او الدوائر تسير بنجاح تحت الادارة المؤلفة من العراقيين بصفة كاملة فلقد نمت العلاقات البريطانية العراقية وتحولت الى مودة اعتيادية وذات صداقات وثيقة في الغالب

* * *

اضمحل نظام الحكم التركي الذي ساد طيلة اربعة قرون فاصبح من اخبار الماضي ، وتعود العراق ذاته ، الانتعاش الثقافي والسياسي الجديد ، حتى في ذات الوقت الذي بقي فيه يتحمل

الكثير من مظاهر خصائص حياته الاجتماعية والاقتصادية القديمة•فلقد كانت توجد على الدوام دلائل على الخدمات البناءة الكبرى ، التي يؤديها الملك والمندوب السامي البريطاني. ذلك انهما كانا في هذه الفترة يخدمان من لدن مجموعة قديرة ومخلصة من كبار الضباط السابقين. كان الملك يتلقى الخدمة من قبل رستم حيدر ، ومن تحسين قدري ، السوري المثقف ذي التربية الفرنسية الذي اختار الجنسية العراقية ، اضافة الى آخرين من المخلصين والمتبارين في خدمة البلاط

وكان المندوبون الساموں بدورهم ايضا من المحظوظين لما توفر لديهم من موظفين•فقد كان من بين اولئك الموظفين الذين عملوا بصفة قناصل ، كل من «غاربيت» الذي اعقبه «ريدر بولارد» السكرتير القانوني ، و «نيجل دافدسن» السكرتير الشرقي ، وغرتر رود بل التي كانت وفاتها المفاجئة في تموز ١٩٢٦ خسارة فادحة(*) وفي ميدان خدمة الحكومة العراقية كان الموظفون العراقيون ذوو النوايا الطيبة والمواهب المدهشة في بعض الاحيان، يختلطون بصفة حتمية مع موظفين من هم اقل قدرة او اقل اعتبارا، وذلك لملء المناصب العليا والدنيا معا في الحكومة المركزية وفي المحافظات. كانت هيأة الموظفين البريطانيين ، حيث يتولى القسم الاكبر منهم منصب المستشار، لكنه مايزال يحتفظ مع ذلك بالسلطات التنفيذية في بعض الحالات القليلة ، تضم بعض الاشخاص من اصحاب المزايا الشهيرة حيث قدم الكثيرون منهم ، خلال سنوات بلغت عشرين سنة او زادت عنها خدمات وافية تماما للعراق

كان ياسين الهاشمي هو الذي انشأ في سنة ١٩٢٥، وزارة الخارجية تلك التي كان يشغلها رئيس الوزراء دوما، وذلك في الفترة المبكرة لتشكيل الحكومة العراقية•وفي ظل المسؤولية الباهظة التي تحملتها بريطانيا تجاه عصبة الامم لانجاز التزامات العراق الدولية، لم يكن عمل وزارة الخارجية يجري الا في نطاق محدود•فقد تم تمثيل هذه الوزارة في لندن اول الامر ومن ثم وبصفة متقطعة في جنيف ، من قبل جعفر العسكري•ومع ذلك فقد بدأ القناصل الاجانب يعينون في وقت مبكر ، في بغداد ، حيث كان وجودهم يمثل اعترافاً بالدولة العراقية من قبل كل من فرنسا ، ايطاليا ، والنرويج ، والسويد ، والمانيا ، واليونان . وهكذا اخذت الحكومة العراقية تشترك في مختلف المؤتمرات الدولية. ومع ان بلاد فارس كانت ممثلة بعدد من القناصل في العراق ، ومرتبطة معه باوثق المصالح ، الا ان عدم اعترافها رسميا بالمملكة العراقية ، قد الحق الضرر بالبلدين معا

كانت الاشادة قائمة في كل مكان بالوزارات العراقية التي تألفت حتى وزارة ياسين الهاشمي المؤلفة في سنة ١٩٢٤ [1] كانت وزارة الهاشمي تضم كل الاذكياء، ولكن نظرا لعدم وجود مناهج

(*) خلال الفترة مابين سنة ١٩٢٥ وسنة ١٩٣٢ اشغل بور ديللون منصب قنصل ليعقبه في سنة ١٩٢٩ هيوبرت يونغ ، في حين جاء «باركلي نهل» في اعقاب دافد سن ، وفيفان هولت في اعقاب المس غرترود بل

(١) تألفت وزارة ياسين الهاشمي الاولى في اليوم الثاني من شهر آب ١٩٢٤ من كل من عبد المحسن السعدون للداخلية ، وساسون حسقيل للمالية ، وابراهيم الحيدري للاوقاف ورشيد عالي الكيلاني للعدالية ، ومزاحم الامين الباجهجي للاشغال=

محادثة تدعمها الاحزاب القائمة وكذلك الساسة العراقيون في ذلك الوقت ، كان لابد لها من ان تسقط مثل غيرها من الوزارات الاخرى،او ان تعيش بفضل اتفاق الآراء والمصادقة الملكية،او ان ينقصها هذان الامران

ولقد تميزت شهور سلطة الوزارة الهاشمية بانشغالها في قضية الموصل ، وبالخوف من خواء الخزينة.فهذا الفقر ، وهو الآفة المشتركة لكل الحكومات الناشئة،كان قد تضخم في عراق سنة ١٩٢٥ بانحطاط الاوضاع التجارية،وفقدان جزء من سوق التمور ، وتقلص تجارة المرور الفارسية، وسوء موسم الحصاد،وايرادات تلك السنة.وبذلك تطلب الوقت ، وبالحاح ، المزيد من النفقات وليس القليل منها

كان من اللازم توفير الاموال للجيش الذي يجري تشكيله الآن،والذي سيسعى على وجه السرعة لممارسة المسؤوليات الحيوية ، وكذلك الحصول على اموال من الحكومة البريطانية التي لم تكن في وضع تستطيع فيه ان تظهر تلميحات صريحة في هذا الشأن. كما ان تسوية قضية الديون العثمانية العامة قد القت بقسم جوهري منها على عاتق العراق،في الوقت الذي كانت فيه الخدمات العامة يجري تصويرها على نطاق اشتهر بادنى حد من التحمل،ولكن مايزال ذلك النطاق بعيدا ازاء الطاقة المالية

وعلى هذه الشاكلة فان الاستحالات الحسابية التي شاركت في هذا الوضع ، قد ادت في المبادرة في شهر اذار ١٩٢٤،بتوجيه دعوة الى ارسال بعثة مالية من الحكومة البريطانية كانت تضم كلا من «الاميرال هلتن يونغ» ، «والسيد فرنون». ولقد قامت هذه البعثة بدراسة الوضع، واعادت النظر فيه، ثم دافعت عن الاقتصاديات المحدودة،وراحت تتطلع الى تهدئة الثورة الحانقة التي اثارتها التزامات الديون العثمانية العامة ، واوصت بفرض رسوم كمركية عالية. لم تتم الموافقة على قسم كبير من المقترحات التي قدمتها اللجنة ولاسيما ماتعلق منها بفرض الضرائب الجديدة واعادة تنظيم الشؤون المالية[٢]

كانت الحكومة العراقية قد تقرر مصيرها في الواقع بان تظل قادرة على العمل ، ولكن مفلسة ، لسنوات قادمة وفي الوقت ذاته قام اثنان من اعضاء الوزارة البريطانية بزيارة العراق هما «امري» و «السر صموئيل هور» عرضت وزارة الهاشمي وهي اخر وزارة حكمت من دون

والمواصلات والشيخ محمد رضا الشبيبي للمعارف . وقد احتفظ الرئيس ياسين الهاشمي بمنصب وزير الدفاع وكالة ، واعلنت في مهاجها الذي اذاعته في اليوم الثامن من آب انها ستسرع في نشر القانون الاساسي ، وقانون انتخاب النواب ووضعها موضع التنفيذ وجمع المجلس النيابي وتقوية الشعور الوطني بكل الوسائل ، واستكمال اسباب الدفاع عن حقوق المملكة العراقية عامة ، وفي ولاية الموصل خاصة ، وتزييد قوات البلاد المسلحة

(٢) كتب المرحوم ياسين الهاشمي تعليقات ضافية على التقرير الذي وضعه «هلتن يونغ» في جريدة الاستقلال ومن ثم جمعت تلك المقالات في كتاب مستقل صدر بعد ذلك

برلمان خدماتها بنتائج قيمة خلال سنة واحدة.فقد كان من بين الاجراءات الاخرى التي اتخذتها ، وضع مشروع لكري ميناء الفاو ، وتوقيع اتفاق تجاري مع سوريا ، وتنظيم وضع الموظفين البريطانيين. اما القانون الاساسي فقد تأجل تشريعه من شهر تموز ١٩٢٤ الى شهر اذار ١٩٢٥ لكي يسمح باعداد قوائم الانتخابات وهي مهمة طويلة وشاقة ، وكذلك لتصفية قضية الموصل امام نظام الحكم الجديد ، كما جرت محاولة لقفزة كبيرة منتظرة الى امام تقوم بها الوزارة المذكورة

كملت الاستعدادات لعقد اجتماع للبرلمان في جلسة اعتيادية (وذلك لان الجلسات الاعتيادية لاتبدأ الا في شهر تشرين الثاني)وذلك في اواخر شهر حزيران ١٩٢٥ ، واصبح تغيير الوزارة امرا مؤكدا وبذلك القت الخلافات التي وقعت بين ياسين الهاشمي ووزير داخليته عبد المحسن السعدون على عاتق الحكومة الجديدة المقبلة مهمة حماية النظام البرلماني[٣]

عهدبرئاسة الوزارة الى عبد المحسن السعدون[٤] وقد ضمت وزارته هذه كلا من رشيد عالي الكيلاني والمحامي الحاذق ذا المواطنة العالمية رؤوف الجادرجي، ولو لفترة قصيرة،وصبيح نشأت والرجل الثري عبد الحسين الجلبي ، وناجي السويدي وحكمت سليمان (الأخ الاصغر للقائد التركي محمود شوكت باشا) والقومي المتطرف حمدي الباجه جي ، كما ضمت الوزارة في مشاركة اخيرة كلا من نوري السعيد ، وضابط المدفعية الكردي السابق والمؤلف محمد امين زكي. كملت الانتخابات وفي الحال عمد الملك الى تعيين عشرين عضوا في مجلس الاعيان ، ثم افتتح البرلمان في احتفال في اليوم السادس عشر من تموز سنة ١٩٢٥

ادى انتخاب رشيد عالي الكيلاني لرئاسة مجلس النواب ، الى ان يخلفه في منصبه حكمت سليمان وزيراً للداخلية،في حين اصبح القومي المجاهد يوسف السويدي ، والد ناجي وتوفيق ، رئيسا لمجلس الاعيان.ولقد بدأت الحكومة البرلمانية التي لم يشارك البريطانيون في اجراءاتها ، عملها بمنتهى الثقة،فكان مستوى النقاش محترما ، وكانت المعارضة التي يتزعمها ياسين الهاشمي بعيدة عن الاعتدال.ولقد مددت الحياة البرلمانية في جلستها الاولى مرتين وتواصلت حتى شهر

---

(٣) كانت اسباب هذه الخلافات هي الشكاوى التي كان عبد المحسن السعدون يقدمها الى الملك فيصل ضد السيد ياسين الهاشمي متهما اياه بانه يريد ان يجعل من وزرائه بمثابة كتبة ، في حين كان الهاشمي يتهم السعدون بموالاة الاتراك ولقد ذكر المرحوم طه الهاشمي في الجزء الاول من مذكراته ص ٩٠ ان «الملك هو الذي اوعز الى (نوري السعيد) ليتفق مع محسن ، وانه اوعز الى محسن ان يخالف ياسين وهذا الايعاز هو الذي ادى الى سقوط الوزارة،ويظهر من هذا ان الملك لايرغب ان تبقى الوزارة مدة طويلة خصوصا اذا كان على رأسها رجل ذو ارادة قوية كالهاشمي»

(٤) تألفت وزارة السعدون ، وهي الثانية،في السادس والعشرين من شهر حزيران ١٩٢٥ وكان ناجي السويدي وزيرا للعدل فيها ، وصبيح نشأت للدفاع ، ولم يكن محمد امين زكي عضوا فيها عند تشكيلها وانما عين لمنصب وزير الاشغال والمواصلات في ١٤ تشرين الثاني بعد ان حل عبد الحسين الجلبي وزير الاشغال السابق في وزارة المعارف خلفاً للسيد حكمت سليمان الذي نقل الى وزارة الداخلية

حزيران سنة ١٩٢٦ وعالجت منهاجا كثيفاً من التشريعات،بما في ذلك اجراء اول تعديل للقانون الاساسي،تم تصميمه لغرض توفير وصاية محتملة وللجلسات غير الاعتيادية ، كما تمت الموافقة على الميزانية والمصادقة عليها فيما بعد ولقد ادت المهاترات التي وقعت في مجلس النواب الى تخلي رشيد عالي الكيلاني عن رئاسته[٥] حيث اعقبه فيها حكمت سليمان•اما منصب وزير المالية الذي كان الاخير يحتله،فقد تولاه محافظ الموصل ، الرجل العاقل المعتدل عبد العزيز القصاب

وفي صيف ١٩٢٦ كان اسلوب المسلك البرلماني قد تم تكوينه ، غير انه كان واضحا منذ البداية بان تأخر العملية الانتخابية والسلطة التي استخدمتها الحكومة بكل حرية لضمان انتخاب النواب الذين اختارتهم بنفسها لم تكن الا ان تسبق اي احتمال مبكر لقيام ديمقراطية اصيلة

بدات الادارة التي ورث نصفها عن الاتراك ، ووضع النصف الاخر من قبل البريطانيين ، تباشر عملها بصفة جيدة•ومع وجود الكثير من النواقص والتجاوزات ، فقد شرعت الادارة تعمل منذ البداية بصفة اكثر سعة ، واوفر تأثيراً مما حققته اية حكومة تركية سابقة ، ذلك لانها استهدفت تحقيق مستوى رفيعاً من الخدمة.

ففي بغداد اخذت الدوائر تحت اشراف كل وزارة تحسن تنظيمها ، وتجري الغربلة بين موظفيها ، وتتقدم باتجاه تحقيق السيطرة العراقية الكاملة وفي سنة ١٩٢٦ لم تكن كل الوزارات الفعالة تحت سيطرة العراقيين حسب ، بل ان معظم الدوائر الكبرى قد تم تسليمها الى مدراء عراقيين ، وعلى الاخص ماتعلق منها بدوائر الصحة ، والمعارف ، والزراعة ، والبريد والبرق ، والحسابات الحكومية ، والشرطة ، والسجون ، ودوائر النفوس اما دوائر الري والتسجيل العقاري ، والكمارك والواردات واملاك الدولة ، والخدمات البيطرية ، والاشغال العامة ، وميناء البصرة وسكك الحديد ، فان هذه قد بقيت لفترة اخرى تحت السيطرة التنفيذية البريطانية

وفي المحافظات تم استخدام اقضية ونواحي جديدة واعادة تجميعها كان مركز الاستشارة الادارية البريطانية ، محددا بشكل واف بالقانون فقد كان المجلس الاستشاري القائم ، ينتخب موظفين عراقيين للوظائف العالية وكان يجري بالفعل انشاء خدمة مدنية منتظمة حسب الاسس العصرية مثال ذلك ان وزارة المالية التي عهد بمهمة الاستشارة فيها في سنة ١٩٢٥ الى

---

(٥) ذكر ساطع الحصري في مذكراته (مذكراتي في العراق ج ، ص ٢٧٦) ان عبد المحسن السعدون قال له «لما الفت هذه الوزارة اردت ان اخرج على العادة المتبعة منذ البداية في توجيه وزارة المعارف الى عبد الحسين الجلبي بل اسندتها الى حكمت سليمان واما عبد الحسين الجلبي فقد اسندت اليه وزارة الاشغال والمواصلات،غير ان التجربة اظهرت لي خلال هذه المدة القصيرة بانني كنت مخطئا•فقد كانت تأتي الى مجلس الوزراء من وزارة الاشغال تقارير مقترحات تحمل توقيع الوزير عبد الحسين الجلبي . وعندما يريد الوزراء ان يستوضحوا منه بعض الامور بناقشوه، يظهر لهم ان الوزير لايفهم شيئا عن القضية التي عرضها على مجلس الوزراء تحت توقيعه ولم ير الوزراء من الموافق للمصلحة استدعاء احد البريطانيين الى مجلس الوزراء فرأيت من الضروري ان اعيد عبد الحسين الجلبي الى وزارة المعارف»

السيد «فرنون» بعد ان بقيت خالية لفترة في عهد «سوان» هذه الوزارة قد تطورت ، وتخصص تنظيمها ، وقلص عدد الموظفين غير العراقيين فيها ، الى ادنى حد ممكن

كذلك تم تأسيس مديرية التفتيش المالي وفي سنة ١٩٢٤ احدثت وظيفة المدقق العام التي ربطت بمجلس الوزراء مباشرة[٦] وعهد بها الى السيد «باربلي» الذي كان يعمل في المالية العراقية منذ انشائها في سنة ١٩١٧ وعهد بمهمة الاستشارة في وزارة الاشغال الى السيد «ويتلي» الى حين وصول «بوري» اليها في سنة ١٩٢٥ ، وقد استمرت بعد مغادرة هذا الاخير لمدة ثلاث سنوات

اما في وزارة الداخلية فقد كان السر كنهان كورنواليس يتلقى المعونة من لدن ثلاثة من مستشاريه الاداريين وهم كل من السيد «بولي» و «ولسون» و «ادموندز» ، ومن قبل واحد او اكثر من المستشارين الصغار

ولقد وفرت المحاكم العدل ، وتقبل الاحكام التي تصدرها الى مدى رفيع بالنسبة الى المحاكم العثمانية الشاذة الفاسدة ففي خلال هذه السنوات كانت المحاكم المدنية والجزائية متعددة في مركز كل محافظة ، وقضاء كلما تطلبت الحاجة ذلك وكانت احصاءات الدعاوى التي يتم سماعها ، تبرز التطبيق المتزايد للقانون ولقد اودعت الاحكام المدنية الى المحاكم المدنية في الاقضية ، وتم تعيين حكام صغار السن ، واسست محاكم الدرجة الاولى في مراكز ثلاث او اربع محافظات ، كما اسست محكمة واحدة للاستئناف والتمييز في بغداد يرأسها حاكم بريطاني ولقد ترأس هذه المحكمة خلال سنة ١٩٢٠ ١٩٢١ السيد فوربس ، وفي سنة ١٩٢١ — ١٩٢٢ السيد «بل» ثم خلفه فيها السيد الكسندر في سنة ١٩٣٤

وحين انتقل «دافدسون» مستشار وزارة العدل ، الى هيئة الموظفين العليا ، سلم منصبه السابق الى السيد «دراور» الذي بقي مستشارا لوزارة العدل حتى سنة ١٩٤٦ ولقد بقيت احكام «المجلة» وقانون الاجراء والقوانين التجارية والبحرية التركية ، سارية المفعول وكانت المحاكم الجزائية في ايدي حكام منفردين ، لكل حاكم منهم سلطات من الدرجة الاولى والثانية او الثالثة ، بينما كانت محاكم الاستئناف تملك حق التمييز ايضا ، في ذات الوقت الذي بقيت فيه بعض السلطات القضائية المحدودة في ايدي البعض من الموظفين الاداريين ، والهيئات البلدية

ولقد بقي قانون دعاوى العشائر ساري المفعول وكان هذا القانون محبوبا من لدن الموظفين الاداريين ، لكنه كان ممقوتا من قبل اصحاب العقول القانونية ولقد جرى تحديد حقوق الاجانب ، وان كانت تفضيلية ، الا انها لم تكن من قبل الامتيازات الاجنبية ، طبقا لاتفاق

---

(٦) يقصد بوظيفة المدقق العام مراقب الحسابات العام ، او مديرية الرقابة المالية التي كانت في اول الامر يعين لها رئيس او مدير بدرجة وزير من امثال توفيق النائب الذي شغل هذه المهمة عدة سنوات

قضائي تم التوصل اليه في هذا الشأن وبذلت جهود غير ناجحة في انشاء نقابة تضم المحامين المثيرين للشغب وغير المتدربين على المهنة،والتي كان ينتمي اليها خريجو مدرسة الحقوق كل سنة

* * *

كانت القوى التي تحمي القانون والامن في هذه الفترة تتألف من اربع:هي الجيش العراقي ، والقوات البريطانية البرية والجوية ، وقوات المرتزقة العراقية ، والشرطة كان الجيش العراقي الذي تأسس على اساس قاعدة التطوع ابتداء من سنة ١٩٢١ وما بعدها ، وضمن حدوده التي كانت تنشد احدث الاسس ، قد ارتفعت قوته في سنة ١٩٢٥ الى سبعة الاف وخمسمائة رجل ولقد بقى هذا الجيش ثابتاً في حدود تأسيسه هذه طيلة السنوات الثمان التي اعقبت ذلك فقد كانت هناك ستة افواج من المشاة ، وثلاث كتائب من الخيالة ، وكتيبتان جبليتان ، وبطرية ميدان واحدة ، بالاضافة الى كل الخدمات الضرورية

كان معظم الضباط ممن خدموا في الجيش العثماني ، ولكن الصنوف الواطئة ، كانت قابلة على الاقل ، للتكيف حسب المستويات الحديثة وشاركت وحدات الجيش في كثير من العمليات الصغرى التي استخدمت ضد الاعتداءات العشائرية ، لكنها طبقت خدمة اكثر جدية في مناطق كردستان،وان كانت قد لحقت بها بعض الخسائر هناك ولقد وجه اهتمام كبير الى مركز تدريب الجيش والى الكلية العسكرية الملكية ، حيث اعيد تشكيل البعثة العسكرية البريطانية من جديد،وزيد عدد افرادها في سنة ١٩٢٥(*) في هذا التأريخ كان دور الجيش العراقي يعتبر خلفا للقيام بكل المهمات البرية التي كانت تقوم بها القوات البريطانية،والتي اشير اليها بوضوح

فلقد تقلصت اعمال القوات البريطانية بشكل متقدم الى ان تلاشت في الواقع في سنة ١٩٢٩ ففي سنة ١٩٢١ كانت هناك ثلاثة افواج من المشاة وست كتائب من الخيالة ، وست عشرة بطرية وسرية للالغام والسيارات المدرعة وقد خفضت هذه القوات في سنة ١٩٢٦ الى ثلاثة افواج ومن ثم الى فوجين في سنة ١٩٢٧ واخيرا الى فوج واحد سنة ١٩٢٨ حيث اختفت نهائيا في سنة ١٩٢٩،في الوقت الذي بقيت فيه العناصر البريطانية العسكرية المميزة للعراق اثناء الاحتلال ، بعيدة بعد ذلك التأريخ حتى سنة ١٩٤١

اما القوة الجوية البريطانية التي كانت تحت امرة قواد متتابعين من صنوف عالية ، وكلهم تقريبا ممن قدر لهم ان يظفروا بالشهرة خلال الحرب العالمية الثانية ، فقد بقيت لكي تقدم المساعدة القيمة للحكومة العراقية في كثير من المناسبات فهذه الخدمات المرغوب فيها ،

(*) تألف رؤساء البعثة العسكرية البريطانية والمستشارون لوزارة الدفاع من كل من العقيد جويس ، سنة ١٩٢١ ، والفريق ادالي سنة ١٩٢٥ ، والفريق «لوج» سنة ١٩٢٨، والفريق روان روبنسون سنة ١٩٣٧ ، والفريق ووتر هاوس سنة ١٩٣٨ ، والفريق بروميلو سنة ١٩٤٢ والفريق رنتن سنة ١٩٤٤

والشخصيات الآمرة للقوات الجوية(**) كانت ظاهرة على نطاق واسع وغير محمودة امام الجمهور العراقي ولقد تعاظمت القوة الجوية البريطانية من اربعة اسراب في سنة ١٩٢١ الى سنة اسراب،ثم الى ثمانية اسراب في الفترة ما بين سنتي ١٩٢٢ و ١٩٢٦ ، ومن ثم جرى تخفيضها مرة اخرى الى خمسة اسراب ، ثم الى اربعة اسراب في سنتي ١٩٢٨ و ١٩٣٠،وكان لها اوسع تعاون متواصل مع قوات المرتزقة

اما قوات المرتزقة التي اجريت التغييرات في مواقعها وتنظيمها منذ ان كانت مبعثرة في البدايات الاولى لها ، والتي اظهرت سرعة ثابتة ، خلال الايام السوداء اثناء ثورة ١٩٤٠ ، فقد اتخذت مواقعها في اوائل سنة ١٩٢٢،باعتبارها قوة يسيطر عليها البريطانيون وهم الذين يدفعون نفقاتها ومرتباتها(***) وتخضع لتصرفهم ، وينطوي الغرض من انشائها على مساعدة السلطات العراقية ، وكانت تخضع لامرة ضابط عام (اصبح هذا الضابط في الاخير من ضباط القوة الجوية البريطانية) واخيرا وفي سنة ١٩٢٢ حصلت قوات المرتزقة على ثلاث كتائب خيالة اثنتان منها من الاكراد ، وفوجين من الآثوريين ، وفوج من العرب سكان الاهوار ، وبطرية محمولة من الاثوريين

ولقد بلغ مجموع القوات المرتزقة حوالي سبعة الاف وخمسمائة رجل ، كل ضباطها من البريطانيين والعرب والاثوريين وكانت قيمة القوات واضحة باعتبارها قوة اسعاف للحاميات البريطانية المتجهة الى شمال العراق ولقد كان من سوء الحظ ان ثارت المشاعر غير الودية ، نتيجة الفروق في الولاء والسلوك ، بين العناصر الاثورية في السنوات الاخيرة، وبين السلطات العراقية غير ان الخدمات التي ادتها قوات المرتزقة للعراق كانت لها قيمتها ومحترمة ، في حين كانت المنافع الاقتصادية التي ادتها الخدمة في القوات المرتزقة للطائفة الاثورية مهمة[٧]

* * *

(**) كان آمرو القوة الجوية البريطانية من سنة ١٩٢٢،عندما الحقت بقيادة الجيش البريطاني حتى الحرب العالمية الثانية،يتألفون من كل من نائب مارشال الجو السر جون سالموند ، ١٩٢٢ ، والسر هجنس سنة ١٩٢٥ ، والسر النغتون سنة ١٩٢٧ ، والسر بروك بوبهام سنة ١٩٢٩ ولودلو هوايت ١٩٣١ وبورنيت ١٩٣٣ ، وميتشل سنة ١٩٣٥ ، و كورتني سنة ١٩٣٧، ، وتايسن سنة ١٩٣٩ وسمارت سنة ١٩٤٠

(***) كان آمرو القوات المرتزقة بالتتابع منذ تنظيمها الاول في تشكيلة واحدة،هم المقدم بويل في سنة ١٩٢٠ ، العقيد فرت ١٩٢١ اللواء سالدر جاكسون ١٩٢١ والعقيد دوبن ١٩٢٢ اللواء براون ١٩٢٦

(٧) لم يكن لقوات المرتزقة اي نفع او خدمة للعراق ، ذلك لان الهدف الرئيس من انشائها هو حماية المعسكرات الانكليزية ، واستخدامها قوة اضافية مقاتلة الى جانب القوات البريطانية النظامية في مقاومة الانتفاضات الوطنية كما حدث ذلك على نطاق واسع اثناء ثورة ايار سنة ١٩٤١ ولقد كان التدريب الذي تلقاه الاثوريون في هذه القوات على ايدي الانكليز ، من العوامل الرئيسة التي شجعت الطائفة الاثورية على اقتراف اعمال التمرد والقتل التي قاموا بها في صيف ١٩٣٣

نمت قوات الشرطة خلال هذه السنوات ، فتحولت الى قوة ، تحظى كفاءتها وحسن اخلاقها بالاعجاب على وجه التعميم في كل مكان كان يتم اختيار افراد الشرطة بصفة جيدة ، وتزويدهم بالمعدات ، وتدريبهم وتعيين ضباطهم تحت امرة عراقية متنفذة،تتم مساعدتها وتفتيشها من قبل المستر «برسكوت» وضباطه الفاخرين ومع ان الجريمة ماتزال تقع ومن دون عائق غالبا بين العشائر النائية ، الا ان الشرطة التي كانت تنهض بواجبات «الشبانة» القديمة ، قد استطاعت ان تتغلغل عميقا اكثر من ذي قبل في المناطق الريفية ، وان تقوم بحراسة الطرق ، وتساند الموظفين الاداريين ، وتساهم في اداء الخدمة الفعالة مع القوات العسكرية[٨]

وهناك قوة تم اختيارها بصفة خاصة تتألف من راكبي الابل[٩] او المجهزة بسيارات مدرعة اذا مادعت الحاجة الى ذلك ، قد تم تنظيمها الان لاغراض العمل في الصحراء في منطقة الجزيرة ، اي في الدليم والصحراء الجنوبية وفي مراكز الشرطة انتقلت الدوائر المتخصصة في امور الجريمة ، والتحريات الخاصة ، وطبع الاصابع ، والجوازات والتدريب من ايدي البريطانيين الى ايدي العراقيين . ولقد غدت قوة الشرطة التي كانت في سنة ١٩٢١ تقل عن ثلاثة الاف رجل تزيد عن الثمانية الاف رجل خلال السنوات العشر الاخيرة وفي خلال هذه المدة تم تخفيض عدد ضباط الشرطة البريطانيين من اثنين وعشرين ضابطا الى اثني عشر ضابطا ، في حين ازداد عدد الضباط العراقيين من ضابطين الى ستين ضابطا وحدث تقدم كبير في دوائر السجون المدنية فتطورت صناعات السجون تحت الادارة العراقية تطورا كبيرا ، بعد سنة ١٩٣٠

* * *

اما الحياة المدنية في العراق والتي اخذت شكلها العصري في هذه السنوات ، وابرزت ذوقها في المنظر وفي المناخ عما كانت عليه في العهد التركي ، فقد اعيق تطورها بشكل محزن نتيجة الفقر . وقد ادى هذا الامر الى تحديد الفعاليات التي كانت تقوم بها البلديات ودوائر الحكومة المركزية التي كان عملها مدنياً بصفة رئيسة ومع كل ذلك ، فان الصيانة ، والنظافة ، وانارة الشوارع ، ومد انابيب المياه فيها ، وكذلك الامانة العامة للطاقة اللتين اظهرهما موظفو البلديات ، كل هذه قد اظهرت تحسنا عميقا بالنسبة الى المستويات التي كانت عليها في العهد التركي

---

(٨) تألفت قوة الشبانة ، بعد الاحتلال الانكليزي للعراق ، من بعض ابناء المدن والعشائر وعلى الاخص في مناطق الناصرية والديوانية وكان غلوب باشا في وقت من الاوقات يترأس قوات الشبانة هذه ، وقد التحق عدد من افرادها بالجيش الاردني فيما بعد ، حيث تولى غلوب الاشراف على هذا الجيش ، الى ان تم اخراجه من الاردن في اواخر سني الاربعينات وبعد انتفاضة كانون الثاني ضد معاهدة بورت سموث في العراق

(٩) اي قوات الهجانة اما الشرطة التي جهزت بالسيارات المصفحة فقد عرفت باسم قوات الشرطة الآلية في اول الامر،ثم غدت تعرف باسم «الشرطة السيارة» وزادت تشكيلاتها في اوائل سني الخمسينات عن اكثر من لواء وشاركت مشاركة فعالة مع قوات الجيش النظامي في مقاومة حركات التمرد بين العشائر والاكراد

اصبح ارتداء «السدارة» لباس الراس العراقي المتميز ، والتي ازاحت الطربوش «الفيس» التركي ، امرا جماعيا في المدن كذلك تم اختيار الزي الاوربي في الملبس الذي كان يقتصر على الطبقة العراقية الرفيعة ، والاوساط الحزبية ، بصفة اكثر فاكثر من لدن سكان المدن وكثيرين من رؤساء العشائر الذين كانوا يقيمون بصفة دائمة في العاصمة بغداد كذلك اصاب التحول مدينة الموصل بالشوارع الجديدة التي شقت فيها ، وبالجسر الذي انشىء فيها ، ومشروع اسالة الماء ، والمباني العامة والحدائق

واتسعت مدينة البصرة الى ثلاثة اضعاف ماكانت عليه ، وذلك بالتراث الذي حققه الميناء خلال الحرب ، وبالتطور الاساسي ، وبالتوحيد الذي طرأ الان على ضواحي العشار ، والمعقل والمكينة[10] والتي راحت تتباهى بالجسور الحديثة والشوارع المحسنة وكان من افخم مستشفيات العراق موجودا هناك وهو مستشفى «تذكارمود»[11] والابنية السكنية والتجارية الحديثة

* * *

اما بغداد التي كانت بلديتها تعتبر بمثابة ولاية منفصلة في الحكومة«الهيرارشية» تحت امرة «امين العاصمة» فقد كان في مقدورها ان تبرز الابنية الجديدة ، من امثال «كلية آل البيت» ، والبلاط الملكي ، وتمثال «مود» وغيرها وكانت بغداد تمتلك مصلحة عصرية للاطفاء ، وفنادق من طراز غربي ، وحوانيت كاملة ، بما في ذلك بعض الحوانيت الاوربية ، واسالة محسنة للماء ، وفروع لثلاثة مصارف هي المصرف الشرقي ، والمصرف العثماني ، والمصرف الفارسي ، والعشرات من وكالات السلع الاوربية ، ونوادي بريطانية وعراقية معا ، ومستوصف بلدية ، ومحكمة بلدية ومع ان شوارع بغداد ماتزال غير مخططة وغير معبدة الا انها كانت مضاءة اضاءة جيدة ، وهي تزدحم بوسائط النقل الالية ، وتحاول ان توفر صيانة ونظافة وتنظيما اوسع

كان تكييف امتياز الترامواي القديم الذي عقد في سنة ١٩١٢ ، يجري النقاش بشأنه[12] وفي البلديات الصغيرة التي كانت مواردها ناقصة اذا اما قيست مع متطلباتها التي يجري تصورها الان ، كانت توجد دلائل على الحياة الجديدة في المشروعات الكاملة ، او التي بدئ بها ، من امثال مشاريع الاضاءة الكهربية ، ونظافة الشوارع ، وانشاء الجسور وحدائق المدن ، وكذلك الشيء الكثير من المشاريع الصغيرة التي كان اللغط يدور حول المباهاة بها

ولقد عادت الادارة البلدية الى النمط التركي،وذلك عن طريق مجلس بلدي منتخب ،

---

(١٠) المكينة هي ماكنة «السوس» القريبة من نهير «الخندق» الكبير.

(١١) مستشفى تذكار مود الذي اقيم في بداية الطريق الممتد من مدينة البصرة القديمة الى الزبير وقد ابدل اسمه وحول الى مستشفى عصري.

(١٢) انشأت هذا الترامواي شركة اهلية ظلت تستخدمه بين بغداد والكاظمية حتى سنة ١٩٤٦

ورئيس للبلدية يتم تعيينه ، وقد تم ذلك بازالة كثير من العيوب،والغاء الكثير من الوظائف التي لم تكن اعمالها توازاي المرتبات المعينة لها

وفي الوقت الذي اعدت فيه الخرائط الحديثة والصحيحة للتخطيط الذي يشمل كل المدن وكثيراً من القرى ، والتي وضعت ، بصفة غالبة ، على اساس التصوير الجوي المتخصص ، ثبتت حقوق الملكية بصفة افضل،وكان لها تأثيرها الحسن على المشاريع المدنية

* * *

اصبحت الخدمات التربيوية والطبية منظورة بصفة افضل ، واظهرت تقدما جوهريا بالمقارنة مع المستويات التي كانت عليها في العهد التركي لقد كان الجمهور يحس بهذه الخدمات ابتداء من العاصمة والمدن حتى القرى ولكن هذه الخدمات كان يعتورها العطل دوما ، نتيجة نقص الاموال ، والمعلمين ، والمشرفين والمدربين . وكان هناك صراع في الآراء حول سياسة التعليم فقد كان «سمث» المستشار البريطاني ، يشعر بان التعليم يجب قبل كل شيء ان يكون صحيحا ، وان يقوم على اساس القيم الخلقية ، في حين كان المعارضون لرأيه هذا ، يريدون المزيد من المدارس مهما كان عدد المعلمين فيها ، ومهما كان نوع المستويات ، لان هذه المدارس كانت تعتبر في نظرهم دواءاً لمعالجة التخلف واذا مابقي جيل متأخراً كان يحرض طائفة المثقفين العراقيين ضد البريطانيين ، بسبب انه لم يحدث سوى الشيء الضئيل في ميدان التعليم خلال هذه السنوات العشر، فان الدفاع ازاء ذلك يجب ان يكون بالرد، بانه لايمكن تحقيق سوى قيمة ضئيلة من وراء الامية الجماعية التي كان يجري انتاجها، حتى وان توفرت الاموال، والابنية والتجهيزات، والمعلمين، مع العلم بان هذه الامور لم تكن متوفرة في الواقع.

وفي الوقت ذاته كانت وزارة التربية «المعارف» اول وزارة اصبحت الهيئة التنفذية فيها عراقية منذ سنة ١٩٢٣ فلقد تضاعف عدد المدارس الحكومية الابتدائية من اقل من مائة مدرسة الى اكثر من مائتين . وبدأ المتخرجون في المدارس الثانوية القليلة في المدن الثلاث في سنة ١٩٢٤ [١٣] وفتحت صفوف مسائية لتدريب معلمي المدارس الثانوية ، وكانت هذه الصفوف هي المرحلة الاولى لكلية تدريب المعلمين فيما بعد[١٤]

فتحت كليات اعداد المعلمين الابتدائية في بغداد[١٥] للرجال ، واعدت دور منفصلة للنساء[١٦] وفي الكليات السابقة تدرب بعض الطلبة ، بصفة خاصة على التعليم ، في المدارس الريفية ، ولكن وصل ذلك الى مستوى وجد بانه غير كامل في النهاية ومع ذلك فلم يكن هناك

---

(١٣) تدخل المدارس المتوسطة ضمن عبارة المدارس الثانوية وقد ظهرت لاول مرة في مدن بغداد والبصرة والموصل

(١٤) هي التي عرفت باسم دار المعلمين العالية انذاك ثم اصبحت كلية التربية فيما بعد ومازال قائمة في الوقت الحاضر.

(١٥) المقصود بهذه الكليات دور المعلمين وهي دار المعلمين بصنفيها الاولى والممتاز.

(١٦) اي دار المعلمات

تعليم ثانوي للبنات عدا المدارس الخاصة كانت المدارس الثانوية الحكومية للبنين قليلة ، وانشئت مدارس تقنية فيما عدا المرحلة الابتدائية ، في كل من بغداد والموصل حسب[١٧] ثم فتحت مدرسة ثانوية امريكية للبنين تحت اشراف الدكتور «كولن ستورت» في سنة ١٩٢١ ، كما فتحت مدرسة اخرى مماثلة للبنات في سنة ١٩٢٥ وكانت المدرستان في بغداد[١٨]، وهي احد مشاريع الكنيسة الهولندية المجددة ، اما الثانية فهي من مشاريع البعثة التبشيرية الموحدة في العراق

اما كلية آل البيت التي كرس لها الملك اهتمامه ووفرت لها وزارة الاوقاف الاموال اللازمة ، فكانت تقدم دروسا عن الفقه الاسلامي

* * *

ولم تهمل القيمة الاثرية الهائلة التي يتميز بها العراق فقد تواصلت اعمال التنقيب عن الآثار في سنة ١٩٢٢ وشاركت بعد ذلك التاريخ هيئات متعلمة من البريطانيين والامريكيين في اعمال التنقيب في كل من «أور» و «كيش» و «ترغلان» على مقربة من كركوك

وتم توزيع ماعثر عليه المنقبون الالمان في خرائب بابل واصبح المتحف العراقي الذي انشىء في غرفة واحدة في سنة ١٩٢٤ يحتل دارا موسعة بعد سنتين من ذلك التاريخ[١٩] وتم تشريع قانون ملائم للاثار . وكان هذا المتحف وجميع الشؤون الاثرية تدار ، بناء على طلب الملك فيصل ، من قبل المس غيرترود بل، والتي ظلت تحتل منصب المدير الفخري للمتحف حتى وفاتها حيث خلفها في عملها «ريجارد كوك» مفتش الاوقاف[٢٠]

* * *

---

(١٧) هي التي عرفت باسم مدارس الصناعة

(١٨) المقصود بها مدرسة الرجاء الثانوية في البصرة والتي كان يديرها المبشر الامريكي «فان ايس» الذي عاش فترة طويلة في العراق ووضع كتابا بالانكليزية عن اللهجة العراقية الدارجة، وكانت هذه المدرسة تدار مثل غيرها من المدارس التي انشئت في بغداد من قبل بعثات التبشير الامريكية ولقد تحولت الثانوية الامريكية في بغداد الى كلية عرفت باسم كلية «بغداد» كما توسع نشاط المبشرين الامريكيين في ميدان التعليم فانشئت في اوائل سني الخمسينات «جامعة الحكمة» التي بنيت لها بناية خاصة وواسعة على الطريق المار بين معسكر الرشيد وجسر ديالى وقد اممت هذه الجامعة مع غيرها من المدارس الاهلية الاخرى في اوائل سني السبعينات وتقوم كلية التكنلوجيا في نفس البناية التي كانت تشغلها جامعة الحكمة قبلا وحولت مكتبتها القيمة التي اشترتها من ورثة الباحث يعقوب سركيس الى مكتبة المتحف العراقي بعد التأميم مباشرة

(١٩) كان المتحف يقوم في بناية صغيرة ذات طابقين في شارع الامين الى ان تمت اقامة البناية الحديثة له في جانب الكرخ بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ وما تزال حتى هذه البناية التي انفق على انشائها في حينه اكثر من خمسة ملايين دينارا ، ضيقة لانها بحاجات التوسع وعلى الاخص المكتبة وقاعة المخطوطات حيث ماتزال الوف المخطوطات مكدسة في الصناديق لعدم وجود مكان تحفظ فيه ويمكن ان يستفيد منها الدارسون

(٢٠) سطا كوك على كثير من الاثار في المتحف وحاول تهريبها الى خارج العراق فتم كشفها واسترجاعها منه وقد حدثت جراء ذلك ضجة واسعة في دوائر الدولة وفي الصحف ودوائر المعارضة بصفة خاصة

اخذت مصلحة الصحة التي كانت تحت امرة مدير عراقي منذ سنة ١٩٢٢ وبوجود الدكتور هالينان المفتش العام فيها ، تتطور تطورا بطيئا لكنه مصيبا فقد كانت تحتفظ بمستشفيات لها في المراكز الرئيسة ، وبمستوصفات في المدن ، وبالمحاجر وخدمات الحجاج الاخرى ، وبالمعاهد المتخصصة في امراض الرمد ، ومعهد الاشعة ، والمعهد الباثيولوجي ، والعلاجات المضادة لداء الكلب ، والدورات التدريبية في ميدان الصيدلة والتمريض

ولقد ازداد عدد الخمسة والعشرين طبيبا عراقياً ولبنانيا الذين تم استخدامهم في سنة ١٩٢١ الى اكثر من ثمانين طبيبا في بحر عشر سنوات ، وهبط عدد الاطباء البريطانيين في ذات المدة من اربعين طبيبا الى عشرين كما هبط عدد الممرضات الانكليزيات من اربع وعشرين ممرضة الى احدى عشرة ممرضة ، في حين هبط عدد الموظفين الهنود التابعين للصحة من اكثر من مائتي موظف الى اربعة موظفين حسب ، هذا في الوقت الذي ارتفعت فيه نسبة المرضى الذين اخذوا يقبلون على المستشفيات والمستوصفات من خمسة عشر الف وسبعمائة مريض في سنة ١٩٢١ الى مليون وستمائة الف مريض في سنة ١٩٢٦ وكان من المؤكد ان يتضاعف هذا العدد في سنة ١٩٥٠

وكان لمؤسسة سكك حديد الحكومة العراقية خدماتها الصحية المنفصلة كذلك استمر المستشفى اليهودي ، مستشفى مير الياس ، في بغداد ، يعمل بصفة مستقلة كذلك تم التصدي جيدا لوافدة الكوليرا الحادة التي وقعت في سنة ١٩٢٣

وفي عالم العشائر ، كان بروز شيء من الروح الجديدة فيه ، يبشر بالامل في مستقبل من السلام والاستقرار . ومع وجود الاساس الاقتصادي للاضطراب العشائري ، وعدم التاكد من حقوق الاراضي ، وادعاءات المتغيبين من اصحاب الاراضي ، وعدم السيطرة على مياه الري ، وانعدام الامن ، ووجود الحصص الضئيلة من الناتج بصفة غير عادلة ، كل هذه القضايا بقيت من دون تغيير .

ومع ان الكثيرين من افراد العشائر ، يعتبرون حكومات الشيوخ المحلية ، او حتى الفوضى ، هي النموذج ، الا انه كانت توجد قوى اخرى تقف الى جانب النظام والتقدم

فمثل هذه القوى من الشرطة ، او الاعمال التأديبية ، التي اضطرت الحكومة الى استخدامها خلال الفترة مابين سنتي ١٩٢٢ و ١٩٢٦ ، كان لها تأثير مغاير . ذلك ان العداوات قديمة العهد ، كتلك التي كانت قائمة بين عانة وراوة ، قد تم حصرها كما تقلصت اعمال استيفاء الاتاوات ، والغارات التي كانت تقوم بها عشائر شمر . وقد تحولت منطقة الجبايش في الاهوار الى وضع اكثر سعادة بعد ان تمت ازاحة الشخص المسيطر عليها وهو «سالم خيون»[21] كذلك

---

(١) عرف سالم الخيون بموالاته الانكليز عند الاحتلال وعندما تألفت الحكومة الوطنية في العراق لم يخضع لسلطانها واعلن التمرد فجردت الحكومة قوة عسكرية تأديبية ضده في اواخر سنة ١٩٢٤ ورغم ما اسدي اليه من نصائح بقي مستمرا في تمرده وتحريض =

تمّ القضاء على الاعمال الخارجة على القانون والطاعة في مناطق عفك والسماوة ، وفي كل مكان آخر، حيث انزل العقاب عن العشرات من الاعتداءات العشائرية وكان لشق الطرق في مناطق اواسط الفرات التي تتقاطعا الاهوار ، واقامة مراكز الشرطة المشيدة تشييدا صحيحا ، واعمال الحراسة المنتظمة التي تقوم بها الشرطة الخيالة ، او التي تستعمل السيارات المصفحة ، تأثير حسن كما ان سياسة الحكومة العشائرية بحد ذاتها قد طرأ عليها شيء من الاعتدال

كان من اسباب الثورة في سنة ١٩٢٠ ، منح السلطات التنفيذية لرؤساء العشائر طبقا للسياسة البريطانية ولذلك كان الموقف يتطلب بالحاح ايجاد طبقة عراقية تكون مدنية بصفة جوهرية، ومناهضة لتصرفات العشائر. ولغرض التغلغل داخل العشائر، وتحطيمها ، واضعافها ، وتمدينها ، كانت سياسية الحكومة مشابهة لما كانت عليه في العهد العثماني، وبقيت في ذات النطاق وحتى رؤساء العشائر الذين انتخبوا في البرلمان ، او الذين انضموا الى الحركات الحزبية ، وحصلوا على مراكز وزارية ، اصبحوا الان يفكرون في البحث عن مصالحهم، وذلك عن طريق عمل تقوم به الحكومة بدلا من اللجوء الى اعمال التمرد العشائرية

وتبين التقارير التي وضعت في سنة ١٩٢٦ مدى الرضا الناتج من انخفاض الغزوات العشائرية ، ورغبة افراد العشائر بالاجراءات التي تتخذها مراكز الشرطة ، وفي السيطرة الحكومية الجيدة ، والاستفادة من تطبيق نظام المنازعات العشائرية [٢٢]

العشائر في منطقته للعصيان ضد الحكومة ، واذ ذاك جردت حملة جديدة ضده فقضت على تمرده وانزال العقاب به بعد ان قصفت منطقته حيث سلم نفسه الى المقدم «بولي» الحاكم السياسي البريطاني وقد ادعى سالم الخيون في كتاب وجهه الى السيد عبد الرزاق الحسني مؤلف تاريخ الوزارات العراقية بان عبد المحسن السعدون هو الذي وجه الاعمال التأديبية ضده «حتى اذا جاء (السعدون) وزيرا للداخلية في وزارة ياسين الهاشمي ، وكنت عارضت المعاهدة وعارضت انتخابه (اي السعدون) رئيساً للمجلس التأسيسي اتهمني بالعصيان واقنع الانكليز على قصف عشيرتي وتسفيري» (الحسني تاريخ الوزارات العراقية ج ١ ص ٢٥٢ طبعة ١٩٧٤)

(٢٢) المقصود به نظام دعاوي العشائر والذي بقي ساري المفعول طيلة العهد الملكي ولم يلغ الا بعد قيام ثورة الرابع عشر من تموز سنة ١٩٥٨، وكان هذا النظام يحيل الكثير من اعمال القتل والعدوان التي تقع بين العشائر الى التحكيم العشائري لاصدار قرارات فيها ، بدلا من احالتها الى المحاكم المختصة، ولذلك اهتم المحتلون الانكليز بتطبيق هذا القانون ومعارضة اي تعديل فيه من شأنه ان يخفف الاحكام الواردة فيه ، لان ذلك كان يتماشى مع اهداف الانكليز في تثبيت نفوذهم وسلطانهم في البلاد ولهذا وجدنا المؤلف «لونغرنغ» يقول عن هذا القانون بانه «كان واحدا من اعظم تراث نافع خلفه النظام البرلماني (كذا !!) .

٨ ـ الانماء والتطور

اذا كان الفقر المكلكل بكاهله على الدولة، قد اعاق مشروعات الري الكبرى في هذه الفترة، فلن يكون هناك امر اقل قيمة، اذا ما تم ايجاد مؤسسة دائمة للري يتألف موظفوها من الاخصائيين، وتعتمد على اعمال المسح الواسعة، وتراقب الاوضاع، وتجمع المعلومات، وتقوم ببناء الاعمال الصغيرة ذات الفائدة المباشرة من امثال رؤوس القنوات، والنواظم، والكري، واعادة تصميم سدود الفيضان الحيوية، والتخطيط للمستقبل. وبدون ايجاد هذه الامور، فان الخراب والدمار اللذين شهدهما العهد التركي، لابد وان يتواصلا، سيما وان الفيضانات الخطيرة التي حدثت في سنتي ١٩٢٣ و ١٩٢٦ قد الحقت الاضرار المدمرة بالضواحي المحيطة ببغداد ذاتها بما في ذلك محطة سكك الحديد ومخازن الكمارك. فاذا ما حدثت مثل هذه الفيضانات الان فانها ستكون اكثر دمارا وتخريبا[١]

تم فتح قنوات عديدة من الضفة اليسرى لاواسط الفرات فوق سدة الهندية ونعني بذلك قنوات الصقلاوية واليوسفية، وقد خصصت لها الاراضي بشكل معتني به، وتم اصلاح سدة

---

(١) فاضت مياه دجلة في اليوم التاسع من نيسان ١٩٢٦ فحدثت كسرات في السداد القائمة حول بغداد ففاضت المياه وغمرت البيوت والقصور والبساتين المحيطة وطغى الماء حتى على البلاط الملكي، واضطرت الحكومة الى نقل العائلة الملكية الى بيت مناحيم دانيال في منطقة السنك بعد ان غرق الاثاث والمواشي والابقار الملكية في المزرعة الملكية. ودلت التحقيقات التي قامت بها الشرطة في حينه على ان اسباب حدوث تلك الكارثة يعود الى مدير المزرعة الملكية السيد توفيق المفتي السوري الجنسية الذي اراد ان يسقي الاقطان في المزرعة ففتح بوابة في الجانب الايسر من نهر دجلة بجوار البلاط، فتدفقت المياه من تلك الفتحة ولم يستطع ايقافها. وقد سرى الماء فوصل حتى الى محلة الفضل، وغرقت بعض الاموال التي كانت مودعة في شاحنات القطار التي كانت تنقل بالعبارة من الكرخ الى الرصافة قبل ان يتم بناء الجسر الحديدي المعروف بجسر الصرافية. وكانت المنطقة المجاورة للبلاط والتي غمرتها المياه قد عرفت منذ ذلك الوقت باسم محلة «الكسرة» ولا تزال تحتفظ بهذا الاسم حتى الان. ولقد اراد من ناجي شوكت محافظ بغداد في ذلك الوقت محاكمة توفيق المفتي علنا فاستاء الملك من ذلك وامر بفصل ناجي شوكت ولكن رئيس الوزراء، عبد المحسن السعدون، رفض امر الفصل ونقل ناجي شوكت محافظا لمحافظة الموصل. ومع كل ذلك قدم توفيق المفتي الى محكمة الجزاء في الاعظمية وكان حاكمها المرحوم عبد العزيز الخياط فحكمت المحكمة عليه بالسجن ستة اشهر بتهمة الاهمال، وعلى اثر استياء الملك فيصل من هذه المحكمة تم نقل عبد العزيز الخياط الى محكمة الصويرة. وبقي توفيق المفتي يعيش في العراق ويسكن دارا في الاعظمية حتى انهيار الحكم الملكي في سنة ١٩٥٨ وكانت المزرعة الملكية تقع في منطقة الوزيرية، وقد وزعت بعد حادث الغرق الى قطع لاقامة دور سكن فيها، ووزعت اولى القطع على بعض الوزراء من امثال نوري السعيد وياسين الهاشمي وطه الهاشمي فعُرفت منذ ذلك الوقت باسم الوزيرية.

الهندية ذاتها وتحسينها. وكانت دائرة الري في ذلك الوقت تدار من قبل «انكس» حتى سنة ١٩٢١، ومن قبل «سلر» حتى سنة ١٩٢٥ ثم اودعت الى ج. م. ولسون» في تلك السنة ذاتها. واخيرا عهد بها الى «بوري» الذي جيء به من مصر، وذلك خلال الفترة ١٩٢٥ - ١٩٢٨

وفي ميدان الزراعة انشئت دائرة للزراعة يرأسها مدير عراقي، منذ سنة ١٩٢٤، وكان ج. ف. وبستر مفتشا عاما لها في اعقاب السيد روجر توماس الذي يعتبر اول من عنى بزراعة القطن في العراق، غير ان هذه المحاولة كانت في النهاية اقل من المتطلبات التي تتطلبها البلاد. ولم تكن قضية تسوية الاراضي قد تجاوزت النطاق المحلي بعد، وكانت تقوم على اسس واهنة، وبصفة عرضية. ولم يحدث اي تغيير في التخلف الزراعي المدمر. اما تجربة انواع من الحاصلات، وتربية دور القز، واستعمال مختلف البذور التي كانت تجري في المعهد الزراعي، فلابد انها بقيت في الوقت الحاضر دون ان تترك ادنى تاثير في الطرق المطبقة في الزراعة البدائية.

ومع كل ذلك شرع ببداية لزراعة القطن بصفة علمية عقدت عليها امال واسعة، ذلك لان شركة زراعة القطن البريطانية» قد فتحت وكالة لها، واقامت محلجا عصريا للقطن. كذلك باشر احد الانكليز بانشاء مزرعة عامة ذات نطاق واسع تعتمد على اسس الادوات الالية، وذلك على مقربة من الموصل لكن هذه المزرعة لم تدم طويلا. كذلك لم تستطيع «شركة ولفرا» التي استأجرت ارضاً لها على نهر ديالى، وحاولت تطبيق الطرق الزراعية العصرية، ان تتغلب على روح المحافظة المحلية فاضطرت الى التخلي عن المشروع ذاته[٢]

ولقد امتلك الملك فيصل نفسه مقاطعة زراعية مهمة على مقربة من خانقين، واقبل على زراعتها بالاساليب المحسنة. وكانت مجموعة من العراقيين والسوريين قد وقعت على عقد امتياز، باسم امتياز شركة اصفر، مع الحكومة العراقية في سنة ١٩٢٤ [٣] فكان ذلك يعد مشروعا طموحا لتطوير الاراضي وتنظيم الري، اذ اشتمل على انشاء حوض الحبانية، وسدة الفلوجة، واقامة سد على نهر ديالى. وانشأت شركة اصفر المندمجة، في سنة ١٩٢٥، مزرعة محدودة للقطن، ولكن من دون نجاح ملموس، وذلك بالاضافة الى مزارع القطن في ديالى. ولكن شروط الامتياز الرئيس،

---

(٢) WOLFRA SYNDI CATE كانت هذه الشركة، وهي انكليزية، قد حصلت على امتيازها هذا من اصحاب شركة اصفر او اصحاب مشروع اللطيفية ثم حولته الى شركة قطن ديالى «الانكليزية التي» قامت باعمال تجريبية في زراعة القطن في ديالى فلم تنجح في ذلك وتخلت عن المشروع.

(٣) وجهت التهمة الى شركة اصفر بانها كانت عميلة لبعض الشركات الانكليزية مما اثار ضجة في مجلس النواب ضد وزارة العسكري التي منحت ذلك الامتياز، ولما كان الامتياز يخول حق بيعه فقد تولت شركة قطن ديالى تنفيذ جزء من مشروع شركة اصفر، وذلك بان حصلت على اراضي على الجهة اليمنى من الفرات جنوبي المحمودية لتحويلها الى مزارع نموذجية للحنطة والشعير وغيرها وقد عرف ذلك المشروع باسم اللطيفية الذي بقي قائما الى ان بوشر بتنفيذ قانون الاصلاح الزراعي بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٩

سرعان ما اثارت بعد ذلك ضجة شعبية واسعة من التساؤل. فقد انفضحت السمة شبه الاحتكارية للشركة مما عرض المشروع كله لاعادة النظر فيه مجددا(٤)

وفي الوقت ذاته تأسست منظمة حكومية لمكافحة الجراد، حسب النطاق الذي تتطلبه هذه الحشرة الفتاكة، وباستعمال كل طريقة معروفة. وقد ظهرت هذه المنظمة في القسم الشمالي من العراق، في الوقت الذي شاركت فيه الحكومة في الخطط الاقليمية التي اعدت بصفة مشتركة في دمشق.

كان الحاصل التافه في سنة ١٩٢٤، والنتائج التي نجمت عن شدة البرد والامطار المتواصلة، من خير الوسائل التي تذكر الناس بزعزعة الزراعة. واستطاعت دائرة البيطرة الصغيرة تحت امرة جادويك، الى جانب عملها في مراقبة ومعالجة خيول الجيش والشرطة، وما كانت تديره من المستشفيات المدنية للحيوانات، ان تحقق ما تستطيع به السيطرة على الامراض المزمنة والوافدة التي كانت تتعرض لها الاغنام والمواشي العراقية، وعلى الاخص طاعون المواشي الذي كان يسبب خسائر سنوية كبيرة.

* * *

كانت الطرق والمنشآت الآلية والمباني، من مسؤولية دائرة الاشغال العامة التي انتقلت مديريتها العامة من عهدة ج. م. ولسون، في سنة ١٩٢٠ الى ، كلاي، في سنة ١٩٢٥، وكانت الطرق ما تزال غير معبدة وملئ بالاوحال والاتربة في هذه الفترة. غير ان العناية الثابتة قد جعلتها مفتوحة نوعاما. فقد ازدادت كمية مسافات الطرق والدروب المتوفرة لوسائط النقل الالية الى ثلاثة اضعاف ما كانت عليه من قبل، فاخذت المئات من السيارات التي تنقل المسافرين والحمولات يجري استخدامها في اي من هذه الطرق، وما صاحب ذلك من انشاء حوانيت للتصليح والتجهيزات والمتعاملين فيها، تؤلف فرعا جديد من فروع الصناعة، فضلا عن كونه واحدا من فروع السفر.

تم تدشين طريق السيارات عبر الصحراء والذي يمر بمدينة الرمادي والرطبة حتى دمشق في سنة ١٩٢٣، على يد اثنين من النيوزيلنديين، هما الاخوان (نيرن) اللذين كانت مقرات عملها

---

(٤) «شركة اصفر» تالفت هذه الشركة في اوائل سنة ١٩٢٤ من كل من نجيب اصفر اللبناني الاصل، وحمدي الباجه‌جي وثابت عبد النور الموصلي، للقيام ببعض الاعمال الزراعية من بينها تجربة زراعة القطن، وبناء بعض السدود على نهري دجلة والفرات وقد تقدمت الشركة بطلبها الحصول على امتياز لها، الى الوزارة السعدونية الاولى، ثم كررت المطالبة في عهد الوزارة العسكرية الاولى، التي قدرت كلفة المشروع بحوالي اثنى عشر الف باون. ولما كانت الوزارة العسكرية قد طلبت الى الشركة تقديم اعتماد مالي بذلك حصلت الشركة من شركة «فوردكيس» الانكليزية على موافقة بتقديم الاعتماد المالي المطلوب، حيث اقر مجلس الوزارة بجلسته في العاشر من تموز ١٩٢٤ منح الامتياز المذكور. وكانت مشاريع الشركة تنطوي على اقامة سد عند الفلوجة، وتحويل الحبانية الى خزان للماء وايصاله الى هور ابي دبس، وانشاء سد على نهر ديالى عند جبل «تبيل» واخر عند الطويلة وانشاء خزان لخزن مياه ديالى مع ارض مساحتها «خمسة عشر الف هكتار في منطقة ديالى، واخرى مساحتها ستون الف هكتار في منطقة نهر الفرات.

في دمشق، وكان لهذه الشركة تأثيرها المباشر في توجه الاجانب نحو العراق[٥] ذلك لان هذه المصلحة مالبثت في سنة ١٩٢٦ ان ابتلعت الشركة الاولى المنافسة لها، وهي سورية كانت تستخدم طريق هيت – تدمر، وقد تعرضت في سنة ١٩٢٥ لهجوم وحشي عليها قام به افراد من عشائر الدليم.

اصبح فرع طريق الرطبة – دمشق الذي كانت تستخدمه شركة «نيرن» في صيف سنة ١٩٢٥، غير صالح للاستعمال، بسبب الثورة التي اشعلها الدروز[٦] ولذلك تحولت النقليات عن هذا الفرع، وبعد سنة من ذلك التاريخ، الى عمان وحيفا عبر شرقي الاردن، ذلك البلد المؤلفة اراضيه من كتل بركانية يحظر السير فيها.

غدت عملية نقل البريد عبر طريق الصحراء بالسيارة من العمليات المعتادة الى ان قضت عليها خدمات نقل البريد جوا. وكانت ترتيبات البريد مع العراق، والتي تتولاها ادارة عراقية بمساعدة خبير بريطاني، قد اتسعت فاصبحت اكثر شمولا، لانها ضمت كل خدمات البريد الاعتيادية. كذلك اعيد تأسيس خطوط البرق، وتضاعف عدد دوائره، كما اقيمت في الرطبة، وسط الصحراء، محطة لاسلكية.

لم تكن الملاحة في نهر دجلة لتتجاوز، بصفة جوهرية، ما كانت عليه قبل سنة ١٩١٤. فلقد كان السير في النهر بطيئا، والملاحة شاقة، في حين كانت سكك الحديد تمثل منافسة شديدة لها. كان اسطول سفن الملاحة في الفرات ودجلة والذي خططت له شركة مسبرز[٧] ما يزال يمارس نقل القسم الاكبر من النقليات ببواخره الثلاث القديمة، والباخرتين الحديثتين اللتين تتحركان بالرفاسات. ولقد ازداد عدد سفن هذا الاسطول في سنة ١٩٢٤، وذلك بعد الاستيلاء على

---

(٥) شركة نيرن اسمها انكليزي استرالي الموطن كان يعمل مع القوات الانكليزية التي احتلت العراق خلال الحرب العالمية الاولى فلما انسحبت تلك القوات من العراق بعيد الحرب، احال نيرن نفسه على التقاعد وبدأ هو واخوه بانشاء شركة للنقل البري بسيارات انكليزية الصنع متينة. واشتهرت الشركة بحسن المعاملة وتوفير الراحة للمسافرين وكان مقرها في الصالحية ببغداد على مقربة من المتحف العراقي وظلت تمارس اعمالها حتى نهاية سني الستينات.

(٦) لم تكن الثورة السورية قاصرة على الدروز وحدهم وان كان سلطان باشا الاطرش هو الذي فجر الثورة في جبل الدروز في سوريا، فقد شاركت في الثورة كل العناصر الوطنية السورية المعارضة للاستعمار الفرنسي، والتي خدعت مثل العراق وغيره، بالعهود والمواثيق التي تقدم بها الحلفاء اثناء الحرب. والقول بان الثورة السورية هي ثورة الدروز مشابه تماما المشابهة للادعاءات التي ما يزال البعض من طوائف العراق حتى اليوم يطلقونها، حيث يزعمون بان ثورة سنة ١٩٢٠ هي ثورتهم على الرغم من مشاركة كل مناطق العراق، من الشمال الى الجنوب، والعرب والاكراد مشاركة فعالة ومؤثرة في تلك الثورة سيما وان الثورة قد بدأت في المناطق الشمالية والوسطى من العراق قبل ان تبدأ في الجنوب (راجع عبد المنعم الغلامي: ثورتنا في شمال الوطن ج ١ وكذلك د. كمال مظهر احمد: مشاركة الشعب الكردي في ثورة العشرين العراقية) وغيرها.

(٧) سبقت الاشارة الى هذه الشركة في مكان اخر.

سفينتين اخريين هما «قدري» و «احسان»[8] اللتين بنيتا في سنة ١٩١٨، كذلك سفينة بغداد التي بنيت في سنة ١٩٠٨ والتي كانت تملكها اصلا، الادارة النهرية التركية. كانت هذه السفن الثلاث تعود الى شركة «الخضيري» التي تألفت منذ عهد بعيد، لكن ابتلعتها في سنة ١٩٢٤ «شركة الفرات ودجلة».

ولقد بقيت زوارق اخرى قليلة من سفن شركة الخضيري تمارس عملها، في الوقت الذي اخذت فيه القوة الجوية البريطانية تحتفظ بسيطرتها على وسائط النقل في المياه الداخلية، وعلى رصيف ميناء البصرة، وبعدد من السفن المستعملة لنقل تجهيزاتها.

وكان ميناء البصرة الذي كان يدار من قبل العقيد «وورد» مدير الميناء التابع لوزارة المالية في الحكومة العراقية منذ سنة ١٩٢٠ ما زال حتى سنة ١٩٢٦ مملوكا من قبل الحكومة البريطانية، الى ان يتم تسديد رأس المال الذي انفق عليه باقساط، وانشاء مؤسسة خاصة للميناء. ولقد تم تنظيم الميناء منذ سنة ١٩٢٢ وما بعدها، باعتباره قاعدة مدعمة بصفة ذاتية ايام السلم، وتم تزويده بكل التسهيلات الاعتيادية اللازمة للتجارة العراقية، ولاسطول ناقلات النفط من عبادان.

وفي سنة ١٩٢٣، وعن طريق قرض من شركة النفط الانكليزية الفارسية، شرع بحفر قناة عميقة عبر جرف الفاو، الذي لم تكن تجري خلاله قبل سنة ١٩٢٠ مياه مرتفعة لاية باخرة تغطس الى اكثر من عشرين قدما. واستطاع هذه الاتفاق ان يوفر ايجاد قناة عمقها ثمانية وعشرون قدما في المياه المرتفعة، وعرضها ثلثمائة قدم وطولها احد عشر ميلا. ولقد بدأ العمل بحفر هذه القناة في سنة ١٩٢٤ وبذلك تم افتتاح قناة روكا للنقل البحري وبهذه الابعاد في سنة ١٩٢٦

كانت حالة سكك الحديد التي يديرها تينش منذ سنة ١٩٢١، مماثلة لحالة ميناء البصرة. فقد كانت سكك الحديد ملكا للحكومة البريطانية. واخذت السلطات العراقية بعد سنة ١٩٢٣ تديرها بمساعدة عدد من الموظفين البريطانيين التنفيذيين والفنيين، وذلك تمهيدا لشرائها وضمها الى املاك الحكومة[9]

---

(٨) سبق لشركة نقليات حييم نتنائيل ان اشترت في سنة ١٩٢٧ من شركة دجلة والفرات، السفينتين «قدري» و «احسان» واخذت تشغلها في نقل المواد الزراعية والسلع بين بيجي والموصل ابتداء من شهر تشرين الثاني حتى شهر ايار من كل سنة وقد اطلقت على السفينة «قدري» اسم «شرقاط» وعلى السفينة احسان اسم «صادق» وقد احترق المركب «صادق» في شاطئ دجلة عند بيجي في ربيع سنة ١٩٢٩ نتيجة شرارات نار اصابت صفائح بنزين الطائرات التي كانت موسقة في احد «عنابر» المركب وقتل في الحادث احد الكتبة اليهود العاملين في الشركة المذكورة اذ حاصرته النيران وخشي ان يقذف بنفسه الى النهر لانه لم يكن يحسن السباحة، فاحترق مع المركب المحترق.

(٩) توصلت وزارة الهاشمي في سنة ١٩٣٥ الى عقد اتفاق مع بريطانيا بشأن نقل ملكية سكك الحديدية الى العراق وقد جوبهت هذه العملية بهجوم شديد من لدن المعارضة على الوزارة الهاشمية مما سيرد ذكره في الفصول القادمة. علما بان اكثرية العاملين في السكك حتى سنة ١٩٣٦ وما بعدها كانوا من الهنود والاثوريين واليهود.

اعيد العمل بسكة حديد بغداد البصرة في شهر نيسان في سنة ١٩٢١، ومن ثم مد الخط الى المسيب وكربلاء. وكذلك مد خط آخر من المفرق الى سدة الهندية. وكانت الفروع التي مدت الى خانقين ومدينة البصرة قد كملت في الفترة بين سنتي ١٩٢١ و ١٩٢٤ ولكن في تلك الفترة تم اغلاق الفروع التي كانت ممدودة بين بغداد والكوت، والى جبل سنام جنوبي البصرة، ومن خانقين الى الحدود الفارسية في «كياروق» (قريت).

وفي سنتي ١٩٢٤ و ١٩٢٥ انشئت جسور ثابتة فوق نهر الفرات ومد خط حديدي من خانقين عبر ديالى الى كل من كفري وكركوك، حيث كمل بناؤه في سنة ١٩٢٥ كما نقلت معظم مشاغل سكك الحديد من الشعيبة الى الشالجية في الضواحي القريبة من بغداد في ذات السنة. ولقد بقي المعبر الذي ينقل الشاحنات عبر نهر دجلة في بغداد بين خطين لسكة الحديد من نطاق مترين، ونعني بهما خط بغداد – البصرة، وخط بغداد – كركوك، بقي هذا المعبر مصدراً للتاخير والمتاعب حيث دمرت الفيضانات التي حصلت في سنة ١٩٢٦ كثيرا من ممتلكات السكك[١٠] غير ان اعادة فتح الطريق امام الزوار من الفرس في سنة ١٩٢٤ قد حقق موارد طيبة لادارة السكك، واخذ الالوف من العمال الهنود يختفون سنة بعد اخرى حيث تم استبدالهم بالعمال لعراقيين.

كان ظهور الصناعة الحديثة بطيئا. ولقد سبقت الاشارة الى ظهور محالج الاقطان وصيانة وسائط النقل الالية، ومعاونة اشكال اخرى من المشاريع. ولم يظهر اي من المصانع الحديثة وان كانت مختلف الامكانيات بشأن ذلك، قد نوقشت بصفة غالبة. ومع كل هذا فان مصدراً لمستقبل اعظم لمشاريع القطر المفردة وثرواته، قد برز خلال هذه السنين، من داخل غرف المؤتمرات الى ميدان صناعة النفط بصفة مكشوفة. كانت لجنة الحدود التركية الفارسية خلال سنتي ١٩١٣ و ١٩١٤ قد خصصت لتركيا النصف الغربي من منطقة «نفطخانة» الحدودية التي تقع جنوبي خانقين والتي انتقلت الى العراق بصفة نهائية. ولقد قبلت الحكومة التركية، التي ورثتها الحكومة العراقية، بان هذه «المنطقة المحولة»[١١] ينبغي ان تعامل وكأنها ماتزال مشمولة بالامتياز

---

(١٠) اشرنا الى الفيضان الذي حدث في سنة ١٩٢٦ ودمر المزرعة الملكية في منطقة الوزيرية ومخازن السكك والكارك الواقعة هناك حيث كان يجري نقل شاحنات القطار باحد المعابر الى الضفة اليمنى من دجلة. وقد اقيم بدلا عن ذلك المعبر، الجسر الحديدي، الذي يعرف باسم جسر الصرافية في سنة ١٩٤٤.

(١١) الاراضي المحولة: جزء من الارض تابعة لقضاء خانقين بين العراق وفارس قضت لجنة الحدود بين تركيا وفارس في سنة ١٩١٣بتحويل ملكيتها الى الامبراطورية العثمانية ولماكانت العراق قد ورثت تركيا فقد كان عليها ان تدير امتياز دارسي الذي يشمل تلك الاراضي. في عهد الوزارة النقيبية الثالثة جرت مفاوضات بينها وبين المندوب السامي البريطاني في العراق حول هذا الموضوع اعترفت بموجبه الحكومة العراقية بحق شركة دارسي والدخول في مفاوضات معها بهذا الشأن وقد توصلت وزارة ياسين الهاشمي الاولى الى اتفاق في هذا الشأن مع شركة النفط الانكليزية الفارسية التي كان يمثلها المستر جاكسن مديرها العام وذلك في ١٨ ايار ١٩٢٥ وعلى اثر ذلك باشرت الحكومة العراقية، عن طريق «شركة نفط خانقين» في استخراج النفط من الاراضي المحولة، وخصص هذا المنتوج للاستهلاك المحلي والذي كانت تقوم بتوزيعه شركة اخرى عرفت باسم شركة نفط الرافدين، والشركتان انكليزيتان بصفة خالصة.

الذي منح الى «وليم دارسي» في سنة ١٩٠١

اختتمت المفاوضات التي دارت بين شركة النفط الفارسية ووزارة الاشغال العراقية حول هذا الموضوع في سنة ١٩٢٥، ومن ثم تم استئنافها مرة اخرى بقصد التوصل الى اتفاق معدل وحديث في شهر ايار سنة ١٩٢٦ كان استخراج النفط قد بوشر به بصفة مبكرة في بئر منتجة ومن ثم اعقبتها ابار اخرى، حيث تقرر بأن ينقل النفط الخام في خط من الانابيب يمتد مسافة عشرين ميلا الى خانقين وكان قد تقرر، وبتشجيع من الحكومة العراقية، اقامة مصفاة للنفط على نهر «الوند» خارج خانقين، لكنها ماتزال ضمن الاراضي المحولة. ولقد بوشر بانشاء تلك المصفاة في شهر حزيران من سنة ١٩٢٦ ويبدو ان العراق اراد من وراء ذلك ان يضمن تجهيزاته الخاصة من النفط، نظرا لما يتمتع به النفط من اهمية بالنسبة الى وسائل النقل الالية، واستخدام مضخات الري وربما لصناعات مقبلة ايضا.

كان الوعد الوزيري الذي اعطى لشركة النفط التركية في ٢٨ حزيران سنة ١٩١٤، قد اصبح خلال السنوات السبع التي تلت ذلك، امرا مشكوكا فيه لاول مرة، ولكن وزارة الخارجية البريطانية ما لبثت ان اكدت ذلك الوعد مؤخرا. ولقد تعرض ذلك الوعد للتساؤل، ولكن الفرنسيين قبلوا به فيما بعد في سنة ١٩٢٠، حيث استطاعوا، بموجب الاتفاق الذي توصل اليه كل من «كادمان» و «برتيلو» في «سان ريمو»، ان يرثوا حصة المصرف الالماني في الشركة والبالغة خمسا وعشرين في المائة وان يساهموا في الشركة ذاتها.

نظر الامريكيون شزرا الى ذلك الاتفاق، فاخذوا يطالبون بسياسة «الباب المفتوح» بالنسبة الى استثمار نفط العراق، ولكن من دون تعقيد في الوعود التي لم تتم المصادقة عليها بعد. ولقد امكن التغلب على هذه العقبة وازالتها، عن طريق تخصيص نصف حصة شركة النفط الفارسيةالانكليزية في الشركة التركية، الى مجموعة من الشركات الامريكية حسب اتفاق تم التوصل اليه بصفة مبدئية في سنة ١٩٢٣، غير ان هذا الاتفاق لم يتم العمل به رسميا الا في سنة ١٩٢٨ وعلى هذا الاساس تم توزيع حصص شركة النفط التركية في شكلها النهائي على قاعدة منح نسبة خمس في المائة، والى الابد، الى المستر «غلبنكيان» وتوزيع الباقي من الحصص وهو ٩٥ في المائة بين مجموعة شركات «شل» مثلما هو الامر بالنسبة الى شركة النفط الفارسية الانكليزية) وشركة النفط الفارسية الانكليزية باعتبارها انها هي شركة تحريات «دارسي»، وشركة النفط الفرنسية التي اوحت الحكومة الفرنسيةبانشائها ،والشركات الامريكية التي تجمعت للغرض ذاته، تحت اسم «شركة استثمار الشرق الادنى[١٢] ولم تتغير هذه الحصص طيلة ثلاثين سنة الا

---

(١٢) وزعت الحصص في شركة النفط التركية حسب الاتفاق الجديد على الوجه التالي:
شركة النفط الفارسية الانكليزية ٤٧٥ سهما اي بنسبة ٢٣/٧٥٪ وشركة النفط الانكلوسكسونية ٤٧٥ سهما، اي ٢٣/٧٥٪، وشركة النفط الفرنسية ٤٧٥ سهما اي ٢٣/٧٥٪ وشركة استثمار الشرق الادنى ٤٧٥ سهما اي ٢٣/٧٥٪. =

بالنسبة الى الحصص الداخلية لمجموعة الشركات الامريكية، حيث تقلص عدد الشركات الست التي ساهمت اولا، الى شركتين هما شركة «ستاندرد اويل نيوجرسي» وشركة «سوكوني فاكوم».(١٣)

قامت شركة النفط التركية بالاتصال بالحكومة الكمالية التي خلفت الحكومة العثمانية وذلك لاول مرة في سنة ١٩٢٤ لغرض ايجاد تنفيذ ملائم للوعد الذي اعطاه سعيد حليم. وقد استمرت المحادثات طويلا، وكانت الحكومة العراقية هي الاخرى مفاوضا صعبا، ولذلك بدا بان امل الشركة في الحصول على امتياز يشمل اراضي العراق كلها، قد غدا يستحيل تحقيقه.

كانت الاتفاقات التي تم التوقيع عليها في اذار ١٩٢٥ قد شملت قضية سكك حديد الموصل وبغداد برمتها. وحيث ان البرلمان العراقي لم يكن قد وجد في ذلك الوقت، فقد تمت المصادقة على تلك الاتفاقات من قبل مجلس الوزراء والملك نفسه(١٤) ولقد اشترط بان تبدأ شركة النفط التركية، خلال وقت محدد، بالبحث عن مناطق محدودة تقوم الشركة ذاتها باستثمارها مع الالتزام بان تدع المناطق الباقية المعدة للاستثمار للملتزمين الذين يدفعون اعلى الاثمان. وكانت العوائد القابل دفعها عن النفط المستخرج، والتي تم الاتفاق عليها، تبلغ اربعة شلنات ذهبية عن الطن الواحد من النفط، وان يتم تعديلها مؤخرا حسب هذه الاسس حينما يبدأ العمل الجيولوجي، اي الحفر، بطاقة وبنفقات كبيرة قبل نهاية سنة ١٩٢٥

تركز العمل لاول مرة في المواقع التي توجد فيها الترشحات المعروفة والترسبات السطحية الظاهرة في المناطق الشمالية من ولاية الموصل، حيث كرست الشركة سنة ١٩٢٦ لعمليات الكشف المكثفة عن النفط هناك.

صاحب هذا العمل، شق الطرق، ومد انابيب المياه، وتوفير الوقود، واقامة المباني. وقد اشترك في هذه الاعمال خمسون بريطانيا، والفان وخمسمائة عراقي. تم اختيار مواقع حفر الابار في جبل حمرين، طوز خرماتو بجوار كركوك وعلى مقربة من القيارة على الضفة اليمنى من نهر دجلة

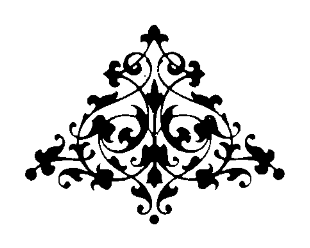
=(وهذه تمثل مجموع الشركات الامريكية) وشركة التعاون والاستثمار ١٠٠ سهم اي ٥٪ (وهي شركة غلبنكيان). ومما تجدر الاشارة اليه في هذا الصدد ان شركة النفط التركية كانت تدعى في الاصل «شركة الامتيازات الشرقية والافريقية المحدودة» وقد تألفت في اليوم الحادي والثلاثين من كانون الثاني في سنة ١٩١١ برأسمال مقداره خمسون الف باون انكليزي (انظر كتابنا: معركة النفط في العراق ج ١ ص ٦٢ و ص ٨٢ طبعة ١٩٥٢).

(١٣) هذه الشركة يهودية وصهيونية من الاصل وما تزال حتى الان تقوم باعمال التنقيب عن النفط في الاراضي الفلسطينية المحتلة.

(١٤) هي الاتفاقات التي تم التوصل اليها بشأن امتياز شركة النفط التركية والذي رفضته الحكومة العراقية في اول الامر لكن المندوب السامي الانكليزي تدخل في الامر وقدم صورة امتياز جديد الى الحكومة احيل الى لجنة خاصة لدراسته (الحسني تاريخ الوزارات العراقية ج ١ ص ٢٦٣ وما بعدها طبعة ١٩٧٤).

شمالي الشرقاط [١٥]
كان المقرر ان يباشر بحفر الابار في اوائل سنة ١٩٢٧

امـــا الادعاءات التي تقدم بها ورثة السلطان العثماني عبد الحميد الثاني ، والتي تتألف من هيأة ثابتة تضم كل الامراء والاميرات بشأن ملكيتهم لكل مناطق النفط في الاراضي الامبراطورية العثمانية ، فان العراق لم ينظر اليها بعد ذلك اية نظرة جدية.



(١٥) اخطأ المؤلف فذكر ان القيارة تقع جنوبي الشرقاط بينا هي تقع شمالي الشرقاط. ومما تنبغي الاشارة اليه انه في الوقت الذي كانت فيه الجيوش الانكليزية تتقدم لاحتلال اراضي العراق كانت بعثة جيولوجية انكليزية خاصة برأسها الجيولوجي الهندي الدكتور ١. ه باسيكو ترافق الوحدات المتقدمة، وتقوم بالبحث عن المعادن في التربة العراقية ولاسيا النفط.

الفصل السادس

في الطريق نحو الاستقلال

١ ـ ازمة المعاهدة العراقية الانكليزية

٢ ـ التقدم نحو جنيف

٣ ـ انعكاسات عن الانتداب

٤ ـ قضايا الاقليات في العراق

٥ ـ الحاكمون والمحكومون

٦ ـ المواصلات والتنمية

٧ ـ شؤون العراق الخارجية خلال الفترة ١٩٢٧ ـ ١٩٣٢

١ ـ ازمة المعاهدة العراقية الانكليزية

اظهرت السنوات الست التي اعقبت قيام الحكومة البرلمانية، وتسوية مشكلة الوصل، للمراقبين بان هذه المدة كانت كافية لكي تحقق الامال التي سمح سجل السنوات ١٩٢١ ـ ١٩٢٦ بتكوينها، والتي تبرر التفاؤل بالمستقبل.

وقد بذلت جهود ناجحة في سنة ١٩٣٢ لاكمال تحرر المملكة من قيود الانتداب، فاصبحت حرة، وعضواً مساويا في عصبة الامم، واخذت الرقابة الخارجية عليها تتقلص بسرعة، ومن ثم غدت مميزة بصفة اساسية

تقلص عدد الموظفين من غير العراقيين، وتقلصت وظائفهم، ووصلت الحالة الخاصة للحكم المزدوج، كما اتهم الحكم بذلك، الى نهاية لها. فقد توقفت الامتيازات القضائية للاجانب بقيام محاكم، وتشريع اجراءات مساوية بين الجميع. وارتفعت شهرة العراق الدولية فعلا، بما اصابته من سعة الانتشار، وبنتيجة النزاع حول الموصل، ذلك النزاع الذي اتسع بالمناقشات التي دارت في جنيف واختصت بقطر العراق، وبقبوله في عصبة الامم، واستطاعته اقامة علاقات اعتيادية مع المهمين من جيرانه، تركيا وبلاد فارس، فضلا عن زيادة اهتمامه بالعالم العربي زيادة كبيرة

ولقد تطورت مواصلات القطر برا وجوا بالبلدان الاجنبية تطورا تجاوز كل الحدود السابقة. غير ان المعضلة التي كان يمثلها وجود الاقليات الصغيرة داخل العراق، بقيت، وبصفة جوهرية، من دون حل[1] ولكن هذه المعضلة قد تغيرت في صفتها، وكانت توحي بالتفاؤل الذي لم يبرره المستقبل، عن وجود اسس للامل في ايجاد حل سلمي. وينطبق نفس هذا الامر على افراد

---

(١) يركز الاستعماريون دوما على موضوع الاقليات في البلدان التي يبسطون نفوذهم عليها، والسبب في ذلك واضح ومكشوف، وهو ان المستعمرين طالما اتخذوا من هذه الاقليات ادوات لخدمة مطامعهم، او عقبات تحول دون عدم الاستقرار. فبالنسبة الى الانكليز نرى انهم لم ينسحبوا من اي بلد دخلوه الا وتركوا وراءهم في ذلك البلد مشكلة معقدة ومخربة للامن وللاستقلال من امثال الاقلية المسيحية في جنوبي السودان، وقضية الاقباط في مصر، والمسلمين في الهند، والنزاع بين الاتراك واليونانيين في جزيرة قبرص، والنزاع حول كشمير بين الهند والباكستان ومايضاف اليه من الصراع بين المسلمين والهندوس في الهند حتى الان وعلى الاخص المذابح التي اوقعها الهندوس بالمهاجرين المسلمين من بنغلادش في ولاية آسام والتي فاقت في فظاعتها مذابح معسكري صبرة وشاتيلا في بيروت على ايدي القوات الصهيونية والكتائب المارونية

العشائر الشيعية في منطقة الفرات. فلقد اصبح واضحا خلال هذه السنوات ان تذمر العشائر من الالتزامات التي الزمتهم بها الحكومة، لم يكن متميزاً او محددا، وان دوافع التمرد العشائري كان من نوع المناورات السياسية، وان كانت في هذه الفترة اقل ظهورا مما كانت عليه في السنوات التي اعقبت تلك الفترة. وفي الوقت ذاته تطورت معالجة الاضطراب العشائري في صفة بناء الطرق والجسور، وانشاء القوات المنظمة، ووضع نواة الاعمال الادارية الموثقة. فلقد تعاظم الجيش العراقي، وتحسن وضعه، ولو ان المشكلة المميزة فيه، وهي مشكلة التجنيد الاجباري، لم يتم حلها.

ولقد جرت محاولات عديدة لمعالجة قضايا الضرائب، وسك العملة النقدية الوطنية، وتم وضع الخطط لذلك، وتمت تصفية قضية الديون العامة بصفة جوهرية. وكانت مسألة تسوية الاراضي على اسس عصرية قد بوشر بها في سنة ١٩٣٢، في حين حصل توسع هائل في استخدام المضخات التي عمت كل الارياف التي تقع على ضفاف الانهار ولم تحل هذه المظاهر التقدمية دون تأثر الاقتصاد العراقي بالازمة الاقتصادية العالمية التي حدثت خلال الفترة ١٩٢٩ - ١٩٣١، كما ان هذه المظاهر لم توقف التقلص الثابت في تجارة المرور الفارسية. ولقد بقيت تلك المظاهر التقدمية اضعف من ان تصحح الظواهر غير الملائمة، بل المنطوية على الخطر في الواقع، من مظاهر الحياة العامة في العراق والتي كانت قبلا بارزة وربما قد تكون شاملة. ذلك ان الوزارات ذات الاعمار القصيرة، والمؤلفة من شخصيات متخاصمة، والاحزاب المتعفنة سريعة الزوال، والانتخابات المزورة، والبرلمانات التي لاتمثل الشعب، وتكون طيعة للوزارة القائمة في تلك اللحظة، وذلك لان مثل هذه البرلمانات قد انتخبت من قبل تلك الحكومة.

والحقيقة انه كان للبرلمان العراقي في دورته الاولى، كل مظاهر الهيئة الصارمة المعقولة. فلقد استطاع ان يعالج حوالي سبعين لائحة تقريباً، وانجز اجراءاته بمنتهى الصواب. غير ان الدورة الثانية التي افتتحت في اليوم الاول من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٢٦، كانت اقل حظا، وذلك لان الانقسام السياسي والشخصي فيها، قد تعاظمت حدته. فقد كان حزب الشعب الذي اسسه ناجي السويدي في شهر اب ١٩٢٤ كان مايزال جم النشاط، ولو انه قد اوقف نشاطه في سنة ١٩٢٧ [٢] اما حزب الاستقلال الوطني الذي اسسه الموصلي الشهير عبد الله العمري فقد

---

(٢) لم يكن ناجي السويدي رئيسا لحزب الشعب بل ان ياسين الهاشمي هو الذي تزعم هذا الحزب منذ تأسيسه. وقد تأسس هذا الحزب على اساس التكتل البرلماني المعارض لحزب التقدم الذي اسسه عبد المحسن السعدون. وقد حصل حزب الشعب على اجازة تأسيس من وزارة الداخلية في اليوم الثالث من كانون الاول ١٩٢٥ وتألفت هيأته الادارية من كل من ياسين الهاشمي للرئاسة ومحمد رضا الشبيبي واحمد الشيخ داود، وفخري الجميل، ورشيد الخوجة، ونصرت الفارسي، وسعيد ثابت، وابراهيم كمال، وثابت عبد النور، ومحمود رامز، ومزاحم الباجه‌جي وعبد اللطيف الفلاحي (د. فاروق صالح العمر: الاحزاب السياسية في العراق ص ١٦٧).

سبق له ان مات في سنة ١٩٢٥ [٣] وكان حزب «التقدم» الذي اسسه عبد المحسن السعدون في سنة ١٩٢٥ هو السائد في الاوساط المعتدلة حتى وفاة مؤسسه [٤] في حين ازدهر «حزب الشعب الذي تزعمه ياسين الهاشمي من اواخر سنة ١٩٢٥ الى ١٩٢٨

اما الحزب الوطني الذي تزعمه جعفر ابو التمن، فقد تعرض للاضطهاد ابان مولده في سنة ١٩٢٢ ومالبث ان انتعش في سنة ١٩٢٦ وبقي عنيفا حتى سنة ١٩٣٣ وبالاضافة الى حزب النهضة الذي انتعش لمدة قصيرة، لم تعدم هذه الاحزاب اية وسيلة من شأنها ان تضفي الهدوء على المسرح السياسي

سقطت وزارة عبد المحسن السعدون الثانية في اليوم الاول لقيام المجلس النيابي الجديد، وذلك عندما هزم مرشح الوزارة لرئاسة مجلس النواب من المجلس ذاته [٥] وعلى اثر ذلك تم استدعاء جعفر العسكري، وكان يشغل منصب وزير العراق المفوض في لندن، واحد التقدميين، للمجيء الى بغداد، حيث استطاع، بعد ثلاثة اسابيع، ان يؤلف في اليوم الحادي والعشرين من شهر تشرين الثاني، وزارة ائتلافية ضمت ياسين الهاشمي للمالية، ونوري السعيد للدفاع، والارستقراطي البصري، صالح باش اعيان للاوقاف، ومحمد امين زكي للمواصلات والاشغال، وعبد المهدي للتربية، وعبد الحسين الجلبي للري والزراعة، وهي الوزارة الجديدة التي استحدثت في شهر اب ١٩٢٧ ولقد تميزت هذه الوزارة بالعمل التشريعي النافع، لكنها جوبهت بشكل ثابت، بالمبدأ الفاسد للانقسامات الداخلية لدى الاحزاب، وبين رؤساء تلك الاحزاب، والوزارة التي لم يمنحوها سوى القدر الضئيل جدا، من الاخلاص

---

(٣) الاسم الحقيقي لهذا الحزب هو «الحزب الوطني العراقي» تأسس في الموصل في اواسط سنة ١٩٢٥ وكان رئيسه عبد الله سليمان، وليس عبد الله العمري الذي تولى نيابة الرئيس فيه وبقية اعضاء الهيئة الادارية فيه هم كل من مجيد العمري، واحمد الجليلي، واحمد الشربتي ومجدي النائب وتوفيق النائب، والدكتور محمد محفوظ والدكتور استراجيان ولقد اقامت الهيئة الادارية حفلة افتتاح للحزب في حديقة البلدية في يوم الخميس ٢١ ايار ١٩٢٥ (المصدر السابق ص ١٥٢)

(٤) تألف حزب التقدم خلال وزارة عبد المحسن السعدون الثانية وكان قائما على اساس اكثرية برلمانية. وقد تألفت الهيئة الادارية من عبد المحسن السعدون رئيسا، وارشد العمري، وفخري الجميل، ومحسن ابو طبيخ، وقاطع العوادي وامين زكي، وابراهيم يوسف، ومحمد سعيد عبد الواحد. والملاحظ ان الصفة الحكومية كانت تطغى على الحزب ولذلك فلم يحظ بالتأييد الشعبي ولم تكن له فروع وقد اصدر جريدة تنطق باسمه، بالاضافة الى جريدة العالم العربي لسليم حسون، هي جريدة «اللواء» التي اصدرها محمد سعيد العزاوي في ٣٠ ايار ١٩٢٨ ثم نابت عنها جريدة «التقدم» التي صدرت في بغداد في ١٦ تشرين الثاني ١٩٢٨ وكان مديرها المسؤول سلمان الشيخ داود وقد توقفت عن الصدور يوم انتحار السعدون. وكان ناجي السويدي من اعضاء حزب التقدم (المصدر السابق ص ١٦١)

(٥) يشير المؤلف بذلك الى قضية ترشيح حكمت سليمان لرئاسة مجلس النواب من قبل حزب التقدم، وترشيح المعارضة رشيد عالي لذات المنصب. وذلك في الاجتماع الاعتيادي الذي عقده المجلس النيابي في اليوم الاول من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٢٦ ذلك ان رشيد عالي مرشح المعارضة، كان قد فاز في ذلك التصويت على المرشح الحكومي (د. فاروق صالح العمر : الاحزاب السياسية في العراق ص ١٧٤ - ١٧٥)

اتسمت تلك السنة بثلاثة مظاهر. اولها، والذي لم تشر اليه الاتجاهات السياسية السابقة، ان الزعامة الطاغية التي كان يمارسها علماء الشيعة على ابناء طائفتهم، قد تناقصت تأثيراتها الفعالة بكل جلاء منذ سنة ١٩٢٣، وعلى ذلك تقدم الشيعة بمطاليب للمشاركة في الحياة السياسية والثقافية، لم يكن مستطاعا تلبيتها قبلا بسبب قلة الوظائف الحكومية

ولقد وقع احد الحوادث في اوائل سنة ١٩٢٧ عندما نشر احد المدرسين كتابا وجدوه الشيعة غير مقبول من لدنهم، حيث بدأت سلسلة من الحوادث اشتملت على تدخل وزاري، وعلى خلافات شديدة الى حد الخصومة في الاوساط العليا لوزارة المعارف[6] وعلى هذه الشاكلة انقسم العالم السياسي في العراق وفي يوم واحد، بالفتنة الطائفية، حيث عقدت اجتماعات تبنت مطالب الشيعة في بغداد وفي المدن التي تقوم فيه المراقد المقدسة لدى الشيعة، وقد اوغلت تلك الاجتماعات في التحدث عن الاضطهاد المذهبي، يضاف الى هذا ان «حزب النهضة» الذي لم يعش سوى فترة قصيرة في سنة ١٩٢٢، قد انتعش الان، لان كان يخضع للزعامة الشيعية المطلقة

وحين عرضت الوزارة على البرلمان لائحة قانون الدفاع الوطني التي تطالب باعلان التجنيد الاجباري تضاعف تحريض الشيعة وثوراتهم ضد الحكومة. فقد استقال ممثلهم في الوزراة السيد عبد المهدي من منصبه، كذلك اتضحت مساندة الاكراد في مقاومة التهديد الذي يمثله فرض التجنيد الاجباري. تم استبدال السيد عبد المهدي في وزارة المعارف بالسيد امين زكي، ومن ثم استبدال وزير الري والزراعة فيما بعد، بالسيد علوان الياسري، وبهذه الوسيلة استطاع رئيس الوزراء ان يضمن فض البرلمان في وقت ما، لكي ينقذ حكومته من السقوط، غير ان ذلك لم يؤد الا الى تحويل النشاط السياسي من بغداد الى منطقة الفرات

وحين قام [illegible] بجولة الى النجف، جوبه بالمقاطعة[7] [illegible] احتاج الامر الى كياسة الملك [illegible] في الكاظمية في اليوم [illegible] نتائج ذلك حدوث ان اصبح [illegible]

[illegible] سنة ١٩٢٧ [illegible]

[illegible] الشيعة في المدن [illegible]

[illegible] تلك الفتنة [illegible]

[illegible] تفصيلات ذلك [illegible]

[illegible] الكتب [illegible]

(٧) [illegible] ١٩٢[illegible]

[illegible] النهضة [illegible] الهاشمي في النجف

الوزيران الشيعيان في الوزارة يمثلان لعنة في نظر «حزب النهضة» كما ان هذا الحزب مالبث ان نظم التظاهرات في كربلاء والنجف، ووجه في صحفه مقالات عنيفة، الامر الذي حمل ياسين الهاشمي نائب رئيس الوزراء على ان يعيد الاوامر بتعطيل نشاط ذلك الحزب، وحين نوقش الاجراء الذي اتخذه الهاشمي، استقال هذا من منصبه، ليخلفه فيه، ولمدة قصيرة، رشيد عالي الكيلاني. وهكذا انتهت تلك السنة باعتصاب شديد الخطر، وبضعف بارز في كيان الحكومة، واذ ذاك استقال جعفر العسكري في السابع من كانون الثاني ١٩٢٧

احتلت قضية التجنيد الاجباري، المرتبة الثانية من الاهمية في ذلك الوقت. ذلك ان الحاجة الى تعزيز العراق عسكريا كانت تدخل ضمن مطاليبه في ان يكون هو السيد الوحيد في بلاده. ترى هل كان التجنيد الاجباري هو الحل لذلك؟ لقد استشير المندوب السامي البريطاني حول الموضوع فكان جوابه في الواقع يقول «ان ذلك امر مؤكد اذا مارغب العراق فيه، ولكن ليس معنى ذلك ان التجنيد الاجباري يجب ان يشتمل على تعزيز من قبل القوات البريطانية التي تميل الى مثل هذه المهمة، ولذلك جوبهت لائحة الخدمة الوطنية التي عرضت على البرلمان، بمعارضة انية من قبل الشيعة والاكراد، تم وضعها مسبقا

اصبح موضوع التجنيد الاجباري، نتيجة نظرة الشيعة، وتخوف رجل الشارع منه، محببا لدى الصحافة العراقية، التي وجدت في الحذر البريطاني منه، دليلا على رغبة البريطانيين الخالصة في ان يبقى العراق بلدا ضعيفاً لاعون له. وعلى هذا كانت الوزارات المتعاقبة في شك مما اذا كانت تستطيع اسقاط المشروع وسط عنف الصحافة الوطنية والجيش ذاته، او ان تصر على امرار المشروع الى درجة يمكن معها حدوث انفجار بسببه لدى الشيعة والاكراد. وطبقا لمعاهدة سنة ١٩٢٦ كان ينبغي ان يعاد النظر في شهر كانون الثاني سنة ١٩٢٨، في موضوع عضوية العراق في عصبة الامم، ومن ثم يتكرر ذلك اربع مرات كل سنة بعد ذلك التاريخ

اعلمت الحكومة البريطانية حكومة [illegible] شهر [illegible] ١٩٢٦ [illegible] سوف تأخذ بنظر الاهتمام، التوصية التي [illegible] [illegible] سنة ١٩٢٨، ولذلك [illegible] التي كانت تبذل للحصول على [illegible] سنة ١٩٢٧ ولقد [illegible] الناطقين بلسان [illegible] [illegible] تمت الموافقة على شروط [illegible] [illegible] والمستر اورمسبي غور [illegible] وبريطانيا، وكانت شعبية هذه [illegible] [illegible] بالاضافة الى مصادقة البرلمان العراقي [illegible] على تعديل الاتفاقات العسكرية

دلت المعاهدة الجديدة على تقدم محقق لكنه غير واسع فقد اعترفت بان معاهدتي سنتي ١٩٢٢، و ١٩٢٦، كانتا قد عقدتا على نطاق طغى عليه الحوادث، ولاسيما التقدم الذي حققه العراق. كما ان المعاهدة قد عاملت العراق صراحة بانه دولة مستقلة ذات سيادة، واعتبرت التزاماته الداخلية والدولية على هذا الاساس، وطبقا لبنودها فقد تعهدت الحكومة البريطانية بان تساند ترشيح العراق لعضوية عصبة الامم في سنة ١٩٣٢، على شرط ان يمضي التقدم الذي احرزه العراق، قدما وبصفة جيدة خلال تلك الفترة، ونتيجة لهذا الشرط قوبلت مسودة المعاهدة بترحاب بارد من لدن كل العناصر السياسية تقريبا في العراق

ومع كل ذلك كانت هذه المعاهدة تؤلف جزءا من التراث الذي نهضت به الوزارة التي الفها عبد المحسن السعدون خلفا لوزارة جعفر العسكري في اليوم الرابع عشر من شهر كانون الثاني سنة ١٩٢٨، تلك الوزارة التي ضمت وزيرين من الشيعة، ووزيرا مسيحيا، وهيئة من السياسيين المحنكين. فقد اختير المحافظ السابق المعتدل والمجرب السيد عبد العزيز القصاب وزيرا للداخلية، وحكمت سليمان للعدل، ورجل المال والاقتصادي المسيحي يوسف غنيمة للمالية، والصيرفي النجفي محسن شلاش للاشغال والمواصلات، والحلي الذكي المجرب سلمان البراك للري والزراعة، والاخ الاصغر التقدمي والذكي لناجي السويدي، ونعني به توفيق السويدي، لوزارة التربية، والقومي المناضل احمد الشيخ داود للاوقاف

غير ان التآلف السابق لم يلبث ان تمزق الان، حيث دعا رئيس الوزراء الى اجراء انتخابات عامة. وكانت مفاوضاته الماهرة مع حزب «التقدم» ومايتمتع به من سلطة تنفيذية للتأثير في اختيار الناخبين، قد ضمنت له اغلبية ستة وستين مقعدا من مجموع ثمانية وثمانين مقعدا وذلك في اعقاب انتخابات جرت بكل هدوء. ضم مجلس النواب الجديد ستة وعشرين نائبا من الشيعة وستة عشر نائبا من الاكراد. وفي وجه الكياسة التي قوبلت بها مسألة التجنيد الاجباري، كان نفور المعارضة اقوى مما قد اشارت اليه قلة من المتحدثين باسم هذه المعارضة في البرلمان، ولذلك فان العنف الذي اظهرته الاحزاب في صحافتها التي راحت تهاجم البريطانيين والمعاهدة بحرارة، لم يدع اي مجال للتقدم بشأن القضايا المتنازع عليها[٨]

ادخلت تعديلات على الاتفاقات الملحقة بالمعاهدة، تم البحث فيها طويلا بين الوزراء والمندوب السامي ولكن دون التوصل الى اتفاق في ذلك. فلقد كانت مطاليب العراق تتلخص

---

(٨) كانت المعارضة لمعاهدة سنة ١٩٢٦ شديدة وذلك للسرعة التي رافقت عرض المعاهدة والتصديق عليها. فخرج جماعة حزب الشعب المعارض من المجلس، واخذت صحفه تنتقد المعاهدة وتشهر بها، ووصفتها بانها نفس المعاهدة القديمة ولكن لمدة اطول

(د. فاروق صالح العمر الاحزاب السياسية في العراق ١٩٢١ ١٩٣٢ ص ٧٤).

في ان يظفر بالسيطرة التامة المباشرة على قواته الدفاعية، وفي الغاء الشرط الذي يضع القوات البريطانية والقوات العراقية المشتركة تحت امرة القيادة البريطانية، وكذلك الغاء الاعفاءات الكمركية التي كانت تتمتع بها القوات البريطانية

ولكن كل هذه المطاليب لم تكن مقبولة من لدن البريطانيين، ومن دون اتفاق على هذه الامور، لايمكن ان تعقد اية معاهدة. تم التخلص مؤقتا من موضوع التجنيد الاجباري تجاه الانتقادات المرة التي وجهتها المعارضة، ولذلك تم طرحه من المنهاج التقدمي الذي وضعته الوزارة. وفي الوقت ذاته تحسنت المواقف بين السنة والشيعة، وذلك بفضل الجهود التي بذلها العقلاء من كلا الطرفين. ذلك ان «حزب النهضة» خسر التأييد الذي كان يلقاه من الشيعة، وبدلا من ذلك توجهت العواطف السياسية، في صفة مشتركة، ضد البريطانيين الذين كانوا يتهمون على الدوام بانهم هم الذين يحولون دون ذلك التحسن في المواقف[٩]

كانت سنة ١٩٢٨ من أسوأ مراحل «الوضع الشاذ»[١٠] تلك العبارة المحببة لدى الصحفيين والفكاهيين من العراقيين، والتي كانت موضوعا للقدح والتعزير. كانت الصفة الخاصة للوضع، هي ان الاستقلال كان يخضع للانتداب، وكانت المسؤولية الوزارية تخضع للرقابة الاستشارية، وتصاعد الاماني بشأن القوة العسكرية العراقية وان كانت لائحة التجنيد الاجباري قد حظرت، وان تدار ميناء البصرة وسكك الحديد من قبل العراقيين انفسهم. غير ان ملكية مؤسسات اخرى ماتزال خارج نطاق ادارة العراقيين ومارافق ذلك من امتيازات ممنوحة للاجانب المقيمين في العراق لم ينل العراقيون مثلها خارج بلادهم.

وبصفة عامة كان الغموض يخيم على الجو، وكانت المخاوف تحيط بالمجتمع المراهق، وقد نفد صبر الحكومة للتخلص من السيطرة الاجنبية، في الوقت الذي لم يعد فيه الساسة يثقون تماما بالتلطف وبالنصيحة التي كانت تزجي اليهم، اضافة الى سوء الفهم المتواصل. كان عبد المحسن السعدون يشعر بالمعاكسة له من قبل البريطانيين والمعارضة على حد سواء. ولذلك قدم استقالة حكومته في شهر كانون الثاني سنة ١٩٢٩[١١] واذ بقي السعدون رئيسا لحكومة موقتة الى ان تم

---

(٩) بدأت جريدة النهضة الناطقة بلسان حزب النهضة منذ العاشر من اب ١٩٢٧ بنشر مقالات نارية ضد الوزارة العسكرية الثانية واسناد مختلف التهم اليها، مما ادى الى ان ترد عليها الصحف الاخرى وعلى اثر ذلك اصدر مجلس الوزراء قرارا بتعطيل جريدة النهضة وجريدة «الزمان» المعارضة لها والتي كان يصدرها ابراهيم صالح شكر. وكانت تلك المناوشات الصحفية من الاسباب التي زادت من حدة الصراع الطائفي في العراق في ذلك الوقت

(١٠) كتب المؤلف عبارة «الوضع الشاذ» باللفظ العربي وبالحروف الانكليزية طبعا AL - WADH AL - SHADH

(١١) كانت الازمة بين عبد المحسن السعدون والانكليز قد نشأت بسبب الطلب الذي تقدم به العراق الى بريطانيا لادخال تعديلات على الاتفاقين المالي والعسكري المعقودين مع بريطانيا الحاقا بمعاهدة سنة ١٩٢٧، ذلك الطلب الذي لم تتجاوب الحكومة البريطانية بشأنه، ولذلك تصلب السعدون في موقفه ولم يقبل بالرسائل التي وجهت اليه من المستراميري وزير المستعمرات البريطاني، ومن السرهنري دوبس المندوب السامي البريطاني في بغداد، حول موضوع الاتفاقين المذكورين.=

التغلب عليه، فقد ادعى بان حزبه لن يساند اية حكومة لن تصر على اجراء التعديلات الاساسية في الاتفاقين

تألفت الوزارة التي خلفت الوزارة السعدونية في شهر نيسان من تلك السنة برئاسة توفيق السويدي، وكانت تنتمي بصفة كلية الى حزب «التقدم» لكنها لم تستطع اجراء سوى القليل من المحاولات، ذلك لان وزراء الداخلية، والمالية، والاشغال، والري، اي كل من عبد العزيز القصاب، ويوسف غنيمة، ومحسن شلاش وسلمان البراك بقوا في وزاراتهم هذه، في حين تولى داود الحيدري ابن ابراهيم افندي ذلك الشيخ الجليل، منصب وزارة العدل، وتولى خالد سليمان شقيق حكمت سليمان، منصب وزير التربية، وامين زكي وزارة الدفاع

كانت وزارة الاوقاف قد الغيت وحولت الى دائرة تخضع لاشراف رئيس الوزراء. واذ حان الان موعد استبدال او اعادة اختيار نصف اعضاء مجلس الاعيان، فقد تم تحقيق ذلك وفقا لارادة ملكية صدرت في هذا الشأن. غير ان الحوادث الملحة كانت تصر على حل ازمة المعاهدة.

كان استبدال السرهنري دوبس، الرجل القدير والصديق المخلص للعراق، بالسر غلبرت كلايتون الذي سبق له ان مثل المصالح العراقية في الجزيرة العربية، ونال مركزا عاليا من الاحترام لدى العرب، والذي كان يظن (وربما كان ذلك خطأ) بانه سوف يسلك طريقا مواليا جدا للعراق، في ذات الوقت الذي كرر فيه ذات النصيحة التي قدمها سلفه الى الحكومة البريطانية بان تختار سياسة تحررية[١٢]

كان وصول حزب العمال الى الحكم في بريطانيا لاول مرة[١٣]، والتصريحات التي ادلت بها حكومة العمال بصفة مبكرة عن السياسة البريطانية ازاء مصر، كل ذلك، قد اثار المزيد من الاهتمام والامال التي لامبرر لها في بغداد. وقد تضاعفت هذه الاحاسيس عندما انبئت الحكومة العراقية، جوابا على طلبها، بان الاحكام المحددة لمسودة معاهدة سنة ١٩٢٧ لم تعد قائمة، وان

والدلك قام السعدون استقالة حكومته في اليوم العشرين من شهر كانون الثاني سنة ١٩٢٩ وفصل في كتاب الاستقالة اسبابها.
[illegible] موقف [illegible] البريطانيا من تعديل الاتفاقين. فقد ابدت الحكومة البريطانية في ذلك تصلبا شديدا ولم توافق على تلك الام[illegible] بالفشل التام، [illegible] شعرت الوزارة من جراء ذلك بقسط كبير من اليأس والخيبة. واصبح [illegible] الحسني تأريخ الوزارات العراقية ٢٩٠؟ ص ٢١٤؟ ومابعدها طبعة ١٩٧٤)

[illegible] [illegible] التحررية هنا، السياسة التي [illegible] ينادي [illegible] حزب الاحرار البريطاني، والتي تعرف الان اصطلاحا باسم [illegible] وكثيرا مايقع بعض الكتاب والمترجمين في فهم خطئ بشأن هذه السياسة التحررية. اذ يحيل الى العقل [illegible] [illegible] EMANCIPATION اي التحرر التام غير المقيد بقيود، في حين ان السياسة التحررية LIBERAL POLICY يراد بها المفهوم الدارج في الغرب وهو «الاقتصاد الحر» اساس النظام الرأسمالي

(١٣) وصل [illegible] البريطاني الى الحكم في بريطانيا [illegible] الانتخابات العامة التي جرت في شهر تموز ١٩٢٩ وتولى حزب العمال في ذلك الوقت، [illegible] الوزارة في بريطانيا.

الحكومة البريطانية قررت ان تساند ترشيح العراق لعضوية عصبة الامم من دون اية شروط ، وذلك في سنة ١٩٣٢ ، وان من المبهج في الوقت ذاته ، ان يتم تنظيم العلاقة البريطانية العراقية المقبلة ، عن طريق معاهدة جديدة يجري اعدادها فيما بعد. وقد تم اعلام مجلس عصبة الامم طبقا لذلك



٢ . التقدم نحو جنيف

على ان مسرى اعداد المعاهدة والتي ظهر بأن المصاعب الرئيسة انما نبعت منها الان. قد اعترضته الحوادث المؤسية. ذلك لأن وفاة جلبرت كلايتون المفاجئة في اليوم الحادي عشر من شهر ايلول ببغداد. قد احدثت اسفا عظيما، اعقبته فترة خلو استمرت ثلاثة اشهر في منصب المندوب السامي. الى ان خلفه السر فرنسيس همفريز، من رجال الخدمة السياسية في الهند. الذي شغل مؤخرا منصب وزير بريطانيا المفوض في كابل. وفي الوقت ذاته سقطت وزارة توفيق السويدي في شهر آب. وتألفت وزارة جديدة برئاسة عبدالمحسن السعدون، ولقد تألفت هذه الوزارة من الأعضاء الاقوياء في حزب «التقدم» ومن عناصر غير حزبية ضمت ناجي السويدي ـي تولى وزارة الداخلية. ونوري السعيد للدفاع، وأمين زكي للاشغال والمواصلات، وناجي شوكت رجل الادارة القدير والمحامي السياسي من اسرة جيدة، لوزارة العدل، وعبدالعزيز القصاب للري والزراعة وعبدالحسين الحلبي للتربية، وياسين الهاشمي زعيم حزب الشعب للمالية.

غير ان رئيس الوزراء. مالبث ان أصبح معرضا للضغط، فراح يعاني نكران الجميل، وخيبة الأمل ذلك لأن مشكلة التجنيد الأجباري غدت مثارا للخصومة الحادة، وكانت المفاوضات بشأن المعاهدة التي صحت النية على المبادرة بها في المرحلة التالية، جد مربكة، كذلك زاد الحذر البريطاني في ذات الوقت من ارباك وضع السعدون وما رافقه من نفاد الصبر لدى العراقيين. وعلى غير انتظار وبمزيد من الاسف العام، اقدم عبدالمحسن السعدون على الانتحار في اليوم الثالث عشر من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٢٩، وبذلك خسر به العراق،

---

(١) يشير المؤلف بهذا الى ماجوبه به السعدون عند مناقشة خطاب العرش، الذي يعتبر بمثابة منهاج للوزارة السعدونية الرابعة في المجلس النيابي الذي انعقدت جلسته الثالثة في اليوم الحادي عشر من تشرين الثاني ١٩٢٩ حيث جوبه بانتقاد شديد من لدن بعض النواب، وفي مقدمتهم المحامي محمد زكي نائب البصرة انظر تفاصيل ذلك في الحسني: الوزارات العراقية ج٢ ص ٢٨٩ وقد نقل الحسني في حاشية ص ٢٩٢ من الجزء الثاني من تاريخ الوزارات ما ذكره توفيق السويدي في مخطوطته المعنونة «وجوه عراقية» بأن الملك فيصل كان يشجع من طرف خفي خروج اعوان السعدون والسائرين في ركابه عليه وعلى حزبه، ولاسيما بعد ان نال السعدون اعتماد المندوب السامي وثقته المطلقة في الوقت الذي كان فيه جلالته يريد الا يشاركه احد في هذه الثقه وهذا الأعتماد، ولسوف يرد فيما بعد تلميح من جانب المؤلف الى حسد فيصل وغيرته من كل عراقي يحظى بالأهتمام من لدن الأنكليز اكثر من الملك نفسه.

رعيا وارستقراطيا صحيحا ذا خلق ومواهب سامية[٢]

وبعد انتحاره، وقبل وصول السر فرنسيس همفريز بثلاثة اسابيع، تألفت وزارة من تركيب مماثل وثيق، وبأضافة السيد خالد سليمان. تولى رئاسة هذه الوزارة السيد ناجي السويدي، ولقد كرس هذا القومي المتلهف اولى طاقاته لنقل السلطات التنفيذية الباقية في الحكومة الى ايدي العراقيين، وذلك لأن وضع البلاد الجديد، اذا ماتحقق فأنه يتطلب مثل هذا الأمر.

اخذ الملك والرأي العام، والصحافة كلهم يتطلعون الى سيطرة الموظفين العراقيين المباشرةعلى كل شيء، ومن الاصرار المعاكس الذي اظهره المندوب السامي البريطاني في التباطؤ في اصدار الأوامر بتحويل الواجبات برز الأحساس المؤلم بصفة محزنة بشأن «الوضع الشاذ».

حصل شيء من التقدم حقا، حيث تم خفض عدد الموظفين البريطانيين، وذلك عن طريق رفض التخصيصات المحددة لهم في الميزانية في بعض الأوقات وعن طريق بعض الأنظمة الجديدة التي كان يقترح تغييرها عدة مرات في كل وزارة، غير ان ارتداد الاحزاب عن المساندة، والأزمة الاقتصادية المقبلة، وأنعدام التقدم المباشر للمعاهدة، والذي كان يعزى دوما الى العقبات التي يضعها البريطانيون مما كان موضوع تظاهرات صاخبة قام بها الطلاب في الشوارع، كل هذه العوامل قد ادت الى استقالة وزارة ناجي السويدي بعد مرور محض اربعة اشهر على تأليفها[٣]

تألفت الوزارة التي اعقبت وزارة ناجي السويدي في يوم ٢٣ اذار ١٩٣٠ ورأسها نوري السعيد الذي كان يتمتع بثقة كلا الحزبين[٤] وقد ضمت هذه الوزارة جميل المدفعي بطل معركة تلعفر، ذلك الحادث الذي وقع في سنة ١٩٢٠، وأصبح الان يعتبر من الاداريين البارعين

---

(٢) وقع حادث انتحار عبدالمحسن السعدون مساء اليوم الثالث عشر من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٢٩ واحدث انتحاره رجة كبرى في البلاد حيث توجهت الأنظار الى الأنكليز الذين اتهموا بأنهم هم الذين كانوا السبب في أنتحاره بل ان بعض الناس كانوا يروجون اشاعة مؤداها ان السعدون قد قتل بيد المخابرات البريطانية وان وصيته الشهيرة الى ولده علي كانت مزورة. وقد ذكر ساطع الحصري في الجزء الثاني من مذكراته ص ٥٤٢ بأن الملك فيصل أستغل حادث أنتحار عبدالمحسن السعدون، واخذ يصرح بأنه لابد من تحسين سياسة بريطانيا تحسينا اساسيا. ويذكر السيد لطفي جعفر فرج في رسالته عن عبدالمحسن السعدون «ان السعدون قبل انتحاره بيوم واحد قد تبين له ان الحكومة البريطانية لم تكن جادة في احداث اي تغيير في سياستها نحو العراق، وانما كانت تعتقد بأن مجرد الافصاح عن نيتها بعضد دخول العراق في عصبة الأمم كاف لأقناع العراقيين بشروط معاهدة جديدة (ص ٣٥٢) «والتقى السعدون بكور نواليس وفهم منه ان ليس هناك تبدل في السياسة البريطانية تجاه العراق وان بريطانيا سوف لن تستجيب لمطاليب قائمة على اساس الاستقلال (نفس المصدر نفس الصفحة).

(٣) تألفت وزارة ناجي السويدي في اليوم الثامن عشر من شهر تشرين الثاني وقداصطدمت هذه الوزارة مع دار الاعتماد البريطاني بشأن الميزانية الجديدة خلال شباط ١٩٣٠ فكان هذا الاصطدام سببا اساسيا من اسباب استقالة الوزارة في اليوم التاسع من اذار سنة ١٩٣٠

(٤) يقصد بهما حزب التقدم وحزب الشعب والحقيقة ان اشتراك الحزبيين في وزارة العسكري، كان من العوامل الممهدة لتقويض الحياة الحزبية في البلاد، حيث تم القضاء على الأحزاب بالاتفاق بين رؤساء الاحزاب في سنة ١٩٣٥، وكان القصد من تفتيت الحياة الحزبية وشخصيات هذه الاحزاب هو ان «تبقى شخصية الملك فيصل هي القيادة، وهي الموجه السياسي الوحيد في البلد»، (د. فاروق صالح العمر: الاحزاب السياسية في العراق ص ١٧٧).

المجربين ولذلك اختير وزيرا للداخلية، وعلي جودت للمالية، وجعفر العسكري للدفاع، وجميل الراوي وهو من كبار الموظفين ومن طراز جيد وعائلة جيدة، للمواصلات والاشغال، وجمال بابان المحامي الذي يدعى بأنه من أصل كردي، وله الحق في ان يحمل اسم بابان الشهير(٥) وعبدالحسين الجلبي الذي تولى وزارة التربية مرة اخرى.

قامت هذه الوزارة بمحاولة مباشرة لعقد المعاهدة. وبعد مرور اربعة اشهر من المفاوضات من شهر نيسان حتى شهر حزيران، كانت تلك المدة كافية للتوصل الى اتفاق، حيث تم التوقيع على نص المعاهدة في اليوم الثلاثين من شهر حزيران سنة ١٩٣٠(٦) كانت معاهدة سنة ١٩٣٠. بالملاحق التي ارفقت بها وبالرسائل التي تبودلت بشأنها، تعتبر واحدة من معاهدات التحالف الوثيقة بين امم صديقة. فقد حققت الوعد بالمساعدة المشتركة ايام الحرب، والالتزام بالمشاورات الوثيقة، لكنها ماخلا هذه الأمور المحددة، تركت امور الدفاع عن العراق من شؤونه الخاصة به.

ولقد تم افهام العراق بمدى اهتمام بريطانيا «بالمواصلات الجوهرية عبر بلاده والسماح، لبريطانيا بأحتلال قاعدتين جويتين من قبل قوات يتم الأتفاق على مدى قوتها، تكون احداهما قرب البصرة، والأخرى في غربي الفرات، هما فعلا قاعدتا «الشعيبة» و«الحبانية» وان تتم حراسة هاتين القاعدتين من قبل القوات العراقية وعلى نفقة البريطانيين(٧) وكان اشغال هاتين القاعدتين يبدأ خلال خمس سنوات من التوقيع على المعاهدة، والى ان يأتي ذلك الوقت، يتم اخلاء المعسكرات والمطارات الجوية في «الهنيدي» «والموصل»(٨) ولم يكن وجود هذه القوات «يؤلف احتلالا في اية حالة وانه لن يخل بحقوق سيادة العراق وان يتم تزويد هذه القوات الأخيرة بالاسلحة وبالمهمات والتدريب من قبل بريطانيا، وتستطيع القوات البريطانية زمن الحرب ان «تتمتع بكل التسهيلات والمساعدات التي تمنحها دولة العراق، وان تتحرك بصفة حرة في الجو، وفي البحر وفي البر. وان يكون الممثل البريطاني في بغداد من درجة سفير، وان يتمتع بالتفوق

---

(٥) يقصد المؤلف بذلك رئيس العائلة البابانية، وهو بابامير بن بوداق بن عبدال، الذي ظهر في القرن الحادي عشر للهجرة، القرن السابع عشر الميلادي، وكان احد حكام هذه العائلة ابراهيم باشا هو الذي اسس مدينة السليمانية في سنة ١٧٨٤ م واتخذها قاعدة للامارة بدلا من عاصمتها القديمة «قلعة جوالان».

(٦) تعمد الأنكليز ووافقهم نوري السعيد في ذلك على ان يكون التصديق على المعاهدة في اليوم الثلاثين من حزيران، وهو يوم اعلان الثورة في الفرات الأوسط في سنة ١٩٢٠ وبالفعل فان معاهدة ١٩٣٠ قد قضت على اخر ما بقي من اثار تلك الثورة، وماقصد من ورائها.

(٧) لم تكن هذه القوات عراقية حقا، وانما هي قوات المرتزقة واغلبيتها من الاثوريين الذي كانوا يأتمرون بأوامر الأنكليز، فلو كانت حراسة هاتين القاعدتين موكلة الى العراقيين لسهل على الجيش العراقي في ثورة ايار سنة ١٩٤١، ان يحتل هاتين القاعدتين، ولتبدل الوضع في العراق تبدلا خطيرا ولما فشلت الثورة في ايامها الأولى بسبب وجود القاعدتين بأيدي الانكليز.

(٨) «الهنيدي» هو مايعرف الان باسم معسكر الرشيد وكان في الأصل من المطارات العسكرية البريطانية ومقرا من مقرات قوتهم الجوية في العراق. اما في الموصل فقد كان لدى الأنكليز مطار «الغزلاني» شمال غرب الموصل، ولكن اتساع العمران في الموصل في السنوات الأخيرة ابتلع اراضي هذا المطار وتجاوزها الى الغرب والشمال والجنوب.

والسيادة على الدبلوماسيين الأخرين». وهكذا استطاعت هذه المعاهدة ان تعيش لمدة خمس وعشرين سنة[٩]

تم وضع ترتيب اتفاق مالي اشترطته المعاهدة وذلك مقابل تنازل بريطانيا عن المعسكرات والمطارات التي تخليها القوات البريطانية داخل العراق خلال خمس سنوات، وكذلك نقل ملكية سكك الحديد الى العراق، لكي تتحول الى مؤسسة اضافة الى ميناء البصرة الذي سيتحول الى وحدة للميناء وان يكون الموظفون الاجانب الذين تحتاج اليهم الحكومة العراقية من البريطانيين، وان تظل اوضاع اولئك الذين سبقت لهم الخدمة في العراق، من دون ادنى مساس بها.

وحتى قبل ان يبلغ امر تعديل المعاهدة، مرحلته النهائية، جرت مفاوضات سارت قدما بقصد استبدال الاتفاق القضائي الذي تم الاتفاق عليه في سنة ١٩٢٤ والذي كان يضم بقية باقية من نظام الاخضاع الذي كان ساريا في العهد التركي، ولم يعد يتفق ومستقبل العراق، وبمبادرة من نوري السعيد والمندوب السامي البريطاني، تم التوصل الى هذا الاتفاق الجديد في ذات اليوم الذي صودق فيه على المعاهدة والتوقيع عليه في اليوم الرابع من شهر اذار سنة ١٩٣١ وقد اشترط الاتفاق المذكور، توحيد النظام العدلي وان يطبق هذا النظام على العراقيين والأجانب على حد سواء ولتيسير تحقيق هذا الغرض تقرر استخدام بعض المحامين البريطانيين حدد عددهم مؤخرا بتسعة اشخاص، ولفترة محدودة في المحاكم وفي وزارة العدل.

اجريت تغييرات محققة في القانون الجنائي، وفي قواعد الأثبات وذلك قبل ان يتم تنفيذ ذلك الاتفاق، واذ تم ايصال هذا الأتفاق الى مجلس عصبة الأمم فقد جرت المصادقة عليه على شرط ان تكون جميع السلطات المتعاقدة قبلا، راضية بالوضع الجديد لرعاياها في العراق، وفقا لهذا الاتفاق، ولقد قبلت الاطراف المعنية بذلك الشرط دون استثناء خلال اشهر قلائل ذلك القبول الذي جعل وضع العراق الجديد مقبولا لدى الأمم الاخرى.

وحتى بعد ان صحب ذلك، تفاهم مع المندوب السامي لتقليص عدد الموظفين البريطانيين على الفور، حيث جرى في الواقع تقليص عدد العاملين منهم في دائرة التفتيش الاداري، وتم استدعاء عدد كبير مهم الى بغداد، فأن المعاهدة قد قوبلت من دون حماسة في العراق ولغرض المعارضة تم انتقادها بشدة من قبل الكثير من المتحدثين في بريطانيا. غير ان الاقليات قد اخذت تشعر بالخوف كما سوف يظهر ذلك مؤخرا في ذات الوقت الذي استاء منها الساسة القوميون المتطرفون لأنهم اعتبروا بقاء تلك الامتيازات البريطانية استمرارا للعبودية.

---

(٩) مع ان هذه المعاهدة تعتبر لاغية بعد ان عقدت معاهدة بورتسموث في اواخر سنة ١٩٤٧ واوائل ١٩٤٨، ومع ان وثبة كانون الثاني ١٩٤٨، قد اوقفت تنفيذ معاهدة بورتسموث وتصديقها؛ الا ان معاهدة نوري السعيد لسنة ١٩٣٠ بقيت نافذة المفعول بصفة عملية حتى سنة ١٩٥٥ عندما توصل العراق الى اتفاق مع بريطانيا بشأن الانسحاب من قاعدتي الشعيبة والحبانية وزوال اخر الاثار الشاخصة لمعاهدة ١٩٣٠

قرر رئيس الوزراء اجراء انتخابات عامة لتعزيز وضع وزارته، ولكي يقرر موقف الأمة، ولو بصفة ظاهرة على الاقل. لم يكن الحزب الوطني(١٠) مقتنعا بمحاولة مقاطعة الانتخابات، وبأقصى النشاط الذي اظهرته المقالات التي نشرتها صحافته، وبالمنشورات اليدوية والشفهية التي لم تتردد في اثارة جماعة المجتهدين من الشيعة وتحريكهم لأستنكار المعاهدة الجديدة، ومع كل ذلك فان هؤلاء المجتهدين لم يكونوا ميالين في الحال الى التدخل في الأمر، عدا ماحدث بصفة جزئية في سامراء، ولذلك جرت الانتخابات في جو سلمي في المناطق التي اجريت فيها، وفي السليمانية وحدها وقعت مصادمات عنيفة بين المتظاهرين والشرطة نجمت عنها اراقة الدماء ووفاة زهاء عشرة انفار(١١)

عرفت كل نتائج الأنتخابات في نهاية شهر تشرين الأول سنة ١٩٣٠ فأظهرت نصرا ساحقا لحزب الحكومة(١٢) اما مصادقة البرلمان الذي اجتمع في اليوم الأول من شهر تشرين الثاني على المعاهدة، فلم تحل دونها حملة الاستنكارات العنيفة التي اظهرها المتطرفون من الوطنيين، فلقد كان التصويت لصالح المعاهدة بنسبة ٦٩ صوتا مقابل ثلاثة عشر صوتا في مجلس النواب، واحد عشر صوتا مقابل خمسة اصوات في مجلس الأعيان(١٣)

ولكن بقي الشيء الكثير الذي ينبغي عمله في بغداد وفي جنيف معا. ظل البرلمان منشغلا بسن التشريعات، وتهدئة الأوضاع السياسية من منتصف صيف ١٩٣١ وكانت المعارضة ضد حكومة نوري السعيد قد تجمعت انذاك في صفة اشد صلابة مما كان يظهره الحزب الوطني المنعزل، والذي لم يستطع، بفضل وجود الموظفين الاداريين في المحافظات، ان يلعب سوى دور ضئيل في الانتخابات(١٤)

---

(١٣) كان عدد اعضاء المجلس النيابي الذي طرحت عليه المعاهدة ثمانية وثمانين نائبا وكان من ابرز الموافقين على المعاهدة نوري السعيد، وجعفر العسكري واحمد مختار بابان وجميل المدفعي، وجمال بابان، الحاج طالب، وصالح جبر، وفائق شاكر، ونجيب الراوي. اما ابرز المخالفين لها فمنهم رشيد عالي الكيلاني، صادق البصام، ابراهيم عطار باشي، معروف الرصافي، ياسين الهاشمي، ناجي السويدي وعلي جودت الايوبي.

(٤) يريد المؤلف بذلك حركة الاضراب التي تشأت في بغداد وغيرها من المحافظات في شهر تموز سنة ١٩٣١

كان الزعماء السايسيون المعادون لنوري السعيد واولئك الذين لهم تحفظاتهم على المعاهدة من امثال ياسين الهاشمي، وعلي جودت الذي استقال من الوزارة في شهر ايلول، وخلفه في منصبه رستم حيدر مرشحا عن البلاط، قد الفوا من كل من الحزب الوطني، وحزب الشعب، ومن عناصر تحمل ذات التفكير، ماعرف بأسم حزب الاخاء الوطني[١٥]

وفي اجتماع الافتتاح الذي عقد في شهر اذار سنة ١٩٣١ اوضح الحزب ان من اهدافه حل البرلمان الذي لم يكن يمثل الشعب، وتأليف حكومة جديدة «تتعهد بأن تأخذ بنظر الأعتبار علاقات العراق الخارجية». ولقد لمح عدد من اعضاء الحزب بفكرة ملائمة لاستقالتهم من مقاعدهم في مجلس النواب، وقرر الجميع ان يواصلوا حملتهم عن طريق الصحافة، وفي أنحاء البلاد•وكان نوري السعيد هو الاخر قد سبق له ان الف من النواب المؤيدين له «حزب العهد» وراح يتطلع الى ايام «العهد» العظيمة الماضية، وتنفيذ منهاج المعاهدة.

من بين اولى الأعمال التي اقدم عليها حزب الاخاء الوطني في اوائل شهر تموز، تنظيم سلسلة من الاضرابات لم تكن لها سابقة مماثلة في مدن العراق[١٦] بالنظر الى توقيتها المركز، وصداها الواسع. وكان لهذه الاضرابات هدفها وهو ارباك الحكومة. ذلك ان المنظمات الحرفية في الاسواق قد تولاها الخوف، واصابها الفزع الغامر، نتيجة الفقرة التي ادخلت حديثاً في قانون الرسوم البلدية، تلك الفقرة التي يمكن تفسيرها بأنها كانت غير ملائمة لتلك المنظمات. غير ان سوء التفاهم هذا والذي عالجته الحكومة بيسر، كان قد شجع الاصرار على الاضراب حتى اواخر شهر تموز، وبعد محاولات بذلت لمد الاضراب الى شمالي العراق. وبعد ان ادت القلاقل التي وقعت في البصرة، وفي مدن الفرات الأوسط الى اصطدامات دموية، والى تدخل قوات الشرطة، امكن انذاك القضاء على اعمال التحريض والاثارة.

---

(١٥) تالف حزب الاخاء الوطني على انقاض حزب الشعب الذي الفه ياسين الهاشمي، وقد اجيز من وزارة الداخلية في ٢٥ تشرين الثاني ١٩٣٠ اي بعد اجازة حزب نوري السعيد، العهد، بشهر واحد وانتخب رشيد عالي معتمدا عاما له وتألفت لجنة ادارية جديدة ترأسها ياسين الهاشمي واصدر الحزب صحيفة يومية تنطق باسمه هي «الاخاء الوطني» كان صاحب امتيازها علي جودت الايوبي، ومديرها المسؤول عبد الاله حافظ ثم اصبح كامل الجادرجي هو المدير المسؤول للصحيفة والذي قدم الى المحاكمة بعد الدعوى التي اقيمت ضد الصحيفة في اعقاب نشرها قصيدة للاستاذ محمد حسين الشبيبي بعنوان «جرس الحرس» وكانت من المحاكمات الصحفية الشهيرة في ذلك العهد.

(١٦) اقر البرلمان لائحة الرسوم البلدية الجديدة في اليوم العاشر من شهر ايار ١٩٢١ وقد بدأ الاضراب العام في بغداد صبيحة يوم الاحد الخامس من تموز فاغلقت المخازن والحوانيت، وتوقفت حركة البيع والشراء، وتعطلت الصيدليات والمطاعم والفنادق وحتى دور السينما والملاهي، كما توقفت وسائل النقل عن الحركة. ومالبث الاضراب ان سرى الى ضواحي العاصمة وامتد الى الفلوجة والرمادي والحلة والنجف وكربلاء والكوت والناصرية وحتى الموصل وعمدت الحكومة ازاء ذلك الى فتح مخازن ومحلات حكومية لبيع المواد الغذائية واستنكرت الاحزاب السياسية قانون الرسوم واحتجت الى الملك ضد قسوة الشرطة ازاء المضربين. ومع ان الحكومة قد اعلنت عن الغاء الرسوم الجديدة. واطلاق سراح الموقوفين، ووعدت بالنظر في قضايا العمال العاطلين، الا ان ذلك لم يخفف من الازمة. وما لبث الوضع ان تفاقم بعد ان عين مزاحم الباجةجي، وكان من المعارضة، وزيراً للداخلية ووكيلا لرئيس الوزارة بعد سفر نوري السعيد الى تركيا، حيث استخدم مزاحم منتهى القسوة في كسر الاضراب.

ويبدو ان حصاد كل ذلك كان يتمثل في بروز طراز جديد ومخلص من السياسات العراقية فلقد نجح الاخاثيون في هذا المسعى، وقد دفعهم ذلك النجاح الى التقدم ثانية (كما قال ذلك اعداؤهم عنهم) الى خطوة اخرى تثير الاضطراب المحفوف بالمخاطر، وتزيد من توتر العلاقات بين الاكراد والعرب، وبين الاثوريين والاكراد.

والحقيقة ان موقف الاقليات ازاء مستقبل تحرر العراق، وزوال السيطرة البريطانية عنه، كان أكثر اشغالا لبال الحكومة العراقية، والحكومة البريطانية، وعصبة الأمم ذاتها، وبصفة خطيرة، ذلك لأن اهتمام عصبة الأمم قد تركز حول هذه القضايا او المظاهر من حياة العراق.

ولقد فعلت الحكومة افضل ماتستطيعه للتأكيد في هذا الشأن سواء بالجولات المتكررة التي قام بها الملك في المناطق الكردية، وبالتشريع الذي نص على استعمال اللغة الكردية، وعن طريق الوعد بالوفاء بكل التعهدات التي قطعت في الماضي، وبأمثال هذه التلميحات العملية عن حسن النية وبإجراء تعديلات طفيفة في الوزارة، وفقدان جميل المدفعي منصبه في رئاسة مجلس النواب واضافة الدكتور عبدالله الدملوجي وزيرا للخارجية واعادة تشكيل الوزارة في شهر تشرين الأول[17] استطاعت وزارة نوري السعيد ان تصون كيانها، على الرغم من المكائد والهجمات التي وجهها الاخاثيون ضدها منذ تشكيلها في شهر اذار ١٩٣٠ حتى شهر تشرين الثاني ١٩٣٢

الف نوري السعيد وزارته الثانية في اليوم التاسع عشر من تشرين الأول ١٩٣١ فتولى ناجي شوكت وزارة الداخلية، ورستم حيدر وزارة المالية، وجمال بابان وزارة العدل، وجعفر العسكري وزارة الخارجية وامين زكي وزارة الاشغال والمواصلات، وعبدالحسين الجلبي وزارة المعارف. لم يعد يسمع الان سوى الشيء الضئيل عن التنافر الطائفي ماخلا بعض المخالفات الضئيلة للأنظمة بصفة ضمنية. كذلك لم يعد يذكر اي شيء عن التهديدات بأعلان التجنيد الاجباري، او الأمل في ذلك بعد ان استطاعت وزارة نوري السعيد ان تؤجل صدوره بضرب من الحكمة الى ان يزول الالتزام بالاصغاء الى مايقوله المندوبون الساميون البريطانيون

فقد كان الأهتمام الكبير في ذلك الوقت منصبا بشكل واضح على قبول العراق في عصبة الأمم والذي حددت له سنة ١٩٣٢

كانت نية الحكومة البريطانية تنطوي على ان تتقدم بهذه التوصية الى عصبة الأمم في شهر ايلول سنة ١٩٣٢، وان تثير فيما بعد، قضايا الاجراءات التي لم تكن موجودا قبلا، كانت اللجنة الدائمة للانتداب على العراق تقدم ابتداء من سنة ١٩٢١، تقاريرها السنوية الى عصبة الأمم مصحوبة بايضاحات شفهية، ولم يتراخ اهتمام تلك التقارير بالشؤون العراقية والوصاية البريطانية ابدا ولقد اوردت اللجنة في تقريرها لسنة ١٩٢٩ اشارات عن مدى استعداد العراق للتحرر او

---

(١٧) اخطأ المؤلف في تحديد تاريخ اعادة تشكيل الوزارة السعيدية اذ اعتبره في شهر تشرين الاول سنة ١٩٣٠ والصواب ان اعادة تشكيل الوزارة او تأليف الوزارة السعيدية الثانية حصل في التاسع من تشرين الاول ١٩٣١.

عدمه، ثم راحت تسأل الممثل البريطاني المعتمد في جنيف بصفة وثيقة عن مدى ذلك الاستعداد، كما انها تقبلت بسرور «التقارير الخاصة عن تقدم العراق منذ سنة ١٩٢٢ حتى سنة ١٩٣٠».

ولقد طلب مجلس عصبة الأمم في حزيران ١٩٣٠ الى اللجنة الدائمة بأن تصوغ له الأوضاع التي تم انجازها في البلد الخاضع للأنتداب والذي تقدم بالطلب للحصول على التحرر. وفي المناقشات التي اعقبت ذلك واستمرت طيلة سنتين اخذ قسم من الناطقين الانكليز في جنيف يؤكد تقدم العراق، لكي يوضح النواقص الملحوظة، ولكي يتخذ ازاء المستقبل، موقف التفاؤل الذي كان يعكس الرغبة الخالصة (سواء صدق ساسة بغداد بها، ام لم يصدقوا) للتخلص بصفة نهائية من مسؤوليات الانتداب. كذلك لم يتأكد بعد لدى الحكومة البريطانية، بأن رفض مجلس العصبة لقبول العراق عضوا فيه، يمكن ان يوصف بشكل ثابت من لدن العراق، بأنه من المؤامرات البريطانية المعاكسة.

كانت الطلبات العديدة التي قدمتها الاقليات العراقية الى مجلس العصبة في جنيف، قد وفرت ميداناً اكثر جلاء للتساؤل عن ادعاءات العراقيين في الطلبات الملحة كثيرا، عن مصير الاكراد والاثوريين بعد انسحاب بريطانيا من العراق. ويبدو ان سياسة العراق حول هذه القضايا كانت في ذلك الوقت سياسة صائبة في الواقع ومعقولة ايضا، وان المندوب السامي البريطاني، اذا ما تم استجوابه حول الموضوع، يستطيع، ان يحدد الخطوات الملائمة التي اتخذت قبلا وان يتوقع استمرار تلك الخطوات وان يتم تقبل المسؤولية الادبية (تمييزا عن عمل عصبة الأمم) في هذا الميدان، اذا مابرهن العراق قبل كل شيء على جدارته بالتحرر. وطبقا لذلك كتبت لجنة الأنتداب الى مجلس عصبة الأمم في شهر حزيران سنة ١٩٣١ تقول بأن الظروف المواتية لتحرر العراق يبدو مستطاعا انجازها وذلك بقيام حكومة مستقرة قادرة على الدفاع بصفة ذاتية وضمان الأمن الجيد، والمالية الوطيدة، والقضاء المحترم والادارة التي لاتبارى.

ولكن ينبغي اعطاء بعض الضمانات من قبل الأمة المحررة، وهذه الضمانات تخص حقوق الاقليات والأجانب وحرية التفكير. والدين والوفاء بالألتزامات المالية التي فرضها الأنتداب، وحماية الأموال الأجنبية التي تم الحصول عليها قبلا، وملاحظة المواثيق الدولية وحسن معاملة الأمة العراقية لكل الدول الأعضاء في عصبة الأمم.

كانت مسودة البيان الخاص بقبول العراق في عصبة الأمم، والذي اشتمل على كل هذه الضمانات، قد تم اعداده في الوقت اللازم له في جنيف وسلم الى الحكومة العراقية حيث ناقشه برلمانها وصادق عليه بترحاب مدهش في جلسته التي عقدها خلال ١٩٣١ - ١٩٣٢ [١٨]

(١٨) اراد بعض النواب ان يناقشوا تعهدات العراق لعصبة الامم مقابل اختياره عضوا فيها ولكن رئيس الوزراء نوري السعيد رد عليهم بانه «لا يوجد شيء في هذه الضمانات اكثر مما هو مطبق الان بموجب القانون الاساسي، كما اشار الملك فيصل في خطاب=

واذ اكتفى مجلس عصبة الأمم بهذه الاحكام والاجراءات مهما كان نوع الشكوك المعروفة ضمنا، فقد اعرب هذا المجلس في اليوم الثامن والعشرين من شهر كانون الثاني سنة ١٩٣٢ عن استعداده لانهاء الانتداب على العراق حالما يتم تسلم البيان العراقي. وكان هذا البيان الذي اودع في جنيف خلال صيف ١٩٣٠ يلزم العراق على الفور بأن يصحح ويعالج كل المشاكل التي تخص الجنسيات، والاقليات والاديان، واللغات معالجة حرة، وان يشتمل البيان على سلسلة من الالتزامات المحددة يتعهد بها العراق تجاه عصبة الامم. ولم تلبث لجنة الانتدابات ان قبلت بهذه التأكيدات في تشرين الأول سنة١٩٣٢ وفي مقابل ذلك قبلت الجمعية العامة لعصبة الأمم بها وان كانت ماتزال تميل كما هو الواقع الى ابداء قلقها نيابة عن الاثوريين، مع ان الأمر لايحتاج الى وضع صيغ اخرى.

لقد طلب الان الى الأمم التي استفادت قبلا من استسلام الدولة العثمانية والتي قبلت في سنة ١٩٣٠ بالأتفاق القضائي العراقي البريطاني، لأنه يضمن رعاياها خلال تطبيق ذلك الأتفاق بأن تتخلى عن تلك الحقوق فيما بعد بصفة دائمة، فوافقت على هذا الطلب. ونظرا لأستمرار الضغط من جانب بريطانيا، ونفاذ صبر العراق بصفة واضحة، فلم تكن هنالك اية معارضة يمكن مواجهتها. وعلى هذا الاساس وافقت الجمعية العامة لعصبة الأمم، والتي كانت تضم اثنتين وخمسين دولة، بالتصويت الكامل في اليوم الثاني من شهر تشرين سنة ١٩٣٢ على عضوية العراق في عصبة الأمم.

ولقد دللت خطب الترحيب والتقدير، على وجود مناسبة من الود الواسع، وشيء من الأهمية التاريخية، فقد تكلم نوري السعيد بأسم العراق، الى الممثل البريطاني، السر جون سيمون، عن الأمتنان الخالص الملزم، تجاه الشعب البريطاني، ذلك الامتنان الذي كان في الواقع، يشعر به هو وملكه وعدد من أكثر العراقيين مسؤولية وله مايسببه[١٩]

العرش الذي القاه في افتتاح المجلس النيابي في الاول من تشرين الثاني ١٩٣٢ الى موضوع قبول العراق في عصبة الامم فقال «لقد مضى على هذه البلاد ردح من الزمن، وهي تبذل كل الجهود المستطاعة لتصل الى مصاف الامم الحرة المستقلة، ومما يدعو الى ابتهاجنا جميعا، ان هذه الجهود قد تكللت بالنجاح فدخلنا عصبة الامم على اساس المساواة التامة مع جميع الامم الممثلة فيها» (الحسني: الوزارات العراقية ج ٣ ص ٢٠٢).

(١٩) بعث الملك فيصل برقية شكر الى المسيو بول بونكور رئيس مجلس عصبة الامم في ٣١ كانون الثاني في سنة ١٩٣٢ بمناسبة قبول العراق في العصبة، كما وجه فيصل في ذات اليوم برقية مماثلة الى المعتمد البريطاني في مجلس العصبة نفسه وهو السر فرنسيس همفريز، المندوب السامي البريطاني في العراق ولقد وافق المجلس النيابي العراقي في جلسته المنعقدة في اليوم الخامس من ايار ١٩٣٢ على تقديم تصريح الى مجلس العصبة تضمن تعهدات العراق ازاء العصبة، كما ابرق جورج الخامس ملك بريطانيا برقية تهنئة بهذه المناسبة الى الملك فيصل في الثامن من تشرين الاول ١٩٣٢ ورد فيصل عليها ببرقية شكر الى ملك بريطانيا في اليوم الرابع من الشهر المذكور (الحسني: تاريخ الوزارات العراقية ج ٣ ص ١٩٨ ٢٠٩).

٢ ـ انعكاسات عن الانتداب

كان انهاء الانتداب، والذي ايدته الهيأة الأساسية التي تمثل الرأي العام البريطاني، عرضة للانتقاد في بريطانيا ذاتها ايضا. ذلك لان الغاء الانتداب كان يمثل سابقة للتخلي عن المصالح الامبراطورية، والفشل نهائيا في الحصول على كل المواصلات الستراتيجية المهمة، وخطرا، بل موتا محتما، يحيق بكل الاقليات العراقية. غير ان مثل هذه الانتقادات التي نشرت بكل حرية في الصحافة، والقيت في البرلمان البريطاني، قد اشترك فيها، ولو بصفة جزئية، الرأي العام الاوربي والامريكي ايضا، ولاسيما ما اشار اليه هؤلاء المنتقدون، بشأن الثقة حول معاملة الحكومة العراقية لاقلياتها الصغرى. اما المراقبون في فرنسا فقد ابدوا اسفهم لان المجال الذي تمت السيطرة عليه بصفة دولية، قد اخذ يتحول الى سيطرة بريطانية، في حين ان تحرر الولايات العربية التي كانت تابعة للعثمانيين قبلا، لن يقابل الا بالعويل في سوريا، وذلك لان السياسة الفرنسية هناك، كانت تسير على خطوط مختلفة.

ذلك لان الحكم الذي اصدره العالم على تخلي البريطانيين عن هذا الانتداب، وان كان يسري على ماضي تصرفهم ازاءه، يعتبر من قبل الاكثرية ثناء على البريطانيين فلقد ظهر بان الحياة والحقيقة قد منحتا لاول مرة للاراء التي اوحت بمفهوم الانتداب. ذلك ان الشعب المتخلف سياسيا قد تم تآلفه حقا في صفة امة، وانه قد نال المساعدة في بنائه الدستوري وفي ادارته، وانه

(١) يحاول المؤلف في هذا القسم ان يعطي تبريرات الى فرض الانتداب على العراق، ويجهد نفسه في ان يظهر للقارئ بانه لو لم يفرض الانتداب على العراق من قبل بريطانيا، لما استطاع العراق ان يبدأ مسيرته نحو الاستقلال والتقدم، اننا نعترف بان العراق لم تكن له طيلة العهود التي اعقبت سقوط الخلافة العباسية في صفة رسمية سنة ١٢٥٨ ميلادية، اية حكومة مؤلفة من ابناء وطنه، وانه بقي كل تلك السنوات الطويلة حتى سقوط العثمانيين في سنة ١٩١٨ يحكم من قبل حكومات وعناصر اجنبية عن الشعب العراقي في كل شيء، في اللغة والسلوك والاهتمام بالمصلحة الوطنية. ولكن هذا لايعطي الانكليز، ولا اية دولة اخرى في ذلك الوقت، اي مبرر لان تفرض سلطتها التامة على شعب تعهدت بان تمنحه الحرية في تقرير مصيره، واختيار نوع الحكم الذي يرتضيه، فالانتداب البريطاني لم يكن ليفرق في جوهره عن الحكم العثماني، او حكم المماليك، وعن حكم الفئات الطامعة السابقة من السلاجقة والبويهيين والصفويين. فلو ترك العراق حرا بعد الحرب العالمية الاولى مباشرة، وتلقى المساعدة من الانكليز في تشكيل حكم وطني فيه بعد الهدنة، لامكن نجاح مثل ذلك الحكم على الرغم من وجود الروح الفردية وسيطرة رجال الاقطاع وزعامات مجتهدي الشيعة وغير ذلك من العوائق التي تحول دون توطيد النظام الديمقراطي الوطني الصحيح المرجو، ولكن ماذا كانت ومازالت الشعوب المغلوبة تنتظره من الفاتحين القدامى والمحدثين؟

اخذ يتلقى النصح من الخبراء، وتمت حمايته بقوات مسلحة وقد تحرر وباقرب لحظة من العبودية.

ومثل هذا السجل من الثناء قد شارك فيه الكثيرون من ذوي العظمة والصلاح، وكثيرون من العراقيين وغير العراقيين من العرب، وقوبل بالتهليل والترحاب لانه كان يمثل شيئا ما، من الغاء الاستعمار مما يندر الكشف عنه قبل حلول القرن العشرين لاسيما اذا ما تعلق الامر، وبصفة مميزة، بجو التفكير السياسي الغربي الذي ظهر في اعقاب توقيع الهدنة في سنة ١٩١٨ ذلك لأن المثالية لم تكن غائبة عن الدوافع التي املت السياسة البريطانية.

فاحترام حقوق الضعفاء، والوصاية المثيرة للريبة، لم تكن بدعة في نظر خيرة رجال الدولة من البريطانيين. ولكن كانت هناك بواعث اخرى قائمة ايضا، وعلى الاخص بالنسبة الى الحصول على كل الفوائد التي يستطيع العراق ان يوفرها، من امثال المواصلات بين الشرق والغرب، والنقاط الستراتيجية، والميدان المفتوح للنشاط التجاري، دون الاستمرار في تحمل ضغوط الحكومة الثنائية ومسؤولياتها، او عار الظهور، الى درجة ما، لمقاومة قوى القومية المحلية التي كانت ذاتها مدينة بالمزيد من الامثلة والقواعد البريطانية.

كان معظم المستشارين والفنيين الذين عملوا مع هيئة الضباط البريطانيين، ومعظم هؤلاء المستشارين ان لم نقل كلهم، ممن امضوا سنوات خدمة في العراق، من الرجال الفعالين، مثلهم في ذلك مثل بقية العراقيين، ولقد اظهر زوال الانتداب حماسة وعطفاً، خلال السنوات الاثنتي عشرة من التعاون مع الحكومة العراقية، والتي الزمت بريطانيا ذاتها بايجاد ذلك التعاون.

هناك امم قليلة ربما تكون قد طالبت، في مثل هذا الوضع الانتدابي، بالحصول على القليل من الامتيازات التجارية والامتيازات الاخرى، وكان من اليسير عليها ان تظفر بذلك على الرغم من انفتاح ابواب عصبة الامم امامها. لم تكن هناك مجرد خدمات عامة، ذلك لانه تم انشاء محاكم العدل، وبنيت القوات الدفاعية التي كانت تتفوق على القوات الدفاعية لجارات العراق المعاصرة.

وكان الواجب الجوهري لتدريب العراقيين، استعدادا للحصول على الاستقلال، قد لقي من الاهتمام اكثر مما هو موجود منه في سوريا الفرنسية او فلسطين البريطانية. ذلك لان علاقات العراق مع جيرانه قد تم وضعها على اسس منتظمة، وتحديد الحدود معها، وانقاذ الجزء الشمالي من العراق، من الكتائب التركية التي كانت تتغلغل فيه. ومع ان الجهود البريطانية التي بذلت لضم الموصل الى العراق[٢] قد استخف بها بسخرية، فان العراق كان يفتقر الى الموارد النفطية في

---

(٢) كان الهدف الاول لبريطانيا من رد مطالب الاتراك بالحاق الموصل بتركيا. هو ان تضمن وضع يدها على الكنوز النفطية في ولاية الموصل، التي كانت تشمل محافظة كركوك المركز الاول الذي كان معروفا بوفرة وجود النفط فيه. في سبيل هذا النفط خاضـ... بريطانيا معركة حامية الوطيس في اروقة مقر عصبة الامم، التي كانت بريطانيا نفسها هي المهـ... عليها انذاك كما هو شأن =

هذه الولاية، ولذلك فلم يبدأ العمل بالتنقيب عن النفط في شمالي العراق الا بعد ان مرت سنة على تسوية قضية الموصل.

وجه العراقيون انتقادات عنيفة الى التعليم، والصحة، والجيش في عهد الانتداب، لان هذه الخدمات كانت هزيلة لاتقوى على الحياة. ولكن هذه الانتقادات كانت متطرفة بصفة اكثر ولم تأخذ بنظر الاعتبار قلة الاموال المتوفرة للانفاق على هذه الخدمات. كما انه ليس مستطاعا تأييد مايقال بان البريطانيين كانوا في كل الاوقات، يمتازون بالكمال في الدقة وفي الحكم، او انهم لم يتأثروا بمصالحهم في ضمان استقرار العراق، وحسن النظام فيه. ذلك ان انهاء الانتداب قد ترك اكثرية الساسة العراقيين ومعظم المثقفين من الشباب يوجهون سهام انتقاداتهم ضد ارتباط العراق بالبريطانيين، ذلك الارتباط الذي اعتبروه بانه هو السبب لكل النواقص التي المت بدولتهم، والمخاوف التي طغت على طبقتهم، وكانت معظم الصحف العراقية ضالعة في هذه الدعاية المعادية للانكليز.

ففي العراق، مثل بقية البلدان الاسيوية والافريقية التي كان البريطانيون يشرفون عليها، لم تتأخر الطبقة المتعلمة فيها عن عرض مطاليبها في الاشتراك في السلطة السياسية، وازالة كل العوائق والضغوط التي تقف امامها، وحتى عندما كانت مثل هذه الطبقة المتعلمة، تظهر فضلا عن مواقفها الاعتيادية المعادية للبريطانيين، شيئا من عدم النضج وانعدام المسؤولية.

ان شبكة العالم المتمدين، والمترابطة ارتباطا دقيقا، لم يعد ممكنا معها ابقاء بلد ما في عزلة سعيدة عن الاخرين، او معاملة الشعوب المتخلفة معاملة ابوية. ذلك لان مثل هذه العزلة ومثل هذا الانحطاط الذي يرغب البعض فيه، غير موجود بصفة عملية هذه الايام. ذلك لان الوطنية والمصالح السياسية تتجاوز الحدود، وليس مستطاعا انكار التعلم بالصيغ المطلوبة بصفة حتمية، لان التعليم في العراق، قد سبق له ان بدأ بداية جوهرية في ظل الحكم العثماني، وان اقامة دولة وطنية تحكم نفسها بنفسها في العراق كانت من الاهداف الواضحة[٣]

= هيمنة امريكا على الامم المتحدة في الوقت الحاضر، لكي تضمن بقاء ولاية الموصل جزء لا يتجزأ من العراق. فلولا النفط لما اهتمت بريطانيا ابدا بموضوع الموصل، ولتساومت بشأنها مع الغاصبين الاخرين.

(٣) يحاول المؤلف هنا ان يختلق الاعذار والمبررات للسياسة الاستعمارية التي سارت عليها بريطانيا في احتضان الاقطاعيين، وافراد الاسر البارزة لتسليمها السلطة في العراق فهو يزعم بان «الانتداب الذي كان في الواقع يهتم بالامن والاستمرار، لم ير مناصا من تقبل القوة الحاكمة المؤلفة من الاقطاعيين، وكبار ابناء الاسر التي تجمع بين السلطتين الدينية والدنيوية معا، وكذلك البارزين من ابناء المدن النابهين قبلا في الشؤون العامة. ولذلك فلم يفرض سوى الضئيل من الضغط على التقدم لكي تصل الطبقة المتوسطة اليافعة الى المرحلة الوزارية» وهكذا تم تطبيق هذه السياسة الاستعمارية التدميرية بحذافيرها، عندما اودعت السلطة الى الطبقات الاقطاعية والاسر البارزة، فراح افرادها يتناوبون على الحكم ويتنافسون في التآمر في سبيل ذلك، وينساقون في سياساتهم حسب الاوامر الانكليزية مما حفل به الحكم الملكي حتى آخر لحظة من لحظات وجوده. ومع ذلك، يعترف المؤلف بان امساك هذه الطبقة بزمام الحكم قد دفع العناصر الشابة ومعظم العناصر التقدمية فيما بعد، الى ابراز رد فعل تميز بوسائل العنف والاخضاع.

ولقد توطد رد الفعل هذا، ببعض التجمعات التي اسرعت في الظهور الى حيز الوجود فيما بعد. ذلك لان مثل هذا الامر لايمكن تجنبه بصفة عملية على اكثر احتمال، كما ان القوة المستبدة الحاكمة، ذات الآماد القصيرة، لم تكن تتوقع ان تفرض عنصرا غير مجرب، ليست له جذوره القبلية على بلد، لكي يصبح هذا العنصر هو القوة الحاكمة فيه!.

ومن التهم التي كانت توجه الى نظام الانتداب، تهمة عدم قدرة نظام الانتداب على حل المشاكل الاساسية العملية في البلاد، من امثال مشاكل الامن، وفوضى التصرف بالاراضي، وتأخر الزراعة، وعدم تطوير وسائل الري، وانتشار الفقر والمرض بصفة عامة. ويمكن الاجابة على هذه التهمة بان الاموال كانت محدودة[٤] ومع كل ذلك تم تحقيق شيئ من التقدم التقني، واصبح المجال مفتوحا امام مبادرات العراقيين، اذا ما توفرت الظروف والاموال اللازمة لذلك

واذا ما تجاوزنا العيوب التي الصقت ببريطانيا، باعتبارها الدولة المنتدبة على العراق، فلا بد ان نتساءل عن مدى النجاح الذي تستطيع به دولة غربية تحاول ان تصب شعبا شرقيا واسلاميا مثل العراق في قالب مشابه نوعا ما لقالبها هي. فاذا ما تركت مثل هذه الشعوب لذاتها فانها سوف تستعير من الغرب كثيراً من المواد غير الجوهرية والفجة التي لاتفيدها. فالنظام الذي ينتج عن ذلك، ويكون مماثلا لما كان موجودا في بلاد فارس وتركيا في القرن التاسع عشر، يكون نظاما خاصا بها. لقد هضمت المواد الغربية وتم تقبلها، ولكن الشرور الاجتماعية والسياسية القديمة لم يعد من المستطاع تحملها بالشكل الذي يؤدي الى الدمار حيث ينحصر التذمر غالبا في طبقة ضيقة مفهومة. ولكن الحالة تكون على خلاف ذلك، عندما تحل دولة اوربية نفسها، مهما كانت صفة الدوافع الى ذلك، في اراضي بلد متأخر، فتعمد الى اقامة صيغ غربية، وتصر على تطبيق القواعد والاهداف الغربية، وسط شعب، محير سرعان ما تجتاحه الثورة، وهو يفتش عن العدل والكفاية بالصفة التي ينظر بها اليهما في اوربا. ففي عالم افضل قد يحقق الشعب الذي تم اسعافه، كل بركات المؤسسات المحسنة، من القانون والمحاكم، والامن، والزراعة المتطورة، والمدارس، والمستشفيات والتي تكون مرضية طبقا لذلك.

ولكن الامر يكون على خلاف ذلك في ميدان التطبيق. فمفهوم الانتداب الذي تم تطبيقه على شعوب بدائية غير واعية، وكان بحد ذاته يؤلف تقليصاً للوضع القومي فيها، وضربة للعزة القومية، ولم يوجد اي انتداب كان ممثلوه المحليون يعملون على تحقيق مثل هذه البركات من دون اعتداء على الزعماء المحليين وعلى المصالح الراسخة، او من دون اثارة الكراهية ضد الاجانب

---

(٤) ان الادعاء دوما بنقص الاموال لايمكن ان ينهض دليلا على تبرير السياسة الانتدابية. ذلك لان الايرادات التي كانت الادارة البريطانية تحصل عليها من الضرائب، كانت اوسع بكثير مما كانت عليه في العهد العثماني، ولكن الانكليز لم يريدوا حتى ان ينفقوا تلك الايرادات المستحصلة من العراقيين على تعليمهم واصلاح احوالهم، وانما كانت تلك الايرادات تستعمل للانفاق على بقاء الجيوش البريطانية في العراق، وعدم تحمل الخزينة البريطانية اي شيئ من نفقات الاحتلال او الانتداب.

الذين غدوا مزعجين، وذلك حسب مستويات غير مألوفة، ومن قبل اناس غير مسلمين فضلا عن ذلك، ومن دون ، وربما كان ذلك بصفة لا ارادية، اختيار شيءٌ ما من اجواء التفوق والخصوصية الاجتماعية والتي تكون، من بين كل الامور، اقل تحملا بالنسبة الى المجتمع المتعلم في الشرق المتمدين.

تلك هي الاخطار التي لم يجهز البريطانيون الاتجهيزا ضعيفا لتفاديها، حيث تلا ذلك انعدام شعبيتهم على نطاق واسع بعد سني الانتداب. فلقد طغت على هذه الشعبية كثير من الاستثناءات الفردية ، ليس في الاوساط الوزارية او الوظيفية حسب، بل بين كل الطبقات التي كان عمل البريطانيين، نافعا لها. ومن المؤكد ان بعض مقاييس الاصلاح واعادة التنظيم، كانت بالنسبة الى مصالح الرخاء الوثيقة للجنس البشري من الامور المرغوب فيها في عراق سنة ١٩١٨ كذلك كان من المؤكد ايضا ان مثل هذا الرخاء لايمكن انجازه من دون الحاق ضرر بالمصالح المباشرة لتلك الطبقة التي كانت ترفع صوتها عاليا بالاحتجاج، سواء كان افراد تلك الطبقة من مجتهدي الشيعة، ام من المثقفين، او رجال الاقطاع او شيوخ العشائر.

٤ ـ قضايا الاقليات في العراق

كانت المشكلة التي واجهت الحكومة العراقية ، والطبقة الحاكمة العراقية ، من قبل العنصر الشيعي ليست بذات بال ، ولم تنل سوى اهتمام ضئيل من عصبة الامم ومع ذلك فقد كانت هذه المشكلة ، تعادل مشكلة الاكراد في تعقيدها ، وفي الحاجة الماسة الى ايجاد حل لها ، اذ ان اخطارها قد بدأت بالظهور خلال اشهر قلائل بعد ان ظفر العراق باستقلاله[1] ذلك لان استخدام تأثير المذهب الشيعي ، وكذلك القوة العشائرية ، سلاحا في السياسة الداخلية العراقية كان يمثل خطرا مهلكا

اما الطوائف الاخرى وهي اقل عددا من امثال المسيحيين ، واليهود ، واليزيدية ، والتركمان ، فانها لم تثر سوى القليل من الحوادث فلقد عومل المسيحيون على اساس المساواة مع المسلمين في المجتمع العراقي ، وفي شؤون الادارة ايضا وعندما اثار جلاء البريطانيين عن العراق في سنة ١٩٢٩ ، بعض الهواجس لدى الجبناء من المسيحيين ، فان رؤساء الطوائف لديهم ، لم يجابهوا اية مشقة في ان يؤكدوا لتابعيهم ، ويلحوا عليهم في مواصلة ولائهم لملكهم ، الذي هو ملك العراق ولقد ادت الجولة التي قام بها بعض الوزراء في سنة ١٩٣١ في القرى التي يسكنها المسيحيون ، الى توثيق عرى المودة ، كما تم تقديم كلمات الشكر رسميا ، الى القاصد الرسولي في العراق في هذا الشأن

ولهذا فلم يكن من العسير في سنة ١٩٣٠ اصدار تشريع ينظم الاوضاع الجديدة لهذه الاقليات المسيحية ، ويحدد سلطات قساوستهم وممثليهم وكان الاجراء الذي اريد به تطبيق الادارة الذاتية ، والذي تقبله المسيحيون ، مقيدا في الدولة العصرية ويراد به ان يؤدي في مدة قصيرة الى انهيار السلطة الفردية التي يمارسها رؤساؤهم

* * *

(١) يحاول اقطاب الاستعمار دوما في اي بلد من البلاد ، كما كان شأن العراق ذلك في مفتتح حياته الاستقلالية ، ان يتشبثوا بكل وسائل التفرقة والتمزيق عن طريق الادعاء بان الطائفة الفلانية هي اكثر عددا من الطائفة الاخرى ، كما سار الانكليز بعد الاحتلال مباشرة على سياسة التفريق الطائفي ، بان اخذوا يشددون على الناس ذكر مذاهبهم ، الى جانب عقائدهم الدينية ، حيث بقيت هذه التفرقة الطائفية قائمة حتى في المدارس على اختلاف مراحل الدراسة ، الى عهد وزارة ياسين الهاشمي التي تألفت في سنة ١٩٣٤ والتي الغت تلك التفرقة وكبحت جماح القائمين بها

وقعت الطائفة البهائية الصغيرة في بغداد ، خلال هذه السنوات تحت طائل حادث كان يخص البيوت البهائية المتنازع على ملكيتها في العراق فلقد بدأ البهائيون ، في اواسط سني العشرينات ، يصلحون ممتلكاتهم العقارية في بغداد ولكن المتطرفين من الشيعة المجاورين لهم ، قد رفضوا هذه المحاولة البهائية ، ورفعوا الى الملك التماسا يطلبون فيه بان يصدر اوامره باخلاء تلك البيوت ، ومصادرة مفاتيحها من ايدي البهائيين ، علما بان القضية كانت ماتزال آنذاك قيد الدرس في المحكمة المدنية ببغداد ، وان الحكم من قبلها قد صدر مؤخرا لصالح البهائيين . ولقد حاولت عصبة الامم اثارة هذا الموضوع ومناقشته ، غير ان المندوب السامي البريطاني في العراق احتج على تدخل العصبة هذا بصفة متكررة ولكن من دون طائل

ولم يحاول التركمان في كركوك وفي كفري ، وفي القرى التابعة لها اية محاولة للخروج عن نطاق الغموض الذي كانت له فائدته ، فلم يثيروا اية مشكلة ، منذ ان تمت تسوية قضية الموصل ، وعلى هذا تم قبولهم في الوظائف العراقية بنسبة تتجاوز ، كثيرا جدا ، نسبتهم العددية في البلاد[٢]

ولقد ظل اليهود على نفس حالهم الذي الفوه قبلا من اندماجهم فيما بينهم ، وعزلتهم عن بقية الطوائف الاخرى ، واكتفائهم الذاتي ، وتجنب المطامع ولقد كان من بينهم وزير المالية الشهير[٣] كما انهم حافظوا على مكانتهم في الدوائر الحكومية ، والسيطرة على كثير من الاسواق ، وامتلاك الاموال ، ودعم مدارسهم ومستشفياتهم الخاصة

وعندما قارب العراق ان يحقق استقلاله لم يكن اليهود من الجنون بحيث يجرأون بالاحتجاج المكشوف ضد الاستقلال ، ذلك لان اسلوب العيش الذي الفوه في العراق والمكوث فيه حتى في الاوقات العسيرة بالنسبة اليهم ، كل ذلك لم يكن من الامور الجديدة عليهم صحيح ان العراقيين ، مثل جميع العرب ، كانوا يشعرون بالمقت الشديد تجاه الحركة الصهيونية في فلسطين ، ولذلك استقبلت هذه الحركة الصهيونية بالتظاهرات العنيفة التي قام بها طلاب المدارس وبعض العناصر الاخرى ، التي جوبه بها «السر الفريد موند» عندما وصل بغداد في زيارة عمل له خلال شهر شباط سنة ١٩٢٨ وفي السنة التالية قامت تظاهرات في المساجد وفي انحاء بغداد ، ووقف اعضاء البرلمان لمدة دقيقتين حدادا ، وصدرت الصحف مجللة الحواشي

---

(٢) شغل مؤلف الكتاب «لونفرغ» منصب الحاكم السياسي البريطاني في كركوك مدة ليست قصيرة ، والم بالكثير من احوال التركمان وتصرفاتهم وسلوكهم في كركوك والقرى التابعة لها ولذلك فان مايصدره من احكام في هذا الشأن تعززه المشاهدة والتجربة العملية

(٣) يقصد به ساسون حسقيل وزير المالية في وزارات عبد الرحمن النقيب الاولى والثانية والثالثة وفي الوزارة السعدونية الاولى والوزارة الهاشمية الاولى .

بالسواد ، وارسلت البرقيات الى لندن تعلن معارضة السياسة الموالية لليهود[٤]

ولكن اليوم الذي طغت فيه هذه الاحاسيس المصحوبة بالعنف ضد اليهود القاطنين في بغداد ، والطائعين للقانون ، والذين تبرأوا من الحركة الصهيونية ، ان مثل هذا اليوم قد تأخر الى ما بعد سنوات مقبلة[٥]

تحول اليزيديون ، الذين لم يكونوا قد اشتهروا بانهم كانوا من المقتنصين القدامى للرخاء الذي اصاب العشائر ، او من ضحايا مثل ذلك الاقتناص ، الى اثارة شيء من الاضطراب ، في نهاية تلك الفترة ، وبطرق خفية متعرجة ، كان يسلكها اميرهم «سعيد بك»[٦] فلقد اتهم هذا الامير بسوء التصرف في الايرادات ، واهمال مرقد الشيخ «عدي» وزيارته ، ولذلك عقد اشراف اليزيدية مؤتمرا لهم في الموصل في سنة ١٩٣١ حضره المندوب السامي البريطاني نفسه

وعلى الرغم من بعض العوامل المؤثرة ظل الاكراد مندمجين في الدولة العراقية وكان الفشل الذي احاق بتمرداتهم ، والضغط الشديد الذي كان يعانيه اخوانهم الاكراد في تركيا وفي ايران ، من العوامل التي احدثت التفكك العميق فيما بينهم وفي الوقت ذاته بذلت الحكومة العراقية كل ما في وسعها من جهد للالتزام بالتوصيات التي اصدرتها عصبة الامم سنة ١٩٢٥ بشأن الاكراد فلقد منح الاكراد نصيبا سخيا في مختلف اشكال الوظائف الحكومية ، وكان لهم وزيرا في الوزارة ، كما زيد عدد نوابهم في المجلس النيابي وفقاً لهذه الغاية ومع كل ذلك فقد تقدم بعض الاكراد في سنة ١٩٢٩ الى الحكومة بطلب يريدون به زيادة صرف الاموال على انحاء كردستان وتشكيل ولاية كردية خالصة من المحافظات الاربع الخاصة بهم ، ولم ينس

---

(٤) حدثت هذه التظاهرات والاحتجاجات في العراق على اثر الانتفاضة التي وقعت في القدس سنة ١٩٢٩ وعرفت باسم انتفاضة البراق وقد بدأت ردود الفعل لهذه الانتفاضة في ٣٠ آب ١٩٢٩ عندما عقد اجتماع كبير في جامع الحيدر خانة قدر عدد المشاركين فيه مابين اربعة الاف الى خمسة الاف شخص وقد خطب فيه عدد من الشخصيات السياسية البارزة امثال ياسين الهاشمي ، فمحمد جعفر ابو التمن ، مزاحم الباجة جي ومحمود رامز وغيرهم وانتقد ياسين الهاشمي اللجوء الى اساليب القول لا العمل في معالجة القضية الفلسطينية ، وبعد انتهاء الخطب اعلن عن تشكيل «لجنة الاحتجاج بسبب حوادث فلسطين» (د عباس عطية جبار العراق والقضية الفلسطينية» من ٨٨ ٨٩ ١٩٨٣)

(٥) يشير المؤلف بذلك الى الحوادث التي وقعت ضد اليهود في بغداد في اوائل شهر جزيران سنة ١٩٤١ ، بعد فشل ثورة ايار وعودة عبدالاله وزمرته من الوزراء ، الى العاصمة من معسكر الحبانية تحت حراب الانكليز . ولقد كانت تلك الحوادث قد خططت بدقة قبل وقوعها واريد من ورائها اخافة اليهود العراقيين ودفعهم الى الانخراط في الجمعيات الصهيونية التي كثر عددها في العراق آنذاك ، وتشجيعهم على الهجرة سرا الى فلسطين الى ان تم لهم ذلك بصفة رسمية على يد صالح جبر وزير الداخلية في حكومة توفيق السويدي التي اصدرت في سنة ١٩٥٠ قانون اسقاط الجنسية العراقية عن اليهود الراغبين بالسفرا الى فلسطين .

(٦) تولى سعيد بك امارة اليزيديين بعد مقتل والده علي بك في سنة ١٩١٣ ونشأ نشأة ارستقراطية فانغمس في الملذات والملاهي بشكل مفرط ، الامر الذي ادى الى اشمئزاز رؤساء افراد طائفته منه ، وقطعهم الهبات عنه وكان القصد من ذلك المؤتمر اتمام المصالحة بين سعيد بك والخارجين عليه الذين ارادوا عزله عن الامارة ، لكنه مالبث بعد تلك المصالحة واستعادة مكانته ، ان عاد الى مسلكه القديم الى ان مات فيه موتة رجل اعتيادي في احد الفنادق (صديق الدملوجي اليزيدية من ٣٠ طبعة ١٩٤٩)

الناطقون باسمهم ان يزعموا بان المعاهدة البريطانية العراقية التي عقدت في سنة ١٩٢٢ ، والوضع الخاص بتسوية قضية الموصل ، انما كانت لمصلحة الاكراد على نطاق واسع

اصبح متوقعا في سنة ١٩٢٧ التوصل الى شروط غريبة محتملة مع الشيخ محمود بغية استسلامه الى الحكومة لكن الشيخ محمود رفض ، قبل اي شيء آخر ، ان يلتزم بتلك الشروط وقد برهن تصرفه ذاك بانه غدا من الضروري اخراجه من الموضع الذي كان يتحصن فيه في «بنجوين» باستخدام القوات العراقية وقوات المرتزقة سوية ، وقصف مواقعه ، وارسال قوات الاستطلاع من الخيالة بقصد التغلغل الى داخل المناطق التي يسكنها حلفاؤه من عشائر الهماوند

كان انسحاب الشيخ محمود الى داخل الاراضي الايرانية ، قد ازال ، ولو بصفة مؤقتة ، عقبة كأداء كانت تقوم في طريق اقامة حكم منتظم في محافظة السليمانية فلقد اصبح الآن مستطاعا اعادة انشاء مثل ذلك الحكم ، وذلك عن طريق تحسين الطرق ، وبناء مراكز الشرطة ، وجلب «بابا علي» بن الشيخ محمود ، الى بغداد للدخول في المدرسة ومن ثم ارساله للدراسة في كلية «فكتوريا» في الاسكندرية وبعد ان تخرج «علي بابا» ، بعد سنوات ، في جامعة «كولومبيا» الامريكية ، عين وزيرا في الحكومة العراقية وفقا لشروط التسوية مع ابيه

في سنة ١٩٢٧ استولى الشيخ احمد البرزاني ، على مقر الشيخ محمود الذي كان يمثل الزعيم الكردي العابث بالامن ولقد قامت القوات العراقية ، فيما بعد ، بمناورات في اراضي الشيخ احمد ذاته ولكن «بك الديرة» هذا (اي الشيخ احمد) نصف الذكي قد حفزه خلود العظمة ، الى التمرد ، فأخذ الآن يعتبر نفسه واحدا من العظماء.فقد اختلط عقله نتيجة الوعظ الذي كان يلقيه احد الملالي المتدينين . ولكن رد الفعل لذلك الوعظ لدى السامعين الخائفين قد ادى الى وقوع مذبحة ضاعت فيها ارواح كثيرة كانت من بينها روح اخ الشيخ احمد[٧] فلقد اعقب ذلك تدخل الشرطة ، وتعزيز الحامية العسكرية في «بله» على مقربة من ناحية «برزان» ولكن هذا الدين الجديد مالبث ان مات ، غير ان الشيخ الذي ظل يتحدث ويبعث بالرسائل عن الحرب والعصيان الى جميع اولئك الذين كانوا ينصتون اليه ، وينشر الاشاعات عن تدفق الاثوريين الى اراضيه ، كان هذا الشيخ مايزال يعتبر شخصا مثيرا للخواطر.

اخذ رد الفعل الحادث من قبل الاكراد خلال سنة ١٩٢٩ ١٩٣٠ ، يهدد بوقف جلاء البريطانيين عن العراق ولقد اصبح رد الفعل ذاك شاملا فلقد سجلت الانتخابات النيابية التي اجريت في سنة ١٩٢٩ حدوث عمال شغب في مدينة السليمانية كما سبق للنواب الاكراد

(٧) المقصود بذلك هو الشيخ صديق البرزاني

في البرلمان ان طرحوا اسئلة عن «الضمان» الذي تقدمه المعاهدة الجديدة من «حقوق المناطق الكردية» تلك الاسئلة التي لم تعط المعاهدة ذاتها اية اجوبة عنها

واذ كان الشيخ محمود يتوقع ان يحظى بالدعم على اساس ذات الادعاءات السابقة ، فانه عمد في شهر ايلول سنة ١٩٣٠ مرة اخرى الى ان يغزو الاراضي العراقية ، على الرغم من الانذارات المحددة التي وجهت اليه بان لايقدم على هذا العمل لكن الشيخ محمود لم يلبث ان منح لنفسه السلطة بنفسه ، وتقدم بطلب الى المندوب السامي البريطاني ، بان تتوحد كل كردستان في ظل الانتداب البريطاني ، وتمتد حدودها من زاخو حتى خانقين . ولم يكتف بذلك وحده ، بل اقدم على احتلال بنجوين مجددا غير ان قوات الجيش العراقي ، بمساعدة من قاصفات القوة الجوية البريطانية ، نجحت في طرده من بنجوين وسردشت ، لكنها لم تستطع طرده الى خارج الحدود الا بعد بضعة اشهر.

استمر نشاط العصابات خلال شتاء سنة ١٩٣٠ - ١٩٣١ ، غير ان الحركة التي قام بها الشيخ محمود في شهر اذار سنة ١٩٣١ لاثارة عشائر كفري وخانقين ، قد تم ايقافها بعملية مركزة من لدن قوات الجيش العراقي ، وقوات الشرطة العراقية ، والقوة الجوية البريطانية فقد استطاعت هذه القوات مجتمعة ان تلتحم مع قوات الشيخ محمود التحاما كبيرا في نقطة «او - ني - باويكا» على بعد عشرين ميلا ، الى الشمال الشرقي من طوز خرماتو وان تهزمه ، مخلفا وراءه عشرين قتيلا ، بعد ان هرب الى داخل الاراضي الايرانية لكنه لم يحصل على ملجأه الاعتيادي هناك بسبب العمل التأديبي الذي قامت به الحكومة الفارسية وفي لقاء جرى في «بنجوين» تم الاتفاق مرة اخرى على شروط الصلح ، حيث اعطيت للشيخ محمود تعهدات بالابقاء على حياته ، وخصصت له منحة مالية ، وتقرر ان يكون محل اقامته الثابت المحدد في مدينة الناصرية [٨]

كان السلام القلق خلال الفترة مابين ١٩٢٨ و ١٩٣١ يسود منطقة برزان ، حيث قام احد المفتشين الاداريين ، بزيارة شيخ برزان [٩] الذي قدمت اليه التحذيرات من قبل الحكومة

---

(٨) سلم الشيخ محمود نفسه الى السلطات العراقية في اليوم الثالث عشر من ايار ١٩٣١ وسمح له اولا بالاقامة في بغداد، ثم نقل منها الى السماوة فالناصرية واخيرا الى عانة وعندما هرب الشيخ محمود في سنة ١٩٢٧ عبر الحدود العراقية الفارسية كان في ذلك الوقت يعيش في قرية «بيران» قرب الحدود لكنه مالبث ان عاد الى داخل الاراضي العراقية في العاشر من ايلول ١٩٣٠، مع جماعة مسلحة من اتباعه فأستقر في منطقة شهر بازار» وراح يحرض الأكراد على العصيان، واذذاك تم انذاره من قبل وزير الداخلية والمندوب السامي البريطاني غير انه لم يرعو عن غيه، وعندئذ ارسلت الحكومة رتلين من الجيش العراقي لقتاله حيث تحرك الرتل الأول الى بنجوين بينما تحرك الرتل الثاني الى «جوارتا» يعاونهما عدد من الأكراد الموالين للحكومة (ملخص عن تاريخ الوزارات العراقية ج ٣ ص ١٣٥ - ١٣٧ ط ١٩٧٤)

(٩) يقصد به الشيخ احمد الذي كان يتزعم حركات التمرد والعصيان والعبث بالأمن في تلك المنطقة في اواخر سني العشرينات واوائل سني الثلاثينات ويجدر بنا في هذه المناسبة ان نذكر ان جد الأسرة المعروفة بالبرزانية نسبة الى ناحية برزان جاء من بلاد =

العراقية غير ان شيخ برزان ، مافتئ ان فقد عقله مجددا في شهر تموز سنة ١٩٣١ ، فارتد عن الدين الاسلامي ، واعتنق المسيحية وطلب الى اتباعه بان يوافقوه على دينه الجديد والذي سمح لهم باكل لحم الخنزير . ولقد اطاعه عدد من الذين كانوا يخافون بطشه ، غير ان جاره الشيخ رشيد البرواري[١٠] قام بوجهه وشن غارات ضده ادت الى شعال نيران الحرب العشائرية.

حاول الملا مصطفى ، شقيق الشيخ احمد ، عبثا تهدئة الامور بين الجارين بالطرق الدبلوماسية على ان الشيخ احمد سرعان ماطلق المسيحية وعاد الى الدين الأسلامي ، واقدم على شن غارات وحشية غير معتادة على اراضي اقليم «برادوست»

في شهر ايلول من تلك السنة صدرت الاوامر الى القوات النظامية ان تتدخل في هذا الامر على الرغم من حلول فصل الشتاء ولقد استطاع فيلق من الجيش العراقي ان ينفذ عبر الجبال فيصل الى القرية التي كان الشيخ احمد يقيم فيها ، لكن الجيش وقع في كمين ، لم يتخلص منه الا بتدخل من القوة الجوية البريطانية ، حيث هوجم الشيخ واتباعه بالقنابل من الطائرات ، وتم حصره في قريته ، واجبر على اطلاق سراح الاسرى الذين احتجزهم لانهم رفضوا الخضوع له ، ومن ثم انسحب من اقليم برادوست ، لكنه بقي متمردا

وفي اوائل ربيع ١٩٣٢ وبعد التحذيرات التي وجهها المندوب السامي البريطاني الى الشيخ احمد وتجاهلها تماما تقدمت القوات العراقية داخل اراضيه ، فاحتلت «مركة سور» وراحت تهدد قرية «برزان» ذاتها ، وبمساندة من القوة الجوية البريطانية ، استطاعت القوات العراقية ان تحتل «برزان» وكثيرا من الاراضي التابعة لها

وبعد توقف حصل نتيجة التفاوض على اطلاق احد الطيارين الأنكليز، وتجربة محاولات اخرى لعقد الوية السلام بشروط سخية، استؤنفت العمليات العسكرية البرية والجوية معا حيث طورد الشيخ احمد في اواسط صيف تلك السنة الى احد الاودية التي حاول منها اجتياز الحدود التركية واذ ذاك تم القاء القبض عليه، ونقله الى خارج الحدود ولقد أصبح مستطاعا انذاك اقامة ادارة اعتيادية او شبه اعتيادية في اقليم برزان وانشاء مراكز للشرطة، وقوات الاستطلاع ومنح العفو الى التعساء من بقايا اتباع الشيخ احمد الذين عادوا الى مواطنهم نادمين.

واذا كانت امثال هذه الاعتصابات الشبيهة بالحروب ذات النمط الاعتيادي في كردستان تحدث منذ الاف السنين، فأن مثل هذا الأمر لايصدق الا قليلا على العمل السياسي الذي اقدم

فارس وتستر على اغراضه بستار «الطريقة النقشبندية» التي انتمى اليها عدد كبير من الاكراد، وكان يدعى «محمد» في حين حاول احفاده الشيخ عبدالسلام والشيخ احمد وملا مصطفى والشيخ صديق السيطرة ليس على الاكراد في المنطقة بل حتى على المسيحيين والاثوريين..

(١٠) هو الشيخ رشيد لولان زعيم عشيرة البرواري والذي كان يسيطر على اقليم برادوست ومن الزعماء الذين قادوا الثورة بوجه السلطات الأنكليزية في سنة ١٩١٩.

زعماء الاكراد على اتخاذه، في شهر تموز سنة ١٩٣٠ تقدم عشرة من اشراف السليمانية بطلب الى مجلس عصبة الأمم في جنيف يطالبون فيه العصبة بأن تقوم بالاشراف على انشاء دولة كردية. ولقد علقت اللجنة الدائمة للانتداب على ذلك الطلب بأن قالت بأن عصبة الأمم لم تشر اطلاقا الى قيام حكومة كردية، وانما كانت قد اقترحت «اجراء معاملة خاصة» ليس الا وعلى هذا الحث اللجنة على الدولة المنتدبة بأن يضمن تطبيق هذه «المعاملة الخاصة» تطبيقا تاما قبل ان يصبح الوقت متأخرا جدا. ارسلت سلسلة من الطلبات الكردية الأخرى المماثلة كتبت خلال سنتي ١٩٣٠ – ١٩٣١، الى عصبة الأمم في سنة ١٩٣١، وقد نجم عن تلك الطلبات تقديم توصية مؤداها ان على بريطانيا ان تضغط على حكومة العراق بضرورة الحاجة الى ان تضمن ولاء رعاياها من الاكراد وأنهم مقابل ذلك سوف يحصلون على احترام عصبة الأمم واهتمامها، بالموقف الصائب الذي تقفه المملكة العراقية.

والواقع ان الحكومة العراقية لم تتأخر لحظة واحدة عن الالتزام بمبدأ استخدام الموظفين من الاكراد الى جانب الفنيين منهم، في المناطق الكردية وتأكيدا لهذا الالتزام اقدمت الحكومة على شن تشريع اللغة الذي جاء لصالح الناطقين باللغة الكردية، وتأسيس مكتب للترجمة، وتعيين مفتش كردي لوزارة التربية في المناطق الشمالية الشرقية من العراق، وتعيين معاون كردي لمدير الداخلية العام ومن ثم الفت الحكومة بعد ذلك لجانا محلية لتقرير لغة التعليم التي ينبغي العمل بها في كل مدرسة، وتحديد نوعية الحروف الأبجدية الكردية المطلوبة، واستبدال الموظفين الذين لا يتكلمون الكردية

ولقد قام الملك والامير غازي، والمندوب السامي البريطاني، والوزراء العراقيون بزيارات متكررة الى المناطق الشمالية، والشمالية الشرقية من العراق، وذلك بقصد ازالة الشكوك، وتوثيق الاتصالات الشخصية وجمع المعلومات المطلوبة التي من شانها ان ترضي لجنة الانتداب التي ماتزال تشعر بالقلق كان مستطاعا في هذه المرحلة ان يتعاظم الامل في هدوء المناطق الكردية من العراق، ولم تكن تلك الامال مستحيلة لكنها انطوت على تفاؤل ليس في محله، ذلك لان حرفة ادارة الدولة، والحنكة السياسية السامية، التي تستطيع ان تحقق كل هذه الغايات، لم تكن موجودة. ومع كل ذلك فباختيار موقف متردد ازاء هذه المطاليب، لم تكن الحكومة العراقية حكيمة دوما فلقد كانت هذه المطاليب، في كثير من الاوقات، مطاليب انفصالية صريحة، لاتتلاءم مع الدولة العراقية بالشكل الذي انشئت به، وتزداد اثارة وهيجانا بالتنافر الروحي الثابت، الذي يشعر به العنصران العربي والكردي[١١] ولم يتناقص ذلك التنافر

---

(١١) لم يكن يوجد اصلا اي تنافر روحي بين العرب والاكراد. فلقد عاش العنصران الاف السنين متآخين متصافيين، ولكن بروز الروح القومية في القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين في تركيا، والتي كانت في نظرنا من الادوات الناجحة للسياسة=

بظهور دلائل على المزيد من العطف والموقف السخي الذي وقفه المستشارون البريطانيون تجاه الاكراد اكثر من مواقف رجال الدولة العراقية [١٢]

وبالاضافة الى ذلك كان هنالك خوف قائم من ان تؤدي الامتيازات التي منحت للاكراد ، الى بروز مطاليب مماثلة وبصفة مباشرة تتقدم بها العناصر الشيعية في الفرات الادنى ، تلك العناصر التي بقيت غيرتها وروح الحسد لديها ، تؤلف عاملا كبيرا في القضية العربية الكردية

* * *

ويصدق ذات الشئ ايضا ، على الاقلية الصغيرة جدا ، والغريبة كثيرا ، والتي ماتزال اقل تجانسا فيما بينها ، ونقصد بها ، الاقلية الاثورية ذلك ان اعداداً كبيرة من هؤلاء الاثوريين قد استقرت في سنة ١٩٢٦ ، في الاراضي المتناثرة المحيطة بالقرى الكردية القائمة في محافظة الموصل كان اكمال عملية الاستقرار هذه ، بالاضافة الى اعادة توطين ممن كانوا اقل رضا ، وادخال تحسينات على المستوطنات ، من بين المهمات التي خططت خلال السنوات من ١٩٢٧ الى ١٩٣٠ ولقد ظهر مدى اهتمام المندوب السامي البريطاني بهذا الامر ، في الزيارات التي قام بها لتلك المناطق ، وبالمؤتمرات الكثيرة التي عقدت ، وبدعوة الحكومة الى اظهار ودها الملموس تجاه الاثوريين ، حتى وان كان هؤلاء بموقفهم المراوغ وغير التعاوني قد عملوا نوعا ما على وقف النشاط الذي كان يبذله الراغبون في تحقيق الخير لهم

تم استخدام ضابط متخصص تخصصا جيدا في قضايا الاسكان ، واعداد المزيد من القرى في منطقة «حرير» من قضاء راوندوز لاعادة توطين الاثوريين فيها ، كما تم تقديم الحبوب والنقود الى المترددين من المستوطنين . وفي الوقت ذاته اظهرت الحكومة حسن نواياها تجاه الاثوريين بتشريع اصدرته في شهر اذار ١٩٢٧ يقضي باعفاء المستوطنين ، لمدة مؤقتة ، من الضرائب

وحتى نهاية سنة ١٩٢٥ لم يكن هناك اكثر من بضع مئات من العوائل قد تم توطينها ، ولكن في نهاية سنة ١٩٢٩ لم يبق من هذه العوائل سوى حوالي ثلثمائة عائلة اما مشروع الاستيطان في منطقة «برادوست» فانه لم يتحقق نتيجة النزاع على الاراضي ، بين الاثوريين

=التي استخدمهتا الدول الاستعمارية لتحطيم التماسك الاخوي بين المسلمين ، وتمزيق وحدة الاسلام ، كانت تلك النعرات القومية هي التي شجعت العناصر المتطرفة ذات المصالح الخاصة من الاكراد على الاحساس بالنفرة بل وحتى الانفصال عن الشعب العربي ، مما شجع اعمال التمرد والاعتصاب خلال العهد الملكي ومابعده

(١٢) لانوافق المؤلف رأيه على موقف المستشارين البريطانيين من الاكراد فلقد كانت مواقف اولئك المستشارين الانكليز وغيرهم ، وكما ايدت الوقائع دوما ، من العوامل التي شجعت الاكراد وغيرهم من الاقليات الاخرى ، على العصيان وخلق الارباك للحكومة . وسجل بريطانيا حافل ومشهود بالمآسي نتيجة السياسة التي سلكتها ازاء الاقليات في البلدان التي حكمتها سواء في ذلك العراق ام في فلسطين ام مصر ام السودان وغيرها

انفسهم وماكانوا يتمسكون به من ادعاءات ومع كل ذلك فان المستوطنات التي انشئت حول مدينة العمادية ، وفي زاخو ، ودهوك ، وفي السهول القائمة على مقربة من عقرة ، واراضي حرير في قضاء راواندوز ، وفي منطقة الشيخان من الموصل ، قد انجزت درجة طيبة من الاستقرار وبفضل الاعانات المالية وحسن تنظيم الزراعة من قبل القرويين ، وتحسين مواقفهم بصفة عامة ، ازاء الاقطاعيين الاكراد حيث كان نصف الاراضي المملوكة ملكا للاكراد ، والنصف الاخر ملكا للدولة ، غذا رخاؤهم يعتبر جيدا اذا ما قورن مع مستويات الحياة الجارية في المنطقة

كانت علاقات زعماء الاثوريين في هذه الفترة مع الحكومة مرضية وكان المدراء المحليون نافعين ، والعدل قائما كان التفاؤل يبعث على الامل في حدوث المزيد من التمازج لدى هذه الاقلية ، بحيث يمكن الاحتفاظ بها ، بصفة سليمة ، جزءا من هيكل السياسة العراقية ، لا ان تظل عنصرا غريبا محروما او مضطهدا كان اعداد المساكن للاثوريين الذين قاموا قبلا في بلاد فارس وعادوا الى العراق ، وكذلك للذين استوطنوا مهم المدن ، واشتغلوا في الحوانيت والمعامل ، ومؤسسة سكك الحديد ، وشركات النفط ، ومصالح الشرطة والمصالح الاهلية ، من الاجراءات النافعة والمنطوية على المساندة الذاتية

وفي الوقت ذاته استمر الاثوريون الذين انضموا الى قوات المرتزقة حيث لم يبق في هذه القوات سوى الاثوريين بعد سنة ١٩٢٨ الى ان تم انهاء الانتداب، يعملون بنشاط خلال الخدمة الفعالة في كردستان ، ويحصلون على الثناء الرفيع ولقد بدأ تخفيض قوات المرتزقة لصالح الجيش العراقي ، وتم استخدام عدد من الاثوريين ، ولكن من دون ضباطهم، في الجيش العراقي ايضا واذ ذاك بدأت عملية تفكيك قوات المرتزقة ، ونقل مقراتها ومستودعاتها سنة ١٩٢٨ من شمالي الهنيدي ، في الوقت الذي تسلم فيه الجيش العراقي معظم مواقع تلك القوات في المرتفعات الشمالية وفي الفترة مابين سنتي ١٩٢٨ و ١٩٣٢ كانت قوات المرتزقة ماتزال موجودة ، وقد استخدمت مرة اخرى في العمليات التي وجهت ضد الشيخ محمود

على ان هذه القوة قد شهدت احسن ايامها ، حيث تقرر ان تصبح ، بعد سنة ١٩٣٢ مجرد قوة يعهد اليها بحراسة معسكر القوة الجوية البريطانية ، اما الرجال الذين تم تسريحهم من قوات المرتزقة فقد منح كل واحد منهم بندقية وذخيرة لغرض الحماية الشخصية ، في المساكن الجديدة[١٣] التي انشئت لهم

---

(١٣) كانت هذه الحركة من جانب الانكليز هي التي شجعت بعض الاثوريين على القيام بالتمرد الواسع في منطقة الموصل في سنتي ١٩٣٠ ، ١٩٣٣ لان الرجال المسلحين منهم والذين سبق لهم ان تدربوا على القتال ضمن قوات المرتزقة كانوا على رأس المتمردين من الاثوريين الذين انخدعوا باقوال عملاء الاستعمار ووعودهم

وما خلا ذلك لقد كان في مستطاع قوات المرتزقة ان تساهم في تكوين اقتصاديات الاقلية الاثورية ، حيث ابرزت ذكاء ورغبة عجيبتين في استخدام الاساليب البريطانية ، واظهرت تحملا فاخرا وشجاعة فائقتين في حروب الجبال والتي كانت ملائمة لها كل الملائمة ولكن الاخطاء التي وقع فيها الاثوريون تتمثل في الانضباط الذي كان يطغي عليه الانقياد الوحشي ، والذي قد يظهر في الاوقات السيئة ، في صفة انفجار لاعمال النهب ، والتمرد الجماعي ، والاستعداد للخلط بين الام طائفتهم والامور السياسية ، وواجباتهم العسكرية ، والنقص الظاهر في ولائهم للعراق

لقد كان الاحتفاظ بهم في صفة قوات امبراطورية يديرها البريطانيون ، والتناقضات الكثيرة ، وسوء الفهم بينهم وبين الجيش العراقي ، واستخدامهم بصفة متكررة ضد الاكراد ، نقول كانت كل هذه الامور من القضايا التي يؤسف لها حقا

ولقد كان سوء العلاقة بين الاكراد والاثوريين من الامور التي اغرت بعض الساسة في بغداد باستخدام ذلك طريقة يسيرة لاثارة الاضطراب وقد اثمرت هذه الطريقة في وقوع سلسلة من اعمال القتل ، وبعثت الاصوات المعادية للاثوريين بين الاكراد ومع كل ذلك فان الاقلية الاثورية لو تمسكت بالصبر ، وتجنبت اثارة الشغب ، وقبلت بوضعها الجديد في العراق ، ذلك الوضع الذي كان في ذات الوقت افضل من وضع الكلدان والارمن ، لغدا مستقبلها محفوفاً بالسلام حتى وان كان معيبا ، ولتم الحفاظ على طقوسهم الكنسية ، وفرديتهم الاجتماعية ولضمنوا بيوتهم وسعادتهم

ولكن زعماء الاثوريين اختاروا طرقا اخرى ادت الى المأساة ذلك انهم تمسكوا بكل نقطة من قضيتهم المثيرة المعقدة والمتمثلة في ادعائهم بانهم كانوا حلفاء بصفة رسمية في الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ – ١٩١٨ ، ولكنهم لم يكافأوا على ذلك ابدا ، وان قواتهم من المرتزقة قد ادت خدمات واسعة وعميقة ، وان هذه القوات في الواقع هي التي انقذت الجزء الجنوبي من كردستان وابقت عليه ، وان عصبة الامم سبق لها في سنة ١٩٢٥ بان اوصت باعادة منحهم «امتيازاتهم القديمة» التي مازالت معترفا بها حتى الان ، وان البريطانيين هم الذين قضوا على آمالهم ، في ان يهتم الاتراك بهم ، باعادة توطينهم في منطقة «حكاري» يضاف الى ذلك ايضا ان البريطانيين قد خانوهم في جنيف

كان ايشاي مارشمعون البالغ من العمر خمسا وعشرين سنة[١٤] ، والذي درس في انكلترا خلال الفترة ١٩٢٥ – ١٩٢٩ ويجهل جهلا تاما الحقائق العراقية ، غير ملائم لان يتزعم الاثوريين ، وان يشغل افكارهم بمفاهيم غير واقعية ذلك لان الرئيس الذي يحكم بين هؤلاء هو الذي يمتلك السلطة الدينية والتي كان يشعر بانها يجب ان تعزى الى زعامة «الملة» التي كانت

---

(١٤) ايشاي و «ايشو» تعني لدى الاثوريين اسم «عيسى»

في الغالب لحكم نفسها ذاتيا في الايام الحالية مهما كانت هذه الزعامة غير مقبول بها ، وغير دستورية في العراق الحديث كان والد ايشاي من اشد المحافظين ، وكانت عمته «سرمة خانم» ، والحماسة التي اصطبغت بها مشاعر الطائفة الان هي الحكم الطاغي لدى الاقلية الاثورية ، بالاضافة الى وجود القساوسة والزعماء الذين خانتهم حكمتهم فسرعوا ينشدون الاغراض الانفصالية بالاضافة الى الحالات المريبة ، كانت كل هذه العوامل ، قد دفعت بالاثوريين الى التمرد حتى ضد بطريركهم ولقد دفعت الحماسة التي نالها من الخارج احد المتنكزين من احفاد «هرمز رسام» مساعد «لايارد»(١٥) وكذلك احد الانكليز المدعو «ماتيوكوب» واللذين اساءا استعمال نفوذهما ، الى تنظيم الاسترحامات من لدن الاثوريين ، مما ادى الى ظهور امال كاذبة خادعة فيما بينهم ، وتعريض العلاقات الاثورية العراقية الى مزيد من المخاطر .

قدم مبعوث المندوب السامي البريطاني في عصبة الامم في شهر تشرين الثاني سنة ١٩٣٠ تاكيدات ، كان يعتقد فيها بانها كانت محققة بشأن مستقبل هذه الاقلية والاقليات الاخرى ومطامحها وفي ذات السنة عكف السر فرنسيس همفريز المندوب السامي البريطاني في العراق ، على دراسة الاسترحامات التي قدمها «هرمز رسام» وتعهد «بمسؤولية بريطانيا الاخلاقية بشأن الموقف الذي ستقفه الحكومة العراقية في المستقبل» وما ان عاد السر فرنسيس همفريز الى العراق ، وجوبه بالحالة التي تردت كثيرا بسبب الاعمال التي قام بها الاثوريون ، حتى عاد واوصى الحكومة العراقية بان تظهر كل مالديها من حسن النوايا ، فتستأنف سياستها في اعفاء الاثوريين من الضرائب ولقد تم تنفيذ هذا الامر وكانت له نتائجه الطيبة

كان من المقرر ان يعقب ذلك الاجراء ، تجديد محاولة المضي في مشروع توطين الاثوريين في برادوست ، وبشروط اكثر جاذبية هذه المرة ذلك المشروع الذي تأجل تنفيذه منذ وقت طويل ، لو لم تنفجر المعارك في منطقة برزان – برادوست وفي شهر تشرين الاول سنة ١٩٣١

---

(١٥) عمل هرمز رسام من عائلة رسام المسيحية المعروفة في الموصل مع الانكليز في اعمال التنقيب عن الاثار في نينوى فترة طويلة ولاسيما مع المنقب الانكليزي (لايارد) الذي اكتشف اهم اثار نينوى ، اما حفيده ويحمل ذات الاسم وهو هرمز رسام فقد كان ضابطا في الجيش الانكليزي في بريطانيا وقد جاء الى العراق في سنة ١٩٣٠ بدعوى انه نسطوري من الموصل ، وقد لحق به ماثيو كوب «احد ضباط البحرية الانكليزية ، فشرع الاثنان يتصلان برؤساء الطوائف المسيحية والاثورية والكردية ويحثانهم على الانفصال عن العراق وحين عاد رسام الى انكلترا في نهاية حزيران ١٩٣٠ بقي «كوب» في العراق فترة اخرى وشارك في تأليف جمعية في لندن باسم لجنة انقاذ الاقليات غير المسلمة في العراق التي اخذت تمطر عصبة الامم ولجنة الانتداب بالاسترحامات والطلبات بتوقيع بعض الزعماء الاثوريين وقد تم اخراج كوب من العراق في نيسان ١٩٣١ على حين ادعى هرمز رسام بانه اصبح هو الناطق باسم الاكراد في لندن ، ويقال انه كان لتوفيق وهبي ، الذي كان محافظا للسليمانية في ذلك الوقت، دخل في هذه الادعاءات التي اخذ هرمز ورسام يدعيها باسم الاكراد

عقد الاثوريون مؤتمرا لهم في الموصل ، حيث قدم المارشمعون مطاليب الى عصبة الامم[١٦] كان من بين ماتضمنته تلك المطاليب ادعاء الاثوريين بانه لما كانت «ملتهم» تستطيع ان تواجه الاوضاع التي ستقوم في العراق بعد انتهاء الانتداب البريطاني عليه ، فانه يجب ان يتم نقل الاثوريين بصفة جماعية الى بعض الاراضي التي تمت السيطرة عليها في الغرب في اي مكان منها او الى سوريا لم تأخذ لجنة الانتداب هذه المطاليب بنظر الاعتبار طيلة ثلاثة عشر شهرا ، الامر الذي اثار فزع الاثوريين فقرروا ان يقوموا من جانبهم بعمل مباشر . كان المارشمعون قد عرض في شهر ايار سنة ١٩٣٢ خطة غير معدة لتجميع كل افراد الطائفة في منطقة دهوك — العمادية في شهر تموز من تلك السنة كذلك هدد الاثوريون المنضمون الى قوات المرتزقة بتخليهم جميعا عن تلك القوات في اليوم الاول من شهر حزيران ، وذلك في مذكرة تهديدية سلموها الى قائدهم اللواء «ج ، غ ، بروان» ذلك الشخص الذي كان يدافع دون كلل عن حقوق الاثوريين ، وقد تحول في النهاية الى مؤرخ لقوات المرتزقة[١٧]

ادى تدخل المندوب السامي في الامر الى تأجيل الازمة ، ومع كل ذلك قدم الاثوريون طلبا اخر الى عصبة الامم ، وتكرر التهديد باستقالة الاثوريين بصفة جماعية من قوات المرتزقة ، في حالة عدم الحصول على نتيجة مرضية كان هذا الطلب الجديد يلح على الاعتراف بوجود «ملة» اثورية ، وبالسلطة الدينية والروحية للبطريرك ، وبتعيين ممثل اثوري في البرلمان العراقي ، وانشاء مدارس خاصة بالاثوريين ، وتقديم الاموال الى البطريرك والكنيسة التي يتزعمها ، والحاق اراضي منطقة «حكاري» بالعراق ، او تشكيل محافظة تضم كل الاثوريين القاطنين الى الشمال من الموصل ، مع عدم الاقدام على تنفيذ مشروع استيطان جديد معتبر ، ومنح حقوق واضحة في تلك الاراضي

تخلى الاثوريون في قوات المرتزقة عن اضرابهم ، في الواقع بعد ان وصل فوج من القوات البريطانية محمولا جوا ، وهي عملية قوبلت بالترحاب ، واعتبرت من العمليات الحربية الشهيرة[١٨] استقرت السرايا الاربع لذلك الفوج في المحطات الاربع الرئيسة التي كانت

---

(١٦) كان الاستعماريون قبيل الحرب العالمية الاولى وخلالها وما بعدها يجوبون القرى الشمالية من العراق ، والمناطق التي وطن الاثوريون فيها ، بعد دخولهم اليها من منطقة حكاري ، بصفة مبشرين بالدين المسيحي ،او منقبين عن الاثار ، او دراسة مواطن البشرية ، ووكان الهدف الحقيقي من وراء ذلك كله هو تهيئة اذهان الاقليات المختلفة في تلك المناطق للتمرد وتسميمها بالاوهام والخرافات. وقد كان هذا المؤتمر الذي عقده الاثوريون في الموصل بحجة درس مشروع توطين الاثوريين، من ايحاء اولئك المبشرين وعلى الاخص المبشر الامريكي «ويغرام» الذي تستر على اهدافه الحقيقية تحت ستار التبشير والتنقيب حيث وضع كتابا خطيرا عن العراق سماه «مهد البشرية» وقد ترجمه جرجيس فتح الله ونشرته دار التآخي في اوائل سني السبعينات.

(١٧) وضع «براون» كتابا بعنوان «قوات المرتزقة في العراق» صدر سنة ١٩٣٢ وهو مشحون بالاكاذيب والدس والتحيز الفاضح.

(١٨) فوج نور ثمبتون شاير الذي جيء به جوا من مصر.

تحتشد فيه قوات المرتزقة ولم يلبث المارشمعون ، الذي تأثر بهذه الخطوة ، وبالمبعوث الذي بعث به السر فرنسيس همفريز اليه ، ان وافق على ان يصدر اوامره بان تظل قوات المرتزقة الاثورية قائمة بواجباتها الى ان يتم درس الطلب الذي تقدم به المارشمعون الى عصبة الامم في السابع عشر من شهر حزيران اما قوات المرتزقة الاثورية التي كانت موجودة في معسكر الهنيدي والتي واصلت تمردها فقد قلص عددها ، حيث تم تسريح حوالي مائتين وخمسين نفرا من افرادها وبطلب من المارشمعون نفسه تم تاجيل خفض القوات الاثورية المحرضة في كل مكان ، وحينذاك عاد فوج «نورثمبتون شاير» الى مصر .

وباذعان جزئي للطلبات التي ادرجها المارشمعون في الطلب الذي قدمه الى عصبة الامم ، اقدمت الحكومة العراقية على تأليف لجنة تكون مهمتها البحث عن اراضي اخرى لتوطين الاثوريين فيها ولقد اكتشفت هذه اللجنة اراضي قليلة صالحة للزراعة ومتوفرة ، ولكنها اوصت بان يتم الانفاق على مشروع للري في تلك الاراضي لكي يهيء المزيد من الاراضي الصالحة ولقد قبلت الوزارة القائمة بتقرير اللجنة هذا والذي تم ارساله الى عصبة الامم في جنيف ولقد قام الملك فيصل بزيارة العمادية ، وتحدث طويلا مع المارشمعون ، واستعمل كل الوسائل الممكنة لكسب ثقته ، لكن ذلك البطريرك الشاب العنيد لم يلزم نفسه باي شيء قبل ان يصل جواب عصبة الامم ، ولم يلبث ان غادر العراق الى سويسرا وبعد سفره بعث الاثوريون القاطنون في منطقة «برواري بالا» (داخل الاراضي العراقية) الى عصبة الامم بطلب معاكس لطلب المارشمعون ، يعربون عن كامل رضاهم بالترتيبات الحاضرة

اما المناقشات النهائية التي قامت بها لجنة الانتداب الدائمة ، ومجلس عصبة الامم ، والاستماع الى الشكاوى التي تقدمت بها الطائفة الاثورية ، واستحالة توفير الاستيطان الجماعي الذي طالب به الاثوريون ، فان ذلك كله لم تنجم عنه اية آمال في تحسن الوضع ذلك لان الهوة كانت واسعة جدا ، بين الحكم الذاتي التام الذي طالب به المارشمعون ، وبين المعاملة الحسنة التي كانت الاقلية الاثورية تعامل بها وعلى احسن وجه من لدن الحكومة العراقية وعلى هذا الاساس رفض مجلس عصبة الامم رفضا رسميا مشروع الحكم الذاتي للاثوريين ، ونظر بعين الرضا الى الاقتراح القاضي بتعيين خبير اجنبي في الاستيطان ، والتخلي عن الموضوع ، بكل ما كان ينطوي عليه من شكوك اعطت التبرير للاعمال المؤسية التي وقعت بعد ذلك على الفور .

٥ ـ الحاكمون والمحكومون

في طائفة او اقلية كانت تعيش خلال مرحلة التطور التي يقطعها العراق، كانت الادارة المركزية مهمة وقوية بالنسبة الى مجتمع البلاد، ولذلك بذلت **جهود عظيمة،** وان لم تكن ناجحة، منذ سنة ١٩٢٥ حتى سنة ١٩٣٢ من قبل العناصر العراقية والبريطانية على حد سواء لتحسين هذه الادارة. كان تخفيض عدد الاداريين البريطانيين *، يعد امرا ضروريا، وان كان قد صحبه نقص في الكفاءة والصلاحية، لأنه جزء من السير قدما بالخطوات نحو الاستقلال الاداري في العراق، خلال هذه السنوات التي لم تترك سوى الشيء الضئيل نسبيا من اثار الفترة التي اعقبت الأنتداب.

ففي سنة ١٩٣٢ عهد برئاسة دوائر اخرى الى مدراء عراقيين، كان من بينها دوائر الواردات واملاك الدولة التي كان المؤلف نفسه يرأسها وضريبة الدخل التي كان يديرها سنسبري والأشغال العامة التي كان يرأسها كلاي، وسرعان ماالحقت بهذه الدوائر دوائر اخرى منها دائرة الري التي كان يرأسها «الارد» في سنة ١٩٣٣، ودائرة التسجيل العقاري التي كان يرأسها الدرمان الذي توفي في سنة ١٩٣٤، ودائرة الاثار في سنة ١٩٣٤ أيضا.

ولقد حدث تقدم في ارتفاع مستويات الموظفين، وتعاظم الغرض من انشاء المجالس المتلاحقة واللجان، واجراء الامتحانات. وكان العمل الذي ينهض به الوزير في اعادة انتخاب اشخاص الموظفين وانتقائهم، يقوم به الوزير اللاحق له، ولكن يندر ان يتحرر مثل هذا الاجراء من البواعث الشخصية. اما في ميدان العمل لتثبيت المؤسسات والأنظمة كما هو جار في كل النشاطات الحكومية فقد كان عدم الأستمرار الناجم عن التغيير المتلاحق للوزارات، من

(*) هبط عدد المفتشين الاداريين من البريطانيين من اربعة وعشرين مفتشا سنة ١٩٢٣ الى ثمانية عشر مفتشا في سنة ١٩٢٥ واربعة عشر مفتشا في سنة ١٩٣٣ كان عدد الموظفين البريطانيين الذين نشرت اسماؤهم بصفة رسمية في سنة ١٩٢٠، ٢٦٤ موظفا في سنة ١٩٢٣ فهبط العدد الى مائة وواحد وثمانين موظفا في سنة ١٩٢٦ والى مائة وثمانية واربعين في سنة ١٩٢٩، والى مائة وثلاثين موظفاً في سنة ١٩٣٠ والى مائة وثمانية عشر موظفا في سنة ١٩٣١ كان منهم ٣٨ استشاريا و ٨٠ موظفا تنفيذيا. اما بالنسبة الى الموظفين الذين لم تعلن اسماؤهم رسميا في الوقائع العراقية، فقد كان عددهم كما يلي: ٤٨٤ موظفا في سنة ١٩٢٠، ٣٦١ موظفا في سنة ١٩٢٣، ٥٢٠ موظفا في سنة ١٩٢٦، ٣٤ موظفا في سنة ١٩٢٩ و ٢٨ موظفا لنسة ١٩٣١ وكان عدد الموظفين الهنود قد بلغ في سنة ١٩٢٠ مقدار ٢٠٣٥ موظفا فهبط الى ١٢٧٠ في سنة ١٩٢٣ والى ٢٥٠ في سنة ١٩٢٦ والى ٥٣ موظفا في سنة ١٩٢٩ و ٣٦ موظفا في سنة ١٩٣١

العقبات التي كانت تعيق التقدم.

ومع كل ذلك تم انجاز مستوى طيباً في تكوين هيئة الموظفين. ذلك لأنه لم يعد بين هؤلاء المزيد من المحاربين الأتراك السابقين، ولا أحد من الغرباء، وقد تفوق الموظفون بأمانتهم، وحسن نواياهم، وطاقاتهم على كل شيء كان معروفا في ايام الحكم العثماني. واذا لم يكن الفساد غير معروف، فانه يندر أن يكون فاضحا، وكان يتم استنكاره بأخلاص، وذلك أمر لم يكن معروفا من قبل. وواصلت المحاكم اعمالها، وان لم تكن خالية من الفضائح العرضية، كما تحظى بالأحترام العام. وكان مستوى القضاء محترما، في حين كان بعض رجال القضاء من العراقيين يتمتعون بمزايا رفيعة، ونظرا ليسر مراجعة المحاكم فقد تعاظم اقبال الناس عليها. ففي سنة ١٩١٩ وحدها استمعت المحاكم المدنية الى ثلاث عشرة الف دعوى، وارتفع هذا العدد الى ست وثلاثين الف دعوى في سنة ١٩٢٩، وبلغ عدد المحامين الذين كانوا يمارسون حرفتهم هذه ثلاثة وسبعين محاميا في سنة ١٩١٩، وارتفع الى ٢مائة وخمسة وستين محاميا سنة ١٩٢٩

تم تشكيل وحدات ادارية جديدة من الأقضية والنواحي، وأخذ بنظر الأعتبار في ذلك ماستلزمته الحاجة من تقسيم هذه الوحدات وتنظيم درجاتها وكانت الأمثلة على ذلك مألوفة في كردستان،وفي منطقة الصحراء الجنوبية فرضت في سنة ١٩٢٨ رقابة جيدة على الحدود هناك وادى التجميع الجديد للدوائر في بغداد الى احداث تغييرات في الوظائف الوزارية، وتسميتها، غير ان الهدف من كل هذه الأمور، وهو حسن ادارة مشاريع الأنماء، والتقدم الاداري في كل ميدان، كان في الواقع يتعرض آنذاك بصفة جزئية، للتوقف نتيجة الانكماش الاقتصادي الذي حدث خلال السنوات ١٩٢٩ - ١٩٣٢

ذلك ان سنوات الفقر والأزمة التي سبقت دخول العراق عصبة الأمم، قد تطلبت الحكمة، والادارة المالية الصارمة، فلقد ادى الهبوط العام في اسعار المنتجات الزراعية الى حدوث نقص شديد في واردات الأراضي، تلك الواردات التي تدنت بشكل خطير بالنسبة الى الكمارك والأيرادات الأخرى.

وفي الوقت ذاته، لم يتناقص الانفاق الضروري، في الوقت الذي فرضت الأعمال العسكرية التي جرت في كردستان، متطلبات استثنائية. لقد كان متوقعا ان يكون الكساد، والتأثيرات الاجتماعية، اكثر حدة لو ان العراق كان من البلدان المصدرة للسلع المصنعة، فبدلا من كل ذلك استمرت منتجات العراق من النفط الخام تحظى بالطلب عليها، ولو بأسعار ادنى. وكان مستطاعا على الأقل الحفاظ على مستوى الخدمات العامة، ومساعدة المتضررين من المزارعين من أصحاب المضخات على العيش والبقاء.

كانت مالية الدولة تخضع لتوجيه قويم، فقد كنا نحن البريطانيين نقوم بوضع الميزانية بكل عناية ونقدم الحسابات الدقيقة، والأجراءات الاقتصادية، التي تتطلب شيئا من الجرأة

السياسية. فعندما ترك «فرنون» منصبه بصفة مستشار لوزارة المالية في سنة ١٩٢٨، خلفه فيها بعد ثلاث سنوات من ذلك التاريخ «سوان» في منصب معاون المستشار، ومن ثم اعقبه «هوغ» الذي جيء به من مصر في سنة ١٩٣١

ولقد تخلينا عن وزارة المالية انا والسيد هيجكوك خلال سنتي ١٩٣٠، ١٩٣١، كذلك تم فصل الأموال المخصصة للأشغال العامة، ومشروع السنوات الخمس، من الميزانية الدارجة، حيث خصص القسم الرئيس من عوائد النفط، والتي تحققت لأول مرة في سنة ١٩٣٢، لهذا الغرض، كذلك تم تأليف مجلس اقتصادي استشاري، وأنشئت غرف التجارة في بغداد والبصرة. وقام السيد «هلتون يونغ» بزيارة استشارية ثانية للعراق في سنة ١٩٣٠، وكان يشغل وظيفة المستشار المالي للعراق سنة ١٩٢٥، اضافة الى خبراء اجانب اخرين، نذكر من بينهم «سينسبري» الخبير في ضريبة الدخل، والذي ساعد في وضع قواعد هذه الضريبة الجديدة بشكلها العصري لأول مرة في سنة ١٩٢٨، لكن ثبت بأنها لم تكن منتجة نسبيا. والواقع انّ هذه الضريبة انما كان يدفعها في الأصل، الموظفون والشركات الأجنبية(٥)

حدث تغيير كبير في فرض الضريبة على المنتجات الزراعية في سنة ١٩٣١ فقد كانت هذه الضريبة تقوم على اساس نظام جديد من استيفاء الضريبة في الأسواق اي طريقة المكان الذي يحصل فيه الاستهلاك من دون الحاجة الى تقدير او قياس الحاصلات الزراعية المنتجة. أنشئت دائرة للتفتيش المالي، وبذلت جهود ذكية ومطلقة في سنة ١٩٢٧ لتحرير العراق من عبء حصته من تحمل الديون التركية، حيث بلغت حصة العراق من تلك الديون سبعة ملايين جنيه تركي مضافا اليها مبلغ مليونين وخمسمائة الف جنيه تركي بصفة فوائد متراكمة.

قرر وزير المالية(١) ان يشتري سندات الديون التركية في سوق مفتوحة، وبعد ان سلم هذه الديون الى هيئة الديون واحتسبها بمبلغ مليون ومائتين وثمانية وعشرين الف جنيه استرليني، استطاع ان يدفع البقية القليلة منها بأقساط وبهذه الوسيلة استطاع العراق من كلفة الأموال المخصصة من الواردات الجارية لأطفاء ذلك الدين، ان يدخل الى عصبة الأمم وهو سعيد متحرر من اي عبء مالي يثقل كاهله.

كان انشاء المصرف الوطني الذي كثر النقاش حوله في الغالب مايزال مؤجلا. وكانت الروبية الهندية التي خدمت العراق جيداً خلال خمس عشرة سنة، قد استبدلت في اوائل سنة ١٩٣١، بالعملة العراقية التي تستعمل الدينار (المعادل للباون الاسترليني) والذي ينقسم الى الف فلس. وكان يشرف على موارد هذه العملة، واصدارها مجلس قائم في لندن، وكانت العملة العراقية تعتمد على موجودات الاسترليني. وكان الترحيب المنطوي على الثقة بالعملة العراقية أكثر

---

(١) هو المرحوم ياسين الهاشمي.

اطمئناناً، وذلك لأن العراق لم يكن يعاني موقتا من الافلاسات الناجمة من الكساد وحسب، وانما كان يعاني بصفة حادة من اضطراب ميزانه التجاري ايضا. فلقد حدثت هوة واسعة منظورة بين قيمة الصادرات العراقية وقيمة الواردات الأخرى التي لاغنى عن استيرادها من أمثال الوقود، والمواد المصنعة وبعض الأطعمة.

وكانت الصادرات غير المنظورة، والتي افترض في حينه بأنها سوف تسد تلك الهوة او الثغرة، تتألف من النفقات التي تنفقها القوات البريطانية والبعثات الدبلوماسية والاثرية، والجمعيات الخيرية والمدارس الاجنبية والزوار والرحالين والشركات الأجنبية والأرباح الناجمة عن تجارة المرور الفارسية. وكان التراخي السريع الذي اصاب تجارة المرور هذه، على الرغم من انخفاض رسوم المرور، يمثل مظهراً خطيراً في تلك الايام ذلك لأن القيود التي فرضتها حكومة فارس والمزاحمة الروسية وتحول الطريق الذي تمر به السلع عبر العراق، الى المحمرة وانشاء ميناء بندرشابور الفارسي الجديد، كل هذه العوامل قد ساهمت في التقليل من تجارة المرور التي كانت مربحة على الدوام، والتي ظهر بأن حتمية انقراضها لايمكن تأخيرها الا اذا تم تطوير طريق البحر الابيض المتوسط، عبر الاراضي السورية، وقد كانت هناك دلائل مشجعة في هذا الأتجاه.

استمرت اعمال الصيرفة تمارس من قبل الصيرفيين المحليين[٢] والمصارف البريطانية الثلاثة وهي المصرف العثماني والمصرف الشرقي والمصرف الفارسي الأمبراطوري. كذلك تم الأخذ بالنظام العشري في الأوزان والمقاييس بصفة رسمية ولو ان «الحقة» و «الطغار» و «المن» و«الذراع»[٣] بقيت مستعملة على نطاق واسع خلال العشرين سنة التي تلت ذلك، وسارت مبيعات الجملة والمفرد في ذات المسرى، في الوقت الذي بقيت فيه الشركات البريطانية تحتفظ بالهيمنة على ميدان التجارة الأجنبية، ذلك ان ثلاثين في المائة من مجموع استيرادات العراق، كانت من اصل انكليزي. ومع ان سلطات الأنتداب سواء في هذا الموضوع ام في اية عملية تجارية، لم تطالب بالفائدة على حساب المنافسين الاخرين، الا ان السلع المستوردة، كانت تلاقي من الأقبال على النوعية اقل من رخص السعر. وقد سمح هذا الأمر بظهور منافسة يابانية لأول مرة ، ولاسيما بالنسبة الى المنسوجات الحريرة والقطنية[٤]

---

(٢) كتب المؤلف كلمة «الصراف» باللفظ العربي والحروف الأنكليزية SARRAF

(٣) كتب المؤلف هذه الكلمات باللفظ العربي والحروف الأنكليزية لكنه نسي ان يذكر «الوزنة» و «الكاووج» وهما من اوزان ومكاييل الحاصلات الزراعية التي بقيت شائعة الاستعمال حتى اوائل سني الأربعينات من القرن الحالي.

(٤) نظمت دعاية واسعة من قبل الأنكليز ووكلائهم اليهود في الدرجة الأولى ضد المصنوعات اليابانية على اختلاف انواعها في العراق، فقد كانت هذه المصنوعات اليابانية توصف بأنها غير متقنة وغير قوية حتى صار المثل يضرب بها فحين يريد المرء ان ينتقد مادة او صناعة ما يقول «هذا جاپاني» اي غير صالح او متين.

كانت المنسوجات الصوفية والسلع الحديدية ترد من بلجيكا، والسيارات من امريكا، والسكر من هولندا، والرز والشاي من الهند، والخشب من اسكندنافيا ورومانيا. اما معظم المواد الباقية وعلى الاخص المنسوجات والمضخات الزراعية والمكائن فكانت ترد من بريطانيا. وكانت صادرات العراق على الدوام تتألف من التمور والقمح، والجلود، والقرون، والصوف، والمصارين، وعرق السوس[٥] ولقد حافظت هذه الصادرات على اسعارها الواطئة بشكل مرض خلال فترة الكساد، وادت الاحوال النقدية في اوربا بعد سنة ١٩٣٠، الى تصدير الذهب من العراق، الامر الذي ادى الى انتعاش موقت في اقتصادياته.

وحتى في الايام العسيرة من سنة ١٩٢٩ الى سنة ١٩٣٢، بقيت مشاريع تطوير البلديات والخدمات تتوسع بشكل ثابت. ففي سنة ١٩٢٩ حل قانون جديد للبلديات محل القانون التركي، وتوسعت ايرادات البلديات، وشرعت مئات المدن من كل درجة وحجم، تنشط في تحسين شوارعها وبناء الجسور، وتوفير الحدائق، ومشاريع الماء والكهرباء وبناء دور للموظفين في بعض الاحيان.

وفي المدن الكبيرة بدأت حركة واسعة وسريعة لتطوير الضواحي المحيطة بها راحت تستهلك الرأسمال الذي كان يستخدم قبلا في تجارة المرور. ذلك لانه قد وضع مخطط لانشاء بغداد الجديدة على الضفة اليمنى من نهر دجلة[٦] وتم تعديل وتثبيت امتياز القوة الكهربائية. الذي منح في سنة ١٩١٢، بعد مفاوضات استمرت عدة سنين لصالح شركة بغداد للقوة الكهربية[٧] كذلك بدأ العمل بانشاء اماكن جديدة للقوة الكهربية[٨] وتم التخلي عن خط الترام، وظهرت فنادق معتبرة في ثلاث مدن وفي كركوك، والحقت بدوائر السكك دور استراحة في المدن الصغيرة.

---

(٥) كانت صادرات العراق خلال سنة ١٩٥٧ على الوجه التالي ٨٦٦/٩٢٣ر٤ دينار من الشعير، و ١٩٩ الف دينار من الحنطة، و ٧٧٥٣٣ دينار من الذرة و ٦٦٩ر٤٥ دينار من الماش، ١٤١ر١٦ من الباقلاء، وماقيمته تسعمائة وثلاثة دنانير من الدخن. كذلك صدر العراق في تلك النسة ذاتها ٢١٠/١٦٩ راس من الغنم (نشرة الاحصائيات التي تصدرها مديرية الكمارك العامة لسنة ١٩٥٧)

(٦) كانت معظم الاراضي التي انشئت بغداد الجديدة عليها ابتداء من سنة ١٩٤٧ ملكا لاسرة «بلبول» اليهودية وقد شارك افراد هذه الاسرة في شراء بعض اسهم الشركة في حين شارك اخرون غيرهم في شراء بقية الاسهم. ولقد هبطت اسهم الشركة هبوطا شديدا بعد الفيضان الذي اجتاح بغداد الجديدة ومعسكر الرشيد سنة ١٩٤٨ واذ ذاك استطاع احد المساهمين وهو الحاج جاسم السامرائي ان يشتري معظم الاسهم من اصحابها الذين اقدموا على بيعها بعد الفيضان، ثم اشترى كل اسهم افراد اسرة بلبول بعد ان تخلوا عن جنسيتهم العراقية وغادروا العراق بعد سنة ١٩٥٠ ولم تلبث الاسهم ان ارتفعت في منتصف الخمسينات ومابعده ارتفاعا مطردا

(٧) تحولت ملكية شركة بغداد للقوة الكهربائية بعد الاحتلال الانكليزي الى شركة انكليزية كان موظفوها من الارمن واليهود في الدرجة الاولى. ولقد كنت اول من طالب بفسخ امتياز هذه الشركة في سنة ١٩٤٩ بمقالين رئيسين نشرتها في جريدتي «العصور» التي اصدرتها في ايار من تلك السنة، ولم تؤمم الشركة المذكورة الا في سنة ١٩٥٦

(٨) يقصد بذلك موقع القوة الكهربية في منطقة الصرافية، وبالقرب من معسكر الرشيد.

وحدث تقدم في فن صنع الطابوق، وطرق انشاء الصناعات، واطرزة البيوت الحديثة، والتجهيزات الداخلية، وموارد الحوانيت ونطاقها، وتجاوز هذا التقدم حدود كل المستويات التي عرفت في العهد العثماني. كثر الاقبال على ارتداء الملابس الاوربية بصفة عامة في المدن الكبرى، وانتشرت هذه الملابس بصفة مهمة الى افراد العشائر لتمديهم. ومع ان الحجاب كان ما يزال موجودا بشكل جماعي بين النساء المسلمات، الا ان نساء الطبقة العليا قد ازداد اقبالهن على ارتداء الملابس الغربية، وانعكست الرغبة في التقدم في تلهف الاغنياء على اقتناء السيارات والحاكيات، واللعب والملذات الاوربية. غير ان انعدام القدرة على دفع اسعار هذه المواد قد زاد من الطلب على النقد بشكل غير محدود.

* * *

ادى الاهتمام الذين اظهره مكتب العمل الدولي بالعمال العراقيين الصناعيين الى بذل جهود متجاوبة لوضع تشريع مناسب لذلك[٩]

غير ان صغر هذه الطبقة العاملة، وفي بلد غير صناعي، جعل المقاييس والمستويات الاوربية غير قابلة للتطبيق ومع ذلك فقد بذرت البذرات الاولى للاهتمام الاجتماعي بقضايا العمال

وبالنسبة الى مجموع افراد الشعب، والمجتمع المدني بصفة خاصة، والذي لايزال يطغى عليه الفقر، وضعف القوة الشرائية، ساهمت خدمات الصحة والتعليم الحكومية، مساهمة قيمة ذلك ان مصالح الصحة اقدمت على تحسين مالديها من المحاجر الطبية وخدمات الحجاج والزوار، وضاعفت من عدد المستوصفات التي انشأتها في الارياف، وادخلت التحسينات على المعاهد الصحية الخاصة، وكافحت وافدة الكوليرا التي حدثت في سنتي ١٩٢٧ و ١٩٣١

ومن الاهمية بمكان ان نشير الى ان عدد المرضى الذين كانوا يراجعون المستشفيات والمستوصفات، كان اقل من سبعمائة وخمسين الف مريض في سنة ١٩٢١، فقفز هذا العدد الى اكثر من ضعفه في سنة ١٩٢٦ ثم الى اربعة اضعافه في سنة ١٩٣٠ وتجاوبا مع صيحات المشترين الاجانب، اتخذت مديرية الصحة اجراءات للنظافة في صناعة التمور وفي سنة ١٩٢٧ تم تأسيس كلية الطب، وكانت هذه الكلية من المدارس الطبية ذات المستويات الجيدة والتي ظفرت بمركز رفيع بين الدراسات المهنية والعالية في العراق[١٠] اما كلية الصيدلة فقد تم انشاؤها

---

(٩) سن قانون العمال في عهد وزارة ياسين الهاشمي وباشرت حكومة الانقلاب بتطبيقه

(١٠) انظر عن موضوع كلية الطب مذكرات الدكتور سندرسن التي ترجمناها وصدرت طبعتها **الثالثة في سنة ١٩٨٥ ص١٢٧** ومابعدها.

منذ سنة ١٩٢٢[١١] وفي خلال هذه المدة شاركت الحكومة في حضور عدد من المؤتمرات الدولية عن الامور الطبية ، وكثير من القضايا الاخرى

ولقد بدت المدارس العراقية في هذه الفترة في نظر المراقبين الاجانب واخرين غيرهم ، بانها لايعوزها شيء من روح التعليم الجيد. وكانت هناك انتقادات موجهة الى تراخي الانضباط ، والتسيب الشخصي ، وعبادة الروحية العصرية المادية كما ان الامور السياسية التي تغلغلت في الكثير جدا من المدارس ، كانت تبرز في صفة عداء شديد للاجانب ، والتشوق الى التظاهر في الشوارع ومع ذلك فان تعاظم نظام التعليم ، وتضاعف التسهيلات امامه ، قد تطلبا الكفاح في سبيل زيادة التخصيصات له في الميزانية ، حيث تم انشاء مفتشية للتربية وشرعت الانظمة الخاصة بها كذلك تم تشكيل مديرية للصحة ضمن وزارة التربية ، تطورت فيما بعد تطورا واسعا[١٢] وشهدت سنة ١٩٣٠ تأسيس اولى المدارس الثانوية الحكومية للبنات

لقد انتهى ، بلا رجعة ، ذلك الزمن الذي كان فيه المسلمون يترددون في تعليم البنات اما بالنسبة الى الفتيان فقد مددت فترة الدراسة الثانوية من اربع الى خمس سنوات ، ثلاث منها للدراسة المتوسطة واثنتان لما هو اعلى. وفي الوقت ذاته تعاظم ارسال الطلبة للتعليم العالي في الخارج.

اما التعليم التقني فقد بقي غير مألوف ، ولم يصل بسرعة كافية الى الهدف الذي كانت الحكومة تتطلع اليه بصفة رئيسة وفي سنة ١٩٢٨ تم تأسيس مدرسة للزراعة بصورة سريعة وغير وافية لكي يعاد تأسيسها فيما بعد وفي سنة ١٩٣٢ وبعد ان ربطت مدرسة الموظفين الصحيين بكلية الطب ، حلت محل مدرسة الصيدلة التي كانت قائمة وبعد سنة من ذلك التأريخ افتتحت مدرسة التمريض والتي اضيف اليها قسم الولادة في سنة ١٩٣٦

لم يستمر تدريب المعلمين الريفيين في مرحلة التعليم الابتدائي ولكن ضرورة هذا التدريب الذي الحت عليه البعثة الامريكية التي زارت العراق برئاسة الدكتور «بول مونرو» في سنة ١٩٣٢ ، قد تم الاعتراف بها مؤخرا. كانت الخطة الموقتة التي وضعت سنة ١٩٢٣ للتدريب العالي للمعلمين ، قد توقف العمل بها هي الاخرى بقصد ادخال تعديلات عليها وفي سنة ١٩٣٢ تأسست مدرسة امريكية اخرى في بغداد ، قامت بها الطائفة الجزويتية هذه المرة [١٣] فراحت تقبل الطلاب فيها من مختلف الاديان

---

(١١) كانت تعرف بأسم مدرسة الصيدلة وليس كلية الصيدلة

(١٢) انشئت هذه المدرسة في مزرعة ابي غريب وكانت تقبل خريجي المدارس الأبتدائية في اول الأمر، ثم صارت تقبل خريجي المدارس المتوسطة.

(١٣)هذه هي طائفة اليسوعيين JESUITES وهي جماعة مسيحية اسسها رجل يدعى «لوا بولا» سنة ١٥٢٤ م لمناصرة الكثلكة وقد اعترف بها البابا وكانت تنظم صفوفها تنظيما عسكريا منذ ذلك الوقت، وكانت في مقدمة الجيوش الأوربية التي زحفت على =

بلغ عدد المدارس الثانوية الحكومية في سنة ١٩٣٠ خمس عشرة مدرسة[١٤] والابتدائية زهاء ثلثمائة مدرسة وقد اغلقت جامعة آل البيت الفقيهة ابوابها سنة ١٩٢٩ ، في حين حافظت مدرسة الحقوق ، وهي على شهرتها اقرب الى الجامعة في مهاجها فانتجت عددا من الموظفين المدنيين والمحامين. كذلك انشئت للاثوريين مدارس منفصلة لاتدرس سوى مايتعلق بالدين الاثوري ، في حين بلغ عدد المدارس الكردية في سنة ١٩٣٠ ثلاثين مدرسة من ضمنها مدرسة متوسطة ، ومدرسة ابتدائية واحدة للبنات ولقد تقرر تقديم منح سنوية الى مدارس الاقليات ومدارس بعثات التبشير الاجنبية التي كان مستواها اعلى بصفة عامة من المدارس الحكومية وعلى الاقل بالنسبة الى اللغات الاوربية وفي هذا الوقت كان حوالي ثمان في المائة من كل واردات الدولة يصرف على التعليم وحين استقال ليونيل سمث من مستشارية وزارة التربية في سنة ١٩٣٠ لم يعين مستشار احر مكانه

* * *

كان يحتاج الى مبالغ اكبر من هذه المبالغ لخدمات الامن ذلك لان حوالي الخمس او اكثر من دخل الحكومة ، كان مخصصا للجيش ، وحوالي السدس من ذلك لقوات الشرطة وحين تقلصت قوات المرتزقة الى فوجين في سنة ١٩٢٨ لم تعد هذه القوات تستخدم في العمليات العسكرية الا في نطاق متناقص كما تناقصت القوة الجوية البريطانية من ثمانية اجنحة خلال الفترة ١٩٢٢ - ١٩٢٦ الى اربعة اجنحة في سنة ١٩٣٠ ، حيث لم تعد بعد ذلك التأريخ مهيأة للمشاركة في العمليات العسكرية الداخلية ، لان الاعتماد يجب ان ينصب على قوات الشرطة والجيش العراقي ، ولذلك فلم ترافق تكوين هذه القوات وتحسينها اية الام

برزت القوة الجوية العراقية الى الوجود في سنة ١٩٣٠ بخمس طائرات خفيفة[١٥] اما الجيش العراقي الذي ظلت بريطانيا تمده بالمنح حتى سنة ١٩٣٢ فلقد تطور نتيجة التوجيه الذي كانت تقدمه البعثة العسكرية البريطانية، التي ارتفع عدد ضباطها من ستة ضباط في سنة ١٩٢١ الى ستة واربعين ضابطا في سنة ١٩٣٠، ومن ثم انخفض هذا العدد الى ستة وعشرين ضابطا بعد ذلك التأريخ. وكان الجيش يدرب ضباطه في الكلية العسكرية وفي كلية الاركان، ويقوم

=الشرق في مطلع الغزو الاستعماري الأوربي خلال القرن السادس عشر ومابعدها وقد اشتهروا بالقسوة في معاملة الاقوام غير المسيحية. انظر عن اعمال هذه الطائفة اثناء الأحتلال البرتغالي لمدينة (غوا) في الهند كتابنا «رحلة المشرق» الذي ترجمناه عن رحلة الطبيب الهولندي الشهير راوولف وصدرت طبعته الأولى في سنة ١٩٧٨

(١٤) يدخل ضمن هذا العدد المدارس المتوسطة في حين ان عدد الثانويات انذاك لم يتجاوز ثلاثا لمدن بغداد والبصرة والموصل

(١٥)كان الرف الأول من الطيارين العراقيين الذين تخرجوا في بريطانيا يتألف من محمد علي جواد وموسى علي، وناطق الطائي. ولقد قاد هؤلاء الطيارون طياراتهم من لندن فهبطوا في مطار «يشيل كوي» في اسطنبول في اواسط نيسان ١٩٣١ ونزلوا في ضيافة الحكومة التركية واقام والي اسطنبول مادبة عشاء لهم في فندق بيره بالاس وناجي شوكت: سيرة وذكريات ص (٢٠)

بارسال المراد مختارين الى كلية «ساند هرست» او «كويتا».

كان التجنيد خلال ١٩٢٦ ١٩٣٢ اختياريا، ولكن العدد لم يعد كافيا، في حين كانت اعمال التدريب والصيانة كاملة، والانضباط جيدا. وفي سنة ١٩٣٢ بلغت قوة الجيش العراقي حوالي لوائين. ولسوء الحظ فان العمليات المتواصلة التي اداها الجيش. وكانت موجهة ضد العصاة الاكراد، لم تكن مألوفة لدى القوات العراقية، بل على العكس من ذلك كانت تلك العمليات ملائمة للاعداء من سكنة الجبال التي ولدوا فيها.

اما قوات الشرطة فانها بعنصرها التنفيذي المؤلف من العراقيين وحدهم، مع وجود مفتشية بريطانية، كانت من اكثر الخدمات التي حظيت بالثناء. اما قوات الشرطة التي تطورت للنهوض باغراض محددة في بعض المناطق الخاصة، من امثال قوة الشرطة الخاصة بالصحراء الجنوبية، وشرطة السكك، والحدود، والموانئ، التي بلغ تعدادها حوالي ثمانية الاف رجل، فقد تحسنت فروعها الخاصة، وحافظت على مستوى جيد من الامن، وان لم يكن منزها عن الخطأ. في سنة ١٩٢١ بلغ عدد الضباط والعرفاء البريطانيين، والضباط والمفتشين العراقيين العاملين في جهاز الشرطة اثنين وعشرين ضابطا وواحداً وسبعين رئيس عرفاء من البريطانيين، ومفتشين واثنين وتسعين مفوضا من العراقيين. وبعد عشر سنوات من ذلك التأريخ اصبح العدد اثنى عشر ضابطا وخمسة رؤساء عرفاء من البريطانيين وتسعة وخمسين مفتشا ومائتين وتسعة وتسعين مفوضا من العراقيين.

تم تعقيب كثير من الخارجين على القانون، من بيبهم عصابتان ظهرت الاولى منها في كربلاء والثانية في جمجمال[١٦] وفي العمليات التي جرت ضد هؤلاء الشقاة، تعاون الاتراك في هذه العمليات عبر الحدود، كما ازداد عدد الطرق التي تسير فيها السيارات، وتحرسها الشرطة بأمان، حيث غدا مستطاعا استخدام وسائط النقل المدني بكفاءة.

ومنذ سنة ١٩٣٠ شرع بتدريب السجناء وتقويمهم حسب الاساليب العصرية تحت اشراف سلطة تنفيذية عراقية، وبذلك ازدهرت صناعات السجون في الوقت الذي اعدت فيه الاصلاحيات الخاصة بالاطفال. وهناك عنصر اخر شارك في تهدئة العشائر بصفة نسبية، هو شق الطرق الى المناطق التي يمكن الوصول اليها قبلا، وازدياد القوات الالية التي كانت الحكومة تستخدمها. ومع كل ذلك فقد حصل تقدم اخر باتجاه الادارة الحكومية المباشرة، فتناقص الاعتماد على شيوخ العشائر. كذلك حدث تغيير في السياسة منذ ايام الاحتلال، وذلك لان الانظمة التي شرعت بشأن حيازة الاسلحة، وان لم تطبق تطبيقا تاما، الا انها عملت الشيء القليل في منع حمل السلاح، ولكن قانون دعاوى العشائر. وان كان قد ساعد على تهدئة

---

(١٦) عصابة محمود الايراني في جمجمال.

المنازعات العشائرية الداخلية قليلا، الا انه لم يحل دون وقوع تلك المنازعات.

ذلك لان التطلع الى فرض التجنيد الاجباري، قد اثار مخاوف ابناء العشائر بالشكل الذي فهموا به هذا الموضوع، في حين ان دائرة احصاء النفوس، وهي ضرورة اولية لاغراض التجنيد الاجباري لم تخاطر بالقيام باعمالها الاولى في المناطق العشائرية.

تعود المكائد والمؤامرات التي يقوم بها رجال الدولة في بغداد بالاتفاق مع رؤساء العشائر للاطباق على الوزارات المنافسة لهم، الى الفترة التي اعقبت سنة ١٩٣٢ غير ان سياسة حزب الاخاء، كانت حتى ماقبل الاستقلال، تسير في ذلك الاتجاه المحفوف بالمخاطر.

ذلك ان المنازعات التي وقعت بين الفلاحين واصحاب الاراضي سنة ١٩٢٨ في منطقة الغراف، لم تكن تحتاج الى مثل هذا التوضيح، ومن امثلة ذلك ايضا التمرد الذي قام به شيخ هور الحمار في نفس تلك السنة والذي ادى ايضا الى معاقبته وهربه[١٧] وكانت الغارات العشائرية عبر الحدود التركية من الامور المحتم وقوعها، ولكن كان يستطاع حصرها بصفة محلية. ذلك ان العشائر الكردية، والقرويين المسيحيين الذين هاجروا من تركيا سنة١٩٢٦، قد تم توطينهم في العراق دون حدوث اية مصيبة. كما تمت هجرة اخرى في سنة ١٩٢٨ لم يسبق لها مثيل قبلا، قامت بها عشائر كفري والحويجة الى داخل الحدود الفارسية حول مندلي بحثا عن المراعي، وقد تمت بكل هدوء وبدون اراقة للدماء.

وبعد ثلاث سنوات من ذلك الوقت حدث الاضراب الخطير في الاسواق، والذي قيل ان حزب الاخاء الوطني هو الذي شجع عليه[١٨] ذلك الاضراب الذي لو نجح لادى الى فتح ابواب مدن الفرات، امام غارات العشائر عليها. كما ان كثيرين من شيوخ العشائر كانوا يشعرون او يأملون بان زوال النفوذ البريطاني، سوف يؤدي الى حرية اوسع امامهم مما كانت عليه ايام الحكم التركي.

وبفضل الامن النسبي في الارياف استطاعت اعمال التنقيب عن الاثار ان تمضي قدما مثلما كان عليه الوضع في كثير من المناطق العشائرية. فلقد استطاعت مديرية الاثار بالمتحف المحسن الذي انشأته، ان تؤلف مجموعة من الكنوز التي اكتشفتها في التربة العراقية، والتي كانت من بين اجمل ماعرفه العالم عن التأريخ السومري، والبابلي، والاشوري. وقد ازداد هذا النشاط بالجهد المكرس الذي تعقبه بسلام، وان كان في وسط فهم شامل وشهير لحملات التنقيب المعروفة في «اور» قرب الناصرية وفي «كيش» قرب الحلة، وخرسباد، وقوينجق، ونينوى قرب الموصل، وفي «تركلان» عند كركوك، وطيسفون جنوبي بغداد، والوركاء، ولكش، وتللو و«تل بله» في

(١٧) المقصود بشيخ الحمار هنا «الشيخ سالم الخيون رئيس عشيرة بني اسد».

(١٨) اشارة الى الاضراب ضد قانون رسوم البلديات الذي وقع في شهر تموز سنة ١٩٣١ والذي مرت الاشارة اليه قبلا.

(١٩) اخطأ المؤلف في اسم الموقع فسماه «تل بيلى» والصواب هو «تل بله».

اواسط العراق وفي سامراء والقسم الادنى من ديالى. فهذه التنقيبات الكثيرة كانت مدار عمل الجماعات البريطانية، والامريكية، والالمانية والفرنسية، وكذلك الهيئات العلمية الممثلة محليا بالباحثين من اصحاب الشهرة العالمية، والتي عززتها مديرية الاثار.

وعلى حدة من قيمة هذه النشاطات بالنسبة الى الدراسة العلمية الاختصاصية واغنائها بالمقتنيات العراقية، فان بعثات التنقيب، قد رفعت من قدر العراق، وذلك بما جناه، بصفة مباشرة من حسن النية، وتنقلات السواح. ولقد بذلت جهود لاثارة اهتمام الحكومة في وقف التنقل المحظور بين المناطق الاثرية، وسرقة الاثار، وهي مهمة لم تكن تؤيدها الصحافة الوطنية التي كانت تتحدث باستنكار عن استغلال المواقع الاثرية في العراق من قبل الشركات الاجنبية. كما تم تأسيس مدرسة بريطانية للاثار في العراق في سنة ١٩٢٩، بمثابة ذكرى للمس غرترود بل [٢١]

(٢٠) انشأ هذه المدرسة المنقب الانكليزي الشهير البروفسور «ملوان» وقد امضى ملوان سنوات عديدة ينقب في انقاض مدينة «نمرود» التي تقع جنوبي نينوى. وقد نشر نتائج بحوثه واكتشافاته في كتاب ضخم يقع في جزئين بعنوان «نمرود وبقاياها» وقد بقيت هذه المدرسة الانكليزية للاثار نشطة طيلة سنين عديدة وتولى رئاستها ملوان نفسه خلال الفترة ١٩٤٧ - ١٩٦١ وكان ملوان قد نقب في نينوى اول الامر في سنة ١٩٢١ وكانت ترافقه في عمله ذاك زوجته «اغاتا كريستي» صاحبة المؤلفات القصصية الشهيرة عن الحوادث الغامضة والتي بلغت سبعا وسبعين قصة.

٦ ـ المواصلات والتنمية

تطور طريق بغداد – دمشق الصحراوي لسير وسائل النقل الالية، تطورا وطيدا خلال السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر وسني العشرينيات من القرن الحالي. ذلك ان شركة «نيرن» الشرقية التي توحدت سنة ١٩٢٥، ظلت تمارس نشاطها حتى ظهور اوائل المنافسين لها واخفاقهم في تلك المنافسة، وقد حسنت «نيرن» من خدماتها، وطورت، بصفة خاصة، السيارات التي كانت تستعملها. ولقد دشن الملك فيصل في سنة ١٩٢٧، السيارات العملاقة ذات العجلات الست التي اخذت الشركة تستعملها. ولقد اقيم وسط الصحراء قرب «الرطبة» حصن، ودار استراحة، ومركز للشرطة، ومحطة للاسلكي في نفس تلك السنة.

وفي مناسبة واحدة او مناسبتين لا اكثر، وفي سنة ١٩٢٨ على وجه التخصيص، اعترض المغيرون من البدو طرق نقليات الصحراء. ولقد كان التطور الذي اصاب الطرق ملحوظا، وذلك بالنظر الى اتساع الطلب على استعمال وسائط النقل في الطرق، حيث ارتفع عدد السيارات من بضع عشرات الى ثلاثة وخمسمائة سيارة خاصة، والف سيارة لنقل السلع في سنة ١٩٣٠

على ان نوعية الطرق لم تتحسن بالنسبة الى طولها، على الرغم من الزيادة التي طرأت في شق الطرق بواسطة الاليات، فهذه الطرق لم تكن تؤلف سوى مسافات قصيرة منها في اول الامر، كان يجري تبليطها وتعبيدها، ففي سنة ١٩٣٠ لم يكن يوجد اكثر من مائة وسبعين ميلا تم تحسينها من مجموع اربعة الاف وخمسمائة ميل. ولقد اقيمت عدة جسور فوق سكك الحديد لعبور وسائل النقل عليها، وامتدت الطرق القابلة للمرور حتى الى التلال الكردية.

اقيم جسر فولاذي طوله تسعمائة قدم فوق نهر الفرات عند الفلوجة تعهدت بانشائه شركة «بلفور بيتي» البريطانية، وبعد فترة توقف بسبب الفيضان، اعقبها توقف اخر نتيجة حدوث قضية قانونية بشأن التعهد. وقد كمل بناء الجسر في سنة ١٩٣٢ [١]

كذلك تم التخطيط لاقامة جسور حديدية ثابتة فوق نهر دجلة في كل من بغداد والموصل حيث شرع في سنة ١٩٣٢ ببناء جسر الموصل، كما بدئ في سنة ١٩٢٧ بتنفيذ مشروع مهم لانشاء احد الطرق، وبعد توقف، نتيجة اعمال هندسية ملموسة، كمل بناء هذا الطريق بعد

---

(١) الصواب ان الجسر قد كمل في اوائل سنة ١٩٣٢ وقد تم افتتاحه من قبل فيصل في اليوم الخامس من نيسان من تلك السنة. وفي اوائل الستينات تم انشاء جسر جديد ثابت اضخم واكثر سعة يقع الى الجنوب من الجسر القديم.

خمس سنوات، لكي يربط نظام طرق العراق بين اربيل ونظام طرق اذربيجان الذي ينتهي في «تبريز».وبوشر بتجربة القسم العراقي من هذا «الطريق، بحمولات تجريبية وذلك في سنة ١٩٣١، مرورا بمضيق راوندوز الشهير[٢] في حين كمل القسم الفارسي عند شواطئ بحيرة اورميا. وكانت قوة هذا الطريق في تغيير تجارة تبريز، من «باطوم» او «طربزون» الى بغداد، مشكوكا فيها. وشهد خاتمة هذه الفترة استعمالا متزايدا للطريق المباشر بين بغداد وعمان، واول تجربة لتطوير طريق الحج بين النجف والمدينة المنورة.

لم تستطع البواخر التي تستخدمها شركة لنج والمنافسون المحليون لها، ان تصمد في منافستها للطرق البرية، والجوية، وسكك الحديد. ولهذا لم يعد امام شركة لنج سوى نطاق ضيق لتطور اعمالها، ولذلك باعت السفينتين المجربتين لديهـا، وهما بلوس لنج، وبغداد، في صفة انقاض، في سنة ١٩٢٧، مضافا اليهما السفينة «مجيدية» التي بيعت في سنة ١٩٢٨ ايضا. كانت هناك سفينتان اخريان كانت تمتلكها القوة الجوية البريطانية، هما السفينتان س ١٦ و س ١٤، اللتين حصلت عليهما شركة لنج فاعيد تسميتهما باسم «بلوس لنج»، و«مجيدية» ومن ثم ضمت اليهما السفينة دجلة في ذات السنة في حين توقف السفينة «زبيدة» عن العمل بعد سنة ١٩٢٩

وفي ميناء البصرة كانت الاعمال التي جرت لكري جرف الفاو بصفة مؤقتة في سنة ١٩٢٦، قد انجزت مرة اخرى خلال السنوات ١٩٢٨ – ١٩٣٠، وكان من نتائج كري هذه القناة ان ارتفعت المياه في مسارات السفن الى ثلاثين قدما اثناء المد العالي، بدلا من ثمانية عشر قدما «اذا ما قورن ذلك بعشرين قدما في سنة ١٩٢٠»وبذلك اصبحت الحركة فوق الجرف الداخلي للفاو اكثر يسرا.

كان مجموع ادوات النقل في ميناء البصرة، يتألف كما كان قبلا، من ناقلات النفط التي كانت تتجه نحو «عبادان» وتخرج منها. ولكن شط العرب لم يكن يستعمل بصفة منتظمة الا من قبل شركة خطوط ستريك وشركة الخطوط الهندية والبريطانية، وغيرهما من الشركات البريطانية الاخرى، بالاضافة الى شركة خطوط «هانس» الالمانية، واحدى السفن التابعة للاتحاد السوفياتي، او السويد، التي كانت تمخر النهر مصادفة.

كانت مقرات الميناء تعتبر من اهم المباني القائمة في العراق. وتم تسديد القرض الذي اقترضته ادارة الميناء من شركة النفط الانكليزية الفارسية والبالغ اربعمائة وستين الف باون استرليني لاستخدامه في اعمال الكري، في الوقت ذاته تم الاستمرار على احلال العراقيين محل الموظفين البريطانيين والهنود في الميناء. وبعد ان ضم الميناء الى وزارة المالية، اصبح مديره العقيد «وورد» يشعر بالرخاء بصفة اعتيادية، وذلك بعد ان تأثرت موارد الميناء تأثرا سيئا بالكساد الذي حدث خلال السنوات ١٩٢٩ – ١٩٣٢، ولذلك استمرت ادارة الميناء تدفع الى بريطانيا، القسط

(٢) هو المضيق المعروف باسم «كلي علي» وكلمة «كلي» بالكاف المعجمة – تعني مضيق باللغة الكردية

السنوي، الذي تم تحديده سنة ١٩٢٢، بمثابة نفقات لتملك العراق للميناء، ولكن انشاء مجلس لادارة الميناء كان يجري التطلع اليه فيا بعد، وان ما اشترط بشأنه، في معاهدة سنة ١٩٣٠، لم يتحقق، مع كل ذلك.[٣]

لم يكن تاريخ سكك الحديد العراقية في هذه الفترة ينطوي على اية احداث ذلك لان وضع السكك بين ملكية بريطانيا وادارة الحكومة العراقية، تحت امرة «تينشو» كان مشوبا بالاضطراب، ولكنه كان محتملا من الناحية العملية. ذلك لان تحويل ملكية السكك الى مؤسسة يشترك في عضويتها البريطانيون والعراقيون، مثلما عليه الامر بالنسبة الى ميناء البصرة، قد تم اشتراطه في معاهدة سنة ١٩٣٠ ولقد تعرضت خدمة سبعمائة وخمسين ميلا من خطوط سكك الحديد، وصيانتها الى التعويق، بسبب فرض التشديدات المالية والتي تعود بصفة اعتيادية الى منافسة الطرق البرية لها، وعدم التأكد من امكانية نقل الحجاج، والعقبات الشاذة التي كانت تسببها الفيضانات من امثال ما حدث في سنتي ١٩٢٦ و ١٩٣٠ وكذلك بسبب تدني التجارة خلال الفترة ١٩٢٩ – ١٩٣٢

اعقب ذلك مد خطين اخرين من خطوط سكك كانت لها اهميتها الدولية، اولها هو العمل الذي بوشر به في سنة ١٩٣٠ بشق طريق تسلكه السيارات من كركوك الى محطة السكك الحديدية التركية في نصيبين والذي من شأنه ان ييسر الاتصالات المباشرة بين البصرة واوربا. اما الخط الثاني فهو القيام في سنتي ١٩٣٠ – ١٩٣١ بمسح لانشاء سكة حديد بين بغداد وحيفا، وهو مشروع نال التأييد الشامل، ولكنه لم يتحقق حتى بعد عشرين سنة من ذلك التاريخ[٤]

كان من حسن حظ العراق، انه كان واحدا من بين اكثر الامم المعاصرة التي حققت تطورا سريعا في استعمال خطوطها الجوية. ففي اوائل سنة ١٩٢٧ دشنت اول مصلحة جوية لنقل البريد اسبوعيا بين بغداد والبصرة، وبين بغداد والقاهرة، ومن ثم اعقبتها بعد سنتين من ذلك التاريخ مصلحة نقل البريد جوا بين انكلترا والعراق والهند كانت تقوم بها مؤسسة الخطوط الجوية الامبراطورية الانكليزية.

وفي سنة ١٩٢٧ ذاتها، اقدمت القوة الجوية البريطانية على انشاء اول مطار مدني باشرت بانشائه شركة «يونكرز» الالمانية، لكن هذه المؤسسة اخفقت في التصدي لمؤسسة

---

(٣) استطاعت ادارة الميناء ان تسدد القرض الذي اقترضته من الحكومة البريطانية وقد اعيدت ادارة الميناء الى العراق في اعقاب سنة ١٩٥٤ وتألف مجلس ادارة له من العراقيين بعد ذلك التاريخ ثم تقرر ان يكون مدير الميناء برتبة وزير ولهذا عين عدد من الوزراء في العهد الملكي، مدراء للميناء، كان من بينهم سعيد القزاز ومظفر احمد وسامي فتاح قائد القوة الجوية العراقية.

(٤) كان وقوع الحرب في فلسطين في سنة ١٩٤٨ وقيام دولة اسرائيل في اعقابها مباشرة وقبل وصول القوات العربية الى فلسطين بعدة ايام، ووقوع حيفا في ايدي الصهاينة من الاسباب الرئيسة التي ارغمت العراق على التخلي عن تنفيذ ذلك المشروع الذي لم تقم له قائمة بعد. ويجري العمل الان في مد خط حديدي جديد من كركوك الى حديثة بعد ان كمل مد خط اخر من البصرة الى منطقة عكاشات وربما يوصل هذا الخط الى الاردن في المستقبل.

بغداد طهران. وسرعان ما ظهرت بعد ذلك اولى طائرات خطوط الاتحاد الجوي الفرنسي او «اير فرانس» وكذلك طائرات الخطوط الهولندية الملكية «ك ل م».كان الوضع المركزي للعراق بالنسبة الى المواصلات الجوية، وهو ما عرف في تلك الايام باسم دور مفرق «كلافام» الذي اكده المستر تشرتشل في سنة ١٩٢١، قد كشف بسرعة عن حقيقته. ولذلك بوشر على الفور ببناء مطار عصري خارج بغداد مباشرة في سنة ١٩٣١ فكمل بناؤه بعد سنتين من ذلك التاريخ[٥] ولهذا شرع منذ ذلك الوقت باستخدام اماكن لهبوط الطائرات في البصرة، وفي اور وفي الرطبة، وفي كل مكان اخر.

كان التأثير الذي احدثه فتح الطريق عبر الصحراء عميقا في ازدياد خدمات النقل الجوي للبريد بين الشرق والغرب. وتم استخدام الطريقين حال اعدادهما لنقل الرسائل، في الوقت الذي تم فيه استعمال الطريق البري لنقل الرزم ايضا، في حين شهدت المواصلات مع اوربا والهند ما يشبه الثورة. ففي سنة ١٩٢٩ انضم العراق الى الاتحاد البريدي العالمي. ونظرا للسرعة التي تم بها انشاء خطوط البرق، ووضع نواة للهاتف داخل القطر، اخذ العراق يضاعف من استعمال اللاسلكي. ذلك انه سبق لمحطة اللاسلكي في البصرة. ان اخذت تتصل بصفة مباشرة، مع اوربا. اما محطات اللاسلكي التي انشئت في الرطبة وفي بغداد فقد كانت مساعدة لمحطة البصرة ذاتها.

لم تستطع الحكومة تنمية واستغلال بعض موارد البلاد القديمة او الجديدة. فلم يتم تعيين الاماكن التي توجد المعادن فيها ماعدا النفط. ومع انه تم منح امتياز للبحث عن الذهب في منخفض «قعرة» وسط الصحراء على مقربة من الرطبة[٦] الا ان ذلك لم يؤد الى الكشف عن الذهب هناك.

كذلك لم تجر اية تنمية صناعية ايضا، وان كانت هذه التنمية يجري ذكرها ويخصص لها مكانها في منهاج كل وزارة من الوزارات التي كانت تتألف.وفي سنة ١٩٢٩ تم تشجيع ذلك بالاقدام على وضع تشريع لصالح هذا المشروع.

كان كل ما يعوز العراق هو الرأسمال العراقي، والمواد المعدنية الخام القابلة للاستغلال، والطبقة الماهرة من الصناع، وقوة الشراء المحلية. ولم يبرز المعرض الصناعي الذي اقامته الحكومة

---

(٥) عرف هذا المطار بالمطار المدني اول الامر ثم سمي بمطار المثنى بعد ثورة تموز ١٩٥٨ واخيرا اقتلع من اساسه وجرى توسيعه وتحويله الى مطار حديث اكثر سعة وتنظيما حتى من المطار الدولي، وذلك في سنة ١٩٨٠

(٦) ورد لهذا المنخفض ذكر في كتاب «البادية» للسيد عبد الجبار الراوي، الذي ذكر في الصفحة العاشرة من الطبعة الاولى من كتابه ذلك بقوله «واعتقد ان معدني الذهب والفضة قد وجد اثرهما في منطقة «القعرة» والسيد الراوي خبير بشؤون تلك المنطقة لانه سبق له ان تولى منصب مديرية شرطة البادية في سنة ١٩٣٠

بغداد «سنة ١٩٣٢ سوى الشيء الضئيل من ذلك[٧] ولكن حدث تطور محلي في القوة الكهربية. وفي صناعة الطابوق الميكانيكي، ولم يظهر الا بصفة بطيئة، سوى محلجين للاقطان احدهما بريطاني والاخر عراقي، كما انشئ مصنعان للصوف كان يعالجان الاصواف المحلية الغريبة في الوقت الذي حولت فيه معامل السكائر الصغيرة اذواق المدخنين، كما نجحت صناعة الصابون والدباغة بشكل متباين.

كان انشاء مصنع للسمنت من الاعمال التي تم التخطيط لها منذ زمن بعيد. وفي سنة ١٩٣٢ منح امتياز في هذا المضمار الى ياسين الهاشمي وشركائه. ولغرض الاستفادة من المنتجات العراقية الفائضة. وضعت الخطط لانشاء مصنع للاحذية، ومعمل لتعليب الفواكه، واخر لصنع السكر من التمور، ولكن مجموع هذه المعامل لم يستطع ان يحل سوى الضئيل من المشاكل التي كان القطر يعاني منها.

اما بالنسبة الى صناعة النفط فان الامر كان على خلاف ذلك. فمع ان تصدير النفط لم يبدأ الا في اواخر سنة ١٩٣٤، الا انه كان قد تقرر منذ سنة ١٩٢٧، بان العراق كان يهم بان يحتل مكانته بين بلدان العالم الكبرى في النفط. دشنت حملة حفر الابار التي باشرت بها شركة النفط التركية «الاسم القديم لشركة النفط العراقية) من قبل الملك فيصل في الاحتفال الذي اقيم بهذه المناسبة في شهر نيسان من تلك السنة، وكانت مكافأة هذا التدشين مبكرة، عندما انفجر النفط، وبوفرة استثنائية، في «بابا غرغر» القريب من كركوك في اليوم السابع من شهر تشرين الأول سنة ١٩٢٧[٨]

وفي الوقت الذي كان فيه حفر الابار يسير قدما في كثير من الاماكن وبنجاحات مختلفة، تم التأكد من ابعاد مقر كركوك وادارته، وذلك عن طريق الاختبارات التي دللت بانه كان حقلا للنفط من درجة عالية، مهما برهنت على ذلك الحقول الاخرى التي يمتلكها العراق.

خصصت السنوات الاربع التي اعقبت ذلك، لغرض تهيئة حقل كركوك للانتاج من ناحية، وذلك بالاستمرار في حفر الابار، وممارسة المراقبة العلمية، وتوفير الخدمات الضرورية من امثال المنشآت الانتاجية، وبناء احواض النفط، والمصانع، والمساكن، واعمال التسلية، ومن ناحية اخرى للتفاوض مع الحكومة العراقية بشأن تمديد الفترة المسموح بها لشراء النفط طبقا

---

(٧) عرف هذا المعرض رسميا باسم المعرض الصناعي الزراعي العراقي واقيم في شهر نيسان ١٩٣٢ في البناية التي اشغلتها قبلا وزارة الخارجية والتي كانت تشغلها مديرية اسالة الماء بجانب ما كانت تعرف باسم حديقة المعرض في باب المعظم وكان المطرب محمد عبد الوهاب من بين الذي غنوا في حفلة افتتاح المعرض التي حضرها فيصل نفسه قصيدة الشاعر الكبير احمد شوقي التي نظمها بهذه المناسبة «يا شراعا وراء دجلة يجري».

(٨) يقع موقع «بابا غرغر» شمالي كركوك مباشرة في منطقة تعرف باسم «عرفة» وهو تحريف لاسم «ارابخا» المستوطنة القديمة التي قامت في كركوك في العهد الاشوري. (انظر كتابنا «العراق القديم» الذي ترجمناه عن علماء الاثار السوفيت ونشرته وزارة الثقافة والاعلام في سنة ١٩٧٦ وصدرت طبعته الثانية في سنة ١٩٨٦

للاتفاق المعقود في سنة ١٩٢٥، ذلك لان الكثير من الاراضي في شمال العراق لا يمكن الوصول اليها للبحث عن النفط فيها، او تعديل ذلك الاتفاق، لانه عدا لامناص منه.

انتهت هذه المفاوضات بالاتفاق في شهر اذار سنة ١٩٣١ ووفقا له تنازلت «شركة النفط العراقية» التي عرفت بهذا الاسم في سنة ١٩٢٩، عن كل الاراضي التي تقع غربي نهر دجلة والى الجنوب من خط العرض ٣٣ ولكن ضمن المنطقة المخصصة التي كانت تشمل القسم الشمالي الشرقي من العراق. كانت الشركة تستطيع ان تستثمر ليس قطع الاراضي المختارة حسب، بل المنطقة كلها برمتها.

وعدت الشركة بان تباشر في سنة ١٩٣٥ ببناء خط للانابيب الى شاطئ البحر الابيض المتوسط بطاقة تبلغ ثلاثة ملايين طن على الاقل، [٩] وان يتفرع هذا الخط عند نهر الفرات الى كل من حيفا وطرابلس [١٠]، وان تدفع مبالغ سنوية حددت باربعة الاف باون استرليني ذهب، الى الحكومة العراقية في كل سنة اثناء عمليات الانتاج والحصول على العوائد وما ان تمت مصادقة البرلمان العراقي على هذا الاتفاق الذي كلف استقالة احدى الوزارات [١١] حتى اصبحت الشركة قادرة على وضع الخطط والمباشرة بتنفيذ خط انابيبها المزدوج عبر الصحراء، وانشاء محطات الضخ اللازمة له وسط الصحراء. وذلك عمل تطلب مضاعفة اقصى ما لديها من جهود، وعاملين، ومالية، طيلة السنوات الثلاث التي تلت ذلك. كان انشاء هذا الخط، والاستمرار في عمليات حقول النفط في كركوك، يؤلفان اهم المشاريع التي استطاعت قوة بشرية ان تنهض بها في تاريخ العراق الطويل، ويمكن لهذا العمل ان يصبح من اهم المشاريع النافعة لخزينة العراق وجماهيره.

كمل بنيان شركة النفط العراقية في سنة ١٩٢٩ عندما قبلت بصفة محددة ان تضم الى صفوفها حملة الاسهم الامريكيين المساهمين في شركة «تنمية الشرق الادنى» وعلى اثر ذلك نقل مقر الشركة من «طوز خرماتو» الى كركوك في سنة ١٩٣١ في حين اقيم المركز الخاص بمد خط الانابيب في ميناء حيفا.

كانت المدفوعات السنوية التي تتلقى تركيا عشرة منها طبقا لمعاهدة سنة ١٩٢٦، تتم بالجنيهات الاسترلينية في مصرف انكلترا في لندن، وبسعر تحويل يقوم بين الذهب والجنيه الاسترليني وكانت

---

(٩) بدأ العمل بمد هذا الخط وهو من قطر ١٢ بوصة في اوائل ١٩٣١ من كركوك التي رمز لها بالحرف ك ١ فعبر نهر دجلة في «الفتحة» الى بيجى التي اقيمت فيها المحطة الثانية التي عرفت باسم ك ٢ ومن هناك اخذ سبيله الى حديثة التي سميت محطتها باسم ك ٣ ليعبر الفرات الى الاراضي السورية والاردنية

(١٠) يبدأ الخط في محطة حديثة ك ٣ بالتفرع الى فرعين احدهما يتجه الى الاردن فاراضي فلسطين ينتهي في ميناء حيفا وقد اقيمت على هذا الخط اربع محطات للضخ عرفت باسم محطة هـ ١ (اي ح) ١، و ح ٢ و ح ٣ و ح ٤ اما الفرع الثاني فيصل الى ميناء طرابلس في لبنان واقيمت عليه ثلاث محطات للضخ هي تي ١ (اي ط ١) و ط ٢ و ط ٣.

(١١) هي وزارة ياسين الهاشمي ولكن الاستقالة لم تكن بسبب امتياز النفط ابدا.

المنطقة الشمالية الغربية من العراق، والتي تخلت عنها شركة النفط العراقية سنة ١٩٣١، قد تم تخصيصها في السنة التالية من قبل الحكومة العراقية الى شركة تنمية النفط البريطانية وهي شركة بريطانية تضم اسهما اجنبية ملموسة لحملة الاسهم من الايطاليين والالمان وغيرهم[١٢]

ولقد حاولت هذه الشركة عبثاً، ان تحصل على قطع من الاراضي التي كانت تحت امتياز شركة النفط العراقية منذ سنة ١٩٢٥ ولقد احتجت هذه الشركة لدى عصبة الامم في سنة ١٩٢٩ ضد ابعادها عن تلك الاراضي،وما ان ورثت هذه الشركة نتائج الاختبارات التي قامت بها شركة النفط العراقية في منطقة غربي نهر دجلة، حتى الزمت نفسها بان تدفع سلفا عن الانتاج مبلغ ايجار سنوي مقداره مائة الف باون استرليني ذهب، ومن ثم رفع هذا المبلغ الى مائتي الف باون مقابل الحد الادنى من انتاج النفط وهو مليون طن في السنة الواحدة، وذلك ضمن فترة محددة مقدارها سبع سنوات، وان تخصص للحكومة العراقية، خمس ما تنتجه من النفط الخام بصفة مجانية، بالاضافة الى دفع عوائد بمقدار اربعة شلنات ذهبية عن الطن الواحد. وهكذا مضت هذه الشركة قدما في اختيار الاراضي المخصصة لها، والبحث عن النفط فيها، فالفت لهذا الغرض شركة عاملة هي شركة حقول نفط الموصل.

وفي الوقت ذاته اقدمت شركة النفط الانكليزية الفارسية، بالامتياز الصغير الذي حصلت عليه في «الاراضي المحولة» وفقا لاتفاقه المعدل الذي عقد حول هذه الاراضي في سنة ١٩٢٦، على تأسيس شركة نفط خانقين بمثابة فرع لها، وذلك للانتاج في داخل العراق، حيث كمل المصفى الذي انشأته على نهر «الوند» قرب خانقين في شهر ايار سنة ١٩٢٧ وقد افتتحه الملك فيصل الاول. ومنذ ذلك التاريخ اصبح شمالي العراق واواسطه يمونان باسعار مناسبة، بمنتجات النفط من هذا المصفى، في حين ظل القسم الجنوبي من العراق يسحب النفط من عبادان.

وسرعان ما غطت البلاد نواة لتسهيل توزيع النفط في ارجائها، وقد نهضت بهذا العمل «شركة نفط الرافدين» وهي شركة توزيع بريطانية فارسية، تأسست لهذا الغرض. كان استنباط النفط في منطقة «نفطخانة» محددا، وكان يجري استثماره من قبل شركة نفط خانقين لغرض استعماله لحاجياتها العملية، وكذلك في منطقة «شياه سرخ» والذي تم التخلي عنه في السنوات ١٩٠٤، ١٩١٢، ١٩٢٤ ومن ثم استؤنف العمل فيه سنة ١٩٣٠، غير ان الانتاج برهن بانه غير عملي.

ان الحياة اليومية لكثير من العراقيين قد تتأثر بتقدم الزراعة اكثر مما تتقدم حتى بالصناعة الكبرى، ولم يكن مثل هذا التقدم من الامور المهملة في هذه الفترة، ذلك لان مشاريع الري

---

(١٢) كانت اسهم هذه الشركة على الوجه التالي ٤٦٪ من الاسهم للمجموعة البريطانية، ٣٠٪ للمجموعة الايطالية، ١٢٪ للمجموعة الالمانية الهولندية، ١٢٪ للمجموعة السويسرية الفرنسية وكانت مدة امتياز هذه الشركة خمسا وسبعين سنة تبدأ من يوم ٢٥ ايار سنة ١٩٣٢ وتنتهي في سنة ٢٠٠٧

الواسعة التي دعيت الصحافة والجماهير للاطلاع عليها، لم تكن، في الواقع، من الامور التي يمكن انجازها. ذلك لان اعمال الصيانة، والتحسينات الطفيفة، وكذلك اعمال البحث، كانت هي الموضوع اليومي الذي يشغل الجميع في تلك الايام. ومع كل ذلك فقد تم انجاز بعض الاعمال الكبرى. فلقد بوشر ببناء السدود، وفتح القنوات على الفروع التي تمر بالديوانية والدغارة من نهر الفرات، اضافة الى تحسين توفير المياه لارواء الاراضي التي تزرع مزارع الرز فيها في سوق الشيوخ

كان تصريف مياه المستنقعات في منطقة كربلاء يعتبر في الدرجة الاولى من الاجراءات الخاصة بالصحة العامة. ولقد حل انشاء سد ثابت على نهر ديالى، محل الاعمال التي كانت تجري سنويا لتجديد القنوات التنفيذية، وتوفير كميات المياه اللازمة لقنوات «اللطيفية» وقنوات «الاسكندرية» و«شيشبار» وفي سنة ١٩٣٠ افتتح الملك فيصل بنفسه مشروع تطهير انهار البصرة، واقامة نواظم لها، في حين كانت الاعمال الجارية في شط «البدعة» في ريف المنتفق، من الاعمال ذات القيمة المحلية الكبرى.

ومع هذه الاعمال تواصلت الجهود في ميدان البحوث والمسوحات والتجارب في قضايا تصريف المياه، وازالة الطمى، والجهود الرامية الى صيانة وتحسين سداد الشواطئ التي قد تؤدي الفيضانات فيها الى تخريب اراضي الريف، مثلما فعلت ذلك الفيضانات التي حدثت في سنتي ١٩٢٦، و١٩٢٩، والتي استلزمت ضرورة اكمال المشاريع الخاصة بوقف الفيضانات وتحويل مياهها،وعلى هذا الاساس كان مشروع الحبانية الذي سبق للمهندس البريطاني «وليم ولكوكس» ان تصوره قبل عشرين سنة مضت، قد اعيدت دراسته بشكل وثيق خلال السنوات ١٩٢٧ - ١٩٣٢ وفي نهاية السنة الاخيرة دعي المناقصون للاشتراك في تنفيذه، حيث ظهر بان العمل في هذا المشروع يعتبر من الاعمال الجبارة.

وهناك مشاريع اخرى تم تأجيلها بسبب نقص الاموال، وعدم اكمال المعلومات المطلوبة عنها، ومنها مشروع سدة الكوت على نهر دجلة والتي تمد نهر الغراف بالماء وتسيطر على الاراضي التي تزرع بالرز في العمارة، ومشروع قناة ابي غريب الصغيرة من الضفة اليسرى لنهر الفرات والتي بوشر بها في سنة ١٩٣٢، ومشروع تصريف المياه في «عكركوف» على مقربة من بغداد، ومشروع حوض الماء المقترح انشاؤه في السعدية او على مقربة منها والذي قصد من ورائه المحافظة على مياه نهر ديالى لغرض استعمالها ايام الصيف، وانشاء رأس جديد لمياه شط الحلة، ومشروع شق قناة الاسحاقي التي تأخذ المياه من نهر دجلة قبالة سامراء، وكذلك المباشرة بشق قناة من نهر الفرات الى «الشنافية»

كانت دائرة الري تدار ابتداء من سنة ١٩٢٥ في سنة ١٩٢٨ تحت اشراف السيد بورني، الذي عمل مستشاراً لوزارة للاشغال. ومن ثم انتقل بعد سنة ١٩٢٧ الى مستشارية وزارة الري

والزراعة. ولقد نجح السيد «الارد» في عمله مديرا للري من سنة ١٩٢٨ الى سنة ١٩٣٣ ورئيسا للمهندسين تحت امرة مدير عراقي خلال الفترة ١٩٣٣ ١٩٣٤ كذلك استأنف السيد «ويتلي» عمله مستشاراً لوزارة الاشغال والمواصلات في سنة ١٩٢٩، وظل يحتفظ بهذا المنصب طيلة السنوات الثماني التي اعقبت ذلك التاريخ.

ونظرا للحاجة الى تحسين الزراعة، فان فعاليات كل هذه القنوات، وان كانت قد اتت اكلها، الا ان الجمهور لم يدرك سوى الشيء الضئيل منها. وبدلا من الاستمرار في اعمال البحث والتجارب، بقيت المشاكل الاساسية للاراضي الزراعية من دون حل، وتتألف هذه المشاكل من تلف التربة، والتشبث بالاساليب القديمة في الزراعة، والانواع الغريبة من الحاصلات، وقلة المنتوج، وضعفه، وتعرضه لاخطار الفيضان والجفاف. كان ينبغي ان يعتمد حل مثل هذه المشاكل على العمل المتواصل والواسع الذي تقوم به قوى التعليم في الارياف، وضمان الامن الذي يمكن الاعتماد عليه، وتطبيق الالتزام الصائب للاراضي الزراعية، وانجاز المشاريع الممولة تمويلا صحيحا

وفي الوقت ذاته تطورت حملات مكافحة الجراد في شمالي العراق، بالاشتراك مع البلدان المجاورة، وامكن تحقيق تقدم في المناطق الجبلية التي تزرع فيها التبوغ، ومعالجة اوراقه حسب الاسس العصرية. كذلك تواصل العمل في تجارب صنع الحرير، وان لم يكن قد حقق سوى الضئيل من النجاح. وبقيت زراعة القطن محدودة، وذلك نتيجة انعدام الزراعة الماهرة، وبسبب الحشرات التي تصيب الزرع

واضاف الاقبال على انشاء بساتين واسعة للتمور في جنوبي العراق مشاكل عسيرة ليس بالنسبة الى الزراعة المحسنة حسب، بل والى قضايا التنظيم والتصرف ايضا، والى اندلاع المنازعات المحلية المشوبة بالغضب، بين اصحاب التمور وعمال المكابس. ولذلك فلم تنجح اي من المحاولات التي اجريت لانشاء مزارع عصرية متطورة. فلقد وجد بان المصرف الزراعي المقترح انشاؤه، لايمكن تدشين العمل به، الا بعد ان توفر الاراضي الممنوحة ضمانا لتسديد القروض. كان مشروع شركة اصفر «محدودا»، وتم تعديله لكي يتلاءم مع وسائل التملك والتنمية على يد الشركة التي تمتلك قناة «اللطيفية» جنوبي بغداد حيث انشأت مديرية الري القناة الرئيسة هناك على حساب الشركة، وشرع بالعمل في المنطقة الموعودة والبالغة مساحتها خمسة وستين الف فدان تحت اشراف ادارة اوربية[١٤]

كان التطور الزراعي الرئيس في ذلك الوقت يتمثل في استعمال المضخات التي تنصب على شواطئ الانهار. ولقد بوشر بهذا الاسلوب قبل سنة ١٩١٤ وتواصل بصفة معتدلة خلال الفترة مابين سنة ١٩٢٠ وسنة ١٩٢٥ وما ان تم تشجيع هذا الاسلوب بالامتيازات المالية، حتى بدأ

---

(١٤) مشروع اللطيفية سوف تأتي الاشارة اليه في هامش مقبل

بعد ذلك الوقت يظهر زيادة ملموسة الى درجة اصبح معها يؤلف المظهر الرئيس للاقتصاد العراقي. ولقد ادى الاقبال على نصب المضخات في محافظات بغداد، والديوانية، والعمارة، والكوت، وديالى في نهاية سنة ١٩٣٠، الى ان زاد عدد المضخات في تلك السنة عن الفي مضخة، الامر الذي كان يمثل زيادة مقدارها مليون فدان في الاراضي القابلة للزراعة

كانت هناك قيمة واضحة في اجتذاب رأس المال الى ميدان الزراعة، واستخدام النفط المتوفر باسعار رخيصة، واستغلال الاراضي البكر الواسعة، وتجنب الفرص الحذرة في تبذير مياه الري. غير ان هذا التطور لم يكن خلوا من المتاعب. ذلك لان انجذاب المزارعين الى الاراضي الجديدة، قد ادى الى فصلها عن الاراضي القديمة، بدلا من زيادة عددها، وتحسين الحاصلات نتيجة وجود اراضي جديدة، وضمان اروائها. ولكن ذلك لم يكن يتلاءم مع نقاء الحاصلات وانتاج انواع رفيعة منها لان ادارة المزارع التي حاولها المزارعون من اهل المدن، كانت تنطوي على قصر النظر، فضلا عن انها لم تكن اقتصادية. كما ان انخفاض الاسعار احيانا، في الايام الحرجة، كما حدث ذلك خلال الفترة ١٩٣٠ ١٩٣٣ قد ادى الى الحاق الدمار بالمشروعات الكثيرة التي كان يؤمل نجاحها.

وفضلا عن ذلك فان امثال هذه المشروعات كانت تدار بصفة مشتركة من قبل الرأسمالي المدني، غالبا مايكون احد النواب او من اشراف المدينة. وكان شيخ العشيرة او السركال[١٥] هما اللذان يثيران المصاعب المحيرة بالنسبة الى التزام الاراضي وحقوق الالتزام فيها. ولم تكن لسيطرة العشيرة التقليدية، ولا للحصة التي يطالب بها الرأسمالي القادم من المدينة، اية قاعدة في القانون. **فغالبا ماكانت الاتفاقات التي تعقد بين المزارعين والفلاحين، تدلل على عدم صلاحها للعمل، وانها في ميدان التطبيق لم تكن لتجلب الخير للمزارعين على الدوام. ومع كل ذلك فان هذه الاحوال تشير مرة اخرى الى حاجة العراق الملحة ليس الى تسوية قضايا الاراضي حسب، بل اتباع تفكير جديد في موضوع تملك الاراضي ايضا. ذلك لان ارتباط عدم الاستقرار البارز، وانعدام العدل المتواصل في موضوع التزام الاراضي بمستوى الامن والتقدم في الزراعة والتطور الاجتماعي، وبالطرق المالية، كان هذا الارتباط موجودا منذ امد طويل.**

ذلك ان انشاء دائرة لممتلكات الدولة. وجلب سجلات الاراضي القديمة من اسطنبول، وتأليف لجنة اراضي المنتفق العقيمة في سنة ١٩٢٩، والساعات التي لاتحصى والتي كان المحافظ او القائمقام يصرفانها في حل مشاكل قطع الاراضي الصغيرة الخاضعة للتسوية، كل هذه كانت من الدلائل التي تشير الى ان الحكومة كانت تدرك جيدا كل هذه القضايا والمشاكل الكبرى الناجمة عنها

---

(١٥) كتب المؤلف كلمة «سركال» باللفظ العربي والحروف الانكليزية SIRKAL .

تم في سنة ١٩٢٩ استقدام خبير من المصلحة المصرية، هو «السر داوسن» لدراسة قضايا تسوية الاراضي في العراق، ووضع تقرير شامل عنها. كان التقرير الذي قدمه في سنة ١٩٣٢ يحتوي على تحليل تام لكل المساوئ وكيفية معالجتها. ولقد ادى وضع ذلك التقرير الى انشاء مديرية تسوية الاراضي التابعة لوزارة المالية [١٦] والمصادقة على قانون يعترف بحقوق اللزمة، اي السيطرة الموروثة [١٧] وتعيين ضباط للتسوية، كان من بينهم كل من دتشبورن، واستن، ولیون، وجاردن، وكل هؤلاء كانوا من صنف المفتشين الاداريين، رؤساء للجان التسوية التي كانت تباشر في اعمالها الميدان. ولقد كانت هذه الامور خطوات لها اهميتها الكبرى في تأريخ الاقتصاد العراقي/.

---

(١٦) الحقت مديرية تسوية الاراضي مؤخرا بوزارة العدل وبقيت على هذا الارتباط حتى بعد قيام الحكم الجمهوري حيث تم ربطها قبل الغائها بوزارة الاصلاح الزراعي

(١٧) كتب المؤلف كلمة LAZMA باللفظ العربي

٧ ـ شؤون العراق الخارجية خلال الفترة ١٩٢٧ ـ ١٩٣٢

كانت المملكة العراقية في السنوات الاخيرة من فترة الانتداب البريطاني قادرة بمساعدة حليفها على توسيع علاقاتها الخارجية ، ووضعها في صفة اعتيادية.ولقد تم هذا الامر عن طريق الارتباط بكثير من الاتفاقات الدولية(*) والمعاهدات والاتفاقات التي تعقد بين طرفين ، والتمثيل القنصلي والدبلوماسي وتثبيت الحدود ، وتبادل الزيارات مع الدول.وفي الوقت الذي كان فيه كثير من الامور يمثل تعاونا او مجاملة دولية اعتيادية كان البعض من هذه الامور ، بالنسبة الى دولة توشك ان تتحرر،يشير الى الرغبة في ان ترى الدولة وان تتم رؤيتها في الاوساط العالمية

كانت حساسية المراهقة في قضايا الاعتبار طوع المباهاة العربية.وكان التأكيد على الفردية القومية العربية من الامور الجديدة بالنسبة الى العالم المتمدن.والحقيقة ان التحرك باتجاه الوحدة العربية الى مدى اوسع من نطاق الثقافة والاحساس المجرد ، كان من الامور المفهومة بصفة ضمنية تماما.فمن سنة ١٩٣٠ كانت واجبات وزير الخارجية اسمية وكان رئيس الوزراء يتولى على الدوام اشغال هذا المنصب الى جانب منصب الرئاسة

اصبح منصب الممثل العراقي في لندن ، منصب وزير في سنة ١٩٢٨ وتم ارسال الوزراء المفوضين الى كل من انقرة وطهران في اعقاب اعادة تنظيم العلاقات مع تركيا وبلاد فارس والتي سنأتي على وصفها بايجاز. وكانت هذه التعيينات متبادلة حيث تم تعيين قناصل عموميين في كل من القاهرة سنة ١٩٢٨ ، وبيروت سنة ١٩٣٢ ، وقناصل في عدد من المدن الاخرى في الشرق الاوسط في تلك السنة (١٩٣٢)

وكان الممثلون من الاجانب الذين ظهروا بمثابة دلائل ترحيبية باعتراف بلدانهم بالعراق ، في كل من بغداد والبصرة ابتداء من سنة ١٩٢٦ ومابعدها ، يمثلون حوالي اثنتي عشرة امة فهناك وزراء مفوضون لتركيا ، وبلاد فارس ، وفرنسا ، والمانيا وقناصل من بولونيا ، وايطاليا وبلجيكا ومصر والولايات المتحدة الامريكية ، والسويد ، والنرويج ، واليونان ، وهولندا والدنمارك وجيكوسلوفاكيا ، وهنغاريا والنمسا والافغان.وكان الاتفاق الثلاثي الذي عقد في سنة

(*) تتضمن المعلومات الواردة هنا من سنة ١٩٢٦ الى سنة ١٩٣٩ قضايا الكمارك والمرور عبر الاراضي وقواعد الحرب ، والملاحة البحرية والجوية ، واسالة الماء والقوة الكهربائية ، ودوائر البريد والمواصلات السلكية والصحة والادوية ومكافحة الجراد والاشرطة السينمائية واحوال العمال .

١٩٣١ بين امريكا وبريطانيا والعراق قد ادى الى اعتراف الولايات المتحدة الامريكية بالعراق ، وضمن للمواطنين الامريكيين ذات الامتيازات التي يتمتع بها مواطنو الدول الاعضاء في عصبة الامم،وفي سنة ١٩٣١ عقدت معاهدة غير اعتيادية مع مصر ، وبعقد معاهدة الصداقة مع اليمن في سنتي ١٩٣١ و ١٩٣٢ اصبح الباب مفتوحا امام تبادل الزيارات الرسمية بين البلدين. كذلك بوشر بتبادل الزيارات مع امارة شرقي الاردن التي كانت تخضع للانتداب البريطاني،من قبل الاخوين الحاكمين فيهما ، وذلك قبل وفاة الملك حسين في عمان سنة ١٩٣١ ومابعدها،حيث وقعت معاهدة صداقة بين البلدين في تلك السنة،وفي سنة ١٩٣٢ تم تحديد الحدود وسط الصحراء بصفة ودية ، ابتداء من جبل «طنف» الى حدود نجد

ينبغي التحدث كثيرا عن اقرب الجيران الى العراق. فبالنسبة الى بلاد فارس ، التي قطعتّ شوطا سريعا في التقدم المادي والاداري تحت زعامة دكتاتورها «البهلوي» حصل تقدم حسن في هذه السنوات في الاتصالات المباشرة بالحدود، واعتراف البهلوي الشاه رسميا بمملكة العراق[١] غير ان الاعذار والادعاءات الكافية لاثارة نزاع اخر ، ظلت قائمة.وفي سنة ١٩٢٧ اصبح مستطاعا وضع حد نهائي للجولات السنوية المثيرة للقلق والتي كان يقوم بها «سلار الدولة» عبثا ، وذلك اثناء ارساله في اجازة الى فلسطين[٢]

تم ترتيب النزاع الحاصل حول مياه مندلي عن طريق تأليف لجنة مختلطة. كذلك تمت تسوية قضايا الحدود في قاطع خانقين بوساطة المحافظين المجاورين.اما «سمكو» فقد ظل يختبئ بشكل هادئ داخل الحدود العراقية الى ان هجرها الى تركيا في سنة ١٩٢٨ وقد تم وقف الهجرات التي كانت تقوم بها عشيرة «بشدر»، وتصرفاتها في داخل الاراضي الفارسية وذلك بمبادرة من المندوب السامي البريطاني الذي عمل على عقد لقاءات بين السلطات المتجاورة. وفي منطقة البصرة ثار الاضطراب سنة ١٩٢٧ بين افراد قبيلة «المحيسن» التي كانت تسكن على جانبي الحدود[٣] وقد ثار هذا الاضطراب من النشاط الذي كانت تمارسه دائرة احصاء النفوس

---

(١) اعترفت طهران بالعراق رسمياً في الخامس والعشرين من نيسان سنة ١٩٢٩ وفي شهر نيسان سنة ١٩٣٢ وجه البهلوي دعوة رسمية الى الملك فيصل لزيارة طهران ونشرت مديرية المطبوعات بياناً عن هذه الدعوة في العاشر من نيسان ذاته وقد تحرك مركب الملك فيصل بعد ظهر يوم الجمعة ٢٢ نيسان ١٩٣٢ يصحبه نوري السعيد رئيس الوزراء وناجي السويدي وتوفيق السويدي زير العراق المفوض في طهران ، ووزير طهران المفوض في بغداد بالاضافة الى سندرسن الطبيب الخاص للملك ولقد فصل سندرسن في مذكراته تفاصيل هذه الزيارة في الفصل الثامن (انظر ذلك في الطبعة الثانية من مذكرات سندرسن ص ١٩٥ ومابعدها)

(٢) القت القوات البريطانية القبض على سلار الدولة في منطقة بحر قزوين وكان يحاول اثارة التركمان هناك ، اي الاذربيجانيين ضد طهران طمعا بالاستيلاء على عرش فارس ، وتم ارساله الى فلسطين ، وفرض الاقامة عليه هناك بدلا من حبسه او اعتقاله في اي قطعة قريبة من الحدود الفارسية

(٣) المحيسن فرع من فروع قبيلة كعب التي تقطن الاحواز ، وهو الفرع الذي استقل بزعامة المحمرة وضواحيها منذ ان تولى رئيس هذا الفرع «جابر بن مرداو» الامرة على المحمرة وخلفه فيها ولداه «مزعل» و «خزعل».

العراقية. ذلك ان افراد «المحيسن» الساكنين في العراق ، كانوا قد تشكوا من مصادرة جوازات سفرهم الفارسية ، وبهذا اصبح خطر شمولهم بقانون التجنيد الاجباري العراقي اكثر دنوا ، ولهذا هربوا الى بلاد فارس ، ولحقت بهم الى هناك جماعات اخرى من العشائر تحمل الجنسية العراقية ونظرا للاحتجاجات التي اظهرها موظفو الشاه ازاء تعداد النفوس، فقد اصدرت الحكومة العراقية اوامرها بالكف عن احصاء النفوس بين افراد «المحيسن». لكن عملية الاحصاء قد استؤنفت بصفة انتقامية من قبل القنصل الفارسي المحلي ، الذي راح يعرض الجنسية الفارسية ، على عشرات من العراقيين ، ويحضهم على مقاومة حكومتهم.

امكن صد التظاهرات الساخطة التي حدثت لقاء ذلك بفعل تدخل الشرطة واعتقال رؤساء الحلقات ، ولكن لم تتم اعادة الهدوء الا بعد ان تلقى القنصل الفارسي اوامر من حكومته بالكف عما كان يقوم به من التحبيذ للعراقيين بان يتجنسوا بالجنسية الفارسية •

بقيت حدود شط العرب التقليدية المثيرة للسخط مصدراً من مصادر اثارة الحقد الفارسي واصبحت التدخلات الدبلوماسية البريطانية في سنة ١٩٢٨ فعالة في وقف فرض رسوم اعلى من رسوم الاستيراد الفارسية على السلع القادمة من العراق ، وذلك اجراء كان يهدد بتدمير تجارة المرور. غير ان وجود الاف من الرعايا الفرس في العراق ، وكذلك تخوف اولئك الذين كانوا يبغون التهرب من الالتزامات العراقية ، كل هذا قد جعل هؤلاء الفرس يزعمون بانه متى ما اصبحت الاحوال ملائمة فانهم لن يفشلوا في توفير الاسباب المادية التي لا انقطاع لها ، لاثارة النزاع او الاحتجاج

كان رفض الحكومة الفارسية الاعتراف بالعراق ، وهو مثير للاهانة حقا ، لا يعود في الواقع الى المنازعات الطفيفة والغيرة التي تقع بين المتجاورين بل الى الوضع الشاذ غير الهادئ لهذه المجموعة الكبيرة المهاجرة من بلاد فارس

فلقد كانت هذه المجموعة من الفرس الموجودين في العراق ، تطالب بان يعطي لها وضع ممتاز في العراق ، يكون مساويا للامتيازات التي يتمتع بها رعايا بعض الدول الاوربية. غير ان بلاد فارس لم تكن دولة حامية لجماعة دينية في الامبراطورية العثمانية[٤] ولذلك فلم يكن من المعقول **منح العراقيين في فارس معاملة مماثلة ولايمكن للحكومة العراقية ان تطالب بمنح حقوق خاصة يتمتع بها العراقيون انفسهم وذلك بالنظر الى كثرة عدد المشمولين بهذا الطلب. ولهذا السبب توقفت الحكومة الفارسية عن الاعتراف بدولة العراق الى ان يتم تنفيذ مطاليبها تلك، في حين رفض العراق ان ياخذ بنظر الاعتبار تلك المطاليب، الا بعد ان تعترف حكومة طهران بالعراق،**

---

(٤) كانت حكومة طهران ومازال حتى الان تدعي الزعامة على كل ابناء الشيعة سواء في العراق ام غيره ، وقد كشفت مواقف حكام طهران خلال الحرب العراقية الفارسية بكل جلاء عن هذا الادعاء الذي لايستند الى اساس سوى الاحلام الافيونية التي يعيشها حكام الفرس والعناصر الحاقدة والفئات الجاهلة المنخدعة بأولئك الحكام

ربذلك المعضلة تامة، وبقيت كل المفاوضات الحكومية بين الدولتين رهنا بايدي البريطانيين.

على ان التعديل الذي ادخل خلال سنتي ١٩٢٩ ١٩٣٠ على الاتفاق القضائي العراقي البريطاني في سنة ١٩٢٤ قد هيأ الفرصة لازالة جذور المتاعب. فلقد اثنى المندوب الفارسي في جنيف على المبدأ الذي تضمنه الاتفاق الجديد. الذي كان يحقق المساواة للجميع ، بحيث استطاع الوزير البريطاني المفوض في طهران ان يؤكد لحكومة الشاه بانه ، بالنسبة الى هذه القضية ، كل القضايا الاخرى ، وعلى الاخص حدود شط العرب ، بان الجيدين من الموظفين البريطانيين قادرين ومستعدين لازالة كل اسباب الخلاف. ولقد كان التأثير الذي احدثه هذا التأكيد آنياً، ففي شهر ايار سنة ١٩٢٩ اعترفت الحكومة الفارسية اعترافا تاما بالمملكة العراقية حيث ظهر الوزير الفارسي المفوض في بغداد في اعقاب ذلك الاعتراف مباشرة

كذلك تم التوقيع في شهر اب من تلك السنة على اتفاق مؤقت بين البلدين يتناول المعاملة التفضيلية للامة ، والتمثيل القنصلي والدبلوماسي ، والتجارة والمرور ، حيث جرى في اعقاب ذلك الاتفاق تعيين قناصل عراقيين في بعض المدن الفارسية. وعن طريق التقارب العراقي الفارسي حققت معالجة المصالح المشتركة نجاحا طيبا وكان يجري تعديل الاتفاق الموقت كل سنة ، في ذات الوقت الذي كان يجري فيه ، بصفة بطيئة ، وضع مسودة بعقد معاهدة بين البلدين، حيث امكن السيطرة على حركات. عشائر بشدر المثيرة الاضطراب. فلقد كان الاغوات الاكراد الذين يحاولون الاتجاه عبر الحدود الى هذا البلد او ذاك يجري نقلهم بامان من مناطق الحدود تلك.

كان والي «بشت كوه» واولاده الذين تخلوا عن مبدأ الفوضى قد اصبحوا يعيشون منفين في بغداد، حيث تم جلبهم الى بغداد في سنة ١٩٢٩ ، (٥) حين لفتت الانظار اليهم محاولة ثورية حمقاء قامت في الاراضي الفارسية. وقد وجهت عمليات عسكرية مشتركة شاركت فيها القوات العراقية والفارسية واعطت نتائج طيبة خلال السنتين ١٩٣١ و١٩٣٢، ضد مثيري الاضطراب في هورمان وهما «محمود وزلي» و «جعفر سلطان». وقوبلت حركات الهجرة التي كانت تقوم بها عشائر الجاف من سهول حلبجة وكفري الى الاراضي الفارسية في سنة ١٩٣١ برقابة مشددة من قبل موظفي الشاه العصريين. وادى فرض الضريبة والسيطرة على الاسلحة الى حدوث ضجة استطاعت الحكومة الداخلية بالمفاهمة ان تهدأها.

ويبدو بانه لم يبق اي مصدر مشهود لاثارة الاضطراب، سوى الاستثناء الكبير ونعني به حدود شط العرب فيما تحت البصرة. فلقد قام المندوب السامي البريطاني في اوائل سنة ١٩٣٢ بزيارة الى طهران، ثم اعقبتها زيارة اخرى بكامل صيغها قام بها الملك فيصل ورئيس وزرائه في

---

(٥) هو غلام رضا خان وقد سبق له ان جاء الى بغداد في ١٣ اذار سنة ١٩٢٣ مع ٣٦٠ نفرا من جماعته لزيارة العتبات المقدسة في النجف وكربلاء والكاظمية وسامراء فاحتفت الحكومة العراقية بقدمه واكرمت وفادته. وغلام رضا هذا هو اخ سلار الدولة الذي ثار على حكومة طهران.

شهر نيسان من تلك السنة.

غدت العلاقات بين العراق والجمهورية التركية اكثر ودا مما كان متوقعاً. ذلك لان اعادة الاتصالات الاجتماعية وأن كانت ضعيفة الآن، الا انها قد اعادت الكثير من العلاقات بين البلدين، واوجدت اساساً اعتياديا مشتركا. ولو لم يتم القبول بصفة مخلصة. بالتسوية التي اجريت في سنة ١٩٢٦ (٦) لحدث تصادم جوهري في المصالح•كانت اعادة الوضع الاعتيادي للتجارة عبر الحدود، والمواصلات، مع كل ذلك عملية بطيئة بالنظر الى الحالة المضطربة في شرقي تركيا.

عقدت لجنة الحدود القائمة اول اجتماع لها في خريف سنة ١٩٢٦، ومن ثم بقيت تجتمع مرة كل ستة اشهر في تفاهم واسع لعدة سنوات. وكانت الاجتماعات الاخيرة متقطعة، وذلك لانه لم يعد يوجد سوى الشيء الضئيل الذي يتطلب العمل. ولقد باشرت لجنة مشتركة لتخطيط الحدود عملها تحت رئاسة احد السويديين، طيلة ستة اشهر من سنة ١٩٢٧، وقد حققت هذه اللجنة نتائج مقبولة بما اعدته من تخطيط بارع، وبما ثبتته من مئات اعمدة الحدود الكونكريتية، كما تم تبادل الوزراء المفوضين بين بغداد وانقرة، وكان صبيح نشأت ذلك الرجل اللطيف من اوائل هؤلاء الوزراء والذي توفي في العاصمة التركية (٧)

على ان الغارات التي كانت تقوم بها العشائر الكردية عبر الحدود، والمؤامرات التي يحيكها (سمكو) الذي ينشد الأمن والسائرون على خطه، من امثال اولئك الافراد الذين دفعتهم العنصرية الكردية الى مساندة الشيخ محمود، وكذلك دخول العشائر التركية ملتجئة الى المناطق العراقية الضيقة التي لايمكن الوصول اليها، نقول ان ايا من هذه القضايا لم تؤثر في حسن النوايا القائمة بين العراقيين والاتراك، كما انها لم تعكر صفو الامن في اواسط كردستان.

قام الملك وبعض وزرائه بزيارة للعاصمة التركية زيارة رسمية تصحبه فيها قوته الجوية في شهر تموز سنة ١٩٣١ (٨) وفي اوائل سنة١٩٣٢ اعاد نوري السعيد الزيارة للعاصمة التركية بقصد التوقيع على المعاهدات العراقية التركية الخاصة بقضايا الاقامة، والمتاجرة، وتسليم الفارين. كما تقبل الامير زيد منصب وزير العراق المفوض في تركيا ومكث في منصبه هذا بضع سنوات.

كانت العلاقات العراقية السورية تقوم على مستويين هما مستوى الاقطار العربية المتجاورة ومستوى العلاقات بين الانتدابين الفرنسي والبريطاني.ولقد تحسنت هذه العلاقات الاخيرة منذ قيام التوترات السيئة التي وقعت خلال الفترة مابين سنة ١٩١٨ وسنة ١٩٢١ وذلك لان المصالح

(٦) يقصد بها تسوية قضية ولاية الموصل

(٧) توفي صبيح نشأت في اسطنبول في اليوم التاسع عشر من شهر تموز سنة ١٩٢٩

(٨) كان الملك فيصل قد تلقى دعوة رسمية من رئيس الجمهورية التركية لزيارة انقرة وفي اليوم الرابع من تموز ١٩٣١ غادر فيصل بغداد على طائرة خاصة رافقتها اربع طائرات من القوة الجوية العراقية وقد هبط في حلب حيث استقبل الوفد التركي الذي وصل الى هناك للترحيب بمقدمه الى تركيا

المشتركة بالنسبة الى عربات نقل البريد وسلامة الصحراء، وتبادل المجرمين، والنقل والمرور، ومكافحة الجراد كل هذه الامور والعلاقات تعاظمت وان بقيت الخلافات السياسية الفرنسية البريطانية ازاء حماية هذه الامور ظاهرة للعيان

لقد تميزت حياة الصحراء بالمصادمات الاعتيادية بين قبيلة طي ويزيدية جبل سنجار وقبيلة شمر التي حوصرت في سنة ١٩٢٧ بالاضافة الى المصادمات بين الاقسام المتناحرة من قبيلة شمر ذاتها،من امثال التصادم بين عجيل الباور ودهام ومهاجمتهم، تجنبا لدفع الضريبة المفروضة عليهم[٩] غير ان اجتماعا ناجحا تم عقده بين ممثلي العشائر وممثلي الحكومة في مدينة «عقرة» في ربيع سنة ١٩٢٧ حيث تم الاتفاق في ذلك الأجتماع على اسقاط العشرات من الادعاءات الواسعة وقد تكررت مثل هذه الاجتماعات في سنة ١٩٣١ وبعدها وتم تجاهل الحركات الجماعية التي كانت تقوم بها الاقسام الكبرى من قبيلة «عنزة» بصفة نهائية لاستعادة سيطرتها الرسمية على الحدود

وفي سنة ١٩٢٩ توافدت الاقسام الكبرى من عشائر «الرولة» و «السبعة»[١٠] على الاراضي العراقية، لغرض الرعي والمرور عبر الطريق الذي تسلكه السيارات في الصحراء. غير ان القتال العشائري الذي كانت قبيلة «العمارات»[١١] العراقية مستعدة له، قد تم تجنبه وذلك بفعل انسحابها. وفي سنة ١٩٣١ حدث تقدم في المحادثات التي اجريت في باريس حول قضايا الحدود التي ما زالت معلقة، وسارت تلك المحادثات قدما، حيث قدم طلب الى مجلس عصبة الامم لان تقوم بتعيين لجنة تشرع بتخطيط الحدود على الاساس الذي تم التوصل اليه في سنة ١٩٢١ وقد عين رئيس سويدي، وعضوان احدهما اسباني والاخر سويدي ايضا لهذه المهمة. وكان اول هؤلاء الاعضاء وهو العقيد «دي رنييه» قد فقد حياته في حادث سقوط طائرة عندما كان في طريقه الى الشرق، حيث حل محله شخص اخر من بلاده، هو العقيد «اصلان»

استطاعت اللجنة ان تنجز مهمتها في شهر ايار ١٩٣٢، وان تقدم توصياتها الى مجلس

(٩) كان عجيل الباور بن عبد العزيز بن فرحان باشا من فرع الدرة من فروع شمر اما دهام فهو ابن الهادي بن العاصي من فرع الجزعة . وقد تولى امارة شمر في سوريا عندما كان ابوه الهادي على قيد الحياة (عبد الجبار الراوي البادية ص ١٢٨ طبعة ثانية

(١٠) عشائر الرولة تنتسب الى مسلم بن عناز مؤسس قبيلة عنزة وتقطن الاراضي السورية على مقربة من مدينة دمشق وهي بطن من عشائر الجلاس.

اما عشيرة السبعة فهي فرع من قبيلة «ضنى عبيده» التي تنتسب الى «بشر بن عناز» رئيس قبيلة عنزة، وتتألف السبعة من بطنين كبيرين هما البطينات والعبرة وهي تسكن الاراضي السورية.

(١١) العمارات تنتسب الى بشر بن عناز ايضا تتألف من بطنين هما الجبل والدهامشة وينقسم بطن الجبل الى ثلاثة عشائر حبلان وصقور، وسلكه في حين يتألف بطن الدهامشة من خمسة افخاذ (البادية ص ١١٤ - ١١٦ عبد الجبار الراوي الطبعة الثانية ١٩٤٩).

العصبة والتي لم تتم المصادقة عليها الا في شهر ايلول من تلك السنة حين قبلت العصبة بها. كانت تلك التوصيات تنطوي على ضم منطقة سنجار برمتها الى العراق، وان تعوض سوريا عن اية إرض تسلخ منها في اي مكان. واستطاعت لجنة تخطيط الحدود اللاحقة، والتي رأسها نفس رئيس اللجنة السابقة، ان تنجز عملها في سنة ١٩٣٣

واصبح معروفاً انه بالنسبة الى المعاملات التي تجري بشأن الحدود فيا بعد، ومثلما كان عليه الامر سابقا، ان يقوم العراقيون بالدفاع عن مصالح العشائر العراقية، في حين يدافع الفرنسيون عن العشائر السورية.

كانت الحوادث المؤسفة التي وقعت على الحدود العراقية النجدية خلال السنوات ١٩٢٧ – ١٩٢٩، تصور بصفة نموذجية، اثار الانفة المنطوية على المجابهة والبدائية، والمتطرفة التي يتسم بها البدو الذين يعيشون في الاقسام الشمالية الشرقية من الجزيرة العربية التي توجد فيها حدود اقليمية، تلك الاقسام التي لا يستطيعون الاقامة فيها، ولا الاستيلاء عليها، لان مثل هذا الوضع يعارض احدى العادات التي تجري الاشارة اليها بصفة عشائرية بمحاولة من المبدأ القومي للاراضي الخاصة بهم، ذلك المبدأ الذي كانوا يقاومونه بفردية متوحشة، وبالاسلحة الحديثة التي كانت تثير سخطهم باعتبارها شرا من الشرور، وظلما صارخا.

وبتغلغل المفاهيم الغربية في الجزيرة العربية، واقامة حكومة مركزية موطدة الاركان نسبيا، وتعود البدو على المدافع والطائرات، لم تعد ذات الظروف والاحوال تقع بشكل متساو، بل ربما انها كانت في الواقع قد غادرت العالم بصفة ابدية. كان التأثير الحسن الذي احدثه اتفاق «بحرة» قد استمر لمدة سنتين. ومع ان اقامة حدود كانت المحاكم تتطلع اليها في ذلك الاتفاق قد تأخرت عدة شهور، الا انه تمت المحافظة على السلام في بوادي جنوبي غربي اواني الفرات، وفي الكويت. غير ان هذه الاساليب ما لبثت ان تعرضت للهجوم. ذلك لان قبيلة «المطير» التي كان يتزعمها الشرير فيصل بن الدويش الذي سبق له ان خضع لسيده[١٢] قامت في شهر تشرين الثاني سنة ١٩٢٧ بمهاجمة حصن «البصية»[١٣] العراقي، الذي يقع على بعد خمسة وسبعين ميلا داخل الحدود العراقية. وفي هذا الحصن الصغير المبنى من الطين وكذلك حصن «ابو غار» على بعد تسعين ميلا الى الداخل، كان يقيم فوج من القوات العراقية في كل واحد منهما.

ولقد قتل العشرات على الاقل من العراقيين، بايدي افراد المطير الذي اقتنعوا بانها هذين الحصنين كانا مدعاة للاستفزاز. وجه احتجاج شديد الى الرياض، وتم تعقب افراد المطير بالرشاشات المنطلقة من طائرات القوة الجوية البريطانية، غير انهم ما لبثوا ان تجمعوا ثانية

(١٢) المقصود به عبد العزيز السعود سلطان نجدو الحجاز في ذلك الوقت.

(١٣) البصية موقع على ايمن الوادي المعروف بهذا الاسم وفيها ابار ذات مياه عذبة والمسافة بينها وبين نقرة السلمان مائتا كيلومتر والطريق بين البصية والزبير يبلغ مائة وخمسة وتسعين كيلو مترا.

وعاودوا الكرة في التغلغل الى داخل الاراضي العراقية فقتلوا الرعاة الذين وجدوهم على شواطيء النهر هم واطفالهم في «الجميمة»[١٤] وذلك في اواسط شهر كانون الاول من تلك السنة.
كان تأثير هذه الاعتداءات في العشائر العراقية وكذلك في قبيلة «عنزة» عميقا ومحزنا. كما ان ابن السعود، لم يعترف في المراسلات التي جرت معه في اعقاب تلك الاعتداءات، بشرعية وجود الحصون العراقية حتى وان لم تكن مثل تلك الغارات قد حدثت فعلا وفقا لاوامره، او خلافاً لها. ولهذا راحت طائرات القوة الجوية البريطانية تحلق باستمرار فوق المخيمات النجدية.
قامت الحكومة العراقية بوضع ـ ' ات في مواقع «السلمان» و «شبيجة» الصحراوية[١٥] ولكن «المطير» هاجمت العشائر العراقية والكويتية مرة اخرى في جنوب البصرة وجنوبها الغربي في شهر شباط سنة ١٩٢٨ اصبح ابن السعود موزعا بين السخط على رعاياه الذين لم يتم ضبطهم، وبين الغضب من معاقبتهم باسلحة اجنبية. وما ان نجح في منع تكرار الغارات الكبرى حتى حضر اجتماعا مع المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي، واظهر نفسه بمظهر المتعنت ازاء الحصون المشيدة في الصحراء، وذلك عندما زاره في جدة كل من كورنوايس والسر غلبرت كلايتون في شهر ايار سنة ١٩٢٨

استؤنفت هذه المحادثات العقيمة في شهر آب بعد موسم الحج والتي حضرها هذه المرة السيد توفيق السويدي ممثلا عن الحكومة العراقية. غير ان هذه المحادثات قد اخفقت مرة اخرى، وبقيت الحدود تعيش تحت خطر الارهاب النجدي. وفي شهر كانون الثاني سنة ١٩٢٩ وقعت غارة اخرى قامت بها عشيرة العجمان[١٧] فقتلت عشرين عراقياً في الاراضي الكويتية، في الوقت الذي هاجمت فيه هذه العشيرة قافلة سيارات فيها بعض الامريكيين المسافرين فقتلت واحداً من ركابها هو الدكتور «بلكرات» احد المبشرين الامريكيين، واعقب ذلك وقوع هجوم اشد على الاراضي العراقية قامت به قبيلة «عتيبة»[١٨] وارتكاب اعمال سلب جماعية وقتل اكثر من سبعين شخصا. ثم جاءت في اعقاب ذلك غارات اخرى قامت بها «المطير» و «العجمان» وادت الى وقوع خسائر فادحة في الارواح لدى العشائر العراقية «بني مالك» والاراضي الكويتية.

(١٤) الجميمة. تقع على طريق الحج القديم والذي يصل الى «حائل» وهذا الطريق الذي بنته زبيدة زوج الخليفة هارون الرشيد من النجف حيث يبلغ الطريق من النجف الى الجميمة مسافة ثلثمائة وتسعة واربعين كيلو مترا.

(١٥) «شبجة او شبيكة تقع على طريق الحج القديم وتبعد عن النجف مسافة مائة وخمسة وسبعين كيلو مترا وتكثر ابار المياه في منطقة الشبكة وهي عذبة في الغالب وتعتمد كثرة الماء وقلته على سقوط الامطار.

(١٧) العجمان من العشائر النجدية المشهورة وتنقسم الى خمسة اقسام وكانت منازلهم المعتادة بين الاحساء والكويت وكان رئيسهم في هذه الفترة هو ابن «حثلين» وكانت تعد حوالي الفين ومائتي بيت في ذلك الوقت.

(١٨) «عتيبة» من القبائل الشهيرة في الحجاز ونجد الجنوبية وكانت تعد حوالي سبعة الاف بيت وكان يرأسها حتى اوائل الثلاثين «ابن حميد» وتنقسم الى قسمين هما «بركا» و «روكا» ومن عتيبة حكام البحرين الحاليين.

على ان العمليات التي قامت بها القوة الجوية البريطانية، وصمود حاميات الحصون العراقية في «السلمان» و «البصية» و «شبيجة» و «النخيب»[١٩] استطاعت ان تنقذ جنوب غربي العراق، خلال هذه الاسابيع من ذات الهجمات التي يقوم بها الوهابيون المتعطشون للدماء، والذين كانوا يهربون الى امارة الكويت.

اكد حاكم نجد مرة اخرى ومن دون شك فيما ادعاه بان تلك الغارات التي وقعت لم يكن مرخصا بها ، واخيرا وجه اسلحته ضد رجاله المتمردين عليه وفي شهر اذار سنة ١٩٢٩ الحقت قواته هزيمة نكراء بابن الدويش وانتهت تلك السنة بالتحام وقع بين قوات ابن سعود والقوات الوهابية المتمردة، في حزب اهلية، استطاعت فيها قوات ابن سعود، ان تبسط سيطرتها بصفة منعزلة تدريجا ، وفي النهاية ان تحطم القبائل المتمردة ، المطير ، والعجمان ، وعتيبة

وقد دلل ذلك الاجراء على وضع نهاية لحركة التطرف والتمرد بين العشائر السعودية الشمالية الشرقية التي سبق لها ان التفت حول ملكها ، وكلفت العراق خسائر وفيرة في الارواح والاموال

اصبح السبيل الان مفتوحا امام توطيد علاقات افضل من تلك العلاقات، التي وعد بها في اجتماع «بحة»، وفي شهر كانون الثاني سنة ١٩٣٠ التقى ابن السعود بالمقيم البريطاني وحضر مؤتمرا مع ملك العراق على ظهر الباخرة البريطانية «لوبن» في مياه الخليج العربي[٢٠]

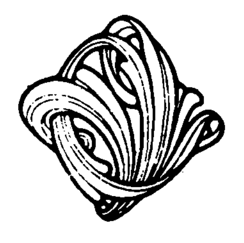
كان اللقاء ناجحا وقد تغلبت المجاملة وحسن المشاعر على الانقسامات الثقافية والعائلية العميقة فقد تقرر ان تتم تسوية قضية الحصون العراقية المعقدة في مفاوضات تجري فيما بعد ، او عن طريق التحكيم ، وان توضع مسودة لمعاهدة بين البلدين ، وان يتم التعويض عن الدمار واراقة الدماء التي اقترفها العصاة الوهابيون والواقع انه تم دفع ربع المبلغ الذي تم الاتفاق عليه بصفة قطعية ومقداره ثلاثون الف باون.

لم تكن جميع الاطراف التي انسحبت بصفة ودية ، غير مخلصة للاتفاق كليا ، ولذلك توقفت الغارات. وفي شهر نيسان ١٩٣١ قام رئيس الوزراء ، نوري السعيد ، يرافقه طه

(١٩) النخيب من المواقع المشهورة على طريق الحج البري ويبعد عن مدينة كربلاء زهاء مئتين واثنين وثلاثين كيلو مترا وهو يقع على الجانب الايمن من وادي الابيض ويصل الطريق من النخيب الى «[illegible]» حيث يدخل الاراضي النجدية ومنه الى الحزول فحائل

(٢٠) هو المؤتمر الذي عرف باسم مؤتمر «العقير» والذي بدأ في اليوم الحادي والعشرين من شهر شباط سنة ١٩٣٠ وحضره ناجي السويدي رئيس الوزراء ، ورستم حيدر [illegible] بالاضافة الى كورنواليس مستشار وزارة الداخلية العراقية ، وغلوب باشا المفتش الاداري لمنطقة الجنوب ، والدكتور سندرسن ، والمندوب السامي همفريز ، في حين وصل ابن السعود وحاشيته على ظهر الباخرة البريطانية «بارتك ستوارت» (انظر تفاصيل المؤتمر في [illegible] الطبعة الثالثة ١٩٨١ ص ١٤٩ ومابعدها)

الهاشمي شقيق ياسين الهاشمي بزيارة مكة المكرمة للتوقيع على معاهدة الصداقة وتسليم المجرمين بين البلدين وقد رد على هذه الزيارة بزيارة قام بها سنة ١٩٣٢ الامير فيصل الولد الثاني لحاكم الجزيرة العربية وفي خريف تلك السنة التي انعم فيها على عبد العزيز بن السعود بوسام عراقي ، اعلن نفسه ملكا ، واعاد تسمية اراضيه نجد والاحساء والحجاز بصفة مشتركة باسم المملكة العربية السعودية



الفهرست

من ضباط الحملة العسكرية في العراق اثناء الحرب العالمية الاولى تولى عدة مناصب استشارية في الحكومة العراقية ثم انصرف الى التاريخ فاخرج اول دراسة عن تاريخ العراق الحديث بعنوان اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث وهذا الكتاب الذي يعتبر المتمم للكتاب الاول وله كتاب عن حكومة الملك فيصل في سوريا وكتاب عن استثمار النفط في الشرق الاوسط ، وكتاب آخر عن العراق نشره بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ . تولى في سنة ١٩٥٠ منصب المدير الاداري لشركات النفط في العراق



خريج كلية الحقوق ١٩٤٣ مارس العمل في الصحافة منذ سنة ١٩٣٦ ومارس المحاماة الى جانب ذلك اخر وظيفة له المترجم الاول في وكالة الانباء العراقية ورئاسة تحرير الوقائع العراقية بالانكليزية سنة ١٩٦٩ الى سنة ١٩٧٢ احيل على التقاعد في ايلول ١٩٧٢ وانصرف الى الترجمة والتاليف بلغ عدد المطبوع من كتبه المؤلفة والمترجمة خمسة وستين كتابا معظمها تخص تاريخ العراق الحديث والخليج العربي . من الكتب الجاهزة للطبع دور العسكرية في السياسة انقلاب بكر صدقي وثورة ايار ١٩٤١ نوري السعيد ، اسمهان والمخابرات البريطانية ، مصرع الملك غازي وغيرها

التصميم [illegible]

السعر : خمسة دنانير

نشر وتوزيع [illegible] شارع السعدون بغداد هاتف ٨٨٨٥١٨٨ - ٧١٩٨١٢٢